أفكار وشخصية

وليام چيمس



تأليف

رالف بارتون بيري

ترجمة

الدكتور محمد على العريان

أفكار وشخصية

وليام جيمس

نشر هذا الكتاب بالاشتراك
مـــع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القــاهرة ــ نيويورك
مايو سنة ١٩٦٥

إهــــــداء ٢٠٠٧
الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني
جمهورية مصر العربية

أفكار وشخصية

وليام چيمس

تأليف

رالف بارتون بيري

ترجمة

الدكتور محمد علي العريان

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف

رالف بارتون پيرى :ولد عام ١٨٧٦ فى فرمونت . تعلم فى جامعة پرنستون وحصل على الليسانس عام ١٨٩٦ ، والدكتوراه عام ١٨٩٩ من جامعة هارفارد . نال درجات شرف من جامعات كلارك وكولبى وهارڤارد وبنسلفانيا .

بدأ پيرى حياته العملية كمعلم فلسفة فى جامعة وليامز . وفى عام ١٩١٣ عين أستاذا للفلسفة فى جامعة هارڤارد .

وقد قام پيرى بتأليف كتاب عن حياة وليام چيمس بوصفه صديقه وتلميذه . ونال الكتاب جائزة بوليتزر Pulitzer Prize كما ألف « ميادين القيم » . وهو الآن عميد الفلاسفة الامريكيين ومن أوائل أنصار الحركة التحررية فى عصرنا هذا .

المترجم

الدكتور محمد على العريان : أستاذ التربية بكلية المعلمين بالقاهرة، وخبير اليونسكو المنتدب بمعهد تدريب المعلمين بالخرطوم . حصل على ليسانس الآداب ، قسم اللغة الانجليزية ، بجامعة القاهرة مع درجة الامتياز سنة ١٩٣٩ . ثم حصل على دبلوم معهد التربية العالى للمعلمين بالقاهرة مع مرتبة الشرف سنة ١٩٤٠ . درس فى أكسفورد واكستر بانجلترا وحصل على درجة الماجستير فى التربية وعلم النفس من جامعة كولومبيا سنة ١٩٥٠ ، ودرجة الدكتوراه فى التربية من الجامعة نفسها سنة ١٩٥٢ . ومنحته هذه الجامعة ميدالية الخدمة العلمية الممتازة سنة ١٩٥٤ .

شغل عدة مناصب هامة ، فعمل مديرا لمكتب الاستعلامات السياحية بنيويورك ، ثم عمل بقسم الاذاعة والترجمة بمقر الأمم المتحدة بنيويورك،

كذلك عمـــل بدار التحـــرير للطبـع والنشر . واختير عضـــوا فى لجنة المجمع اللغـوى لمصطلحات التربيـــة وعلم النفس . ترجم كتاب « النفس المنبثقة » وكتـــاب « نظرات فى الثقـــافة » و « لماذا نعلم ؟ » و « أحاديث للمعلمين والمتعلمين » و « قاموس چون ديوى للتربيـــة » و « عندما يواجه المعلمون أنفسهم » و « النشـــــاط المدرسى فى المرحلة الثانوية » و « البراجماتية » و « نظرات فى التعليم الثانوى » وكلهـــا من الكتب التى أصدرتها هذه المؤسسة .

مصمم الغلاف

مدحت سعد :بكالوريوس فنون جميلة (قسم الزخرفة) ، يعمـــل فى القسم الفنى للاعلان بالمؤسسة العامة للطباعة والأنبـــاء والنشر . صمم عدة أغلفة للمؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة



تمهيد

لقد رسخت وشاعت حياة وليام چيمس — فى جذورها وفروعها على السواء .

ولقد تغذت هذه الحياة من موارد كثيرة ، ونمت فى اتجاهات عديدة، وحملت أنواعا عظيمة من الثمار . حياة نالت أوفر قسط من الاخصاب، وآتت أكلها انتاجا وابتكارا وثمرا جنيا .

كان چيمس يتمتع بعبقرية فذة من شعائر الصداقة والوداد ، الأمر الذى مكنه من أن يعقد أواصر الصلات الوثيقة مع دائرة واسعة من معاصريه ليس فقط من أترابه ولداته ، ولكن أيضا ممن يصغرونه ويكبرونه — شيبا وشبانا . لقد كان موهوبا فى فن التعبير عن الذات ، وكانت عنده فى نفس الوقت المقدرة على استدرار التعبير الذاتى من الآخرين — لطيف المدخل الى النفوس ، لدرجة أن صداقاته كانت على درجة كبيرة من التداور ، ومراسلاته غزيرة واسعة الدائرة .

ولقد وسعت العادات التى اكتسبها من أسفاره ومعرفته باللغات ، من مدى مؤالفته ومؤانسته ولطف عشرته ، وجعلت منه سبيلا هاما يحمل فى مجراه أمريكا الى أوروبا ، وأوروبا الى أمريكا .

وصفوة القول أن حياته وعقله التحما التحاما وثيقا فى نسيج أحداث عصره ، واكتملت لهما صفات الاندغام الاجتماعى والنضج الانسانى ، بحيث ان سجل حياته وعقله لابد أن يكون الى حد ما تاريخا لزمانه .

وبينا نجد أنه من الصحيح أن چيمس وفلسفته نشآ ابان القرن التاسع عشر ، والتحما فى القرن العشرين ، الا أن مثل هذا التخصص التاريخى عزو مضلل .

لقد كان چيمس وفيا لأصوله وجذوره ؛ حفيا بأسلافه ، كما يجب أن يكون الرجل . بيد أن چيمس لم يكن من ذلك الطراز الذى يتقيد احساسه بالولاء للماضى ، بل كان آخر من يربط نفسه بحبال ماضى قومه ، بصفة خاصة . لذلك لم يكن منحاه الفلسفى فى القرن العشرين

استخراجا أو حاصلا لمقدمات أو فروض منطقيـــة وضعت فى القــرن السابق . لقد كان يسافر متخففا من كثير من أحمـال الماضى ، وكانت رحلته تتميز بالمرونة ، ولم يكن يتبع دليل سفر ثابتا جامدا لا يحيد عن مسيره ، وانما كان يمضى الى غايته حرا متحررا ، مكرسا نفســه تماما لما كان يعتقد انه الحق فى اللحظة الراهنة من تفكيره آنذاك .

لقد كان چيمس عصريا ، فى المعنى الذى ينطبق على كل العصـــور والأزمنة .

ومن ثم فان چيمس فيلسوف القرن العشرين ، مثلما هو فيلسوف القرن التاسع عشر ، وان كثيرا من تفكيره ومن شخصيته نفسه ، يبدو أنهما شكلا فى قالب اليوم « وموضة » العصر .

ولو أن چيمس كان حيا يسعى بيننا الآن ـ لكان ـ كما كان دائما ـ يتطلع الى المستقبل .

تصـــدير

نشر كتاب « أفكار وشخصية وليــام چيمس » فى سنة ١٩٣٥ ، فى مجلدين كبيرين بقصد خدمة غرض مزدوج ، فيكون بمثابة سجل منظم لتطور حياة « وليام چيمس » ، وفى نفس الوقت مستودع لمختــارات من آثار چيمس الادبية التى لم تنشر .

على أن هذا الموجز الراهن لا يحل محل الأصل بشكل يبطله أو يلغيه، وانما يجعل لبه وجوهره وزبدته فى متناول القارىء العام .

فلقد تم اعداد هذا السفر المختصر ، وقد وضع جامعه نصب عينيه ليس فقط عنصرى المناسبة والايجاز ، ولكن توخىأيضا بساطة العرض.

ولقد حذف من هذا الكتاب جزء من مادة الكتاب الأصلى ، وكذلك بعض المخطوطات ، ولقد عرضت أفكار چيمس على نحو لا يتطلب الماما سابقا بالقضايا الفنية للفلسفة أو المشكلات الاصطلاحية لعلم النفس .

بيد أن هذا السفر — على غرار المؤلف الأصلى الكبير — يتيح لچيمس أن يفصح عن نفسه بوساطة رسائله وكتاباته .

وهنا — بين دفتى هذا الكتاب — تظهر لأول مرة ثلاث رســـائل لچيمس لم تكتشف الا حديثا .

ولقد ضمنت فى ديباجة الكتاب الأصلى المطول اعترافى بالجميـــل لقاء المعونة التى تلقيتها فى اعداد هذا السفر من أسرة چيمس ، ويطيب لى على الخصـــوص أن أشكر هنرى چيمس الذى يسر لى الاطلاع على ذلك الكنز الثمين من أوراق چيمس الخاصة ، وكذلك مراســـلى چيمس أو منفذى وصاياهم ، الذين أجازوا حـق اســـتخدام رسالاته التى لم تنشر ، والى جامعة هارڤارد التى هيأت لى استخدام مكتبة وايدنسر، وأمدتنى بكثير من التسهيلات والخدمات ، كما أقدم هذا الشكر الى عدد كبير من الزملاء والأصحاب الذين زودونى بالمعلومات والمشورة .

ولقد واتانى الحظ — فى اعداد هذا المجلد الراهن — اذ عاونتنى فيه اليزابيث بيركنز آلدريتش — التى كانت مساعدتها أمرا لا غنى عنه فى اعداد المجلد الأصلى الكبير . فهى من أكثر الناس الماما ومعرفة بمادة الكتاب — على نحو فريد فذ — ثم هى تشاركنى فى التبجيل والتكريم لذكرى وليام چيمس .

ولقد اعتمدت — اعتمادا كبيرا جدا — على فهمها وخبرتها ومقدرتها الفنية فى التحرير ، لدرجة اننى أحس أن مجرد الافصاح عن الاعتراف بالجميل لا يفيها حقها . فهى فى الواقع من الأمر — ان لم تكن بالاسم — شريكة المؤلف فى هذا السفر .

رالف بارتون پيرى

كامبردج — ماساشوستس

٣ يوليو سنة ١٩٤٧

١

هنرى چيمس الـكبير

ان الأسرة التى نشأ فيها وليام چيمس وبلغ رشده كانت أسرة نادرة المثـال وخارقة العـادة ، بالقياس الى الدرجة التى كانت تدفع بها نمو أعضائها سراعا وتصوغهم فى قالبها .

ولقد كانت دائرة الأسرة ــ مركزية ــ بالنسبة لحياة أعضائها الخاصة، ولم تكن مجرد محيط خارجي . فأما الأب ــ هنرى چيمس الكبير ، فلم تكن له مهنـة أو حرفة خاصة تقيده تقييـدا رتيبا لهـا ، أو تحتم عليه الارتباط بالعمل فى مكتب او وظيفة . اما أعماله الخاصة بالدراسة والتأمل والكتابة ، وكل مناشـطه المهنية ــ فيما عدا المحاضرات العامة من حين لآخر ــ فكان يمارسـها فى عقر داره . وكان أعضـاء الأسرة الآخـرون لا يدينون بأفكار « الوالد العزيز » ، بل انهم كانوا غير مكترثين بها ، ومن ثم كان المامهم قليلا بما كان يضـمنه كتبه . لكن « ريح الوداد التى تؤلف جانبا قويا من أحاسيسهم » كانت تشيع فى جو حياتهم وتغمره بأريجها ــ وكانت فى نهـاية المطاف ــ « ملاذا لهم جميعا بمثابة معيار أو مقياس لشىء رفيع رقيق يمضى قدما على نحو موصول » .

هذه ــ على الأقل هى شهادة الاعتراف بالجميل الصادرة من أحد مشاهير أعضاء هذه الأسرة الذى يشير اليهم أيضا بقوله « لم يكونوا أكثر شغفا ولا آنس وأحفل بأى شىء آخر ــ يفوق شـغفهم وغبطتهم حيـال بعضهم بعضا » (١) .

وهذا الشغف المتبادل ــ كان راجعا جزئيا ــ الى أن تربية الأطفال وعلاقتهم بالمدرسة والـكنيسة والدولة ــ كانت كلها تنسج على منوال

---

(١) Henry James, Notes of a Son and Brother, 1914, 163 ; A Small Boy and Others, 1913, 59. Selections from these books are reprinted by special permission of the publishers, Charles Scribner's Sons.

مهنة الأب فى عدم تقيدها بنظام رتيب . ولقد حكمت عليهم الأسرة بالقصور بشأن أى صلات او روابط ثابتة ــ حيال النظم أو المؤسسات ــ فى اى مكان آخر . وهكذا اكتملت لهذه الأسرة وشائج الوحدة والتماسك بذلك الحبل المتين من الرقة البالغة ذروتها .

لقد كان چيمس الكبير يشكو من حبه لأطفاله ، على اعتبار انه مؤلم وآثم فى آن . ولقد سجل امرسون فى احدى مذكراته أن هنرى چيمس قال لى أنه كان أحيانا يدعو أن تنزل صاعقة بزوجه وأطفاله فتمحوهم محوا من الوجود ، حتى لا يقاسى بعد ذلك من حبه لهم (٢) .

أما أن مبادئه ومشاعره كانت مستغرقة ، فيظهر ذلك من الرسالة التالية المكتوبة الى هنرى الصغير :

كامبردج ٢١ ديسمبر (١٨٦٩ ؟)

محبوبى هارى ــ

..... ان مرضك الطويل ومرض آليس ــ والآن مرض ويلى كانت لى بمثابة تربية صارمة ــ فى كونها علمتنى تدريجيا أن أعمم عواطفى ومشاركتى الوجدانية . لقد كان فظيعا أن يرى المرء أولئك الذين يحبهم بكل اعزاز واحساس مرهف ، معرضين لكل هذا القدر الكبير من الآلام المنهكة والمعاناة المضنية. لقد كافحت ضد الاعتقاد بأن ذلك أمر لاسبيل الى تحاشيه ، ولكنى عندما أصبحت أكثر ادراكا صحيحا للموقف ، ورأيت أن الأمر لايزيد على كونه غيرة وحماسة من أجل أولادى ، وأن هذه الغيرة هى التى تؤجج ثورتى ، وأننى ربما لا أتألم البتة اذا كان أطفال غيرى هم الذين يقاسون فى حين يتمتع أولادى بالصحة والعافية وينعمون بالسلام ــ عندئذ بدأت أشعر بالخزى والعار . وقنعت بأن أطلب لهم العافية والتحسن ــ فقط ــ باعتبارهم جزءا من بقية الناس سواء بسواء . ذلك ما كنا نبغى ــ وذلك وحده هو الجدير بالابتغاء ، من أجل بركة الله الخالدة فى طبيعتنا . التى توفق بين مصلحة الفرد والصالح العام فى الانسانية .

واقبل منى يا ولدى العزيز حبى الأبدى،

والدك المحب

ولكن اذا كان أعضاء هذه الأسرة مشغوفين بعضهم ببعض فمرد ذلك ــ فى أساسه ــ الى أنهم كانوا شخصيات مشوقة . وكانوا يشتركون فى هذه الخصيصة مع عشيرتهم الكبرى التى كانوا ينتمون اليها ــ مع اعمامهم ، وخالاتهم ، وأبناء وبنات عمومتهم ، الذين كانوا دائما ، يلقونهم

(٢) "Gulistan" 1848.

فى طريق حياتهم ـ والذين لم يكن فى وسعهم الا يكترثوا أبدا بتقلبات ودوران الحظوظ التى كانت تنتابهم .

لقد مات وليام چيمس (الذى عاش فى ألبانى بولاية نيويورك) ، والذى هو الجد الأعلى لآل چيمس ؛ ووالد هنرى چيمس الكبير ، وجد وليام چيمس موضوع هذا الكتاب ـ مات سنة ١٨٣٢ ـ أى قبل مولد حفيده الشهير بعشر سنوات . ولكن زوجته الثالثة ، كاثارين باربر ، عاشت حتى سنة ١٨٥٩ . وعندما كان وليام چيمس ، موضوع الكتاب ، وأخوه هنرى ، طفلين صغيرين ، كانا يكثران من زيارتها فى بيتها . وهذا المشهد ـ الذى ظل قابعا على نحو غامض ، وان كان فى ذاكرتين حادتين ، مضافا اليه ما خلعته عليه قصص أبيهما الحية النابضة من اسهاب وتضخم ، كان ختام ذلك الموكب الحافل الحاشد الذى يشكل أحداث الماضى . والى هذا المسرح من الأحداث ـ رجع وليام بذاكرته الى الوراء ، خلال أحداث تلك المرحلة المتخللة من حياته التى ربطته بها بأوثق رباط فقال :

« فترة صبا أبى فى البانى ـ بيت جدتى ـ الوالد والاخوة والأخت ـ بأهوائهم وعواطفهم وحياتهم المضطربة المائجة ، وعملية البتر التى أجريت له ، ومرضه ، وأيام الدراسة فى الكلية ، وتنقله وتجواله الطواف ، وكروبه اللاهوتية التى عانى منها ، كآلام المخاض وخطبته وزواجه وأبوته ، ثم تلمسه لأكثر وأكثر من الحقائق التى استقر عليها اخيرا بعد أن أضناه البحث ، وأسفاره فى أوروبا ، وأيام البيت القديم فى نيويورك ، وكل الرجال الذين اعتدت أن أراهم هناك ، وأخيرا حياته الهادئة فى خريف العمر ، فى نيويورك وبوسطن وكامبردج ، وقد أمه الأصدقاء ، ومراسلوه من حوله ، وقد أصبحت كتبه أيسر منالا ـ كم من السنين الطويلة استغرقت كل هذه الشئون فى الحياة ، ولكن ما أقصر ذكراها الآن ! »(٣)

أما وليام الجد الأكبر ـ فقد كان شخصا ضخما فخما مليئا بالحيوية والنشاط . وفى أثناء السنوات الأربعين الفذة التى انقضت بين هجرته من أيرلندا (على الأرجح فى سنة ١٧٨٩) وبين موته فى سنة ١٨٣٢ ، قدر له أن يبقى حيا بعد ثلاثة أو أكثر من شركائه فى العمل ، وأن يشارك

(٣) To A. H. J., written in 1882 immediately after his father's death ; The Letters of William James, edited by his son Henry James, 1920,I,221, published by the Atlantic Monthly Press.

فى افتتاح قناة ايرى ، وفى التطور والامتداد نحو الغرب على طول وادى الموهوك ، وأن تتسع أعماله وتزدهر ، من مجرد بياع شراء على نطاق ضيق ، الى تاجر وصاحب أملاك وعقار ومعاملات فى البنوك وخدمات عامة ، وأن يتنقل من كندا الى نيويورك ، وأن يجمع ثروة تعتبر من أكبر الثروات في أيامه (قدرت بثلاثة ملايين دولار) ، وأن يتزوج ثلاث زوجات ، وينجب منهن على التوالى أربعة عشر طفلا ، وأن يصبح واحدا من أبرز المواطنين فى مدينته وولايته ، وأحد الأعمدة الرئيسية للكنيسة المشيخية (المذهب البرسبتيرى) (Presbyterian) ، فلاغرو اذن أن يتملك وليام الأول هذا احساس بالزهو والثقة يدفعه الى فرض ارادته على غيره ، أو أن يشعر بالولاء والانعطاف والايمان بطريقته ومذهبه فى الخلاص وحيال الله الذى يملك مصيره وبيده مقاليد الأمور . ولقد حاول أن يحتفظ بمملكته الدنيوية ومملكته الروحية ، كلا فى حالها غير ممسوسة ومصونة بأن يجعل حيازة الأولى معتمدة على تقبل الثانية .

ولقد بذل وليام چيمس ــ الجد الأكبر ــ قصارى جهده لكى ينقل مزيجا من تقواه ومن متاع الدنيا وأمواله وأملاكه الى من عاش من ذريته ، ولكن بسبب كثرة عددهم من جهة ، وبسبب أن تقواه وصلاحه ونسكه كانت مصحوبة بشىء من الاسراف والاغتراف من اللذائذ الخيرة ، من جهة أخرى ، وكذلك بسبب أن أولاده ورثوا مزاج أبيهم دون أن يرثوا افكاره من جهة ثالثة ، وبسبب دواع فنية لا يعرفها الا المحامون ومحاكم التسويات القانونية ، كل ذلك كان سببا فى أن مشروعاته وخططه منيت بالعقم والفشل .

فلقد أصاب مذهب كالقن البوار السريع ، ومنيت كنائسه بالكساد . ولم يصبح كسب المال والاحتفاظ به هو مهنة الأسرة وشغلها الشاغل . وفى هذا الصدد كتب هنرى الصغير يقول : « لقد كان الشقاق مع تقاليد جدى فتقا كاملا ، فلم نكن أبدا ــ فيما أعتقد ــ وعلى سبيل الحصر لمدة جيلين آثمين فى اقتراف عملية واحدة من عمليات التجارة » (٤) .

لقد أصبح المال وسيلة لطيبات الحياة ، حياة « الموضة » وتنمية الذوق ، وما يصاحبه ذلك من نعمة ومتعة ، أو دراسة ومتابعة الآداب .

---

(٤) S. B. O., 190.

ومن ثم فان الوراثة « الچيمسية » كانت فعلا تتجرثم وتختمر . خـذ مزاجا حادا (أو أيرلنديا) وتقوى كالقنيه ، وبنية عصبية نشيطة لافوية ولا بليدة ، ثم خفف وعدل هذا المزيج بآثار الميسرة والبحبوحة والرغد والفراغ ـ والحصيلة هى حنبلية لاسبيل الى محوها ، تناقضها وتخفف من حدتها رقة وعذوبة مع عدم استقرار ونزوع وقلق انفعـالى يرطبه ويرخمه ويزكيه عبير فواح من دماثة الأخلاق .

وفى حالة هنرى واند وليام الثالث ـ وأكثرهم شهرة على الاطلاق ـ نرى هذه التأثيرات السلفية وسجايا العشيرة قد أصابها تعديل عرضى من جراء ضروب من المعاناة الحادة ، والآلام المبرحة ، والعطب الدائم للمقدرة الجسمية .

ففى سنة ١٨٢٤ ، أو حوالى تلك السنة بالتقريب ، تولى أمر تثقيفه چوزيف هنرى ، الذى كان يعمل أيضا مساعدا للدكتور رومين بيك مدير معهد البانى ، حيث كان هنرى چيمس يتعـلم فى ذلك الوقت وهو فى الثالثة عشرة من عمره .

وكان الدكتور بيك يشجع تلاميذه على اجراء التجارب العلمية والتسلى بها ، تحت اشراف مساعده الشاب . وأكبر الظن أن هذا المساعد تأمل فى سؤال فى الكتاب ، يعزى اليه تحوله الى العلم ألا وهو :

« لماذا يرتفع اللهب أو الدخان دائما الى أعلى ؟ »(٥) وعلى أية حال ، فقد علم الأولاد الذين كان يشرف عليهم أن يطيروا فى الهـواء بالونات مملوءة بالهواء الساخن المستمد من كرات مشتعلة من نسالة الكتان . وحدث أن احدى هذه الكرات المشتعلة دخلت ـ عرضا ـ من نافذة أحد مخازن الجيران ، فاندفع تلميذه هنرى چيمس فى محاولة كلها شـهامة وجرأة لاطفائها ، فأصابته النار اصابة بالغة . وكانت النتيجة أنه قضى عامين طريح الفراش ، وأجريت لساقه عملية بتر مرتين من أعلى الركبة !.

لقد حدث ذلك لصبى وصف نفسه فيما بعد بقوله : « لقد عشت فى كل نسيج وخلية وعصب من جسمى . ما من يوم ينشق فجره الا وجدنى واقفا على قدمى أتفجر نشاطا وحيوية ، ومازلت أذكر بكل وضوح وجلاء

---

(٥) Memorial of Joseph Henry. Washington 1880. 180 cf. also 206-10.

ما كان يملأ جوانجي من فرط الطرب السني ويسرى فى دمائى وأنا أمارس رياضاتى – تحت ضوء الصباح الساحر – فى النهر والغابة والحقل » ٠

وعندما دخل هنرى الشاب كلية الاتحاد فى سنة ١٨٢٩ ، كانت صحته وروحه المعنوية فى قمة الحيوية والنشاط ٠ بيد أن بتر ساقه حال بينه وبين ممارسة رياضات النهر والغابة والحقل(٦) ٠ ولكنه على الرغم من ذلك كان فى وسعه بل استطاع فعلا – أن يغترف بكل شهية وحماسة من مسرات ومتع الحياة العصرية فى أيامه. وفى الحقيقة كان مفرطا ومندفعا لدرجة أن والده الساخط الحانق على ما أحرزه ابنه من تقدم فى « فنون الدناءة والخسة » و « البهتان المتبجح » قد تنبأ بأنه سرعان ما سيجد نفسه نزيل السجن ٠(٧)

لكنه مع ذلك واصل دراسته فى الكلية وتخرج منها فى سنة ١٨٣٠ ، وان كان سجل درجاته لم يرق الى مرتبة الامتياز أو التفوق ٠ وبعد ذلك حاول محاولة – جهيضة – لكى يدخل السرور على والده – أن يدرس القانون ، وانتهى أمره بالخيبة فى هذا المسعى ، ثم أصبح بعد ذلك لمدة (من ١٨٣٠ الى ١٨٣٢) أحد محررى صحيفة محلية فى البانى اسمها الصانع الماهر Craftsman ٠

ولم تكن هذه سوى أحداث خارجية فى حياة شاب عميق التأمل وشديد الاستبطان ٠ وكان ذا مزاج دينى قوى ، بحيث لم يكن فى استطاعته أن يتقبل العقائد الموروثة على علاتها بلا فحص ولا تقويم ولا اكتراث ، أو يرفضها وينبذها نبذ النواة برمتها ٠

لقد كانت مطالبه الدنيوية وشهواته فى حرب مع انسانيته ، وكان الجميع فى حرب مع تقواه التقليدية ٠ بيد أن مثل ذلك الصراع فى حالته – ما كان له الا أن يفضى الى اخصاب ودعم وتقوية لعقيدته ٠

---

(٦) The Literary Remains of Henry James, edited by his son, William James, 1885, The above citation was quoted from an autobiographical manuscript left by H.J.1, published by W.J. in the Atlantic Monthly, LIV (1854) and afterwards more Fully in L.R.H.J.

(٧) From a correspondence between William James (of Albany) and his friend Archibald McIntyre, November 12 and December 2, 1829; and a letter of H.J. 1-toIsaac Jackson, tutor at Union College, Jannary. 30, 1830.

وكان من عادة أصحاب المذهب **البرسبتيرى** المخلصين من أتبـــاع الكنيسة المشيخية أن ييمموا شطر برنستون • ولقد سبق أن ذهب أخوه الأكبر غير الشقيق – وليام المبجل – الى هناك فى ســنة ١٨١٣ . وكان چوزيف هنرى ، الذى حاز شهرة واسعة كعالم من علماء الطبيعة ، قد ذهب الى هناك فى سنة ١٨٣٢ حيث استدعى من معهد البانى لشـــغل منصب الأستاذية فى كليـــــة نيوجرسى • ثم تبعهم هنرى چيمس فى سنة ١٨٣٥ عندما دخل مدرسة برنستون للاهوت • وبوصفه دارســا للاهوت فى برنستون ، كان چيمس لا يشارك أترابه وأقاربه اهتماماتهم – الا فى النزر اليسير ، فلقد كان الدين بالنسبة لهم نظاما وطقوسا ، أما بالنسبة اليه فقد كان وحيا أصيلا وكشفا شخصيا •

وفى سنة ١٨٣٨ انسحب من مدرسة برنستون للاهوت ، واتخذ سبيله الى نيويورك حيث اســتقر به المقـــام هناك . ومن ثم تحول عن الكنيسة وأدار لها ظهره الى الأبد « اذ كان نافرا بالسليقة والمزاج والثقافة من الآراء الكهنوتية ومن الطقوس والشعائر الرسمية » التى يفرضـــها الدين •(٨)

أما وقد نفض يده من العمل فى وظيفة رجل دين ، وسد فى وجهه هذا الباب ، وكذلك نظرا لأن معظم المهن الأخرى المعترف بهـــا كانت تتناقض تماما مع عبقريته الفذة ، فقد دخل تلك المهنة التى بدت فى عيون أولاده محفوفة بالأبهام والالتباس على نحو محير جدا – والتى وصفها لهم وهو يجيب عن حيرتهم وتساؤلهم بقوله : « قولوا اننى فيلسوف – قولوا اننى باحث عن الحقيقة ، قولوا اننى محب لنوعى الانســـانى ، قولوا اننى مؤلف كتب اذا طاب لكم ذلك ، ولكن – اذا شئتم أن تقولوا ما هو أفضل من ذلك كله فقولوا اننى طالب علم (٩) .

انه كان كل ذلك ، وان كانت هناك مهنة أو دعوة تتضمنها جميعا ، ألا وهى جعل بصيرته الدينية الخاصة به – واضحة المعالم بينة وغالبة لها الكلمة العليا • ولقد كانت هذه البصيرة مزيجا من الكالڤينية ونقيضها فى آن واحد •

فعلى الرغم من اصراره وتســــليمه بأن الله هو الرحمن الرحيم ،

---

(٨) L.R.H.J., 123.

(٩) N.S.B., 69.

وبتضامن النوع الانسانى ، الا أن خبرته الدينية الشخصية كانت بعيدة الأغوار عميقة الجذور فى كالفينيتها ٠

ولقد كانت كالفينيته فى هذه الفكرة بالذات المتعلقة بتضامن النوع الانسانى ووحدة بنى البشر ٠ اذ لم يكن من الفروض المنطقية الأولى لمذهب كالفن أن خطيئة آدم تنتقل الى كل ذريته ، بحيث يكون الجنس البشرى كله مثله كمثل الجهاز العضوى اذا أصيب عضو منه بالتلف أو نزلت به نازلة فلابد من أن تتداعى له سائر الأعضاء بالألم والمعاناة !! ٠

ولقد كان چيمس كالفينيا أيضا فى تقبله — دون تحفظ — لوجهة النظر القائلة بأن الانســـان أعرض عن الله ٠ فالدين يبدأ من اليأس ٠ وليس ذلك حادثا عرضيا ، وانما هو شرط لازم ، اذ لايمكن أن يكون هناك معراج للصعود اذا لم يبدأ من الأعماق ٠ ولقـــد كان كالفينيا فى تقبله لمذهب التسويغ بالعقيدة بحيث أن الخلاص فضل من الله وانعام لمن لايستحقه — مرده الى رحمة الله ، ومغرته ، وسعة فضله ، وحبه لعباده، وهو عالم بجحودهم ٠ ومن ثم فان چيمس لم يتقبل الكالفينية بقبول حسن فحسب ، وانما طرب لها وتهلل ، باعتبارها أسمى وأقدس حق ٠ بيد أن عمق ايمانه بالكالفينية هو الذى يجعل نأيه واعراضـــه المتطرف عنها — مدعاة للغرابة والدهشة — ولقد كان اعراضا ونأيا بلغـــا من التطرف حدا يمكن وصفه بالانحراف والتحول التامين ٠ فطبقا للمذهب الكالفينى فان الزلل جماعى ، والخلاص فردى ٠ والطبيعة الانسانية فى ذاتها جبلت على الخطيئة ، والدوافع البيولوچية الصادرة عن التركيب الأصلى للنفس البشرية لها من القوة والفعالية ما يتطلب الكبح والقمع — ولن ينال الهدى الا أفراد معينون مختارون من أولى العزم ممن يمتازون بالغيرة والحماسة والاستقامة والعدل — فى أسمى مراتبها ٠ بيد أن تلك العلامة بالذات التى يعتبرها الكالفينى سمة الخلاص ، وذلك الاحساس بأن الهدى هدى الله ينعم به على من يشاء من عباده دون غيره ، والـــذى يتجلى فى تلك المقدرة السامية الرفيعة على الاستقامة والعدل — ذلك كله بالنسبة لچيمس هو خطورة التردى ذاته ، وهو نفس اللحظة التى يهبط فيها الانسان الى درك الخطيئة ٠ فالطبيعة البشرية بريئة — والانسان — من الوجهة البيولوچية — ليس شريرا ولا خاطئا ، وانما هو ينأى عن الله ويعرض عنه عندما يركبه الغرور ويدعى الاستعلاء وهو فرد ، سواء استنادا الى امتيازات خاصة يبيحها لنفسه ويحرمها على غيره ، أم بدعوى فرط

التقوى والصلاح – فهو عندئذ يبعد عن الله . ومن ثم فان ما يستحق منه توبته وندامته هو غروره ، وبداية خلاصه الحقيقى تظهر عندما تتطابق آماله مع آمال الجنس البشرى – بصفة كلية . وموجز القول – أن القضية عند چيمس بالعكس . فالزلل فردى ، والخلاص جماعى ، والنـــــاس يأثمون ويخطئون كأفراد ، ولكن هديهم ونجاتهم وخلاصهم عملية مشتركة بالتضامن .

على أن حياة چيمس الأدبية لم تبدأ حتى سنة ١٨٥٠ ، وفى غضون ذلك كان قد رأى النور وتكشف له قبسا وراء قبس .(١٠)

ولقد أتى اليه هذا الضوء من مصدرين ، هما سويدنبورج وفورير . على أنهما لم يحولاه عن دينه ، وانما ثبتاه ودعماه وأعاناه بأن أعطياه لغة واطارا منظما ، ومنهاجا وسندا للايمان الذى كان يشيع فى أرجاء نفسه .

والى كتابات سويندنبورج – كان چيمس يعزو ضربا من الالهام الدينى الذى أحسه ومارسه فى سنة ١٨٤٦ ، والذى عبر عنه بقوله : « لقد كنت أقرأ من الأول مشغوفا خافق القلب ، وباهتمام مرتجف ، وكان قلبى ينصح بالتقديس ، بل يكشف الغيب ، حتى قبل أن يكون ذكائى مستعدا لانصاف الكتب وفقهها ، ولوزن الأقدار غير المتكافئة من الحق الموجودة فيها .... تصور مخلوقا يخلو من استبداد طفيف حكم عليه بالموت وله (وهذا ما هو أدهى وأمر) عاطفة للموت تشيع فى كل وعيه ، ثم لاتلبث أن تنقشع بمعزة مفاجئة ، وتتحول الى احساس جارف بالانسجام والتناغم مع الانسان على اطلاقه ، وتمتلىء حتى تطفح بعاطفة للحياة – لاتندرس – تصور ذلك وستكون لديك صورة عن حالتى المتحررة المنطلقة » .(١١)

---

(١٠) The major writings of Henry James are as follows: Moralism and Christianity; or Man's Experience and Destiny, 1850; Lectures and Miscellanies, 1852; The Church of Christ Not an Ecclesiasticism, 1854; The Nature of Evil, considered in a Letter to the Rev. Edward Beecher, D.D., Author of "The Conflict of Ages," 1855; Christianity the Logic of Creation, 1857; Substance and Shadow; or Morality and Religion in Their Relation to Life, 1863; The Secret of Swedenborg, being an elucidation of his doctrine of the Divine Natural Humanity, 1869, Society the Redeemed Form of Man, and the Earnest of God's Omnipotence in Human Nature, affirmed in Letters to a Friend, 1879.

(١١) L.R.H.J., 66-7. 69.

ولكن صديق چيمس – چ.چ. جارث ويلكنسون الذى استرعت كتاباته انتباه چيمس أول الأمر لسويدنبورج ، ذكر فيما بعد أنه لم يكن بين چيمس وسويدنبورج من شيء مشترك سوى اصطلاح « الانســـانية الطبيعية المقدسة »(١٢) فلقد كان من المســـتحيل على چيمس أن يكون سويدنبورجيا صالحا مثلما كان من المستحيل عليه أن يكون برسبتيريا صالحا ٠

فلقد كان الدين عنده مسألة خبرة وبصيرة ، لاعقيدة تعسفية أو وحيا تاريخيا ٠ لقد كان چيمس ميتافيزيقيا ، وصوفيا ، وكالفينيا وراثيا ٠ وقد تطلع الى سويدنبورج لكى يخلصه – كليا من الحرفية ورق النص – حتى من حرفية نصوص المذهب السويدنبورجي نفسه ٠

أما المصدر العظيم – الثانى – الذى أخذ منه چيمس الضوء ، فقــد كان فورير الذى مات سنة ١٨٣٧ ، والذى طبقت شهرته الآفاق بسرعة جبارة ، لدرجة أن عدد أتباعه من الامريكيين فى سنة ١٨٤٦ قدر بحوالى ٢٠٠٫٠٠٠ ٠ ومن المستحيل طبعا شرح هذه الحركة كظاهرة منفصـــلة قائمة بذاتها ، أو على اعتبار أنها برهان للمحاسن الفريدة لتعاليم فورير ٠ وانما هى مظهر ودلالة وبينة على نفس تلك الروح الحماسية الواثقـــــة المؤمنة بالاصلاح ، والتى تجلت فى الحركة المعروفة بحركة « التربة الحرة » ، وفى ابطال الاسترقاق ، وجماعات السلام ، وحركة أوين ، وفلسفة ما فوق العقل ٠ وكان أولئك الذين ينتمون الى احدى هـــذه الحركات عادة ينتمون الى الباقى ، أو على أية حال من العاطفين عليها وعلى كل المذاهب المنهجية الأخرى ٠

وفى هذا الصدد قال امرسون : « فى تاريخ العالم لم يكن لمــذهب الاصلاح أبدا مثل هذا المدى من الشمول والاحاطة ، كما هو حادث فى اللحظة الراهنة ٠ اذ يتعين علينا أن نراجع تركيبنا الاجتماعى برمته : الدولة ، والمدرسة ، والدين ، والزواج ، والتجارة ، والعلم ، ونكتشف جذورها وأسسها فى طبيعتنا نفسها ».(١٣)

(١٢) Wilkinson to H.J.I. May 20, 1879.

(١٣) The Dial, I (1841), 523, 534. Even mediumship and spiritism profited by the general enthusiasm, but Andrew Jackson Davis's lead in this direction was not followed by the group with which James was more immediately associated, and James himself took little interest in it.

وليس ثمـــــة بينة تومىء الى أن فورير قد تأثر بسويدنبورج ، بل لايمكن الجزم بأنه كان ملما بتعاليمه ومذهبه · بيد أن أوجه الشبه بين الاثنين فى المنهاج والمذهب كانت بارزة ولافتـــة ، ويبدو أن الحركتين كانتا على موعد مع القدر لكى يتم زواجهما ·

لقد كان المذهب السويدنبورجى بحاجة الى برنامج اجتماعى ، وكان مذهب فورير بحاجة الى أساس دينى وميتافيزيقى ·

وكان هذا التبادل والتعاضد ولياقة كل منهما لتكملة الآخر وشــد أزره ، هو أعظم الأمور أهمية فى نظر المصلحين فى ذلك العقد من السنين التى تبدأ بسنة ١٨٤٠ ، ويبدو أنها خطرت ببال كل القادة ودعاة الاصلاح – فى نفس الوقت من أنصار الحركتين على جانبى الأطلنطى – فى أوروبا وأمريكا ·

بيد أن مبادىء فورير جذبت اليها چيمس ، ليس فقط لكونها تهيىء علما اجتماعيا وضمانا يفى بالتحقيق ، ولكن لأنها أكدت عقيدتين من أكثر عقائده اعزازا ورسوخا :

فأما أولاهما فكانت الايمان بالتماسك الاجتماعى – أى « وحــدة أو شخصية النوع الانسانى نفسه » · فالمعنى الوحيد الهام الذى يفرق بين « الصالحين » و « الطالحين » يكمن فى علاقتهم «بتلك الحياة المقدسة التى توجد بيننا وبين الله ، والتى هى كمينة فى طبيعتنا ، والتى نسميها المجتمع أو الأخوة أو الزمالة أو الرابطة أو المساواة (١٤) .

وأما العقيدة الثانية التى كانت موضع اعزاز چيمس ، والتى وجد عند فورير توكيدا لها ، فقد كانت فكرة البراءة الانسانية · فلقـــد رد فورير الاثم والمعصية وضرورة الضبط الاجتماعى الى عنصر عدم الملاءمة أو الافتقار الى التوافق ، ومن ثم ارتكز برنامجه على اصطناع مجتمعات انسانية ، قوامها تنظيم ماهر ومتناغم ، لدرجة تتيح للفرد فى ظلها أن يتمتع بالتلقائية التامة ، وأن يكون « صالحا بحرية » أو على حد تعبير وليام چيمس « فى مجتمع منظم تنظيما قدسيا ، فان طبائعنا لن تتغـــير أو تتبدل ، وانما الذى يتبدل هو تلقائيتنا لأنها عندئذ ستعمل فى تناغم

---

(١٤) Henry James, Substance and Shadow, 1863, 145, 369.

وتناسق ـ وستؤدى وظائفها فى براءة ـ وعندها ستحل مملكة السماء على وجه البسيطة (١٥) » .

وبعبارة أخرى ، فان چيمس الكبير ـ نادى ـ بما عهد فيه من تهور وحماسة دافقة بكل روحه وقلبه ـ بتوكيد المذهب القائل بأن التقدم الانسانى والدين الصحيح ـ اللذين هما نفس الشىء ـ يهدفان الى تزكية الانسان الطبيعى وتخليصه من براثن السلطة الصادرة عن النظم الاجتماعية وقوانينها .

ولقد كان أصحاب فلسفة ما فوق العقل ، والرومانتيكيون الخيرون، ودعاة الحياة البسيطة والتفكير العالى (مجتمع بروك فارمرز) ، هم الأعمام الروحيون لوليام چيمس . لقد كانوا ينتمون الى الماضى قطعيا ، وكانوا فعلا قد بدأوا يصبحون فى نظر القوم تماثيل تاريخية . ولكون چيمس تربى تربية تزخر بالتسامح والتحررية ، فانه لم يعان رد فعل مضاد لزمالات وروابط شبابه على الرغم من هذا الاتجاه ، لأن هؤلاء الرجال الذين كانوا يدورون فى فلك أبيه ، ويدور أبوه فى أفلاكهم ، أثروا فيه تأثيرا خلقيا من باب الوراثة ليس الا ، وليس كعوامل معاصرة حية نابضة .

أما أصدقاؤه فكانوا أبناءهم ، وأما معلموه فقد كانوا رجالا من طراز مختلف تماما عن هؤلاء الرجال .

---

(١٥) Prefatory note to his father's "Emerson," Atlantic, XCIV (1904)

٢

چيمس الكبير وأمرسون

يكاد ميلاد وليام چيمس يتطابق تطابقا تاما مع بدء التعـــارف بين والده وامرسون • ففى الثامن عشر من مارس سنة ١٨٤٢ سجل امرسون فى مذكراته : « فى نيويورك تعرفت على هنرى چيمس(١) » . والرســالة التالية المحررة الى امرسون تشير الى نفس الموضوع ، فقد ذهب چيمس ليستمع الى محاضرة ألقاها امرسون ، وظفر امرسون باعجابه وانجذب اليه ، ثم دعاه الى بيته ، وعندما وصلا بشروه بمولد ابنه وليام فصـعد الى الطابق العلوى من المنزل لكى تقر عينه برؤية « الوليد الذى سيصبح وليام چيمس الثانى الأمريكى(٢) » .

أما فحوى الرسالة فهى :

نيويورك مساء الثلاثاء (٣ من مارس سنة ١٨٤٢ ؟)

سيدى العزيز

لقد استمعت الى محاضرتك هذه الليلة(٣) ، وعندما تلألأ فؤادى بكثير من الدرر التى خرجت من بين شفتيك ، شعرت فورا ، وبيقين تام ، أن الماثل أمام عينى رجل يبحث عن حقائق الأمور بكل صدق وحق ، وأدركت الى أى مدى يحب الحق والخير • ومن ثم قررت أن أكتب اليه قائلا : اننى أنا أيضا ـ بنصيبى المتواضع ـ أتطلع باشتهاء الى فهم الحقيقة التى تحيط بى وتعتنقنى ، واننى جاد فى أن أفهم وأدرك ـ بجدارة واستحقاق ـ أو أن أكون أكثر اهلية لان أفهم وأدرك الحب الذى يشيع فى أرجاء كل الجدب البادى فى عالمنا المفتقر الى الود ، بحيث ينعشه ويحيى مواته • ولكننى ما زلت أجد فى كل خطوة أخطوها فى هذا المضمار اننى مفصوم العرى من أصحابى وبنى جلدتى، بحيث اننى فى النهاية ، وعندما أصبح أعمق وعيا باستحقاقى للحب والود أكثر من اى وقت مضى ، وبقدر ما يسمح لى هذا الوعى المتزايد الشامل المحب ، فاننى أجد تعبيراتى الحرة رهينة وكبيسة ومضغوطة فى ذلك الحيز

---

(١) Bliss Perry, The Heart of Emerson's Journals, Honghton Mifflin Co., 1926, 173.

(٢) S.B.O., 8.

(٣) On Thursday, March 3, Emerson lectured is the Society Library on "The Times'

الضيق المحيط بنار مدفأتي • وسأخبره أيضا أن الحديث الودى مع رفع الكلفة الى انسان يتبع الحق بكل شغف أينما يفضى به هـذا البحث فى الطرق الوعرة • فيلبى دواعبه لايخشى لومة لائم ، لأنه يحب الحق حبـا يملك عليه كل نفسه بحيث لايثنيه عن اتباعه والمضى فى طريقه ما يلقاه فى مسيره من أخطاء وعثرات قد ترهقه من أمره عسرا ـ هـذا الحديث الى مثل هذا الانسان لم يكن من نصيبى أبدا ولو لنصف ساعة ، ومن ثم فانه اذا كان ذلك المحب الكريم للحق واتباعه ـ وانه لكذلك حقا ـ فقد يمنحنى هـذا البر المشتهى ، ويطعمنى تلك الحلاوة التى لم أذقها ، ويتيح لى أن أشعر بحرارة وقوة قبضة يد زميل من زملاء الحج ، وأنعم بذكرى طويلة ببركة الله العاجلة ، وبرنين الضحكة التى من على بها وكانت آخر ما وقع عليه بصرى عند الفراق • على أننى لن أدنس تقديسه للحق بأن أقول بأننى ألتمس ارشاده وتوجيهه على أى نحو ، ولكن لا جناح على أن أقول له اننى اذا ما وجدت سميعا لصوتى فقد أدعوه من حين لآخر لكى يفسر لى بعض الألغـاز التى تعترض طريقى هنا وهناك ، والتى تبدو لى كاللغة الهيروغليفية ، والتى أشعر بعجزى وقصورى عن فهمها ، وانه لن يبخل على بهذه الخدمات الهينة • وسأخبره أننى لا أقيم وزنا كبيرا لاكتشافاته ذات الحجج الدامغة ـ أيا كانت ـ وربما لا يتجاوز تقديرى لها نصف ما يقدرها هو ، ولكن تقديرى ينصب بصفة رئيسية على ذلك الاتجاه العقلى الصامد الرفيع البنيان الذى يميزه ، والذى يبحث ببسالة عن أعظم بشائر الله فى ملكوته ، ويتحـدى فى طمأنينة وسـكينة كل طيف متمتم يناهض حريته فى هذا • وأخيرا ـ ولكى لا أرهقه من أمره عسرا أو أختبر صبره ـ فسـأخبره أيضا أنه اذا كان من أولى العزم ، وتحمـل حماسته وشغفه بالحقائق ، وحافظ على ازدرائه للمظاهر الكاذبة ، بحيث يطبق التجربة التى اوجدت وسيلتها لها ، أو بالأحرى المحنة التى دبرتها ، فسأكون سعيدا جدا بانتظار زيارته لى متى يطيب له أن يحدد موعدا •

ذلك فى جوهره هو ما قلته لنفسى • والآن ، وقد قلته لك أيضا ، فلقد أصبحت أمين سر ونجى بينى وبين نفسى • ومن ثم فأنت ملزم على نحو ما باحداث انسجام وتناغم بينهما • فاذا نكصت عن حمل هذه الأمانة التى وضعت على عاتقك ، فسألوم نفسى بكل تأكيد من جراء الافضاء اليك بدخيلة نفسى وافتضاح أمرى ، ولكن اذا حافظت على العهد وحملت الأمانة ، فسأقدم لنفسى التهانى بنفس الدرجة التى كنت سألوم بهـا نفسى اذا ما خذلتنى ! سأهنىء نفسى بكل تأكيد على بلوغ مأرب حسن الطالع لكلينا • وعلى أية حال فلك منى أصدق الأمانى وأطيبها •

هـ• جيمس

حاشية : عنوان مسكنى هو ٥ رحبـة واشنطون • الرحبة تمتد من برودواى الى ميدان واشنطون وتشكل أو بالأحرى يؤلفها صف المبانى الواقعة بين مبنى الجامعة وبرودواى• أعمالى كلها تتم داخل المنزل بحيث أننى عادة ما ألتزم دارى ـ ودائما موجود فى المساء •

ان هذه الرسائل التى كتبها الى امرسون تفصح عن مزيج من الاعجاب والحب والانفعال التى تعتبر من جانب جيمس علامة على سرعة اتصـال حبال الود ونضوج الصلات الوثقى فيما بينهما • هذا على الرغم من قيام

كل الأسباب والدواعى الموجبة لاختلافهما أو بالأحرى الأسباب والدواعى التى تحتم على چيمس أن يختلف عن امرسون • ولعل أحد هذه الفروق انه بينما كان چيمس لابد أن يختلف ، فان امرسون لم يكن كذلك • فلقد احتفظ چيمس بالعادة الكالڤينية القديمة من المحاجة والجدال ، وكانت نزعته تدفعه دفعا الى المجادلة والاقناع ، وكان أبغض شىء الى نفسه أن يترك الناس يمضون الى سبيلهم اذا آنس منهم استعدادا أو استحقاقا للخلاص والهداية • لقد كان موفور الالهام والبديهة ، وراسخ الايمان والعقيدة ، ولكنه كان يتطلب منها الأسباب والأدلة وكان يحاول بصفة دائمة أن يشكلها فى صيغة ميتافيزيقية (علم النظر الجدلى) • أما امرسون فقد كانت فصاحته من النوع الاثباتى التأكيدى ، لا الوصفى الايضاحى ، وكان يرفض الدخول فى مجادلات أو حتى الاجابة عن الأسئلة التى تلقى عليه ، وكلما زاغ وتملص زاد هياجه وسخطه •(٤) على أنه ينبغى أن يضاف الى ذلك الفرق العميق فى المزاج والسليقة ، فلقد كان چيمس متوقد الحميا والسورة ، فى حين أن امرسون كان رزينا وباردا ورابط الجأش •

ولعل الفقرات التالية تعيد ذكرى فترة أول لقاء بينهما :

« سبحانك ربى ! كم أشاعت نظرة صديقى الجديد – البريئة المحببة – فى أرجاء نفسى السكينة والطمانينة والرضى • انه لطيف المدخل الى النفس ، رقيق الحاشية ، سخى فى تقديره لاجتراءاتى الأدبية الفجه • كم احتجزته فى غرفة نومى ، واغلقنا الباب وخلدنا الى أنفسنا ، واثقا بأننى قبل أن أفتح الباب مرة ثانية فانى سأكون قد نفذت الى سر تفوقه العظيم وسموه الجبار على كل من عداه من رجال الأدب والفكر • ولو أننى أغلقت على نفسى باب غرفتى ، وانفردت بحفنة من جواهر الماس لما تغير من الأمر شىء • هذا فيما يتعلق بدراية امرسون نفسه بنفاسته ••• وصفوة القول ، أن فى وسعى أن أقول اننى فى أول الأمر خاب أملى فيه ، لأن عقله لم يكن يبشر بما كان يطفح على وجهه من بشر ومحبة ، وما كان يتجلى فى ذوقه وأدبه • لقد كان بالنسبة لمشاعرى وجودا مقدسا ماثلا فى الدار معى ، ونحن لانستطيع أن ندرك أو نعترف بوجود شخوص مقدسة فى بيوتنا دون أن نحس يقينا بأنهم سيفوهون بشىء ذى بال ، أو بحكمة ذات خطر تستبد بعقولنا ، ولكن

(٤) "Emerson would listen, I fancy, as if charmed, to James's talk of the divine natural Humanity, but he would never subscribe; and this, from one whose native gifts were so suggestive of that same Humanity was disappointing." (William James, in the prefatory note to his father's "Emerson," Atlantic XCIV, 1904, 740.)

الذى حدث أنه لو كان بيننا عجوز شمطاء ممن يعملن فى جر دواب الحمل لقالت مثل ما قال امرسون ، ولأشبعت نهمى العقلى مثلما أشبعه امرسون آنذاك ··· فليس ثمة ريب فى أنه ليس فى وسع امرئ أن يشخص ببصره اليه وهو يتكلم (أو عندما يكون صامتا) دون أن تتمثل أمامه رؤية أقدس جمال ، ولكنك اذا سعيت لكى تجادله فى الأحداث العجيبة أو الظواهر الخارقة وجدته مجردا من القوة التأملية على الاطلاق (٥) » .

ولقد اقتضت المحاضرات التى كان يلقيها امرسون أن يحضر الى نيويورك من حين لآخر ، وأن يصبح زائرا لبيت آل چيمس كلما جاء الى نيويورك · ولقد تركت هذه الزيارات آثارها على عقل هنرى چيمس ــ الابن الثانى الذى كان عمره وقتئذ لا يتجاوز الثانية عشرة ــ وخلفت البصمات التالية على وعيه :

« هل أطوى مناسبات عديدة فى واحدة ، أم أنا أكبر وأجسم واحدة منها بشكل غير معقول ؟ فلتكن الأخيرة ، خشية أن أتردى فى الوجرة التى من المرجح أن ينزلق اليها المؤرخ الاخبارى الذى تغلبه ذاكرته على أمره فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها · انى أستحضر فى خلدى ــ على أية حال نار الموقد فى الشتاء ، وقد صفت جذوة النار ، وجلسنا فى الغرفة الخلفية وقت الغسق ، وامرسون العظيم ــ وكنت أعرف أنه عظيم ، أعظم من أى واحد من أصدقائنا ــ قد اتخذ مجلسه بين أمى وأبى قبل أن تضاء القناديل ، كما يفعل كل زائر قد رفع الكلفة بينه وبين اهل البيت فيمضى على السجية أهلا وسهلا · ومما زاد من وقع انطباعه فى نفسى أنه بدا أمامى كطيف نحيل أهيف ، متموج فى رشاقة وانسجام ، يسيل رقة وعذوبة ، أقنى بشكل يوحى بالأريحية وحب الخير ، وله صوت ذو جرس غريب الوقع على الأذن ، يباين أى صوت ألفنا سماعه ممن حولنا » · (٦)

ولقد كان عن طريق امرسون أن تعرف چيمس على ثورو · وكتب امرسون الى چيمس فى هذا الصدد مايلى :(٧)

« من الخير لك وللمستر ثورو أن تلتقيا ويسبر كل منكما غور الآخر ويعرف ما عنده · ان ثورو صاحب عقل عميق ، وهو صادق الأريحية والسماحة ، واذا اتفق أن صدرت عنه بعض الحذلقة الريفية والتطويل الممل والاطناب المضجر فى سرد الحقائق فسرعان ما ينسى ذلك عندما يقدم له ماهو خير وأبقى · ان المرء لايستطيع أن يجزم أبدا بأن هذه

(٥) L.R.H.J., 296-7, 300.

(٦) N.S.B., 204. The Second Henry James was born in 1843, and the above impression must have occurred before 1855, when the family ceased to reside in New York.

(٧) May 6, 1843.

التجارب – التى تبلغ الذروة فى الرقـة . تجارب الرجال والمخالطة – ستؤتى أكلهـا ونفلح ، ولكنك اذا بقيت فى المدينة هـذا الصيف – وان كان ذلك غير محقق – فأرجوك ان ترسل بطاقتك له بوساطة أخى ٠

ولقد كان أول لقاء بين ثورو وچيمس ناجحا موفقا على الفور ، وان كان تورو قد ساورته الشكوك فيما يتعلق بجدوى فلسفة چيمس ٠ لقد كتب ثورو الى والديه أنه قابل « هنرى چيمس – رجل أعرج » ، وأنه « كان قد سمع به من قبل » ، ثم وصف انطباعاته باسهاب فى خطاب بعث به الى امرسون فى الثامن من يونية سنة ١٨٤٣ جاء فيه :

« لقـد ذهبت لزيارة هنرى چيمس وأحببته حبا جما ٠ لقد غمرنى السرور بلقياه ان لقاءه يشعرك بأن الانسانية أكثر استقامة واستحقاقا للاحترام ٠ لم يسبق لى أبدا أن تعلمت بطريقة السؤال والجواب على هذا النحو من الرقة والاخلاص ٠ لقد جعلنى ذلك أكثر احتراما لنفسى ، وأن أكون أهلا لأن توجه الى مثل تلك الأسئلة الحصيفة ٠ انه رجل حقا ، يمضى فى طريقه الى غايته ، أو يظل واقفا ساكنا فى مكانه لا يتزحزح عنه ٠ ولست أعرف أحدا غيره بلغ هذا الحد من الصبر والعزم بحيث اسـتطاع أن يظفر بخيرك وفضلك ٠ انه يكاد يبلغ حد الصداقة مثل هذا الارتباط والتعامل الصريح الانسانى ٠ وأعتقـد أنه لن يكون من ذلك الطراز الذى سيكتب أو يتحـدث بوحى أو الهـام ، ولكنـه رجل منعش مستقيم ينظر الى الأمام ويتحرك الى الأمام ٠ ولقد ألف بين قلبى وبين نيويورك – لقد طبعها وأنسنها لى ٠ انه فى الواقع من الأمر يؤنبك من جراء احترامه لكلامك الغث ٠ لقد قضيت ثلاث ساعات سويا معه فى حديث متصل ، وهو يدعونى لكى أحل عليه ضيفا فى بيته أهلا وسهلا بكل حرية ٠ انه يتطلب تعبيرا واضحا عن عقيدتك ، أو لكى يتأكد من أنها عقيدة تدين بها ، ويعترف بأن عقيدته تطأ ينبات فوق عنق فهمه ٠ ولقد صاح معلقا على احدى اجاباتى التى فهمت بها دون مبالاة : « لاريب فى أنكم يامعشر فلاسفة ما فوق العقل ثابتون بلا تغير ولا تذبذب على نحو مدهش ٠ حتم على أن أمسك بتلابيب ذلك على نحو ما » (٨) .

أبحرت الأسرة الى أوروبا فى التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٨٤٣ ، فى تلك الرحلة المشهورة التى قدرلها أن تخلد ذكرها على مر الزمان ، لارتباطها بكشف سويدنبورج ، وببدء التعارف الشخصى مع ويلكنسون وكارليل ٠ ولقد سجل چيمس رأيه فى كارليل – فيما بعـد بصراحته

(٨) F.B. Sanborn, Familiar Letters of H.D. Thoreau, Houghton Mifflin Co. 1894, 95.

الحماسية المعتادة · أما رأى كارليل فى چيمس — فيما عدا فقرة « أنه أحبه » فلم يظهر له أثر واضح فيما سجله عندئذ ·(٩)

وفى سنة ١٨٤٥ عاد چيمس واسرته الى أمريكا حيث استقر بهم المقام فى ألبانى أول الأمر ، ثم بعد ذلك فى نيويورك فى سنة ١٨٤٧ · ومن ثم استؤنفت المراسلات مع امرسون ، وكذلك عاد التلاقى فى نيويورك فى مناسبات محاضرات امرسون · على أنهما كانا يجتمعان أيضا فى بوسطن حيث كان چيمس عضوا فى تلك السلسلة من الأندية التى نظمت تباعا هناك « حول وعى امرسون » Autour d'Emerson

وشهدت سنة ١٨٥٢ رحلة كوسوث الشهيرة حيث ذهب الى كونكورد وأقام له امرسون حفل استقبال عام وحياه القوم « على اعتبار أنه أسبق جندى من جنود الحرية فى هذا العصر » ·(١٠)

ولقد كانت تلك السنة هى السنة التى ظهرت فيها مذكرات مارجريت فولر التى اشترك فيها امرسون ووليام هنرى تشانِنج وغيرهما· ولقد كانت الرحلة والكتاب حدثين هامين فى عالم چيمس ، فنوه بهما فى رسالته التالية التى كتبها لصديقه ادموند تويدى :

نيويورك ٢٤ فبراير (١٨٥٢)

عزيزى المحبوب تويديوس العتيد —

لعنة الله على هذا الجو الذى يستحق الشنق · هذا الجو الذى يحيط بك احاطة السوار بالمعصم ويخلب لبك آناء الليل وآطراف النهار ، ويضلك عن اقدس واجباتك· كم من الرسائل حررتها لك اخيرا فى ظل الهام هذا الجو ، حررتها لك — علم الله لا بالقلم والحبر ، ولكن بقلم مخى المغموس فى مداد قلبى · آه لو أنك ظفرت ببعض هذه الرسائل وفضضتها ووقفت على فحواها ، اذن لألقيت بكل ما تقرأ الآن جانبا ، وآثرت قراءتها بنفس الشغف الذى يشيع فى أرجاء نفسى وأنا أحررها · ان ذاكرتى لاتحتفظ الا بأحسن وارقى مافيك من خير وانسانية ، وانى لأجعل منك ومن رسائلى مشاركين فى الخيال لأنبل واقدس ما يعتمل فى فكرى وفى خلدى ··· لقد أنصف تشاننج نفسه ووفق اعظم توفيق — فيما علمت — باشتراكه فى تاليف مذكرات مارجريت فولر ، واصاب من وراء ذلك خيرا فى السنوات الأخيرة · أما أنا فلم أقرأ الا الجزء الذى كتبه امرسون ، وهو

---

(٩) Cf. N.S.B.' 186-8

(١٠) G.W. Cooke, Ralph Waldo Emerson : His life, Writings. and Philosophy, 1881, 121.

مماز وجدير بشبابه • والانطباع الذى خلفه الكتاب فى نفسى حتى الآن هو أنه فى حين أن مارجريت شخصية ذات عقل رفيع وطموح سام وتطلع راق ، الا أنها كانت أيضا جارة فى غاية الازعاج والقلق من جراء تطرفها فى كبريائها • انها تظن نفسها خلقا غير الخلق، وشخصـــية فـــوق النـــاس بلغت من الأهمية والفذاذة حدا يفرض على الدنيا أن تخر لها ساجدة ، وانها من ثم تمسك بمصير الانسانية وفق مشيئتها • ان سائقى الحافلات وصديقى الباهر ديربى الحائك فى غاية الطلاوة والحلاوة اذا ما قورنوا ، بـذلك النوع من الادعاء والتظاهر •••

امرسون هنا يلقى محـــاضراته ــ أو بالأحرى أجل محاضراته ــ لمدة أسبوعين ، لكى يستأنفها عندما يفرغ الناس من عبثهم ولهوهم ويقبلون عليها بكل انتبـــاههم وشغفهم • اننى أراه كثيرا • ولقد عبر لى أنه مشغوف جدا بأفكارى ــ فيما عدا أنه يراها أفكارا تقدمية جدا • ولقد قرأ مسودة احدى محاضراتى منذ أيام قليلة ــ وهى الآن تطبع ــوقال عنها كلاما لطيفا ومخلصا ــ وان كان قد أردف ذلك بقوله اننى (نسبيا) «جنتلمان حديث فى العصر السوريانى » • ومرد ذلك الى أنه لا يؤمن بالانسان ، أو على الأقل لا يؤمن بالتقدم • انه لا يتصـــور امكان « الاسراع بانضاج الكعك » على نطاق واسع • بل هو فى الواقع من الأمر ينكر أن أى كعك يمكن أن يخبز ويسوى وينضج على أى نطاق أوسع أو أكبر من نطاق مشواة الأسرة • انه مهتم جدا بمسألة الخلود ، وينفخ فى مضخة جافة قائلا ان كوسوث ــ بصفة عامة ــ لن يكسب شيئا فى هذا الوطن من وراء حركته سوى العطف الشخصى الخاص • اننـــا لن نتحرك ونمضى قدما حتى يدهمنا الغزو من انجلترا على قوى ظلام القارة • وعندئذ يتحتم علينا أن نعبىء كل سفننا • ولكن ••• معذرة ومغفرة لاقحامى أمورا سياسية على رجل فنان مولع بالتحف والطرف وزخارف الدنيا مثلك ! ••• صـــدقنى صـــديقى العزيز تويديوس المعتمد • اننى مخلص لك دائمـــا ••• والسلام • هـ•ج •

ثمة صورة أخرى لتلك السنة نفسها ، ولبيت نيويورك فى شارع ١٤ رقم ٥٤ غرب، ترسمها ذاكرة طفل كان عمره وقتئذ ست سنوات،وهذه الصورة الحية جاءت فى رسالة لروبرتسون چيمس :

« يا لها من قافلة من الشخوص تخرج من الظلام كالأطياف ••• فهذا عمى وليام قادم من ألبانى ، وهو يلقى بقميص نومه وقلنسوة رأسه وفرشه وبقية حاجياته من نافذة الحافلة فى أثناء مرورها ، وهى تنقل الراكبين من قطار ألبانى الى أدنى برودواى حيث سيعود منه متأخرا فى آخر اليوم ، وهو يشير الى الخادم المشدوه الواقف على عتبة دارنا قائلا ان تلك الأشياء التى ألقاها هى حاجاته وانه سيعود فى المساء • أما عبارة « أخبر هنرى ومارى » التى كان يصيح بها وهو راكب فى الحافلة ، فكانت تتوه فى ضجيج وعجيج صوت العجلات وهى تطوى الأرض فوق أحجـــار الطريق • وألا أنسى تشـــارلز دائـــا فى أمسيات السبت على مائدة العشاء ، وچورچ ريبلى ، والمستر بايارد تايلور وهو يتحدث عن قسوة الشتاء فى الشمال ، وأنفه الذى يتجمد من شدة البرودة ، ثم زوج بنت المستر بريانت الذى نسيت اسمه ، ولكنى لم أنس ألطف وجه وآنسه فى أمريكا كلها ، الذى كان

يتميز به • وعمى ادوارد • وچون ، وعمى جاس(١١) • وأذكر آل ماك برايدسن ، وآل فان زاندت • والجدة چيمس فى ثوبها الحريرى، وأقراص نعناعها ، وقفازها المزركش بالدانتيلا، وابتسامتها الحلوة الكريمة • ثم آل السنترز والكوسترز والايرنسايدز • ثم هنالك أيضا أمى التى كانت تقطع الشارع السادس كل صباح لتذهب الى سوق واشنطون حاملة السلة على ذراعها • أما هذه فانا متأكد منها، لأنى كنت ألحق بها وعمرى ست سنوات ، متعلقا بأذيال شالها • وفيما بعد كان آل الفاندربول والفاندربرغ ممن يؤمون دارنا • ثم بعد ذلك مدرسة الرقص • ولاريب أن وليام سيتذكر اسم صاحب هذه المدرسة : الجنرال فيرانو ، الذى برز اسمه فيما بعد كجندى باسل فى الحرب • وفى وسعى أن أمضى الى مالانهاية فى سرد هذه الذكريات • وبعضها مازال واضحا جدا فى مخيلتى ، مثل منظر الجنرال كوسوث وهو يختال فى أحد مواكب الشرف والترحيب على طول شارع برودواى (١٢) •

وثمة رحلة أخرى الى أوروبا — دبرت لعدد مختلف من الأسباب الشخصية والعائلية ، بما فى ذلك تربية الأطفال • ولقد تمت تلك الرحلة فى غضون سنة ١٨٥٥ • وعلى الرغم من أواصر الصداقة الوثيقة التى انعقدت بين چيمس وامرسون لسنوات طويلة ، الا أن چيمس لم يزر امرسون فى كونكورد أبدا أو يتعرف على أسرته • ولقد قدر لهذه المناسبة السعيدة أن تتأجل حتى عودة چيمس من مقامه بالخارج بعد بضع سنوات • والقصة الكاملة لهذه الأوديسة التربوية الهامة ليس مكانها فى هذا السياق ، وانما سيجدها القارىء فى جزء آخر من هذا السجل • بيد أن الرسالة التالية تزودنا بلمحات بسيطة عنها بالاضافة الى مزيد عن كارليل •

ولقد سبق لچيمس أن قابل كارليل فى سنة ١٨٤٣ ، ثم جدد معرفته به عندئذ • وفى أثناء كلتا الفترتين من اقامته فى انجلترا يبدو أنه كان كثير الزيارة لبيت كارليل حيث لقى كل ترحيب وإكرام وفادة • وبمناسبة ابحار چيمس من أمريكا كتب له امرسون رسالة توديع ، رد عليها چيمس بالكتاب التالى :

---

(١١) William Cullen Bryant's son-in-law was Parke Godwin. William, Edward, John, and Augustus were brothers of H.J. I .

(١٢) To A.H.J., February 24,1898; for another extract from this letter, cf. below 51.

لندن (١٨٥٦)

عزيزى امرسون —

أعتقد أنك لو لم تنعم على بكل هذا السخاء الفياض والكرم النبيل فى رسالتك التوديعية ، لكنت قد استحضرت نفسى فى خلدك ست مرات على الأقل • ولكنك سباق الى الفضل ، فقد برهن كتابك على أنك أسرع عاطفة ، ومن ثم غمرتنا جميعا بشعور من الحلاوة والعذوبة التى خلفناها وراءنا —تلك العذوبة التى تستقطر من الأعماق المقدسة للفؤاد الانسانى • ولقد جنبتنا مغبة التهور فى الاندفاع عائدين من حيث أتينا • فلقد شعرت بحنين جارف الى الوطن ، بعث فى نفسى احساسا حقيقيا بالكآبة كلما فكرت فيه • صحيح أن كل حاجاتى تلبى هنا ، فيما عدا حاجة واحدة تعرفها أنت وتملكها ، انها حاجة تنبثق — فيما أتخشم — من رجولتى الأمريكية ، وتتطلب من أتراب المرء وخلانه ضربا من الروح المفتوحة التى تتجاوب مع روح المرء • ويقينا أنت من أصحاب هذه الروح — الروح الملأى بالأبواب والنوافذ —روح جيدة التهوية والمنافذ مفتوحة لتلقى كل نسمه تهب دون أى كهوف مظلمة تعشش فيها بهارج سلفية أو سياسية أو كهنوتية • ولكم تمنيت حقا — أن أجد هذه الأبواب والنوافذ الكريمة — أحيانا — أكثر احتفاظا وابقاء على ما يدخل منها ، أو أكثر غيرة على ما يخرج منها بتلك السرعة الجبارة •• ولكم تمنيت حقا أن تهيىء تلك الغرف الجليلة السنية من كرم الضيافة مرقدا فسيحا يلوذ به الضيف المتعب من عناء السفر ، حيث يستطيع أن يسكن وينام حتى موعد وجبة الفطور التالية • ولكن لعلى رجل شهاء نزيز — وانى لكذلك بلاريب طالما أنك مضيف لانظير له — مرفأ رطب مكسو بأوراق الكرم الخضراء المتسلقة ، ومحاط بالأروقة والرحبات البازدة الهواء الملائمة لضيافة وتسلية الضيف الديموقراطى ، وهو يمضى فى طريقه من الماضى الآبق البالى الى ايماءة المستقبل المشرق المزهر •

وهذا هو ما يفتقر اليه الرجال هنا — كل الذين أعرفهم على الأقل • فكلهم يعانون من الكآبة والضيق والمرارة والحسرة من جراء المضايقات الاجتماعية التى تحدق بهم ، وكلهم مصابون بحالة زيغ أو انحراف أو تشويه لذاتيتهم ، أو مجردون على نحو ما من رجولتهم الشخصية المثمرة ، بسبب حتمية تقديمهم اللازم لذينك الميراثين الآبقين المعتوهين : الكنيسة والدولة • أما كارليل فمازال كعهدك به ، كالسجق العتيق الذى يئز أزا ويفور ويمور ، مطشطشا بنشيشه المقلى فى شحمه، ولم يجد عليه جديد سوى أنه أصبح على غير وفاق — نهائيا مع العناية الالهية المباركة التى تدبر شؤون الخلق • على أنه يذكر اسم الله مرارا وتكرارا ، ويشير الى الملكوت الأعلى ، والملأ الأعلى ، وأعلى الآفاق ، كما لو كانت حقائق واقعة — وان كان فيما يبدو أنه لا يعقل ذلك الا من قبيل التأثير الوصفى الخلاب — فهو يعتبرها ضربا مألوفا من ضروب المخاتلة والخداع التى يستخف بها الساسة • ولقد اصطحبت صديقنا ماككاى(١٣) لزيارته ، وخرج من عنده مكروبا ومغموما

(١٣) There is an account of this interview in James's published recollections of Carlyle, L.R.H.J., 446 ff. The friend is Col. Jamse Morrison Mckay (Later changed to Mackaye) 1805-88, artist, abolitionist, and man of affairs, who moved from Buffalo to Newport about 1850. When James came to reside in =

وخائب الرجا ـ فقد بذل كارليل قصـــارى جهده لكى ينكر ويجحد ويسخر ويندد بفكرة كونه قد أدى أى خير لأى انسان ، ثم أعلن أقصى ما عنده من ازدراء لكل من يظن أنه فعل ذلك ، الأمر الذى تضمن ماك‌كاى حيث ان كارليـــــل تعمد التوكيد المطلق لهـــذه الحقيقة بالقياس الى حالة ماك‌كاى نفسه • انه ليخطر ببالى أن الطبيعة الاســـكوتلاندية لاتستجيب بسهولة للثقافة التقليدية العرفية فى أسمى مراتبها • ولعل كارليل كان يصبح أكثر توفيقا فى النواحى الشخصية لو أنه ظل واعظا كاميرونيا • واذا كان اضـــطهاد ايحكرماً قد خلف فضلا من الهبات أو بقية من العطايا لهذه المهنة ـ بدلا من أن يهبط الى دوائر لندن حيث ينعم باطايبها ويغترف من نعمها •

وداعا ياعزيزى كارليل ، وثق أننى أكن لك حبى واخلاصى الأبديين •

هـ• چيمس

وبعد موت كارليـــــل فى سنة ١٨٨١ نشر چيمس « مـــذكراته الشخصية (١٤) » متضمنة تفاصيل أحاديث كارليل التى سجلها فى تلك الأيام المبكرة • وعلى الرغم من أنه فى تلك المقالة الأخيرة شهد بأنه يكن كل « تبجيل ودود » لذاكرة كارليل(١٥) ، الا أن الرسائل التى تلت ذلك تبرهن على أن حماسه الأول لكارليل ككاتب قد أصـــابه الفتور شيئا ما بكارليل بلحمه ودمه ، وأن اعجابه به كان مشوبا ليس فقط بالخلاف والانشقاق ، ولكن أيضا بشىء من النفور الشخصى •

ولقد اتصف الرجلان بخصيصة التشهير والفضح ، وتميز كلاهما بأسلوب عارم فى الحديث والكتابة، بيد أن چيمس كان فى جوهره متفائلا وسهل الهضم ، فى حين أن كارليل كان متشائما وعسر الهضم • وكان كارليل يحتقر الناس ، واذا ما أحبهم فانه كان يفعل ذلك من قبيل الشفقة على ما فيهم من ضعف وعجز • أما « حياته الفكرية » فقد كتب چيمس أنها :

« كانت تتألف ـ فى معظمها ـ من النواح على رذائل جنسه ، أو أنه كان يســـتلهم وحيه من الضياع واليأس بحيث أنه لم يكن فى وسعه الا أن يشعر بالازدراء والاحتقار

=Newport the two men became close friends, and James later rented McKay's house for two years (1860-61). William and Henry were schoolmates and playfellows of Mckay's son, James Steele McKaye, the famous dramatist actor, and theatrical manager, father of Percy MacKaye, the poet, and James MacKaye, the economist. (Cf. Percy MacKaye, Epoch, The Life of Steele MacKaye, 1927, 1.)

(١٤) Atlantic, XLVII (1881), 593, reprinted in L.R.H.J.

(١٥) L.R.H.J., 422.

نحو اى انسان بمجرد أن يجده على وفاق مع مجرى التاريخ • لقد كانت الشفقة أو الرثاء أو الحسرة هى أسمى أسلوب من الحديث يسمح به لنفسه مع بنى جنسه • لقد أشفق وتحسر على كل أصدقائه بنفس الدرجة التى احبهم بها ـ كانت شفقته عليهم هى مقياس حبه لهم • لقد كان دائما يقول « المسكين جون سترلنج ـ المسكين چون ميل ـ المسكين فردريك موريس ـ المسكين نيوبيرج ـ المسكين آرثر هلبس ـ المسكين الصغير براونتج ـ المسكين الصغير لويس » ••• وهلم جرا ••• كما لو كان معبد صداقته مستشفى ، وكل نزلائه مصابون بداء الخنازير أو مقعدين بداء الشلل (١٦) » .

أما چيمس ، فعلى نقيض كارليل ، لم يكن ينسى أبدا الانسان فى الناس ، وكان حبه ينضح بشذا الاحترام ـ ان لم يكن بالتبجيل والتقديس كان خير مثال للأمريكى الطيب ـ خصوصا ابان اقامته فى انجلترا ـ على حين أن كارليل لم يكن يتردد فى التعبير عن رأيه المزدرى للأمريكيين، جماعيا وفرديا • وعلاوة على ذلك فان كارليل كان يكيل الذم والاهانة والاستخفاف للمصلحين بصفة عامة ، ولفورير بصفة خاصة • وهنا كانت رأس وجبهة ذنبه واساءته ... الافتقار الى ذلك الايمان والحماسة والحمية التى تحرك المصلحين ـ والتى كان الأمريكيون بطبيعتهم ـ مهيئين لهـــا بالاستعداد والميل • وفى هذا الصدد يقول چيمس :

« لم يكن هناك شيء يصيبه بالخبل والجنون أكثر من أن يظن خطأ أنه مصلح مصمم حقا ـ وعمدا على اقامة شريعة الله من العدل والقسط والبر فى الأرض ، والتى هى مقاصــد العدل الانسانى فى شموله وعموميته • وهذا ما جعله يكره الأمريكيين ، ويسمينا أمة من الثقلاء والحمقى ، لأننا حملنا كلامه على محمل الجد ، وحسبناه فى عداد أصحاب النوايا الخيرة المخلصة حيال بنى جنسه • لقد كرهنا لأن ثمة غريزة باطنة انباته أن ايماننـــا المفرط به لن يكون له ما يسوغه أبدا اذا ما نفذنا الى لبه وعرفناه عن كثب ، اذ لايحب المرء رجلا يحمله بالاكراه على احترامه والاعتراف به بطريقة مبتسرة سابقة لأوانها (١٧) » .

بدأ نادى السبت ـ الذى زكى امرسون صديقه چيمس لعضويته الرسمية ـ اجتماعاته المنتظمة فى شتاء عام ١٨٥٥ ـ١٨٥٦ • وكان قوام هذا النادى جماعة من الأرواح المتآلفة المتجانسة الذين يتناولون الغداء معا ـ من أطيب الطعام وأجوده ـ فى فندق باركر فى بوسطن ، حيث يجتمع شملهم فى الساعة الثالثة بعد ظهر آخر سبت من كل شهر •

---

(١٦) L.R.H.J , 424.

(١٧) Ibid., 451.

وكان الأعضاء المؤسسون هم لويس أجاسيز ، وتشارد هـ . دانا ، چون س . دوايت ، امرسون ، القاضي ابنزر ر. هور الكونكوردى ، لوويل ، موتلى ، بنچامين بيرس أستاذ الرياضة الشهير بجامعة هارفارد ، ساموبل ج. وارد صاحب البنوك وراعى الفن والآداب ، أدوين ب . هويبل المحاضر وكاتب المقالات ، وهوراتيو وودمان أكثر أعضاء النادى نشاطا ودعاية وتنظيما له . ومن بين غيرهم ممن انضموا الى النادى فى باكورة انشائه الأديب لونجفلو ، الدكتور هولمز ، و. هـ. برسكوت ، هويتيار ، هوثورن ، چون م. فوربز التاجر ومنشىء السكك الحديدية ، تشارلز اليوت نورتون ، وصاحب النيافة القسيس فريدريك هـ. هيدچ ، من أتباع مذهب التوحيد ، والذى كان يشرف على عدد من الكنائس فى بانجور ، وبروفيدنس وبروكلين ، والذى شهر بمعرفته بالأدب والفلسفة الألمانية ، والذى شغل منصب أستاذ التاريخ اللاهوتى ، ثم أستاذ الألمانية فيما بعد فى جامعة هارفارد . وكان من ضمن السابقين فى عضوية النادى أيضا تشارلز سومنر ، چون أ. آندرو حاكم مساشوستس الشهير ابان الحرب ، چيمس ت. فيلدز الناشر والصديق لمشاهير المؤلفين ، جيفريز وايمان أستاذ التشريح بجامعة هارفارد ، أ.و. جيرنى أستاذ التاريخ وعميد احدى كليات هارفارد ، وليام موريس هانت الرسام الذى كان من جيران چيمس فى نيوبورت ، وتشارلز فرانسيس آدمز. وعلى الرغم من أن چيمس كان قد عاد من أوروبا نهائيا فى خريف سنة ١٨٦٠ ، الا أنه لم ينتخب لعضوية النادى حتى سنة ١٨٦٣ عندما كان على وشك نقل مقره من نيوبورت الى بوسطن(١٨) . على أنه فى غضون تلك الفترة كان يداوم على حضور الاجتماعات كضيف مدعو . وفى احدى تلك المناسبات — فى اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٦١ كان زميلا فى الضيافة مع وليام ايلرى تشاننج الشاعر الكونكوردى . والرسالة التالية تسرد انطباعاته فى تلك المناسبة ، وقد كتبت بأحذق وأرهف ما لديه من أسلوب طلى مسرف . أما شخصياتها فچيمسية بكل دقة . وعلى سبيل الحصر ، انه لم يتردد أبدا فى فضح أقرب أصدقائه اليه ، أو فى الانسياق وراء نزعته

---

(١٨) James moved to Boston in the spring of 1864, and from that time on he was a frequent attendant .He liked Dr. Holmes above all his fellow members save Emerson.

التصويرية الخيالية الى ذروتها ، على حساب كل اعتبارات التنـــاسب والاحساس بالتعادل النسبى • وحقيقة الأمر طبعا أنه لم يقصد ذلك أبدا عامدا ، وأنه كان يتوقع أن يكون ذلك مفهوما • لقد كانت هناك رقة صامتة تشع فى وجهه ، أو أنه كان على نحو ما ودودا ومحبا وصفيا فى سخافة قدحه ذاتها — الأمر الذى يجعلها تقوم بدور المقاصة والعوض فى المعنى الأدبى لكلماته •

بوسطن مساء الأحد (١٨٦١)

عزيزى امرسون —

سأذهب الى كونكورد فى الصباح ، ولكن لن يكون لدى أى متسع من الوقت لرؤيتك اذا كنت سأنجز كل ما أنتوى فعله • ولكننى لا أستطيع أن أمسك عن ذكر كلمة أريد أن اقولها عن هوثورن وايلرى تشاننج : فهوثورن ليس رجلا وسيما مليحا ، ولا هو بالرجل الجاذب للقلوب بأية حال شخصيا • لقد كان منظره طوال الوقت — لمن لايعرفه — كمنظر محتال وجد نفسه فجأة محوطا بالمخبرين السريين ، ولكن على الرغم من بداوته شعرت حياله بنوع من الانعطاف الذى بلغ حد الغم ، ولم أستطع أن أحول عينى عنه طوال فترة الأكل ، أو أصرف عنه انتباهى المدله الذاهل فيه ! كما أخشى أن يكون ذلك المتردد الحائر القصير ، الدكتور هيدج ، قد لاحظ ذلك ووجد أنه على حسابه ، لأننى لم أكد أسمع واحدة مما ظل يقوله لى ويصك سمعى به ، لدرجة أننى شعرت فى احدى اللحظات بدافع يحفزنى الى أن ألقى به بعيدا وأقذفه الى المستر باركز لكى يتولى ازاحته من الغرفة ، على اعتبار أنه عقبة وضعت شخصها التافه المتكلف بتعمد وخبث بينى وبين موضوع نفيس نافع للدرس • على أننى قد نزعت ما فى صدرى من غل الآن نحو هيدج ، ولم أعد أحمل له أية ضغينة ، وفى وسعى أن أوصى أى فرد (فيما عدا نفسى) بأن يذهب اليه ويستمع الى مواعظه • أما هوثورن فقد بدا حائزا لكل الجوهر الانسانى ، وأنه لم يبلده أكله شذر مذر كما فعل ذلك الفاسق تشارلز نورتون ، وذلك الصالح الطيب السليم الطوية المواسى لونجفلو • انه يبدو أقرب جدا الى الكائن الانسانى من كل من كانوا يجلسون على ذلك الطرف الآخر من المائدة • ووجود چون فوربس ووجودك فى الطرف المقابل من المائدة أحدث شيئا من التوازن ، ولكن هذا الطرف كان صحراء جرداء ، لم يكن فيها واحة سواه • لقد كان مما يثير الشجون أن تراه قابعا مكتفيا منسدحا كالقوة الكونكوردية — هكذا كان وهكذا كان دائما — وقد أحضرت معصوبة العينين الى ضوء النهار الوهاج ، ثم يتوقع منه أن يغمز ويلمز ، وأن يفور ويمور بالحيوية تماما مثل أى لبيب أريب من أمثال تومى تيتماوس أوجينى رين • لقد انكب على طعامه ودفن سكينه فى طبقه ، وأكل بنهم وشراهة حتى لايتيح لأى شخص أن يجرؤ على توجيه سؤاله •

لقد انفطر قلبى عندما ظل ذلك المائع تشارلز نورتون يطارده بملمس طرفه الطويل ، ويشرعه فى وجهه محاولا أن يعرف اذا ما كان مغمض العينين • ان الفكرة التى انتهيت

اليها - وهى فكرة الحث على بقوة شديدة - هى أننا جميعا فاسقون فاسدون على قدر فظيع مريع ، واننا مجردون الى حد اليأس من أى احساس أو وعى انسانى ، وأن فى نية العناية الالهية أن تغشينا وأن تطمس معالمنا وتمحونا محوا بطوفان جديد ، ستكون فيه كونكورد هى أولى مايبيد فتصبح حصيدا كأن لم تغن بالأمس • لقد كان أمرا علويا مجيدا أن تراه مصرا ومثابرا على تجاهل تشارلز نورتون ، وقد أغلق عينيه ضد ابتسامته الشبحية ، وقد انصرف الى طعامه يزدرده غير حافل بأى شىء آخر ، ثم يمضى الى مأواه فى كونكورد ، ويركع على ركبتيه سائلا أباه الذى فى السموات : لماذا لاتبقى القوقه قوته ولا تقسر قسرا على الدخول فى ملكوت الكناريا ؟ • وأحسب أن كلّ الملائكة الأبرار استجابت لدعائه فى تلك الليلة ، ولبت نداءه وحفت به ، وسكبت على جراحه البلسم الشافى ، الذى يبرىء الآلام ويأسو الجراح ، والذى هو خير وأفضل من كل ما عرف السادة الكرام •

أما وليام ايلرى تشاننج ، فقد بدا أيضا طيبا وانسانيا ، عذبا وحلوا كالصيف ، وذكى الرائحة كشذا غابات الصنوبر • وهو أكثر سفسطة من الآخر طبعا ، ولكنه مع ذلك كان من الأقارب • ولقد شعرت بأن العالم أطيب وأكثر خصوبة برجلين لم يفقدا ذاتيتهما فى قطيع المجتمع • ان هذا هو ما يساورنى • اننا نمضى سراعا الى الاحساس بالخوف المتبادل بيننا ، نحن « أعضاء المجتمع » ، بحيث أنه لن يمضى وقت طويل قبل أن يقتل بعضنا بعضا دفاعا عن النفس ، وبهذه الطريقة تتبدل الأمور فى نهاية المطاف الى حالة أكثر صدقا وحقيقة • ان العالم القديم تساقط كسفا على رؤوس الجميع ، والكل يشارك فى تحطيمه • ان ومضة الصوان الخالد التى لمحتها فى هوثورن ووليام اليلرى تومىء الى أن هناك رصيدا كافيا مدخرا لخمسين أفضل • فليذهب الدجل القديم الى غير رجعة ، بقضه وقضيضه ، وبجعجعته وعفشه ، فثمة عالم جديد حقيقى جوهرى فى دور المخاض ، وعما قريب ينبثق الى الوجود ، ولن يرقى فى هذا العالم فظ ولا أحمق الى مرتبة الكرامة والسؤدد ، ولن تلوث فيه البراءة والطهر أو تصبح موضع أخذ وعطاء ، وستكون فيه حرية كل انسان موضع احترام الى آخر خويط فيها باعتبارها محراب الله المقدس النورانى • ان سويدنبورج يقول ان الموت عند الملائكة يعنى بعثا جديدا للحياة ، بمقتضى تلك القاعدة المكوسة الضرورية التى تفصل بيننا وبينهم وتفصل بينهم وبيننا ، ومن ثم تحول بين الفريقين وبين تبادل المضايقات والازعاج •

وعلى هذا فلنقبل الخراب السياسى وبقيه ضروب الدمار والانهيار كما يطيب لها أن تحدث ، لأن ما يبدو فوضى وحنقا وسخطا ومنازعة على السطح ، هو لا ريب يمثل أعمق الهدوء والسلام والسكينة فى المركز ، ملتمسا طريقه من ثم الى سطح لن يكون أبدا مختل النظام » •

المخلص

هـ٠ج

حاشـة ··· يالها من دنيا ! وما اعجبه من عالم ! ولكن بمجرد ان نتخلص من الرق فستصبح السماوات الجديدة والأرض الجديدة الى الحقيقة سبحة (١٩) ·

وبعد بضعة شهور علق امرسون على هذه الرسالة على النحو التالى :

« ولم يسبق لى أن كتبت لك شاكرا – ولو كلمة واحدة – على تلك الرسالة المحدودة بشأن النادى · انها تنضح بأسمى وأنبل معـــانى الصدق فى أضوائه الفسيحة ، بحيث لايسع المرء الا أن يتغـــاضى عن الظلال المتمردة الجموح التى آثرت أن تلقيهـا على بعض أصـــنامنا الغريبة ، ولكننى أصررت على قراءة الرسالة كلها على مســـامع ايلرى تشاننج الذى حاول دون جدوى أن ينكر غبطته · أناشدك أن تستمر فى اشعاع نورك – على الرغم من جحودى · فاذا تفضـــلت مشـكورا بأن تبعث الى برسالة من حين لآخر ، فأكبر الظن أن عصيانى وعدم امتثالى ، أو شيخوختى ، لن تستطيع أن تقاوم أعداءك طويلا · ان قلبى سيذوب وينساب وفق مشيئتك · »(٢٠)

ومضت العلاقات بين چيمس وامرسون تتوثق أواصرها ، ثم امتدت لتشمل أسرتيهما، على أثر عودة چيمس من أوروبا فى سنة ١٨٦٠ ،عندما التحق أصغر أبناء چيمس ويلكنسون وروبرتسون بمدرســـة فرانك سانبورن فى كونكورد . ثمة رسالة من چيمس الى المسز وليام أ. تابان تصف هذه الحادثة الهامة ، وفى نفس الوقت تتضمن صورة رائعـــة لامرسون فى بيته :

« ركضنا – مارى(٢١) وأنا – يوم الأربعاء الماضى حاملين ويلكى وبوب لكى نسلمهما الى سانبورن الشهير ···· ثم يممنا شطر امرســـون وخوضنا الى ركبنا فى محصول من

---

(١٩) This letter has been printed with omissions in Sanborn and Harris, A. Bronson Alcott, 1893, 465-8; E.W. Emerson, the Early yearls of Saturday Club, Houghton Mifflin Co. 1918, 331-2; and E.D. Hanscom, The Friendly Craft, 1908, 152-4؛ A passage in H.J.[2]'s Hawthorne(1880,78)is reminiscent of part of this letter of his father's : "He (Hawthorne) must have been struck with the glare of her understanding (Margaret Fuller's), and mentally speaking, have scowled and blinked a good deal in conversation with her".

(٢٠) March 29, 1861.

(٢١) Mary Walsh James, beloved wife of H.J.[1].

التفاح والكمثرى – تعبت فروع شجرة من ثقل حمله ونضجه المترف فأسقطته ، لكى تتلقفه أحضان الحشيش الأخضر حانية ومرحبة .... ومضينا نخوض في هذه الثمار حتى لاح لنا اله الرعاة Pan هاشا باشا فى وسط ببته ، هفهافا خفيف الروح ، يشع كرما وظرفا ، يدق طبول الترحيب فى ابتهاج وسرور . ان الزمن لم يترك بصمة واحدة من بصماته على الرونق الباهى الذى عهدناه فى وجهه دائما ، ومازالت أنفاس الصباح الندية تحف به كهالة لا تخطئها العين ، وعبير الغابات العتيقة يفوح منه بطيب شـــذاه ، على أننى مازلت أصر على انه اله رعاة متطوع باختياره ، وأنها حالة مجرد عناد وصـــلابة رأى وتمرد وثورة من جانبه بمثابة عارض اتفاقى مرتبط بقدرة طاحنة على الهضم السليم ، وتدفق شـــاذ فى الخـــال ، وليس عندى أدنى ريب أنه – حتى هو – مع كر السنين سيقر آخر الأمر بأن الطبيعة تابع ورافد وليست كائنا أسمى .... ومن ثم ، وعلى أمواج تلك الموسيقى الودودة سبحنا الى حرم التربية المقدس ، ووهبنا ولدينا الطيبين العزيزين المبشرين بالخير والنجابة ، ووضعناهما أمانة فى يد معلم المدرسة . وخلاصة القصة أننا تركناهما ثم عدنا أدراجنـــا الى المنزل ، يراودنا احساس باننا سلبنا ريشنا ، ويغمرنا شعور بالمرارة والحسرة والكآبة ، وكل ما نبتغيه هو ألا يموتا من البرد فى أى من تلك الأيام القارســـة البرد ، قبل أن يدركهما الحنان الأبوى لكى يدفئهما ويعيد اليهما الحياة ، أو ينعشهما ويهيىء لهمـــا من أمرهما رشدا (٢٢) .

ولقد تتبع آل امرسون باكورة نمو وليام وهنرى چيمس الصغـير ومغامراتهما فى أوروبا باهتمام أبوى . وكان والدهما الفخور أحيـــانا يحمل رسائل ولديه الى كونكورد ويقرؤها على الملأ . والكتاب التالى المرسل الى وليام من والده يكشف عن اهتمام امرسون بانطباعات وليـــام عن هرمان جريم ، وهو يتضمن أيضا سجية أخرى اتصف بها امرسون ، وهى خصيصة لايستطيع أن يذكرها چيمس دون أن يرسم ملامح صورته :

كامبردج ١٨ مارس (١٨٦٨).

« عزيزى ويلى –

كل شىء يمضى من أسبوع لأسبوع كعهدك به – دون هزات أو مفاجآت سارة تستحق أن تزف أنباؤها اليك ، الأمر الذى يجعل رســـائلى مجرد بلاغ حب . اننا جميعا هنا نبعث اليك بغامر حبنا ، وأصدقاؤك فى كل مكان يشـــيدون بمدحك وذكرك . وامرسون يريد منى أن أحمل اليه كل رسائلك التى تمس آل جريم ، لكى تقرأ هنـــاك فى اجتماع خاص ، ومن ثم فأنا أذهب الى ذلك الاجتماع يوم السبت التالى لذلك الغرض . وتصادف أننى كنت أقرأ احدى رسائلك الأولى التى بعثت بها من درسدن ، والتى تناولت فيها نســـاء ألمانيا واللغة الألمانية ... الخ ... وكادت الين امرسون تصاب بنوبة وأنا أتلوها ، وانى لآمل

(٢٢) These extracts are taken from the letter as published in N.S.B., 221 ff.

أن تنجو من كارثة يوم السبت · ان عدم واقعية امرسون حيالى تزداد أكثر وأكثر على نحـو موصول ، وعلى المرء أن يتعامل معه كما يتعامل مع طفل ، فيغفر له متغاضيا بكل وسـيلة عن جهله بكل ما يتجاوز الحواس ، الأمر الذى يرهقك من أمرك عسرا ، ويقتضى منـك كدحا شديدا لعقلك فيه من العنت والتعب ما يكاد يزهق الأنفاس · ولايسعنى الا أن أقول انه يتعمد الحزلقة ! فليس عنده أى انعطاف نحو الطبيعة ! وما هو الا نوع من الجاسوس البوليسى عليهـا ، الذى يطاردها فى مخابئها ومكامنها ، ويحصى عليها أدق حركاتها وسكناتها ، ويسجل إدهتى ملامحها بقصد فضحها واذاعتها على الملأ ليس الا · صحيح أنه بصاص ومخبر حـاد من طراز نـادر ، ولكنه بصـاص ومخبر فحسب ـ لا أكثر ولا أقل · وهو لا يترك هذه الوظيفة أبدا ولو لبرهة بحيث ينسى نفسـه وينغمس فى الوهم الجميل ، ولكنـه دائما فى حالة من يتأكد أنه يبدو كصـائد السـمك الذى يزهو بالسمكة التى اصطادها وقد علقت بالشص · وفحوى ذلك كله أنه لا يربى أى حب للطبيعة فى ذريته الفكرية · وانما بدلا من ذلك يربى فيهم حب تقليـده وترديد أقوال على غرار أقواله الذكية الحادة عن الطبيعة والانسان · ما أشد حبى له ، انه طبيعى بالفطرة ، ولكن كتبه مجردة تماما من النكهة الروحية ، حيث انها فى معظمها غاز حامض الكربون وماء !! ···
لك خالص حب واعزاز

والدك

وليس ثمة سجل يثبت وجود مراسلات أخرى بعد سنة ١٨٧٢ · كان امرسون مقصرا ، ولقد أعطى كل رجل منهما ـ بلا ريب ـ الرجل الآخر كل ما كان الآخر مستعدا لتلقيه · وكان كل منهما بالنسبة للآخر واحدا من تلك « العقول المتحيزة » التى وجد امرسون أن أصـدقاءه يملكونها بدلا من ذلك التنساق الذى بحث عنه فى أول الأمر(٢٣) ·

ولقد مات كلا الرجلين فى نفس العام ـ سنة ١٨٨٢ ـ ولكن قبل أن توافيهما المنية كانت الصلة الوثيقة التى تربطهما قد ازدادت فتورا على مر الأيام ، والعلاقة تباعدت رويدا رويدا ـ فى الذكرى والوداد ·

(٢٣) In his journal for October, 1862, he says this of Thoreau, Charles Newcomb, Alcott, and Henry James. Cf. Bliss Perry, Heart of Emerson's Journals, 1926, 289

٣

السجايا الشخصية لجيمس الكبير

فى خريف سنة ١٨٦٦ انتقلت أسرة جيمس من بوسطن الى كامبردج، حيث استقر بها المقام فى مسكنها بشارع كوينسى رقم ٢٠ فى الشارع المواجه لكلية هارفارد(١) . وفى هذا المسكن عاشت الأسرة خمسة عشرة عاما سويا . ولقد ظل جيمس وثيق الصلة بدائرة أصدقائه فى نيوانجلند ، وداوم حضور اجتماعات نادى السبت . وهكذا نجد تشارلز اليوت نورتون يكتب لكارليل فى سنة ١٨٧٦ ، بعد عودته من أحد اجتماعات نادى السبت مباشرة ، منوها بوجود « صديقك القديم هنرى جيمس بحماسه السويدنبورجى وغرابة أطواره » . ان ثمة شيئا معينا يحرك الشجن فى هذا الوصف . فعندما كتبت هذه الكلمات(٢) كان جيمس يعمل وهو فى سن الخامسة والستين بنشاط لايكل ولا يفتر وبعقيدة راسخة . أما كتابه « المجتمع – الشكل المفدى للانسان » ، وهو أحد كتبه الرئيسية الذى كتبه بأقوى وأعنف أسلوب . فقد أكمله بعد ثلاث سنوات على الرغم من اصابته بالفالج التى كانت نذيرا ببدء تدهور صحته . وعندما جاءه الموت فى ١٨٨٢ كان فى معمعة اعادة صياغة رسالته(٣) التى لم تكن أقل انتصارا وتفوقا مما سبقها . ولكنه فى نظر العالم بصفة عامة وفى نظر الكثير ممن قدر لهم أن يعرفوه جيدا ، لم يكن الا « متحمسا وغريب الأطوار » .

ولقد قضى ا. ل. جودكين السنوات من ١٨٧٥ الى ١٨٨١ فى كامبردج

---

(١) This house afterwards became the Colonial Club and has recently been torn down to make room for the new Faculty Club.

(٢) Letters of C.E. Norton, ed, by Sara Norton and M.A. De Wolfe Howe, Houghton Mifflin Co., 1913, II, 60.

(٣) Spiritual Creation, published posthumously in L.R.H.J.

حيث كان زائرا كثير التردداد ، نظرا لارتباطه الوثيق بنورتون ولوويل فى تأسيس وتحرير مجلة « الأمة » • وقبيل مماته كتب مذكرات عن « كامبردج العتيدة » ، تكشف مرة أخرى عن الانطباع الذى خلفه چيمس من أنه كان – بلا مراء – « شخصية » ذلك فلسفة مفرطة فى الابهام :

« هنرى چيمس الكبير كان شخصا لطيفا فى غرابة أطواره ، ومازحا من الطراز الأول • وعندما يكون فى حالة سخرية لاذعة كان يزعم أن عربة كامبردج المزدحمة التى يجرها الحصان – بالنسبة للرجل ذى العقل الصحيح « كانت أقرب وسائل الوصول الى السماء – على الأرض » • أما ماذا كانت طبيعة فلسفته على وجه التحديد ، فهذا أمر لم أفهمه أبدا ، ولكنه كان يعلن أنه سويدنبورجى ، وكان يتراسل بصفة مستمرة مع عدد من الباحثين المهتمين المشغولى البال فى طول البلاد وعرضها، وكانت رسائله تفيض بالوقائع الغريبة التى تبعث على الضحك • وقد عن لى أن اسأله ذات يوم عن احدى تلك الرسائل فأجاب على الفور : « أوه ••• شيطانة فى ثوب امرأة !» – الأمر الذى باغتنى بالدهشة العظيمة ، لأنى لم أكن ملما تماما باسلوبه ورسائله • ومن أكثر خبراته فكاهة هو أن السويدنبورجيين الآخرين كانوا يتبرأون من أى ارتباط دينى معه ، بحيث ان الشيعة التى كان ينتمى اليها والتى كان هو على رأسها ، يمكن القول بأنها كانت تتألف منه وحده • لقد كان كاتبا ذا قوة خارقة وبهاء وفراهة ، وأعتقد أنه لم يكن فى زمانه من يفوقه براعة وروعة فى الأسلوب الانجليزى •

أما ابنه ، المؤلف ، وقد كان آنئذ شابا فى التاسعة عشرة أو العشرين ، فكان فى أول أطوار محاولاته للتحليق بجناحيه فى الأدب • ولم يكن هنا ما هو أحلى ولا أشهى ولا آنس من العشاء عند آل چيمس – عندما يكون كل شباب الأسرة حول المائدة • كانت جعبتهم زاخرة بأغرب القصص ، وكانوا يتناقشون فى مسائل الأخلاق أو الذوق أو الأدب بقوة وفراهة صخابة صياحة ، الأمر الذى كان يدفع الشبان الصغار أحيانا الى ترك مقاعدهم والاتيان بحركات ايمائية بأيديهم جيئة وذهابا على أرض الغرفة • وأذكر فى احدى تلك المناقشات الحامية التى استعر أوارها ، أن الأبناء كانوا يصبون لعناتهم الفكهة المليحة على رأس أبيهم ، وأذكر منها على سبيل المثال «اللهم اجعل بطاطسه المهروسة مليئة بالكتل دائما » (٤) •

وذلك أن چيمس – مثله كمثل سقراط – كان بهيا وأنيسا ونديما، ولكنه مثل سقراط أيضا كان صاحب رسالة للناس كافة – بل كان على خلاف سقراط مبشرا دينيا • ولم يكن فى مستطاعه أن يتمتع الا بأيسر الايمان بفاعلية رسالته أو بتقبل ما يبشر به • ولكنه لم يقنط أو يساوره

---

(٤) Life and Letters of Edwin Lawrence Godkin, 1907, edited by Rollo Ogden, The Macmillan Co., 1907, II, 117-8.

الشك فى عقيدته ، وان كان مما لايثير الدهشة أن تنتابه لحظات كان يشك فيها فى نفسه • ولقد كتبت زوجته فى السابع عشر من مارس سنة ١٨٧٤ الى هنرى الصغير فى أوروبا تقول :

« لقد رجع والدك مرتاحا مجبور القلب من (بسطه العناية الالهية) ، ولكنه كان واهن الهمة خائب الرجاء بعض الشىء – كما هو دائما بعد أن يلقى محاضرة • ان كل مايريد أن يقوله يبدو عظيما ورائعا وصالحا ومبسور الفهم له ، ولكنه يقع ميتا على آذان الأعباء والمرتابين ، فلا عجب أن ينتابه هذا الشعوز ! »

وعندما رحلت أسرة چيمس الى بوسطن كان وليام چيمس فى أول عهده بدخوله مدرسة هارفارد للطب . وعندما انتقلوا الى هارفارد كان لا يزال منهمكا فى دراساته الطبية ، وبعد سنة ١٨٧٣ كان معلما فى كلية هارفارد .

والرسالة التالية ، التى كتبها والدهم الى هنرى چيمس الصغير ، تعطى صورة عن أحد أيام حياته الاجتماعية فى ذلك الوقت • وكان الأستاذ افريم ، والسيدة الين هوبر جيرنى ، من بين أقرب المقربين اليهم • وكان جيرنى فى ذلك الوقت أستاذا للتاريخ وعميدا للكلية والساعد الأيمن لمدير الجامعة اليوت ، فى حين كان هنرى آدمز أستاذا مساعدا للتاريخ ، وكان الاثنان طبعا فى هارفارد •

كامبردج ١٧ من أكتوبر سنة ١٨٧٣

« عزيزى المحبوب هارى

ويلى فى طريقه اليك – واليوم هو السابع منذ أبحر من الوطن(٥) ، ومن المرجح أنه سيصل عندك قبل وصول هذه الرسالة • وآمل أن يكون الجو قد ترفق بسفينته ، لأن الجو عندنا منذ أبحر قاس • لذلك أتعشم أن تكون رحلته هادئة ، على الأقل نسبيا • اننا لم نشهد من قبل خريفا بلغ هواؤه هذه الدرجة من رقة الأنسام وزها ضوؤه الى هذا الحد من العظمة ، اذ يبدو أن مشيئة السماء قصدت أن تأخذ الأرض زخرفها ، وتزين بالوان جديدة من الجمال والبهاء والرونق كل يوم • ان منظر غروب الشمس بالأمس ، بوهجه الأخاذ ، ولونه القرمزى الذى يبهر الأبصار ، كان كافيا لأن يحرك مشاعر الأنعام فنهتف صارخة «السبح لله » ••• هللوليا •

لقد تناولت غدائى قبل ظهر اليوم مع مدير الجامعة . تشارلز اليوت ، لكى يدبر لقاء على مائدة الغداء مع شخص يدعى المستر برودريك(٦) . أحد محررى صحيفة التايمز •

(٥) For Further details of this voyage, cf. below, 138 ff.

(٦) "Mr. Broderick" was George Charles Brodrick, Fellow and Warden to Merton College, Oxford, and leader writer on the Times(London) from 1860 to 1873, He was known in England for his sympathy with the cause of the Union.

أما بقية أعضاء المأدبة فكانوا : جودكين ،وأجاسيز ، وهنرى آدمز ٠ والمستر برودريك شخص عجيب جدا فى مظهره وحديثه ، وهو يبلغ فى ذلك حدا يثير شـــفقتك ويجعلك تتمنى لو أن أمه وشقيقاته احتفظن به فى البيت ٠ وأعتقد أنه وجه حوالى ثمانين سؤالا مختنقا فى مدى الساعتين اللتين قضاهما معنا٠وكان أجاسيز فى عنفوان قوته، معدة وعقلا على السواء ، وهنرى آدمز كان كئيبا عابسا وصامتا ، وجودكين يبدو كعادته ولكن مهموما، فى غاية الكرب ٠ وأما تشارلز اليوت نفسه فكان فى غاية اللطف والذوق والكرم ٠ وفى المساء تناولت عشـــائى عند آل جيرنى مع المستر أجاســـيز وحرمه ، وهنرى آدمز ، وكلوفر (هوبر) (٧) ، وجودكين ٠ ولقــد سأل هنرى آدمز وكلوفر والين (جيرنى) باهتمام بالغ عنك ، وكلهم عبروا عن سرورهم وتقديرهم لنشاطك الأدبى ٠ وكلا المضيفين وآل اجاسيز عبروا ــ على وجه الخصوص ــ عن خالص تقديرهم واعزازهم لويلى ٠ ولقد رجتنى السيدة أجاسيز أن أبعث اليه بكل محبتها ، وأن أخبره أنها لو كانت عرفت أنه سيرحل بهذه السرعة لأتت بنفســـها لتوديعه عند الرحيل ٠ وفى أثناء الغداء قبل ظهر اليوم سأل المستر برودريك المدير اليوت عن مذهب جرانت الدينى فأجاب : « طائفة النظاميين ــ على الأقل ٠ بقدر ما فى وسعى أن أستنتج من ملاحظه أبداها لى بشأن ولده عندما حضر معه لادخاله فى الكلية ٠٠٠ حيث هو الآن منخرط فى سلكها ٠ ولقد سألته عندئذ عن المهنة التى يبغيها لمستقبل ابنه فقال « أعتقد أنه سيكون قسيسا ، لأنه ولد صالح تقى » ٠

ولقد أثار ذلك ضحك الحاضرين ،ولكنى أحببت ذلك ، لأن هذا فى رأيى يدل على أن جرانت أكثر فذاذة وتفردا فى ادراكه لشئون الدنيا من الأساتذة والنقاد المحيطين بى ٠٠٠ . .

وداعا يا ولدى الحبيبين ٠ لقد سمعت عنكما أشياء كثيرة فى المدة الأخيرة بمناسبة رحيل ويلى ، مما جعلنى فخورا جدا ٠

والدكما المحب

ولقد شهدت فترة مقامهم بشارع كوينسى انهماك الوالدين المتزايد فى تدبير مستقبل أولادهما ، وخصوصا مستقبل وليام وهنرى ٠ ولقد كتب الوالد فى هذا الصدد يقول : « انها لغبطة فوق كل غبطة أن يرى المرء أطفاله يفضون ــ كما فعل أطفالنا ــ كل ما يصبو اليه القلب فى الأطفال ٠ وان غبطتى قد بلغت الذروة لدرجة أننى أحيانا أتصور أن قلبى وقد امتلأ بها لابد له أن ينفجر لكى يخفف عن نفسه » ٠ (٨)

عاش وليام مع والديه ، (باستثناء الفترات المتقطعة التى قضاها فى أوروبا) ، فى أثناء شتاء (١٨٦٦ ــ ١٨٦٧) من خريف سنة ١٨٦٨ الى

(٧) "Clover" Hooper was Marian Hooper, whom Henry Adams married in 1872.

(٨) To H.J. 2, August 9, 1872.

خريف سنة ١٨٧٣ ، ومن أوائل سنة ١٨٧٤ حتى زواجه فى صيف سنة ١٨٧٨ – حيث استمر يقطن فى كامبردج ، ولكن فى مسكن مستقل· ومن ثم عاش هنالك دون انقطاع حتى سنة ١٨٨٢ ·

أما هنرى الصغير فقد عاش فى مسكن الأسرة بشارع كوينسى من سنة ١٨٦٦ الى سنة ١٨٦٩ ، ومن ربيع سنة ١٨٧٠ حتى ربيع سنة ١٨٧٢ ، ومن خريف سنة ١٨٧٤ حتى خريف ١٨٧٦ ، وبعد ذلك استقر به المقام نهائيا فى أوروبا وظل هنالك باستمرار حتى سنة ١٨٨١ عندما عاد فى زيارة للوطن قبيل موت آمه · ولقد كانت تلك السنوات – سنوات مثيرة ومجهدة فى شق طريق الحياة وتلمس سبيلها · وباستثناء الفترات القصيرة نسبيا ، عندما يتصادف ألا يكون كلا الأخوين وليام وهنرى فى أوروبا ، كانت الرسائل تترى دائما من كامبردج ، حاملة أنباء الأهل والوطن ، ومفعمة بالاهتمام الحانى المتلهف المترقب بمغامرات المسافر البعيد · وسنقرأ بعض هذه الرسائل فيما بعد على صفحات هذا الكتاب ، حيث أنها تشكل جزءا من قصة مهنة وليام چيمس . وعلى الرغم من أن الوالد كان كثير النصح والارشاد لولديه ، وعلى الرغم من أن توجيهه وآراءه كانت موضع الاحترام والتقدير ، الا أن الاختيار النهائى لمهنتهما ترك أمر تقريره والبت فى أمره لهما · كان الآب يشارك فى اهتماماتهما بكل شغف وحرارة ، وكان يتراسل مع أصدقاء وليام من الفلاسفة ، وأصدقاء هنرى من الأدباء فى أوروبا · وأصبح زملاؤهما فى كامبردج وأصحابهما : تشونسى رايت ، أوليفر ويندل هولمز(الصغير)، تشارلز بيرس ، و. د. هوويلز ، من أقرب الأصدقاء المقربين للأسرة والأهل ·

وماتت الزوجة وأم الأسرة ، مارى والش چيمس ، فى اليوم التاسع والعشرين من يناير سنه ١٨٨٢ – عندما كان هنرى – أحب الأبناء اليها – فى أمريكا بعد غيبة ست سنوات ·

أما ماذا كانت تعنى هذه الام بالنسبة لأولادها – وبالنسبة له بصفة خاصة – فى حنانها وعطفها وايثارها وحبها الذى بلغ أسمى مراتب انكار الذات » وخدمتها الصامتة الكتوم – الشاملة للجميع – وثقتها المطلقة بالجميع على الاطلاق»،فكل ذلك يمكن قراءته فى «مذكرات ابن وأخ.»(٩)

---

(٩) 176-81

ولقد كتب الى جودكين في الثالث من فبراير يقول :

« ماتت أمى العزيزة يوم الأحد الماضى – ماتت فجأة وفى هدوء وطمانينة ، نتيجة لمرض فى القلب ٠٠٠ انك لتعرف أمى ، وتعرف ماذا كانت بالنسبة لنا – لقد كانت أعذب وأرق وأعظم تجسيم طبيعى للأمومة – كانت روحنا الحامية وعبقرية الأسرة » ٠ (١٠)

أما ماذا كانت تعنى هذه السيدة بالنسبة لزوجها – فيظهر لنا فى الكتاب التالى المرسل الى هنرى الصغير – الذى كان قد أبحر توا الى انجلترا :

بوسطن ٩ مايو (١٨٨٢)

« محبوبى هنرى –

خرجت أمس فى الصباح مبكرا بعد الافطار لكى أرى وليام ، فهرول الى نازلا من غرفة نومه لتحيتى ٠ وكانت حالته فيما يبدو على خير مايرام وأحسن بكثير عن ذى قبل ٠ ومن المبهج أن يشهد المرء مرونة روحه٠ ولقد تحدثنا طويلا – حديثا نفيسا ٠

والآن – يا ولدى العزيز – يتعين على أن أودعك – وليس فى وسعى أن اقول لك مبلغ مافى هذا الوداع من حب – وكل ما أستطيع قوله أنه فى غاية الحب والود ٠ لقد كان جميع أولادى طيبين جدا ، وفى غاية العذوبة والرقة منذ نعومة أظافرهم ٠ ولقد كنت دائما فخورا جدا بك وبويلى ٠ ولكنى لا أستطيع كتمان الشعور بأنك أنت – كنت الابن الذى سبب لنا أقل المتاعب ، ومنحنا دائما أعظم البهجة والغبطة ٠ وانى لأذكر بصفة خاصة سعادة الأم الراحلة بك، وتمتعها الكامل بصحبتك فى الأشهر القليلة الأخيرة من حياتها ، ورقتك نحوها ٠ وأعتقد أن ذلك هو ما يقربك الآن الى نفسى جدا ، ويجعلنى أعتز بك الى أقصى حد ٠ ومما لاشك فيه أن اخوتك فى نفس الظروف كانوا سيفعلون نفس الصنع ، ويظهرون نفس الرقة والملاطفة نحوها، ولكنهم لم يستدعوا لكى يعبروا لها عن ذلك٠ ومن ثم فانى لا أبخسهم حقهم بأية حال أو أظلمهم ، ولكنى أشعر أننى ورثت كل اعزاز الوالدة العزيزة لك ، مضافا اليه اعزازى ٠ وبناء على ذلك أودعك وداع أرمل واضح الترمل ٠

هذه الأم المباركة ، كم تربط ذكراها بيننا جميعا !

أعتقد أنه لن يجرؤ أى واحد منا ممن يذكرون طيبتها الطبيعية وخيرها الصافى ، وخصوصا احساسها الذى لاينام – بالعدل – على أن يشعر بالغواية بعد ذلك لكى يفعل أمرا غير شريف أو يأتى فعلا قبيحا ٠ انها لم تكن بالنسبة لى « تربية حرة » من الناحية العقلية ، كما قال أحد الناس عن زوجته ، ولكنها فعلا وحقا أيقظت قلبى فى باكورة حياتنا الزوجية ، ونبهته من غفلته ، وأقالته من سباته الأنانى ، وبعثته من خدره ، وبذلك مكنتنى من أن أصبح رجلا ٠ ولقد فعلت ذلك كله لاوعيا دون أن يخطر ببالها أبدا أنها

---

(١٠) Godkin Collection, Widener Library.

تفعل ذلك ، وانما فقط بعذوبتها ورقتهـا الأنثوية ، وطهارتها التى كانت هى نفسها لاتعترف بها • وصفوة القول هو أننى أفضل ان ألحق بها عما قريب فى مثواها المتواضع، واجد مآبى الخالد فى جوارها ، بدلا من أن يمتد بى العمر فى هذا العالم الصاخب الزاخر بالهذيان •

وداعا ـ اذن مرة ثانية ـ يا أثيرى العزيز هارى •••

سنتهلل طربا بك ـ كل واحـد منا بطريقته الخاصة ـ وأنت تشق طريقك وسط امواج البحر ، وتصل الى غرفك القديمة ، حيث سيكون مما يسلب اللب ان نفكر فيك وقد استقر بك المقام مرة أخرى وعكفت على عملك • وكم أتمنى أن تمنحك انجـلترا نفسها مقاما ومستقرا أقل اضطرابا ممـا تفعل •

واذن فليكن وداعا بطيئا متمهلا يا أعز من نعز يا هارى ـ منا جميعا ـ وفوق الجميع ـ من أبيك المحب » •

هـ • ج •

على أن جيمس لم يعش طويلا ليجتاز فترة الثكل • وعندما اقتربت النهاية رفض أن يتناول الطعام • «ودون أى تردد طالب بحقه فى الحياة الروحية ، وبكل ثبات واصرار ، وبكل ما فيه من خصائص تميزه ، رفض أن يغذى ما سماه الموت قائلا : ان الحياة يغذيها الله العلى القدير ». (١١).

وعندما مات فى اليوم الثامن عشر من ديسمبر سنة ١٨٨٢ كان ابناه الأكبران غائبين ، حيث كان وليام فى لندن ، وهنرى فى عرض البحر مؤملا أن يصل قبل النهاية • والرسالة التالية من هنرى فى بوسطن الى وليام فى لندن تصف الساعات الأخيرة فى حياة والدهما .

بوسطن ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٢

عزيزى وليام

لعلك قد عرفت ـ من قبل ـ الظروف التى وصـلت فيها الى نيويورك فى يوم الخميس ٢١ عند الظهر ، بعد رحلة سريعة وطيبة ، ولكنها مؤلمة • لقد اخبرونى بكل شيء ـ أو على الأقل اخبرونى بقسط كبير مما جرى قبل أن نفترق فى تلك الليـلة ، وما اخبرونى به كان مؤثرا جدا تأثيرا عميقا• ومع ذلك فهو ليس أبدا مؤلما بالمعنى الحرفى• لقد كان والدنا هادئا جدا ولم يتألم ، وانما صعدت روحه الى بارئها فى يسر وسكينة ، بل يبدو أن ذلك تم عمدا وبتدبير مرسوم • ولم يكن هناك ألبتة ولو مثقال ذرة من ذلك الكرب والألم المبرح والغم والارتباك الذى تصورناه فى لندن • ويبدو أن ذلك كان غريبا

(١١) Mrs. Catharine Walsh to W.J., December 23, 1882. Mrs. Walsh, a sister of Mrs. H.J. I., was a beloved member of H.J. I's household until his death. To the children she was "Aunt Kate".

جدا ومميزا الى أقصى درجــة ، بل زاخرا بالجمال لكونه كان خاليا من الألم ومبرا من العذاب . لم يحدث شيء مما كنـا نخشى حدوثه . لم يحدث شلل ، ولم يحدث خلل في العقل أو عنف هستيرى ، وانما الذى حدث ـ بعد التحسن الذى طرأ عليه وكتبوا لنا عنه من قبل أن أبحر عائدا الى الوطن ـ انه أصيب بنكسة مفاجئة ، ثم باغماء ، ثم بغشية ، في تتابع مستمر ، ثم لزم فراشه دون أن ينهض منه أبدا حتى وافته المنية . والأمر الذى يبدو غريبا انه لم يكن عنده مرض ظاهر . أما ماحدث « للمخ من تؤده » فلم يكن سوى الرفض الموصول التدريجي للطعام ، لأنه اراد أن يموت . ولم يكن هناك أى خلل في العقل فيما عدا ضرب من التمجيد والاطراء لايمانه بأنه قد دخل في ملكوت « الحياة الروحية » . ولقد فشـلت كل المحاولات لاقناعه بان ياكل ، ومع ذلك لم يتألم أبدا أو تبدو عليه أية علامة أو ايماءة تدل على الألم من جراء الجوع والوهن . وأكبر الظن أن كل ذلك سيبدو لك عجيبا ولا يمكن تصديقه ! ولكنك اذا قدر لك أن تسمع التفاصيل كما سردتها العمة كيت على مسامعى ، فستصبح هذه الأمور حقيقة واقعة ، بل طبيعية بالنسبة لرجل كوالدنا .

لقد دعا الله وصلى واشتاق الى الموت . لقد انحسر كما ينحسر جزر البحر ، ثم ذوى ومضى وقضى . وعلى الرغم من أن صحته ظلت تتدهور باستمرار ، الا أنه ظل متمالكا لقواه ، وقادرا على مقابلة الناس والتحدث اليهم . ولقد رغب في رؤية أكبر عـدد مستطاع من الناس ، وكان يتحدث اليهم دون مجهود أو نصب ...

وتروى آلس(١٢) أنه قال أشياء في غاية الفكاهة والبهاء . وكان يعلم أننى فى طريقى الى الوطن ، وكان مسرورا بذلك ، ولكنه لم يكن قلقا أو نافد الصبر . ولقد اغتبط عندما أخبر أنك ستقيم فى غرفتى فى أثناء غيابى ، وراقت الفكرة فى نظره . ويبدو أنه لم يكن معتقدا بأنه ينبغى أن يعيش حتى يرانى عند أوبتى ، وان كان فى غاية الابتهاج والسرور لمقدمى . وكان ينام كثيرا . وكما تقول العمة كيت « لم تكن غرفته تدل على انها غرفة مريض » . ولم تكن محاطة بذلك الجو الرهيب الذى يحيط بالموت . وكان يرقد مواجها النوافذ ، مصرا على عدم اسدال الأستار عليها . ذلك أن الضوء لم يكن يؤذيه أبدا ... ولقد تحدث عن كل شيء ، وعن تدبير أموره وترتيب كل صغيرة وكبيرة . والعمة كت تردد مرارا وتكرارا أنه تاق وصبا الى الموت فى صمت وسكينة .

آخوك المخلص

هـ . چيمس

على أن كلا ابنيه الأكبرين أحسا بالتفاوت اللافت بين عظمة چيمس الباطنية وبين قلة وصغر ما خلفه . وكان هناك ثمة احساس بالانكماش المفاجيء . ومن ثم فان وليام عندما سمع لأول وهلة نبأ موت والده استعرض فى التفاتة سريعة الى الماضى أحداث تلك الحياة المليئة الجياشة المشبوبة بالحركة ، ولاحظ الضآلة النسبية للآثار التى خلفتها : « فمـا تبقى هو

(١٢) Alice James (1848-1892), Youngest child and only daughter of the H.J.Srs.

عدد قليل من الصفحات المطبوعة ، نحن وأولادنا ، وبعض التعديلات ـ التي تفوق الحصر ـ لحياة الناس الآخرين التي تأثرت هنا وهناك بما قال أو فعل »(١٣) •

أما مجلد « الآثار الأدبية للمرحوم هنرى چيمس » الذى حرره وليام ونشره فى سنة ١٨٨٤ ، والذى كتب له مقدمة طويلة جديرة بموضوعها ومؤلفها على السواء ـ فلم يلق رواجا وأصابه كساد سريع. وكانت هذه النتيجة متوقعة ، اذ فطن اليها بلاشك المؤلف ، لأنه كتب فى المقدمة عن ظاهرة عدم تلاؤم والده مع عصره • وسواء أكان قد جاء متأخرا فى عصره أم متقدما عنه فهذا أمر يصعب تقريره • وسيان أن كان هذا أم ذاك ، لأن الحصيلة واحدة • وعلى أية حال فقد جاء برسالة دينية فى عصر نبذ الدين وراءه ظهريا • على أن أولئك الذين يعتقدون بالدين لم يتقبلوا أفكاره الجديدة بقبول حسن :

« فى حين أن الذين منا يتمتعون بحيوية فكرية ، اما أن يكونوا زاخرين بالتعصب ضد الاعتقاد بالله فى أى شكل من أشكاله ، أو اذا كنا متدينين على أى نحو فان تديننا يتخـذ سبيلا من الابتهال والتضرع ، ويتميز بالتجريبية ـ على حرف ـ بحيث ان منظر لاهوتى خليع من أصحاب مذهب اليقين يصيبنا برجفة تصل الى النخاع • فلا غرو أن يكون رجل من طراز أبى ـ يشع بضوئه كالسراج المنير فى مثل ذلك الزمان ـ غريبا تماما عن عصره ، مجافيا لبيئته وفى غير جوه ، ومن ثم فسرعان ما يجد نفسه موهونا مشططا ـ بعيدا عاليا عاقرا • وعلى هذا فان فعاليته كصاحب رسالة تبشيرية لاقوة لها وباطلة المفعول • وانه ليكون من دواعى الدهشة والعجب اذا كان صوته ـ وهو يصرخ فى القفر دون مجيب أو سميع ولاصدى ـ لايفتر ويموت ويذهب أدراج الرياح من مجرد خيبة الأمل » • (١٤)

على أن المحتوى كان غير معقول كالطريقة سواء بسواء ، لأن چيمس أصر على الجوهر الغائل للأمل المسيحى ، على اعتبار الموت طريقة للحياة ، فى عصر كان يجنح الى رؤية الخير فقط فى الطبيعة والانسان • وثمـــة رسالة من هنرى چيمس الصغير ـ كتبها لأخيه بعد ظهور «الآثار الأدبية» ـ تعبر عن نفس الشعور بعقم رسالة والدهم التبشرية :

لندن ٢ يناير سنة ١٨٨٥

« عزيزى وليام ـ

•••• منذ ثلاثة أيام تسلمت النسختين من كتاب والدى (وكتابك) اللتين أضفتا على سرورا بنويا وأخويا عظيما • وحتى الآن لم يسمح وقتى الا بقراءة المقدمة ـ الجزء

(١٣) To A.H.J., December, 1882, L.W.J., I, 221.

(١٤) L.R.H.J., 11.

الخاص بك ، والذى يبدو لى رائعا بارعا وفى غاية الكمال . ولابد أن كتابة تلك المقدمة قد أرهقتك من أمرك عسرا ، ولكن لقد أحسنت وأجدت وليس فى الامكان أبدع مما كان . وما أجمل وما أشهى وأبلغ اعجـــازها فى الخصوصية (وبعضـــها بلغ الذروة فى النفاسة) كل الاستشهادات والاقتباسات التى اخترتها من كتابات والدى ، والتى وفقت فيهـــا أعظم توفيق . انها تخلب لبى وأنا أقرؤها (أكثر من أى وقت مضى) متمعنا فى حقيقة أن مذهبه برمته كان أصيلا ومبتكرا وشخصيا الى أبعد مدى . وانه لأولى ثم أولى بأولئك الذين يقتحمون ملكوت الدين أن يلتفتوا بكل اكتراث لمذهبه ونظـــامه . أما أنا فليس فى وسعى أن ألجه كثيرا ، فما أنا بقادر على أن أكون لاهوتيا الى هـــذا الحد ، أو أسلم بفروضه الممعنة فى الشطط ، ولا أبتغى أن ألقى بنفسى فى مفاهيم الجنة والنار ، أو أومن على سبيل الجزم بأن أساس أو قرار الطبيعة فى الانســانية الخ ... الخ ... بيد أننى أستطيع التمتع الى درجة عظيمة بما فى الأمر كله من روح واحساس ومنهاج (وان كان المنهاج زاخرا باشـــياء تسوؤنى أيضا) . وانى لأشعر حقـــا أن والدى المسكين – وهو يكافح ويجاهد ويناضل وحيدا طوال حياته ، ومجردا من كل طموح دنيوى أو أدبى – كان مع ذلك كاتبا عظيما . وعلى أية حال فقد أديت الأمانة على أتم وجه وأنبله ، وانى لآمل أن يكون ذلك بمثـــابة معروف عظيم يسدى الى ذكراه ، وانه لجدير بضعفه !

ولقـــد وصـــل الكتاب فى وقت عصيب بالنســـبة لآليس(١٥) – وعلى الرغم من أنها لم تتمكن من الامســـاك به فى يدها الا برهة وجيزة ، فان الكتاب بلاريب سرها سرورا بالغا . لقد انفجرت باكية عندما ناولتها الكتاب ، قائلة : « ما أنبل أن يسدى وليام هذا الصنيع . أليس ذلك جميلا وكريما؟ ما أنبل وليام وأطيبه ! ما أنبله وأطيبه ! ما أنبله وأطيبه ! » ، ثم تحدثنا عن المرحوم والدى وكيف ذوى وذبل ومضى الى غير رجعة فى ملكوت الصمت الأبدى والظلام . وكيف أطبقت موجات الدنيا على ذلك النظام الذى حاول أن يبشر به ويهديه الى العالم ؟ وكيف أن صنيعك مس شغاف قلوبنا – ذلك الصنيع الذى أثق أنه سيؤتى أكله ويفعل الكثير لينقذ والدى من طمس النسيان فلا يصبح نسيا منسيا ... بلغ حبى للجميع .

أخوك

هنرى

ولعله لم يحدث أبدا – فى حالة رجل دنيوى مضطر الى الأخذ بأسباب الدنيا والاذعان لمقتضياتها الاجتماعية – أن كان العيش والتفكير ممتزجين ومندمجين على نحو تام كامل مثلما كانا فى هنرى چيمس . ولقد قال مرة – وهو يتحدث عن العقائد اللاهوتية التى آمن بها وتصدى لها – انهـــا حقـــائق حياة الانســـان نفسهـــا فى جوهرها ، وكمـــا قال ابنـــه عنه بعد مماته : لقد كانت معتقداته هى حياته(١٦) ، حيث أن الحقيقة

(١٥) The sister Alice, at this time ill and living in London.

(١٦) Nature of Evil, 1855, 13; L.R.H.J., 10.

أو الصدق العقلى كان يتكشف له فى واقع حياة هذه الحقيقة نفسها ، ومسلك هذا الصدق العقلى ذاته . ومن ثم فلم يحقق فى أن يكون ما أعتقد وأكد أو يؤكد ما كانه . وعلى نفس النهج — قدر الآخرين — بما فى ذلك أولاده — على اعتبار ما كانوا وبمسلكهم ، لا اعتبار ما قالوا أو فعلوا .

وهذه الاستقامة العميقة وطهارة الذمة والنزاهة كانت أعظم خصيصة اتصف بها فى سجاياه . وما دام هذا هكذا فان مقتضيات العرض المتتابع فى تسلسل تحتم وصف الرجل قبل أن تصف أفكاره ، اذ يجب علينا أن نعى وندرك أن هذا دون ذاك — تجريد مضلل . كان رجلا صاحب رسالة ، وفى نفس الوقت يعانده احساس طاغ بالعقم وعدم الجدوى . ومثله كمثل كثير غيره من أصحاب العقول المفردة التى لا ظهير لها ولا سند ، فقد مجد قضيته ورفع شأنها وحط من شأن نفسه . ولقد نادى بمعتقداته التى يدين بها ، وشهر بضلال غيره من الناس بنوع من اليقين التعسفى والادعاء الجازم الذى لا مسوغ له ولا سند . ولكن الأمر كان كما لو كان حمالا أو مركبة ، وليس مصدرا أو مؤلفا للحقائق والمعتقدات . فاذا أضيف الى ذلك شخصية ايجابية زاهية الألوان ، فقد توافرت لديه كل دواعى «التنزيه عن الهوى » والتجرد الغيرى الذى لا يدعى لنفسه فضلا أو استعلاء .(١٧)

والى أن بدأت ملامح المرض تبدو على چيمس ، لم يكن فيه شىء من النسك أو التقشف ، سواء فى مسلكه أم فى مظهره . ولقد وصفه ايلرى تشاننج بقوله : «هاو سويدنبورجى سمين قصير متورد الخدين عليه سيماء دلال ثرى ، وفيه عقل وقلب باسكال »(١٨) . كان ذا قوة وعافية ، ممتلئا نضارة ، طيب العرق — أما علته وسقمه اذا سمينا ما أصابه كذلك ، فقد كانت عفوية وطارئة ، ولم تكن خلقية فى طبيعته الجسمانية . وفى معرض الحديث عن صباه المبكر قال : « ان تراب الوجود الخام حول نفسه على نحو موصول الى تبر فى النار المتأججة لسليقتى الحيوانية »(١٩) . ولكونه أصيب بالعرج فقد عرف الألم وعاناه ، وكان عاجزا وذا عاهة باستمرار ، ولكن شهواته الحيوانية لم تتوقف عن الزخيخ والاحتدام . ووراء مواهبه السامية من العقل والخلق كانت تربض دائما هذه القوة العضوية الفائرة.

(١٧) N.S.B., 162.

(١٨) F.B. Sanborn, Familiar Letters of H.D. Thoreau, 1894, 145.

(١٩) L.R.H.J., 183

ولقد أفضت به في المجتمع كما قال امرسون الى أن يكون «منبسطا»(٢٠)، وليس مجرد مليح النكتة أو سريع الخاطر فحسب. كان يتدفق بفيض من الحديث المنتعش الزاخر بالحيوية • ولقد جعلته أيضا مداعبـــا ولعوبا ، فأسهم بقسط وافر في فن اللغو المتقن الذى كان خصيصـــــة من سجايا دائرة أسرته • ولقد جعلته أيضا في كل علاقاته الانسانية تارة رقيقا رقة خيالية حالمة ، وطورا قاصفا مشاغبا محبا للعراك ، وكثـــيرا ما كان يجمع بين النقيضين في نفس الوقت • وفي الحقيقة فان نوعا من الرقة الحربيـــة أو البذاءة البشوشة المشرقة ـ كانت احدى منجزاته الغريبة المميزة له عن سائر الناس جميعاً •

على أن الشأن العجيب لصداقات چيمس ـ كما هي الحال في علاقاته الانسانية عموما ـ لم يكن مصادفة مزاجية ، وانما نجم من ذلك الحق الذى كان حياته. كان يؤمن بأن الجنس البشري واحد ومقدس، وأن ضعف الخلائق الفانية انما يشكل مرحلة في تطور تقدمهم الروحى • وعلى الرغم من أنه كان يرى ضعف الفرد بعين نافذة ، ويصفه بنعوت بليغة ، الا أنه كان ينفذ وراء ذلك الى الجنس البشرى الذى أحبه • ومن ثم كان نقده للناس نقد طبيب نطاسي لا نقد كشف للعورات أو شهوة لفضـــح قروحهم • وكل معاركه كانت في نطاق الأسرة مشاجرات عائلية • وعلى هذا فقد وسعه أن يجمع بين الاستهجان أو النبذ ، وبين التساهل والتغاضى ، وأن يقرن ذلك كله بالفكاهة وخفة الروح والمحبة الحانية ـ بل وبالاحترام .

ولقد بلغت شهامته ونخوته حدا مكنه من أن يوفق بين ولائه الحار الحاد لأفكاره وبين التحاشي الكريم الأمين الذى بلغ غاية الرقة لحمــل الآخرين عليها حملا بالاكراه أو العسف أو التطفل الواغل • وكان صلب الرأى في معتقداته ، وله قوة خارقة على المدافعة والدحض ، قوى الحجة في التأييد ، قوى الحجة في المعارضة سواء بسواء ، ولكنه مع ذلك مشبوب بعاطفة الانسانية، بحيث لايحمل ضغينة أو غلا الاضد القسوة والوحشية وعدم الانسانية • أما فيما عدا ذلك فان اختلاف الرأى قد يثير لومـــه ولكنه لا يثير حفيظته أو يحرك حنقه •

(٢٠) Emerson to Samuel G. Ward, July 12, 1849; cf. E.W.Emerson, Early Years of the Saturday Club, 1918, 4, 8.

٤

الوالد والابن

بالنسبة لهنرى چيمس الكبير — فان أعظم صيغه طبيعيـــة للفن — اذا سمى فنا على الاطلاق — كانت هى الحديث • فالحديث — من بين كل الفنون — الا اذا كان الفن رقصا — هو أعظم أشكال التعبير تلقـــائية ومباشرة وأكثرها عصرية • ثم هو أيضا أقل الفنون انعزالا عن الفنان أو نأيا عنه أو اقحاما عليه من الخارج • والحديث مشرب بحرارة الجسم: كالخفر أو الخجل أو الايماءة أو الاشارة ، فانها تعكس احساس وبصيرة اللحظة الراهنة وقت مرورها • وأسلوب المتحدث الطبيعى أســـلوب توكيدى مؤثر ومتنقل مساير — يقصد الى أن يصغى اليه ، وله محور انتباه ينتقل باستمرار ، بحيث ان بؤرة الوعى قصـــيرة الأجل ليس غرضها التأمل • وعندما يتحول هذا الأسلوب من الكلمة الشفوية الى الكلمة المكتوبة تشوبه المبالغة • ومن ثم فبينما نجد حديث چيمس يتفجر حيوية دافقة ، نجد كتابته فى بعض الأحيان تبدو مكتظة • ومع ذلك ، وكممثل لذلك الضرب من الأسلوب الحيوى الفياض ، نرى چيمس يحتل مكانا عليا بين كتاب الانجليزية على الرغم من الصبغة المقوتة لمـــادة موضوعه • وانه لأمر مشكوك فيه اذا كان فى وسع «كارليل» أو «ملفيل» أن يبزا چيمس أو يعقلا خيرا منه اذا تناولا موضوعه • كان چيمس — كارليلا انسانيا وملفيلا متفائلا وهو يكتب عن اللاهوت والميتافيزيقيا .

أما ابناه الأكبران — وقد كان أسلوب الكتابة لكل منهما مهنـــة — فقد سجلا انطباعاتهمـــا وآراءهما عن خصيصـــة والدهما الفريدة فى الأسلوب •

فكتبه — على غرار حديثه وخلقه — على حد تعبير هنرى الصغير «كانت غضة بزهزهة اللون القوى — لون أخاذ لافت بكونه معطى غير مأخوذ ، لون كاشف يسلط الضوء لا عاكس — لون قوامه الفكر والايمان والجو الخلقى والتعبير » •(١)

---

(١) N.S.B., 163.

أما وليام چيمس فيقول فى معرض الحديث عن أسلوب أبيه :

« وانا لنجده ـ وقد دان له هـــذا الأسلوب وملك زمامه بلا كد ولا نصب ... والذى كان يقرن الى عزة النغم وبساطة الكلم نوعا من الوجيب والخفقان الباطنى باسمى مراتب الانسانية ، ساميا ورقيقا ، دقيقـــا وعنيفا ، لواما وزاجرا ، فكها ومداعبا بالتناوب، نجده يذكرنا بالمزاج السخى الفياض الدافق لأساتذة الانجليزية القدامى بدلا من أن يعبر عن مزاج أمريكى معاصر » . (٢)

وثم جارث ويلكنسون ـ الذى لم يعرف چيمس فحسب ، وانمـــا استجاب لأسلوبه بنفس الوقع :

« اذا لم يكن ثمة بد من التقريظ فدعنى أقل لك كيف انسقت وراء عجلات مركبة جملك المزمجرة ، وقد تمور شعرى سيالا ورائى وأنت تلهب ظهور جياد المركبة بالسياط فى المقدمة ، وتمضى سراعا وانا أحاول جاهدا أن أمضى فى سبيلى دون جدوى ، بينا أنا مشدود بوثاق ومربوط من قدمى فى عجـــلة سورتك وحمياك » . (٣)

على أن الصفة الاحشائية لأسلوب چيمس ينبغى ألاّ تؤخذ على أنهـــا تعنى الافتقار الى الذوق الفنى أو المهارة الفنية . لقد كان يملك ما يمكن تسميته فقط بزمام اللغة الانجليزية . وهو يعطى فكرة أنه يستعمل اللغة أو حتى يسىء استعمالها بدلا من أنه يملك زمامها ويتصرف فى أمرها تصرف عزيز مقتدر . وفى حرارة اعتقاده كانت اللغـــة تذوب وتنصهر فى بوتقته وتخرج من أشـــكالها وصيغها المصحفة الدارجة ، وتصب بل تلتحم التحاما فى قالب تكفيره . والحق ـ أنه لم يكن صاحب صناعة فنية ، ولكنه كان يملك موهبة الفنان وحدة ادراكه وومضـــة بصيرته . فاذا ما بدأ نقطة فانه يتقنها ويصفيها ويفوفها ويوشيها بفرح خلاق واضح . ثم يمضى الى غايته لا يلوى على شىء .

ولكن على الرغم من الاعتراف له بامتلاك زمام الأســـلوب ، فانه كانت هناك شكوى عامة من أن چيمس كان غامضا . ولقد صاح چيمس قائلا ذات مرة : « أواه ... لو كان فى استطاعتى أن أرعد بها دفعـــة واحدة فى حرف نداء واحد يوجزها كلها ، ولكم علىّ ألا أفتح فمى بكلمة واحدة بعد الآن »(٤) . ولقد وجد نفسه مضطرا الى العودة مرارا وتكرارا

(٢) L.R.H.J., 9.

(٣) Wilkinson to H.J. I ., April 5, 1850; the reference is to Jame's Moralism and Christianity.

(٤) L.R.H.J., 16.

لنفس المهمة ، ولم يشعر أبدا لا هو ولا مستمعوه بأنه قال ما يريد أن يفضى به أو عبر عما يعتمل فى دخيلة نفسه • وكان هذا الغموض هو الثمن الذى دفعه لكى يكون فيلسوفا • لقد كان حديثه وكتابته كلاهما أداتين لنقل أفكاره ، وكانت هذه الأفكار – فى ذاتها – صعبة المنال عسيرة الادراك • ولم يكن يرضى أو يقنع بابلاغ أى شىء الا فى أبعد أغواره وذروة حذقه • ولم يكن فى وسع أى امرىء أن يفهمه اذا لم يكن مهيأ لأن يفكر بامعان وجرأة مثلما يفكر • ومن ثم فقد كان كثيرون ممن وجدوا طريقته وأسلوبه وملاحته مسلية ومطربة ، ولكنهم فى نفس الوقت حاروا فى أمر مذاهبه ، شاعرين بأن ثمة معنى خفيا وعويصا يفلت منهم – وكان ذلك فعلا هو الواقع من الأمر •

ولا مناص من القول بأن وليام چيمس شابه أباه فى النكهة الشخصية والعبقرية • لقد قيل عن الأب انه « كان aninted بجزيرة باتموس»(٥)* – وانه كان بعبارة أخرى – ايرلنديا وصاحب وحى فى نفس الوقت • أما الابن فلم يكن فيه وحى أو رؤيا ، ولكنه كان ايرلنديا • ومثله كمثل أبيه كان حار الدماء جائشا فوارا ، ومحبا ودودا فى غاية الرقة والعذوبة • وكلا الرجلين كانا قلقين غير مستقرين وغير صبورين ، وان كانت تلك الخلال فيهما لم تحل دون عكوفهما مددا طويلة على أعمال جسيمة ومثمرة • ولقد شهدت آليس چيمس بهذه الصفة المشتركة بين أبيها وأخيها • كان ذلك فى سنة ١٨٨٩ وهى تكتب عن جولات وليام هائما على وجهه هنا وهناك :

« وليام ••• بدلا من أن يذهب الى سويسرا عاد فجأة من باريس وذهب الى الوطن حيث أنه – كعادته – فرغ من أوروبا فى أسابيع قليلة ووجدها مبتذلة بالية وتافهة ولانفع يرجى منها • ولما كانت حاجته الوحيدة هى العودة الى الوطن ، فان رسالته الأولى بعد وصوله كانت – طبعا – ملبئة ببرنامج عودته مضافا الى ذلك زوجته وأطفاله • انه تماما كنقطة الزئبق ، ولا يمكنك أن تضع اصبعا عقليا عليه • لقد ضحكنا – هارى وأنا – وتفكهنا بنوادره ، وتذكرنا الوالد ، وذكرنا مشابهة وليام له (فى السبل التى يسلكها) – وعلى الرغم من أن النتائج واحدة الا أنها تصدر عن طبيعة جد مختلفة فى الاثنين ، فمردها فى وليام عجز تام أو عدم اكتراث (بأن يلازم أمرا ويثابر عليه لمجرد الملازمة والمثابرة) كما قال عنه أحد عارفيه ذات مرة ، فى حين أن الوالد ، ذلك الرضيع

(٥) M.A. deW. Howe, Memories of a Hostess, Atlantic Monthly Press, 1922,75.

(*) احدى جزر الدوديكانيز حيث يقال أن سانت چون المقدس تلقى الوحى هناك وكتبه • (المترجم) •

الشهى السار ! ما كان فى وسعه أن يخضع حتى لعبودية نزوته ، ثم كان ذلك العزيز الحبيب يقع فريسة لعفريث الحنين الى الوطن والأهل » • (٦)

ووفقا لحكم الابنة فان العلة فى حـالة الأب كانت نوعا من الثورة ضد الضبط والقيود ، وفى حالة الابن كانت خللا مزمنا فى الارادة — افتقارا الى القدرة على العمل الشاق المطرد المنسق • وكان الاثنان مغرمين بالضحك ، وكلا الرجلين كانا ذوى تلقائية متطرفة مع جنوح الى التدبيج والتوكيد المفرط • وكان كلاهما سريع التأثر متقلبا دوارا أو قل شاردا لدرجة جعلت من المستحيل على كل منهما أن يملك عنان الأمر أو الشيء بسهولة ويسر ، أو يسير الدفة مع التيار ، أو ينهمك بيسر وسلاسة فى نشاط منظم •

على أن هذا التشابه كان يرتكز عليه اختلافان بارزان • فالأب كان قويا عفيا بصفة أساسية ، والابن كان هشا واهنا نسبيا ، مع فترات طويلة من العجز الجثمانى وضعف الأعصاب والوسوسة • وكان رصيد الأب من القوة الأصلية والعافية البدنية أكثر ، فى حين أن الابن كان يعتمد أكثر على اصلاح وشحذ ما عنده من قوى •

والفرق الآخر فرق لا يحتمل الخطأ بدرجة لا تقل عن الفرق الأول ، وان كان أكثر صعوبة فى الشرح والوصف • فلقد كان الأب كما رأينـا غريب الأطوار ، وكان ابتداعه أو شذوذه أكثر تماسكا لنفسه ، ومن ثم أقل اذعانا ، فى حين أن وليام چيمس كان أكثر دنيوية وواقعية ، وأكثر مؤالفة ومعاشرة جماعية ، ولديه نصيب أكبر مما يسميه الناس «الذوق» أو التذوق • كانت عنده أفكار شاذة غريبة ، ولكنه هو لم يكن شاذا ولا غريب الأطوار • وبكل ما فيه من ترفع الفلاسفة وانتباذهم • فقـد عرف غريزيا — كيف يلاقى العالم من حيث هو ، وعرف من أين تؤكل الكتف ، وكيف يجعل نفسه مفهوما ، وكيف يكون متحررا وجريئا دون أن يتعدى على المعايير المقبولة عرفا أو يخالف ما تواضع قومه على اعتباره مقياسا لأدب الحديث •

وبينا نجد الأب لا تخلو أوقاته من نوبات الثمل الروحى ، نجد الابن أكثر كبحا وضبطا وقمعا بطمأنينة واحكام • وكان فى الرجلين نوع من العاطفية الحارة الجياشة المتفجرة ، ولكن التعبير الخارجى عنها — فى

(٦) L.W.J. I, 289-90.

الابن – كان ينأى بها بعيدا عن مركز الالتهاب ، وكان أكثر تحكما وضبطا واتقانا وتوجيها لعاطفيته فى سعة حيلة وعمق – من أبيه ·

على أن ما بينهما من تشابه فى المزاج – هيأ الأب والابن لتفضيل نفس الأسلوب من التفوه · وكان وليام أيضا كاتبا متحدثا ، يتميز بعبقرية فى الكتابات والنعوت التصويرية ، وبميل الى التلوين الزاهى، والى حرية فائقة الحد فى الأسلوب والطريقة · بيد أن وليام كان أيضا مؤلفا يكتب – بصفة أولية – لكى يعبر عن معتقدات ، وبطريقة تضفى على الحصيلة صفة خاصة مميزة لها أثرها من الاخلاص والصدق · وكان على غرار أبيه يعرض الفلسفة فى شكل أدب ، ومن ثم جذب انتباه محبى الأدب الذين كانوا يتوجسون خيفة من الفلسفة أو لا يأنسون من أنفسهم المقدرة على ولوج لجتها . ومن ثم وجد د. هـ. لورانس – الذى كان يميل الى الأدب لا الى الفلسفة – أن كتاب وليام « البراجماتية » كان باهرا ولامعا ، ولكنه غير واضح ، وأنه « شابه أباه الذى كتب عن سر سويدنبورج واحتفظ بالسر لنفسه » (٧) .

ولكن ثمة فرقا ·

فالابن قد يكون ملتغزا ، ولكنه لم يكن مثل أبيه غامضا ، أو عويصا، أو غير مفهوم ، أو خفى المعنى لأجل التستر · كان أحسن ضبطا وسيطرة على أداته ، وأكثر فهما للجمهور – أكثر بكثير جدا من أبيه · كان الأب قادرا تماما على القاء مرثية على جيل لا يصغى اليه ، أو حتى لا يعيره سمعه ، فى حين أن الابن ما كان ليطيق أية علاقة لا تتسم بطابع التبادل والمشاركة والاتصال الآخذ والمعطى ·

على أن الحقيقة الجلية التى تبرق أساريرها بأشعة الايمان هى الاعجاب المحب من جانب الابن لأبيه – كرجل · ولم يكن مجرد حب بنوى فحسب ، وانما كان حبا مثاليا يتمثل أباه بهيئة كمالية · كان يحب طراز الرجل الذى كانه أبوه · ومن ثم كان لزاما أن ينمو على شاكلته فى عاداته ومشاعره وتقديراته للأمور واتجاهاته ·

وثمة رسالة حررها وليام قبل موت أبيه بأربعة أيام ، وهى رسالة لم يقدر أبدا لمن أرسلت اليه أن يقرأها :

---

(٧) Quoted by C.E.Norton in Letters, 1913, II, 379.

« فى تلك الهوة السحيقة من الماضى ـ التى سرعان ما يهبط فيها الحاضر ويرجع الى الوراء ـ بعيدا بعيدا فى أغواره ـ فان وجهك أنت مازال عندى فى بؤرة الانتباه . اننى أشتق كل حياتى الفكرية منك ، وعلى الرغم من أننا كثيرا ما كنا فيما يبدو على طرفى نقيض فى التعبير عنها ، وانى على يقين بأن التناسق والتناغم واتفاق الألحان قائم بيننا بكيفية ما وأن جهودنا ومحاولاتنا المبذولة سوف تقترن وتمتزج . ان الدين الذى أحمله لك فى عنقى يفوق أقصى ما فى طاقتى من تقدير واعتراف بالجميل ـ لقد كان التأثير مبكرا جدا ونافذا الى اللب وموصـــولا طوال حياتى .

.... أما فيما يتعلق بنا فسنعيش كل منا بطريقته وفى سبيله ، شاعرا بأنه غير محمى أو حصين ، الى حد ما ، وقد بلغنا هذه المرحلة من الكر ، بسبب الافتقار الى حصن الأبوة وصدرها الحنون ملاذا نلوذ به ـ سوى الاعتصام معا بتلك الذكرى المقدسة المشتركة التى تؤلف بين قلوبنا . سنقف معا متآزرين ، نحاول أن ننقل الشعلة الى ذريتنا كما سلمتها الينا . وعندما يحين وقت الحصاد فانى أبتهل الى الله أن نكون فى مثل نضجك وأثمارك ، ان لم نكن جميعا ، فبعضنا على الأقل . أما بالنسبة لى فانى أعرف كم أرهقتك من أمرك عسرا ، وسببت لك من العنت والارهاق فى أوقات متعددة ، بسبب غرابة أطوارى . وعندما يشب أولادى عن الطوق فسأتعلم أكثر وأكثر مما علمتنى رشدا ، من المنهاج الذى اتبعته فى توجيـه وتربية وتطوير مخلوق مختلف عنك تشعر حياله بمسئولية وتبعة .

اننى أقول ذلك لمجرد أن أبين لك كيف أن وجدانى نحوك سيربى ويزيد حيوية وعاطفة على مر الأيام ، بدلا من أن يخبو ، وليس ذلك من قبيل الأسف أو الندم على ما فات . انه لشعور جارف يجتاح نفسى على نحو عجيب وأنا أودعك !! كيف أن الحيـــاة لا تلبث الا عشية أو ضحاها ، وأن حياة المرء مهما طالت فليس فى وسعها أن تعبر فى الغالب الا عن نغم واحد . ان الأمر يبدو لى ـ يشبه كثيرا هجيراى وأنا أحييك تحية المساء المعتادة قبل أن يأوى كل منا الى مخدعه : طاب مساؤك ياوالدى العتيد المقدس . واذا قدر لى ألا أراك مرة ثانية ، فوداعا ودعاء بالسلامة ـ وداعا مباركا » (٨)

فاذا انتقلنا من الرجل ويممنا شطر أفكاره ، فمن الطبيعى أن نتكلم أولا عن چيمس الكبير كناقد . كان ينتقد بتطبيق مذهبه ، وكان هـــذا المنهاج خصيصة مميزة له ، فقد كان مذهبه فى نقده ـ الذى كان أكثره ارتجالا على الفور ـ يبدو ممتزجا أوثق امتزاج بسجاياه الشخصية .

فأولا ، **كان** ناقدا ، مدمن نقد ، ناقدا مزمنا عنيدا للناس وللأفكار . وكان النقد يتخلل حديثه ويعمه . وكان محور الاهتمام فى حديثه يربض ـ اجمالا ـ فى حقيقة أن فى جعبته أفكارا وآراء قطعية لافتة مجفلة ـ ان لم نقل مثيرة ومحمسة ، بصدد أى موضوع يثار . على أنه فى سرد آرائه

---

(٨) December 14, 1882; printed in full in L.W.J., I, 218-20.

لم يكن ممن يقيمون وزنا للأشخاص · فلم يكن هناك أبدا من هو أكثر تعنتا وتشبثا بآرائه ممن يعتقد « أن لعنة البشرية – تلك اللعنـــة التى تصيب رجولتنا بالهوان والصغار والدناءة – هى الاحساس الجـــارف بالذاتية وما تولده من تشبث وتعنت ومكابرة – سخيفة ممقوتة »(٩) كان يقول « ان الحق بالضرورة – شرس ميال الى القتال » · ومما لا ريب فيه أنه وجد لذة كبرى فى هذه الحقيقة(١٠) · وكما يتبادر الى أذهاننـــا بسهولة ، فان منهاج چيمس فى النقد لم يتقبل دائما بقبول حسن · وفى هذا الصدد نجد كاتب سيرة هوثورن – وهو يشير الى الصـــورة المطربة نسبيا التى رسمها چيمس لهوثورن وضمنها رسالة نادى السبت لسنة ١٨٦١(١١) نجد هذا الكتاب يتحدث عن المرحوم هنرى چيمس «كبليغ مصقع فكه – صريحا لدرجة تتجاوز الحد فى خلع النعوت والأوصـــاف وذرها ذرا على الناس ، كيفما اتفق الأمر الذى كان أحيانا يصيب برذاذه خبط عشواء ومن ثم لا يحرز هدفا »(١٢) ·

وفى معرض الحديث عن تعليقات صديقه اللاذعة عن كارليل ، اتهمه امرسون « بشهوة الهوى المنحرف عن الحق»(١٣) ·

بيد أن انتقادات چيمس وحملاته لم تكن بالعشوائية ولا بالضالة ، وانما كانت طياشة ، وعلى الرغم من ذلك كانت دائما ذات مغزى وهادفة الى دلالة أخلاقية · وكانت فى معظمها موجهة ضـــد الغطرسة والعجب والرضا بالواقع الذى ينتهى الى عدم الاكتراث · وعلى حد تعبير وليـــام چيمس :

« لم يكن ثمة شىء أكثر قذى فى عين المستر چيمس بحيث يصيبه بالخبل ، من ادعاء الفضل الشخصى أو الميزة أو الامتياز أيا كانت – لا فضل فيها ولا قيمة ســـوى منفعتك واستخدامك واستعمالك دون وعلى بنى جنسك · ولم يكن ثمة شىء يسره أكثر من تفجير فقاعات الكبرياء التقليدية ، ما لم تكن بقصد مؤاخاة أهون الناس شأنا الذين

---

(٩) L.R.H.J., 62.

(١٠) The Church of Christ Not an Ecclesiasticism, 1854,3.

(١١) Cf. above, 18-19.

(١٢) F.B. Sanborn. "The Friendships of Hawthorne" in the Hawthorne Centenary, Houghton Mifflin Co. 1905, 192.

(١٣) Emerson to H.J. I, September 7, 1869.

كان يقابلهم ــ وعلى ابسط صعيد متاح فى تمام شموله وشيوعه . وكان رفع شأن الخامل وعز الذليل وحط المتكبر الجبار من الأمور ، رياضته المفضلة الأثيرة فى حديثه ــ ذلك الحديث الذى كانت فكاهته اللاذعة الطياشة ــ عندما يكون فى حالة انزال المتكبر من عليائه ــ كثيرا ما تصيب بالدهشة قوم يوسطن الطيبين البسطاء ، الذين لايعرفونه معرفة كافية تمكنهم من أن ينفذوا الى لب نبته الانسانية الخيرة ، الانسية اللطيفة التى نبع منهـا المزاج برمته »(١٤) .

واذا كانت هناك فلسفة ضمنية فى طريقته فى الحط ، فقد كانت هناك فلسفة ظاهرة صريحة فى نقده العامد الأكثر قصدا . فأولا كانت هناك نزعة ظاهرة ــ بلا ريب ــ للاستخفاف بالفن . ولأن واحـــدا من ولديه الأكبرين ــ هو وليام ــ كان ذا ميل لفن الرسم والنقش ، والآخر ــ وهو هنرى ــ كان ذا ميل لفن الكتابة ، فقد كانت هذه المسألة قضـــية هامة فى دائرة الأسرة . وبصفة جوهرية فان بخسه للفن وحطـــه من قدره ، كان يعبر عن احساسه الطاغى بأهمية الدين . وهذا ــ عندى ــ ما كان ينطوى عليه من أن الفن كان « حاضرا جـــــدا »(١٥) ، ومن أن الأدب أو أى شكل آخر من أشكال الفن ــ دون الحياة بكثير .

ان اخفاق الفن يتألف من كونه عقيما روحيا ــ مجرد ترديد وتكرار للطبيعة وصدى للدنيوية الأرضية .

بيد أن چيمس فى قدحه للفن كما هو راهن ، كان فى نفس الوقت يفكر فى الفن كما ينبغى أن يكون . فالزلة الرئيسية لما يسميه العالم فنا ــ ويبجله كفن ــ هى طلاقه البائن من الايمان الشريف . « فالفنان الحقيقى هو الذى يعطى للمفهوم الروحى جسما طبيعيا » ، وهو لا يعمل « الا لاشباع الهام ــ من ثم ــ ملبيا دواعى جاذبيته ــ وعلى هذا يكون مقدسا »ــ ووظيفة الفنان هى« تمجيد الانسان فى الطبيعة وفى الناس»(١٦) أما وهذه هى نظرية چيمس فى الفن والأدب ، فان أحكامه المتبصرة فى أهل الأدب ــ تزنهم ــ بطبيعة الحال ــ بالدرجة التى يعتبرون بها حماليق للحق الروحى ــ كما رآه چيمس . ومن ثم فان ثاكارى كان جاهلا بالدين الصحيح ــ ولكنه يخلقه بيكى شارب ، عمر خيرا مما عرف :

---

(١٤) L.R.H.J., 75-6.

(١٥) Cf. below 43, 59.

(١٦) Lectures and Miscellenies, 1852, 117, 118, 125.

« لماذا نسوغ بيكى فى صميم قلوبنا ـ حتى ونحن نلعن وسائلها الشريرة ؟ لأنه من الواضح تماما ـ لدرجة الشفافية ـ من أول الكتاب لآخره أن جرائرها لاتنبع منها ، وانما مصدرها علاقاتها الخارجية المعيبة المختلة مع الآخرين ٠٠٠٠ لقد كانت حياتها كلها كفاحا للحصول على مكانة ومركز ـ لكى تصبح ذاتا تملك زمام نفسها ، لكى تشق جدث البيئة المدفنية التى ولدت فيها ، وتنبثق من هذا اللحد لتنعم بأنسام الله الطلقة اللطيفة النيرة ٠ هل تتوقع من رجل غريق يلتمس النجاة أن يراعى نظافة أذيال سترتك فلايتعلق بها اذا اطبقت عليها أصابعه المتشنجة ؟ انك اذا توقعت ذلك فانك تتوقع من روح حية فياضة كروح بيكى أن تقنع بواقعها ولا تحرك ساكنا فى هذا الجو الخانق ، أو تدع أية فرصة تفلت من يدها مهما نبذها العرف ، لكى تحرر نفسها من ربقة مصيرها التعس ! كلا انه محض خطأ أن ننطق بالحكم على الأفعال التى عزيت الى بيكى فى هذا الكتاب ـ على أنها أفعالها هى ! انها لم تكن أفعالها ، وانما كانت مجرد اليد أو الأداة التى نفذتها ، ولكن الروح التى شاعت فيها وأوحت بتلك الأعمال كانت روح المجتمع المتنافر المختل التوازن الذى قدر لها أن تولد فيه وتنشأ » (١٧)

أما فيما بين ديكنز وثاكارى ، فقد كان چيمس يفضل الثانى ٠ فمواعظ ديكنز الأخلاقية ـ لكونها ضحلة ورثة وتافهة ـ فهى لابد أن تبتل بالمبالغة والاطناب :

« كان ديكنز غافلا عن الأعماق الروحية المتلألئة كالكواكب فى الانسان ٠ فالحياة ـ عنده ـ مجرد سطح يحد شمالا بالرأس وجنوبا بالبطن وشرقا بالقلب وغربا بالكبد ٠ وكل ما يقع خارج هذه التخوم المحسوسة فهو باطل الأباطيل وقبض الريح ووهم غرار ٠ وعندما يكون مفهوم المرء برمته لسر الحياة وجلالها مقصورا على التنافر الظاهر بين الفضائل والرذائل ، وبين الكنيسة والملهى ، فلا مناص من أن هذا المفهوم لن يذهب به بعيدا ، ولا مفر من أن المذاق الحرون لقراء القصة سيهفو سريعا الى طعام شهى أكثر حرافة ونكهة ٠ ومن ثم فانك تجد كل فضيلة ديكنز ـ بالضرورة منشمة وشائبة ٠ وأصحاب الفضيلة ـ عنده ـ كورقة النقد المزيفة ، قد يكون لها نقشها وبريقها ، ولكنها عديمة القيمة ! ومثلهم كمثل لحم الصيد ، قد يفتح شهية أصحاب المذاق الزائف ، ولكنه مقزز للشهية الصحية » ٠ (١٨)

ولقد أعجب چيمس بتورجنيف « Turgenev » (١٩) لأنه كان متشائما متطرفا . فحيث ان الطريق الى الذرى يفضى الى الأعماق ، فكلما أسرع المرء

(١٧) From a review of Vanity Fair, in the Spirit of the Age, edited by William H. Channing, 1 (1849), 50, 51.

(١٨) N.Y. Tribune, November 13, 1852.

(١٩) There is no "cerrect" spelling of this name. The owner of the name himself, in his letters to H.J.[1], and H.J.[2], uses "Turgeniew" and "Tourguéneff."

هبوطا الى قرار اليأس والضياع ، كان أقدر وأسرع على الصعود ثانيا الى معراج الأمل والرجاء . ولقد كتب چيمس الى تورجنيف فى ١٩ يونيــة سنة ١٨٧٤ يقول :

« ان الرجال والنســاء ذوى العبقرية الفذة جعلوا من القصة الروائية أداة – لاتفوقها الا الدراما – كقوة تربوية لتهذيب الانفعالات والعواطف . بيد أنه ينبغى القول بأن أعظم هؤلاء العباقرة فى أعلى منجزاتهم وقصارى ما يفعلون ، اما على غرار سكوت يعطينا صورا مثيرة للارادة الانسانية (فى صراع ضد) الظروف الخارجية ثم أخيرا تتغلب عليها فى نهاية المطاف ، واما على غرار چورچ صاند وثاكارى وچورچ اليوت يعطوننا فكرة عن الأثر المثبط والشــال للعرف الاجتماعى والتقاليد الموروثة – على الضمير – فى جعل الناس مرتابين متوجسين وغارقين فى الأنانية والأثرة وفاجرين داعرين . أما أنت ، فبصفة عامة تضرب على وتر أعمق احساسا وأبعد غورا فى وعى قارئك . انك تنفذ برأس سهمك فى عالم الظروف والأحوال الخارجية والعرف الاجتماعى والتقاليد الدارجة ، وترينا أنفسنا فى قبضة القدر الآسرة ، أو ونحن نكافح دون جدوى لنفك أنفسنا من قيود الجبلة . والنقاد السطحيون يثورون ضد هذا المشهد الفاجع ويصدرون حكمهم عليك بأنك ساخر لاتؤمن بصلاح البشر . وهم فى ذلك مخطئون ، لأنهم يغلطون فى ادراك الروحانية العميقة لمنهاجك ، ومن ثم لا يتبينون أن مايمس شغاف قلب الانسان فى صــميمه ويملؤه بأقدس الحب والرحمة لأخيه الانسان – هو أكثر تربيــة وتهذيبا وصقلا الى أبعد الآماد من أى شىء آخر يخاطب رأسه المقســط الزهيد الذى لا يؤبه له » .

ولعل نقد چيمس لامرسون وكارليل كان أكثر أهمية وخطورة . ومن الطبيعى أن نقرن بين هذين الرجلين كمعبودين أليفين فى عشيرة چيمس الأقربين . فالأب والأبناء لابد أن يتعاملوا معهما على نحو ما ، ويتعين على كل أن يسوى حسابه . فأما چيمس فقد أعتبر امرسون ظاهرة روحية ، وليس كمصدر تستقى منه الأفكار . وحتى كصورة مقلدة للكمال فان امرسون لم يظفر برضاء چيمس بسبب ماظنه نقصا شخصيا وفقدانا لما عناه « بالضمير » (٢٠) . كان امرسون يمثل فى نظره براءة من النوع السابق على الولادة ، بدلا من البركة المطوبة المطيبة التى تنتج من الصراع والكفاح والجهاد . ولكونه عديم الاعتقاد بالخطيئة ، فقد كان عاجزا عن التوبة ، ومن ثم لم يعرف تلك الغبطة السامية للاندماج فى الله والفناء فى الذات العلية ، التى هى أسمى مراتب لحظات الحياة وهدف الخلق .

وكذلك الأمر بالقياس الى كارليل ، فقد كان مثل امرسون – لم يبلغ مرتبة الفيلسوف الذى يرضى عنه چيمس . « انه فنان – عمدى صلب

---

(٢٠) L.R.H.J., 294.

«الرأى وليس بمتفكر — ان كل ما عنده هو عبقرية فقط »(٢١) ۰ بيد أنه كان يختلف عن امرسون فى اظهاره المسرف لذلك الضمير الذى افتقر اليه امرسون ۰ ولقد اعتبر من محاسن كارليل أنه اعترف بالشر ونقد الارادة الخلقية ضده ، ولكنه لم يرتفع أبدا الى ذلك المعراج المتسنم من الفهم الذى يرى منه أن التضاد القائم بين الاثنين — شرط ضرورى للنمو الروحانى المكتمل ۰

وواضح أن چيمس لم يكتم آراءه فى الرجال أو الأفكار ۰ وعلى الرغم من أن تلك الآراء التى فاه بها لم تكن — بصفة عامة — موجهة الى أولاده ، الا أنهم كانوا يسمونها عرضا أو خلسة ويحملونها على محمل الجد ۰ ولعل هذه الاستجابة الوجدانية لأحكام الوالد تفسر خصيصة من أهم عادات التفكير التى اتصف بها چيمس ۰ الأولى أنه شارك أباه فى نفس النفور من الأرثوذكسية فى اعتقادها باستقامة الرأى ۰ وكان على غراره يرى أنه بمجرد أن تصبح الأفكار راسخة ومقررة ، أو ينادى بها بطلاء ونغمة وهالات السلطة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها — فانها تصبح منفرة كريهة تثير الاشمئزاز ۰ وانك لتفسد كل طيب عنده بأن تحوله الى نظام مقرر أو تقليد ثابت مرعى ۰ ولقد كان ذلك هو الشعور الذى خامر چيمس الكبير بشأن السويدنبورجية والمسيحية ، والذى أحس به چيمس الابن حيال العلم . ويرتبط بهذا الاتجاه الأول — ارتباطا وثيقا — نزعته الى نصرة الضعيف والأخذ بيده ، والى الحمل على القوى وانزاله من عليائه ۰ استعرض قائمة أولئك الذين حمل عليهم وليام چيمس بكل ضراوة وقسوة ، الذين رفض أن يلتمس لهم عذرا أو يغفر لهم ، وستجد أنهم رجال من أصحاب المناصب التى يزدهون بها ، والذين يداخلهم الاحساس بالعتو والصلف ، والاختيال والغرور والشعور الجارف بالأهمية أو عدم الاكتراث والرضا بالواقع ۰

وصفوة القول فان وليام كأبيه كان أحيانا ينتابه « مزاج الحط » .

أما الى أى حد شارك وليام چيمس أباه أو تأثر به — فى حكمه على الفن — فسيظهر ذلك بشكل أوضح فى الملحق الخاص بقصة مهنته ۰ ويكفى القول بأن نبذه للرسم وايثاره للعلم والفلسفة كان اكراما لوالده ، حيث ان ذلك كان معناه السعى فى طلب الحقيقة واستعمال الأسلوب كأداة للأفكار ۰

(٢١) M.A. deW. Howe, Memories of a Hostess, 73.

وسنعرف المزيد فيما بعد عن آراء وليام چيمس فى الأدب ، حيث أن هذه الآراء تم الافصاح عنها بكل جلاء ووضوح فى أحاديثه مع أخيه ٠

ولكن موقفه من كارليل وامرسون يدخل فى باب علاقاته مع أبيه ٠ فلقد كان هذان الرجلان صديقين لأبيه ومعاصرين له ، ولقد عرف أولهما من خلال الانطباعات الشخصية لوالده والتى تجلت فى آرائه عنه ، ماذا حوى ـ اذن ـ چيمس من هذين الرجلين؟ ماذا وهبه كل من هذين الأبوين (فى العماد) الأسطوريين فى شبابه ؟

ان أيا منهما لم يمنحه فلسفته ، ولكن كلا منهما أعطاه وصايا وسننا وشواهد مناسبة ٠ وكلاهما أثرا فى أسلوبه فى الفترة التى كان فيها فى أقصى درجات التلقى والانطباع ٠ ولقد استجاب لامرسون فى فترات هدوئه وسكينته وتفاؤله ، واستجاب لكارليل فى نوبات جرأته وضراوته ٠

وفى سنة ١٩٠٣ أعاد قراءة امرسون قراءة مستأنية مستفيضة «مجلدا تلو مجلد » ، وهو يستعد لالقاء خطابه المئينى فى كونكورد ٠ وفى هذا الخطاب أكد رأى أبيه بان أمرسون كان عرافا ونبيا لا مفكرا .

ما الذى عرفه اذن هذا العراف ؟

عند چيمس ، قوام الحق الامرسونى ـ بصفة جوهرية ـ هو رؤياه لوحدة أعمق وراء المظاهر المتعددة . وحتى فردية امرسون ـ أو انشقاقه عن المعتقد ـ والتى كانت « أكثر جوانبه حساسية والتهابا » ، لم تكن تعددية ٠ فاذا كان قد فصل بين فرد وبقية الأفراد ـ خلقيا ـ فانما كان ذلك فقط بقصد توحيدهم جميعا على صعيدهم الكونى ـ باعتبارهم امكانيا « لسان حال معنى الكون »(٢٢) ٠

وهذه التعاليم متفقة مع تعاليم چيمس القاضية بالقيمة الفريدة والنفاسة الفذة والحق المشروع لكل فرد على حدة ، مهما كان خاملا أو مغمورا أو مهينا ـ وان كانت هذه تعاليم مختلفة ـ يفصل بينهما كل ما يفصل بين الوحدانية والتعددية .

وقد وجد وليام چيمس فى كارليل الحرارة التىافتقدها فى امرسون. والمقالات التى نشرت فى سنة ١٨٩٨ تحت عنوان « ارادة الاعتقاد » ألفت جزئيا فى سنة ١٨٧٩ ، وهى تبرهن الى حد تأثر مؤلفها فى صدر

---

(٢٢) L.W.J., II; 190, 196-7, Memories and Studies, 1911, 25, 32.

شبابه بكارليل ، والى أى عمق اغترف من منهله . وعندما كانت تأتى لحظة الحل ـ فغالبا ما كان كارليل هو الميفاء المقتدر ـ على تقديم الحل .

ولعل ذلك كان صحيحا بصفة خاصة بالنسبة لمشكلة الشر حيث وجد الحل فى « انجيل العمل والحقيقة والصدق » • «فالمخرج الوحيد» كما يقول چيمس :

« هو بالطريقة العملية ـ وحيث اننى ذكرت اسم كارليل ـ الذى أصبح فى هـذه الأيام يثير الحفيظة ويلقى السباب ، فدعونى أذكره مرة أخرى وأقول انها طريقة تعليمه • فلنطو كشحا عن حياة كارليل • ولا نلقى بالا الى الكثير مما كتبه •

ماذا كان أهم شىء قاله لنا ؟

لقد قال : « ألقوا بمشـــاعركم فى الجحيم ، وكفوا عن شكاواكم المشنهفة التى تسيل كالمخاط ـ وعن طربكم الذى لايقل شنهفة عن شكاواكم • واتركوا حماقاتكم العاطفية وما يصاحبها من خرق ـ وهلموا الى العمل كالرجال » •

وفى اتخاذه هذا الديدن فان وليام چيمس ـ بنوع أخص وبايمان عميق ـ نبذ ذلك الحق الذى كان حل أبيـــه ، ألا وهو : مبدأ التجاوز والسمو والتفوق العقلى ـ للميزات الأخلاقية الى أفق تحلق فيه الروح الى الملأ الأعلى أو الأجمل من البديعيات •

ولقد عاب الأب على كارليل قبوله ـ بشكل كالح بشع ـ نهـــائية محط الكفاح الأخلاقى ، فى حين أن الابن يقول مع كارليل : « ان الأمر يبدو كطيران حقيقى » (٢٣) .

فاذا ما انتقلنا من المزاج والسجايا الشخصية الى الأفكار ، نجـــد تأثير هنرى چيمس على ابنه وليام چيمس أخف وأرق ـ نسبة وقياسا •

فلقد كان معاصرو چيمس الكبير يشيرون اليـــه عادة بكلمـــة « الفيلسوف » • ولا ريب فى أن هنالك طرقا كثيرة ليكون المرء فيلسوفا أو عالما بما وراء المادة • وسبيل هنرى چيمس كان سبيل الاعتقاد واللقانة اللدنية . ولم يكن ذلك من قبيل التهاون أو الغفلة من جانبه . كان يعتقد بالاعتقاد « فمن الأرجح جدا أن يثبت أنه رجل حكيم فى المدى الطويل ، تبرم معتقداته ما تنقض شكوكه ـ أكثر بكثير من ذلك الذى تنقض شكوكه ما تبرمه معتقداته ، وتصيبها بالسغب والموت جوعا » •

---

(٢٣) W.B., 61,87, 173-4.

أما بالنسبة للقانة اللدنية « فالانسان لديه قانون باطنى أو ضـوء داخلى يهديه سواء السـبيل ، ويفرق له بين الخـير والشر وبين الحق والباطل ، كل على حدة . ومن ثم تضمن له كل امكانات مصيره الروحى» .
« الحق ... حقا . كيف يتسنى لرجل من أبناء حواء أن يدعى هـذه القدرة ؟ ان الحق يتحتم أن يوحى بنفسه ويبوح بأمره ويلهم من يلهم فيميط له اللثام — اذا أراد أن يعرف — وحتى عندئذ فان معرفته فى أسمى مراتبها — وعلى أحسن فروضها — معرفة ناقصة فجة — مهما عرفت »(٢٤) .

ولم يتقبل وليام چيمس هذا النوع من الفلسفة أو ينجذب اليه ، لا ذلك ولا فلسفة معاصرى أبيه الذين حاجوا بلا قيد ولا شرط من القياس، وحملوا المجاز على محمل حرفى ، وأنتجوا مزيجا من الشعر والعـلم ، لا هو بالشعر ولا هو بالعلم .

ومنذباكورة حياته كان قد عقد مع نفسه اتفاقية معيـار آلعالم فى تقيده الذى يحظر الانفاق على الاعتقاد أكثر مما يجلبه من دخل فى صورة حقائق . وعلى الرغم من جرأته وجسارته مع العلم فانه كان صـاحب وسواس علمى ، شديد التدقيق (والحنبلية) . أما عند أبيه فقد كان « العلم » لعنة حرما كما كان الشأن لدى كل أولئك المفكرين من أمثال السير وليام هاملتون ، ومانسيل ، وهربرت سبنسر ، وكومت ، وتين ، وميل ، الذين حاولوا أن يكونوا علميين فى الفلسفة . هذا فى حين أن تربية وليام العلمية وتمرينه وتدريبه على المنهج العلمى حملته منذ باكورة حياته على تفضيل ومحاباة هؤلاء الفلاسفة بالذات . ومن ثم فانه مهمـا بلغ نقده من حدة وقسوة للعلم ، فانه كان أمام والده المدافع عنه وفارس حلبته ، نصيرا وظهيرا له . وعندما يؤكد وليام أن أباه كان مجردا من « العواطف الفكرية » أو أنه لم يكن صاحب منطق « متفكر » ، أو يا حبذا لو أن شيئا نزع منه فأصبح « ذا منهاج أكثر دقة علمية وتحديدا »(٢٥) ، فانه لم يكن يعنى انكار الفلسفة على والده ، وانما كان يعنى أن والده

(٢٤) Substance and Shadow, 445, "Faith and Science," North Amer. Rev., CII (1865), 369; L.R.J.H., 63.

(٢٥) W.J. to H.J. 2, November 1, 1869; W.J. to Shadworth H.Hodgson, February 20, 1885.

لم يحصل معتقداته ويستحقها ، وانما ولجها ولوجا وانساق اليهـــا انسياقا — بلا كد ولا نصب — مجانا ٠

لقد كان چيمس الكبير يقول « ما عرفت فى حياتى أبدا لحظة شك واحدة ولا حالة ارتياب مطلقا »(٢٦) ٠

ولكن الفلسفة فى معناها الحديث ومفهومها المحص عند وليام تبدأ بالشك والارتياب ، ويتعين بصفة دائما اختبارها على هذا المحك ٠

يتبقى معنى أساسى واحد استقى منه فلسفة أبيه — على نحو كامل غير مخفف — من أبيه ٠ فبعد موت أبيه مباشرة كتب وليـــام چيمس : « بالنسبة لى فان الفكاهة والبشاشة وشيم الخير والنخوة ، والانسانية والايمان بالعناية الالهية ، واحساسه بحقه فى أن يفصل فى أمر أعمق أسباب الوجود الكونى — هذه كلها هى الباقيات الصالحات التى ستلازمنى أبد الدهر »(٢٧) ٠

وهذا الاصرار على أن يكون « صاحب القول الفصل فى أمر الكون » هو أعمق البواعث وأبعدها غورا فى تفكير وليام چيمس — مثلما هى ايماءة الاعتراف بالجميل والفضل من ابن لأبيه ٠

فاذا انتقلنا من منهاج الفلسفة الى مبادئها المذهبية وجدنا الفجوة بين الأب والابن سحيقة واسعة ، حدة وشدة ٠ وفى الصفحات الختاميـة لمقدمة آثار أبيه الأدبية أعلن وليام چيمس رأيه الذى انتهى اليه بعـــد كل امعان وتدبر بشأن هذه القضية بقوله : « أن أعدى أعداء الوجدانية الدينية لأبيه هو التعددى الفيلسوفى »(٢٨) حليف التـــأويل الأخلاقى ، فالأول يتقبل الشر كطور أخلاقى من أطوار الخير الروحى الاسمى ، والثانى يجحده ويتبرأ منه ويحطمه تحطيما ٠ ولقـــد كتب فى سنة ١٩٠٣ فى معرض الاجابة عن سؤال لأحد مراســـليه من أوروبا يقول : « ليتنى أستطيع أن أرى أن فلسفتى أتت من والدى »(٢٩) ٠ والأمر الذى لاريب فيه

(٢٦) N.S.B., 235.

(٢٧) L.W.J., I, 221.

(٢٨) L.R.H.J., 116.

(٢٩) His correspondent, M. Pierre Bovet, was at this time offering a course

أن نزعته – القوية دائما – لأن ينسب فضل أفكاره لغيره ، كانت تكون مضاعفة فى حالة أبيه · ولكن الاختلاف كان أعمق من أن ينسخ ويلغى بالحب البنوى وما يصاحبه من مشاعر التكريس والولاء والاخلاص ·

ان القضية بين الوحدانية والتأويل الأخلاقى التعددى كانت دائما بالنسبة لجيمس الابن أخطر القضايا الفلسفية ، وهنا الى المدى الذى ذهبت اليه النظرية والمهنة – فانه هو وأبوه كانا على طرفى نقيض ·

بيد أن ذلك لا يعنى أن وليام جيمس رفض فلسفة أبيه الدينية رفضا تاما · وانما يمم شطر اتجاه آخر · لقد نال القسط الأكبر من فلسفته وخلاصه الشخصى عن طريق البشير الأخلاقى – ديدن الأخلاقية · ذلك كله أمر لا ريب فيه · ولكنه لم ينس تلك الطريقة المبكرة للتفكير التى تعلمها فى البيت · ولقد ذكر فى سنة ١٨٩٧ بطريقة عفوية بحت وفى عبارة عرضية « أن الدين هو أعظم اهتمامات حياتى »(٣٠) ·

وحيث انه أمر يجافى الانصاف أن نأخذ الرجل – على سبيل الحصر – بعبارة فاه بها فى لحظة عابرة على غرة ، فأولى بنا أن نقول ان الدين كان واحدا من أعظم اهتمامات حياته · وما دام الأمر هكذا ، فلا عجب أن يكون تأثير أبيه فيه عميقا وخالدا على السواء : « لقد كانت صرخة والدى هى الصرخة الوحيدة بأن الدين صحيح · والشىء الهام هو أن تكون الصرخة على نحو يوصلها الى آذان الآخرين فتسمع وتجيب ، ولم يكن ذلك عملا هينا ، وان كان مهمة تستحق كل جهد ، وهى مهمـــة ســـأحاولها على نحو ما »(٣١) · وصفوة القول أن الوالد كان شاهدا حيا ينطق ، بأبلغ بيان يستحق الذكر ، بحقيقة الدين ، فان الابن كان مهتماً بالدين اهتمـــاما فائقا ساميا ·

ولكن كيف كان مهتما به ؟

لم يكن مهتما به كمجرد جامع حقائق وواصف لها ، كما يحتمل أن يستدل على ذلك من حقيقة أنه كان فيلسوفا ، وأنه كتب كتابا يسمى

= on James's philosophy at the Academy of Neuchâtel, perhaps the first such course to be given. The letter is dated October 16, 1903.

(٣٠) L.W.J., II, 58.

(٣١) Written on January 9, 1883; Other parts of this letter appear below, 158-9.

« ضروب الخبرة الدينية » • كلا – وانما كان مهتما بتسويغ الدين • فلم يكن اهتمامه اهتماما خارجيا أبدا ، وانما كان اهتمام امرىء شعر بالدين وشغل نفسه بأمره • ولقد أراد أن يدخر مكانا لمشاعره الدينية العامة ، ولكنه – فوق كل شيء – أراد أن يدخر مكانا للمعتقدات الملموسة الأكثر تحديدا ، التي يدين بها أولئك النفر من بنى جنســـه من ذوى التقوى والورع الذين كان يشاركهم وجدانيا •

ولقد كتب فى سنة ١٨٩١ : « لو كان أبى موجودا لوجد فىَّ اليوم مصغياً أكثر تلبية واستجابة وتلقياً • وكل ما فى الأمر أنه يتعين ادخال الفلسفة »(٣٢) ولا ريب أن الذى قصده هو أن فلسفة أبيه الدينية ، أو جزءاً منها مما كان سليما وصحيحا ، ينبغى أن يتكيف ويسرى فى نطاق نظام يحسب فى نفس الوقت حساب حقائق العلم وحساب نزاهـــة الارادة الخلقية •

---

(٣٢) L.W.J., I, 310.

٥

فترة الصبا ـ فى الوطن وفى الخارج

ان تطور صبا وليام چيمس ، وتربيته في معناها الوسيع الموصول ، نسجت من ثلاثة خيوط : التعليم المدرسى ، والسفر ، ومهنة العمل .

وكذلك أخوه هنرى ـ الذى لا يصغره الا بعام واحد ـ كانت خبرته مثلثة فى نفس الوقت بحيث ان قصة تربية أحدهما تتضمن معاشرته ومخالطته للآخر .

وجماع ذلك كله فى حصيلته ـ سبيل معقد التركيب والتشـــابك بدرجة غير محدودة ـ آتى أكله ثمرتين انسانيتين فذتين فريدتين الى أقصى درجات التفرد والفذاذة .

على أن المتأمل فى التعليم المدرسى الذى ناله وليام چيمس وأخوه هنرى چيمس الصغير ـ بالنظر الى الوراء ـ نجد أنه كان سلسلة من المصادفات ـ ولكن كون ذلك كان كذلك لم يكن ذاته من قبيل المصادفة كليا . وانما لذلك ارتباط له مغزى هام بفلسفة أبيهم العائلية . فلم يكن من المتوقع أن يقنع بالروتين المنظم العادى أو النسق النمطى الرتيب، سواء فى التربية أو فى أى أمر آخر . ولعله بحسب الظاهر ـ كان قد أصابه ضرب من النفور ضد الكلية من جراء تجربته وخبرته الخاصة . وعلاوة على ذلك فقد كان يؤمن بحرية أطفاله وبأن يكون لهم الخيرة فى حدود ما ارتأى أنه صالحهم الروحى :

« ابتغى لطفلى أن يصبح رجلا قويما ،رجلا لا يفعل الخير بدافع الربح والكسب ، كما هى الحال فى حوافز الاحسان البليد البهيمى ـ وانما يفعل الخير بدافع حبه للخير أو بالاحساس بالمرضاة والحظوة العاطفيـــة لأدائه ـ ابتهاجا به . وبما أننى أعرف أن هذه السجية أو النزعـــة لايمكن أن تقحم بالاكراه عليه ، وانما ينبغى أن يكتسبهـــا ويضطلع بها من تلقاء نفسه فى حرية ، فاننى لذلك أحيطه بقدر الامكان بجو من الحرية».(١)

---

(١) The Nature of Evil, 1855,99.

كان چيمس الكبير يرى أن الحب الأبوى شـــهوة خطيرة ، تجنح بصاحبها الى أن يصبح حيازيا اقتنائيا • ومن الوجهة المثالية — فما على الآباء لأبنائهم من سبيل ، وهم ليسوا وحدهم أصحاب الحق فى أطفالهم، وانما يجدر بهم أن يشتركوا مع غيرهم فيهم ، ويعترفوا بانتمائهم وملكيتهم للمجتمع ككل •

على أن جو الحرية الذى ساد أسرة چيمس لم يكن مجرد نتيجة للتنازل الأبوى ، لم يكن محض منحة من الأب • فالأطفال لم يكونوا متحررين من الاستبداد الأبوى فحسب ، ولكنهم بوساطة والديهم كانوا أيضا متحررين من استبداد العالم • كان هناك غياب شامل للسلطة النظامية المسننة فرضا . وفى هذا الصدد كتبت آليس :

« كم هو جدير بنا أن نكون شكورين ومعترفين بالجميل لأن أبوينا العظيمين قد فصلا القمح عن الزوان والحسك • ودقا كل الخرافات الخســــة الكريهة كما تدرس الحنطة بالنورج ولم يشعرا أن لزاما عليهما أن يملأ عقولنا بالعصف الجاف ، وآثرا ترك عقولنا كالصـــفحات البيضاء النقية تتلقى ما ينطبع عليها من خبرة شخصية أيا كانت ، الأمر الذى أعفانا من اصر تبديد طاقتنا فى جرف وكنس النفايه وسقط المتاع » (٢) •

ويخبرنا هنرى چيمس أن أباه كان يكبح الحماسة المهنية لأولاده ، وأنه حال دون اتخاذ قرار فجائى أبتر ، يجنح الى تفضـــيل مهنة على الأخرى ، بأن يتساءل موجها عما اذا كان مثل ذلك الاختيار « مغلولا جدا وحاصرا » (٣) .

كان يخضع العمل أو الفعل أو الأداء للكينونة ، لحيـــازة فكرة الفيلسوف عن المهنة ، والقاضية بأن مهنة الرجال الأولى وواجبهم الأول هو أن يكونوا رجالا •

وعلى الرغم من المهن التى آثروها ، فان الأبناء أطاعوا لا وعييا ايعازه وتوصيته • فكلا وليام وهنرى أصبحا رجالا أولا قبل أن يكونا أى شىء آخر ، وانه ليوجد دائما انتقاص غريب فى الاشارة الى أحدهما « كعالم نفسى » والى الآخر « كأديب قصصى » كما لو كان ذلك يتضمن تسميتهما بما كانا •

---

(٢) Alice James. Her Brothers. Her Journal, ed. by Anna Robeson Burr, Dodd, Mead and Company, 1934, entry of December 31, 1890.

(٣) N.S.B., 50-2.

على أن تطبيع هذا المعيار يغير وجه هذا السبيل التربوى غير العادى. فالسبيل ـ الذى يسمى تقطعا وتنافرا وتفككا ـ عندما يقاس بالمعيار الدارج يصبح تنوعا وعمقا وأصالة فى العيش • والأخطاء نفسها والزلات، حتى عندما لا تعلم درسا واضحا ملموسا ، تصبح جزءا متكاملا من شجن الحياة المحرك لعواطفها ، ومن ذلك العجز من قبل الفرد عن بلوغ مصيره وادراك مآربه ، وهى العلامة المميزة لانسانيته وبداية خلاصه •

على أنه أمر يجافى الصواب أن نعتبر تأثير البيت ـ مجرد تأثير سلبى فحسب ـ فالأب كما رأينا كان صاحب نفوذ مطل على أولاده بطريقة لا شعورية ، وكانت عدواه تنتقل الى أولاده بطريقة غير محسوسة • وكان جو حياة الأسرة محملا وزاخرا بالقوى المحسوسة والايجابية النشيطة ، تلك القوى التى ذكرها فيما بعد ادوارد امرسون ، والتى تركت بصماتها الواضحة على وعيه يوم أن زار نيوبورت فى سنة ١٨٦٠ أو سنة ١٨٦١ •

« ويلكى الدسم المحبوب » ، كما كان يطيب لأبيه أن يدعوه ، كان يقول شيئا ، وعلى الفور يتصدى العصفور الصغير بوب ـ بصيصته المعهودة ـ لتصحيحه أو مجادلته ، فيدلى الأصغر بحجته مدافعا عن قوله فى طيبة وسذاجة ، وسرعان ما ينبجس هنرى الصغير من صمته مؤيدا ويلكى • ولكن بوب يصر على رأيه فى تحد، فلا يلبث الأب أن يدلى بدلوه ويقوم بدور الوسيط المتولى حفظ النظام، ثم ينضم وليام ـ أكبر الأبناء ـ الى الحلقة • على أن صوت الوسيط الملطف سرعان ما يتوه فى حومة جدل الأبناء ، فيترك دور الوسيط ، ويدخل فى الحلبة بكل حماسة وقوة • وعندما يحتدم الجدل ، وتكون سكاكين الأكل فى أثناء الطعام مشرعة فى أيدى الآكلين تؤدى دورها من الحركات والايماءات والاشارات ، فان مسز چيمس العزيزة ـ التى كانت أكثر وقارا وتحفظا ـ وان كانت ذكية واريبة ومفعمة بحنان الأمومة ، كانت تنظر الى ضاحكة مهدئة من روعى قائلة : « لا تجزع يا ادوارد ، انهم يتقاتلوا بالسكاكين ، ولن يتبادلوا الطعنات • هذا أمر مألوف عندما يحل الأولاد بالبيت »(٤)

بيد أن اختيار وليام چيمس لمهنته أمر يستحق الالتفات ، لأنه كان اختيار رجل موهوب ، ولأنه اختيار طال أمده وأرجىء مرارا ، ولأنه كان اختيارا محفوفا بالصعوبة ، وفوق كل شىء لأن اختياره كان سبيلا من الخبرة والخيار • فما كان وليام چيمس ضحية ظرف أو أسير واقع راهن الا فى أكثر المعانى سطحية • لقد اقتات وتغذى بالظروف • صحيح أنه اشتكى من عدم تعليمه ، ولكنه كان بذلك يشير الى التعليم المدرسى

(٤) E.W. Emerson, Early Years of the Saturday Club, 328.

النمطى المطرد ، وشكواه على أية حال بينة على تململه المزمن ، بدلا من أن تكون دليلا على أى افتقار حقيقى الى القوت ٠

لقد بدأ وليام چيمس أن يكون وليام چيمس فى وقت مبكر جدا من حياته ، وأخذ فى التماس وتدبير الطعام الذى تتطلبه شهيته المميزة ٠ بيد أن هذه الظاهرة — انصافا للحقيقة — لم تكن أقل انطباقا على أخيه ٠ لقد كانت مسألة « الاستقرار فى الحياة » عملية طويلة من الألم والمعاناة لكليهما سواء بسواء ٠ وكان السؤال الفحلى عند وليام هو : أى ؟ فى حين أنه عند أخيه هنرى هو : أين ؟ ولكن أيا من السؤالين لم يكن هينا ، أو يؤخذ ببساطة ، أو يترك لتدابير القدر ٠

ونتيجة هذا الارجاء الطويل للاختيار هو أن كثيرا من الثمار والغلات المبكرة — من العمل ، والحكم ، والأداء ، وغيرها من ضروب التعبير عن الذات — غرست ، وزرعت ، وزادت من خصوبة التربة وتثميرها ٠

وعلى الرغم من أن الفرق بين الأخوين هو عام واحد ، الا أن وليام كان قطعا « الأخ الكبير » ٠ على أن المسألة لم تكن فى الواقع من الأمر مجرد مسألة عمر ٠ ففى معرض الحديث عن باكورة مدركاته يقول هنرى :

« ٠٠٠ احدى هذه المدركات — ولعلها أولاها فى الترتيب — هى أن أخى يحتل مكانة فى العالم لا أستطيع أن أصبو اليها — وأينما يكون محط طموحى — أنى كان — فقد كان هنالك مسألة وصولى اذا ما وصلت على الاطلاق — متأخرا وآسيفا — كما لو كان الشوط الذى قطعه فى مدى الستة عشر شهرا من الخبرة بالعالم — التى سبقت مجيئى الى العالم — قد بلغت أمدا بعيدا فى مضمار السبق ، بحيث اننى طوال فترة طفولتى وشبابى لم ألحق به أبدا أو أتجاوزه » ٠ (٥)

فالمسألة اذن لم تكن مسألة عمر زمنى ، وانما هى مسألة كيف زمنى ، أو مسألة نغم ووقع وخطو ٠ فلقد كان وليام أكثر « حيوية فى ذكائه ونجابته » ، وأكثر جرأة ، وأكثر سرعة وتلبية فى الاستجابة(٦) . ثم انه كان أكثر فكاهة ودعابة ومن جنح الى احتلال بؤرة الانتباه فى وسط المسرح فى حين أن أخاه الصغير أتخذ مكانه بين المتفرجين والمشاهدين الذين يضحكون ٠ وفى هذا الصدد يقول هنرى نفسه : « فى الواقع لم

(٥) S.B.O., 8, 9.

(٦) Ibid., 16,22.

يكن هناك امرؤ آخر سوى ونيام چيمس نفسه الذى كان يستطيع أن يزهر في أى قفر ـ كانت فكاهته ودعابته تطيب لى فى تلك السنوات»(٧) ·

لقد كان الضحك عنصرا هاما جدا في حيـــاة الأسرة ، وكان وليام ـ بعد أبيه ـ هو فارس الحلبة بلا منازع ، ومعين الضحك الذى لا ينضب· وعندما كان أطفال الأسرة وصحابهم يمثلون مشاهد فكاهته في الطابق العلوى من البيت ، كان وليام هو الذى يتولى من أول الأمر تأليف هذه المسرحيات ، ثم يأخذ لنفسه الدور الرئيسى ويمثله · ولم يكن يفعـــل ذلك من قبيل توكيد الذات ، وانما بوساطة سرعة البديهة · وعندما شلح وليام ذات مرة أخاه قائلا : « انني ألعب مع أولاد يلعنون ويســـــبون بالفاحش من القول »(٨) ، كان يستعمل بطريقة لا شعورية تماما كلمات ترمز الى مقدرته ، التى تفوق مقدرة أخيه ، على التعامل مع الدنيا والناس من حيث هم ، والى سجيته فى مراعاة مقتضى الحال دائما وفى أن يكون كفئا للمناسبة ·

ولقد خلف هنرى چيمس للتراث الأدبى قصة خلافهما في الاتجـاه نحو الجنس البشرى ، وهى تعتبر من أروع الآثار الأدبية وأكثرها اشعاعا وشهامة ومروءة ، وتمثل هنرى چيمس أصدق تمثيل ·

فوليام ـ الذى كان له ذوق مميز فى كل شيء ـ كان قادرا على أن يهضم أى شيء تقريبا فى علاقاته الاجتماعية · ولم يكن مرد ذلك الى تغلبه على نفوره من هذا الشخص أو ذاك ، وانما مرجعه الى خلوه من النفور والكراهية « لم يكن هنالك انسان مثله استطاع ألا يلقى بالا لمســـألة النفور والكراهة ، وألا يحفل بالوعى بها » ·

ومهما كان ما يتضمنه هذا القول بالقياس الى حكم وليام وتقديره ، الأمر الذى لاشك فيه أن هذه السجية أهلته لمعاشرة الناس ·

قد يكون هنرى صاحب مشرب اجتماعى أكثر رقة ، ولكن وليام كان أقوى شهية اجتماعية · ومن ثم ، فحيث تجد هنرى يحجم ويجفل ، تجد وليام يقدم ويقتحم بلذة ونكهة ونية طيبة من صميم فؤاده(٩) · وعندما

(٧) Ibid., 204, 253.

(٨) Ibid., 259.

(٩) N.S.B., 323-7. Speaking of his brother Henry, just after the latter had =

تقدم بهما العمر كان هنرى غالبا ما يصاب بصدمة من جراء اغفال وليام للتقاليد المرعية والعرف الشائع · فلم يكن وليام يحفــل بأى نوع من القبعات يلبسه فى حفلات آخر الأسبوع ، وكان من هجيراه أن يصعد مرقاة لكى يطل على تشسترتون من فوق سور الحديقة(١٠) ·

ونظرا لأنه كان أقل اهتماما بالمظاهر ، فقد تفوق على هنرى المتحسب الحريص الحذر ، فى حرية وجرأة ما يأتيه من أعمال ·

وبعبارة أخرى فان مسرح الأحداث كان ــ فيما يبدو ــ معدا لأحداث « مركب نقص » · ولكن ذلك لم يحدث البتة ــ على الرغم مما يبدو من أنه أمر لا يمكن تصديقه · فلقد تقبل الأخ الأصغر الوضع بكل هــدوء وسكينة ورصانة ، دون امتعاض أو غل نحو وليام ، ودون فقدان للثقة بنفسه · لا هذا ولا ذاك · وكان ذلك هو واقع الأمر الذى يدل على صفاته العينية المكينة ، والتى وان كانت أقل بريقا ولمعانا من صفات أخيــه ، الا أنها لم تكن أقل صفاء وطهرا · لقد كان ايثاره وطيبته ومروءته مضرب الأمثال فى الأسرة ، وأكسبته لقب « ملاك » الذى كان يدعوه به أبواه بكل اخلاص وصدق ، والذى كان يخلعه عليه وليام فى شىء من التهكم والمكايدة المشوبين باللطف والظرف والوداد · كان يفتقر الى المبادرة ، والى القدرة على التصرف الحاسم الجرىء · ولكن حيث ان نزعته كانت متوازية مع قدرته ومتمشية معها ، فانه لم يعان من الشعور بالوكسة أو احتقار الذات · ولم يكن حسودا لما فى يد غيره ولا يملكه ، بل كان قنوعا بما يملكه فعلا ــ فى ثقة متينة واعتداد بالنفس لا تشوبهما شائبة من الادعاء أو الظن · فالاختلاف بين هذين العقلين ، اختلاف عميق بعيد الغور ، وهو اختلاف ظهر فى سن مبكرة جدا ، بحيث انه يفلت من العين الرامقة ، ويختفى وراء الباب المغلق للمزاج والوراثة ·

وفى معرض تفسيره لحقيقة أن عدم انخراطه هو أو أخيه فى سلك تعليم منظم مطرد ــ قد أنتج تربية على نحو ما ــ يقول الابن الأصغر ان

=arrived for a visit in 1904, James said: «His manners, speech and voice have become thoroughly Anglicized. He is a shy fellow. I suppose it is a phenomenon of protective coloration» "Reported by Professor Alexander Forbes".

(١٠) H.G. Wells, Experiment in Autobiography, 1934.453-4.

الشرط اللازم والكافى لأى شيء ليكون تربويا هو أن هذا الشيء يثير « هوى ذاتيا »(١١) ·

ولقد توافر لدى كل منهما هذا الهوى الذاتى منذ الوقت الذى أصبح فيه فردا · وكان لكل منهما أيضه الروحى الخاص به ، وطريقته الفذة فى افراز وامتصاص الخبرات التى تعرض له · أما فيما يتعلق بالنسب المقارنة لكل من هذين الولدين – من « الهوى الذاتى » – فهنا تبدو المظاهر مضللة · فلقد شغل هنرى نفسه منذ طفولته بالتأليف الأدبى والمسرحى ، كما أن وليام شغل نفسه بأعمال صبيانية من العلم والفن(١٢) ·

ولكن عبقرية وليام تجلت فى انطلاق وجرأة ، فى حين أن عبقرية هنرى تبدت خلسة وخفية ·

وكانت حياة وليام التعليمية سلسلة من الغزوات ، يعود منهـــا أحيانا محملا بالغنائم وأحيانا خالى الوفاض ، ولكنه فى كل من الحالين كان يأخذ بزمام المبادرة ، بينا نجد أن هوى هنرى الذاتى كان يفصح عن نفسه فى الدفاع والمقاومة بدلا من الهجوم والاقدام · لقد حاولوا أن يجعلوا منه عالما ، وحاولوا أن يجعلوا منه محاميا ، وتمشى مع الأمور وفق ما تتطلبه هذه التجارب ، ولكنه فى النهاية أرهق مربيه ، وحملهم على أن يتركوا له الخيار فى تقرير مصيره · وفى غضون ذلك كان ينـــال ما يبغى من تربية وتعليم ، لا بأن يحاول هذا أو ذاك بنفسه ، ولكن بأن يفتح عينيه ويسجل ملاحظاته ومذكراته عن الحياة والأدب ، بينا يحاول الآخرون اجراء تجارب تربوية فاشلة – عليه ·

لقد كان مطلب هنرى « هو أن يجد له مكانا فحسب – لا بأس بأى مكان – أنى كان – ويتلقى انطباعا أو يجد مدخلا ، ويشعر بعلاقة وارتباط أو اهتزاز وتر » (١٣) ·

فالخبرة عنده ، تزود بالأنماط أو المشاهد ، ولها فى نفسه نوع من لحمة النسب الخفى ، من النسق أو النغم يدركها الاحســـاس بمس وعاطفة كوحدات وبها تصبح حيازات تختزن كرصـــيد مدخور ليوم الحاجة الأدبية ·

(١١) S.B.O., 26.

(١٢) N.S.B., 122,260.

(١٣) S.B.O., 25.

وكان وليام يشترك معه فى هذه النزعة ، ولكن على الرغم من أنها كانت ملحة ولجوجة ، الا أنها كانت دائما حافزا ثانويا . ذلك أن هواه الأصلى الموافق والأكثر تغلغلا فى نفسه ، كان تلمس العلل والأسباب فيما وراء المشاهد والظواهر ، أو الاستشراف من أعلى لأجل الأسباب المتحكمة والضوابط .

فأحد العقلين كان تبصريا تأمليا ، والآخر ممحصا منقبا واجرائيا. ولولا أن التعبير ناقص جدا لكان القول بأن أحد العقلين كان جماليا والآخر علميا - قول لا يعدو الحقيقة .

على أن الألفاظ الفلسفية المعاصرة تسعفنا بتعبيرات قد تعتبر أنسب للتمييز بين العقلين .

فاهتمام هنرى كان « بالجوهريات » ، ومعيار فنه كان الرواية الصادقة والبلاغ الحقيقى - عرض وايصال الخبرات المتكاملة - بأقصى درجة من الدقة الحنبلية - فى ادراك ونقل الصفة النوعية للخبرة - على السواء .

وكان عند چيمس نفس الخيط فى تركيبه . كانت لديه عين الرسام ، وكانت عنده المقدرة - التى ربما لا مثيل لها من قبل - على اختطاف وعرض اللحظات السريعة الزوال ، وعلى الامساك بالتسلسل الشارد للحياة الواعية . كان فى وسعه أن ينفذ الى اللباب بكل دهاء بنظرة من زاوية عينه ، ولكنه لم يكن يسمح لنفسه بالانغماس فى هذا الاهتمام دون انفعال مضاد له - يتخذ شكلا من أحد اثنين - اما العمل أو التفسير .

وكان دائما يضرب على نغمة الحاجة الماسة الى علم نفس توضيحى . وعلى الرغم من أنه جمع صنوفا متنوعة من الخبرة الدينية ، بمعرفة نادرة لخبير عليم ، الا أنه اندفع بفروغ صبر الى ما كان بالنسبة له هو السؤال الحقيقى : « ماذا سنقول أو نفعل حيالها ؟ » .

وهكذا ، فى حين كان هنرى قانعا بالجوهريات ، نجد وليام شرها للخبرة ، مولعا بالعلة بدلا من الكنه ، متعطشا «لكى» بدلا من «ما» . كان هنرى حيال مشكلة ما ، يهتم بوجه الاشكال فيها ، فى حين أن وليام كان يهتم بحلها . كان هنرى يسأل أسئلة عن كل شىء : ما معنى الأشياء ، ما جوهر الأشياء ، ما مصير الأشياء ؟ ما فائدة الأشياء ، وكيف تحدث هذه الفائدة ؟

ولقد كانت نفس هذه الصفة هى التى جعلت وليام چيمس لا يكترث مطلقا بالأفكار كنماذج أو أمثلة أصيلة للتفكير · كان عديم الاهتمام بالآثار القديمة ·

وعلى الرغم من أنه آثر أن يعرف الحق (بمعنى الصدق العقلى) بالرضا ، فمن المؤكد أن حقيقة نهائية تم بلوغها ما كانت لترضيه أبدا · فكل بصيرة جديدة أو نظرية جديدة تنسخ وتلغى ما قبلها – على اعتبار أنها أحسن اعتقاد متاح راهن ، حيث ان هنالك سؤالا واحدا هاما لاغير، ألا وهو : ما هو الحقيقى طبقا لأكمل وأتم بينة متاحة ؟

ولكن الحياة العقلية ما كانت لتروقه وتجذب شغفه لولا وجود الحقيقة الحظيظة بأن كل الحلول تتطلب مراجعة على الفور ·

ولقد كان من المستحيل على وليام چيمس أن يكتب مؤلفات على غرار مؤلفات أخيه فى تاريخ حياته الشخصية · كان يتذكر – ولكن الشىء الذى كان يتذكره فحسب ، مجرد تذكر لم يكن يحفل به · وفى هذا الصدد يقول هنرى : « كان يعلن دهشته المذهلة ، بل أحيانا تبرمه وفروغ صبره لقدرتى على الاسترجاع والتذكر ، مؤثرا محو النفايات الأخلاقية البالية من أجل جديد طازج ، بدلا من اختزانها وعرضها فى رضا وانبساط »(١٤) ·

على أن الاختلاف بينهما لم يبلغ أقصى درجات وضوحه فى أى أمر مثلما بلغ فى روايتهما عن أبيهما ·

فعند هنرى كان الأب خلقا وعقلا تمثلهما انطباعات نصف منسية ، يتعين احياؤها فى تماسكها المعقود الفريد ، وكيفها الذى مورس بالخبرة، والذى لا يمكن تعدينه الا بمنظور من التذكر الاسترجاعى الجهيد ·

وعند وليام أيضا ، كان أبوه انسانا عزيزا وفريدا نادر المثال ، ولكن فيما وراء ذلك كان رمزا ومنبعا لأفكار يتعين الحكم على صحتها ، واذا أمكن تخليدها ·

على أنه أمر يجافى الانصاف أن يقال ان هنرى ووليام يرتبطان بأبيهما كما يرتبط زينوفون وأفلاطون بسقراط · ولكن قولها وسحبها يبقى على النكهة القليلة من الصحة التى تتصف بها المقارنة ·

---

(١٤) S.B.O., 68.

فعند أحدهما كان أبوه صورة محببة يحتفظ بها ، وعند الآخر كان أبوه رسولا هاتفا بوحى يتعين تفسيره والحكم عليه ٠

كان السفر حقيقة أساسية فى تاريخ أسرة چيمس ٠ كان مستعدا نا يلجأ اليه ـ بصفة اعتيادية ـ كوسيلة لتربية الناشئة من الصغار وكعلاج طبى للكبار ـ أيا كانت أوجاعهم وأسقامهم ـ سواء للجسم أو العقل ٠ ومن ثم فان أحداث السفر وطوارئه كفت عن أن تكون أحداثا أو طوارئ٠

ان التعرض المتكرر المتعدد للمناظر الطبيعية بموضوعاتها المتعددة المختلفة من الخشونة البدائية الفطرية أو من الثقافة الانسانية ـ أصبحت قوام طعام وليام چيمس ومن لوازم العيش لديه ٠

ان المقارنة بين الأنماط العديدة للحضارة الأوروبية ، وفوق كل شيء بين أوروبا وأمريكا ، أصبحت عنده تكاد تكون ضربا من المحاوطة الملازمة التى تبلغ حد العقدة النفسية ٠ ولقد اكتسب مرانا ويسرا فى قراءة وحديث اللغات الأوروبية فى وقت مبكر بدرجة كافية خصبت دورة النمو برمتها فآتت أكلها ثمرا جنيا ٠

وقرئت الكتب ـ كتب من كل صنف ووصف ـ لأن الكتب يمكن قراءتها أينما يحل المرء ، أو حتى فى ترحاله ٠ ان نغم السفر نفسه ـ تغلغل فى ثنايا روح وليام چيمس حيث كانت سجاياه ونزعته وسليقته مهيأة ومواتية من قبل ـ لتلقى هذا النغم ٠

فلم يكد يترك مهد الطفولة حتى بدأ يعتبر كل العالم وطنا له ـ يحن اليه ويشتاق حنين واشتياق المرء لمسقط رأسه ، وطفق يطير من فن الى فن ، تارة يحن الى الوطن والبيت راغبا فيهما بكل شغف ولهفة ، وطورا راغبا عنهما يريد الهرب منهما بنفس الشغف واللهفة ٠ كل مكان يحل به يحبه ولكنه يهفو الى الأحسن البعيد ٠

سنشهد أولا أسفار وليام وهنرى الصغير فى سنة ١٨٤٤ ـ فى أثناء تلك الاقامة القصيرة المدة المشهودة ـ فى أوروبا عندما مر والدهما بتجربة تغيير مذهبه الدينى ٠ كان وليام آنئذ قد بلغ عامين وخمسة شهور ، وكان هنرى عمره عام واحد ٠ وسنرى أن وليام كان قد أصبح فعلا أقل «طيبة وصلاحا » من هنرى ـ وأكثر ذلاقة وطلاقة لسان ٠ والرسالة كتبها الأب الى الجدة ـ المسز وليام چيمس ـ من أهالى ألبانى :

وندسور أول مايو سنة ١٨٤٤

والدتى العزيزة ـ

كان الجو هائجا مائجا ابان رحلتنا الى فرنسا ، ، ولقد عوملنا أسوأ معاملة ـ ولم ينج من هذه المعاملة أحد منا ـ ابتداء منى الى الصغير المسكين هنرى . لم يسبق لى أن أصبت بمثل ذلك الدوار البحرى من قبل . أما ويلى فقد طارت نفسه شعاعا ولم يدر ما يفعل وطفق يصرخ بلا انقطاع طالبا «ازالة الشعرة من فمه» . ولقد ابتهجنا كثيرا بالعودة الى انجلترا النليدة المهندمة . والجو فى غاية الامتاع لذيذ جدا ـ الأشجار مورقة ، والأزهار متفتحة، والعشب مخضر، والهواء طيب الأنسام له عبير وشذا وأريج ، تفوح منه بحيث تضارع أى حانوت حلاق . وبعد أن رسونا على الشاطىء ذهبنا الى كلفتون ، ولكنا سرعان ما يممنا شطر وندسور اذ لم نجد غرفا لائقة تماما هناك الا فى قلب المدينة . وهنا فى وندسور وجدنا مقرا مريحا آخر الأمر . انه كوخ صغير يقع بين المتنزه الكبير والمتنزه الصغير ، وهو مجاور لمقر دوقة كنت ، وفى مواجهة مدخل المتنزه الصغير . وفى وسع ويلى وهارى أن يتحدثا من نوافذ غرفـــــة الأطفال حديثا بهيجا مع الأغنام والماشية التى ترعى بأسفل الوادى طوال اليوم . لم يسبق لى فى حياتى أن شاهدت بقعة أكثر جمــــالا وبهاء وسحرا من هذا المكان . والأطفال على مايرام ـ عموما ـ فيما عدا أسنان هنرى التى تزعجه فى بعض الأوقات ـ ولكنه فى أطيب صحة تضارع طول اليوم وعلاوة عليه الليل. وويلى أيضا يتمتع بصحة جيدة عندما نستقر ساكتين . ان رحلة باريس اللعينة آذته قليلا ولكنه الآن قد استرد عافيته . فى غاية الظرف والمرح ـ ويسمينى « هنوى » (اذ لا يستطيع أن ينطق أل ... رى) وينادى أمه « ماوى » ـ ويتحدث مرارا وتكرارا عن رحلته عبر المحيط وعمن لقيهم ابان السفر.

اننا جميعا نذكرك بكل حب وحنان ـ يا أمى العزيزة ـ فاقبلى منا جميعا أرق الحب وأصدق الاخلاص ، وخصوصا من

ابنك

هـ .

ان الفترة بين العودة من أوروبا فى سنة ١٨٤٥ والرحيل الى أوروبا فى سنة ١٨٥٥ هى الفترة التى تضمنها كتاب هنرى چيمس : « صبى صغير وآخرون»، وبصفة خاصة ذلك الآخر الأقل صغرا ،والذى هو الموضوع الرئيسى لهذا الكتاب الحالى . وكما انعكست تلك الصور من المــاضى البعيد الذى استرجعه الأخ الأصغر ، يتضح أن تثقيف وتعليم هــذين الولدين الصغيرين كان حتى سنة ١٨٥١ أمانة عهد بها الى سلسلة من « السيدات المربيات » . وبعد سنة ١٨٥١ نجد سلسلة من المؤسسات التربوية ، التى يغلب عليها عنصر الرجال ، والتى كانت أكثر تنظيمــا فى آن . فثمة معهد فرجنيه الواقع أسفل برودواى ، بجوه المجلجـــل المصرصر من اللغة الأجنبية والمزاج الأجنبى ، وهناك أيضا أكاديميـــة المستر رتشارد بولنج جنكز ، حيث كان يعلم المستر كو مادة الرسم ،

وهو الذى كشف موهبة وليام ، وأخيرا كانت هناك مؤسسة فورست وكواكنبوس حيث صادف هنرى « آفة الحساب المرعبة » ! .

على أن أوضح خصيصة مميزة لتلك الفترة التعليمية — والفترة التى أعقبتها — هى التغير . « ما كان فى وسعنا أن نغير كل هذا التغيير ، اذا كان ثمـــة اعتراض عنيد على حضــــورنا ، ومع ذلك فانى لعـــلى يقين باطنى — وأخى على ما كان عليه من ذكاء وحيوية ، وأنا على ما كنت عليه من عقبى حميدة وسلامة عقل — بأن هذا اللوم لم يظهر له أية بينة فى منزلنا أبدا » .

ومن ثم فيبدو أن العيب لم يكن فى الأولاد الصغار ، وانما كان فى المدارس ، بناء على حكم والد الأولاد الصغار . أما چيمس الكبير فقد بدأ يتململ — ضيقا وتبرما وسخطا — من مدارس نيويورك . وعلاوة على ذلك فقد كانت هناك أيضا مسألة اللغة .

وفى هذا الصدد كتب لصديقه ادموند ومارى تويدى ، اللذين كانا قد سافرا الى أوروبا من قبل وأسـهما فى تحـويل أفكاره الى هـــذا الاتجاه (١٥) : « فى وسعنا أن نذهب الى بلاد أجنبية ، ونربى الأولاد فى رطانات ولهجات غريبة » .

وأخيرا ، وبعد تفكير طويل ، صدر القرار الخطير الشأن ، وأبحرت الأسرة كلها الى ليفربول فى ٢٧ يونيه سنة ١٨٥٥ . وقد توقفوا فترة طويلة فى لندن حتى أبل هنرى الصغير من نوبات حمى الملاريـــا التى أصابته ، ثم رحلوا الى باريس ، ومنها الى ليون بالقطار ، ومن ليون فى « المركبة المتنقلة » الى جنيف حيث استقر بهم المقام فى باكورة أغسطس ، وهناك « وفقوا الى ادخال الأولاد جميعا فى مدرسة — وهى مدرسة المستر روديجر »(١٦) . على أن « مثوى روديجر العليم بعدة لغات » — أخفق فى تحقيق ما بشر به من أمل فى أول الأمر . ولقد كتب هنرى فى معرض الحديث عن تلك الخبرة يقول : « لقد ارتحلنا عبر البحار تراودنا فتنة المدرسة السويسرية — نظريا ، ولكن المدرسة السويسرية — عمليا — سرعان ما خيبت آمالنا وفقدت سحرها وفتنتها على أيدينا » .

وما حل شهر أكتوبر حتى شهد الأسرة تعود مرة أخرى من حيث

(١٥) S.B.O., 16, 222 and Passim.

(١٦) August 13 (1855), to Mrs. W.J. of Albany.

أتت ، سالكة نفس الطريق من ليون الى باريس الى لندن ، ترافقها أول مربية ـ من سلسلة المربيات الفرنسيات التى قدر لها أن تطول وتطول. وهنالك استقر بهم المقام أولا فى ميدان بركلى ، ثم ـ قبيل عيد الميلاد ـ فى سانت جونز وود ، حيث كانوا جيرانا لويلكنسون ، وحيث « تمتعوا بحديقة فسيحة ونعموا بمنظر شائق »(١٧) . وهنا ـ قدر لشخص يدعى روبرت تومسون الأسكتلندى الأصل ، والذى كان يوما ما معلما ، أو ر.ل. ستيفنسون أن يصبح آخر وسيلة للتعليم الأصولى النظامى .

ولقد اختلفت نظرة الأخوين فى تقدير تلك الفترة من حياتهما اختلافا بينا . فهنرى يقول :

« اتذكر ـ عندما ارجع البصر اليها من منظور ما تلاها من الأيام كيف اشتكى منها و.ج الى ، وشهر بها ومعها السنة التالية وبعض الشهور التى قضيناها فى باريس ، على اعتبار أنه وقت مجدب قاحل بائس يرثى له ـ حيث ان كلينا ـ وقد فاتنا كثير من الفرص والعلاقات التى كان فى وسعنا أن ندركها ـ لم نفعل شيئا ، وانما مضينا معا لانلوى على شىء ، فى أسوأ حالة مريعة من الحشمة نسير جنبا الى جنب ، لابسين قبعتين صغيرتين « عاليتين » وقفازين راسخين ، كما تقضى أصول اللياقة فى زى الأطفال المناسب للمكان والزمان ، ونحن نحملق فى منظر الشارع الأغبش ... ونتسكع أمام واجهات الحوانيت ، ونشترى ألوان الرسم والفرش التى كنا نلطخ بها صفحات الرسم الخالدة » .

ثم يضيف الى ذلك قوله : انه بينما كان وليام (يشعر بمحفزات أعمق وحاجات أشجع كان هو نفسه لا يحس الا « باحساس أسيف مغم » لافتقاره لتلك المحفزات والحاجات) (١٨) .

وفى يوليه سنة ١٨٥٦ ـ عندما استبدل باريس بمنظر لندن ، حل مستر ليرامبرت محل روبرت تومسون . « وكان مستر ليرامبرت نحيفا هزيلا متسربلا بحلة سوداء ضيقة ، ويلبس نظارة ، وكان شاحب الوجه ، صاحب عقل راجح على نحو بارز » ، وكان يدير مدرسته فى سلاملك بأعلى مخرفة شانزيليزيه بين روند بوا وشارع الكوليزيه . وفى نهاية الشتاء ـ عقب « قلط » انتهى بقطع العلائق مع المستر ليرامبرت ، انخرط الأولاد فى سلك معهد فيزانديه بشارع بلزاك ، طالبين منتسبين.

---

(١٧) S.B.O., 286 ff., 294,303.

(١٨) S.B.O., 301.

وكان فيزانديه من أتباع فورير ، وكان معهده يضم أشخاصا من مختلف الأمم والأعمار ، وخليطا من الجنسين ، بمثابة « عصبة أمم » - و « ان لم تتمثل فيه أمم الأرض على الاطلاق ، فقد كان على الأقل يوحى بالعالمية والرابطة الدولية - أو على أية حال كان زاخرا بخصوبة تضفيها عليه مثالية جسورة »(١٩) ·

ولقد شهد شتاء عام ١٨٥٦ - ١٨٥٧ اظهار هذين العقلين الحساسين الآخذين فى النضج والاستواء ، ليس على الحياة الباريسية فحسب فى مناظرها ومشاهدها ، ولكن أيضا على كنوز اللوفر ولوكسمبورج · وهنالك أشبع وليام شغفه بالرسم - ذلك الشغف الذى سرعان ما أكد ذاته - فنهل من مناهل تلك المتاحف على ظمأ ، وعبَّ منها بلذة حتى شبع وارتوى · وفى هذا الصدد كتب هنرى :

« أتذكر كيف كان يتحسس بيديه - مرارا وتكرارا - ديلاكروا ، الذى كان يجده دائما وفى كل مكان مثيرا ولذيذا ، الى درجة مرهفة ، محاولا تقليده بأقلام الفحم أو الطباشير الملون ، بطريقته الخاصة التى لم تكن تقل روعة فى الأسلوب والأداء عن أسلوب ديكامب الذى كنا نعتبره عبقرية فذة من نفس تلك الفصيله النادرة التى ينتمى اليها ديلاكروا · لقد كانت فصيلة بهــا عرق باطنى من الاحساس الذى لاينطق به ، ومس من المبهم العويص ، وكان فارس حلبتها على وجــه الأخص ديلاكروا الذى امتاز بخاصية مافوق الحصر - وكلها مرتبات - كنا قد بدأنا - حتى فى تلك المرحلة المبكرة - بنقلة سعيدة - نصبو اليها فى استرخاء وحنين » (٢٠)

ولقد مست تلك الخبرات - عند هنرى - جوانب أكثر من الجانب الفنى · فلقد كانت بالنسبة اليه « تعليمية وتكوينية ومخصبة » · ثم يمضى فى هذا السياق فيقول :

« وعلى أية حال فقد كانت هذه بعض السبل غير الواضحة لالتقاط تعــليم ما واستجماع تربية ما - ولقد كنت على الرغم من الغموض - بعيدا جدا عن الموافقة مع أخى فيما بعد على أننا لم نلتقط تعليما ما ولم نستجمع تربية ما ، وأن ذلك لايحدث مطلقا · بيد أننى لم أكن - فى أى معنى من المعانى - غافلا أو مقصرا · ولكنى أقول اننى كنت منشقا وخارجا على رأى أخى لدرجة أننى تماديت فى تمجيد تلك المسالك واعتبارها جزءا من نسق منتظم حقا وفعلا » · (٢١)

(١٩) Ibid., 326-7, 364.
(٢٠) Ibid., 345.
(٢١) Ibid., 349, 352.

وفى صيف سنة ١٨٥٧ – تحت وطأة دوافع اقتصادية – أجَّرت الأسرة من الباطن مسكنها فى باريس الكائن بشارع مونتاين ، وانتقلت الى بولون حيث التحق الولدان بالكلية المحلية ، وهنالك شعر وليام – الذى كان قد بلغ آنذاك ستة عشر عاما – لأول مرة بمزايا وفوائد التعليم الطيب والملازمة الموصولة . بيد أن هنرى الذى كان يصغره بعام ، وجد بولون مكانا قفرا ومجدبا – نسبياً .

« ويلى مشغوف جدا بالأبحاث العلمية ، وقد كرس نفسه لها ، وفى مرجوى أن تؤتى اكلها ويصبح عالما محترما يستحق الاعتبار . ولقد واظب على حضور الدراسة فى كليـة امبريال هنا طوال الصيف . ولقد اخبرنى احد أساتذته منذ أيام أنه « طالب باهر ، وأن كل المزايا التى تهيئها تربية علمية من الطراز الأول فى باريس ينبغى أن تمنح له ». على أنه أكثر معزة فى قلبى من أجل قيمته الأخلاقية – أكثر بكثير من قيمته الفكرية . لم يسبق لى مطلقا أن عرفت صبيا عنده كل هذه المبادىء ، وفى نفس الوقت يمتاز بكل هذا الكمال الخلقى والسماحة والحب والموادعة نحو اخوته الصغـــار ، انه يجنح دائما الى تقديم العون لهم دون ما استبداد أو ظلم أبدا . أما هارى فليس مشغوفا بالدرس مثلما هو مشغوف بالقراءة – أقصد الدرس بمعناه المتعارف عليه . ان لديه موهبة جبارة ككاتب، ولكننى فى حيرة لا أستطيع معها أن أتبين اذا ما كان سينجز الكثير فى هذا الصدد وينال بغيته » . (٢٢)

ولقد حفظت لنا ذاكرة مغامر آخر من صبيان الأسرة ، هو روبرتسون چيمس ، الذى كان عندئذ فى عامه العاشر والحادى عشر من عمره – حفظت لنا تفاصـــيل هذه الاقامة الأوروبية :

« شغب واخلال بالأمن فى حديقة ريجنت حيث يطلق الرجال المتطوون الخيل النار على الناس – فى ثورة الخبز . مساء تلك الليلة فى لندن عندما كانت متاججة بالألعاب النارية وبالصواريخ ابتهاجا بالسلام بعد توقف حرب القرم ، الملكة التى تجلس فى مركبتهـــا الملكية المذهبة فى طريقها الى البرلـــــان . التمثيل الصامت المضحك لعيد الميـــــلاد – « بنت صائد الفيران » – ميدان بركلى ... – ..... – الدكتور ويلكنسون – حرس الفرسان . المستر ثاكارى الذى حملنى على عاتقه ، ثم بولون فوق البحر – وكلية المجلس البلدى بسقفها المزخرف الفاخر ، حيث ذهبنا وليام وأنا وفشلنا فى الحصول على جوائز... ان الشيء الوحيد الذى يقال عنها هو أنهـا كانت طفولة جميلة زاهية لأى طفل له أن يعيشها . وانى لأتذكرها الآن بحذافيرهازاخرة بالرفق والانغماس والضوء واللون ، وبكل ما تشتهيه النفس من منى لم نحرم من اشباع أية واحدة منها تقريبا » (٢٣).

(٢٢) Dated Boulogne, October 15, 1857.

(٢٣) R.J. to A.H.J., February 24, 1898. Another Extract from this letter appears above. 15.

على أن عقل وليام وملاحظاته ، وما تهفو اليه نفسه ، وما تنقب عنه روحه ابان هذه الأوديسه الأوروبية — قد سجلت جميعها بغزارة وصراحة واخلاص فى عدد من الرسائل كتبها لرفيق صباه « ادجار · ب · فان وينكل » من أهالى مدينة نيويورك(٢٤) · ومن الجلى أنه كان مشغول البال باختيار مهنة ، وأنه كان يفحص الأمر ويقلبه على وجوهه فى ضوء كل الممكنات الكونية · ومن الجلى أيضا أنه قد تشرب من أبيه ومن المستر فيزانديه تفاؤل فورير الذى عزا كل شرور العالم الى الحالة المختـــلة المعتلة ، ولكن القابلة للشفاء ، للمجتمع الانسانى :

واليك (نتفة !) من « تدفقات » وليام :

٢٩ جراند رى — بولون فوق البحر ، ١ مارس سنة ١٨٥٨

عزيزى اد —

تسلمت جوابك الكريم الفورى فى الأسبوع الماضى ····· وأريد الآن أن افضى اليك بدخيلة نفسى ، فأخبرك بصراحه عن تفكيرى ···· ان اختيار مهنة يهذب كل من يبدأ الحياة ، ولكن ليس ثمة داع يجعل ذلك ضربة لازمة ، أى لا يوجد سبب يحتم ذلك اذا كان المجتمع منظما تنظيما مناسبا معتدلا · أعتقد أن كل انسان ينبغى أن يعمل فى المجتمع ما يطيب له أن يعمله اذا ترك لنفسه، وأعتقد أننى أستطيع أن أبرهن لك على حجتى برهانا قاطعا ·

فأولا ما الذى ينبغى أن يكون مارب كل امرىء فى الحياة ؟

ان يكون ذا نفع بقدر الامكان · افتح قاموسا من قواميس السير وتراجم الحياة · كل اسم يتضمنه قد أثر بعض التأثير على الانسانية ، ان خيرا وان شرا ، وتســـعة وتسعون اسما من بين كل مائة اسم تجدها ذات تأثير خير — اى نافع · ولكن ما معنى النفع ؟ حلل أى اختراع نافع أو حياة أى رجل نافع ، وستجد أن نفع الاختراع أو نفع الرجل قوامه شىء من السرور أو اللذة — العقلية أو الجسمية — يضـــفيها الاختراع أو الرجل — كنعمة على الانسانية · وفى الآونة الحاضرة من النعمة الجسمية تحظى بكل احترام — وبعدل ·

وبالطريقة اللعينة التى ينظم بهـــا المجتمع الآن — عندما لايكون فى وسع امرىء أن يضمن ذلك القدر من الطعـــام والوفاء والكساء المكفول للأنعام ووحوش البرية — والذى يعتبر حقه بالميلاد سواء بسواء كالهواء الذى يستنشقه ، عندما تخمد أنفاسه ويخنق ويسحق على يد أخيه الانسان ، عندما يتكاتف الناس على حرمان الناس ، ويتعاونون على الاثم

---

(٢٤) Edgar Beach van Winkle was born in the same year as W.J. (1842), was graduated from Union College in 1860, served in the Civil War, and was for many years Chief Engineer of the Department of Public Parks of New York.

والعـــدوان ، ويحرم المرء من كل شىء ، ولا تبقى له الا حياته ـ التى تستل أنفاسها منه أحيانا عسفا وجورا ـ عندئذ تصـــبح المخترعات المادية التى تضـــع كل ضرورات الحياة فى متناول يده فى المقام الأول وتحظى باعظم احترام وحفاوة ، فى هذه الآونة ، فان مثل تلك الاختراعات وحدها هى التى تسمى « نافعة » • ولكن ••• افرض أن الناس (لم) يسلكوا مسلك الشياطين • افرض ان الغذاء والكساء والدفء كفلت وضمنت لكل فرد ، فمن الذى يحظى ـ من ثم ـ باكرام الناس واحترامهم ؟ من الذى سيعتز به النـــاس ويعظمونه ؟ لسوا فقط مشيدى القنـــاطر والنفق . وليسوا فقط مخترعى القـــاطرات البخاريه ودواليب العزل ، ولكن كل أولئك الذين أسهموا بقسط فى انتـــاج السرور للآخرين ـ سواء أكان ماديا أم روحيا • وفى مثل هذا الوضع فى المجتمع (الذى سيأتى سريعا ـ فيما آمل) فسيتبع كل امرىء أذواقه ويمضى على سجيته لا تعوقه معوقات ، فيتفوق ويبرع باقصى ما يمكن فى العمـــل المعين الذى خلق له • ومن ثم فان من واجب كل امرىء أن يفعل الخير باقصى ما فى مستطاعه • ولعلك تقول ان من واجب كل امرىء أن يعيش كالقديس باقصى ما فى مستطاعه ، وأن يصوم ويصلى وهلم جرا • لك ذلك ـ كما يقول الأيرلنديون ـ ولكن ذلك ليس هو كل شىء • فعلى المرء أن يفعل ذلك ، ويفعل شيئا أكثر من ذلك • ان خير سبيل لعبادة الله وخدمته هو أن تخدم أخاك الانسان « فالعـــابد التقى هو الذى يسع قلبه حب الانسان والطير والأنعام » • من جهتى أنا فأنا مؤمن أعظم الايمان بالخير الفطرى للجنس البشرى • اننى أحب كل انسان ، وكل كائن حى ، وكل جمـــاد •

عندما أذهب الى الشاطىء ـ عندما أتطلع الى السماء والبحر والجبل الممتد الرائع ، فاننى أشعر بنوع من الجذل الفطرى المتهيج الذى يجعل قلبى يقفز الى حلقى ، وتذرف عيناى الدموع • وفى طريق عودتى الى البيت عبر الميناء الزاخر بالرفاق الأعزاء من صائدى الأسماك الذين مسهم الكبر ، فى ثيابهم الرثة القذرة ، فاننى أشعر بحنين جارف واكبار لهم ، كما لو كنت قادرا على أن أعانقهم جميعا وأضمهم الى صدرى • نعم ، البشرية كلها خير ، وحالما تلغى الحكومات والقسيسون فلن يكون هناك ثمة شىء يسمى اثما أو ذنبا • لايوجد شىء يسمى قلب شرير • أنا على يقين بأنك وكل امرىء آخر لابد وأن يشعر بنفس هذا الشعور • كل الشر الذى فى العـــالم مصدره القانون والقسيسون ، وكلما عجلنا بزوالهما أو الغائهما ـ كان ذلك خيرا وأبقى •

ولكن فلننظر الآن فى واجبنا • لقد سبق أن قلت مرارا وتكرارا ان واجبنا هو النفع • من ذا الذى يريد أن يمضى فى الحياة دون أن يخلف وراءه علامة دالة على مروره ورحيله؟ من ذا الذى يفضل أن يعيش مغمورا مجهولا لايعرفه أحد سوى نفر ضئيل من عشيرته الأقربين وأصدقائه الملازمين ، ثم يصبح نسيا منسيا من الجميع فى مدى ثلاثين عاما بعد موته الى غير رجعة ؟ لأى سبب وهبنا الحياة؟ افرض أننا لم نفعل شيئا ثم متنا ـ اننا عندئذ نكون قد غبنا المجتمع غبنا واختلسنا الزمان اختلاسا •

ان الطبيعة ـ بمنحها لنا الحياة تطوق أعناقنا بدين يتعين علينا الوفاء بتسديده ودفعه يوما ما • رأيت اليوم فى المدرسة عبارة لروسو أوافق عليها تمام الموافقة : « ماهى عشر أو عشرون أو ثلاثون سنة فى حياة انسان خالد؟ ان اللذة والألم تنقشعان كالظلال • والحياة تنتهى فى لحظة خاطفة كلمح البصر ، وهى فى حد ذاتها لاشىء • وقيمتها تتوقف على النفع الذى تضعه فيها • ان الخير الذى فعلته هو الباقى ـ فحسب ـ والحياة قيمة

بهذا الخير ـ فحسب» • من الصعب أن أترجمها الى الانجليزية ، ولكن هذا هو المعنى الاجمالى• على اننى لا أقصد بالخير مجرد القوة ـ عضلا وعصبا • ان أى عامل عادى يحفر قناة ـ له نفع ـ ما فى ذلك شك • ولكن أى نوع من النفع ؟ ثمة آلة يمكن اختراعها لتحل محله ، وسيتم حفر القناة وتؤدى وظيفتها تماما كما لو كان هو ـ الرجل العامل بكل روحه وعقله يؤدى العمل فيها • ان النفع الحقيقى أو الخير لا يتـــألف اذن من مجرد القوة البهيمية • والا ، فما جدوى عقولنا التى أودعت فينا اذا لم يكن القصد منها هو استخدامها ؟ ومن ثم فلزاما على كل منا ـ بطريقته الخاصـــة وسبيله الميسر له أن يلتمس شيئا جديدا ••• شيئا لايتم دوننا •

قد يلقى الشعراء السخرية والاستهزاء ويقـــال انهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون مالا يفعلون ، ومن ثم ، عديمو الفائدة• ولكن ، افرض أن مؤلف « مزامير الحياة » كان قد حاول أن يخترع المحركات البخارية (والتى أعتقد أنه لم تكن عنده العبقرية لها) على امل أن يكون نافعا ـ فكم من الوقت كان قد اضاعه وبدده ؟ وكم كان يكون نصيبنا من الخسارة والخسران ؟ ولكنه أحسن صنعـــا لأنه تبع ذوقه ، وافتدى حياته ، وأعتقها بكتابه « مزامير الحياة » الذى يضارع أى انتـــاج آخر فى نفعه • ان علمى الفلك والتاريخ الطبيعى ليس لهما نفع علمى كثير ـ وعلى هذا فلا أهمية لهما تذكر فى الوقت الحاضر ولكنهما مصدرا لذة ومتعـــة وسرور تفوق الوصف لأولئك الذين يعنون بهما ، ومن ثم فهما نافعان • وعندى أن المرء الذى أقبـل عليهما بحافز من ذوقه وحواسه وسليقته ، ثم يحاول أن يفعل شيئا أكثر نفعا فيحمل نفسه على اصطناع اكتشافات قليلة الأهمية ـ فانه يبوء بالخسران ويضل ضلالا بعيدا •

أعتقد أنك الآن توافقنى على أن كل انسان ميسر لما خلق له ، وأن لكل امرىء نفعه الخاص به ، وانه يعتبر خائنا خاترا اذا ما آثر أن يتخلى عن ذلك ، ويعدل عنه الى اى شىء آخر لاتهفو اليه نفسه ، ولا يسيغه ذوقه ، وليس عنده ذرة من الاستعداد له • حمدا لله ، الذى اقتضت مشيئته الا يعيش الانسان بالخبز وحده • أريد أن أكون رجلا، وأن افعل بعض الخير ، أيا كان • فاذا اتبعت ذوقى وفعلت ما يوافقنى ويناسبنى ـ فسأخبرك بما أريد أن افعل • ساحصل على مجهر وأيمم شطر الريف ـ الى الغابات العتيدة العزيزة ، والأرض الطيبة والبحيرات والبرك • هنالك ساكتشف أكثر ما أستطيع اليه سبيلا ، وساكون جديرا بالرفس ، اذا لم أكن أكثر نفعا مما لو أننى آثرت أن أمد قضبانا للسكك الحديدية ، وفقا لقواعد ومقاييس وضعهـا غيرى وتعلمتها منهم • فاذا كنت فى الحالة الأولى لا أزكى وجودى وأحققه على نحو أفضل مما هو فى الحالة الثانية ، فلست اذن رجلا وما انا بانسان• سأخبرك بما أظن أنى فاعله• ساكون فلاحا ، وأفعل ما فى وسعى من الخير والنفع فى ميدان التاريخ الطبيعى • أما مدى ما أستطيع أن أنجزه فالله وحده به عليم • كل مافى وسعى أن أقوله هو أنى أدعو الله مخلصا أن أنجز شيئا ••••

فى رسائلى السابقة أظهرت كثيرا من التعصب التعس ضد الفرنسيين • وانى لأشعر بالخجل والعار من صميم قلبى • انى أحب الفرنســـيين أكثر وأكثر بمرور الأيام • عزيزى اد ، لاتستسلم للتعصب أبدا • ان الطبيعة الانسانية واحدة فى العالم كله • ولها اخطاؤها وضروب عجزها ونقصها فى كل مكان، ولكنها أيضا ـ وفى كل مكان خيرة طيبة فى صميمها ••••

ارجوك ان تكتب لى عاجلا ياعزيزى اد ، وخبرنى برايك ، فعندك ترجى نظرة الصدق. بارك الله فيك ٠

استودعك الله ٠ اكتب سريعـــــا ٠ صديقك

و ٠ چيمس

وفي ربيع سنة ١٨٥٨ رحلت الأسرة بقضها وقضيضها من بولون على البحر عن طريق ألبانى ، الى نيوبورت فى رود أيلاند ، حيث جـــذبهم بلاريب قرب صديقيهم المقربين ادموند ومارى تويدى ٠ وهنالك استقر بهم المقام زهاء خمسة عشر شهرا ٠ فأما الولدان الأكبران فقد ألحقـا بمدرسة وليام ليفريت ، حيث زاملا توماس سارجانت بيرى وستيل ماك كاى كرفقاء فى الدراسة ٠ ولقد وصف توماس سارجانت بيرى زميليه وسجل انطباعاته عنهما : جولاتهم الطويلة معا كل عصر ، هنرى « الذى كان يجلس على مقعده فى النافذة ، يبدو عليه نوع من الشرود والنأى » ، « طالب لا يحفل بالدراسة » ، وانما شغله الشاغل هو الأدب ٠ ووليام الذى « كان مفعما بالمرح والبسط » على الرغم من أنه كان يتحـــدث عن شوبنهاور ورينان(٢٥) ٠

ولكن الحقيقة التى تبدو أكثر أهمية ودلالة من كل ذلك ، هى ان وليام كان يتلقى دروسا فى الرسم على يد وليام موريس هانت ، الذى كان يعيش مع تلميذه چون لا فارج فى نيوبورت ، والذى كان له الفضل فى اذكاء الشغف بالفن فى روح وليام ــ ذلك الشغف الذى ملك عليه نفسه بعد عام بحيث أصبح لا سبيل الى مقاومته ٠ وكان وليام تواقا لمرافقة صديقه فان وينكل فى كلية يونيون ، ووجه دراساته فى الخارج ــ الى حد كبير ــ ابتغاء هذا الهدف ٠ ولكن سلطة أبيه كانت عند هــذه النقطة أقوى من تساهله وتسامحه . وبناء على ذلك كتب وليام لصديقه فان وينكل فى الثانى عشر من أغسطس سنة ١٨٥٧ يبلغه خيبة أمله واخفاقه فى مسعاه :

« عندما فارقتك منذ أيام ٠٠٠٠ كنت على يقين بانى ساصبح بعد شهور قليـــلة « زميلا » انعم بصحبتك فى كلية يونيون ٠ ولكنى كنت مخطئا وواهما ــ اذ لم اكد اطرق الموضوع مع والدى حتى تبينت ــ مما اثار دهشتى ومباغتتى ــ انه لن يسمح باى كلام ،

---

(٢٥) The Letters of Henry James, edited by Percy Lubbock, Charles Scribner's Sons, 1920, I, 6-8.

ولن ينصت لأى حديث يتعلق بذهابى الى أية كلية — أيا كانت • انه يقول ان الكليات مراتع للفساد والفسق ، حيث يستحيل على المرء أن يتعلم اى شيء • أعتقد أن هذا الرأى جائر جدا ، ولكنى طبعا ينبغى على ألا أعصى له أمرا على الرغم من رغبتى الشديدة فى الالتحاق بكلية يونيون • ومن المرجح أننى سألتحق بمدرسة العلوم فى هارفارد • وعلى اية حـــال فعلى أن انتفع من ذلك بأكثر ما يمكن ، واشرح صدرى وأيسر أمرى لنفسى، على الرغم من أننى أشعر بالأسف الشديد لعدم التحاقى بكلية يونيون التى أعتقد أنها أنسب مكان لى » •

ورسمت الخطط للعودة الى أوروبا ثم ألغيت • ثمة شيء واحد كان واضحا لا لبس فيه ، هو أن تحركات الأسرة كانت تمليها وجهة النظر الأبوية ، بالقياس الى المطالب التربوية للأطفال ، وما تقتضيه من تدابير، وكما عبر عنها وليام لصديقه فان وينكل :

« لقد انتهى الوالد الى قرار نهائى ، قوامه أن أمريكا ليست المكان المناسب لتربية « شباب مستقيم » مثلى ومثل اخوتى • ومن ثم اتخذت تلك الخطوة، وذلك صحيح الى درجة كبيرة ، وعلى هذا فيتعين علينا أن ننتفع بأكثر ما يمكن من منفانا • لقد شعرت بخيبة أمل كبيرة ، لأننى وقد طرحت كل تفكيرى فى اليونيون ويئست من الالتحاق بها ، وضعت نصب عينى الالتحاق بكامبردج • وفى مرجوى ألا تضيع الفرصة ويكون الوقت قد فات عندما نعود الى الوطن ، وساكون فى غضون ذلك قد أتقنت الألمانية •• الخ •• الخ •• الخ•• وكما تجرى الأمور بوضعها الراهن ، فاننـــا قد زرنا الوطن — وهذا كل ما فى الأمر — ولقد كانت زيارة سارة بارة • لشد ما أحب أمريكا العزيزة العتيدة ، وآمل أن يظل قلبى ينبض بحبها فى السراء والضراء • شيء واحد أنا على يقين منه ، هو أن اقامتى بالخارج لن تغربنى عن بلادى ولن تجعلنى غير لائق للعيش فى وطنى » • (٢٦)

ويتجلى تفكير الأب ابان تلك الفترة ، والفلسفة التربوية التى ينطوى عليها سبيله المتذبذب بعض الشيء ، فى الفقرة التالية من رسالته التى بعث بها الى السيدة فرانســيس ج . شو ، والتى حررها فى نيوبورت بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٢٩ • ولقد أشار فيها الى « عودته اللاحقة من چنيف » :

« اعلمى اذن أننا تواقون الى أن تكون لنا تلك الجنة التربوية نزلا • ليس فى وسعنا الحصـــــول على مسكن فى كامبردج ، ونحن نجنح الى الرأى بأنها لن تكون المكان المناسب لنا من كل الوحدة — اذا استطعنا أن نوفق الى مسكن بها • وعلاوة على ذلك فلست أتطلع الى تعليم أولادى بالكلية ، ورغبتنا فى كامبردج لم يكن الحافز اليها سوى الحاق ابنى الأكبر

(٢٦) September 18, 1858.

بمدرسة العلوم • ولكننا ربما لانذهب حيث انه لم يستقر لنا راى بعد • والحقيقـــة ياعزيزتى مسز شو هى أننى ليست لدى الا راى واحد ثابت لايتزحزح حيـــال كل الأمور •••• هو أنه سواء أبقينا هنا أم رحلنا الى الخارج ، ومهما دهى أولادى العزاز ونزل بهم من أحداث فى هذه الدنيا ، فاننا جميعا ــ هم وأنت وأنا ــ متشابهون ، سواء بسواء ، ونحن آخر الأمر مخلوقات الله كليا ، وهو الذى يحيينا كل لحظة ويرعانا ويكلؤنا بعنايته كل لحظة ، ويهدينا سواء السبيل بحكمته المنزهة عن الخطأ ، وكرمه وفضله ورحمته الطاهرة • ومن ثم فليس لأحد منا أقل حق فى أن يداخلـــه القلق أو الجزع أو يعير سمعه فى أى ظروف يمكن تصورها ــ الى وسوسة الهلع » •

وهكذا ارتحلوا جميعا فى اليوم الثامن من أكتوبر سنة ١٨٥٩ ، ولكون البندول فى نهاية الطرف الآخر من مساره ، استقر بهم المقام ثانيا فى جنيف فى فندق دى ليبكى ــ وفى هذه المرة بنية تربوية صحت عزيمتها ، فأرسل وليام الى الأكاديمية (التى أصبحت جامعة فيما بعد) ثم لحق به هنرى بعد محاولة جهيضة لتعليمه العلوم والرياضيات فى معهـــد روشيت . وقد قصد بذلك علاج هنرى من عادة الاغراق المسرف فى قراءة القصص ولقد رضخ له ــ بكل وداعة ــ وان كانت بلا جدوى • والحصيلة « اخفاق غامض مغلف بالسرية » مما أدى الى زيادة شعوره بعظمة أخيه بالقياس الى نفسه :

« أيا ما كان العمل الذى تصادف أن يؤديه (وليام) جعله مشغوفا به ــ ويقينا بأسرع تلبية مصاحبة لكل شىء آخر ، بحيث ان أقصى ما كنت أؤديه طوال ذلك هو أن استجمع قواى وألم شعثى والتقط ماتيسر، بحيث لم يعوزنى الغذاء أبدا ، وانما اتخمت نفسى بالفتات المتبقى من ولائمه الدسمة وبأصداء حياته »(٢٧) •

ويبدو أن وليام كان كفئا لأى شىء • ولقد قبل فى منظمة الطلاب الهامة ــ جمعية زوفينجيو ــ وفاز بجائزتها (بما فى ذلك الطاقيـــة والوشاح) بزخم واندفاع • ولقد ساس أموره فى دائرة الأسرة بنفس روحه المعنوية العالية المعهودة فيه •

والرسالتان التاليتان كتبهما شقيقاه الصغيران ، ويلكى البالغ من العمر آنئذ ١٤ عاما ، وآليس التى كانت سنها اثنتى عشرة ــ الى والدهما اللذين كانا قد سافرا الى باريس ولندن •

---

(٢٧) N.S.B., 4, 13. Cf. also William's letter to his father, ibid., 18. The original letter contained "Some very beautiful poetry" composed in honor of Alice, which he said, "loses a great deal by not being sung". "Alice took it very coolly" he added •

چنيف (ديسمبر سنة ١٨٥٩) .

« والدى العزيز

وصلنا لتونا من المدرسة ، ولقد قرأنا رسائلك الحبيبة التى تجعل المرء يشعر بانجذاب شديد نحوك، ولكنى لا أتمالك نفسى من الابتسام على الأسلوب السائغ الرقيق النبيل ، والزاخر بالحنين للأسرة ، الذى ينساب من كل كلمة. كيف تجد باريس ولندن ؟ بودى أن أكون معك هناك مهما كلفنى الأمر ، وذراعى فى ذراعك ، نمشى معا فى شارع ريجنت أو فى غابة سانت جون . ولكن يظهر ان هـــذه الأيام الحلوة قد انقضت ، وأننا يتعين علينا الآن ألا نعول كثيرا على المسرات التى تجلبها الصداقة أو الرابطة المتحدة ، لأننا الآن نكبر فى العمر ، وينبغى أن نكون مستعدين لأن نخشوشن ، ونقسو على أنفســـنا ، ونحرم أنفسنا من العواطف المجردة ، لكى نستطيع فى مستقبل الأيام أن ننعم بالسلام ، وأن ننهل من تلك المسرات والمتع كما يطيب لنا . فى هذا القدر ما يكفى من هذا الكلام على أية حال .... كيف حال آل ويلكنسون . أبلغهم كل حبى ، وأخبر المسز ويلكنســـون فرط سرورى لتسلمى رسالتها ، أو قل لها شيئا مناسبا ينفذ الى أعماق عاطفتها (أنت تعرف ما أعنى) .

أبى ــ انك لاتستطيع أن تتصور الى أى حد نفتقدك ، وأى فراغ أحدثه غيابك عن هذا البيت ؟ حتى وأنا فى المدرسة ــ بعيدا عن البيت ــ أشعر بهـــذا الفراغ (ليس جسمانيا ، ولكن عقليا) ــ أشعر كما لو كان هناك شىء ضائع وغائب ــ ولكن ليس عندى شك أنه فى صالح الطرفين أن يفترقا من آن لآخر هذه المدد القصيرة . تسلمنا خمس رسائل منذ سفرك ، احداها من لافورج الذى سود لنا أربع صفحات لم يملأها بشىء مهم الا بما يدور على ألسنة الناس من ثرثرة فى تيوبورت وبالقيل والقال !!

ويلى يقاطعنى وأنا أحرر لك هـــذه الرسالة ، ويريد منى أن أذهب معه الى غرفة الجلوس لكى أسمعه يلقى قصيدة نظمها فى آليس ، وقد فرغ لتوه من تأليفها ، وهو يتاهب لالقائها بابتهاج وتلذذ . وسأخبرك عن نجاحها بعد الانتهاء منها ....

انشاد القصيدة كان لا بأس به ، وأثار عاصفة من الضحك بين جمهور المستمعين .

ان جعبتى قد فرغت من الأخبار ، وموعد نومى قد اقترب ، وأجفانى تكـــاد تنطبق ، الا أننى على الرغم من ذلك أريد أن أبثك فى هذه الرسالة كل ما يعتمل فى صدرى نحوك من حب ، وأقول لك اننا نفتقدك كثيرا جدا ، واننا على استعداد لأن نبـــذل أقصى ما نستطيع لك كى تعود معنا تحت سقف هذا الفندق . وداعا ــ بابا العزيز . ابنك المحب دائما

چ.و. چيمس »

١١ مارس (١٨٦٠)

« والدى العزيز

تسلمنا رسالتين عزيزتين منك ، وانا لنجد أنك لازلت نفس الأب العجوز الذى لايصلح لشىء ، والذى لايكف عن الحنين الى الأسرة ــ كعهدنا بك دائما .

ان ويلى فى حالة عقلية غير عادية ، ينظم الاغانى والقصائد فى جميع أفراد الأسرة .

ولقد ألف ملحمة للعمة كيت ، جعل فيهـــا البطل هو زوجها الذى يموت شهيدا من أجلها ، وهو يقول : « تصوروا فكرة أن أى انسان يموت شهيدا من أجلها » .

ولقد انتهينا جميعا الى قرار أنه خليق بأن يذهب الى البيمارستان ، فبالله عليك عجل بالعودة قبل أن يسبق السيف العزل .

ابنتك المحبة

آليس چيمس »

فلا غرو اذن أن نجد هنرى الذى كان يشكو من البرد والجوع وعدم الراحة ، والذى وجد البرنز والبالوا « نماذج عجيبة لمتعة الحيــاة » ، قد ألقى سلاحه وهجر فكرة المنافسة ، وأنه عاش ـ بقدر ما استطاع الى ذلك سبيلا « بالخيال فى اهاب وليام القابل للتكيف بهـــذه الدرجـــة الفائقة » (٢٨) .

(٢٨) N.S.B., 14, 15.

٦

هل يصبح رساما ؟

فى صيف سنة ١٨٦٠ انتقل مسرح الأحداث مرة ثانية الى بون ، وفى هذه المرة قسّم الأولاد (باستثناء بوب الـذى تخلف فى جنيف) بين أسرتين تتوليان أمر تثقيفهم وتهذيبهم ، فكان وليـــام من نصيب الهر سترومبرج ، وهنرى وويلكى من نصيب الهر دكتور همبرت . وكان ذلك ايذانا بأول لمحة عن ألمانيا وبدء التيسير فى اتقان اللغة الألمانية . وبهذه الاضافة فان حاصل مجموع تعليم وليام ضم معرفة طيبة بالفرنسية والماما بالألمانية واللاتينية ، ومعرفة بالحساب بوساطة حساب المثلثات، ونتفا متفرقة من العلوم .

على أن هذه الاقامة القصيرة فى بون فى صيف سنة ١٨٦٠ تستحق الذكر بصفة خاصة ، بأعتبارها المناسبة التى اتخذ فيها وليام قرارا بدراسة الرسم . ولم يكن هذا القرار مما يثير أى دهشة ، فالأمر الذى لاريب فيه أن الرحلة الأوروبية قد دبرت أساسا بقصد تخليص وليام من ذلك النداء السابى للعقول الذى كان مسموعا بوضوح فى نيوبورت . لقد عالج وليام الرسم والنقش منذ باكورة صباه ، ولكن على الرغم من أن شغفه واستعداده قد أكدتهما الأيام طوال سنى حياته ، فحتى فى تلك اللحظة لم يكن القرار تاما . ولقد كان من المأمول أن السفر ينسيه اغراء الفن النحس ، ومن ثم يتفادى زواجا بغير كفء كزواج الأشراف بالصعاليك . ولقد وضح الآن أنه لا يستطيع أن يسلوه ، وأن التفريق بينه وبين الفن لم يجلب له الا القلق وزاده شوقا اليه . ولو أن هذا التفريق استمر الى الأبد لكان من المرجح أن تنتابه نوبات من الندم والأسف طوال حياته ، وما كان فى وسعه أن يفعل الا ما يفعل كل عاشق نحو محبوبته التى يفترق عنها ، فيعود اليها أكثر لهفة وهياما ، وربما ينتهى الأمر بزواجها ، وربما يقدر له البرء .

والرسالة التالية من چيمس الكبير الى ادموند تويدى ، تفصـــح عن الشكوك التى ساورت الأب ، وتظهر عادته فى تلمس الأسباب للتوفيق بين

مصلحة الأسرة ككل ، وبين أى أمر يبدو فى اللحظة الراهنة – أحسن ما يبتغى لوليام ٠

بون ١٨ يوليو (١٨٦٠)

« عزيزى العجوز تويدياس :

لم نكد نصل الى هنا حتى بادر وليام من فوره الى انتهاز الفرصة لكى يقول لى – ويبدو أنه قد راودته نفسه طويلا لفضى الى به ، ولكنه وجد من العسير عليه أن يبت فى الأمر – انه شعر برغبة جياشة لاحتراف مهنة الرسام ، وانه يرى أنه لاجدوى من أن أنفق عليه مزيدا من المال أو الوقت فى سبيل تعليمه العلوم ٠ وأعترف أن الدهشة عقدت لسانى من جراء هذه البشرى ، وشعرت بشيء من الحسرة لأننى كنت دائما معولا فى حسابى على مستقبل علمى لويلى ، ومازال بنفسى الأمل فى أنه على الرغم من ذلك سيأتى اليوم الذى تتحقق فيه تقديراتى فى هذا الصدد ولا يخيب ظنى ٠ ولكننى مع ذلك لم أملك سوى الخضوع لمشيئته ٠ وحيث ان باعثنا على الاقامة فى أوروبا كان مشتقا بصفة رئيسية مما تخيلنا أنه حاجاته التربوية ، فالآن يسعدنا أن نيمم سطر الوطن ونعود الى ديارنا . وندعه يبدأ فورا مع المستر هنت ٠ وأنا مقتنع بأن مصلحة بقية الأولاد ستراعى أيضا تماما مثل مصلحة ويلى من جراء هذا التدبير ، فليس فيهم – على سبيل الحصر – من فصل وفد للكد أو الكدح العلمى ، ولقد بلغوا عمرا – خصوصا هارى وويلى – يتوق فيه القلب الى آفاق أوسع وأرحب مما تتيحه عواطف الأهل ٠ انهم يريدون أن يتخذوا لهم أصدقاء من جنسهم وصديقات من الجنس اللطيف ٠ وكل مافى مرجوى من أمل فى توفيقهم وخلاصهم الدنيوى والروحى هو أنهما يمضيان الى غايتهما ويأخذان ما يأخذان « أخذ عزيز مقتدر » فى كلتا الناحيتين المادية والروحية عندما يعودان الى الوطن ٠٠٠٠ بلغ حبى للجميع ، واقبل منى دائما صادق اخلاصى ٠

هـ٠ج »

والرسالتان التاليتان من وليام چيمس الى أبويه(١) تلقيان ضوءا على حياة الأسرة المشتتة أبان فترة بون ، كما أنهما تلقيان ضوءا على القرار الحاسم الذى كان عندئذ مشكلة عامة للأسرة ٠ وفى أثناء أغسطس ، عندما قضى الأمر ونفذ السهم ، كتب وليام من بون لوالديه فى باريس وفى لندن ، حيث كان عليهما أن ينتظرا ريثما يلتقى بهما أولادهما هناك قبل الابحار ٠ على أن مناهضة الأب للفن عموما ، وكذلك تغاضيه عن تجسيماته المعنية – كانت معروفة جيدا لدى چيمس ، ومن ثم شعر برغبة قوية فى ملاقاة تلك المعارضة بالحجة ، وفى نفس الوقت انتوى أن يغتنم جانب التغاضى عند

(١) These letters, together with a third written from Bonn during the same month, have been published in an abbreviated form in N.S.B., 43-7.

أبيه • وعلى الرغم من أن رسائل الأب - لسوء الحظ - فقدت الا أن آراءه تكفي في هذا الصدد ، وهي ميسورة المنال •

فالفن عنده كان طائشا مستحقا حاصرا ، باطلا سدى وطفيليا ، اذا ما قورن اما بروعة الدين وعظمته ، واما بجدية العلم ووقاره .

بون (١٩ أغسطس سنة ١٨٦٠)

« والدى الأعز

تسلمت رسالتك يوم الثلاثاء الماضى • بودى لو أنك - كما وعدت - سطرت على الورق باوضح ما تستطيع ما هى فكرتك عن طبيعة الفن ، لأننى ربما أفهمها تماما ، وأحب أن أراها مسجلة ومعروضة بطريقة تتيح لى أن أتمعن فيها كلما سنحت لى الفرصة • وفى مرجوى أن تسطر فكرتك كاملة بقدرما فى وسعك وكما يطيب لك ، حتى يتسنى لى ان انعم النظر فيها وأخبرها • وسأحتفظ لنفسى برأيى فى وجهة نظرك ولا أقول شيئا عنها قبل ان أتسلم جوابك • أما فيما يتعلق بما تضمنه كتابك الأخير - فماذا فى وسعى أن أفعل سوى أن أشكرك على كل كلمة وردت فيه ، وأن أؤكد لك أن كل كلمة أصابت الهدف الذى صوبت اليه • بمثل هذا الوالد معنا فكيف نكون سوى جديرين به - الى حد ما - وان كنا ربما لم نبلغ المدى الذى يبتغيه قلبه لنا ، ولم ندرك الشوط البعيد الذى يريد اعزازه لنا وايثاره أن نجريه معه •

لقد عدت لتوى بعد أن تناولت عشاء فاخرا فى بيت الأولاد ••• انهما - يقينا - يعيشان فى مرعى خصيب ، وان كانا لا يحسان بالنعمة والمزايا التى يتمتعان بها كما ينبغى لهما أن يحييا • ونظرا لأنه كان قد ألقى فى روعى أننى لا أتوقع شيئا من هذا القبيل ، فقد باغتتنى الدهشة لبذخ وفخامة العشاء : شرائح سمينة من اللحم وحساء ، وكلها مطهوة كما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، ثم فطيرة لذيذة محشوة بالكرز، ومعها زجاجتان من نبيذ الراين الغالى ابتهاجا بالمناسبة • وكان الدكتور (همبرت) ودودا طلق المحيا مرحا كعادته ، كما كانت السيدتان العجوزان شخصيتين نموذجيتين تصلحان لقصص ديكنز • لقد انعزلا عن العالم وذابا بعضهما فى بعض لفترة طويلة صهرتهما فيها نار المطبخ ، بحيث اختلط عقلهما وأصبحا عقلا واحدا ، وبحيث يبدو أنهما يؤلفان شخصية واحدة لها جسمان • لم أر فى حياتى شيئا أكثر عجبا من الطريقة التى تجلسان بها تتمتمان فى أقصى طرف المائدة ، وكل منهما نفوه فى نفس الوقت بنفس ألفاظ التعجب اذا ما وصل الى سمعهما كلام من طرف المائدة الذى نحتله • ويقول الأولاد انهما دائما تتكلمان معا مستعملتين نفس الكلمات ، أو تبدأ احداهما شطرا من الجملة والأخرى تكملها • انها حياة فريدة شاذة •

هارى يدرس بقوة وعزم ، وأعتقد أنه ليس ثمة داع لأن تساورك المخاوف من جهته • انه لم يعد يعانى من آلام معدته أو بالأحرى لم يعد يشكو منها فيما أعلم • ولقد زاد وزنه وتحسنت صحته وأصبح أكثر اشراقا عما كان عليه وقت رحيلك • ويبدو أنه وويلكى على وفاق فى صحبتهما • وهما ينعشان نفسيهما من آن لآخر بمشاحنات جسمانية ودية أخوية، يمتحن فيها كل منهما عضلات الآخر فى غرفة نومهما ، لكى يرفها عن نفسيهما عناء

المذاكرة ، ويستعيدا نشاطهما عندما تبعث الدراسة فيهما الملل والنوم . وفى هــــذه المشاحنات أحيانا يكون الفائز هارى ، وأحيانا يكون ويلكى . فى نيتنا أن نفرض على هارى مسافة كبيرة سحيقة من المشى كل يوم . لقد بدأت ميدعاته البيضاء تظهر عليهـــا الوساخة بشكل فظيع ، لدرجة اننا أخيرا حملناه حملا على أن يأخذها الى المغسلة . ولكنه تشبث بها تشبث من يصعب عليه فراقها ، بحيث ان الأمر لم يكن سهلا . لقد تقدمت تقدما ملحوظا فى هذا الأسبوع الأخير فى الألمانية ، وبدأت أفهم ما يقال لى ، وأعبر بطريقـــة مفهومة للآخرين وبشكل محتمل فى الأمور البسيطة التى لا تحتاج الى لف أو دوران .

آلاف التشكرات للصغيرة الأثيرة بال(٢) ، ذات الشفاه الكرزية والأنف المشمشى والذقن المزدوجة ، لرسالتها التى انطلقت كالمقذوف النارى ، وأصابت بها قلوب اخوتها الشاعرين بالوحدة — بشعور جارف لتقبيل وصـــفع وجنتيها السماويين .... لقد ذكرت والدتى، فى رسالتها النفيسة ، انها ستجلس الى المصور لبصورها عندما يجتمع الشمل عندكم. اننى أستحلفها بكل ما تكنه لنا من حب ،وبكل الروابط الوثيقة التى تربطها بابنهـــا الأكبر ، ألا تفعل ذلك قبل أن نحضر اليكم ،وعندما نصل اليكم فسنتشاور فى أمرها .

فؤاد فوق فؤاد مفعم بالحب لكم جميعا — من ابنك البار

ويلى »

بون (٢٤ أغسطس سنة ١٨٦٠)

« والدى الأعز

وصلنى كتابك مساء الأمس متأخرا بحيث تعذر على أن أرد مباشرة . لذلك بادرت من فورى هذا الصباح لأكتب لك لكى أطمئنك بخصوص الوقت الذى نزمع فيه الرحيل من بون . اننا لم ننس أبدا ولو لبرهة أن يوم الرحيل هو الجمعة ٣١ أغسطس .

لقد اغتبطت بتسليم رسالتك السابقــة على الرغم من أن محتوياتها لم تكن بالضبط كما توقعت . ان ما أردت أن أسالك عنه هو الأسباب والدواعى التى تحتم على الا أكون فنانا . لم أستطيع أن أتبين تماما من كلامك: ما هى على وجه التحديد أسباب سخطك على قرارى الأخير ؟ وما هى وجهة نظرك عن طبيعة الفن ؟ ولم يتسن لى أن أفهم السر فى أن فكرة تكريس نفسى للفن تعافها نفسك الى هذا الحد ! أما رسالتك الحالية فلا تشير الا الى الخطر الروحى الذى يحدق بالمرء اذا ما انساق وراء طبيعته الجمالية (المفروض أنها قوية) وترك لها العنان فى توجيــــه نشاطه . ان هذه الحجة لاتستنفد الأسباب التى توقعتها ، مالم يكن نفورك من الفن — الى درجة كبيرة — مجرد كراهة لتعريضى لمثل ذلك الخطر الروحى ، الأمر الذى لايمثل واقع الأمر بحال من الأحوال . ولكنى الآن أدرك أن ما كنت أنتوى قوله ليس صحيحا ، وأولى بنا أن نترك المسألة حتى ألحق بك فى باريس فنناقش الموضوع معا . وانى طبعا أشعر بنوع من الهناء أن أرى أنك فى رسالتك قـــد سلمت بحقيقة كونى فنانا ، واقتصرت على اظهارى على رأيك فى الفنان ، وكيف أنـــه ينزلق فى خداع نفسه . وطالما أنك قد فعلت ذلك فأعتقد أننى أفهمك تماما . لقد سبق لى أن ألمت بأطراف الفكرة من حديثك وجمعت خيوطها ، وكثيرا ما فكرت فيها وشعرت بكل

(٢) One of W.J.'s nicknames for his sister Alice.

ما فيها من حق . واعتقد أن ثمـــة خطر الايستهان به اذا مانسيتها أبدا . ان الآثار التى ترتبت على معالجتى للفن ، وعلى أعمالى الفنية حتى الآن ، آثار من نوع لايغرينى بأية حال من الأحوال على أن أكون غافلا عما فى فكرتك من حق وصواب . بيد أننى لا أستطيع أن أفهم السبب الذى يحول بين استقلال ثقافة المرء الروحية عن نشاطه الجمالى . وما الذى يحدو بالقوة التى يستشعرها الفنان فى باطنه الى أن تتشبه حقيقة نفسه وكينونتها، أكثر مما تحدو القوة التى يستشعرها رجل من طراز كوفيار أو فورير الى أن يفعل نفس الصنيع ؟ ما الذى يحول دون أن توجد القابلية المعينة لنمو الوجدان الدينى ملازمة لعقـــل فنى فى اتجاهاته وميوله الأساسية ، مثلمـــا توجد فى عقل مفكر تأملى ، حتى اذا سلمنا بأن العقل الأول أكثرهما بدائية وأقلهما احتراما وأضالهما فائدة ؟ ان حصـــيلتى من الخبرة قليلة ، ولكنها هى كل مالدى لكى أفكر فى نطاقه وأصدر عنه ، وانى على يقين بأننى لم أحس مطلقا باى شعور بالمهانة أو الابتذال من جراء صلتى بالفن ، وانمـــا أستمد منه دائما انطباعات روحية هى أعمق وأظهر ما عرفت من انطباعات . على هـــذا النحو يبدو لى أن عقلى قد تكون ، ولست أرى سببا لتحاشى أن أسلم زمام نفسى للفن على هذا الأساس . وطبعا حتى فى حالة موافقتك على ذلك فستبقى اعتبارات أخرى قد تحفزنى الى التردد ـ اعتبارات الفـــائدة والطائل ، اعتبارات واجبى نحو المجتمع ... الخ ... الخ ... على أن كل هذه الاعتبارات يجب أن توضع فى كفة الميزان فى مقابل الكفـــة الأخرى ، وهى ميلى الشديد للفن ، وكـــذلك حقيقة أن حياتى ستنضج بالمرارة والحسرة اذا ما حيل بينى وبينه . هذه هى الطريقة التى أشعر بها فى الوقت الحاضر . وطبيعى قد يتغير شعورى وتفكيرى ، ولربما أكون قد أسأت فهم موقفك أيضا وتكلمت بلا جدوى . على كل حال فستتبين جلية الأمر بعد أسبوع، فليس فى وسعى أن أنتظر وقتا أكثر من ذلك . بلغ حبى للجميع . والى اللقاء .

« و . ج »

والتأم شمل الأسرة فى أول سبتمبر ولحق الأطفال بوالديهم . وبعد عشرة أيام أبحرت أسرة چيمس عائدة الى أمريكا على سفينة الأدرياتيك . ولقد عبر هنرى عن هذه المناسبة بقوله : « لقد عدنا الى الوطن لنتعـــلم الرسم » . ان مشاكل هنرى لم تكن ثانوية فحسب بالنسبة لمشاكل وليام، ولكنه أيضا مشى فى ركابه . ذلك أنه عندما استقر بهم جميعـــا المقام فى نيوبورت ، لكى يدرس وليام الفن على يد هنت ، و « لقد أخصبت هنت حياتنا وأنعشتها » و « حيث ان و . ج . طوال ستة الشهور الأولى أو أكثر بعد عودتنا أم مرسم هنت كل يوم ، وبكل غيرة وحماسة فأنا أيضا لم أكن أقل غيرة وحماسة ـ وان كان لمدة أقل ـ تحت وطأة العدوى التى لا سبيل الى مقاومتها » (٣) .

والخلاصة أنه فى حين أن وليام ، ومعه چون لافارج ، كانا يرسمان

(٣) N.S.B., 62, 79.

وينقشان فى صدر الصورة وقسمها المقدم ، كان هنرى الصـــغير يرسم وينقش فى أرضية الصورة ومنظرها الخلفى ٠

على أن التجربة المهنية كانت تجربة ناجحة تماما ، بمعنى أنها كانت تجربة حاسمة على الاطلاق ٠ فلقد تعلم وليـــــام بالعيش مع الفن أن فى وسعه أن يعيش بدونه . أما أنه صاحب موهبة وعنده شغف ، فهذا أمر لا ريب فيه ، ولكنه وجد الشغف أقل ارغاما مما حسب ، وحكم على موهبته بأنها أدنى تفوقا وامتيازا مما تتطلبه معاييره ٠ وعندما قرر نبذ الرسم ، فانه مضى الى غايته غير ناظر خلفه — الا نادرا — وغير آسف أسفا عميقا — أبدا (٤) .

وعلى الرغم من أن چيمس هجر الرسم نهائيا كمهنة ، الا أنه بسبب ذلك لم يفقد تلك الصفات ، أو حتى تلك الاهتمامات والميول ، التى أفضت به الى خوض تلك التجربة ٠ لقد اكتسب شيئا واحتفظ بشىء من تحيزات الفنان المحترف ، الأمر الذى أفضى به مثلا الى الشك والارتياب فى علم ومعرفة من ليس من أرباب المهنة ، والى الشعور بالعجز الفادح والقصور العقيم ، ان لم يكن الباطل والعبث ، لعلم الجمال والبديعيات ٠ على أنه احتفظ بحساسية الرسام وبشىء من عزلة الفنان ٠ ولقد هـــذب ورقى أسلوبه فى كتاباته العلمية والفلسفية ، وكان يشـــعر بالامتعاض لخلو أسلوب غيره من التهذيب والترقى ٠ ولقد أجاز لنفسه رخصة الفنان — أعنى أنه عندما كان يقبل على موضوع ويلجه ، فان الموضوع يملكه ٠ أما أوصافه للناس فقد كانت — مثل أبيه — لوحات فنية عبر فيها عن نغم الحياة الذى ينقله اليه الموضوع ٠ ومن ثم فانه عندما كان شخصيا جدا ، فانه كان غالبا غير شخصى جدا ٠ كان شديد الاستجابة لمزاجه ، لأن حالته المزاجية كانت لقانية بصيرته ٠ وكان يستجيب لسجيته المزاجية المداعبة ، لأنها كانت خلاقة ومبدعة ٠

ان تحليلنا لعبقرية وليام چيمس يحتل مساحته السديدة من الأهمية والتنويه ، بشرط أن يكون كل ذلك فى النهاية أمرا ثانويا ٠ فكما أنه فى تلك اللحظة الحاسمة من حياته آثر العلم على الرسم ، فكذلك حياته ككل

---

(٤) The reader who wishes to form his own judgment of James's skill as a draughtsman and painter will find reproductions in L.W.J., N.S.B., and As William James Said: Vanguard Press, 1942.

تدل على أيثار التفسير والتوضيح والانجاز على التأمل والخيال · كان يرى المنظر الطبيعى بعين رسام وأحاسيس الفنان التشكيلى ، كما فى وصفه لهواء أدنبره « ذى الجسد المكتنز » « تغشاه طبقة وراء طبقة من الظلام الممهد المخفف بالضوء المنبسط المتراجع فى تدرج » (٥) .

كان له خيال الفنان وادراكه النافذ الحاد وصفاته الحسية ، كما حدث عندما توقف عن الكتابة مرة ليشير الى ملاحظته « بأن الضـــوء يصرخ ـ بعيدا ـ فى الخارج » (٦) .

بيد أن المواهب التى أهلته ليكون فنانا كرست منـــذ تلك اللحظة الحاسمة فى حياته ـ بغير تحفظ لمآرب أخرى خلقية وتأملية ·

---

(٥) L.W.J., II, 146.

(٦) A.J., Journal, October 12, 1890.

٧

الدراسات العلمية فى هارفارد

من سنة ١٨٦١ انحصر مجال الأبدال المهنية عند وليام چيمس فى العلم . وصفوة القول أنه كان عليه أن يسعى فى طلب المعرفة . وسواء أكان سعيا فى طلب العلم بمعناه الضيق المحدد المعروف بالعلم الطبيعى، أم بمعناه الواسع المعروف بالفلسفة ، وسواء – فى حالة العلم الطبيعى اذا كان علم تجارب وملاحظات ، وسواء اتخذت مهنته الفكرية شكل البحث أم التعليم أو ممارسة الطب – فكل تلك الأسئلة ظلت ماثلة أمامه – لم يقدر لها أن تظفر بجواب الا بعد اثنى عشر عاما من المحاولة والشك والمحن – لعبت فى أثنائها حالته الصحية دورا لا يقل خطرا وحسما عن الدور الذى لعبه اكتشافه لذاته وما فيها من ميول ونزعات واستعدادات .

وشهد خريف سنة ١٨٦١ وليام چيمس طالب علم يدرس الكيمياء فى مدرسة لورانس للعلوم بهارفارد ، حيث لحق به هنرى فى العام التالى « كعضو غريب بشذوذ » فى مدرسة الحقوق . وعندما دخل وليام حياته الأكاديمية كان عمره تسعة عشر عاما . وبالنسبة لنا – نحن الذين نحيى هذا الخريف من سنة ١٨٦١ بالاسترجاع التاريخى فان ذلك الوقت كان أولا وقبل كل شيء فترة حرب أهلية . كانت القومية والذود عن الاتحاد والغاء الرق هى الأفكار المسيطرة على الرأى العام . فأما چيمس الكبير ، فقد هاج وماج وثار وفار ووضع أعز معتقداته فى بوتقة يؤيد بها هذه الأفكار فى خطبته التى ألقاها فى نيوبورت فى شهر يولية (١) . على انخراط الابنين الأصغرين فى سلك الجندية ، ومعهما عدد كبير من الرفاق والصحاب والأقارب ، جاء بالحرب بطريقة مباشرة الى بيت آل چيمس (٢) .

---

(١) N.S.B., 120. "The Social Significance of Our Institutions," July 4, 1861.

(٢) Wilkinson James enlisted in 1862 at the age of seventeen. "To me in my=

وليس ثمة بينة تشهد بأن وليام كان فى خريف سنة ١٨٦١ مشغول البال بالقضايا العامة الراهنة ، مثلما كان فيما بعد من حياته مثلا مشغول البال ابان الحرب الأسبانية • على أنه عبر ببلاغة وحسن بيان عن رأيه فى مسائل الحرب الأهلية فى خطبته التى ألقاها سنة ١٨٩٧ بمناسبة اقامة نصب تذكارى للكولونيل روبرت جولد شو ، بيد أن هذه الآراء كانت سارية على الماضى ، ومعزولة عن حومة الوعى ، بدلا من أن تكون معاصرة للأحداث • وفى سنة ١٨٦١ حال الوهن الجسمانى دون امكان تجنيده • ولعل السبب فى كونه لم ينبس عن الموضوع ببنت شفة راجع — جزئيا — الى حقيقة أن اهتماماته الاجتماعية والسياسية لم تكن قد اكتمل نضوجها بعد ، كما يرجع جزئيا أيضا — فيما أظن — الى شعوره بأنه كان عاجزا عن العمل ، فخير له أن يلوذ بالصمت •

على أن عام ١٨٦١ لا ينتمى فقط الى عصر الحرب الأهلية ، وانما ينتمى أيضا الى عصر بارنوم* . صحيح أن فن الاعلان لم يكن قد ترقى بعد ، ومذهب البابتريه** لم يكن قد محص وهذب ، ولكنهما تجليا بفجاجة عنيفة • ثمة نغمة مصرصعة — نوع من التصنع الفنى أو الاحتيال الماكر الذى يبدو ساذجا فيما بعد عندما يبلغ الذوق درجات من الارتقاء والتطور ، ضرب من التدجيل العجاج ، والشعوذة الواضحة وضوح الصبح لذى عينين ، والتى تتخذ ملامح الأمانة فتبدو حلالا ، وتجد طريقها على نحو ما الى نفوس القوم ، سواء فى صورة مشاهد عيانية أم تتسرب الى الحواس كمجرد شذا أو فغوة ، وهى تشيع فى الحياة وتتغلغل فى طواياها مجاهرة أو مداورة • وهى ظاهرة لم يسلم منها عصر من العصور ولم يفلت منها زمن من الأزمنة •

=boyish fancy" he afterwards wrote, "to go to war seemed glorious indeed; to my parents it seemed a stern duty, a sacrifice worth any cost," (The Assault on For Wagner, "in War Papers, Commandery of Wisconsin, Loyal Legion, Milwaukee, 1891.) Robertson James enlisted May 21, 1863.

(*) نسبة الى بارنوم تايلور (١٨١٠ — ١٨٩١) أحد جهابذة فن الدعاية والاعلان بالمهرجانات والمتاحف والمعارض .

(**) Babbitrry نسبة الى بابيت ارفنج (١٨٦٥—١٩٣٣) معلم أمريكى ذائع الصيت ومن انصار حركة الانسية ومن أشد الناقدين للمذهب الرومانتيكى — (المترجم) •

لقد كان ذلك العصر هو عصر علامة التعجب · عندما كان من الضرورى اثارة الدهشة لجذب الانتباه والسيطرة على العقول ، عندما كانت نبرة الصوت المجلجلة الحادة النغمة ، والاكثار من أفعل التفضيل والمباهاة والجفخ والمفاخرة الساذجة النيئة — لا تزال هى الوسائل الرئيسية للشهرة والصيت والدعاية · تلك كانت سوقية وفظاظة العصر ، والتى قدر لچيمس أن يفلت من براثنها سواء بترفعه عن الحياة السوقية واعراضه عن ساحة الجدل التام ، أم بنوع من النفور الغريزى ·

وصفوة القول ، فيما يتعلق بخصائصه الوطنية ، أن ليس ثمة بينة عندى تشهد على أن وليام چيمس كان قد دخل مرحلة الكهولة فى العقد المستهل بعام سنة ١٨٦٠ ·

وماذا نقول عن التأثيرات المحلية لنيوانجلاند ؟ لقد كانت حركة فلسفة ما فوق العقل فى عنفوان بروزها ، وكانت قد بدأت تتخذ لها شكلا نظاميا فى مدرسة سانبورن التى أمّها ابنا چيمس الأصغران . بيد أن چيمس — فيما يبدو — كان غير حافل بكل ذلك التيار الواسع من التأثيرات ، كما أنه كان غير متأثر بالحشة الهيجيلية الثانية « فى مدرسة كونكورد للفلسفة » — الا فى حالة امرسون ، ولقد كان انشقاق امرسون على تلك الاتجاهات هو الذى حمده چيمس فيه وظفر منه باستصوابه .

على أن عقم فلسفة ما فوق العقل فى نظر هنرى ، وكذلك وليام ، كان مرده الى قداستها المنزهة عن النقد الذاتى ، والى ما فيها من مهابة وخشوع · كانت سلسلة من « التجارب فى فراغ » غافلة عن التعقيدات الفعلية للحياة (٣) .

ويبدو أن عقل وليام كان دائما مزيلا للوهم أو الأمل الكاذب ، اذ كان دائما ذلك النوع من العقل الذى يتطلب سندانا لمطرقته ، ويبتغى مقاومة يتغلب عليها ، سواء أكان ذلك شرا خالصا يتعين عليه أن يدير له ترياقا، أم حقائق عنيدة تتطلب تفكرا وتبصرا ·

فاذا انتقلنا فى بحثنا عن التأثيرات ، من نيوانجلند الى هارفارد عينا، وجدنا فئتين من الشخصيات الجديرة بالاعتبار — فئة منهما لا جناح علينا من تسميتها الانسية ، والفئة الأخرى العلمية ·

كانت هارفارد فى عهد مديرها فلتون معهد علم عديم الشهرة

(٣) N.S.B., 217.

والامتياز ، يحتضن رجالا ذوى شهرة وامتياز . والشيء الذى كان طالب العلم يتذكره فيما بعد فى حياته العلمية لم يكن انه أخــذ هـــذا المقرر الدراسى أو ذاك ، أو اتقن هذه المادة أو تلك ، وانما هو أنه عرف هذا الرجل أو ذاك . ولقد شطرت فئة الانسيين – فئة الشخصيات الأدبية الذائعـــة الصيت فى بوسطن وكامبردج . وكانت مجـــلة The Atlantic Monthly ؛ التى يحـــررها چيمس ت . فيـــــلدز ، تنشر فى ذلك الوقت مقـــالات لهوثورن ، ولونجفيلو ولوويل ، وهولمز ، وامرسون ، وهويتيار ، وبايارد ، وتايلور ، ونورتون ، ومسز ســتو ، وهاريت مارتينو ، وغيرهم ممن يقلون عنهم شهرة وبعد صيت . أما مجـــلة The North American Review فكان يشرف على تحريرها أ. ب. بيبودى ثم أشرف على تحريرها من بعده لوويل ، ونورتون ، وجورنى ، وهنرى آدمز ، على التوالى . وفى سنة ١٨٦٥ بدأ أ.ل. جودكين – الذى كان يقيم فى كامبردج اقامة متفترة – رياسته الشهيرة لتحرير مجـــلة الأمة The Nation يعـــاونه ويحرضــــه نورتون . وكان لونجفيلو ، ولوويل ، وهولمز ، وامرسون ، ونورتون ، مرتبطين بهارفارد جميعا بين الفينة والفينة – ارتباطا رسميا . وكانت هـــذه الفئة تنتمى الى عالم الأدب الأوروبى ، مثلما كانت تنتمى الى عالم الأدب الأمريكى سواء بسواء ، وكثيرا ما زاروا أوروبا ، وكثيرا ما زارهم بدورهم مشـــاهير الرجال القادمين من الخارج . على أن الصلات الأوروبية لمؤرخى نيوانجـــلند ودبلوماسييها كانت أكثر اشتهارا وذكرا من كلّ ذلك .

وكان برسكوت – الذى كان عضوا فى نادى السبت – قد اختفى من مسرح الأحداث ، وغيبه الموت ، ولكن موتلى كان سفيرا لبـــلاده فى النمسا ، ولا يشعر بأى غربة فى كل أنحاء أوروبا ، وكأنه مع أهله ، فى حين أن چورچ بانكروفت كان سفيرا لبلاده فى لندن ، وكان على وشك أن يعين سفيرا فى برلين (١٨٦٧) . كانت أوروبا أقرب اليهم من وادى أوهايو ووادى المسيسيبى (٤) .

---

(٤) Edward Everett Hale writes that when Robert Todd Lincoln, bringing a letter of introduction from Stephen A. Douglas, entered Harvard in 1860, Lowell was apparently the only member of the faculty who had heard of his father. (E. E. Hale, J.R. Lowell and His Friends, 1899, 200-1.).

هذه العالمية الأدبية لبوسطون وكامبردج كانت لچيمس مناسبة لطيفة الوقع على نفسه ، وقد ساعدت دون شك على تثبيت الأثر الذى خلفته من قبل أسفاره الخاصة وصلاته الأوروبية • وعندما بدأ يجرب قلمه ويدلى بدلوه فى هذا المجال – كتب انتقادات ومقالات قصيرة فى مجـــلات التجارب الزراعية فى ولاية ميسورى . كان الميل ٣ر٧ فى المائة ، طول The Nation, The Atlantic, The North American Review • ولقد يسرت له حياته ككاتب – مثله فى ذلك كمثل أخيه هنرى – حقيقـــة كونه كان يعيش بين المحررين ، وكان رجال من أمثال الوويل ، وفيلدز ، ونورتون ، وجودكين ، وهاولز ، فى عداد أصدقائه . ولكن هنا ينتهى التطابق . فبالنسبة لهنرى كان رجال الأدب فى نيوانجلند فى عداد الأســـاتذة ولويس آجاسيز ، وچيفريز وايمان ، (بعد ١٨٦٣) ، ووالكوت جيبز – والزملاء ، وبالنسبة لوليام كانوا فى عداد الأصدقاء ومصادر تســـلية وكلهم أيضا رجال ذوو شهرة وعظمة ، شاركت بوســـطون وكامبردج بوساطتهم فى تفكير العالم – ان لم يكن فى حياته ، وخرجتا من قوقعـة المحلية وانتعشتا بأنسام جاءت من الخارج حركت خمولهما الاقليمى .

وكان أجاسيز فارس الحلبة فى هذا المجال ، فاليه – بصفة خاصة – يعزى ارخاء قبضة التقاليد المحلية ، بما كان يتوافر فيـــه من نفوذ شخصى لا يقاوم ، وحماسة تستل من الناس شكوكهم وتفحمهم وتجردهم من سلاحهم ، وأوروبية بلا خجل • على أن هارفارد بلغت ذروة العصرية والتقدمية فى العلم ، وخصوصا فى ميدان العلم البيولوجى ، فذلك كان مجال تبريزها ونبوتها ، ولقد كان هذا التأثير التحررى بالذات من بين كل القوى الفعالة فى زمانه ومكانه ، هو الذى أثر فى وليام چيمس أعمق تأثير وأبعده غورا ، ابان سنوات دراساته الجامعية (٥) .

ويرجع اهتمام چيمس بالعلوم الطبيعية ، مثلما كان اهتمامه بالرسم والنقش ، الى باكورة صباه ، عندما أظهر استعدادا وكفاءة للملاحظـة ولاستعمال الأدوات ، على السواء • ولقد أبدى من حب الاستطلاع قدراً كافيا يكمل دراساته الضحلة فى جنيف بالقراءة وزيارة المتاحف •

ويشهد أخوه بتلك النزعة المبكرة فيه فيقول :

---

(٥) Similarly, Henry Adams, who graduated from Harvard in 1858, reports thet only Agassiz really stirred him. (Education of Henry Adams, 1918,60.)

« بمثل ما كان من المؤكد أنه كان على طول الخط «فنانا» فقد ظهر أيضا ما يؤيد أنه كان فى نفس الوقت — وعلى خلاف المتوقع — بحاثا أيضا ، مدمن تجارب ، ومدمن استهلاك كيماويات ونقل سوائل مبهمـــة من قارورة لقارورة ، بعد تعريضها للهب الخافق الهفاف، وعاكفا على تهذيب أصـــابعه المبقعة بآثار الأحمـــاض ، وعلى اقامة ونقل ، بطـــاريات كهربية ناتجة عن تفاعل كيميائى ، وتجربة للصـــدمات الكهربية فى كل من يستطيع اقناعه ، وعلى الاحتفاظ بحيوانات مائيـــة وصيانتها فى أحواض مطرطشة للأحيـــاء المائية ، وممارسة التصوير فى الغرفة التى شاركته فيها فى بولون فترة من الزمن بآلة تصوير ثقيلة مربكة تتطلب وقتا طويلا فى كشف الصور واظهارها !! وكنت أنا ضحية هذا « التعريض » وما يصاحبه من ظلام دامس يقتضيه اظهار الصور وتحميض « أفلامهـا » ثم لا يسفر ذلك الا عن بقعة سمراء داكنة لا أول لها ولا آخر • ثم كانت هناك أيضا هوايته الدائمة المنغمسة فى العقاقير العجيبة ، والتى كانت — كما أحسست بها خائفا أترقب — هواية تأملية جريئة نزيهة • ليس ثمـــة ذكرى أكثر حيوية فى خلدى ، أحتفظ بها عن سنواتنا المبكرة معا ، من هذا الادمان أو التأصل ، الذى كان يبدو مريعـــا أمام طبيعة مجردة من حب الاطلاع مثل طبيعتى — اقصد حب الاستطلاع فى ذلك الاتجاه • ولن انسى ما حييت شغفه بالعجيب والغريب والنادر ، أو بالآثار التى تفوق الحصر على الأشياء • ما كان عنده أية نتيجة ممكنـــة الحدوث — مهما كانت — الا وفى وسعه أن يلتذ بها على نحو ما ، فيما عدا علاقتها بأشياء أخرى غير مجرد المعرفة(٦) •

على أن دراسات چيمس العلمية المبكرة كشفت عن خصيصة أساسية فى عقله • كان شديد الاهتمام والشغف ، ولكنه كان نافذ الصـــبر • وكانت هذه الصفة فيه هى التى تنفره نفورا شديدا من التطبيق الطويل لنفس العمل • ولقد كانت هذه الصفة — كما رأينا — صفة مزاجية • وزاد تأثيرها عليه من جراء النوبات المتعاقبة من المرض ، التى أرهقته من أمره عسرا ، والتى غالبا ما كانت تجعل المجهود الموصول أمرا مستحيلا . ولكنها أساسا كانت خلة من خلاله ولم تكن عرضا لمرض • وكان هو نفسه يميل الى اعتبارها ضربا من الضعف والعجز ، وكلما أخذ على عاتقه انجاز عمل ضخم ، كما حدث فى حالة كتابه « مبادىء علم النفس » ، فانه كان يكافح ويجاهد ويخرج من المعركة ظافرا • ولكنها اذا كانت ضعفا فقد كان الثمن الذى يتعين عليه دفعه لقاء ما فيه من قوة ذات صـــفة مميزة بطريقة غريبة • ان قوة عقله كانت تربض بصفة رئيسية فى مرونتهـــا الفائقة وقدرتها الحركية وفى سرعتها المندفعة كالسهم وفى دافعيتهـــا المحركة الاستكشافية • لم يكن عقلا يؤثر بالعافية ويظل ساكنا مستقرا

---

(٦) N.S.B., 122-3.

فى مكانه يسحب الأشياء اليه كمركز ، ولكنه كان عقلا جوابا للآفاق تارة هنا وتارة هناك ، يرى الأمور بنفسه ويعوض بما يجمعه من مختلف مغامراته المتنوعة ما يفتقر اليه بالاستقرار والاتزان والركود ٠

كان معلم چيمس لمادة الكيمياء فى مدرسة لورانس للعلوم هو تشارلز وليام اليوت ، وكان رجلا نافذ البصيرة فى الناس ، صادق حاد الملاحظة، يزن كلامه ولا يلقيه على عواهنه ٠ وهذا هو ما قاله – فيما بعد – عن تلميذه الشهير :

« كان چيمس طالبا لطيفا سارا ، ولكنه لم يكن مكرسا نفسه كليا للكيمياء ٠٠٠٠ وكانت سياحاته فى العلوم الأخرى وغيرها من ميادين التفكير كثيرة ، وكان عقله جوابا ، وكان مغرما بالتجريب وخصوصا اجراء التجارب الجديدة غير العادية ٠ وفى سنة ١٨٦٣ – ٤ تحول من قسم الكيمياء الى قسم التشريح المقارن والفسيولوجيا ، فى مدرسة لورانس للعلوم ، وصار لمدة عام واحد تلميذا للبروفسور چيفريز وايمان ٠ ولقد ظهر ميله الواضح لمادة الفسيولوجيا بكل جلاء فى أثناء العامين اللذين قضاهما فى قسم الكيمياء ، بحيث اننى كلفته فى العام الثانى لدراسته للكيمياء أن يبحث عن الآثار التى تحدث للكلى من جراء أكل الخبز المصنوع بخميرة ليبيج – هورسفورد ، والتى كان تركيبها الرئيسى يتألف من الفوسفات الحمضى ٠ ولكن چيمس لم يسغ الخبز ، ووجد أن البت الصحيح فى نتيجة آثاره ثلاث مرات فى اليوم أمر متعب ولا يبشر بخير ، بحيث انه بعد ثلاثة أسابيع التمس منى تحويل هذا البحث الى شخص آخر ٠٠٠٠ أما النقطتان الهامتان المثيرتان عن تربيته فهما : **أولا** : عدم انتظامها فى نسق مطرد ، فهى تربية لم تتطابق مع توجيه الطريقة التقليدية لبوسطن وكامبردج ٠ **وثانيا** : كانت تربية تقوم الملاحظة فى قسط كبير منها ، وبصفة خاصة فى العلوم البيولوجية ٠ على أن الجزء النظامى من تعليمه لم ينبىء عن تكريسه اللاحق للدراسات الفلسفية ، ولكن سياحاته المرتجلة غير النظامية ، كانت ارهاصات أنبأت بذلك »(٧) ٠

والنقطة الرئيسية هنا هى ميل چيمس الى «السياحات غير النظامية»، حيث تضاعف حركة عقله على نحو عجيب صورة طبق الأصل من حركات جسمه ، وتعطيه عالمية من التفكير والخبرة فى المعنى العالمى الصحيح الأصيل ، وليس فى معناها العادى والأكثر تحديدا وحصرا ٠

ولقد كان اليوت ثاقب الفكر عندما فطن فى هذا الميل الى أمل مرجو فى نزعة فلسفته ، وليس مجرد نقيض للعلم ٠ بيد أن وايمان وأجاسيز،

---

(٧) These statements are quoted from a memorandum which President Eliot prepared for Mr. Henry James, and from which the latter quotes in L.W.J., I 31-2.

لا البوت ، هما المعلمان اللذان شدا أزره فى أثناء تلك السنين . كان جيفريز وايمان أستاذ مادة التشريح فى مدرسة الطب بهارفارد . وكعالم، كان يمثل الحنبلية الشديدة التدقيق دون ضيق أفق أو حذلقة . وكانت دائرة اهتماماته وبحثه واسعة . كان عالما طبيعيا ميدانيا ، مثلما كان عالما تجريبيا فى المختبرات . ولقد وجه نفسه وبحوثه بكل حماسة وشغف الى الموضوعات الخلافية المعاصرة ، التى كانت مدار بحث العلماء والناس، مثل التطور « والتولد التلقائى » . ولكنه كان يتميز عن زميله أجاسيز بسعة أفق أكبر ، ورحابة صدر أوسع ، وصبر وأناة ، فى تعليق الحكم وارجاء البت فى الأمر حتى يأتى الوقت الذى تصبح فيه البينة قاطعة . وعندما قال الدكتور هولمز « اننا نأخذ بكلامه ولو عن معجزة » فقد كان ذلك يشهد على ذيوع صيته كعالم شديد التدقيق والارتياب والحذر فى أحكامه وبيناته ، مثلما كان يشهد بخلقه وشخصيته (٨) . أما بالنسبة لوليام جيمس ــ الذى انجذب نحوه على الفور ، ووقع تأثيره مباشرة ، وعلى نحو موصول تقريبا ، زهاء خمس سنوات ــ فقد كان بمثابة نموذج علمى للكمال . «ان أسلوبه الذى لا تشوبه شائبة من التسلط أو التحكم»، واخلاصه الكامل وتكريسه المتواضع للحق الموضوعى ، « ونزاهتــــه » و « دقته وكماله » لم تحسم فقط ما ينبغى أن يكون عليه العالم ، ولكنها أيضا أسهمت بقسط كبير فى تــكوين ذلك الضمير العلمى الذى باشر نوعا من الرقابة الدائمة على اسراف جيمس فى نظرياته التأملية (٩) .

على أن لويس أجاسيز كان شخصية مرموقة بارزة فى بوســـطن وكامبردج أبان العقد المستهل بعام سنة ١٨٦٠ ــ بشكل باد للعيان ، بحيث ان جيمس لم يكن له مناص من أن يحس بقوته ويحفل بأمره . وان ذلك الاحساس لم يظهر بصورة جلية حتى انضم اليه فى رحلته الى البرازيل عام ١٨٦٥ ، أما قبل ذلك فلم تكن له به أية صلة وثيقة تتعدى صلة السامع أو المعرفة العابرة .

وكان أجاسيز فى ذلك الوقت ــ وقد بلغ من العمر ثلاثة وخمسين عاما ، وأصبح أستاذا للجيولوجيا فى مدرسة لورانس للعلوم ــ فى قمة

(٨) E.W. Emerson, Early Years of the Saturday Club, 427.

(٩) "Professor Jeffries Wyman," Harvard Advocate, XVIII (October 1, 1874), 8-9; L.W.J., I, 50.

شهرته وقوته ونفوذه · وفى معرض المقارنة ، بين وايمان وأجاسيز ، سجل وليام چيمس أن الأخير « كان أوسع نفوذا » . وعندما ذكر أن وايمان كان فى وسعه أن يكون أكبر شهرة وأوسع نفوذا ، اذا قدر له أن يتزود بقليل من الأثرة والطموح ، كانت فى ذهنه — بلاشك — شخصية اجاسيز · كان وايمان قديسا ، وكان أجاسيز جبارا عتيا ماردا ، يفيض حماسة واندفاعا قويا عنيدا ، وكان خلابا لدرجة لا تقاوم · ولبراعته وتفوقه فى مادته ، فقد مارس نوعا من الاستعلاء الطبيعى على الآخرين ، ومن نفوذ الكلمة . وفى هذا الصدد كتب وليام چيمس يقول : « منذ صباه — نظر الى العالم كما لو كان العالم وهو قد نشآ على سواء ، أحدهما للآخر ، وكما لو كان العالم خلق من أجله ، وخلق هو من أجل العالم ! ونظر الى مختلف أنواع الكائنات الحية فى تعودها الشاسع كما لو كان هو قد خلق ليكون صاحب الكلمة العليا والسلطة التى تخول له حيازتها العقلية — كلها . وكان لديه — مثل وايمان — اهتمام بالنيولوجى يبلغ فى شموله سعة النيولوجى كلها · والى جانب ذلك ، كان يترك فى الناس انطباع العظمة الشخصية ، الأمر الذى كان يضفى عليه بروزا وامتيازا بين أى جماعة من الناس وجعل من الطبيعى أنه حتى نادى السبت الذى كان يتألف كله تقريبا من مشاهير الرجال — كان يعرف لدى بعضهم كنادى أجاسيز » . ثم يمضى وليام چيمس فيقول : « كان معروفا لدى الجميع كصفحة برقم متسلسل من كتّاب الانسانية ··· الذين لايقنعون بأقل من التعارف على كل أحياء الطبيعة بلا استثناء » (١٠) .

على أن عبقريته لم تكن رابضة فى التفكير المجرد — الذى كان يحتقره، وانما كان قوامها الجمع الشامل للحقائق وتبويبها وتنظيمها ·

وعندما بدأ چيمس يعلم ، فانه استقى بغزارة مما كان قد تعلمه من وايمان · وكانت المشكلة الفلسفية الأولى التى كرس لها نفسه على نحو منظم هى مشكلة التطور · وهنا أيضا كان وايمان هو نفس المعلم الذى أخذ بيده وهداه الطريق · ولقد كان هذا بالاضافة الى المثل الأعلى للطهر العلمى ، هو الدين الذى يحمله فى عنقه لوايمان صاحب الفضل عليه · والى أجاسيز كان يدين بفضل الاستحثاث القوى لشغفه العلمى · فلقد شعر ، مثله فى ذلك مثل كل من وقعوا تحت سحر تنويمه المغناطيسى ،

(١٠) M.S., 4,6.

بأن « التاريخ الطبيعى لابد أن يكون – حقا وفعلا – سعيا ربانيا اذا كان رجل من هذا الطراز يهيم به على هذا النحو » . وفوق كل شيء ، فقد تعلم من أجاسيز أن يعتقد بأن المعرفة المجردة هى فى المحل الثانى بعد المعرفة المباشرة .

ومن ثم فقد قرر فى سنة ١٨٩٦ :

« ليس فى وسعنا جميعا أن نفلت من ان نكون تجريديين . فانا نفسى – على سبيل المثال – لم استطيع ابدا ان افلت ، ولكن الساعات التى قضيتها مع اجاسيز علمتنى الفرق بين كل التجريديين المكنين وبين كل العائشين فى ضوء الامتلاء المحسوس للعالم – لدرجة اننى لم استطع ابدا ان انسى ذلك الفرق » (١١) .

والرسائل المتعلقة بهذه السنة الدراسية الأولى جررت من كامبردج الى أسرته الذين كانوا جميعا يعيشون فى نيوبورت ، فيما عـــدا ويلكى وبوت اللذين عهد بهما الى « المستر سانبورن الشهير » (١٢) فى كونكورد واللذين كانا يزوران كامبردج منها من حين لآخر .

(٧ – ٨ سبتمبر سنة ١٨٦١)

الأستاذ اليوت شخص لطيف فيما أحسب ، وهو رجل اذا صمم على أمر ما مضى الى غايته . اننى اجد التحليل مشوقا جدا – حتى الآن .

(١٦ سبتمبر سنة ١٨٦١)

هذا التحليل الكيميوى مثير للذعر جدا فى بداية الأمر لدرجة اننى – بصفة كليـــة « مرتبك ومهوش ومغلوب على أمرى » (١٣) ، وعلى أن استخدم معظم وقتى فى القراءة . اجاسيز يعطى الآن مقررا من المحاضرات فى بوسطن ، وأنا احضر هـــذه المحاضرات . ولاريب انه محبوب لدى جمهور مستمعيه ، وهو نفسه يشعر بذلك . لكنه محاضر رائع بارع متحمس ، واضح جدا كضوء النهار ، ولهجته جذابة خلابة . اننى اتوق لأن ادرس

---

(١١) Ibid., 10, 14.

(١٢) Cf. above, 20.

(١٣) From Sir James Stephen's account of the Lincolnshire boor whose dying Words were: "What with faith, and what with the earth a-turning round the sun, and what with the railroads a-fuzzing and a-whuzzing, I'm clean stonied, muddled, and beat," Essays by a Barrister, 1862, 233, Stephen was a favorite author, frequently quoted by W.J.

ـل يديه • أما محاضرات البروفسور وايمان فى التشريح المقارن للفقريات ، فهى تبشر بكل خير ، وان كانت مملة بعض الملال ، ولكنها واضحة ومكتملة ومدعمة ومرتبة ترتيبا جيدا (دسمة) • أما اليوت فلم اره كثيرا ، ولست أعتقد أنه عالم كيميائى ضليع جدا ، وان كنت لا أستطيع الجزم بعد ! •• كان فى فصل العام الماضى ابن للبروفسور بيرس، احسب انه شاب ذكى حاذق على خلق عظيم ، يتميز باستقلال شخصيته على الرغم من انفه (١٤) • ان عددنا لا يزيد على اثنى عشر فى المعمل ، ولذلك نتمتع بوقت طيب لطيف ، أتوقع أن تكون حياتى فى الشتاء « حياة مزدحمة » (١٥) •

(نوفمبر ١٨٦١)

كما ان ويلكى وضع بين يديك موجزا لمستقبل حياته فى السنوات القليلة القادمة ، فكذلك سأفعل ، وفى مرجوى أن ينـــال استصوابك • من ثم : سنة واحدة فى دراسة الكيمياء ، ثم أقضى فصلا دراسيا فى البيت، ثم سنة مع وايمان ، ثم دراسة للطب ، ثم خمس سنوات أوستا مع أجاسيز – ثم يحين على الأرجح موت ، يقفوه موت ، يقفوه موت بعلة تضخم وكظة بالمعرفة (١٦) •

(٢٥ ديسمبر ١٨٦١)

ان هذا المكان يحلو فى عينى كلمـــا استمررت فى العيش هنا ، واذا درست مع اجاسيز اربع سنوات أو خمسا ، فانى أرغب فى أن تكونوا معى جميعا هنـــا فى غاية الاستقرار والراحة • لقد تحدثت حديثا طويلا مع أحد طلابه منذ أيام ، واتضح لى لأول مرة كى يحس العالم الطبيعى حيال حرفته بنفس الطريقة التى يحس بها الفنان حيال حرفته ، فمثلا – أجاسيز يفضل أن يأخذ أناسا غفلا تماما من كل تعليم « اذ يتعين عليه أن يجهلهم بكل ما تعلموا » !! انـــه لا يسمح لهم بالنظر فى كتاب لمدة طويلة ، وما يتعلمونه يتعين عليهم أن يتعلموه لأنفسهم بأنفسهم ، وأن يتقنوه كله ويكونوا أساتذة بارعين فيه كله • والنتيجة هى أنه يجعل منهم علماء طبيعيين ، ولا يقتصر على مجرد حشوهم بالمعلومات • وهذا الطالب (الذى درس عليه عامين) قال انه يشعر بأنه مستعد للذهاب الى أى مكان فى العالم الآن ، ولا شىء معه سوى دفتر مذكراته لكى يدرس أى شىء بمفرده • أجاسيز لابد أن يكون معلما عظيما! اننى أمضى فى الكيمياء بأشواط لا بأس بها ، ولكنها ليست بالسرعة التى توقعتها • اننى بطىء فى استخلاص النتائج من المواد التى بين يدى ، لأننى لم أنجز للآن سوى اثنتى عشرة فقط • وأمامى قبل نهاية الفصل الدراسى أن احتفل بعيد الشكر ، وأن أستخلص نتائج ثمان وثلاثين تجربة أخرى » (١٧) •

(أول من مارس سنة ١٨٦٢) •

ولقد كان موت مدير الجامعة ، الرئيس فلتون ، هو حدث الأسبوع العظيم • جنازتان

This is the first mention of his life-long friend, Charles S. Peirce. Cf. below, 129ff., Ch. XXXI. (١٤)

L.W.J., I, 34-5. (١٥)

Ibid., I, 42. (١٦)

Selections from this letter appear also in N.S.B., 131-4. (١٧)

وعدد من الصلوات والقـــداسات والمواعظ الدينية التى لايحصـــيها عد • واليوم فكرت فى الذهاب الى الكنيســـة ــ من باب التغيير ــ واستمع الى كلمة الدكتور بيبودى (١٨) الختامية فى تأبين فلتون • ولقد كانت مرثية طويلة محزنة كئيبة • وكان الدعاء أنينا مطولا أعتبر فيه الموت (ليس فى نتائجه ولكن فى حد ذاته) خطبا جسيما وفاجعة دهماء وكان التأبين الذى تضمنته الموعظة مليئا بالحشو الذى يكاد يثير الضحك ! • والشىء الذى كان كريها ومنفرا الى أبعد حد طوال العملية كلها، هو نغمة النواح والولولة والعويل ، التى لاتشبه ألبتة الحزن الوثنى البسيط على فقدان الفقيد ، (ولو حدث ذلك لكان حزنا شريفا) وانما كان نوعا من العواء والعويل والوعوعة المصطنعة عمدا ، كما لو كان ذلك واجبـــا يتعين أداؤه ! ثم انها كانت وعوعة تعوى على شىء غير محدد ، وانما مجرد تغليف باطل لكل كلامه بالدموع المسفوحة •

لقد كان أسلوب العملية كلها أسلوبا مزيفا ومنفرا ، لدرجة أننى قررت الا أقرب جنازة أو أحضر قداسا حتى يتحسن أسلوبها ويرتقى •••• اننى الآن أدرس الكيميـــاء العضوية • ولعل الوالدة العزيزة تصاب بصدمة اذا علمت أننى بالأمس أتلفت منديلا! ولكنه كان منديلا قديما ، ولقد حولته الى كمية من السكر ، وان كان داكن اللون الا أنه حلو المذاق • أعتقد أننى نسيت أن أذكر لك أننى مجرد من أى حلية عندى ، تلك الماســة الجلحاظة السوليتير (حلية من جوهرة واحدة) التى كانت تضفى على مظهرى رونقا رجوليــا وحربيا ــ ضاعت ومكانها شاغر • أرجوك الا تدع والدى يتهيج • وأحسب أن أحدا لن يلاحظ الفرق بين وجودها أو ضياعها ، ثم انها لم تفقد الى الأبد ، وانما هى راقدة فى مكان ما ، وستبعث ذات يوم كالفوينكس من رماد جدثها ، أبهى جمالا ورونقا بعشرات المرات » •

وفى عامه الثانى فى هارفارد واصل وليام دراساته فى الكيمياء مع اليوت ، ولكنه لم يكمل العام الدراسى • والرسالة التالية موجهـــة الى أخته آليس ، وهى مكتوبة بأسلوبه المزاحى الهازل الحبى • وكان أبوه قد جاء لاتخاذ التدابير اللازمة لطبع كتابه « الجوهر والظل » Substance and Shadow الذى نشر فى سنة ١٨٦٣ •

كامبردج ١٩ أكتوبر سنة ١٨٦٢

طفلتى العزيزة ،

على الرغم من أن صحتى ليست على مايرام الا أن الحب الذى أكنه لك ولكل الأهل الأعزاء يحملنى حملا على أن أكتب بضـــع كلمات هذا المساء ، لكى أوقد جذوة علاقاتنا الودودة ، ولكى أشكرك على رسالاتك الجميلة التى على الرغم من تحريرها بأسلوب غير

---

(١٨) President C.C. Felton died February 25, 1862. He had been President of Harvard College only two years.

(*) طائر خرافى ، رمز الخلود • (المترجم) •

مصقول وخشن ـ الا أنها بسبب ذلك أكثر بهجة وظرفا ٠ لقد طالت اقامة أبى هنا لدرجة انكم فى البيت لابد ان تكونوا قد بدأتم فى التفكير فى اللحاق به ٠ أعتقد الآن أنـــه سيمكث هنا حتى يرحل ويلكى ، فاذا صدق حدسى فان ويلكى راحل فعلا يوم الثلاثاء ٠ أعتقد أن التنقل والطواف والهرج والمرج أفادته جدا ٠ لقد ذهبت معه الى صـــاحب المطبعة ، وأعتقد (وهذا سر بيننـــا نحن الثلاثة) ان كتابا من أجمل الكتب فى الأزمنة الحديثة سيخرج الى حيز الوجود ٠ انه كتاب بسيط ، بلا زخرف ، ولكنه فى غاية الأناقة والجمال ٠٠٠٠

منذ يوم الأحد الماضى وأنا أعانى من دمل فى مرفقى ٠ ولقد نصحنى اليوت بصـــوت كله يقين مطلق أن أستمر على طلائه باليود ، وحيث أنه نادرا ما يقـــدم ملاحظة ، فان الملاحظات التى يسمح بخروجها من فيه لهـا وزن مضاعف ٠ اذن كيف يتسنى لى أن أخالف نصيحته ٠ والنتيجة أن الدمل ظل على «وضعه الراهن» حتى حدث منذ ثلاثة أيام أن بدأ ذراعى يتورم تورما عظيما ٠ ان اليود يبدو أنه يمنع تكوين فوهة للالتهاب ، ولكن ماذا نفعله سوى ذلك ، فالله واليوت وحدهما هما العليمان ٠ ان وضع اليود على الدمل مؤلم جدا ، ويبدو أنه يعطل برأه ، ونظرا لكونى أبطلت استعماله فانى أصب عليه الآن اللعنات الصارخة ٠ اننى سقيم ومحموم هذه الليلة ، وهاأنذا جالس تحت مصباحى ، ملفوف فى معطفى ، أسطر للوحيدة التى أحبهـــا à la seule que j'aime ، ولا أشتهى اى شىء فى الدنيا مثل اشتهائى لســاعة أو ســاعتين من حديثها الذلق الفارغ ، الذى مع ذلك يشيع فى النفس السكينة والتلطيف والسرور ٠ ان عينيها الشفافتين ، وخطوتهـا الرشيقة ، ويديها الرخصتين البضـــتين ، وصوتها الحانى ، ومزاجها الناعم ـ لم تكن فى يوم من الأيام أشهى عندى وأحب الى مما هى الآن ٠ أى دفء مبارك ، وأى نور مقدس يحيط كالهالة بامنا الحبيبة ! ٠ ان عقلى الآن يرى هذا الدفء وذلك النور رأى العين ٠ انها دائما مستعدة لتخفيف آلامنا فى المرض ، وهدايتنا سواء السبيل فى الصحة ٠ والعمة العزيزة العتيقة كيت أيضا ، التى لم يسبق أن أحسست بانكارها لذاتهـا وايثارها لغيرها مثلما أحس الآن ! ان صفاتها تبدو الآن فى نظرى ملائكية ، بل انى لأعترف بالجميـــل لجلبتهـــا وضوضائهـــا وهى تطوف حول جسمى السقيم بكل هدوء وارتياح ٠ انها تبدو الآن أمامى غندورة شائقة رائقة ٠ وان انس لاأنس العفريت الأنيس بوب ، ذلك الطيف الذى يحمل نسيم الحياة الصحى الناشط الذى يسرى دائما فى أوصاله ٠ انهم جميعا ، كلهم واحدا واحدا ، يتدفقون على كبحر رطيب نشوان ، ترقد فى أعماقه روحى سابحة فى وهن ٠ ثمة أريكة شاغرة فى غرفـــة بيتى لايحتلها أحد ٠٠٠ انها أريكتى ٠ لقد دخل على هارى الآن لتوه ـ ياله من طفل عذب ! انه يبعث باشواقه وحبه لكم جميعا ٠ سارسل اليك كتاب بوردون فى الحساب وأى شىء آخر تطلبينه ٠ تصبحين على خير ـ آلاف القبل للجميع ـ الحبيب الوحيد ٠

و م ٠ جيمس ٠

على أن تصور جيمس فى أثناء تلك السنوات غارقا فى دراسة الكيمياء والتشريح المقارن أو الطب ، يكون صورة ناقصـــة وقاصرة عن تطوره

الفكرى وتحوله · كان دائم الرعى والاجترار وانعام النظر - يجول ويعار حيث يطيب المرعى والمرج ·

ومن حسن الحظ أن تبقى مفكرتان بخط يد وليـــام چيمس ، قيد فيهما مذكرات عامه الدراسى ١٨٦٢ - ١٨٦٣ حيث تظهر فيهما الى جانب فقرات مقتبسة من محاضرات أجاسيز عن « آلجيولوجيا وتركيب وتصنيف المملكة الحيوانية » ، ومن محاضرات جوزيف لوفرنج عن « علم الـكهربا الاستاتيكية وعلم القوة الكهربية وعلم الصوت » - وفى المفكرتين أيضا رسوم بالقلم الرصاص ، وحقائق تاريخية وأدبية مؤرخة بحسب ترتيب حدوثها ، وأقوال لتشارلز بيرس ، وموجز للثورة الفرنسية ، وملخص بالألمانيـــة لكتـــاب Kraft und Stoff تأليف بوكِنـــار Büchner ، وصفوة كتاب أصول اللغة لمؤلفه فارار ، وكتاب الخطيئة الأولى لجوناثان ادوارد . والمداخل المدونة فى هذه الكتب وفى الفهرس المبوب الذى بدأه فى سنة ١٨٦٤ تمتد لتشمل ميادين الأدب والتاريخ والعلم والفلسفة بأجمعها ، وهى تدخل على عقل نشـيط قوى العزم محرز بقـدر ما كان نهما وشاردا وعبارا فى كل واد يهيم ·

والمدخل التالى يمثل هذه الخصيصة أصدق تمثيل :

« ١٢ فبراير : قرأت مقالة باكل عن ميل ·· ان شغف باكل النبيل بالسعى فى طلب الحقيقة أمر ملهم · قرأت أيضـــا أو بالأحرى تصفحت سريعـــا مؤلف بالزاك Lys dans Le vallée. مدهشة لا أعرف أن مؤلفا سبق بلزاك فى تكريس نفسه واخلاصه لموضوع معين مثلما فعل بلزاك · سأقرأ كل مؤلفات بلزاك » ·

وعلى الرغم من چيمس سجل نفسه ثانيا فى شهر سبتمبر فى مدرسة لورانس للعلوم ، الا أن بؤرة اهتمامه انتقلت من الكيمياء الى البيولوجى· ولقد بدأ يشعر « بشعور البنوة » نحو وايمان ، ويضع نصب عينيه حياة علمية يكون فيها « التاريخ الطبيعى » هو موضوع تخصصه .

ولقد كانت الأعمال التجارية (ربما الطبـــاعة والنشر) ، والطب (ربما العلاج النفسى) ، هما البديلين الأكثر ربحا وادرارا للمال (١٩) .

(١٩) L.W.J., I, 50. James's cousin, Katharine Barber James, had married Dr. William Henry Prince,first supperintendent of the Northampton State Hospital, and this circumstance no doubt contributed to his interest (both psychological and medical) in the insane. Cf. L.W.J., I, 43-5.

والفقرة التالية من رسالة لأمه تلخص لنا على أفضل نحو حالته العقلية بالنسبة للمسألة الملحة الدائمة الخاصة باختيار مهنة :

مساء الاثنين (٢ نوفمبر سنة ١٨٦٣)

اننى أشعر بأهمية التعجيل بالاختيار النهائى لعملى فى الحياة • اننى اقف فى مكان تتشعب فيه الطرق أمامى كالمذراة : شعبة تفضى الى الرفاهة المادية ، لحامة وبدانة وامتلاء جسم ، ولكنها نوع من بيع المرء لروحه • والشعبة الثانية تفضى الى الكرامة العقلية والاستقلال ، مصحوبة على الأرجح بالعوز المادى والفاقة • ولو كان الأمر يعنينى وحدى لما ترددت لحظة واحدة فى اختيارى • ولكن يبدو أنه سيكون أمرا عسيرا على حرم وليام چيمس — وليس من المستحيل أن توجد هذه المرأة — أن يطلب اليها أن تشاطرنى جيبا خالى الوفاض ومأوى بارد المصطلى • فعلى احد الجانبين يوجد العلم ، وفى الجانب الآخر توجد التجارة (ويبدو أن اعمال الطباعة — تلك المهنة الشريفة المعززة المكرمة المنتجة — تلوح لى أنها أكثر الأعمال التجارية جاذبية)، مع الطب الذى يشترك مقاسما فى مزايا الاثنين ، ويقف بينهما ، ولكنه لايخلو من عيوب ونقائص فى حد ذاته • أعترف أننى متردد • اننى أتصور أن هناك نوعا من الجبن الأموى المولع الذى يجعلك — أنت وكل أم أخرى — تؤمل بارتياح ورضا فى الدسم الدنيوى لابنها ، حتى اذا كان الحصول عليه بتضحية « طبيعته العليا » ، ولكننى اخشى أن يكون هناك ثمة كرب وغم فى النظر الى الخلف من برج اليسر والرخاء (وهو أمر يدرك حتما ، ان لم يكن يأكل الطين ، فعلى الأقل ينبذ طعام الآلهة) على الحياة التى ربما كنت تعيشينها فى السعى الخالص فى طلب الحقيقة • ان الأمر يبدو لى كما لو كان المرء ليس فى وسعه أن يكف عن ذلك لقاء اى اغراء أو أية رشوة مهما بلغت • ومع ذلك فمازلت فى حيرة من أمرى ، لم أبت فيه بعد • ان الفصل الدراسى فى مدرسة الطب يبدأ غدا ، وبين هذا وبين نهاية الفصل الدراسى هنا ستكون عندى الفرصة للنظر فى أمر مهنة الطب بشىء من الامعان ، وسأتناول الرأى مع وايمان بشأن الآمال المرجوة لمستقبل عالم طبيعى ، ثم أحزم أمرى أخيرا وأبت فى مصيرى • وأحب أن تكونى عالمة بفكرة أننى قد أثابر على العلم ، وأستقر على اختياره، وأستنزف من أموالك لمدة أخرى من السنين • فاذا استطعت أن أعمل فى متحف أجاسيز — واعتقد أن ذلك ليس بعيد الاحتمال — فقد أتقاضى مرتبا يصل الى ٤٠٠ أو ٥٠٠ دولار فى بضع سنوات • انى أعرف نفرا أغبى منى وأكسل فعلوا ذلك • وفى هذه الحالة فما الذ وأمتع أن يكون للمرء بيت فى كامبردج • وعلى أية حال فانا على يقين بان مأوى ما فى تلك الجيرة بهذه الناحية هو المكان الملائم لاستقرارنا وراحتنا • لقد شغلت هذه الأمور تفكيرى فى المدة الأخيرة ، وأنا سعيد بأن أنتهز هذه الفرصة لكى اسكبها عليك (٢٠) •

وعلى الرغم من أن چيمس دخل الآن مدرسة الطب الا أن دراساته ظلت تحت اشراف وتوجيه جيفريز وايمان بصفة رئيسية • ومن الواضح

(٢٠) Reprinted from L.W.J., 1,45-6. It is now possible to fix the date of the letter.

أن ممارسة الطب لم ترق فى نظره · ولقد كتب الى ابنة خاله جانيت جورلاى فى الحادى عشر من فبراير سنة ١٨٦٤ رسالة جاء فيها :

« لقد اعتنقت مهنة الطب منذ بضعة شهور ، وانطباعاتى الأولى هى أنها مهنة بداخلها كثير من الدجل والخداع والغش ، وأنه باستثناء الجراحة التى أحيانا يتم انجاز علاج ايجابى فيها ، فان الطبيب يفعل بالأثر المعنوى لحضوره على المريض وأهله ، أكثر بكثير مما يفعل باى شىء آخر ، ثم انه يقتلع منهم المال أيضا » ! ·

وفى ربيع سنة ١٨٦٤ – بعد أن ساوره كثير من الشكوك واعترضه كثير من الصعاب انتهت بالتغلب عليها – استقرت أسرة چيمس آخر الأمر فى منزل فى بوسطون ، وانتقلت الى رحبة آشبورتون رقم ١٣ . وعلى الرغم من أن هذه الخطوة السعيدة لمت شمل الأسرة وجمعت چيمس بأسرته الا أنها أوقفت مراسلاته لمدة عام تقريبا .

٨

الدراسات الطبية والبدايات الفلسفية

واصل چيمس دراساته الطبية حتى نهاية مارس سنة ١٨٦٥ عندما انضم الى بعثة ثاير الى البرازيل . وكان ذلك بشيرا بفترة من الصلة الوثيقة مع البروفسور أجاسيز ، وتجربة يمتحن فيها صلاحيته للتخصص فى البيولوجى كمهنة حياة ، والذى كان اختيارا مازال قائما . وتكشف رسائله الى الأسرة عن اهتمامه بمؤلفات أبيه (طبيعة الشر) ، وعن اهتمامه بحياة أخيه هنرى ومهنته ، كما تكشف أيضا عن دخيلة نفسه فيما يتعلق بشغله الشاغل المحتضن للفلسفة :

من على ظهر السفينة ٢١ ــ ٢٥ أبريل سنة ١٨٦٥ .

« لا يمكنكم أن تتصوروا مبلغ شعورى بالفرح باننا غدا سنلقى مراسينا فى المياه الهادئة لريو وتنتهى اهوال هذه الرحلة . أواه من ذلك البحر الشرير ، البحر الملعون ! ليس لأحد أى حق فى أن يكتب عن « طبيعة الشر » أو يدلى بأى رأى عن الشر ، مالم يكن قد ركب البحر . ان حماة القنوط المفزعة التى تغوص فيها ــ تهيىء خبرة تبلغ درجة من العمق بحيث لابد ان تؤتى أكلها . ولست استطيع أن أقول ماذا جنيت عن أكل فى حالتى ، ولكننى واثق باننى سأصيب منهـا يوما ما مدخلا الى الحكمة » .

ريو ــ ٣ ــ ١٠ مايو سنة ١٨٦٥

عهد الى البروفسور بالأحياء البحرية للخليج (فيما عدا الأسماك) ابان وجودى هنا ، وهو عمل بهيج ، ولكنه سيحول بينى وبين معظم الرحلات التى سيقوم بها الرجال الآخرون مدة وجودهم هنا . ليس فى وسعكم ان تتصوروا شيئا يضاهى فيض الحياة فى اشكالها الوطيئة على سلم التطور تحت سطح الماء . سأواصل العمل بكل ما فى طاقتى من جهـد محاولا أن أكون نافعـا ما أمكن للبروفسور ... (انه) رجل مشوق وممتع جدا . وان كنت حتى الآن لم أفهمه فهما جيدا . ان ادعاءه وغروره لايقلان بأى حال فى حجمهما عن مقدار قيمته ، ويبدو أن تدجيله من ذلك النوع الطفل اللاشعورى بحيث لايمكنك أن تلومه عليه كما تلوم بقية الناس . انه يريد أن يحيط بكل شىء علما ! بيد أن جاذبيته الشخصية لها سحر عجيب . فضلا عن ذلك ، فلست أعرف اذا ما كانت بعثتنا ستنجز القدر المرجو منها . أما البروفسور نفسه فهو ربان ماهر من الطراز الأول ــ ما فى ذلك ادنى ريب ، وبارع فى التنظيم . ولكن من بين أحد عشر مساعدا له ، يوجد ثلاثة

من المتوهين عنها مطلقا .. فأما توم وارد ، ديكستر (١) وانا — فنحن الثلاثة من بين الخمسة الذين يعرفون شيئا ، لانعرف شيئا ! فواحد منا أحيل الى المعاش ، والثانى اصبح فى حالة من الضعف والوهن بحيث ان أقل مجهود يبذله يجعله متوعكا وكلا على الآخرين، أينما توجهه لا يأت بخير • ولا يتبقى بعد ذلك الا ثلاثة رجال باكملهم ! •• ولقد اخبرنى البروفسور بالامس أنه ينتوى أن يبعث باربعة منا الى بارا بطريق البر ، فاما احد الأربعة فعالم جيولوجى ، وأما الباقون فينبغى أن يتفقوا فيما بينهم على من يصحبه من الثلاثة الباقين . أعتقد أنه أصبح من المرجح الآن أن توم وارد وانا سنؤلف ثنائيا فى تلك البعثة •••

انكم لاتتصورون كم اتحرق شوقا لمعرفة انباء الحرب • وعندما أعود الى الوطن ففى نيتى أن أدرس الفلسفة طوال حياتى • لعل هذه الرسالة لاتنضح بنغمة حزينة • فاذا كانت فى ثناياها اية نغمة حزينة فمردها الى ما أعانى من سوء الهضم وارتباكه • لقد كتبت اليوم تحت الحاح الضرورة البحت ، فلم يسبق لى أن تطلعت الى أى أمر بسرور واشتياق أكثر من لهفتى على القيام بهذه الرحلة البرية » •

ولكن وليام جيمس لم يقدر له أن يقوم بهذه « الرحلة البرية » وانما بدلا منها أصيب بالجدرى (أو الحماق) • وبمجرد ابلاله من مرضه كتب باسهاب لأسرته قائلا ان « مجيئه كان خطأ » وأنه من البين « قدّ لحياة تأملية لا لحياة حركية ناشطة » :

« لقد عاملنى أجاسيز معاملة طيبة جدا، ووافق بترحاب وصفاء على عودتى الى الوطن على الرغم طبعا من أنه يفقد بذهابى زوجا من الأيدى • انه انسان معجز — يتميز على الرغم من كل ما فيه من نقائص وعيوب بجاذبية شخصية تفوق ماعند أى انسان أعرفه •

•••• لقد شاهدت بلادا فى غاية الغرابة والطرافة والظرف تستحق رحلة طويلة »(٢)•

وهذه الرسالة نفسها تضمنت أشارة منذرة بالسوء عن « حساسية » عينيه • وعلى الرغم من الاخصائيين الذين أكدوا له على الفور سلامة بصره وخلوه من أى عطب مزمن ، الا أنه قاسى من عينيه سنين طويلة ، وعلى فترات متقطعة طوال بقية حياته من جراء عجزه عن استعمال عينيه دون الاحساس بتعب شديد •

على أن صحته ومعنوياته تحسنت سراعا ، وطالت مدة اقامته فى البرازيل حتى مارس سنة ١٨٦٦ •

---

(١) Thomas W. Ward and Simon Newton Dexter, personal friends and fellow students at Harvard.

(٢) June 3, 1865. The remainder of this letter is published in L.W.J., I,60-4.

(ريو) ٢٣ يوليو سنة ١٨٦٥.

« سنبدأ رحلتنا الى بارا بعد غد حتما ، مما يقربنا الى الوطن بالف وخمسمائة ميل او اكثر . لقد شاهدت مزيدا من المناظر ، وزرت مزرعتين كبيرتين بعيدا عن الساحل فى قلب البلاد فى غاية الطرافة . اننى أتحرق شوقا الى محادثة ذات صبغة فكرية ، وليس فى وسعى ان اقرا . حبذا لوكان فى مقدورى ان أستمع الى مقالاتك عن جوته وآرنولد ، والى ما كتبه الوالد عن « الايمان والعلم » أو رسالته (٣) التى نشرت فى صحيفة الايفننج بوست عن ادمان جونسون للخمر .

ما اشد لهفتى على ان أستمع الى تشوتسى رايت يتفلسف ليلة واحدة ، أو أن ارى لافارج أو بيرى أو هولمز »(٤) .

فى نهر الكسنجو ، ٢٣ – ٢٥ اغسطس (١٨٦٥)

« آسف جدا اذا كنت قد خيبت أملكم بان جعلتكم تتوقعون رؤيتى سريعا جدا ، ولكن الآن وقد بدأت المتعة الحقيقية للرحلة وأنا اتذوق حلاوة هذه الغابات الممتدة الأطراف هنا ، فانى اجد من المستحيل على ان انزع نفسى نزعا وانسلخ عنها . وفى هذا الصباح اخبرت البروفسور اننى سامضى معهم فى هذه الرحلة على الأمازون حتى نهايتها مهما كانت الظروف . عيناى تتحسنان ، وبدأت اقدر على ان أبصر الأشياء دون ان اخشى وخزة مفاجئة كوجع الأسنان فى احدى عينى تلازمنى نصف الليل . لقد أيقظت نفسى من الوجود البقلى الذى يقبض الصدر ، والذى عشته طوال ثلاثة الشهور الماضية الأخيرة ، وبدأت

---

(٣) The (letter) here referred to, and which appeared in the New York Evening Post on May 18, 1865, is not the least remarkable of James's polemical· utterances. Replying to the charge that President Johnson was intoxicated at the time of the delivery of his Inaugural Address, he pays his respects to the pharisaism and snobbism of the London Times and Saturday Review, and then contends that Johnson's momentary use of stimulants was not only excusable because of his illness, but justified by the candor and humanity (as referring to his humble origin) of the utterance which resulted. (It is very doubtful to me), he said,"whether President Johnson would have given the frank utterance he did to the divine emotion which glowed in his soul, if he had been left to his ordinary carnal prudence.

"Faith and Science" appeared in the North Amer. Rev. for Oct. 1865. The same number contained critical notices of Arnold's Essays in Criticism and Carlyle's translation of Goethe's Wilhelm Meister, by H.J., Jr.

(٤) Thomas Sergeant Perry. For O.W·Homes, Jr., cf. below, Ch. X; for Wright, cf. 78, 127 ff.

اشعر كما لو كان قد تبقى فى فضل من الكائن الانسانى . مازال خلل الرماد وميض نار ، ويوشك أن يكون له ضرام . وعلاوة على ذلك فلدى الفرصة الآن لأتعلم قدرا كبيرا من علم الحيوان وعلم النبات حيث انه سيكون لنا وقت طويل من الفراغ . ثم اننى أتلقى تمرينا قيما من البروفسور الذى يطوح بى ذات اليمين وذات الشمال ، وينبهنى الى كثير من نقائصى وعيوبى ، وفى هذا الصباح قال : « اننى جاهل تماما » !! واحسب أنه أفادنى كثيرا حتى الآن ، وأنه لاريب سيفيدنى أكثر وأكثر قبل أن تنتهى مهمتى معه .

والمسز آجاسيز من احسن النساء اللاتى التقيت بهن . ان مزاجها الرائق لايتغير أبدا، وهى طلعة جدا وفى غاية الانتباه والاهتمام بكل ماتراه ، ثم انها تعمل بهمة لايتطرق اليها الملل ، انها كالملاك بيننا فى السفينة ... أما أجاسيز فيفيض سعادة وطربا لأى شىء ، واخشى أن يكون فى نية الآلهة أن تمحقه وتدمره تدميرا . ومنذ أن وصلنا الى بارا من أربعة عشر يوما وجد ستا واربعين فصيلة جديدة من السمك ، وعددا من الأسماك يفوق فى مجموعه المجموعة التى جمعها سبكس ومارتيوس(٥) طوال السنوات الأربع لاقامتهما فى هذه البقاع ، والسبب فى ذلك أن أجاسيز يحمل كل من معه على مساعدته . اذا أوفى هارى بعهده وأرسل لى رسالة الوالد المنشورة فى صحيفة ايفننج بوست عن ثمل جونسون ، فسيكون ذلك من دواعى امتنانى .

تيفيه (الأمازون) ٢١ – ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٥

بودى لو أستطيع أن أبعث هذه الرسالة اليكم بالبرق لكى أبطل فورا تأثير بعض رسائلى الماضية التى خطر ببالى لمدة بعد مرضى – أننى احسب أنها قد تجعلكم تظنون أننى متضجر ومتبرم . والحقيقة هى أن عدم قدرتى على الابصار جعلتنى أشعر بالغم وانقباض الصدر لمدة من الزمن . وليس فى وسعى الا أن أطرب لأننى لم أتصرف وفقا لدواعى شعورى ، وأنى تريثت فى الأمر لأن كل يوم مر على طوال الشهرين الأخيرين يجعلنى أشكر العناية الالهية على أننى ظللت هنا ، وأننى مضيت فى الرحلة الى آخرها بدلا من أن أعود أدراجى الى الوطن والأهل قبل الأوان . لقد ذكرت فى رسالتى الأخيرة شيئا عن احتمال رغبتى فى الذهاب الى الجنوب ثانيا مع البروفسور . ولست أظن أن هناك أى مزيد من الاحتمال فى ذلك سوى أننى أرغب فى جوب وسط أفريقيا . اذا كان هناك شىء أمقته فهو التجميع ، واعتقد أن عملية التجميع لا توافق عبقريتى مطلقا ، ولكن لهذا السبب نفسه ، فان هذا التدريب البسيط – الذى أتمرن عليه هنا – يفيدنى جدا . لقد بدأت أن أصبح عمليا جدا ، ومنظما ومرتبا بطريقة عملية . ان الفوضى الجميلة التى كانت سائدة فيما حولى ، والتى كانت تجعل الوالدة تزفر من أعماقها تنهيدة جميلة – عندما تدخل غرفتى – هذه الفوضى تعامل من الناس الذين أعيش معهم هنا كما لو كانت جريمة بشعة ! واننى أشعر بالحساسية الفائقة والخجل حيالها . اننى اتحرق شوقا لقراءة محاولات هارى الأدبية ، ولرؤية عدد أو أكثر من مجلة الأمة The Nation . طبعا لاداعى لأن ترسلوا عددا كبيرا من المجلات أو الصحف »(٦)

(٥) The reference is to Reise in Brazilien, 1817-1820, by J.B. Spix and K.F. Martius, 1823.

(٦) For other parts of this letter, cf. L.W.J., I, 67-70.

اوبيدوس ٩ ديسمبر سنة ١٨٦٥

« اننى أنتهز فرصة سويعات قليلة قبل رسو الباخرة لكى أكتب لكما سطرا فحسب، ربما يصلكم قبل أسبوعين من وصولى أنا . لقد عدت لتوى من رحلة بالقارب ابتغاء القصة الخالدة القديمة ــ السمك ــ وكان حظى فيها هزيلا بسبب ارتفاع مياه النهر قبل أوانهـا . وليس امامى سوى أسبوعين آخرين من العمل، ثم بعد ذلك « الســـــبت » (اليوم الدينى المخصص للراحة) . وأنا الآن فى انتظار هانويل(٧) لكى يرافقنا فى هذا الباخرة . لقد نجحت بشق النفس ، وبعد مجهود جبار ، فى الحصول على ثلاثة رجال وقارب جيد ، وفى غد سنبدأ نشق مياه نهر ترمبيتاس معا .... اننى أتحدث باللغـــة البرتغالية الآن ككتاب مفتوح ، وأنا على استعداد لأن أتحدث بها لساعات وساعات عن أى موضوع ... وطبعا يجد الأهالى شيئا من الصـــــعوبة فى فهمى ، ولكن هذه هى وجهة نظرهم هم ، وليست وجهة نظرى أنا ــ ان مهمتى هى أن **اتكلم وافهمهم** .

كم أتوق الى العودة ثانية الى الكتب والأسفار والدراسات الخ ... بعد هـــــذه الرحلة البدائية . انكم لا تتصورون كيف تبدو حياة البيت فى نظرى ، وأنا أرنو اليها من أعماق هذا الكون المدفون بحالته الراهنة فى الخضرة والنبات والأعشـــاب والضرورات والمتع الجسمية ... فحسب ... ان صورة الناس ، وقد احتشدوا جمـــــاعات على نحو ما يفعلون فى الوطن ، يقتلون أنفســـــهم بالتفكير فى أشياء لاتمت بسبب الى ظروفهم الخارجية المجردة ، ويرهقون أنفســـــهم فى البحث والدراسة حتى يسقطوا صرعى كاعجاز نخل خاوية ، ويجنون رعونة وحمقـــا فى الخـــلافات الدينيـــة والفلســـفة والحب يتنفسـون غازات خانقـــة كالســـعير الدائم ، ويزفرون انفعـــالات هائجة مائجـــة يقلبون الليل نهارا ــ هـــذه الصورة تبدو خيالية ولا تصدق ــ ومع ذلك فلم أبتعـــد عنها الا منذ ثمانية شهور فقط. ولعل ما هو أكثر جدارة بالتنويه واستحقاقا للعجب هو التنوع الفائق الحد للشخصيات الناتجة من كل ذلك ــ أما هنا فكل شىء على وتيرة واحدة فى الحياة والطبيعة ، بحيث من كثرة الرتابة والتماثل تتهدهد فى نوع من السبات العميق، ولكن الأمر العجيب هو أن حياتى القديمة وعالمى القديم هى التى بدأت بالفعل تبدو لى كالحلم . لاجناح على من القول بانى عندما أعود الى الوطن فستظل تنتابنى لفترة طويلة غمرة من الحنين للنزوع الى ذلك النعيم المستكن . وحتى الآن فغالبـــا ما يكفينى أن أنظر الى شجرة برتقـــــال ، أو منظر غروب الشمس البهيج ، لكى ترتعد فرائصى من فكرة أننى مفارقها الى غير رجعة ... ولكن لقــــد قضى الأمر وانتهى كل ذلك ، وانى لأرقص طربا عندما أفكر فى أننا بعد شهر واحد سنكون ميممين شطر الوطن . مرحبا بك أيتها الأمواج الزرقاء الداكنة . مرحبا بالثلوج والمواقد الحديدية ، والمحـــلات ، والمسرح ، والأصدقاء ، وكل شىء فى وطنى الحبيب .حتى الكنائس . قل لهارى اننى أتوق لرؤيته وسماعه وقراءته ، كما يتوق المصاب بدوار البحر الى الأرض . وأما أبى فلم أكن أعرف من قبل ماهو بالنسبة لى ... وانى لأشعر ان فى وسعى أن أظل أتحدث اليه ليلا نهارا لمدة أسبوع مستمر .

---

(٧) Walter Hunnewell was a senior in Harvard College.

حاشية : أرخي الليل سدوله ، ولاتوجـد ثمة بعوضة ، وانما يشيع فى الهواء رائحة زكية مفعمة بموسيقى الحشرات والضفادع وكلاب البحر • النجوم تدق الساعات معا • اننى أكتب تحت ضوء شمعة صفراء ، وانا لابس قميصا بنصف كم وسروالا من الكتان ، وجالس على أرض مبلطة بالقرميد وكل النوافذ والأبواب مفتوحة على مصاريعها • ما أشد الفرق والاختلاف بين ظروفكم واحوالكم ـ فى هذه اللحظة ! وايا ما كانت ظروفكم واحوالكم فى هذه اللحظه ، فاننى كثيرا ما اسلى نفسى بتخيلها ، ولكنى لا استطيع تحديدها بالضبط •

وداعا والى اللقاء •

وبعد عام من الغياب عاد چيمس الى بوسطون فى مارس سنة ١٨٦٦ ، واستأنف دراساته فى مدرسة هارفارد للطب • أما الأسرة ، بعد تردد كثير وجدل طويل ، فقد اختارت فى النهاية مسكن شارع كوينسى فى كامبردج ، وهنالك التقى الجمع والتأم الشمل ، فيما عدا الابنين الأصغرين : ويلكنسون ، وروبرتسون ، اللذين أخلى سبيلهما أخيراً من خدمة العسكرية وقد حفل سجلهما بأوسمة الشجاعة . وكان ويلكنسون قد أصيب بجرح فى فورت ڤاجنر ، وكلا الأخوين قاسى من آثار الارهاق الجسمانى والعصبى • ونظرا لكونهما عملا كضابطين فى فرق السود ، فقد شعرا باهتمام قوى بمستقبل ومصير هذا الجيش ، وحصل كل منهما على مزرعة فى فلوريدا استخدما فيهما عمالا من السود • وفى سنة ١٨٧٠ اضطرا ، تحت وطأة الأزمة الصناعية ، وتحت ضغط التعصب المحلى ، الى ترك هذا المشروع المثالى .

ولقد شعر وليام وهنرى نحو أخويهما الصغيرين باهتمام مشوب بالجزع والاعجاب فى آن (٨) .

وفى معرض الحديث عن هذه الفترة من حياته قال چيمس فيما بعد :

« فى أول الأمر درست الطب لكى أكون عالم فسيولوجيا ، ولكننى انجرفت الى تيار علم النفس والفلسفة ، كما لو كانت يد القدر تدفعنى ، ولم اتلق أبدا اى تعليم فلسفى ، وكانت المحاضرة الأولى التى قدر لى أن اسمعها فى علم النفس هى المحاضرة الأولى التى القيتها أنا فى علم النفس »(٩) •

---

(٨) For a fuller account of Wilkinson and Robertson James, cf. A.J. Journal 1-82.

(٩) Letter of August 16, 1902, published by A. Ménard, Analyse et critique des principes de la psychologie 1911, 5, note.

واتقدت شعلة شغف چيمس الفلسفى ببهاء واستمرار ، ولكن وقود الشعلة لم يمدها باطراد • فدراساته ــ بمعنى الملازمة المنظمة تحت اشراف وتوجيه أستاذ خبير ــ انصبت على العــــلوم البيولوجية • أما المحتوى الفلسفى ، فكان مدده يأتى من الجزء النظرى من دراساته العلمية ، ومن القراءة المشتقة للفلاسفة ، مبتدئا بأولئك الأقربين للعلم ، مثل ميــــل وسبنسر ، ومن صلاته مع أصدقائه الشخصيين ومعاصريه . والى هؤلاء المعاصرين يعزى امداده بتاثير مضاد فى ميدان الفلسفة يناهض تطنيب أبيه الدينى • وثمة أربعة من أولئك المعاصرين يبرزون من بين الباقين ، وهم : تشارلز س . بيرس ، تشونسى رايت ، وندل هولمز ، توماس و• وارد • فأما بيرس ورايت ، فكانا فيلسوفين محترفين ، فى حين أن الاثنين الآخرين كانا صديقين لچيمس ، وكانا يمران بطور من المراهقة الفلسفية • وكان الأربعة جميعا يجنحون الى المذهب الطبيعى أو المذهب الارتيابى (الالحاد) •

ومن ثم فقد وجد چيمسن نفسه ، فى علاقاته مع صديقيه المقربين ، الفارس المبارز المدافع عن التحررية الميتافيزيقية • بيد أن رفيقيه فى الحلبة كانا زميلى لعب عنيفين ، خطرين فى لعبة الفلســفة ، وشريكين مناجزين مناوشين ــ الأمر الذى **ساعده على تقوية نشاطه التأملى** •

والرسالة التالية لأخته تصف المرحلة التالية من دراساته الطبية :

كامبردج ــ ١٢ ديسمبر (١٨٦٦)

« ان الوقت الحاضر وقت مثير جدا ، وحافز للشبان الطموحين فى مدرسة الطب الذين يتوقون الى الالتحاق بالمستشفى • ان ملازمتهم للأطباء ، وملاحقتهم اياهم بالأسئلة النجيبة بعد المحاضرات ، وتطوعهم بأن يقوموا بخدمتهم وقضاء أغراضـــهم ، واراقتهم ماء وجوههم بكل حيلة ووسيلة ••• كل ذلك قد بلغ الذروة فى هذا الأسبوع ! • انهم يطرقون أبواب غرفهم بالمستشفى ، متوسلين اليهم فى ذلة وضراعة لكى يزكوا تعيينهم بالمستشفى! وهم يفعلون نفس الصنيع على أبواب الأوصياء العشرة ! وبناء عليه فانه يتعين على أن أقوم بست عشرة زيادة • ولست أخشى الفصل ، مع موهبتى فى المدح والاطراء والتزلف ! والتعيينات تذاع فى يناير » •

وسواء أكان چيمس قد وفق فى الحصول على وظيفة فى المستشفى أولم يوفق ، فقد كان من المستحيل عليه أن يفيد منها وينـــال بغيته • فلما حل الربيع التالى جلب معه مقاطعة جديدة اعترضت سبيل دراساته الطبية ، وفترة أخرى كرست لتقصى الحياة وامعان النظر فى ابدالهـــا

المناحة . ومن ثم أبحر الى أوروبا فى ابريل سنة ١٨٦٧ ، ولم يقدر له أن يعود حتى نوفمبر سنة ١٨٦٨ • واجتمعت أسباب عديدة — بعضها لبعض ظهير — حملته على اتخاذ قراره النهائى والبت فى مصيره • فأما السبب الأول ، فقد كان حالة مرضية قاسى منها منذ الخريف السابق(١٠) . كان عندئذ مقبلا على مرحلة من العجز الجزئى ، والألم الجسمانى ، والكآبة وانقباض النفس — استمرت زهاء خمس سنوات . ومن المستحيل فى حالة چيمس أن ينظر الى حالته الصحية على اعتبار أنها مجرد طارىء عرضى ، لأنها كانت نذيرا ، زوده بسبب قاطع ، يحول بينه وبين البحث التجريبى • ثم انها حددت كمية قراءته ، واليها يعزى بلا ريب — جزئيا — قدرته الفائقة على الاستيلاء الخاطف على الزاد الذى يتطلبه عقله والقبض عليه • وعلى أية حال فقد حوله هذا السبب من الاطلاع الجامد المتراكم الى الاجترار الناشط والتأمل المنعم . على أن عودة مرضه وتكرار وقوعه ، على الرغم من أنه جلب له فترات من الكآبة والغم، الا أنه لم يمس جوهر صحته العقلية — ذلك أن طبيعته كانت فى غاية المرونة واللدونة ، الا أن ذلك فى نفس الوقت بعث فى نفسه نوعا من المشاركة الوجدانية العجيبة العاطفة على الشواذ فى الناس • وأخيرا فان مرضه امتزج على نحو عجيب — بتلك الخاصية الأساسية التى سبق التنويه بها ، فلقد كان چيمس كما رأينا دائم القلق والجزع والضجر والتبرم • وهذا التململ كان بمثابة مهيج ملهب يحول بين عقله وبين أن يصبح راكدا أو آسنا • كان يتذوق طيبات الحياة بالصبو والاشتياق والحنين اليها ، فى غيابها مثل ما كان يتمتع بحضورها ، سواء بسواء . كان سرعان ما يحس بالبشم مما فى يده ، بيد أن هذا البشم كان مقرونا دائما باشتياق واجم لشىء آخر ، بحيث انه فى مجموعه كان — لا يشبع ولا يقنع ، بدلا من أن يكون مكتظا وطافحا • وليس ثمة شك فى أنحالته الصحية أسهمت بنصيب فى قلقه ونزوعه وعدم استقراره• نشاط آخر — مشهد آخر — منظر جديد — حركة مختلفة كانت دائما تزوده بمسكن يخفف آلامه الراهنة ، وترفع عنه اصر ما يرهقه • كان يجد فى العمل ترياقا لكثرة اللعب ويجد فى اللعب شفاء من العمل • كان يلهو اذا أضناه

(١٠) "Insomnia, digestive disorders, eye-troubles, weakness of the back, and sometimes deep depression of spirits followed each other or afflicted him simultaneously." L.W.J., I, 84.

الجد ، ويجد اذا أسأمه اللهو - كانت الطبيعة علاجا للكلل الاجتماعى ، وكانت الحضارة طبا لخواء الطبيعة البدائية وخشونتها ، والفلسفة تشفى من العلم ، والعلم يبرىء من الفلسفة ، كان يلتمس فى أمريكا علاجا لأوروبا ، ويذهب لأوروبا عندما يضيق بأمريكا ! ..

وفى سنة ١٨٦٧ كان عند چيمس سبب معين يحفزه الى الذهاب الى اوروبا . فلقد بعثت فيه دراساته فى مدرسة الطب شغفا بالفسيولوجيا التجريبية ، واعتقد أنه بسفره الى ألمانيا فى ذلك الوقت يستطيع أن يجمع بين اشباع حاجاته العلمية واتقان معرفته باللغة . وفى توجيه خطواته تلقاء ألمانيا كان يتبع سبيلا قديما مطروقا من الحج - طريقا مفضيا ليس فقط من أمريكا ، ولكن من أوروبا الغربية أيضا . كانت ألمانيا تشع كالمنارة من بعيد ، وتهوى اليها الأفئدة باعتبارها مثابة لأعظم وأسمى ما فى الروح ، ولكل جديد وطريف فى الأدب والعلم والفلسفة . وكان الألمان موضع الاعجاب لافتقارهم الى تلك الصفات بالذات التى كانت سبب كراهتهم وبغضهم فيما بعد عندما حازوها . ان ألمانيا التى هوت اليها الأفئدة كانت ألمانيا التى تعيد ذكرى الماضى ، لا ألمانيا المنبئة عن المستقبل . ومن ثم نجد هنرى آدمز الذى ذهب الى ألمانيا فى سنة ١٨٦٠ ، يقول : « ان ما أحبه كان الخلق البسيط ، والعاطفة الخيرة ، والتجريد الموسيقى والميتافيزيقى ، وقلة دراية الألمانى وعجزه البادى فى الشئون العملية »(١١).

وبالنسبة لأمريكى فى عقد سنة ١٨٦٠ وما تلاها ، فان المؤثرات السياسية كانت لابد أن تؤيد وتؤكد هذا التحيز الثقافى وما يلحق به من محاباة وتفضيل . فلقد أفادت ألمانيا من عدم رواج وشهرة أقرب منافسيها ، وهوت اليها الأفئدة بقدر ما كانت تكره جيرانها : كانت انجلترا مكروهة ، لعطفها على الجنوب ، وفرنسا لنفس السبب ، وكذلك لا دعاءاتها ومزاعمها بشأن الامبراطورية الثانية ، وللضحالة المزعومة والخفة والطيش التى اتصف بها الباريسيون .

وسيظهر فى التكملة أنه على الرغم من أن چيمس قد تأثر بهذا الهوى الألمانى ، الا أنه لم يقع تحت سيطرته أبدا . كان بسجيته وسليقته ومزاجه لابد أن يحب ألمانيا وفرنسا وانجلترا وايطاليا ، كلا على حدة ، وبالتناوب دون أن يتبنى أيا منها نهائيا .

---

(١١) Education of Henry Adams, Riverside Press, 1918, 83.

٩

درسدن وبرلين

قضى جيمس ربيع سنة ١٨٦٧ وباكورة صيفها فى درسدن . ولقد تميزت تلك الفترة بتفتح وازدهار عظيمين لميوله الجمالية الفنية التى نبهتها وأنعشتها قاعات الفنون وقراءاته العامة سواء بسواء . أما مغامراته العقلية والعاطفية — مع الفن والأدب، ومع اللغة والناس، ومع رفاق السفر — فقد وصفت بأكملها وبأدق تفاصيلها ، وبأسلوبه من الافصاح عن دخيلة نفسه، فى الرسائل التى حررها فى ذلك الوقت لأسرته . كان طوال الوقت مشـــغول البـــال بأولئك الذين خلفهم وراءه فى أمريكا ، يبتغى لهم — وخصوصا أخاه هنرى — أن يشاركوه فى تلك الكنوز التى اكتشفها .

درسدن ٤ يوليه سنة ١٨٦٧ .

« أسرتى العزيزة :

... حياتى الخالية من الأحداث ، تكر وتمضى فى هدوء ، ويتوافر لدى وقت كثير من الفراغ للقراءة . وأنا لا ألقى الا قليلا من الناس ، حتى لأتحرق شوقا الى قلب يخفق مع قلبى فى اتحاد . ولكننى على العموم راض وقانع جدا ، وأحتفظ بتلك القاعدة الذهبية : خير الأمور الوسط — بين تفاؤل خاو وتشاؤم أخرق أحمق ، الأمر الذى ميزنى دائما ... انى أكن نوعا من الصداقة الروحية الطلقـة للناس الذين أراهم فى الطريق ، ثم ان دراسة نمطهم الجسمانى مشوقة جدا ، وان كانت محيرة جالبة للمشاكل ! . ان منظر النساء هنا قوى اعتقادى — بشكل لم يسبق له مثيل من قبل — بأن النساء خلقن لكى يؤدين أعمال المجتمع الشاقة ، وانهن بذلك يكن أسعد حالا وأحسن مآلا ... لهن جميعا وجوه منبسطة ملفوحة بلا رونق ، ونادرا ما تجد وجها مصبوغا بطلاء على الوجنتين ، فأما أقفيتهن فصغيرة جدا ، يتدلى عليها شعر ضئيل أسمر مالس زلق ، فى جديلة عقصت دائريا من طرفيها ، ثم تلاطمت كالقرصـــة واستقرت تماما فوق أقفية رقابهن القصيرة ، وأكتافهن العريضة المركبة فوق أضـــلاعهن القصيرة المصمتة الجامدة ، والتى لا تذكرك بشىء الا « بالكستليتة » وامكان أكل لحوم البشر — كل ذلك فوق أرداف ثقيلة ضخمة وخنقات وأقدام جسيمة ، ينضحن بالقذارة الى درجة من التشـــبع تفوق أى جنس من الناس أتذكر أنى رأيته ! . ولكنهن فى نشاط وقوة اللبؤات ، ويعملن من الصباح حتى

الليل . أما اليهود ففى وسعك أن تميزهم على الفور . ثمة علامة لا تخطئهــــا العين فى وجوههم تكون لهم صورة مباشرة تستطيع أن ترصدها من بين آلاف الوجوه .

منذ رسالتى الأخيرة اكتشفت لوحة أخرى جميلة ، وجها لوجه (والتى كنت غافلا عن وجودها عندما أرسلت اليك لوحة السيدة المسنة ــ المرسومة بكيفية مضادة)(١) . ولقد وجدتها فى بيت يقع قريبا من اسفل الشارع ــ فى الطابق الخامس : شعر أســـود ، بشرة موردة ، قرطان كبيران مذهبان ، ووجه بدين سمين ــ صورة مجسمة للجمال العفى القوى ، وهى تؤلف الآن (مع خطاب اعتمادى طبعا) سلوى حياتى . يالها من لوحة فنية حية . انها تجلس قبالتى كل مساء تتطلع الى من نافذتها ، وأنا قابع فى مكانى أرنو اليها ، ويخيل الى من حمرة الخجل المتواضعة التى تكسو وجنتيها ، ومن الابتسامة الخافتة التى ينضح بها محياها ، أنها تنظر الى بشىء من الاكتراث ، وانها تحفل بأمرى . لقد ذهبت الى السوق هذا الصباح لأشترى باقـــة ورد أهديها اليها ، ولكن المكلفين بالخـــــدمة ، أو القومسيونجية Dienstleute كمـــا يسمونهم هنا ، كانوا كلهم صعاليك فى غاية الخسة والدناءة ، اذ رفضوا القيام بمهمة كيوبيد ، وازاء تصرفهم ، شعرت بكثير من الخجل من مجرد فكرة شراء باقة الأزهار ، وطلبى من أحدهم أن يوصلها اليها . وعلاوة على ذلك فقد كان من المشكوك فيه ــ فى الحالة الراهنة لتعارفنا ــ أنها ستتسلمها ، وبناء عليه فقد عدت أدراجى بخفى حنين مكسور الخاطر الى غرفتى ، حيث أقبع الآن كاسف البال .

وهكذا ترى أننى بكل ما يحوطنى من عزلة ، وما يشغلنى من قراءة ، فان العمة كيت لايمكنها أن تقول اننى أطيل التعمق فى الفكر أكثر من العواطف .

ان الريف هنا جميل فى كل جهة ومن أى النواحى أتيته ، هادىء جدا ، وســـــاكن تكسوه الخضرة والزرع ، وتوجد أركان وأماكن ريفية ذات مفاتن ساحرة ، وقريبة جدا من المدينة ، كثيرا ما أتوق اليها ، وأتمنى أكثر لو كان هارى هنا (لولا أن المنى بلا طائل) لنلم بها ساعة فى كل زيارة ، لكى ينعش نفسه بشىء جديد ، وان كان لايختلف كثيرا عما عندنا فى ربوع الوطن ... على أن أعظم سعادة غمرتنى منذ حضورى هنا كانت بفضل استعارة خمســـة أعـــداد من النسخ الأســبوعية Weekly Transcripts .... ما كان ينبغى على أن أعتقد أنه فى مدى ثلاثة شهور سيبدو نغم صحيفة بوسطونية مستهجنا أو غريبا لدى ! . ولكن الذى حدث أنـــه انتابتنى سلسلة متتابعة من الفرح والدهشة والرضا ، ظلت تلاحقنى حتى جن الليل وآويت الى فراشى متعبا مجهدا من شدة حب الوطن . ان الدعابة العاصــفة القاصفة ، والدالة وعدم التكلف ، والنشـاط المغامر ، والثقة بالنفس ، والتفاؤل الذى لا ضابط له ولا رابط ، والجفاف الذوقى العديم العصارة ، والحذق الفكرى ــ كلها الفت مزيجا من الصعب وصفه ، ولكنه مزيج مختلف تماما عن نغم الأمور هنا ، وهو على حد تعبير الألمان « ضربة لازب » "Existenz so völlig dasteht" بحيث لايسعك الا أن تشعر به وتحفـــــل بوجوده .

---

(١) This seems to be the third of these fenestral apparitions. Cf. L.W.J., I, 93 ff., where the "portrait of the old lady" will be found opposite p. 96.

ويطربني جدا أن أرى الأمريكيين هنا أيضا في عيونهم نظرة جائعة قلقة ، ويبدون كالنغم الناشز في لحن الحياة هنا ، كالسمك الذى فك من الصنارة أو الخطاف • منذ أيام قليلة كنت جالسا في الشرفة بعد الظهر ، واذا برجل وسيدتين شـابتين قد اقبلوا وجلسوا بجوارى • وعرفت من أول نظرة أن سحنتهم أمريكية • ولقد أطربنى الرجل جدا بسحنته الأمريكية المفرطة : شارب أحمر ، وشوشة على الذقن ، وأنف ضليع ، وعين ضيقة سريعة ، فيها نظرة نصفها ينم عن أنه هوائى ذو نزوات ، ونصفها ينطق بالوقاحة والصفاقة ، وفى مجموعها تؤلف نظرة أريبة مع احساس عربيد بالاستعلاء جعلنى افخر بأخوته • وفى بضع دقائق عرفت أنه الجنرال ماك سليلان الذى يبدو مختلفا بعض الشيء عن صوره ، وان كانت العين لاتخطئه ، ثم عرفت فيما بعد أنه مقيم هنا • وأيا ما كانت اخطاؤه وعيوبه ، فان نقيصة كونه ليس « يانكيا » Yankee ليست من بينها •••

قولوا لهارى أن يحتفظ بروحه المعنوية ويبسط أساريره • لو كنت مكانه لما أجلت كل قراءتى فى الألمانية حتى أحضر الى هنا ـ ان قراءة الألمانية أمر ميسور فى الوطن تماما مثل ما هو هنا سواء بسواء • اقرأ فاوست لجوته ـ انها قطعة أدبية ممتازة ، ولاتخلو من عرق موصول من الشعر ينســاب فى اوصالها من أولها لآخرها ! وفى وسع المرء أن يتمتع بقراءتها بشرط ألا يصر على الحصول منها على « فلسفة » ثابتة بلا تناقض ولا عوج• هذه على الأقل هى خبرتى حيالها حتى الآن • لم أقرأ شيئا منذ بعثت اليكم برســالتى الأخيرة ، سوى فى الطب ، وكتاب أرسطو للويس (فى الترجمة الألمانية) ، وبعض المقالات الزاخرة بالموهبة والبراعــة لهيرمان جريم ، وليس عندى « أفكار » • قولوا لهارى يقرأ (اذا شاء) مقالة كتبهـــا جريم عن ڤينوس ميلو The Venus of Milo ••• ويقارنهـا بڤينوس سانت فيكتور • (٢) كلاهما هراء مهوش وأهم من النظم الركيك ••• ولكن ما أبسل الجندى الألمانى من محارب (اذا لم تخننى ذاكرتى) • انها تســتحق القراءة يا هارى • أستودعكم الله • محبكم

« و • ج • »

وفى شهر أغسطس ، وبناء على نصيحة أحد أطباء درسدن ، جرب چيمس حمامات تبليتز المعدنية على أمل أن تشفى آلام ظهره المعتل . وفى شهر سبتمبر ذهب الى برلين • وفى أثناء هذا الشهر والشهر الذى تلاه كتب سلسلة من الرسائل لوالده ، بشأن المقالات الفلسفية التى كان الأب قد نشرها أخيرا فى مجلة North American Review • وهذه الرسائل مضافة اليها تلك الرسائل التى بعث بها الى أ.و. هولمز الابن (٣) ، تمدنا ببينة وافرة على اهتمام كاتبها الجدى بالمسائل الفلسفية • أما رسالاته

---

(٢) Paul de Saint-Victor's "La Venus de Mile" formed the first chapter of his Hommes et Dieux, 1868.

(٣) Cf. below, Ch. X.

الأخرى فتفصح عن مرضه وكآبة نفسه الملازمة له كالظل ، وما يساوره من شكوك مهنية الى جانب تشتت اهتماماته ومآربه ٠

والفقرات التالية المقتبسة من رسائل بعث بها الى أخيه هنرى تكشف عن مشاغله الأدبية ، والظروف التى أحاطت بأول مشروع أدبى غامر به ونقده لكتاب جريم Unüberwindliche Mächte (٤) ٠

برلين ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٦٧ (٥) ٠

« منذ أيام قليلة وانا جالس وحدى ومعى خطاب اعتمادى الذى نقض عهده أندب حظى العاثر وحالتى المنبوذة ، واقول لنفسى : ياترى ماذا فى وسعى أن أعمله لكى أكسب عيشى ٠ برقت فى ذهنى فكرة كتابة «مذكرة» عن قصة هـ٠ جريم التى فرغت لتوى من قراءتها ٠ وأنتم تعلمون جيدا أن الفكرة عندى تتحول الى تنفيذ ٠ وبعد ثلاثة أيام سويا من الضنى والعرق والمحو والكشط وشد شعرى ، والنسخ واعادة النسخ٠٠٠الخ٠٠٠ الخ ٠٠٠ نجحت أخيرا فى انجاز المرفق طيه ٠ أريد منك أن تقرأها ــ واذا وجدت بعد تصحيح الأسلوب والأفكار بمعونة الوالدة وآليس والوالد ، بل حتى وبعد اعادة كتابتها اذا تيسر ، أن حكمك عليها هى أنها صالحة لاثارة اهتمام أى انسان فى العالم على نحو فيما عدا هـ ٠ جريم نفسه ، ــ فانى أرجوك أن ترسلها الى مجلة الأمة The Nation او المائدة المستديرة The Round Table. انى أشعر أن كسب العيش لايستحق أن يكسب بهذا الأجر ٠ ان الأسلوب ليس ميزتى ، وليس مجال براعتى ، ثم ان التوسط فى الموازنة بين الفخفخة والجلال ، وبين عدم التكلف الدارج العامى، أمر عسير حقا ٠ ومع ذلك فاذا كان العرض السخى الذى يأتى منها لايزيد على عشرة دولارات سمان جمال ، ترقد هانئة وادعة على ظهورها الخضراء الملساء فى خزانة أموال الأسرة ، نتيجة لجهدى وكدى ، فسأكون فرحا ومسرورا بأنى كسبتها ٠٠٠

حبذا لو حددت لى بالتفصيل فى رسائلك المقبلة اسماء كل الكتب التى قرأتها والتى تقرؤها ٠ ذلك أن عبارتك التى تقول فيها انك تقرأ « عددا كبيرا من الأسفار كلها مفيدة طيبة » هى عبارة غامضة تثير الحنق ! ٠ فعندما أستعرض الكتب التى قرأتها منذ غادرت الوطن العزيز يبدو مجموعها صغيرا جدا جدا ، وأحسب أن ذلك راجع الى حد كبير الى كونها كتبا بالألمانية ٠ ولقد بدأت أجمع شتات نفسى وأستقر ثانية بعد فترة شهرين تقريبا من الفسق فى قراءة القصص الفرنسى ــ غرفت فى أثنائها من منهل صاند الناضرة العذبة الذكية المتحررة ، وقرأت بالزاك المحلل الحاد النغمة ، ولكن الباسل الذى ارتفع قدره فى نظرى ارتفاعا كبيرا او بالأحرى قرب من قلبى قربا وثيقا وزاد حبى له ، وصاحبت مؤلفات ثيوفيل جوتييه ، الطيب الذى يسيل الذهب من فمه ، والذى سلب لبى أيضا ، ناهيك عن اركمان تشاتريان الذى لا نظير له ولا ضريب الذى جدد ايمان المرء بالتناغم الريان للخلق ــ وحشد كبير من غيرهم وغيرهم ٠ ومنذ أيام قلائل قرأت

---

(٤) Published in the Nation, V (1867).

(٥) L.W.J., I, 103-4, 106.

لديدرو كتاب مؤلفات مختارة Oeuvres Choisies في مجلدين ، وهما في غاية الطرافة والامتاع بما تزخران به من روح بهيمية ، وطرائق فكهة من تفكير وحسبديث ومسلك العصر » .

على أن تقريظ جيمس لقصة جريم ابنيتق بلا ريب من اهتمامه الشخصي بالمؤلف وكلفه به . وكان قد حمل معه الى ألمانيا كتاب توصية من امرسون . وهرمان جريم هذا هو ابن ويلهلم جريم ، أصغر الأخوين المشهورين بالقصص الخرافية ، وكان صاحب أسلوب ومؤرخا فنيا وأديبا ، ثم أصبح أستاذا لتاريخ الفن في برلين في سنة ١٨٧٢ . وأمضى جيمس نوفمبر وديسمبر ونصف يناير في برلين ، حيث حضر محاضرات عن الفسيولوجيا للأستاذ اميل دى بوا رايموند ، وبدأ يخامره مشروع مناهزة علم النفس وخطب وده من تلك الزاوية . بيد أن هذه الحماسة الجديدة ذكرته على نحو حاد ، واخز بما فيه من حدود وقيود ، لذلك كتب الى توم وارد في السابع من نوفمبر سنة ١٨٦٧ صارخا « فات الأوان . فات الأوان » :

« لو كنت قد مضيت في التمرين في الحساب وقطعت أشواطا أكبر في الطبيعة والكيمياء والمنطق وتاريخ الميتافيزيقيا ، ووطدت ، ولو على الأقل في ذاكرتي ، أساسا راسخا وافيا كاملا مألوفا لدى من المعرفة في كل تلك العلوم (على غرار الأساس الذى يتلقاه الطالب الذى يدرس الطب في مادة التشريح) بحيث يمكنني أن أرجع اليه وأستقى منه بطريقة لا ارادية في كل تحصيلي اللاحق من الأفكار والحقائق ... لو كنت قد فعلت ذلك لكنت الآن امضى قدما » .

من بين معاصرى جيمس في مدرسة لورانس للعلوم وفي مدرسة الطب ، كان هنرى ب . بوديتش هو الذى أثر فيه أعظم تأثير من حيث اتجاهه للفسيولوجيا . ولقد حصل بوديتش على اجازته في الطب في سنة ١٨٦٨ قبل جيمس بعام واحد ، ثم سافر الى الخارج في دراسة استغرقت ثلاث سنوات في فرنسا وألمانيا ، حيث استطاع أن يفعل ما كان جيمس يؤمل بكل شغف وحماسة أن يفعله في العام السابق .

وفي سنة ١٨٧١ أصبح بوديتش أستاذا للفسيولوجيا في هارفارد ، وأسس في بوسطن مختبره الفسيولوجي الخاص به حيث كان جيمس يزوره لماما (٦) . وعلى الرغم من أن بوديتش سرعان ما بز جيمس من

(٦) Cf. below, 139.

الفسيولوجيا وفاقه ، الا أن جيمس كان أول من جاب الحقل الأوروبى . رلقد قصد من وراء رسالاته العديدة التى بعث بها الى بوديتش أن يعنيه على تدبير منهاج خاص به . والى بوديتش هذا أفضى جيمس بدخيلة نفسه وفتح قلبه عندما كان مفعما بالصبو والحنين والاشتياق الحائر المبلبل — للبحث التجريبى

برلين ١٢ ديسمبر سنة ١٨٦٧

« اننى أعيش على مقربة من الجامعة ، واحضر كل محاضرات الفسيولوجيا التى تلقى هنا ، ولكنى عاجز عن أداء اى شىء فى المختبر، كما أننى لا استطيع حضور التجارب الاكلينيكية أو الاستماع الى محاضرات فيرتشو أو تجاربه الايضاحية الخ ... دى بوا رايموند — وهو رجل حاد المزاج سريع الغضب فى الخامسة والأربعين تقريبا — يعطى سلسلة عظيمة واضحة بارعة رائعة من خمس محاضرات اسبوعيا ، تتخللها ست محاضرات أخرى من عالمين آخرين شابين لاتقل عن محاضرات المختبر الفسيولوجى بصفوفه الطويلة المتراصة من العدد والآلات والضفادع وكلاب التجارب الخ ... الخ ... فيكاد يقتلع معدتى اقتلاعا ويدفعنى الى القىء عندما أمر به . انه لأمر مخيب للآمال ألا أنجز الا هذا القدر الضئيل الهزيل ، ولكن من سار على الدرب وصل ، ومدمن القرع للأبواب لابد والجها فيما أحسب، ويبدو لى أن الأمر يستحق العناء وبذل الجهد.

لاشك أنك تمضى قدما وتتدحرج مثل كرة الثلج التى تربو وتكبر وتنمو ، نافذا فى ميادين المعرفة الطبية الفسيحة الأرجاء . ولاشك أنك قد خرجت سالما غانما من ذلك النفق الطويل من الهم والغم وانحطاط القوى المعنوية الذى يفضى اليه ، طريق المعرفة فى نهاية هذا الشوط الطويل ... طبعا أنا فاقد الأمل فى استطاعتى التمرن ... ولكنى لا اريد أن أقطع أواصر صلتى بالعلوم البيولوجية . وليس فى مقدورى أن أكون معلما للفسيولوجيا أو علم الأمراض وطبائعها، أو التشريح ، اذ لا أستطيع أن أجرى التمارين العملية فى المختبرات والمعامل ، فضلا عن عجزى فى الفحوص الميكروسكوبية والتشريحية » (٧) .

بيد أن جيمس وان كان يمضي أقل سرعة وعمقا فى توغله من بوديتش ، الا أنه كان يتقدم على جبهة أوسع وأشمل . ذلك أنه كان يقرأ ليس فقط رسائل ست الحسن والجمال belles lettres ، وانما كان أيضا يدرس الفلسفة . وأرسل الى أهله فى طلب « محاضرات فكتور كازين عن كانت Kant ، وتلك الترجمة الفرنسية الأخرى لمقدمة المانية عن كانت » . وفى هذا الصدد يكتب يقول : « خليق بى أن أتعلم شيئا

---

٧) L.W.J., I, 120, 123.

عن « فيلسوف المعرفة Königsberg » ، وأبتغي من قراءتها أن تمهد لي الطريق وتهون على الأمر (٨) » .

وفي الرسالة التالية يبدو موضوع علم النفس من زاوية الفسيولوجيا واضح المعالم في مجال النظر · وكما يقول في رسالة أخرى بصدد هذه الفترة انه « يخوض » طريقه تلقاء ميدان علم النفس(٩) · والرسالة التالية كتبت لأبيه :

برلين ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٦٧

« أعتقد أنني لم اخبرك – بعد – بأي شيء عن تدابيري المقبلة · المحاضرات تنتهي هنا قرب نهاية مارس ، وفي نيتي عندئذ الذهاب الى تبليتز ثانية · فاذا عادت علي بمثل الفائدة التي عادت علي منها من قبل ، فيها ونعمت ، واعتقد أنني على الأرجح ساكون سليما معافى ··· ومن ثم ، فانني افكر الآن في الذهاب الى هيدلبرج · فيها استاذان هناك همـا هلمهولتز ، وفنت ، ضـليعان في فسيولوجية الحواس ، وفي مرجوى أن اكون في حـالة صحية طيبة تتيح لي أن أتمرن وأشترك في بعض التجـارب المعملية في مختبرهما ··· على أن مآربي النهائية مازالت مبهمة بعض الشيء ويلتبس علي أمرها · ولو أنني كنت سليما معافى ، واستطعت أن احضر الى هنا مبكرا بعام أو عامين لكي أدرس في واحد من هذه المختبرات الفسيولوجية ، لأصبح طريق حياتي ممهدا وميسرا أمامي على نحو فريد · ولكن حالتي الصحية الآن غير ثابتة ولاضمان لها فلا أستطيع أن أتطلع الى تعليم الفسيولوجيا · وكنقطة مركزية في الدراسة فاني أتصور أن نقطة الالتقـاء بين حـد الفسيولوجيا وحد علم النفس تتداخل وتلتحم بين الاثنين ، وأنها من ثم جديرة بالدراسة وتبشر بالثمر والنفع كأي دراسة أخرى ،– وأنا الآن أركز دراستي في هذه النقطة » ·

وفي مجلة الأمة The Nation (عدد ٢٣ يناير سنة ١٨٦٨) ظهرت مقالة بغير توقيع بعنوان « آداب العصر » تتضمن تعليقا ينصح بالعـداء العفيف عن الحياة الباريسية ، كمـا تنعكس في مؤلف لارنست فيدو بعنوان : La Comtesse de Châlis; ou les moeurs du jour.
ولقد مرت هذه المقالة بين يدي أخ خبير ، خففها ولطفها بفنه كمحرر ، وهذب أسلوبها ، معطيا لنفسه حرية استعمال المقص والقلم على السواء ·

(٨) L.W.J., I, 117, The two books are: Victor Cousin, Leçons sur la philosophie de Kant, 1844; and, presumably, Johann Schultz, Erläuterungen über des Hrn. Prof. Kant's "Kritik der reinen Vernunft", of which a French translation by Tissot appeared in 1865.

(٩) L.W.J., I, 126-7.

والرسالة التالية مقتبسة من الكتاب المرفق بالمقالة الذى حرره من برلين بتاريخ ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٦٧ :

« اليك رسالة أخرى شبه دسمة . اشترى توماس س . بيرى كتاب فيدو أخيرا ، وبعد أن جلست لقراءته بدا لى ان قلمى العديم التبعة والطامع فى الربح — لاجناح عليه من ان يلبك Compliquer مقالا يستقطره منها — بحيث ينبغى أن يكون أيسر قراءة وأسهل منالا من المقالين الآخرين .

وهكذا بالعرق الجبار والعمل الجهيدسبكت المقال المرفق بهذه الرسالة ، والذى ألتمس منك أن تعنى بأمره وتهذب أسلوبه اذا استطعت الى ذلك سبيلا . لقد حاولت أن اقلد The Saturday Review واخشى ان اكون قد اخفقت ، ولكن الكتابة فى حد ذاتها تمرين طيب . اننى الآن على يقين — أكثر من أى وقت مضى — بأننى لم أخلق للكتابة ! . بالله عليك لا تقرأ الكتاب نفسه . انه كتاب خسيس وركيك بقدر ما فيهم من خسة وركاكة . منذ العام الماضى — ولست أدرى لماذا — وأنا أحس باحتقارى يزداد للفرنسيين بطرق كثيرة . ان باريس تبدو الآن فى حالة من الانحطاط الخلقى والفكرى بحيث يصعب حقا تصور أى مسالة تمضى بسلام فيها دون عوج ولا أمت . فكل وتر زم باحكام مشدود ، بينه وبين الطرقعة والانفجار شعرة أرفع من الصراط ، وكل شىء يصرخ بالنشاز ، ويبدو أن الناس على وشك أن يصلوا الى مرحلة لا يشعرون فيها بأى متعة على الاطلاق الا كانت هذه المتعة مرذولة ملطخة بالدماء ... توماس س . بيرى ، يشترى صحيفة الفيجارو Figaro يوميا . انها أبشع قصاصة من الورق رأيتها فى حياتى ! . فيها جزء واحد مخصص للكلمات الطيبة ، واللغو الشخصى ونوادر الفجور والفسوق والرفث ، الملفقة بذلاقة اللسان الخبيثة ، والثرثرة الفاترة ، واللمز الأهنف ، والتى يكسوها طلاء من الانبساط الزائف ! والباقى مخصص لأنباء تنفيذ أحكام الاعدام ، وجنايات القتل والجرائم فى مختلف الدول ، ثم القيل والقال الدائر على الألسن فى الدوائر المسرحية وأهل الفن . اننى أرى حقا أن صحيفتنا Police Gazette أرقى من الفيجارو ، لأنها فعلا أداة تعبر عن عقول فظة وطيئة ، ولكن الفيجارو تعبر عن عقول زائفة ضائعة أصابها العطن والعفن الى اللباب ! يالالفظاعة ! »

وباقي حساب هذه الرسالة ينصب على وصف تفصيلى لوضع لزقة منقطة على الظهر . والواقع أن الأجزاء التى لم تنشر من الرسائل المتبادلة بين وليام چيمس وهنرى چيمس تتألف فى معظمها من تفاصيل تتعلق بالأمور الصحية وأعراض المرض وما يصلح له من علاج .

ان اهتمام كل منهما بحالة الآخر الصحية لم يكن يضارعه سوى ايمان كل منهما بما يصفه لأخيه من علاج وترياق وتطبيب .

ولقد كتب چيمس الى أخته هذه القصة الحية النابضة عن خبراته الاجتماعية .

(برلين ٩ يناير سنة ١٨٦٨)

« حلواى الخلابة

لقد تميز الأسبوعان الماضيان بنشـــاط اجتماعى من جانبى يفوق أى نشاط آخر قمت به فى حياتى على الاطلاق . وكان آخره مساء اليوم السادس من يناير - بمناسبة بلوغ هـ. جريم سن الأربعين ، فقد أقيمت حفلة رقص أسبانية بالصاجات وفقا لتقاليد أمته ، مثلت فيها مسرحية رمزية صغيرة تستهل بمقـــدمة افتتاحية ، ويقوم بعض أصدقاء الأسرة بأداء أدوارها . وكان آل ثييس ، (١٠) أو بالاحرى المسز ثييس ، ابان زيارتها لمسز بانكروفت منذ بضعة أيام ، قد اقترحت عليها أن « تفاجىء » المسز جريم بزيارتها تلك الليلة ... ولكى تجعل المفاجأة أكثر وامعن فى عدم التوقع ، فان المسز ثييس أخبرت المسز بانكروفت بكل شىء عنها مقدما ، فأضيف عدد آخر من سمك الاستكازو ، ودعى الى الوليمة عدد آخر من الناس . ولقد جلست وراء الستر بانكروفت وقت عرض المسرحية الرمزية ، وكان وغدا ونذلا الى أقصى درجة بلغها فى حياته . ليس ثمة كلمة تصف منظره ، وخصوصا منظر ظهره بقفاه العريض واذنيه الكبيرتين . اما عيناه فتشبهان عينى الكركند البحرى ، كما لو كانتـا على فصلتين تتلصصان فى تربص ! . ويقول توماس س . بيرى انك تشـعر بأنه لزام عليــك أن توغر فيـــه دبوســـا يخترقه وتثبتـــه على الحائط كما تفعل بالحشرة ! . أنه يتكلم الالمانية بطلاقة (وبصوت مسموع) . والقوم هنا من الالمان يتحدثون بكل اكبار واعجاب لكونه يعمل هنا قسيسا كما لو كانوا مازالوا عاجزين حتى الآن عن ادراك الفكرة . أما المسز بانكروفت فهى بلاريب سيدة عظيمة فائقة فى الخفاء ، وان كانت فى العلن طامة كبرى ! ولكن انطباع قفاز مترهل عتيق من جلد جدى أبلق - الذى يوحى به مظهرها يوطده ويؤيده فله الجسم اللازم لمل ء هيكل حديثها . ولقد لعبت المس ثسس دورا فى المسرحية غير مألوف ، فيما استطعت أن أتبينه يدور حول « عبقرية كرم الضيافة » . وارتدت لدورها طرحة للرأس من الموسلين الأبيض ، وتاجا من الصفيح وضعته على شعرها الأشعث ، ثم ألقت بكل رشاقة أشعارها الألمانية وقد احمرت وجنتاها ولمعت عيناها ببريق أخاذ ...

ان المسز جريم سيدة ذات عبقرية حقا ... انها تتميز بالحرية وسعة الأفق المقرونتين بالرشاقة والكياسة والجمال الأنثوى الذى لابد أن يأسر كل انسان . أما جريم نفسه فهو شخص نبيل ، ولايمكنك أن تتصور كم أسبغ على الاثنان من فضل صداقتهما وودهما . وفى هذه الحفلة الأخيرة ، ولأول مرة منذ أن رحلت عن وطنى ، شعرت لمدة من الوقت باننى بين أهلى وعشيرتى ، وأننى مندمج حقا فيما يحيط بى ، ومضيت على سجيتى أبعثر حماقاتى ، وأوزع عباراتى النابية غير المتزنة على كل فرد من الحاضرين تقريبا !! .. لايمكنك أن تتصور مدى السرور الفائق الذى جلبته تلك المناسبة . لوشئت ، لكان فى وسعى أن أرى أحسن مجتمعات برلين مع توافر هذه الفرصة المفتوحة أمامى الآن ، ولكن دراساتى بالجامعة وأعمالى تجعلنى غير كفء لتحمل الأعباء التى يقتضيها توسيع دائرة زياراتى ومعارفى ، أكثر مما هى الآن .

---

(١٠) Old Cambridge friends. Louis Thies was Curator of the Gray Collection of Engravings at Harvard.

لقد حضر توماس «س» بيرى الى الحفلة، وبطبيعة الحال وجدها أشد كآبة من جنازة . ان المرء ليحضر هنا بمحض قوة المحافظة على الذات ، لكى يتحمل العيش فى هذه الغربة ويجتازها بسلام . على أن الغريب يتعين عليه أن يفعل لنفسه أكثر مما ياتيه فى الوطن عندنا أو فى فرنسا أو فى انجلترا ، وعندما تلقى مصادفة برلينيا يمد يده لكى يجعل مشاربه تتفق مع مشاربك ، فان الدهشة تباغتك ، ويبدو الأمر غريبا جدا فى نظرك بحيث يحفزك أن تتوسل اليه ألا يكلف نفسه هذا الازعاج الاضافى من أجلك .

وعندما يتم لك اجتياز « عتبة الشباك »، فانى أجرؤ على القول بأنه لا بأس عليك عندئذ ، وتستطيع ان ترتع كما تشاء مثلما تكون فى أى بلد آخر . ولقد أهديت مقبض ورق نشاف من الطراز « المراكشى » لجريم بمناسبة عيد ميلاده ويبدو أن الهدية دغدغت مشاعره .

آه يا طفلتى الحبيبة ! ما أشد لهفتى على أن أكون معك تداعبيننى بحنان الأخوة كما كنا نفعل فى الأيام الخوالى . كثيرا فى جوف الليل وانا ساهر — ما تطير روحى وترفرف كالفراشة بجناحيهما لتنقر على ألواح زجاج النوافذ فى شارع كوينسى ، لكى تطوف بتلك النخبة الطيبة الساكنة هناك — ما أطيبهما — اجمالا — وخصوصا وسط ذلك الخليط الخسيس الذى تتألف منه الغالبية العظمى من الجنس الخشن . ما أنعش الروح التى تلقى شخصيتين بهذه الطهارة الأخلاقية والنضارة والعذوبة ، مثل هنرى چيمس الكبير ، وهنرى چيمس الابن فى الأسرة ! . بودى لو لم تقرئى عليهم رسالتى هذه على اعتبار أنها آتية منى مباشرة ، ولكن أرجوك أن تتركى الرسالة على نحو ما بحيث يقع عليها بصرهم ، حيث يرجع ان يروها فيقرأوها بطريق السهو والخطأ ... الف قبلة للجميع من المحب

« و م . چيمس »

على أن رسائل المواساة والتحضيض التى كتبها چيمس فى ذلك الوقت الى توم وارد كان القصد منها علاج نفسه هو ، مثلما كانت بنية علاج وارد. كان هناك ثمة ادراك بازغ قوامه أنه حيث أن التربية حصيلة تراكمية — فحتى لو تألفت من سلسلة من المشروعات والأعمال والتدابير الجهيضة على غرار تربيته ، فمن المرجح أنها ستؤتى أكلها فى النهاية : « ان النتائج ينبغى ألا تكون هدفا فى حد ذاتها وعن طيب خاطر ، كما أنها ينبغى ألا تكون الشغل الشاغل لمتبعيها . فليس ثمة ريب فى أنها بالغة منتهاها — ومن المؤكد أنها ستطير لخفتها من تلقاء نفسها ، ومن جراء عمل يومى يطول ويطول ينصب على مسألة بعينها » (١١) .

ومن تبليتز — حيث اضطرته صحته الى الرجوع اليها — عبر عن نفس الأفكار والانطباعات لأخيه الصغير .

---

(١١) Written in January 1868, L.W.J., I, 133.

تيليتز ٢٧ يناير سنة ١٨٦٨

« عزيزى العتيد بوب ،

أشعر بشيء من الخجل ، وقد بلغت هذه السن ، وأنا أقف فى حضرتك وويلكى دون أن أكسب سنتا واحدا • ولكنى على الرغم من ذلك لم أكن كسولا ولا عقيما ، وفى نيتى أن أكسب عيشى اذا ما عادت عافيتى الى • اننى سعيد جدا لمجيئى الى ألمانيا ، لأسباب عدة : أولها لأننى أتقنت الأدب وأحطت به خبرا ، على نحو ما كان فى وسعى أن أطيق الصبر على بلوغه لو أننى بقيت فى عقر دارى فى الوطن ، فاللغة كما تعلم فى غاية الصعوبة ! ••• وثانيا لأن نظرتى الى مشكلة الحيـــاة العملية نظرة مستقرة وراسخة وبسيطة جدا• اننى أشعر كمـــا لو كان أولى بى أن أقنع وأرضى بالاستقرار فى مهنة ما طوال حياتى ، وأكفر عن ضيق مجالى بالاتقان والتعمق فيه حتى أبلغ حد الكمال ، واثقا بأن الحيـــاة الآخرة ستكون أوسع مجالا وشمولا واحاطة اذا لزم الأمر على غرار ذلك الرجل فى قصـــيدة براوننج « جنازة عالم النحو » •••

نحن الأمريكيين نمتاز بتعجل النتائج والتلهف عليها ، ولا نفكر الا فى اصطناع الوسائل لتقصير أمد العمل واختصاره لكى نصل الى النتائج باسرع ما يمكن • وأحسب أن مرد ذلك الى السهولة واليسر والراحة التى تهيأت لنا معشر الأمريكيين فى الحصول على النتائج المادية من كل نوع وصنف • وأنا على يقين من أن ذلك مزاج عقلى مدمر فى الأمور الفكرية الصرفة • أعتقد أن مهمة الحياة تبدو فى نظر الألمانى العادى الذى على وشـــك النزول فى معتركها كسلسلة متتابعة من الأيام فى مهنة معينة بذاتها ، بدلا من أن تكون مجرد طريق يفضى الى بلـــوغ مأرب عظيم ••• ان معظم الأمريكيين الذين لقيتهم هنا تبدو فى عيونهم نظرة زائغة تائهة جائعة عجيبة ، تطل من وجوههم ، وتختلف اختلافا بينا عن أى شيء ألمانى •••

وانى لأعترف أحيانا بأن المستقبل المنظور لأسرتنا المشتتة والمتصدعة ، والتى ربمـــا لا يقـــدر لهـــا أن تعود سيرتها الأولى كما كانت فى الماضى ، أمر يبعث فى النفس الحسرة ولكن سحقا لذلك • ان العالم الآن فى مثل شبابه وفتوته كما كان وقت ظهور الانجيـــل الى حيز الوجود • وحياتنا — اذا قدر لنا أن نجعلها فتية نضرة — حياة حقيقية واقعيـــة كحياة أى انسان آخر عاش منذ كان للعالم وجود ••• بالله عليك عجل بالرد على ثانيا ، وأخبرنى عن آمالك وعن وجهـــات نظرك الى الحياة ، وصدقنى يا أعز الأعزاء بوب ••• أننى أخوك المحب دائما ،

و م • چيمس »

١٠

وندل هولمــــز

تلك كانت الفترة التى شهدت صلة چيمس الوثيقة مع أوليفر وندل هولمز الابن · ولقد بدأت صداقته بهولمز حينما كان الأخير فى مدرســة القانون بهارفارد (١٨٦٤ ــ ١٨٦٦) . وعندما كان چيمس فى البرازيل فى سنة ١٨٦٥ تاقت نفسه الى هولمز ، وبعد عودته واستئنافه دراساته الطبية فى سنة ١٨٦٦ ، كانا ينفقان الساعات الطوال فى الخصــــام والنزاع(١) . وفى شتاء عام ١٨٦٦ ــ ١٨٦٧ كان الاثنان غارقين فى جدل ميتافيزيقى موصول ، مازال صداه ودويه ورجع صوته محفوظا فى مذكرة بعنوان « المادية » ، موجهة من چيمس الى هولمز . ولقد تضمنت هــذه الرسالة دفاعا عن التفاؤل ضد مذهب اللا أدرية ، بما فيه من انكار وقول بعدم كفاية العقل لفهم الوحى الالهى ــ وكان دفاعا « يتلمس سبيله ذات مساء منذ أيام قلائل » ولكن « لم يتسن له أن يقوله » حتى رحل هولمز وآوى الى فراشه(٢) .

وفى ١٦ أبريل سنة ١٨٦٧ أبحر چيمس من نيــويورك على متن The Great Eastern ــ ميمما شــطر تلك الرحــلة الطــويلة من النفى والكشف التى سبق ذكرها ــ وبسبب ما عاناه من كمد من جراء عــدم عوله على صحته من جهة ، وتذبذبه فى تقرير مصيره من جهة أخرى ، فقد احتفظ بخطته سرا ولم يجاهر بها حتى لأسرته أو أصدقائه · بيد أنه فى مساء الليلة السابقة على يوم رحيله كان يتعين عليه أن يعقد جلسة وداع فى بيت هولمز الواقع فى شارع شارل : « عزيزى الفتى وندى ــ سأوافيك فى دارك مساء الغد ، وسنولد نظاما من الفوضى ، لآخر مرة على سبيل الجزم » (٣) · وطوال فترة اقامته فى ألمانيا ، وما انتابه فيها من شعور

---

(١) W.J. to A.J., November 16, 1866; L.W.J., I,80.

(٢) W.J. to O.W.H., Jr., winter of 1866-7; LW.J., I,82.

(٣) Ibid., "Monday" (April 8,1867).

بالحنين الى الوطن ، وما اعتمل فى فؤاده من أحاسيس وتقويم لمشاعره حيال الناس ، شعر چيمس بأن هولمز وتوم وارد هما « أحسن أصدقائه حتى الآن »(٤) . وفى سبتمبر سنة ١٨٦٧ كتب من برلين شاكيا من صمت هولمز ، ومتسائلا عن نتائج « بحثه فى مسألة قوة معنوية الحياة » ، ومشيرا بدالة وألفة الى صديقهما القديم المقوض — الكون » (٥) . ولقاء ذلك تسلم الكتاب التالى :

(بوسطن ١٥ ديسمبر سنة ١٨٦٧)

« عزيزى بيل ،

لن أستهل كلامى بالتماس الأعـــذار لتأخرى فى الكتابة ، فيما عدا أن أقول لك اننى منذ رأيتك لآخر مرة حررت لك ثلاث رسائل طويلة فى فترات مختلفة عن موضوع « قوة معنوية الحياة » ، واننى اضـــطررت لتمزيق كل رسالة منها على التوالى ، لأننى بعد التأمل فيها وامعان الفكر وجدت أنهـــا تبدو اما مختلة أو فجة . ولكننى بالأمس كنت أتحدث مع فانى ديكسويل (٦) وأخبرتنى أن أطير لك فورا — على أية حال أنها تعتقد أنه مما يسعدك أن أكتب لك — حتى دون « قوة معنوية الحياة » . وهأنذا أفعل . ان الكتابة أمر غير طبيعى جدا بالنسبة الى ، لدرجة أننى لم أجرؤ من قبل أبدا على أن أحاولها معك ما لم تكن مرتبطة بموضوع معين بالذات . آه ياعزيزى بيل . أنصفنى بربك . ان عبارات احترامى وتبجيلى ليست جوفاء ولا هذلولية مغرقة فى الاطناب ، ولا هى بقصد ستر اهمالى . فعلى الرغم من أصـــدقائى الكثيرين ، فاننى أكاد أكون وحيدا لا شريك لى فى أفكارى أو مشاعرى الباطنية . وسواء أكنت أراك كثيرا أم لا ، فاننى على بعـــدك وقربك أعتقد أننى لا أستطيع أن أكف عن أن أستقى سلوى خفية وصحبة مؤنسة من التفكير فيك . وأنا على يقين من أننى سأظل دائما أحترمك وأحبك ، سواء أقدر لنا أن نتلاقى كثيرا أم قليلا ...

طوال شهرين أو ثلاثة ، غويت وضـــل سعيى ليالى طويلة فى الفلسفة . ولكن الآن لا شىء سوى القانون — القانون — القانون ! . أما عملى العظيم magnum opus فكان قراءة بحث تحليلى فى التعقل المجرد Critique of Pure Reason ... وأنا أقرر بأنه مادة زاخرة بالسخف الصبيانى لاتستحق تبديد طاقة المرء فى قراءتها . ولكن يبدو أنه من الضرورى أن يقرأ الانسان قدرا كبيرا من المادة العقيمة العديمة الجـــدوى ، لكى يعرف أنها كذلك ، ولا يعول فى الحـــكم عليها على مجرد الحدس والتخمين . اننى أقول لك اننى غارق الى أذنى فى القـــانون ولاشىء سواه ، ولكننى فى الواقع من الأمر أقرأ الآن كتاب تيندال عن الحرارة ، ويالهُ من مؤلف انجليزى أصفر السبلة ، عفيا نضيرا

(٤) W.J. to Tom Ward, May 24, 1868.

(٥) September 17, 1867; L.W.J., I, 103, 101.

(٦) Afterwards Mrs. Oliver Wendell Holmes, Jr.

زاهرا سارا ، ما فى ذلك شك . أليس الأجانب أكثر بساطة منا ؟ انظر ماذا يقول احد ثقات القانون الانجليزى فى مقدمة كتاب أقرؤه الآن (فى معرض الحديث عن سافيجنى): « لقد بذلت قصارى جهدى ولكن دون جدوى ــ لكى أتقن اللغة الألمانية اتقانا كافيا يمكننى من قراءة هذا المؤلف فى لغته الأصلية » . لو ان امرأ من قومنا هنا له المام طفيف مبتذل فى صورة معرفة لاتساوى قيمتها أكثر من ثلاثة سنتات ، فهل يعترف بأنه لايحيط خبرا باى شىء تحت الشمس ؟

آه ياعزيزى المحبوب بيل ــ طالما تحرقت شوقا اليك طوال هذا الوقت الذى طال فيه بعادنا وطال . كم أقررت بتلك السجايا الكريمة الشجاعة المسماحة التى لا احب أن اخدش حياءك بذكرها . من حسن حظى وتوفيقى أننى عرفتك ورأيتك ، وهذه الحقيقة فيها الكفاية للتعبير عما أكنه نحوك من ود واحترام واعزاز . منذ أن حررت له آخر رسالة ، ذهبت لرؤية والدك مرة بعد مرة . ومن عجيب المصادفات ان رسالتك الأخيرة أشارت الى « كانت Kant » . أليس ذلك من العجيب فعلا ؟ لقد أرخى الليل سدوله الآن ، وكان اليوم كله يومك ، باستثناء الأمور التى ذكرتها ، ووجبات الطعام !.. عسى أن تصل رسالتى اليك فى الوقت المناسب لتحمل لك أطيب تمنياتى بعام جديد سعيد . بحق السماء اننى اتمنى لك ذلك ، وعلى « قوة معنوية الحياة » أن تنتظر . وثمة وخزات عالقة بالموضوع لا أستطيع لها جوابا ولكننى أحسب أنك وجدت صعوبة ــ وعلى الأقل لقد وجدت أنا تلك الصعوبة ــ فى عدم كفاية الحقائق . فعندما يكون المرء آراءه فانه يريد أن يقول : هل هذه التجربة كذا أو كذا ؟ ما أشد ولع أبيك وحدته فى الكتابة والحديث عن الدين . يكاد يقنعنى بأن أكون سويدنبورجيا ، ولكنى لا أستطيع أن أمضى معه بعيدا فى هذا المضمار، فانى أوثر أن أتريث حتى أتبين اذا ما كان المشروع الآخر ستنبثق أولا صورته التصفية أو لا ؟ . والى هنا أختم فوداعا ياعزيزى بيل . لاتنسنى نسيانا تاما . صديقك المحب

أ . و . هولمز »

برلين ٣ يناير ١٨٦٨(٧)

« عزيزى وندل ــ .

Ich weiss nicht was soll es bedeuten, dass ich so traurig bin, tonight.

ان أشباح الماضى انسلت جميعها من أجداثها القلقة ، وظلت ترقص حولى فى دوامة تتوه لامعنى لها ، لدرجة أننى ــ بعد ان حاولت سدى أن أقرأ ثلاثة كتب واحدا وراء الآخر ، أو أنام أو أفكر ــ أمسكت بالقلم والمداد ، وصممت على حسم النوبة بكتابة بضعة سطور قليلة لواحد من أكثر الأشباح جميعا ــ وغولا وفضولا ــ ألا وهو الشبح الطويل الهزيل الساكن فى شارع شارل ! لله دره . ما أشد ايثارى لأن أتحدث اليك حديثا لمدة أربع وعشرين ساعة فى غرفتى المضاءة ، دون أن تشرق الشمس مؤذنة بحلول النهار ، ودون أن يدور الفلك دورته ويمحو آية الليل ، ودون نوم أو طعام أو كساء أو وقاء ، فيما عدا زجاجة شرابك المعتق التى لم يقدر لى أن اذوق رحيقها أو ما يشبهه ،

(٧) Reprinted with omissions from L.W.J., I, 124-7.

منذ أن حططت رحالى فى هذه الخطوط الطولية من الكون ! • اننى أهفو الى أن تجلس قبالتى فى أى حال أو مزاج ، ســواء أكان المنحرف المازح الشارد ، أم الطائف المتنقل الميتافيزيقى، أم السرى الشخصى حيث تفضى بدخيلة نفسك، أم الجموح الحرون السيال المجادل ، حتى تخرج نفسى من قوقعتها ، وتفتح صدفة المحار التى تغلف وجودى داخلها رويدا رويدا تحت وقع الاشعاع ، ومن ثم تندلع الكريترز Critters من باطنها مفرزة تحاشيشها الجافة الى غريزة الحيـــاة المحيطة ، الى أن تبلغ من السن حــدا تستنكر فيه نفسها فلا تكاد تعرفها ثانية ! • اننى أشعر أن الحديث معك من أى نوع لايمكن أن يخفق فى اقالتى من عثرتى، والله يقدم بى قدما مرة ثانية لمدة ثلاثة أسابيع على الأقل ! • لقد ظللت أجتر فى اثنتين أو ثلاث من الجرة اليابســـة ، من الأفكار القديمة التى جلبتها معى من أمريكا — أرددها فى فكرى — الى أن بادت وانقرضت • وصورة جسم الكون العريان لم تبد لى شيئا لم يسبق لى رؤيته وممارسته من قبل • اننى حائر فى تعليل السبب فى كونى لم أشغف بالقراءة الا قليلا فى هذا الشتاء • لقد عينت عددا من الكتب عندما جئت هنا أول الأمر لكى أفرغ من قراءتها • فماذا دهانى — ان ثقلها وبطئ اللعين فى الفلمنكية ينيخان بكلكلهما على مثل كدس دريس فوق ظهرى ! اننى أشمئز من مجرد التفكير فيها ، ومع ذلك فلقد سممت ضميرى الذليل الذى دقع فى أسرها كمـــا لو كان رقيقا ، لدرجة أننى لا أستطيع التمتع بأى شىء آخر • لقد بلغت من العمر حــدا يطالبنى عنده أى نوع من الشغل العمـــلى — بشكل لجوج صخاب — أن أؤديه — ومع ذلك فمازال على أن أنتظر •

أما وقد نفست عن الغل المحبوس الذى ظل يتراكم مغلولا طوال ستة أسابيع ، فاننى أشعر الآن بأننى أكثر أنسا وبهجة • حبذا لو زودتنى بالمزيد من أخبارك وخصوصا أن أجرة البريد قد هبطت الى رقم موجب للهزء ، (ومهما بلغ وزن الرسالة فهى معفاة من أى أجر اضافى) ومن ثم فلا يتبقى لك أى ظل من العذر لعدم الكتابة !! ومع ذلك فمازلت لا أتوقع أى رسالة منك • أعتقد أنك غارق الى أذنيك فى أغوار حماة القانون — ولكنى أحسب أن السر الالهى الخالد لايزال من وقت لآخر — يحرك منخاسه كرة أخرى فى الفج الذى سبق له أن وضعه بين ضلوعك ذات يوم • دعه لايندمل ولا ترمه ••• فان وقت التئامه لم يحن بعد • عندما أعود الى الوطن فلنؤسس جماعة فلسفية تجتمع بانتظام ، ولا تناقش شيئا سوى أعقد المشاكل ، ولا تضم سوى الصفوة من أهل بوسطن • ان ذلك خليق بأن يعطى كل واحد فرصة للافصاح عن رأيه فى صبغة نحوية ، وللسخرية والقهقهة من حمق وغباء كل الأعضاء الآخرين عندما يعود الى بيته !! وقد يفضى كل ذلك الى حصيلة لها اهمية خطيرة بعد عدد كاف من السنين •••

والآن — سأتوقف عن الكتابة • ولست أدرى اذا كنت تحمل ذلك على محمل الثناء والاطراء ! اننى لا أكتب لك الا وأنا غارق فى أشد حالات الكرب وانقباض الصدر ، وأكبر الظن أنه ينبغى عليك أن تشعر بذلك — أنت الهامة البارزة الوحيدة التى أتشبث بها وأعلق بها عندما يرد بقية العالم الى أسفل سافلين، وتهبط فضلة الخلق الى قرار سحيق تحت الموج! •• صدقنى — يا صاحبى — ما أبخس ما تلتمس من الصداقة الشاردة التائهة التى تمعج حول جيرتك ، والتى تبتغيها من الكفاف المخبول لوليام چيمس •

وداعا — احتفظ دائما بنفس الجبهة القوية المضادة للعدو المشترك — ولاتنس حليفك•

و • ج •

حاشية : ٤ يناير (مكتوبة على غلاف الرسالة) ...

« بمحض المصادفة العجيبة – بعد أن حررت لك هذه الرسالة فى الليلة الماضية – تسلمت رسالتك هذا الصـــباح . ولكى لا أضحى بطوابع البريد التى لصقتها فعلا على الغلاف (ولسام المقتصد) . فقد آثرت عدم فتحها ، ولكننى سأرد عليك سريعـــا . وفى غضون ذلك – بارك الله فى قلبك ولك الشكر وطوبى لك . Vide Shakespeare: Sonnet XXIX

بوسطن ١٩ ابريل سنة ١٨٦٨

« عزيزى بيل :

لقد ذابت أنياب الصقيع وتلاشت من الهواء ، ونهش الشتاء آخر نهشة له ، وآذن الربيع بالحلول . فالمياه تجرى تحت نافذتى فى زرقة داكنة أعمق مما كانت عليه قبلا ، والحقول تتأجج بالنيران الخضراء – ايماءة الى الفناء والزوال – لست أدرى كنهها – ان لم تكن الحنين الخفى المنبثق من أعماق الأرض ، والغابات والأيكات تبرعمت بالبراعم الصوفية، وشجر الدردار والغرغاج يكتسى ببرقع الزفاف بغلالة رقيقة شــــفافة من الأحمر الداكن ، والضفادع تنق مؤلفة فرقة ترتيل تجاوبها فرقة ترتيل من الطير فى تناوب دورى صباحا ومساء . والمحبون أزواجا أزواجا يتهادون فى بوسطن أيام الآحاد بعد الغروب ، وقــد التصق كل قرين بقرينه فى المسافات المظلمة بين مصابيح الاضاءة ، ظانين أنهم فى غفلة من العيون . والطرق حول كامبردج زاخرة بطلاب العلم وأساتذتهم ، وعلى رؤوسهم قبعات جديدة ، وبيدهم العصى ، يتواثب من حولهم طلاب المدارس الصغار بوجوههم الصــــافية المشرقة ، والشباب يفيض حيوية دافقـــة ،والشاب الذى يسعى وراء فتاته لاينفر من شىء نفوره من عيون الفضلاء التى تتبعه ! . لقد حل الربيع هنا يابيل ، وانى لأئوب اليك – ليس بحب أكثر مما كان فى أثناء الشتاء الطويل القارس – ولكن برغبة وتلهف على أن أقول لك كلمة مرة أخرى .

منذ كتبت اليك فى ديسمبر الماضى لم أشغل نفسى بشىء سوى القانون . أما الفلسفة فهى تغط فى سبات عمق ما لها من فواق – وأنا الآن راقد « منقوعا أبقبق – بددا – فى نقيع الشيطان المختل » كما يقول كارليل . ولعل كان ذلك حتما مقضيا – لأن المرء اذا اختار مهنة فانه لايتسنى له أبد الدهر أن يقنع ويرضى نفسه بالتقاط البرقوق – ثمرا جنيا بأناقة وعفه الهاوى العاوى ويترك الفتات للفقراء – وانما ينبغى عليه أن يتناول زاده وقوته برجولة وبسالة ، بقشره وحشفه ولبابه – بعجره وبجره – بحلوه ومره – ناعمه وخشنه ، بالنوى والبذور التى تنفش فى أمعائه وتسبب لها الازعاج . لابد دون الشهد من ابر النحل . لقد بلغت من الجبن حــدا لدرجة أننى كدت أكون سعيدا لعدم وجودك بين ظهرانينا خشية اشمئزازك من أن تجدنى منيعا حريزا ضد الأفكار والأحاسيس ذات الطابع الروحى وذات المغزى الروحانى الهام. ولكنى أعافه لمجرد أنه غريب عن دراساتى . ولكن – لاتظن مع ذلك – أننى أرتـــاب فى صبرك الطويل وفى حلمك وأناتك وطول اعتصامك بحبالها المديدة فى مكابدة كلها احتمال واطاقـــة . وانى أعلم أنك آخر من

يعرض عن شخص لمست فيه بثاقب نظرتك امكان الصداقة — وينأى بجانبك عنه لأن صلاته ونسكه وابتهالاته تمت في كعبة غير كعبتك ، وولت وجهها شطر قبلة غير قبلتك، وانت عالم بأنـــه يعبد نفس المعبود الذي تعبده • ولقد كنت موفقا في الشتاء فيما أعتقد بسبب النظام البسيط للعمل ، ولكونى أمضى قدما بايمان آخذ فى الازدياد باستمرار بان القانون وكذلك أى نسق متتابع من الحقائق فى هذه الحياة يمكن مناهزته ومعالجته لصالح العلم ، ويمكن دراسته • نعم بل ممارسته مع الاحتفاظ بالمثل العليا للمرء • ولا جناح على من القول بانني اكتسبت عافية وأصبحت ضليعا في ظل النظام والتدبير — وأكثر من ذلك فليس لى فيه مأرب • ان بلوغ نهاية مطاف ابحاث الجنس البشرى ، وختام آخر منجزاته، واكتشاف ماليس وراءه أو أبعد منه أو فوقه مطلب لمكتشف — الذى هو مطلب الشباب الحاذق اللوذعى — لس وقفا على فرد واحد ، وليس حصة يسهم فيها فرد واحد بالذات • ان مصالحة الانسان للحياة ووفاقه معهـا ، وادراكه بغشاوة أن هذا الحلم الذى يزعج سبات الكون ليس نتيجة للتخمة أو سوء الهضم ، وانما هو صحة وعافية ، والاحساس بالأنغام القدسية — وان كان المرء لايستطيع أن يسجلها كالعلامات فى النوتة الموسيقية ، كل هذه الأشياء فى رأيى وحسابى تزود الانسان بمقاصد ونقاط متلاشية تختفى عن الأنظار تعطى نوعا من الأبعاد المنظورة تخلعه على فوضى الأحداث • ولعلنى سعيد الحظ بما جعلت منه غالبا موضع تبكيت لنفسى وداعيا للومها •

هارى لا يقحم شيئا فى آماله العالية ، ولايعلم الناس بأموره — ولعل ذلك مرتبط على نحو ما بخلوه من روح الدعابة التى يصرح هو بها مجاهرة • أما أنا فعلى خلافه ثمـــة أوقات — من حين لآخر — عندما أجد فى زجاجة نبيذ أو عشاء طيب أو فتاة عادية بل تافهة ، ما يملأ لى فراغ ساعة أو بعض ساعة عن طيب خاطر • وكذلك الأمر بالقياس الى فترات الزمن الطويلة — كالعمل — حيث لا أحس بتعهدى الفلسفى حياله وبرباطى الفلسفى به الا فى أوله وآخره فقط ، وفى أثناء أداء عملى أنسى عين رئيس العمل الجبار ••• التى تراقب وتحصى وتعلم ماتخفى الصدور ••• ان ذلك خليق بأن ييسر الحياة وان كان على الأرجح لايلقى قبولا أو استصوابا •••

عزيزى بيل العتيد • لم أقل شيئا لك عن مرضك ، وربما لايوجد ثمة شىء أقوله يعتبر من شأنى وحدى على وجه التخصيص ، ولكن بالله عليك لا تفقد تلك الشجاعة التى واجهت بها « العدو المشترك » (الذى يتربص بك الدوائر) لو كان باستطاعتى أن أرد لك الروح المعنوية التى كثيرا ما أعطيتها لى ••• لبادرت من فورى لأردها لك أضعافا مضاعفة وعلى أية حال فلاتشك فى محبتى وايثارى •

بعدا للحزن — على الأقل فى هذه الرسالة• ثمة نار جديدة فى الأرض وفى السماء • أنا — الذى شعرت ابان الشتاء الطويل بالتجاعيد تعمق فى وجهى ، وبانحناء وطأطأة يحطان على ظهرى — أنا — الذى قلت لنفسى ان حياتى من الآن فصاعدا يجب ولابد أن تكرس فقط للتفكير الصارم ، وقلت للشباب : « وداعا الى غير رجعه » — أشعر بانتعاش الربيع الجبار كحركة الجنين فى الرحم •

لقد نبتت أشـــجار الشربين وبانت اقماعها • لقد رأيت اليوم فراشة — تحررت

لأن حالا من رق الشتاء ، ورأيت نحلة تطوف كادحة تسعى لرزقها راشفة من رحيق البراعم اللزجة ولما تتفتح بأكملها ٠

أيتها الأنسام الهامسة الحارة ،
أيتها التلال الطروب ،
ما أحلى أنغام ترتيلك الندية !!
لأن هذه الأرض التى كانت نائمة ، استيقظت ،
والهواء يهتز طربا بمزيج الصوت البهيج ،
أيها العصفور — غن — وقبل بقدميك
شواشي الذرى العليا لأشجار الصنوبر ،
لا تتوقف عن جلبتك وضوضائك القوية أيها الهزاز ،
أيتها السنجاب اشحذى مقراضك ،
وطربه طرا على مسن الشجر ،
زيقى وصرفى أيتها الشحارير المفردة ،
ونقى يا ضفادع ،
وقاقى أيتها الغربان المحلقة فى كبد السماء !!

لقد شاهدت ذوبان الثلوج فى أنهار الشمال ، وهدير الأمواه فى اندفاعها صوب البحر ٠ ثمة رجفة حادة رشيقة لها صرير — أرق من أن تسمعه الأذن ينسج جيئة وذهابا — نغما متقطعا — وفى أثناء الفواصل الموسيقية التى تقسم فترات الهدوء وتشطرها كالسكين ، هذه الرجفة تنفذ الى قلبى بنشوة وهيام واستغراق ليس الى وصفها من سبيل ٠

ولكن ما هى ؟ ما كنهها ؟

هل سمعتها أبدا ؟

هل هو صوت باطنى يجيب الأصوات الأخرى ، ويتجاوب معها ، ولكنه مختلف عنها — وهو شبيه باللهب الصداح لايبطل ولا ينهى ، ذلك الذى جعله ملفوظا بصوت مسموع ؟

عزيزى بيل — لمن أفضى بهذا الهذيان الا لك ؟ وداعا — أنت أعلم بعواطفى — فلا داعى لتكرارها ٠

صديقك المحب
ن٠و٠ هولمز »

« ٢٥ أبريل ٠ نزل الثلج ثانية ٠ ما بيدى حيلة ٠ فانجدنى » ٠

درسدن ١٥ مايو سنة ١٨٦٨

« عزيزى وندل :

ان رسالتك — غير المتوقعة — ومضت توا فى وجودى كما يومض الشهاب فى مجال نجم سيار ٠ وهانذا أبادر من فورى الى الجواب ،. ومازالت الحرارة المتولدة من الوميض فى أقصى درجاتها ٠ لقد تعودت أن أفكر فيك على أنك حيوان غير كاتب ، بحيث ان مثل ذلك الحادث يربك عقلى ويفصله عن زاوية « مداره » التى يتأمل الكون منها ٠

لقد أوشكت — فى المدة الأخيرة — أن أكتب لك مرة بعد مرة ، ولكنى توقفت قبل أن انزلق من حافة الشفير . فمن اليسير أن تكتب للناس الذين تكتب لهم على نحو موصول ، لأن الرسالة اللاحقة التى تكتبها تكمل الرسائل التى سبقتها . أما أن تطلق رسالة كالقذيفة علانية ، وتصوبها نحو رجل مرة فى كل ستة شهور ، فهذا أمر له مذاق تعسفى ونكهة جائرة ! . ثمة أمور كثيرة تكاد تتساوى فى الأهمية والفحوى يتعين عليك أن تفضى بها اليه بحيث لا داعى لديك لأن تبدأ بأى أمر معين منها وتترك الباقى . وبناء على ذلك فانك لا تبدأ مطلقا . ومع ذلك فالسماء تثيبك وتجزيك لقاء هذا الدفق الملهم ، وتساعدك على غيره وقتا آخر . ذلك عرق ينطلق فى دورة الطاقة البشرية برمتها : شيلى ، كانت ، جوته ، والت هويتمان — كلهم يذوبون ويمتزجون فى وحدة شخصيتك الملتهبة . آه يا صاحبى — لو أننى فقط كنت من ذلك العرق والمزاج لكان جوابى على نفس النغمة العالية ، ولكننى اليوم أحبوا فى خسيس النثر . أما كونك تمتنق بحزم وعزم وتقبض بكلاباتك على أحشاء القانون نفسها ، وتثبتها بأسياخ من الصلب فى جنبات روحك — فهذا عظيم . وكون فاسد الأبخرة التى تصعد آجامها من ثم لا تحجب عنك الى الأبد القبة الزرقاء التى رفعت بغير عمد — فهذا أعظم وأحسن . اننى على يقين راسخ بأن مضيك قدما فى أى اتجاه — أيا كان — فان فى وسعك أن تخرج من ظلمات الغابة التى ينمو فيها العقل الناشيء ، فالرأى عندى هو أن السبيل يتألف من نوع من الاختزال الالزامى القوى للعناصر الأخرى للفوضى الى تناغم أوتناسق وفق شروط العنصر الذى أقام المرء عليه ركيزته بالذات . أعتقد أنه ربما كان بوسعى أن أخوض تلك المعركة فى مجال الطب العملى وأخرج منها ظافرا . ان صورتك عن المثل العليا على اعتبار أنها « نقاط متلاشية تعطى نوعا من الأبعاد المنظورة تخلعه على فوضى الأحداث » دغدغت ذلك العضو فى داخلى الذى وظيفته مداعبة ما يفوق الوصف ، وملاعبة ما يعجز عن النطق به . سوف لا أكف عن تذكرها ، واذا قدر لى أن أبقى فى المانيا فترة طويلة تتيح لى التعرف الى فيلسوف آرى ، فسوف أقدمها على حسابى وتحت مسئوليتى... أؤكد لك .

وصلتنى رسالتك الأخيرة التى بعثت بها فى الشتاء الماضى وأقررت لك بتسلمها على ظهر رسالة بعثت بها اليك من فورى . ان نقدك لكانت يبدو سليما تماما بالنسبة لى . وقد كان فى مرجوى أن اقطع فيه شوطا كبيرا ، ولكن حالت دون ذلك تدحلات لم تكن فى الحسبان . لذلك لم يتيسر لى أن أقرأ له سوى كتاب Prolegomena وكتيب الانثروبولوجيا Anthropology (وهو كتيب رائع لاذع) وكذلك عرض كازين له (وعرضه لنفسه فى نفس الوقت — عليه اللعنة هو وأمثاله — انه مجرد سياسى) . وانى لآمل أن أبدأ عاجلا قراءة كتابك « النقد » Kritik الذى آنس من نفسى الآن استعدادا كاملا لهضمه . ولذلك فاولى بى أن أحتفظ بملاحظاتى الفجة التى كونتها عن كانت حتى أنتهى من هذه القراءة . أعتقد أن خمس ساعات طيبة من الحديث معك أجدى على وأنفع لى من أية خبرة أخرى أستطيع تصورها . اننى لم أعقد أية صلة — خارج نطاق الكتب — مع أى روح ذات رشد ونهى منذ غادرت الوطن فيما عدا جريم — بيد أننى لم أفلح — بسبب الحاضر اللغوى القائم بيننا — ان اعقد أواصر الصلة العقلية معه وما يصاحبها من اتصال وبلاغ . ثم ان الصلة الشخصية ، يا وندل ، تربض قوة عميقة مظلمة . اننى اقول « النهى » ، ولكنى لا أعرف ما هو « النهى » عينا . لقد بعد عهدى

بها – تدريجيا ، وتوارت عن ناظرى فى القوم شيئا فشيئا ، لدرجة أننى لم أتبين افتقارهم الى شىء معين بالذات ، حتى قدر لى أول أمس أن أتعرف الى سيدة شابة وفدت من نيويورك واستقرت معنا بالمنزل ، ثم لاحظت فجأة أن ثمة عنصرا طال نسيانه موجودا ومائلا (أعنى فى طريقتها فى تقبل الحياة) . لقد كان ذلك اكتشافا اريحيا ، ثم ان عنصر المباغتة والمفاجأة وشبه التحديد فيها يكاد يهشم فلسفة المرء التجريبية . ولكن من المحتمل أنه أيضا – قد يتحلل الى عناصر أخرى أكثر سوقية وعامية.

الواقع ، يا فتاى العزيز ، اننى أزداد شعورا ، بأنك حليفى ضد ما نسميه « العدو المشترك » أكثر من أى شخص آخر أعرفه . وحيث اننى أكتب تقريرا جديا للحقائق ، وليس مجرد تدفق لعواطف الصداقة ، فلا جناح على من القول بأن توم وارد يبدو لى صاحب بديهة وبصيرة فى ادراك طول وعرض العدو (وهو البعد الذى يخفق معظم الناس فى تحديده) ، بل لعله أكثر احساسا به بكل حمية وشهوة من أى منا – ولكن توم المسكين مصاب بآفة العجز عن التفكير المنظم ، بحيث ان التعامل معه ومواصلته لا يمكن أن يؤتيا أى أكل . أما هارى والوالد العزيز فانى أشاركهما وجدانيا بشكل صاف واف « شخصيا » ، ولكن مدار هارى ومدارى يتماسان ثم يفترقان ، كل فى فلكه يسبح. أما مدار أبى ومدارى فلا يتماسان مطلقا ، الا فى الاحساس العام بالخير والحب للانسانية الذى ينغمس فيه كلانا . ليس لدى أية فكرة جازمة بأن وجهة النظر بالذات التى تراقب منها العدو الشيطانى لها مزية فى حد ذاتها ، ترجحها على غيرها من وجهات نظر الكثرة الكاثرة من الناس . اننا نسمى مثل هذا الرأى لدى غيرنا من الناس « غرورا » ولكن لمجرد أننا شريكان فى هذا الرأى فانى أحمل لك فى نفسى تبجيلا من نوع خاص ، واعتز بمواصلتك وتبادل الراى معك . انك تتميز بطريقة من التفكير أكثر منطقية وتنسيقا منى (أنا وسط بينك وبين ت . وارد) ، وحيثما جمعتنا الظروف فقد كنت دائما واعيا – على نحو ما – برد فعل ضد تفوق سبيلك وطريقتك على سبيلى وطريقى الأقل صقلا وأكثر خشونة – وهو رد فعل صادر عن شىء من الشيطنة الماكرة من الأنانية والحسد التى لا أستطيع تقصى أسبابها ولا اقتفاء أثرها فى نفسى ، ولكنها تحملنى حملا على أن أضع نفسى – كرها – فى موضع الدفاع عن النفس ، كما لو كنت تهدد باغتصاب أملاكى وتلحق الضرر بحق ملكيتى . ولست أدرى اذا ما كنت قد لاحظت شيئا من هذا القبيل ! انه لأمر عسير أن يحدد المرء دهاء وخبث ومراوغة هذا الشىء . على أن بعض هذا الشىء قد يكون راجعا الى الاحساس المتطرف لديك بالوعى « المركز فى الكون » ، ولكن معظمه فى رأيى كان مجرد ذوق وأدب ولياقة اجتماعية . واحسب أنه اذا قدر لنا أن نلتقى الآن ، فلن أحفل به وسأكون أقل كدرا به . لقد نما عندى ايمان بأن الصداقة (بما فى ذلك أرفع وأسمى نصف لذلك الذى يتحد بين الجنسين تحت اسم مفرد هو الحب) هى ذروة المتع فى هذه الحياة الدنيا ، وأن مرتبة الانسان فى سلم الوجود تحددها تماما مقدرته على الصداقة .

أما وقد قر كل ذلك فى أذهاننا ، فسأحاول فى سطور قليلة أن أفسر لك حالتى الراهنة . اذا سألت نفسى ذلك السؤال الذى ينبغى على كل الناس الذين يدعون معرفتهم بأنفسهم أن يكونوا قادرين على جوابه – ولكن فئة قليلة منهم فقط هم الذين يستطيعون ذلك على الفور – وقلت : « أى سبب تستطيع أن تعطيه لتسويغ استمرارك

في الحياة ؟ » على أي أساس تقيم حجتك في تبرير عدم قصف حبال أيامك الآن — حالا ومباشرة ؟ ١٨ مايو — وندل يا حشاشة كبدي .

عند النقطة الهامة الخطيرة التي ختمت بها الصفحة الأخيرة في هـــذه الرسالة ، فوجئت بالخادمة المليئة بالصحة والنضارة تنبهني لموعد تناول الشاي ، ولأسباب عديدة لم أرجع ثانية حتى هذه اللحظة ، بينا انا جالس أطل من النافذة المفتوحة في انتظار طعام فطوري أنظر الى صف ال Droschkes المرسومة على جانب ال Dohna Platz ، وأشاهد سائقي العربات بوجوههم الحمراء ، ومعنقاتهم الحمراء ، وحللهم الزرقاء ، وقبعاتهم ذوات الصفال اللامع ، جالسين فوق متون المركبات في أوضاع مختلفة من الكسل والبلادة والاسترخاء — وواحد منهم يحدجني بنظرة يصعدها نحوى ، وكأنه يتساءل في دهشة وتعجب ما عسى أن يكون هذا الشيطان القابع وراء النافذة — عندما أرى السماء العظيمة الجليلة تكسوها سحابة بيضاء هائلة ، وهي تجحظ من خلف البيوت صاعدة الى عنان السماء ، وعليها غشاء قاسي اللون يكسوها كالشريط الرسمي طولا بعرض فوق السحاب والسماء ، مما ينبيء بيوم مطير — عندما أرى البيوت المواجهة وقد برزت شرفاتها ونوافذها الملأى بالزهور والزرع الأخضر — ولكن مهلا .. انظر معي الى أعلى شرفة من بينها جميعا — فيها غادة هيفاء تلبس سترة سوداء وجونيلة حمراء — شقراء صافية مليحة تحت المظلة المخططة بمختلف الألوان ، مستندة بمرفقها على الحاجز ، وواضعة ذقنها الذي يشبه ثمرة الخوخ على أطراف أصابعها الوردية .

فيمن تفكرين أيتها الغادة الواقفة في الأعالي ؟ مرحى . مرحى . ههنا تخفق نبضات ذلك القلب الانساني الذي يهفو اليه كيانك على نحو مبهم ، في سكر ساعة الصباح ، وفي ارتعاش مرتجف ، ولكن في عدم ترو مولع بالأذية ، يحط على موقع آخر فوق أبراج المنازل البعيـــدة التي يمتد اليها بصرك . ومن نافذة أخرى تتدلى هيئة — ترى من الخلف ومن مركز الجاذبية الى أسفل — خادمة جريئة شجاعة تغسل النافذة . انها تلبس سترة زرقاء بذيل ، وكالعنكبوت الذي يتشبث بخيطه باعتباره الدعامة الوحيدة التي يستند اليها ، أو كمن يجمع الثمرات البحرية فوق أنف جبل شاهق داخل في البحر ، فانها لا تبالي بخطر السقوط من عل . وعلى عمود المصـــباح يتكيء المأمور Dientsman مقرفصا ساقيه ، وعلى رأسه قبعة عليها شارة نحاسية ، وهو يدخن سيجار صباحه الرخيص . وعلى مرمى النظر بعيدا عن الساحة تكدح عربة الفلاحين مقبلة من الريف تجرها خيول مطوقة برقابيات سميكة ، والرصيف الهامد الخامد يصلصل تحت وقع الخطى المتثاقلة للصبايا ذوات الظهور السامقة ، حاملات الاقساط والسلال ، ويرن تحت أقدام الرجال ذوى الوجوه البيضاء والرقاب القصيرة . حقا لقد بدأ النهار ، وعندما أرى كل ذلك وأفكر أنك في نفس اللحظة ما زلت تغط في سبات عميق في فراشك ، تدور في دوامة الليل البهيم مع الصخور والأشجار والآثار والأضرحة كما لو كنت جمادا عديم الحياة — عندما أفكر في كل ذلك — اشـــعر — كيف ؟ انني نفسي أقر بعجزي في تحليل كيف هذا الشعور.

والآن — بعد هذه المقاطعة — التي آمل أن تغفرها باعتبار بواعث الصـــبغة المحلية وحالتي الراهنة بين اليقظة والنوم ، أعود لاستئناف مُوضوعنا السابق . ولكن مهلا لقد جيء بطعام الفطور — فمعذرة . ان الناس هنا في ألمانيا يتناولون فطورا خفيفا جدا —

قوامه شراب الشيكولاته والخبز المقدد ــ ومن ثم فلن تأخذ منى الا قليلا . هأنذا مرة ثانية.
لقد فرغت من الفطور وجهازى مفعم باحساس من التوقد الأنيس الذى لم أعهده من قبل . بعد أن أعدت قراءة ما كتبته لك أول أمس يخامرنى احساس يجنح بى الى عدم ارساله لك ، اذ ما بيدى حيلة فى الظن بأنه لا يمثل ــ بصدق تام ــ واقع الحال ، بشأن القضية المعروضة . ومع ذلك فاننى اذا لم أكتب لك الآن ، فقد تتأجل الكتابة الى أمد بعيد ، ولذلك فسأسمح لنفسى بأن أبعث اليك بما كتبت ، لا لشىء الا من أجل الروح العامة التى تنطوى عليها وتنعشها ، لا ايثارا للفروض المعينة على وجه التحديد التى تتضمنها . على أن النقطة التى تبدو فى نظرى ــ بلا مسوغ معقول ــ هى افتراضى وجود أى معركة خاصة أخوضها ضد قوى الظلام ، وافتراضى كونك حليفى فيها ، على اعتبار ان ذلك هو الدعامة التى أقيم عليها احترامى وتبجيلى لك . ان الحقيقة واضحة أمامى وضوحا مؤلما ، وهى أننى لا أحفل الا قليلا بخوض أية معركة معينة أو حركة للتقدم ، وان ركيزة صداقتى لك هى ضرب من اللذة الحسية التى استطعم مذاقها ونكهتها ، والتى مردها الى فطنتك وحكمتك وملاحتك ، ولكونى أتمتع بما تجلبه لى هذه السجايا ــ اكثر من أى شىء آخر . وقد يكون ذلك انفعالا عاطلا سلبيا . وما أكثر ما أود أن أبذل فى سبيل عاطفة ايجابية أو هيام بناء من أى نوع وعلى أى نحو . ولكن بحسب واقع أمرى ، فاننى الى حد كبير فى قبضة الأحداث والأقدار . ان كدك الميتافيزيقى ، والمتعة الفنية التى تحصلها من ممارسة هذه الحرفة ، تعطيك ميزة فائقة لا تقاس . فى العام المنصرم اذا كنت قد تعلمت شيئا ما فقد تعلمت على الأقل الى حد كبير أننى فيما مضى لم اكن أرتاب فى حدود عقلى ، وهى حـــدود لا تبهج ولا تسر ، ولذلك لن ازعجك بذكر التفاصيل ــ بيد أن كل تلك التفاصيل تتآمر لتمد أفكارى بخواء غامض أينما يوجد الشعور ، ثم تطرد الشعور حيثما تصبح الفكرة صالحة لأى شىء . يا للرزاية ! . ان جوابى عن السؤال الذى طرحته فى آخر الصفحة الثانية منهذه الرسالة سيكون غامضا ــ حقا . انه سيتبدل بين زهم الرغبة العنيدة فى توكيد ذاتى فى أوقات معينة ، وبين الأمل المقوض فى انجاز حزة ــ مهما كانت طفيفة فى الركمة التى تشكلها الانسانية ، وفى رقاب الآخرين . وطبعا سأتوسل فى طلب مهلة مؤقتة من المجز الذى لا مناص منه لأسباب مختلفة فى أوقات مختلفة . واذا كان هنـــاك سبب معين بالذات وحاد الانفعال والولع للرغبة فى العيش أربع ساعات أطول من عمرى المقسوم ــ يهل على دائما ، فأحسب أننى سأعتقد فى نفسى أننى رجل جدير بالاعتبار جدا ، وسأكون راضيا وقانعا تماما . ولكن فى فترات غياب مثل ذلك السبب ، ففى وسعى أن أبتغى تلمس أسس عامة أقيم عليها حجتى ، وتكون أكثر تحديدا وأوضح تفسيرا مما هى عليه الآن ... (٨)

انني أجنح بقوة الى وجهة نظر تجريبية فى الحياة . ولست أدرى الى أى مــدى ستحملنى ولا أى عوائق جامدة ستضعها فى طريق مستقبلى لتسد بها منافذه . على أننى أرى الآن فعلا سحابة خلقية كائنة من المثالية المطلقة ــ رابضة فى انتظارى بعيدا على الأفق ــ وليس بى هوى للشغب والعراك . وسأستمر فى تطبيق المبادىء التجريبية على خبراتى ، وأنا ماض فى سبيلى ، وأتبين مدى مطابقتها وسدادها . على أن شيئا واحدا

---

(٨) The Paragraph omitted here will be found below, 107.

يقلقني . اذا كانت غاية كل شيء هى أننا يتحتم علينا أن نعتبر الحواس على اعتبار أنها معطيات فحسب ، أو على أنها مربوبة بالاختيار الطبيعى لنا ، ونفسر هذا النمو الفائق السخى الدقيق للأفكار الأخلاقية والفنية والدينية والاجتماعية ، على أنها مجرد قناع أو نسيج شفاف غزل فى ساعات التوفيق بيد فريق من الأفراد الخلاقين ، واستعمله بقية الناس تلبية لدواعى مصلحة حواسهم — فالى متى يكون فى صالحنا ألا « نبوح » للجميع بكل ما نعرف ونعلمهم بالأمر ونجعلهم يصدقونه ؟ الى متى نترك « الناس » منغمسين فى لاهوتهم وغيره من الأوهام والتخيلات ، ما دامت تلك الأوهام تبدو لنا أكثر نفعا وخيرا واريحية من العكس ؟ الى متى يتعين علينا أن نلبس تلك المسوخ المتعبة المضايقة وما يصاحبها من « سماء الكبت » التى كانت مثار شكاة المستر ميل ؟ هل يمكن أن تثق بأى أناس كى يأخذوا من وقت لآخر — تلك الحصة المقننة فحسب من أى مبدأ أو مذهب بحيث تتناسب مع النفع ؟ انى لأعلم أن ألمع جوهرة فى تاج المذهب النفعى هى أن كل فكرة بفقسها العقل البشرى تلقى عدلا وانصافا وسماحة على يديه . ولكنى أعلم أنه ليس فى وسع أى عقل أن يقتفى الأثر البعيد لتشعب فكرة ما فى عقول جمهور الناس ، وأن أية فكرة تجد نفسها فى كفة الخسران اذا لم تستطع أن تجند فى صفها الظمأ للغزو وحب الحتمية الاطلاقية ، وهما العنصران اللذان ساعدا على تأسيس الأديان ، واللذان لا يمكنهما أن يفتحا سبيلا ثابتا جازما تنساب فيه العواطف الانسانية ومشاعر المحبة والود والحنو . وانه لأمر يبدو بعيد الاحتمال جدا ان ينبثق فى أيامنا هذه أى عبقرى دينى جديد يفتح طريقا جديدا عريضا أمام الناس الذين كبروا على المعتقدات القديمة وفاق نموهم دواعيها . والآن — أفلا يتحتم علينا (اذا فرضنا اننا أصبحنا من أشد المرجفين بالمذهب الحسى يبوسة وصلابة) أن نبدأ فى سحق القديم بالباع والذراع ، ونحاول اذا استطعنا الى ذلك سبيلا — ان نثير قليلا من التحمس المرتبط بمذاهبنا نحن ؟ اذا كان الله ميتا أو على الأقل غير متعلق بالأمر فلا يؤخذ به ، فشرحه سواء بسواء كل شيء يختص « بما وراء وما فوق » (عالم الغيب) اذا كانت السعادة هى خسرنا ، أفلا ينبغى لنا أن نحاول تحريك واثارة ارادة حماسية عاطفية ورغبة جريئة قوية لبلوغ تلك السعادة بين جمهرة الناس جميعا ؟ أفلا يمكننا ان نسلك فى بلوغ غاياتنا سبيلا يجدف بعيدا عن الأخلاقيات القديمة واللاهوتيات العتيقة ، ونخلق شعاعا من لدنا يؤثلنا ويخلع علينا بعض الاطلاقية المتشامخة التى قلدت القديم كل هذا التبجيل والتقديس بأن نبشر بمذهب أن الانسان هو نفسه صانع قدره ، وهو ذاته « عنايته الالهية » وأن كل فرد هو اله حقيقى لجنسه ، يعظم أو يصغر بنسبة مواهبه ووفقا للسبيل الذى ينتهجه فى استعمالها ؟

ان عاطفة محبة خير البشر قد رسخت الآن رسوخا أكيدا ، ويبدو أن ديمومتها أصبحت مؤمنة بضمان طبيعتها الأريحية ، بحيث يكون من الوقاحة أن يقال انها لا يمكن أن تحتل مكانها كحافز أساسى للسلوك الانسانى . اننى لا أشعر بأن التمان (حتى بصرف النظر عن شكوكى بالنسبة للتتمة النظرية الجازمة للمذهب الحسى) بأن المجتمع قد بلغ بعد من النضج حدا يمكنه من هضمها كفلسفة ودين عامين معا . ولكن — كما قلت من قبل — ليس فى وسع أى امرىء أن يقيس نتائج فكرة أو يوزع بالضبط والقسطاس أنصبة اسهام الأفكار المختلفة فى نظامنا الاجتماعى الراهن . ومن المؤكد أن هناك شيئا

يثبط العزيمة ويخيب الآمال فى موقف الفيلسوف الباطنى . ان الفطنة الحية الضمير ، التى قد تبغى تعليم البشرية بالتدريج ، بدلا من ترك الحبل على الغارب ، وتسييبها لتعلم نفسها ، قد تكون عاتية وهيابة فى آن . هل تستوعب ؟ اننى أطرح هذه الأفكار ـ كشكوك تساورنى فقط ، وأود أن أعرف ما اذا كانت مثل تلك الأفكار قد اعتملت فى نفسك وأقلقتك بشأن السياسة . ان تنفس منخرى هو الشك ، وهذا ما يجعلنى هكذا ، عبدا للمصادفة كالريشة فى مهب الريح ..

لقد عكفت أخيرا فى تبليتز على قراءة شيلر وجوته . ان امتلاك شعب من الشعوب لحياة مثل ديدن الرجلين ومؤلفاتهما يعطيــه ميزة ترجحه على الأمم المجاورة . لقــد وفقت أخيرا فى تكوين صورة واضحة شخصية عن جوته ، الأمر الذى احدث فى نفسى تفريجا كبيرا ـ وبالله من شخصية جبارة .. لقد لمست وترا حساسا من قلبى بتعبيرك عن مشاركتك العاطفية لى فى آلام ظهرى الناخســة بلسع النار . ساحاول (بالهز والرج) ان أحتفظ بالشفة العليا فى حالة صلابة حتى اذا أذعن العمود الفقرى وفقد صلابته . لقد سمعت بقصة رجل من الكادحين فى أحد مراكز الاستيطان الغربية من أحــد المسافرين القادمين بالسفينة الى هنــا ـ ولقــد ملأتنى تلك القصة بشــعور غامر بالارتياح ما زالت تزخر به نفسى منذئذ ، ثم انهــا ضربت مثلا طيبا يحتذى . وفحوى القصــة أن هذا المســافر توقف عند حانوت بدال ليشترى زجاجة من الشراب ، ولم يكد يقع بصره على صاحب الحانوت حتى أرعبه منظره الكئيب المبتلى ، فسأله فى دهشة عما دهاه فقال : « هل ترى ذلك الرجل القابع فى مؤخرة الحانوت ؟ انه العمدة ، ولقد استولى على كل بضاعتى » ثم مضى يسرد بقية نكباته التى منى بها ، مختتما اياها بقصة زوجته التى هربت فى اليوم الســابق مع رجل آخر ! . ولكنه سرعان ما مسح دموعه ، وبابتسامة ندية عذبة ، وكأنه يسترجع ذكرى طيبة قال : « ومع ذلك فلست أدرى اذا كان لى أى حق فى أن أشكو ! لقد وفقت توفيقا طيبا منذ أن حللت بهذه المستعمرة » .

« أخيتى الحبيبة ـ

وهكذا يا صاحبى .. وانى لاتعشم انك لم تبدأ ترفع كفيك بالشكر والحمد للسماء لاننى لا أكتب لك كثيرا ، حيث أننى اطيل وأطنب بهذا الشكل . لقد أردت أن أزودك بتقرير عن حالتى العقلية ، وأحسب أنى فعلت (تحت الزيادة والنقصان) ، وأنا على يقين بأنك ستكرم وفادة الحب والثقة والاعزاز التى أملتها . وانى لأوثر ألا يرى والدى هذه الرسالة ، والأمر متروك لتقديرك بالنســبة لهارى ،ان شئت اطلعته عليهــا وان شئت طويتها عنــه . سأترك مقامى هنا بعد شهر تقريبا ميمما شطر هيدلبرج . تستطيع الحصول على عنوانى من هارى كلما أردت أن تكتب لى . وبالله عليك اكتب لى ثانية دون مطل . لقــد تسلمت رسالة فى تبليتز من المس فانى ديكسويل ، ولقد كانت هبة عظيمة بمثابة لقية على غير انتظار . ارجوك أن تبلغ سلامى لجميع أفراد أسرتك . ولك اصدق الود والاخلاص من صديقك ..

و م . جيمس »

وكما تومىء هذه الرسالة فان محبة چيمس لهولمز لم يطرأ عليها أى كدر • صحيح أنه كان يشعر بشيء من الحصر فى حضوره ، وهو احساس ربما كان مرده فى الأصل الى اختلاف الاثنين فى « طول الموجة » الانفعالية• كان چيمس يترك لنفسه العنان ثم لا يلبث أن ينكص عندما يشعر أن « اللفاف » لم تكتمل دورته الكهربية وكان چيمس فوارا وأكثر زخما ورعونة ، وكان عجولا ساهيا عن نفسه فى حين أن هولمز كان ثابت العزم « وفى حاله » ، كما كان أكثر تهكما واستهزاء • ولقد أفضت هذه الصفة الأخيرة فى هولمز — الى أن يعزو چيمس اليه نوعا من القساوة والأثرة والوصولية • ومما يروى عن هولمز أنه وصف صديقا آخر بقوله: « أخشى أن يكون برانديز مصابا بروح صليبية • انه يتحدث على غرار الفدائيين من أولئك الذين يقولون : الى العلا — الى الأمام »(٩) . وكذلك فعل چيمس ، وانه ما استساغ أبدا قناع النقف وذلاقة اللسان ، أو السخرية الجافة واللمز ، التى يغلف بها خدمته هو نفسه ومعروفه ونفعه التى يسديها للجنس البشرى •

وبعد عودة چيمس من أوروبا استمر هولمز فى صلته الوثيقة بآل چيمس . وفى هذا الصدد كتبت الأم الوالدة الكبيرة الى ابنها هنرى(١٠) تقول : « هولمز يطرق بابنا كالمعتاد فى تمام الساعة الثامنة والنصف مساء كل يوم سبت وكلنا مازلنا كعهدك بنا — نسكن الى عاداتنا القديمة » .

بيد أن چيمس كان دائم الحيرة فى أمره — ووجده «يتكون من شخصين ونصف — على الأقل من مزيج مختلف من الناس — مطوى فى لفة واحدة » (١١) . وحقا أنه كان هناك شيء يمس تشيع هولمز ذاته ، وتشبثه بالمهمة التى كانت موضع عجب بل ترويع بقية أعضاء أسرة چيمس ، مثلما كانت بالنسبة لچيمس أيضا ! هذه الحقيقة تتجلى فى الفقرة التالية المقتبسة من رسالة بعثت الى هنرى چيمس من قبل أمه فى سنة ١٨٧٣ :

تناول معنا وندل هولمز العشاء منذ بضعة ايام . ان حياته كلها جسما وروحا مستغرقة برمتها فى مؤلفه الاخير عن كانت Kent . انه يحمل معه — أينما حل —

(٩) S. Bent, Justice Oliver Wendell Holmes, Garden City Publishing Co., 1932, 281.

(١٠) September 21, 1869.

(١١) Cf. Below, 113.

مخطوطة فى حقيبته الخضراء ، ولا يغفل عن النظر اليها لحظة واحدة . لقــد توجه الى غرفة وبلى ليغسل يديه ، ولكنه عاد من فوره ليبحث عن حقيبته ، وعندما توجهنا الى قاعة الطعام قال له ويلى : « افلا تريد أن تصحب حقيبتك معك ؟ » فأجاب : « نعم اننى أفعل ذلك دائما فى بيتى » . ان وجهه الشاحب وقبضته الخائفة على مؤلفــه تخلعان عليه منظرا كئيبا يجعله كمن أصيب بمس من الجنون »(١٢) .

ونمة تعليق آخر على نفس المنوال يظهر فى رسالة كتبها وليام لأخيه هنرى فى ٥ يوليو سنة ١٨٧٦ :

« قضيت ثلاثة أيام فى غاية الانشراح والسرور مع آل هولمز ماتابويزيت . ولقد شغفت بها حبا ، ولقد كان أوضح مثل ـ وبطريقة مضحكة جدا لما حدث فى رواية ميتشيليت « زواج الرجل الفلاح » . ولقد أخبرته انه يبدو تماما مثل شخصيات الفلاحين فى قصص ميليت ، وهو منحن فوق مزروعاته بقميصـــه الصوفى وسراويله ؛ انه بطارية قوية ، صيغت على هيئـة فارة النجار لكى تقعر مقورة فى عرق الحياة بدافع الخير الذاتى ! ولقد آوت فضـــائله ونقائصه الى ظل ظليل فى كنف عزلة الشاطىء ـ التى تحمــل كل شىء ســـواء أكان صـخرا أم عشبا ينتصب امامك قائما بارزا ســـاطعا ـ وهذه الظاهرة تنسحب عليه وعلى زوجته ، لأنهما يبدوان أيضـــا مثل بقية الأشياء وقـــد وضعا تحت عدسة مكبرة أمام الناظر اليهما .

وبمرور الوقت فترت العلاقة بين الصديقين ، ورثت حبال الرباط الفلسفى الذى ألف بين الرجلين . فما وافت باكورة سنة ١٨٦٨ حتى شعر چيمس بأن تباعد تخصصهما قد قلل ـ بشكل جدى ـ من اهتماماتهما المشتركة ومن ثم فقد ذكر لصديقه وارد أن « سر **حاصل الجمع** مصطبة جوفاء اذا كانت هى الوحيدة التى تلقى امرؤا عليها » (١٣) .

وحتى فى نطاق هذا المجال المشترك من الاهتمام بين الرجلين كان هناك خلاف عميق بعيد الغور ـ وكان لابد أن يزداد عمقا واتساعا بمضى السنين . لقد كان السبب الرئيسى فى انجذاب چيمس وهولمز أحدهما الى الآخر هو نزعتهما المشتركة الى النقض والانكار والتحدى ، وكذلك تآلفهما فى المشاكل المشتركة الخاصة بفترة الشباب وتحرره وانطلاقه من القيود والسدود . وعندما شفى چيمس من وهنه وضعفه فانه شفى من شكوكه .

(١٢) February 28, 1873. Holme's edition of Kent's Commentaries on American Law was published a few months later.

(١٣) In a letter dated December 16, 1868.

فأما المذهب الحسى والمذهب النفعى – كما يبدو ذلك بكل وضوح فى كل تصريحاته الوقتية عنهما – فلم يكونا أبدا أكثر من التماس مشورة فى ساعة قنوط . فلما أصبح أكثر ايجابية ونضجا وأعمق تأملا ومع تعدد معتقداته وتكاثرها – فانه أبعد فى السفر أشواطا ومراحل من ملتقى الطرق أو مفترقها حيث تقابل هو وهولمز ، على أن الأخير لم يفقد شغفه الفلسفى أبدا . وعندما أصبح چيمس مؤلف كتب ، كان هولمز يقرؤها ويرسل اليه بتعليقاته . بيد أنه لم يستطع أن يوافقه على أى نقطة تتعلق بالمذهب – الا نادرا . لقد كان الرجلان منفصلين خلقيا وميتافيزيقيا(١٤). بيد أن أعمق رباط وأدوم وثاق بينهما كان تلك « النكهة الحسية » حيال ما فى كل منهما من « فطنة وحكمة » التى سبق أن أشار اليها چيمس فى اعترافاته أيام الشباب الخالية .

(١٤) Cf. below, 216, 300.

١١

القراءة والنقد

طوال كل تلك الفترة ، وبخاصة فى أثناء اعتزاله لواذا بتبليتز ، وسع چيمس دائرة معرفته بالأدب ، ودرب نفسه على ممارسة فن النقد الأدبى ٠ ولقد كانت هناك بواعث أخلاقية وميتافيزيقية وترويحية حددت ذوق چيمس ، وأوجدت فيه ميلا سابقا ضد أى شىء يشدد على الصياغة وحسن السبك على حساب الموضوع ، ويضع مركز الثقل على السطح على حساب العمق ، أو الشر على حساب الخير . فالأدب ينبغى أن يكون صادقا وصحيحا وهاما وسارا . وفى نفس الوقت الذى بدأ چيمس يعى بوضوح ما فيه من تحيز ومحاباة أدبية ، واتته نوبة مفاجئة من الطلاقة والسلاسة، وتدفق بيانه فى رسالات مطولة الى درجة لا تصدق ٠ على أن ذلك لم يكن مجرد نتيجة للعزلة ، فليس ثمة ريب فى أنه كان يتمتع بلـــذة اختمار الأفكار التى تعتمل فى فكره ويطيب له أن يعبر عنها ٠ وكان أخوه هو الوعاء المفضل لتلقى هذه الأفكار وكثيرا ما كان موضوعها :

تبليتز ١٢ فبراير سنة ١٨٦٨

« عزيزى هارى ،

لقد سررت جدا منذ أيام بتلقى٠٠٠بضعة اعداد قديمة من مجلة Atlantic Monthlies (الأطلنطى الشهرية) التى وجدت فيها الجزئين الثـــانى والثالث من قصـــتك « رتشـــارد المسكين » Poor Richard ٠ ولقد وجدتها جيدة فوق ما كنت أتوقع ، سواء فى سياق القصة أم الشخصيات ، وطريقـــة العرض رائعـــة جدا فى الواقع ٠٠ ثم انى لم اجد اى أثر او راسب لذلك الاسهاب والتطنيب فى شرح الخطوات النفسية المتعـــاقبة ، والذى اتذكر اننى هاجمتك من أجله عندما قرأته على . ولقد جاءت الى حزمة أعداد مجلة الأطلنطى فى صندوق يبدو أنه مرســـل من قبل زمرة من مريدى آل جريم ، لأن الصندوق حوى ثلاث صحائف من التمثيل الرمزى بخط اليد الألمانى ، وعليها توقيعـــات سبعة أو ثمانية من زمرة جريم . أما أسماء المرســلين المكتوبة فى أعلى الصحائف فهى : المسز جريم ، والمسز ثييز ، وفراولين بورنمان . ولم يكن هذا هو كل ما يحوى الصـــندوق ، لأنى وجدت فيه خليطا عجيبا متفاوتا ، من مقانق محشوة

بالكبد ، الى زجاجة شمبانيا ، راقدة فى أحضان عدد من الأباريق اللاى بالهلام المختر من أكارع العجول والشكولاتة ، وعدد من الكعك المعجون بالبيض وماء الكولونيا وطبة وبرتقالات ، ومجموعة تماثيل من الجبس ... الخ ... وكلها تشكل بالاضافه الى المخطوط الالمانى — خليطا فى غاية الالمانية . ومن حسن الحظ أن التمثيلية مكتوبة بالنثر ، والا لكانت أكثر تفاهة على أن طيب مذاق المقانق عوضنى خيرا — وان المرء ليجد فى كل ظاهرة تجرى فى طبيعة الأنثى الالمانية أعجب تعايش وحسن جوار بين المقانق وبين ما يبدو لنا تظاهرا باردا محظورا من التظاهر برقة الاحساس ، لا سبيل الى فهمه الا بالخبرة المباشرة ، واستشعاره اذ لا يمكن الافصاح عنه بشكل اعرابى للأجنبى .

لم أقرأ شيئا أخيرا يستحق التسجيل . ان الحمامات العلاجية ترهقنى من امرى عسرا ، وتوهن مخى لدرجة تكاد تحول بينى وبين أى اطلاع أو دراسة) ومنذ أيام التقطت كتاب بالزاك Modeste Mignon . ولست أدرى اذا كنت تعرفه أم تجهله . ولابد أن يكون هذا الكتاب واحدا من مؤلفاته المبكرة جدا لأنه زاخر بالبحث والجهد المبذول فى صياغة أسلوبه وسبكه ، جهد فذ بكل اتقان واحكام . انه لما يجبر القلب ويؤاسى النفس أن نجد رجلا يصارع كل تلك الصعاب ويتغلب عليها . بيد أن القصة كانت مختلة ومعتلة — أخلاقيا لدرجة فظيعة بحيث لم أستطع ان أكمل قراءتها ، فانا كعهدك بى اقرأ القصص للترويح عن النفس فحسب .

المحب دوما

و . م . س . »

تبليتز ٤ مارس سنة ١٨٦٨ (١)

« عزيزى هارى :

ان تبليتز آمن ملاذ على ظهر البسيطة . لا شىء يتحرك فى هذا الفصل سوى الأجرام السماوية ! وحيث ان المرء لا يشعر بأى اغواء لكى ينهض ويتابعها حول مداراتها ، ففى وسعه من ثم ألا يبرح مكانه وينعم بكل هدوء ، هذا عن الهدوء والسكينة . اما عن النواحى الأخرى فهى مكان فريد لا نظير له ولا تشوبه شائبة . ان هذا المنزل الذى أعيش فيه فى غاية الروعة والراحة ، وأنا أشعر تماما كما لو كنت واحدا من ضمن أفراد الأسرة ، وأنا على وفاق تام مع كل ساكنيه ذكورا واناثا ، الذين يؤلفون فى الحقيقة زمرة نفيسة . فأما الذكر der alte السيد فرانز ، فهو يشبه الجنرال واشنطون فى الشكل والهيئة ، وفى الشخصية والخلق . انه يمشى بسرعة نصف ميل فى الساعة ، ولكنه لا يجلس أبدا ، ومن ثم فهو فى شوط نهاره ينجز كمية تكاد تكون أسطورية من أكثر الأعمال تنافرا واختلافا ! . وعندما يتحدث أحد اليه فانه دائما يعد خمسة وعشرين قبل أن يجيب محدثه ، وعندما يغضب (اذا كان يحدث مطلقا) فليس عندى شك فى أنه يبلغ المائة عدا ... تسلمت العدد الثانى من مجلة «المجرة» Galaxy وعدد فبراير من مجلة الأطلنطى ، مع قصتك عن الملابس القديمة (٢) . وكلتا القصتين تفصحان عن نوع معين من الأناقة

(١) A fragment of this letter is printed in L.W.J.I., 136-7.

(٢) "The Story of a Masterpiece", and "The Romance of Certain Old Clothes".

الهاشة والرشاقة الباشة المنطلقة فى لمسات الأسلوب والعرض ، وهى الخصيصة التى يتميز بها انتاجك (واحسب أنك تريد أن تسمع دون طلاء ولا دهـان الانطباع الذى تحـدثانه فى بالضبط) ، وكلتا القصتين تدلان على مزيد من الطراوة واللدونة وحرية الحركة فى التركيب والانشاء ، وان كانت الاولى لم تصادف فى نفسى انجذابا ، لكونها تدور حول ذلك الموضوع الذى أكل عليه الدهر وشرب ؛ الذكر ضد الأنثى ، والذى سبق لك أن عالجته مرارا وتكرارا ، وبالاضافة الى ذلك ، فان فيها شيئا من البرود والجمود والافتقار الى الحرارة القلبية . عندى أن القصة يجب أن تحتوى على عناصر بهيـة نادرة من نوع ما تستحق التصوير أو على حركة كثيرة تعوض فقدان الحرارة . ولقد كانت عناصر قصتك عناصر عادية دارجة من الحياة اليومية الراتبة . وفى وسع القصة ايضا أن تنجو اذا توافر فيها عنصر الحدة المفرطة فى تحليلها ، وعنصر الاتقان التام فى معالجة الأحداث ، مثلما هو الحال فى بعض قصص بلزاك (وحتى هناك فان النتيجة منفرة — ولو كانت قيمة) ! ولكن فى حالتك ، فان العمل الخلقى مس مسا خفيفا جدا ، وكان بيانيا بدلا من أن يكون مبينا . واحسب أن هذه المعالجة النيقـة الأنفة من قبلك مردها الى جزع نجيع خشية أن تكون رطراطا وشخابا ومفرط التدفق العارم فى قوة تعبيرك — على غرار معظم اخوانك المزاحمين فى « الأطلنطى » ! .. وهذا عظيم ، بل هو فى الواقع غريزة الحق ضد الهراء والدجل ! وعندما تتعدى الى معالجة مادة سخية دسمة ، فانها تنتج اعمالا ادبية من الطراز الأول . ولكن المادة فى قصصك (فيما عدا « رتشارد المسكين ») كانت هزيلة نحيلة .. ولست ارى أن Your Literarisches Selbstgefühll تعانى مما قلت لانى فى الواقع من الامر اعتقد ان ذوقى قاصر فى تلك الشئون — وكما قلت من قبل — فاننى لا أبدى هذه الملاحظات الا على اعتبار أنها انطباعات شخصية ، وعليك أنت أن تفلسفها لنفسك .. لا وقت عنـدى لمزيد . لقد حان وقت شريحتى من اللحم — بل فات منذ وقت طويل .

ما زلت المحب الودود

و م . چيمس »

وفى شهر مارس رجع چيمس الى درسدن ، حيث استقر به المقام فى كنف من الرعاية الأموية للسيدة فراو سبانجنبرج ، وظل هناك حتى نهاية شهر يونيه فيما بين زيارات قصيرة الى تبليتز على بعد أربعين ميلا . وفى أثناء هذه الشهور ذات الراحة النسبية ، والتى ابتغى منها نتـائج طيبة من حمامات تبليتز حدث فى نفسه تيقظ عظيم فى هيامه بالفن — فى هذه المرة من وجهة نظر الناقد والمؤرخ .

(درسدن) ٩ مارس (١٨٦٨)

« عزيزى هارى :

بين يدى « الداروين » الحقيقى لشارلز نورتون(٣) ، والذى سبق أن حدثتك عنه

(٣) The review (unsigned) of Darwin's Variation of Animals and Plants under Domestication appeard in the North Amer. Rev., 1868 (XVII).

فى رسالتى منذ ثلاثة أيام . لقد قذفت بها بعيدا بالأمس وتنفست الصعداء أخيرا . وليس عندى جديد أنبئك به سوى اننى فرغت من قراءة الاوديسه Odyssey ، وذهبت مرة لرؤية مجموعة التماثيل الفنية فى المتحف هنا . ولا جدوى من انكار أن الاغريق كانوا ذوى حذق معين .. ثم ماذا أيضا ؟ .. آه تذكرت .. لقد اشتريت كتاب رينان « قضايا معاصرة Questions Contemporaines » .. ان رينان .. هو رينان ، ولكنه زاخر بالعبارات الموفقة السلسة ، واللمحات الملهمة .. وكلما فكرت فى آراء داروين بدت أمامى أكثر وزنا ورجحانا ، وان كان رأيى طبعا لا قيمة له ! ومع ذلك فأنا أعتقد أن ذلك الوغد اجاسيز لا يستحق من داروين ـ فكريا أو خلقيا ـ شرف مسح حذائه على هامته ، وانى لأجد نوعا من الغبطة فى الاستسلام لهذا الشعور . وداعا . وداعا .

أخـوك

وم . چيمس »

درسدن ٥ أبريل سنة ١٨٦٨

« عزيزى هارى :

لقد ذهبت عدة مرات الى رواق اللوحات الفنية ـ ولك أن تتصور مدى فرحى وسرورى ـ لقد كان بالنسبة لى نفحة من الكوثر غسلت أدرانى بالماء الزلال . ففى الصيف الماضى عندما كنت هنا لم استطع ان أدس أنفى فى هذا الرواق الا مرتين لا ثالث لهما وفى كل مرة لم يتسن لى الا النظر لبضع دقائق قليلة فى عدد من اللوحات لا يتجاوز أصابع اليدين . اننى على استعداد لأن أفعل أى شىء لأستوردك هنا وأسمع منك كيف تؤثر فيك بعض الأشياء .. وماذا يخطر على بالك لدن رؤيتها ..

ثمة شىء واحد مؤكد ، هو أن الدم الألمانى يكاد يكون دون احساس أو حاجة الى الجميل .. وأعتقد أن الافتتان الحقيقى فى الطبيعة الذى حاولوا نقله ـ سيجد المرء انه المقبول ـ الموافق ـ السار ، أى ذلك الذى تتأثر به كل حاسة على حدة ـ تأثرا لطيفا مفرحا مثل الضياء، البهاء ، الصفاء ، نعومة الملمس (المخملية) ، وليس كل ذلك التناسق الأسمى والأعلى فكريا (المناسب للأحاسيس المنفصلة البليدة الثالة والتى هى الأدنى) والتى تجحظ حالا فى عين المرء واثبة من بدايات المدارس الايطالية .. ومع كل ذلك ، فلا يزال فى الالمانيين القدامى نوع من السكينة والهجوع الشبيه برصانة واطمئنان الاغريق الى حد ما .. من حيث ان كليهما يبدو أنهما أدركا موضوعاتهما كمجرد كائنة فحسب ، والمدارس التى فسد أصلها الطيب تحتاج الى تحديد الكائن على نحو بهى وتعبيرى يستحق التصوير . بيد أن منوال الاثنين العام فى النظر الى الكون ، كان مختلفا اختلاف الشرق والغرب ، والبون بين أسلوب الاغريق والألمان بون واسع ، وانى لأحسب ان اتفاقهما فى تلك النقطة ربما نشأ على الأرجح من حقيقة أن الفن الألمانى .. ربما يكون قد عبر عن ركن مقدس صغير ليس الا مما يسميه الألمان لؤلؤهم المكنون فى حين ان الفن عند الاغريق عبر عن كل شىء .

على أن الاخـوة الحقيقيين للاغريق هم فنانو البندقية العظماء الأجلاء ، ففى الفريقين يبدو أن وسيلة التعبير التى فى حوزة الفنان قادرة على أداء كل ما يريد التعبير

عنه ، فالفنان هنا كفء لعالمه . فالتناهى والرصانة والكمال ـ على الرغم من أنه فى كلتا الحالتين يتسلل من التناهى أو المحدودية جمال وحسن يخترق الحجاب الأخلاقى للملاحظ ، ثم يلقى القبض على السرمدى « اللامتناهى » بطريقة خفية . انه لشىء مؤثر يمس أوتار القلب فى كل من تتيان وبول فيرونيز ، اللذين يرسمان مناظر تعتبر روائع خالدة من الجلال والرفاء ، ويصوران أحاسيس متنوعة متعددة أبعد ما تكون عن أى شىء مما نصفه بالبساطة ـ انه لشىء مؤثر حقا انهما يحتفظان بنغمة من البراءة الرزينة ، وسلامة الطوية الفريزية الخالصة ـ نغمة طبيعية كتنفس الوليد ! ..

وعلاوة على رواق الفنون فلقد تمتعت ـ وما زلت فى الآونة الأخيرة ـ بذلك الوثنى العتيق الرزين الشــابت الجأش ، هومر ، وقرأت عشرين مجلدا من الأوديسه .. ان الأوديسة تلوح فى خاطرى كعمل مختلف فى روحه جدا عن الالياذة ، وان كنت ـ سواء أكان هذا الاختلاف يتضمن بالضرورة اختلافا فى الزمان والانتاج ـ أجهل من أن أستطيع أن أكون فكرة . أن هنود أمريكا الجنوبية يتراءون أمام ناظرى الآن ، ويتخايلون لعينى وأنا أقرأ الأوديســه .. ولكن الصحة والبهاء والنضارة والجدة . ـ ومع ذلك « مقرونة بغياب كامل » لكل ما نعتبره ـ تقريبا ـ ذا قيمة خاصة فى انفسنا .

وأعتقد أن الأشخاص بالذات الذين سيكونون أكثر تبرما وتضورا ونواحا وعويلا على بيئاتهم ، اذا ما أرجعوا ثانية الى الاغريق القديمة ، سيكونون هم الوثنيين المحدثين والعابدين العصريين لآلهة الأساطير ! . ان تقبل الوثنيين القدامى الدمويين ـ البارد ـ لكل شىء يحدث من حولهم ، وعدم اكتراثهم بفكرة الشر فى معناها المجرد ، وافتقارهم الى ما نسميه بالمشاركة الوجدانية . واتصاف متعهم بخصيصة محددة ثابتة بالضرورة والحتم ، أو على أية حال احزانهم (لأن فرحهم ربما كان مساويا فى الامتداد والانتشار للحياة نفسها) ، كل أولئك يجعل مجتمعهم بغيضا تماما عند هؤلاء المفرطين فى الثقافة والتهذيب ، والشاكين من أسقام مبهمة .

بيد أننى لا ألومهم لكونهم مبهورين ومذهولين بالتناغم المشرق النورانى فى الفنون الاغريقية . ان الاغريق الهومريين (تقبلوا الكون من حيث هو) ، ففكرتهم الوحيدة عن الشر كانت فكرة قابليته للزوال والتلاشى .. والوجود بالنسبة لهم كان يسوغ نفسه ـ كان يحمل فى طياته عذره الذاتى ، ونغمة السرور والاعجاب الرزينة الثابتة الجأش التى تشيع فى كلام هومر فى وصف كل حقيقة لا يعتورها أقل خمود مطلقا ، عندما تصبح الحقيقة أمام أعيننا حقيقة فى غاية الشناعة والفظاعة ! . فما دام يوليسيس فى قبضــة الســايكلوب فهو يمقته ، ولكن بمجرد أن يفلت من الخطر فان الاحساس المزمن بالاعجاب أو على الأقل بالتسامح اللا اكتراثى يتغلب على أى احساس آخر وتصبح له اليد العليا . فعند الاغريق ـ كان الشىء شرا ـ بصفة وقتية وعفوية فقط ، وبالقياس الى أولئك المنكودين بالذات الذين أوقعهم نحسهم المشئوم فى براثنه . فأما المتفرجون ـ الذين لا يمسهم قرح ـ ففى وسعهم ألا يكترثوا ، وفى وسعهم أن يعرضوا عنه وينأوا بجانبهم ، فلا شأن لهم به ، ولا تفكير فى الأمر فيما بعد ، بل لا بغض له منزها عن الغرض ـ من حيث هو شر فى حد ذاته ، بل لا تساؤل فى حقه فى أن يغشى الدنيا بالظلام والظلم ، تماما كما يحدث الآن ويسود عالمنا المعاصر ...

بعثت اليك برســـالة مطولة من تبليتز تتعلق بمؤلفاتك . فأما ما اغفلت قوله بالضبط ــ فى حومة الكتابة ــ فهذا ما لا قبل لى بتذكره الآن ، ولكنى أظن أننى اتخذت لنفسى لهجة المقنن . وفى مرجوى الا يكون ذلك قد آذاك على اى نحو او اضلك بالنسبة لرأيى فيك اجمالا ، لاننى أشعر انك واحد من الاثنين أو الثلاثة الرفقـــاء الفكريين والاخلاقيين الوحيدين الذين أصاحبهم فى الدنيا معروفا . لو انك علمت مدى الى وتوجعى فى بعض الأحيان لحرمانى من وجودك الى جانبى ، ومن سماع رأيك فى مختلف الأمور ، او معرفة ما يخطر ببالك حيال ما أرى وما أسمع ، فلعلك عندئذ لا تتصور أننى أبخسك قدرك ، أو أستخف بتطورات عقلك ...

اخـــوك

و . ج . »

درسدن ١٣ ابريل سنة ١٨٦٨

« عزيزى هارى :

لقد عدت لتوى من المسرح وأشعر برغبة جياشة فى ان اسطر لك بضع كلمات لكى اخبرك أننى تسلمت قصتك الاخيرة المنشورة فى عدد الأطلنطى الأخير ، بعنوان « حالة شاذة Extraordinary Case » واننى نعمت بقراءتها . وهذه القصة تجعلنى ارى اننى ربما اكون قد أسأت فهم مقصدك ــ جزئيا ــ فيما مضى ، وأن أحد مآربك عينا هو ان تؤدى انطباعا شبيها بالانطباع الذى يأتينا من الناس غالبا فى الحياة . ان مدارات افلاكهم تخرج من الفضاء وتضع نفسها فى وقت قصير فى محاذاة مداراتنا ، ثم لا تلبث أن تدور بسرعة منطلقة الى المجهول ــ تاركة ايانا بما لا يزيد عن وقع أو انطباع عابر عن حقيقة وجودهم ، وشعورمن حب الاستطلاع الحائر فيما يتعلق بلغز بدء ونهاية وجودهم ، وبالصفة الصميمية الوثيقة لذلك القطاع الذى رأيناه منها .

هل أنا على صواب فى حدسى أنك تهدف الى ذلك هنا بوعى مقصود مدبر ؟ ... انك بحسب الظاهر ــ تقر بأنك لا تستطيع أن تستنفد مشاعر أو أفكار اية شخصية من شخصياتك ، بعرضها عرضا تفصيليا واضح المعالم . وأنت تحجم عامدا عن محاولة جرجرتها وهى تزفر دخانها الكريه ، وتقطر مسلوخة وفجة ونيئة بعجرها وبجرها على المسرح ، كما يفعل معظم الكتاب ويخفقون فيه اخفاقا ذريعا . وبناء على ذلك فانك قصدا وعلانية ــ تحصر نفسك وتقتصر على اظهار عدد قليل من التصرفات والاحاديث الخارجية ، وبسحر فنك ، تجعل القارىء يحس ــ وراء تلك التصرفات والأحاديث ــ بوجود جسم كائن ، وانها لا تمثل سوى ملامح عرضية . انك تبغى أن توحى بتكامل خفى لا تفضى بالقارىء اليه . ولا جناح عليك فى ذلك ، فهذه طريقة مشروعة جدا فيما يبدو لى ، ولها تأثير عظيم عندما تفلح وتؤتى أكلها .. بشرط أن تنجح . بيد أن طريقة التدفق أسلم عاقبة عندما تخيب ويطيش سهمها ، حيث انها تحتمل التسليم بضرب من دفء المشاعر وسلامة النية مروءة القصد التى ربما تسدى بين الكاتب والقارىء .. ان اسلوبك يزداد يسرا ورسوخا ودقة كلما مضيت فى الكتابة . لقد هجرت جنوحك فى الماضى الى معاودة الفكرة وطرقها ودقها واعادة صبها فى قالب أكثر صقلا ورقة ــ انك الآن تصيب الفكرة

من أول ضربة . ان سيماء القصة كلها مشرق ومتلالىء وخال من المواضع الخـامدة الهامدة ، وعلى وجه الاجمال فان الالحاد والشك ، كما سيقول بعض الناس ، وكذلك السلاطة والجرأة المتضمنة فى كونك تعطى قصة وهى ليست بقصة على الاطلاق ، ليست فقط ضربا من السميدعة النبيلة التى لا تصدر الا عن الاسياد الاماجد ، وانما لها تسويغ عميق فى الطبيعة — لاننا لا نعرف بداية ولا نهاية اى شىء . ومع ذلك فبينا أسلم لك بنجاحك هنا فلزام على أن أقول اننى أعتقد أن الاستيعاب الكامل الوافى والادراك العاطفى بشغف وولع لقصة ما ، هو أعلى المنجزات فى ذروة بلوغها ، كما تعتقد انت طبعا .

لقد شهدت ديفريانت وهو يؤدى دوره فى مسرحية هاملت .. لم يسبق لى أبدا أن ادركت الاكتمال الذى لا حد له فى هذه المسرحية كما أدركته الآن . ان المسرحية تنفذ الى نخاع المرء . انهاتطقطق كل شق وتشدخ كل عرق وتنبجس من كل فج ، ولعلها نفذت الى احساسى بشكل مضاعف لأننى كنت منغمسا فى التفكير فى الروائع الكلاسيكية فى المدة الاخيرة — وبهذه المناسبة فقد كنت بالأمس أزور متحف التماثيل ثانية . ان مسالة — ما هو الفرق بين المفهوم الكلاسيكى للحياة والفن والمفهوم الذى تمثله مسرحية هاملت — تحدق بى ، وتضيق على الخناق أكثر وأكثر ، وأحسب أن السقسقة لمدة طويلة كافية فى منقوع أمثلة ماثلة من كل من المفهومين على حدة ، كفيلة بأن تلقى بعض الضوء على المسألة .

وبعد ذلك فما زال يجحظ أمامى السؤال الاكبر والاهم : ما مستند كل من المفهومين؟ هل حاضرنا ليس الا مرحلة فى منتصف الطريق تلقاء عصر كلاسيكى آخر يتميز بمفهوم للكون أكثر اكتمالا من مفهوم الاغريق ، أم أن الفرق بين الكلاسيكى والرومانتيكى ليس فرقا فى النهى والعقل ، وانما هو فرق فى الجنس والمزاج ؟ بالأمس فقط كنت افكر فى الفرق بين شعر الزهرة فى الروث والدمان المعروف بالشعر الحديث (على سبيل المثال فكتور هوجو هنا وهناك) ، حيث كلما كان الروث أقذر كان شعر الزهرة أبلغ وأوقع فى النفس ، وبين الفكرة الاغريقية التى ما كان فى وسعها أن تفطن الى أو تدرك مثل هذا الشىء ، وانما كانت تتخذ أحد سبيلين — فاما أن تنتزع الزهرة انتزاعا من الروث والدمان ، أو تطوى عنها كشحا وتولى لها ظهرها وتغفلها كلية ، حيث ان التناغم شرط لازم لابد عنه ، وهنا معرض أضيف فيه الى « حاسة ادراكى » للهوة بين الاثنين ، هذا الهاملت الرهيب الذى يئن ويتأوه على هذا النحو بزحار لغز وسر الأمور ويتوجع بما لا سبيل الى وصفه أو البوح به لدرجة تؤنسه من محاولة التعبير عنها ، واذا تكلم فانما يهذى بكلام فى غير محله ولا ينعلق بالأمر فى أى صيغة وبأى شكل ، وانما يفلت منه على غير وعى سعار مخبول من العجب والخيلاء ، يدور بسرعة محمومة حول امتداد الموضوع وضخامته ، كما لو كان اللسان يسخر من نفسه ...

المخلص

« و . ج . »

وفى أول أبريل سنة ١٨٦٨ بدأ چيمس فى درسدن يدون مذكراته فى مفكرة يومية — حيث سجل فيها لمدة شهرين قراءاته وتأملاته ، ثم ظل لسنوات عديدة يقيد فيها قراراته الحاسمة وما استقر عليه عزمه • وفى ربيع سنة ١٨٦٨ — كما يظهر ذلك أيضا من رسائله — كان يقرأ بغزارة وتوسع : هومر ، ورينان ، وشكسبير ، وداروين ، وتين ، وكانت ، وأجاسيز ،وجانيت ، وجوته ، وليسنج «العاقل الحساس كالريح الشمالية الغربية » ، و « المحبوب » شيلر ، الذى هام شغفا « بمقاله النفيس » Uber Anmut und Würde لأنه يعرض للتناقض بين الخلقى والجمالى الذى ورثه من أبيه .

١٢

نحو علم النفس والفلسفة

تحولت أفكار چيمس ــ الآن الى هيدلبرج ، حيث كان فى مرجوه أن يستأنف دراساته العلمية • فمن ذا الذى يراسله ويفضى اليه بدخيلة نفسه وما يعتمل فيها من تطلعات علمية ؟ انه بلا ريب ــ كما كان دائما ــ هنرى بوديتش :

تبليتز ٥ مايو سنة ١٨٦٨

« عزيزى هنرى :

بعد عشرة أيام سأرحل الى درسدن ، حيث سأمكث زهاء شهر على الأقل وربما أكثر ، محاولا أن أحسن تدبير الآثار الطيبة لهذه الحمامات بالراحة ، ولا أبددها من فورى كما فعلت من قبل . وبعد ذلك فأكبر الظن بل أقوى اليقين أننى سأيمم شطر هيدلبرج ، وسأكون عندئذ قد طرحت كل أمل فى احراز أى تقدم فى الفسيولوجيا لأننى لا أصلح لأعمال المختبرات والمعامل . وحتى اذا لم تكن هذه هى السنة الوحيدة الحميدة لترفيه العلم على الاطلاق (وهى فعلا الطريقة الوحيدة المعتبرة) ، فانها ستكون بالنسبة لى مع ضعف ذاكرتى وكساد اهتمامى بالتفاصيل ، الطريقة الوحيدة العملية المتاحة أمامى للحصول على أية معرفة يعتد بها فى الموضوع . اننى ذاهب الى هيدلبرج ، لأن هلمهولتز هناك ، وكذلك بها عالم اسمه ڤونت ، احسب ان فى وسعى ان أتعلم منه شيئا عن فسيولوجية الحواس دون بذل مجهود جسمانى مضن ، ولعلى فى المستقبل أستطيع أن أطبق بعض هذه المعرفة تطبيقا نافعا . ان هلمهولتز الخالد عالم رياضى راسخ فى العلم لدرجة أحسب معها أننى لن أفيد منه كثيرا ! أما الى متى أقيم فى هيدلبرج ، فذلك أمر يتوقف على ما يتبين لى أن فى مكنتى تحصيله هناك وكذلك على حالة ظهرى . انها مكان للدبد للعيش كما يقول الناس ، وان كان الألمانى الصافى موضع سخرية ألمان الشمال . ومن ثم ، فاذا كان فى عزمك المجىء الى ألمانيا هذا الصيف ، وتكريس نفسك أولا لاتقان اللغة والمران عليها وفق الخطة المعتادة ، فنادرا ما ينصحك أحد بأن تختارها محلا لاقامتك فى أول الأمر . أما من جانبى فأعتقد أن هذه الحذلقة العامة من جانب الأمريكيين عن سماع لغة ألمانية سليمة فى الشهور الثلاثة الأولى ، هى أكثر الظواهر مدعاة للسخرية والفكاهة فى القرن التاسع عشر • فأما العوام من الشعب فانك لن تفهم على أية حال أينما كنت ، ولهجتك نفسها من المؤكد أنها ستكون أسوأ

من الدرك الأسفل من أسوأ لهجة يقدر لك أن تسمعها من الناس المتعلمين . وعلى هذا فان التدقيق فى هذا الأمر يبلغ من السخف مبلغ سخف منظف المداخن عندما يرفض الجلوس لأن المقعد عليه ذرات من الغبار ! ..

وداعا وليحالفك الحظ الحسن حتى نلتقى ،

المخلص
و م . چيمس »

وثمة فقرة من رسالة بعث بها الى هولمز من درسدن ، تكشف لنا عن العراقيل التربوية والشكوك المهنية التى تساوره بالاضافة الى شغفه الآخذ فى الازدياد بعلم النفس :

« لقد كان من مرجوى حتى نهاية زيارتى لتبليتز فى الشتاء الماضى أننى ربما أوفق الى التمكن من متابعة الفسيولوجيا ، لا لأن عندى أى شغف خاص بتفاصيلها ، ولكن لأن ثمة عملا فى مجال هذا العلم يتطلب من يؤديه . ثم هناك خاطر يساورنى (ولعله خاطىء) بأن علم النفس لن ينهج على منوال العصر ، à l'ordre du Jour حتى تتخذ خطوات — ما زالت فى ضمير الغيب — فى فسيولوجية الجهاز العصبى ، فاذا استطعت بالدفع والتحريك المثابر الكدود أن أفسر بعض الحقائق الفسيولوجية — مهما كانت متواضعة فسأشعر بأن حياتى لم تضع كلها عبثا . بيد أننى أرى الآن أننى ربما لا أستطيع أبدا أن أعكف على عمل فى المختبرات والمعامل ، ومن ثم فلزام على ان ألجأ الى شىء آخر أستند عليه . ونظرا لان عبء زوجة وأسرة لم يحط على كاهلى بعد فى نفس الوقت الذى ينوء ظهرى بما عليه من هذا « النير الخفيف » ، فليس ثمة قلق مادى يتهددنى وشيكا .ولكننى مع ذلك اشعر بالحاجة الى نوع من المسئولية الخارجية المعينة التى تحول بينى وبين تبديد وقتى . لذلك سأواصل الدرس أو بالأحرى سأبدأ الدراسة فى اتجاه سيكولوجى عام ، مؤملا أننى عما قريب سأجد سبيلا من التخصص لتعمق فيه . ولعل شيئا من التطبيق العملى يعرض نفسه لى يوما ما — والشىء الوحيد الذى فى وسعى أن أفكر فيه الآن هو منصب أستاذ « للفلسفة الخلقية » فى احدى الأكاديميات الغربية ، ولكن ليس لدى أية فكرة عن طريقة بلوغ مثل تلك المآرب ، ولا عما اذا كان فى مقدور أى رجال من ذوى القالب اللاروحانى أن يبلغوه » (١) .

ولقد كان ابان تلك الأيام من سنة ١٨٦٨ فى تبليتز ودرسدن أن اكتشف چيمس جوته ، ووجد فيه تلك الواقعية المتينة التى حاول بها أن يسلك سبيلا وسطا بين التشاؤمية ومذهب ما فوق الطبيعة . وفى هذا الموضوع كتب چيمس لأخيه هنرى ما يلى :

---

(١) The remainder of this letter will be found above, 93.

درسدن ٤ يونية سنة ١٨٦٨

« عزيزى هارى :

لقد عكفت على قراءة جوته فى المدة الأخيرة ، وفرغت اليوم من قراءة المجلد الثانى الخاص بأحاديث ايكرمان مع جوته ... ولقد سبق ان قرات الرسائل المتبادلة بينه وبين شيلر ، وانى لاحثــك بكل قوة أن تطالعها بتمعن ... ان مشهد مثل ذينك الرجلين العاملين الفوارين بالحياة ينعش روح أى انسان ، ولكنك ستجنى ربحا خاصا من مناقشاتهما الجمالية – فيما أتصور . ولعل افكار جوته عن أهمية الموضوع فى صياغة الشعر يثير فيك التأمل ، وانى لاقر بأن كثيرا مما قالا عن هذه الامور يتطلب خبرة فنية – ليست عندى – لفقهه – ودواعى الانصاف تقتضينى الاعتراف بذلك ، واحسب انك قادر على فقهها ، لانها ستكون كلها امام عينيك حية نابضة ... ولقد قرات أخــيرا Wilhelm Meister' Lehrjahre واعجبت جدا بحيوية وجمال الجزء الأول . ولعلنى لست ، بعد ، كفئا للجزء الأخير ، كما يقولون هنا . انه زاخر بالمجــازات والاستعارات والرموز ، وأسلوبه فى الاختراع فاتر وثقيل ... وبالاجمال فان المتناقضات القديمة التى كانت تبدو لى وتزعجنى فى جوته لدرجة كبيرة ، وافتقاره الظاهر الى الدعابة ، والى تلك اللمحة الحاسمة فى الشئون الجمالية والاخلاقية التى تفرز القمح من العصافة والجوهرى من العرضى – كل ذلك قد اختفى وتلاشى بلقانة البديهة ...

ولست ادرى كيف كان جوته عادة يزعجنى ويضايقنى ، بل يضجرنى ، بذلك التصنيف الموصول والتبويب المتوالى فى فئات للتفاصيل الفردية التى لابد انك لاحظتها فى كل ما قرأته له ، وبطريقته التى لا ترحم فى تناول كل شىء يتعرض له بجدية وتزمت ، كما لو كانت الدنيا وقت تناوله لتلك الأمور لا تحوى شيئا آخر ، وبملاحظته تجليد نسخة من مسرحية عطيل بنفس الاهمية أو الخطورة التى يلاحظ بها المسرحية نفسها ، ثم لقد قوى هذا الانطباع فى نفسى عن جوته من جراء الخصيصة التنيسونية بعض الشىء فى فكاهته فى Hermann and Dorothy وفى تلك الاجزاء من Wahrheit und Dichtung التى يسرد فيها نكتة من النكات . فعلى الرغم من الفكاهة المتجلية فى Egmont ، واللجج السحيقة القعر فى « الكل باطل وقبض الريح » ... الخ ... التى تفغر فاها فى فاوست Faust ، فانه يبدو لى كرجل فى غاية التزمت ! وكأنه لخشيته من أن يفقد أى شىء له قيمته ، لا يملك أية بديهة حاضرة ، فانه يدخر كل شىء فى حوزته ، واضعا الأصيل والتابع والهــام والثانوى والمتن والاضافى فى جرزة واحدة . كل تلك الآراء – يطيب لى أن أقول – انها تبددت ، ولست اعرف كيف على وجه التحديد . فلم يعد جوته يزعجنى أو يضايقنى أو يضجرنى : أولا لأن موضوعيته أو حرفيته تبدو لى الآن مبرزة فى حد ذاتها (وان كانت فى بعض الأحايين مملة فى قراءتها) ومن ثم فان هــذه الموضوعية لا تغيظنى مثلما كانت تفعل فى شــبابى الفج . أذكر أننى فى ذلك الوقت ما كنت أغفر له أسلوبه فى وصف مشاهد طفولته فى فرانكفورت بنفس اللون الجاف الكالح الذى كانت عليه ابان طفولته ، لقد كنت أحسب أن لزاما عليه أن يتكىء ويسترخى ويعطى للناس تلك المشاعر الذاتية – العاطفية والموسـيقية والعلاقية أيا ما كان يحلو لك أن تسميها – التى تسترجع بها ذكرياتها من أعماق المـاضى السحيق فى

سنوات شيخوخته . اننى ابتسم الآن ساخرا عندما أفكر فى سقمى ووهنى . وثانيا لقد تعلمت كيف أميز بين اتجاهه الفلسفى العام وبين عادته المزاجية فى التجميع ... لم يكن يطيق أن يضيع هباء أو يخزى أى نفدة أو نتفة – مهما صغرت – مما يقرع حواسه أو يخطر بباله. وحبث ان كل خلجة من خلجات نفسه ، وكل خلية من خلايا عصبه ، وكل مسمة من مسام جلده ، كانت تنبض بالحياة فى أوجها ، وكانت تتلقى كل انطباع وتأثير بنوع من السانحة أو الخلو غير ساه ولا لاه التى كانت تجعل حركات جهازه العقـــلى من أعجب خوارق الظواهر التى قدر لهذا الكوكب أن يشهدها أبدا ، مما يجعل قارئه الأقل موهبة وعافية فى البصيرة يلهث وراءه ، وكثيرا ما ينفد صبره من جراء جديته الدقيقة التى تحيط خبرا بتفاصيل التفاصيل . بيد أن جوته الى جانب ذلك كان صاحب لمحة بديهية ذات شمول واحاطة . وأما التفاصيل الدقيقة التى يزودك بها فقد كانت من قبيل العلاوة الاضافية فحسب – يلقيها اليك وانت وشأنك . ثمة قصة صغيرة من قصصه تسمى « النادرة The Novelle » ، وهى قصة فيما يبدو لى تحتويه بكل ما فيه من غرابة مميزة وكمال خاص . جدير بك أن تقرأها بلغتها الأصلية – لأنها قصة قصيرة . فأما قصائده الشعرية فاقرأ منها النظم الرثائى . وأنا الفت نظرك اليها اذ تصادف وأنها القصائد التى فرغت لتوى من قراءتها . انها تستحق عناءك لما فيها من الاقوال المأثورة بل برمتها . أما كخبير يحسن استعمال اللغة ، فقد كان جوته ساحرا – ولا توجد كلمة أخرى غير كلمة ساحر للتعبير عن تلك الظاهرة فيه . ان أشعاره لتكتمل وتكتنز وتمتلىء كلما أعدت تلاوتها – فمع كل قراءة تالية تنمو وتكبر . فى حين أن شيللر ، على العكس يبدو مثقلا فى أقصى درجاته أول الأمر كالحامل فى شهرها التاسع ...

أما فيما يتعلق « بفلسفة » جوته فلن أقول الآن شيئا ، اذ لابد للمرء أن يستشعرها لكى يتذوقها ، ولا يمكن استشعارها الا عندما ترى مطبقة تطبيقا مفصلا ... انى على يقين من أنه لم يستنفد الحياة البشرية ، ولكنه جمع أشتاتا كانت متفرقة والف منها وحدة احتل بها رقعة فسيحة من البحث ، مثلما فعل معظم الناس ، وانى لأشعر الآن بأننى أتقبل – بغير مقاومة – كل ما فى وسعى أن أراه من حسناته ومزاياه الايجابية قبل أن أبدأ فى تعليل نقائصه وعيوبه .

اغفر لى هذا المجمع العجول ... فارط حبى للجميع ومزيد منـــه لك من أخيك ،

و . ج . »

وفى نفس اليوم كتب چيمس الى أخته رسالة عن موضوع السجايا الجرمانية – الذى لا ينفد اغراؤه أبدا ولا يمل الكاتب أو القارىء فتنته

درسدن ٤ يونية سنة ١٨٦٨

« أخيتى الحبيبة –

التقط القلم لكى أطير لك حبى عبر أمواج الأطلنطى المتواثبة ، ولكى أعبر لك عن أملى فى أن تكونى على خير ما يرام ... منذ اللحظة التى جئت فيها الى هنا وأنا موضع رعاية أموية واكرام وفادة من كل طبقات الناس ، وهى رعاية واكرام وفادة ما كان يتسنى لى أن أجدهما عند بنى جلدتى وبين قومى لو أننى انفقت طيـلة عمرى فى التماسهما

والسعى فى طلبهما فى أمريكا . ان الالمان جنس غريب فى وفرة كرمهم وفيض بساطتهم . فنحن فى الوطن نقدر الناس ونرفع مراتبهم لما فيهم من انتاجية وايجابية ، ونبذل أقصى ما فى وسعنا لكى نتمتع بهم بتجريد انتباهنا وسله بعيدا عن نقائصهم الشخصية ومساوئهم . أما الألمان فنظرا لكونهم مفعمين ببصيرة تميز خبرة من الخير ، فانهم يمضون قدما فى تحريك وتقلب شخصية مالكها برمتها ــ بل صانعين منها جميعا نوعا من المرق الذى لا يمكن تمييزه أو فرقه ، واجدين فى مذاقه لذة غير طبيعية قد تبدو نصف مضحكة ونصف مكدرة فى عينى امرىء من جنسنا الشديد التأنق . ان بثرة اللثة أو الأسنان الناعسة لبطل من الأبطال ، تظفر منهم بنفس الحب الرومانتيكى الذى يكنونه للبطل تماما مثل صفاته الأخرى البطولية سواء بسواء . وهذا الافتقار الى ما نسميه نحن « التأنق » الذى يفضى الى الأنواع المتعددة من التهذيب والرقة ، يشيع ويتغلغل فى طوايا الخلق الألمانى بأكمله ... (لقد اضطررت للانقطاع عن الكتابة عند هذه النقطة تلبية لداعى العشاء وهأنذا أعود ثانية) ... فلأستأنف موضوعنا السابق ، اليك مثلا من الخلط الالمانى لكل شىء من مرق من العاطفة ، وان كان قد يبدو لك لأول وهلة انه ينتمى الى نسق مختلف من الحقائق : عندما وضعت أمامنا أطباق الفراولة شرعت فى أكلها بالطريقة المعتادة ، ولم أكد أفعل ذلك حتى باغتتنى صرخة مفاجئة أفزعتنى انطلقت من فم الآنسة بوز بالألمانية قائلة : « انه يتذوق الفراولة بطريقة فى غاية العجب » ، فرفعت اليها عينى فى دهشة ، وكانت عيناها مغلقتين ، وبدت فى حالة من نشوة الطرب الصوفى الذاهل ، وكانت قد هشمت ما فى طبقها من الفراولة بملعقتها بحيث تحول الى ما يشبه العجينة بعد أن رشته ربا بالقشدة ، ففتحت فاهى قائلا « نعم بطريقة مدهشة » ، ولكن مدام سبانجنبرج نهرتنى لتركى الفراولة صحيحة كاملة على طبقى دون تهشيم ، لانها عندما تهشم « يصبح مذاقها أحلى بكثير » . بيد أن ما بدا على وجهها من تعبير وهى تنطق تلك الكلمات كان هو الجزء الألمانى بالذات من الحادث ــ الذى يميز الالمان عن أى شعب آخر ــ وليس فى مقدورى على أى نحو أن انقل لك هذا التعبير بالكتابة . لقد كان يتضمن نوعا من الذوبان الدينى الكامل للطبيعة العاطفية برمتها فى هذه الخبرة الصغيرة الواحدة من الاحساس بالتذوق . ان ازالة كل التخوم الفاصلة متضمن فى تطبيق كلمة « مدهشة » على مثل تلك الخبرة ، وهى تستخدم باستمرار لوصف أدوات الطعام ومواد النظام الغذائى برنة تدل على أن المتحدث سابح فى العاطفة : « شرائح اللحم المحمرة مدهشة !! » ثم تتطلع العينان الى السماء فى ابتهال . وبنفس الطريقة ، فان الالمان عندما يفعلون ما يسمونه « اقامة حفل » (أى الانطلاق الى الريف فى الاجازات . وقضاء الساعات فى احتساء البيرة والقهوة على الموائد الصغيرة ، فى الأماكن الوارفة الظلال اذا أمكن) فانهم يظلون صامتين ، وفيما يبدو فى حالة خواء عقلى معظم الوقت ، ولكنهم يقطعون هذا الصمت فى فترات قائلين فى حماسة « انه لمدهش أن يجلس المرء هنا فعلا !! » ان فتحات تصريف تعجب الألمانى ودهشته وحبه فى حالة اهتزاز وارتعاش دائمين ، بحيث لا داعى لفضها أو فتحها ، فأقل لمسة تجعل الطوفان يتدفق كالسيل العرم . واذا ما فاض فان المخلوق يترك نفسه للعاطفة وينجرف فى تيارها ، وقليلا ما يحفل بسببها الأصلى الذى أثارها .

انهم يفتقرون الى الاحساس بالقالب او الصيغة ــ على طول الخط . خذ مثلا كلمة Kunst أو الفن . هذه الكلمة لها وقع السحر على الألمان بشكل نعجز عن تصوره او ادراكه . انهم يكتبون عنها أشعارا ويمزجون بينها وبين الدين والفضيلة على اعتبار أنها أحد الأشياء المقدسة فى الحياة الانسانية . وبالاختصار فانهم يفقدون قوة النقد عندما يفكرون فيها تماما مثلما نفعل عندما نفكر مثلا فى كلمة أخلاق . ولكنهم (فيما عدا فى الموسيقى على الأرجح) لاينتجون أعمالا فنية لا نفع منها ولا جدوى ، كما أننى لا أعتقد ــ كقاعدة ــ أن أولئك الذين تصيبهم قارعة قدسية الفن Kunst فى مفهومه المجرد . لديهم قوة التذوق المميز ــ من هذا ــ للفن فى محسوسه وملموسه . ان الانفعال الرقيق يطيح بحكمتهم وحكمهم ويلقى بهما عرض الحائط . انهم يعتقدون ان رسالة الفن هى أن يمثل أو يخلق ــ سلفا ومقدما ــ عالما متجددا مولودا بالهدى ــ وهم على ذلك يجنحون الى ان يلقوا على أى عمل مما يسمونه فنيا ، ومهما كان حقيرا ومبتذلا ، هالة تشتق من الفكرة الشاملة الجامعة المولودة بالهدى ، ومن ثم يتقبلونه دون نقد ...

ما أقرب وأحلى واشهى الى هذا القلب من بنت أمريكية صلفة قليلة الحيـــاء (مثلك أنت) ، لا تخفى اشمئزازها ونفورها من أى شىء سقيم حولك ، وتبـــدى من الاحتقار الفاضح لشخصك بصفة عامة ما ينخسك نخسا ويستفزك استفزازا ، يحملانك حملا على بذل جهود المستقبل لاظهار استرجالك وشهامتك وشجاعتك ، لكى تحافظ على ابقاء راسك فوق اللجة فى اباء وشمم ، ولكى تتنسم عبير بشاشتها ومجاملتها فحسب...

اخوك المحب دائما

و . ج . »

وفى الثالث والعشرين من يونية كتب جيمس لأخته :

بعد ثلاثة ايام سارحل الى هدلبرج ... اننى واثق بحماسة بعد هذا الفوات الطويل ــ اننى سأصعد على معراج الوجود ... حالما أرتطم بحقائق الحياة الجهمة » .

ولكن آماله خابت مرة أخرى . وبعد عدة أسابيع من السفر التمس علاجا آخر فى ديفون هذه المرة فى سافوى الفرنسية . وفى ١٤ مايو كتب الى أخته يقول :

« اننى أشعر كما لو كنت أسلب هارى بكوريته بكيفية ما » .

وعاد جيمس الى هذا الموضوع مرة أخرى ــ موضوع تبكيت الذات :

ديفون ٢٦ أغسطس سنة ١٨٦٨

« عزيزى هارى :

لا ريب أنك تغبطنى طوال الاسابيع القليلة الماضية لدن سماعك بأننى أزور مرة ثانية المشاهد المقدسة لفترة صبانا : شواطىء ليمان فندق ايكودى جنيف ، وشارع كورانيرى ... الخ ... ان الغصة الوحيدة التى شعرت بها كان مردها الى عدم وجودك ، أو بالأحرى الى وجودى بدلا من وجودك ، لأننى أعتقد أن روحك الشاعرية الشـــفافة

العيوف كانت خليقة بأن تنال من الخير والنفع من الأشياء التى رأيتها هنا أضعاف أضعاف ما نالته طبيعتى الخشنة المحدودة النمو ...

ان الانطباع الذى يتلقاه المرء وهو ينتقل بالتدريج من جو المانى الى جو فرنسى ، والأثر الذى تتركه فيه حالة الأمور فى كل من الجوين ، انطباع لا يتوقعه المرء ، ثم انه من وجوه كثيرة انطباع كئيب . لقد كنت فى ألمانيا نصف مسرور ونصف جزوع من جراء بطء التنفيذ ، وبسبب فظاظة الذوق وخشونة التعبير اللتين تتغلغلان هناك الى حد كبير فى كل الأمور — ولكن بمجرد أن استبدلتهما بذكاء وتألق تدابير الحياة شبه الفرنسية هذه ، وما فيها من ترتيب متقن ونظام محكم ، وانتقلت الى لهجة الأمة الفرنسية الحادة الحريفة ، وجدت نفسى ميالا الى العودة ثانية من حيث اتيت ، وظلت نفسى لبضعة أيام تحن وتهفو الى أساليب الحياة الهينة الرخية الميسرة الجوهرية القبيحة التى خلفتها ورائى ... انى لأعجب عجبا يستنفد كل عجب من قنوطنا نحن الشعوب الناطقة بالانجليزية ، ومن يأس الألمان — وهذا سبب أقوى للعجب ، من محاولاتنا الدائمة لمنافسة الفرنسيين فى مسائل الشكل والصيغة أو الذوق النهائى من أى نوع . انهم أصحاب حساسية حيال أشياء لا وجود لها بالنسبة لنا . وانى لألاحظ هذه الظاهرة فى آداب السلوك والحديث — والا فكيف يتسنى لقوم يتحدثون دون نبرات قوية أساسية فى كلماتهم الا أن يكونوا آنق وأنظف فى التعبير عن أنفسهم ؟ ومن جهة أخرى فان حدود الأبعاد القادر على أن يبلغها العقل الفرنسى تلفت نظرى أكثر وأكثر وتثير دهشتى ، انهم يجدون لذة لا تفوقها لذة فى لم شعثهم حول معيار رسمى مقنن فى كل أمر ، وفى عد وتأريخ كل شىء ، متخذين بعض الشخصيات العظيمة بداية ونهاية للعد والتأريخ ، وهم يشغفون حبا بتكرار وصلات الكلام والتعقيب والعبارات الدارجة الشائعة ، مضحين باستقلالهم فى الرأى فى سبيل مجرد ملاقاة سامعهم أو مآربهم على أرض مشتركة ، ثم افتقارهم الميتافيزيقى ، ونقصهم فى الفكر المتخيل ليس فقط فى معالجة الأسئلة ، ولكن أيضا فى معرفة ماهية الأسئلة . كل هذه الصفات تبرز أكثر وأكثر كلما توغلت فى قراءة الألمان ومؤلفاتهم . وان المرء ليتساءل متعجبا — ترى أين ومتى يتم الوفاق بين كل هذه الصفات القومية المتنافسة التى يزاحم بعضها بعضا ؟ وأحسب أننا نقف موقفا وسطا بين الفرنسيين والألمان فى كلا الذوق والبصيرة الروحية ...

على أن أكثر ما سرنى وبهرنى كان بعض اللوحات الفنية من رسوم الأسفار بريشة الفنان ثيوفيل جوتيه . يا له من عبقرى . بل ما أشد كون العبقرية شيئا مطلقا ؟ انها لعبقرية فذة أن يستطيع هذا الانسان الذى لا يحمل بين جنبيه سوى روح كلب صغير الجسم طويل الشعر ممتلىء صحة وعافية ، وليست عنده أية فلسفة اخلاقية ولا معرفة (لأننى أشك كثيرا جدا فى صحة معرفته بالاصطلاحات الفنية الخ ...) ، على الرغم من كل ذلك أن يعطى المرء متعة كاملة تفوق من يتفوقون عليه فى تلك النواحى ، وهو يؤدى كل ذلك بقوة طبيعة الخير المفطور عليها فحسب ، وبوضوح الرؤية وبتوفيقه السديد فى أسلوب التعبير . ان أسلوبه يبدو لى بالغا الكمال ، وأعتقد انك ستجنى أطيب الثمر اذا أخذت على عاتقك دراسته مرة ومرة ...

اخوك

« و . ج . »

وبعد بضعة أسابيع ، وفى رسالة بعث بها چيمس الى والده ، نجده يسجل قراءته للفيلسوف كانت ، وبدء المامه بفلسفة تشارلز رينوفير ، وهو حادث ما كان فى وسعه عندئذ أن يقدر ما ينطوى عليه من أهمية وخطر تقديرا كاملا (٢) .

وثمة رسالة بعث بها الى توم وارد تلمس فيها طريقته المعتادة فى الاعتراف وفى التأويل الأخلاقى :

ديفون ٩ أكتوبر (١٨٦٨)

« عزيزى توماس العتيد :

كل ما فعلته فى الشهور الستة الاخيرة هو الاستمرار فى الدهدهة (الدحرجة) التى اوصيتك بها ، وعلى الرغم من أن ما أنجزه كل يوم يبدو ضـــئيلا ــ هزيلا ــ الا أن الحصيلة النهائية لا بأس بها . اننى لم أبدأ بعد فى المضى قدما على الصراط المستقيم فى أى وجهة خاصة من فروع العمل ، وانما لا أزال أحوم وأرفرف وأغطس وأحفر وأنقر لولوج بوابات علم النفس . وليس فى وسعى أن أقول اننى ــ حتى هذه اللحظة ــ قد تعلمت شيئا ذا بال ، كما أننى لا أستطيع القول بأن **قبلة** واحدة قد لاحت لى فى الأفق ، بيد أننى اشعر بنوع من الاحساس الباطنى بأن هذا الشتاء سيكون بشيرا بانقشاع السحب ، واننى ساجد نفسى **أبربط** فى بركة صغيرة من المحتمل أن تكبر وتزيد مساحتها. وأحيانا يداخلنى شعور بخيبة الأمل من جراء تفاهة نشاطى واحساسى بأنه عبث باطل. والحقيقة اننى لست مؤهلا بالطبيعة لكى أكون عاملا فى حقل العلم فى أى نوع الى درجة بادية العجز ، ومع ذلك وبفضل ذلك القانون العظيم للكون ...

فان مثلى الأعلى فى الحياة هو حياة علمية . وسأشعر بأن حياتى خالية من كل قيمة اذا اقتنعت بالعجز العلمى **المطلق** ، فى حين أنه فى الحقيقة اذا كان هناك امرؤ لا عمل له سوى المحافظة على أم أبيه أو أم أمه حية فانه فى هذه الحالة يعتبر فاعل خير عظيم ، كما قرأت فى كتاب رودين لتورجينيف منذ بضـــعة أيام ... ٥٢ . ثم ٥٦ يا توم ... أنتم ايها الأشبال الأقوياء البنية ، الذين يسافرون بمحض ارادتهم وتحت مسئوليتهم الخلقية ، موضع حسد أكثر من أى انسان آخر فى الدنيا . ما أشد تماسك نسيج حياتهم ! لا توجد خطوة يخطونها تافهة أو سخيفة . وبمعيار المبادىء المادية الصرفة فانهم أعظمنا نجاحا وحظا من التوفيق ، وأكثرنا قابلية للسعادة . هذا الطراز من الناس يدرك مأربا مطلقا دون أن يخرج من اهابه . ويقومون أنفسهم بما يسعون فى طلبه وليس بما يدركونه ! يا لهم من فصيلة نفيسة فخمة من الحيوان ، وانهم ليدحرون البقر الذى تتحدث عنه ــ ويقرعونه باطلا وكاذبا على دربهم الموصول من الاطلاقية المتناهية . لقد تسممت بسم المذهب النفعى الزعاف ؛ وأحيانا عندما ينتابنى اليأس من أننى لن أفلح

(٢) October 5, 1868 ; L.W.J., I, 138 ; for Renouvier, cf. below, 121, 123, 135, 144, 148, 152-3, 352.

أبدا فى عمل أى شىء ، فاننى أقول : « لماذا لا نخطو الى الظلام الأخضر ! » ولكننى لا ألبث ان أذكر أنه مهما تكن معظم نتائج عيشى كريهة وقبيحة ومدعاة للسخرية ، ومهما يبد الاختمار والتفتيت والتبخير والاشعاع الذى سيعقبها سليم النيـــة ومرغوبا فيه اذا ما قورن بها ، الا فى طوايا نسيج الأولى توجد بعض أسمال ونسالة الجمال التى قد تظل أبد الدهر مادامت قد قدت ··· انهـــا ستبقى وتعيش ··· بعض خرق ومزق من الرجولة (أفكار ــ ابتسامات) وعلى الرغم من أنها خرق ومزق الا أنها أكثر قيمة للعالم من الاختمارات والتفاعلات الكيميوية التى قد تحل محلها . وقد لا تكون أكثر استحقاقا لوعيك بذاتك كشخص ، بل لعلها مجلبة للألم أكثر منها للمسرة ــ ولكنها اذا قومت كوجود فانها فئة أكثر نبلا من الاخرى ··· والكل فى الكل ، نحتى تمامة الاخلاق وكناستها وأدرانها أفضل وأحسن من التفاعلات الكيميوية . وعلى هذا النمط أجلد ظهرى بالسوط ، وأبدأ مرة ثانية ، من جـــديد ، ماضيا الى غايتى ··· وداعا يا عزيزى .

المخلص

و م · چيمس »

فلما عاد چيمس فى نوفمبر سنة ١٨٦٨ الى كامبردج كان قادرا على متابعة دراساته الطبية على نحو موصول هيأه لأن يتقدم لنيل اجازة الطب فى الربيع التالى · وفى نفس الوقت الذى استأنف فيه دراســـاته فانه استأنف أيضا أحاديثه ومناقشاته مع أصحابه ، وخصوصا وندل هولمز وتشارلز بيرس الذى فتنه وخلب لبه بغوامضه والغازه المبهمة ، والذى أصبحت حياته المهنية مسئولية قدر له أن يحمل عبئها على ضميره زهاء أربعين عاما . ونظرا لأن بوديتش كان يقيم بعيدا فقد اســتمر چيمس يراسله ، وظل يتابع أبحاثه الفسيولوجية باهتمام وشغف لا يخلوان من حسد . والرسالة التالية تمثل أصدق تمثيل هذه الفترة التى تتخلى فيها الاهتمامات الفكرية التى لا تردع ولا تقمع وهى تناضل وتجاهد ضد وهن العزم والصبو الى الاخلاد الى الراحة والهجوع . ولما كان يتعين عليه كتابة بحث علمى للحصول على دبلوم الطب فقد اختار موضوع « الجرد » .

كامبردج ٢٤ ــ ٢٥ يناير سنة ١٨٦٩(٣)

« عزيزى هنرى ،

لقد فارقنى تشارلز بيرس لتوه ، وقبل رحيله كنت أتحدث معه عن بعض مقالات له نشرت فى مجلة سانت لويس للفلسفة التأملية St. Louis Journal of Speculative Philosophy . والتى كنت قد قرأتها من قبل . وهى مقالات فى غايـــة الجرأة والعمق والابهام ، ولا أستطيع القول بأن توضيحاته الشفوية قد ساعدتنى كثيرا على فهمها ،

(٣) Parts of this letter are reprinted from L.W.J., I, 149-50.

وان كانت مع ذلك ذات وقع غريب فى نفسى أثار شغفى واهتمامى ! (٤) . ان هذا المسكين لا تلوح امامه بارقة امل فى شغل منصب الاستاذية فى اى مكان ، ومن الرجح ان يمضى فى المرصد بقية حياته . وانه لأمر يدعو للرثاء والأسى أن رجلا مبدعا أصيلا من طرازه ، راغبا وقادرا على تكريس قوى حياته للمنطق والميتافيزيقا ، لا يجد مجالا خصيبا يكسب منه عيشه ، فى الوقت الذى توجد فيه عشرات من مناصب الاستاذية التى تصلح له ويصلح لها ، وهى لا تغدق الا على رجال مستقيمى الرأى « مأمونى » الجانب . وانى لاعلم أنه محق وعلى صواب فى أن يشعر بالمرارة وخيبة الأمل حيال مستقبله المأمول ، ولكنى احسب أنه يجب عليه أن ينتظر وينتظر — مثلما يفعل الألمان — حتى يشتعل رأسه شيبا ... ما زلت « انتظر وقتى » هنا . عندى ظن أريب (لن أضعه فى صيغة اعلان قاطع ، خشية أن يسمعها حظى اللئيم فينقلب علىّ كما فعل من قبل) ، وهو أن التوفيق بدأ يحالفنى ، واننى بدأت أمضى قدما ... وندل هولمز يحضر كل أسبوع حيث نتشدق معا ... اخى هارى سيذهب الى الخارج فى الربيع — وفى مرجوى أن يحل بباريس قبل رحيلك ...

آمل ان تكون هذه الرسالة مفككة وبلا ترتيب بالدرجة التى تكفيك . ماذا فى وسع امرىء ان يكتب عندما يطوى وجوده قلعة وكل مطمحه فى الحياة — هو شرود الفكر والذهول عن الحياة ؟ ومع ذلك فستأتى ايام احسن ، وستحمل معها رسالات أحسن .

وداعا . المخلص الى الأبد

و م . چيمس »

وواصل چيمس مراسلاته الى هنرى بوديتش عن دراساته الطبية وآماله المرجوة فى المستقبل :

كامبردج ٢٢ مايو سنة ١٨٦٩

« عزيزى هنرى :

انى أشعر بكمد من جراء الصمت الطويل الذى التزمته نحوك ، ومع ذلك فلم انقطع عن التفكير فيك بحنين جياش ، ولكنى كنت أفتقر الى تلك الأخبار السارة البارة الحاسمة لكى أحملها اليك ، والتى بدونها لا تبدو الكتابة عملا طبيعيا ... من المستحيل على الآن — كلية — أن ادرس على اى نحو ، ولقد أفلحت أخيرا فى الكف عن المحاولة — باخلاص وصراحة . ومع كل ذلك ، فلم يسبق لى أن شعرت بالابتهاج قدر شعورى الآن. لقد فعلت ما فى وسعى ، وانه لعمل خسيس من المرء أن يتبرم ويزمزق بما يفرض عليه من الخارج ويحمل عليه حملا قضاء وقدرا . سلمت بحثى وبطاقاتى للأستاذ هودجز

(٤) Peirce published three articles in this Journal in 1868, as follows : "Grounds of Validity of the Laws of Logic," "Questions Concerning Certain Faculties clalned for Man", "Some Consequences of Four Incapacities". He was at thls time emplogyed as assistant a1 the Harvard Observatory

بالأمس(٥) . سيعقد الامتحان فى الحادى والعشرين من يونيه وأعتقد أن الحظ سيكون حليفى وان كنت اشعر بالخجل من قلة المعلومات الطبية التى اعرفها . كتبت بحثا فى موضوع البرد ، دون أى تجارب أو فرصة للرجوع الى أى مراجع عن الموضوع الا تلك المراجع التى فى حوزتى وعددا قليلا من الكتب كنت أطلبها بالذات من المكتبة — وعلى هذا فالرسالة لا قيمة لها ... لقد كتب تشارلز بيرس عددا من المقالات السيكولوجية / الميتافيزيقية ، المتميزة بالحدة الشديدة والابتكار ، فى مجلة سانت لويس الفلسفية St. Louis philosophic Journal ، وان كان اسلوبها شيئا عبوسا لدرجة ان المرء لا يستطيع أن يفقه معناها بالضبط . انه كاتب مبدع ، ولكنه ذو قدرة تعسفية تحكميه تجعل المرء يجنح الى عدم الثقة به . بالامس ثم تثبيت س . و . اليوت فى منصب مدير الجامعة . ولا أحد يجهل ما فيه من نقائص وعيوب شخصية فادحة ، كافتقاره الى اللباقة ، وتدخله فى كل صغيرة وكبيرة ، وجنوحه الى الانتقام والأحقاد التافهة — كلها معروفة للجميع — ولكن أفكاره تبدو لا بأس بها ، ومركزه الاقتصادى من الطراز الأول ، ولذلك ، ونظرا لعدم وجود مرشح آخر لائق — فاز بالمنصب . وانه لامر يدعو للعجب أن مثل ذلك المنصب يتسول مرشحين الحافا لشغله .

اخى هارى فى انجلترا الآن يتمتع بالمناظر هناك **بصولة** . آمل أن تلتقيا عاجلا ... وندل هولمز يزورنى مرة كل أسبوع . ولقد أخبرنى جون رويس(٦) منذ بضعة أيام أنه لم يسبق له فى حياته ان عرف دارس قانون يضارع وندل فى كده وجده فى الدراسة (وهذا لابد أن يفضى به الى منصب رئيس المحكمة العليا للولايات المتحدة الأمريكية) . ان وندل يسلينى لكونه يتألف على الأقل من شخصيتين مختلفتين ونصف شخصيته من الناس مطوية فى لفة واحدة . والطريقة التى يحتفظ بها بهذا المزيج معا فى اهاب واحد دون عراك أكثر مما هو حادث فيما بينها ، طريقة فائقة جديرة بالاعتبار . اننى أحبه وابجله الى درجة تفوق الحد ...

اسمع يا فتاى العزيز العتيد ... اكتب سريعا الى شخص عزيز عليك ، وزوده بصورة كاملة عن ميزانية تقدمك فى الشتاء ، مبينا المكسب والخسارة جملة وتفصيلا . كم أنا مشتاق الى أن أسمع منك . صديقك دائما

و م . چيمس »

فأما هنرى چيمس الصغير فقد كان الآن فى أوروبا وبذلك أصبح وضع الأخوين معكوسا ، وحل كل منهما محل الآخر . هنرى يكتب أخبار المغامرات من بعيد ، فى حين أن وليام يعبر عن الاهتمام الحمس وما يعتمل فى دائرة الأسرة فى كامبردج من بلبال وجزع .

---

(٥) Richard Manning Hodges was at this time adjunct professor of surgery at the Medical School.

(٦) John Codman Ropes (Harvard LL.B., 1861) was a fellow student of Holmes at the Law School.

كامبردج ١٢ يونية سنة ١٨٦٩

« عزيزى هارى ،

يا قوم ادعوا أخى ليعود الى ،	O call my brother back to me,
لا أستطيع أن ألعب وحدى .	I cannot play alone.
أقبل الصيف بزهره ونحله ،	The summer comes with flower and bee
وأخى لم يقبل ، فأين ذهب ؟	Where is my brother gone?

رسالتك الثانية من جنيف ... وصلت فى التو واللحظة ، وأهاجت كوامن عاطفتى التى عبرت لك عنها فى الأبيات المذكورة المعروفة ... لدرجة أننى لا استطيع ضبط نفسى لحظة واحدة ، وانما جلست من فورى لأكتب لك ... فى يوم الجمعة القادم سيتم امتحانى الاكلينيكى فى المستوصف (ولقد حاولت أن أعفى من هذا الامتحان ، ولكنى لم أفلح) وفى يوم الاثنين الذى يليه سيكون الامتحان الكبير . ان فكرة الامتحان تبدو مريعة ومخيفة ، وتزداد فى ذلك كل يوم ، وكم أتمنى أن أفرغ منه وأنتهى . لقد كان البحث الذى قدمته لائقا ، وأحسب أن الدكتور هولز سيعارض فى نتف ريشى مهما كانت اجابتى فى الامتحان رديئة ــ ولكن الحقيقة التى لا سبيل الى محوها هى أننى أشعر أننى لست مستعدا استعدادا كافيا . وليس عندى شك فى أننى سأشعر بتحسن جسمانى واضح عندما ينتهى كل شىء . بيد أن شعورى بعدم استعدادى بدلا من أن يحفزنى على المذاكرة أوجد فى نفورا وتقززا من موضوع الدرس ــ ولقد اكتشفت اكتشافا وأنا أسلم أوراق ووثائق سجلى الدراسى للعميد ، ولقد سرنى هذا الاكتشاف وأبهجنى . أما هذا الاكتشاف فهو أنه اذا أضفت ــ بكل أمانة وذمة ــ كل أسبوع عملت فيه أى عمل سيصل بالطب على نحو ما ، فاننى لا أستطيع ان أجمع ما يزيد على ثلاث سنوات وشهرين أو ثلاثة . وثلاث سنوات هى الحد الأدنى الذى يسمح للانسان بدخول الامتحان ، ولكن حيث اننى بدات منذ وقت مبكر يعود الى عام ٦٣ ، فقد اعتبرت نفسى درست حوالى خمس سنوات ، ولقد شعرت بالخزى من جراء الاستعداد الفائق لزملائى ــ الذين يفوقوننى ــ للاجابة عن الأسئلة وتشخيص الحالات . وضعى الجسمانى على ما هو عليه ، ولكنى ــ كما قلت ــ أحسب أن الصيف سيحدث بعض الفرق . وفى غضون ذلك فانا راض تماما بأن القوة التى منحتنى هذه الكفايات والقدرات ، فى وسعها حتما أن تستدعيها جزئيا أو كليا عندما وبأى نظام وترتيب تراه مناسبا . واعتقد اننى لن أقيم أى وزن ولو مثقال ذرة ــ الآن ــ اذا أصابنى العمى ... انك تقول انك تقصد الكتابة لى عما كتبته لك عن ألمانيا . لقد حررت رسالة اخرى عن نفس الموضوع منذ ايام قلائل ... وفى مرجوى أن اللهجة التشريعية لنصيحتى لا تسىء اليك وتكدرك . اننى ألجأ اليها من أجل الاقتضاب والايجاز كما يفعل واضعو القوانين ...

المحب لك دائما

و م . چيمس »

على أن نجاح چيمس فى امتحانه الطبى « دون صعوبة » فى ٢١ يونية سنة ١٨٦٩ جلب له الفرج فى معنيين : لقد أزاح عن كاهله عبئا ، وفى نفس الوقت كان بمثابة دعامة ومرتكز لثقته بنفسه . وقبل ذلك بوقت

طويل كان قد كف عن أية نية لممارسة الطب ٠ وبعد نجاحه سافر مع أسرته الى بومفريت فى عطلته الصيفية ابتغاء الاستجمام ، وابان وجوده هناك أوجز هذه المرحلة كما يلى :

« وهكذا اسدل الستار على مرحلة من عصور حياتى ـ وهى مرحلة لها أهميتها ، وانى لأشعر بها ، فى « غلتها » العلمية ، وفى قيمتها التربوية العامة ، باعتبارها تتيح لى ـ أنعد الى داخل طرائق وأعمال مهنة هامة ، وأن أتعلم منها ـ كرجل يمثل المتوسط العادى ـ كيف يؤدى كل عمل المجتمع الانسانى . اننى أشعر بنهم فكرى كبير فى هذه الأيام ! أنا جوعان وظامىء الى الفكر ، واذا سمحت لى صحتى فليس عندى أدنى شك انى أريد أن أفيد من تحررى ـ فائدة مشكورة معتبرة ـ متميزة فى دراسة جادة ٠ وفى مرجوى ـ حتى اذا ظلت صحتى كما هى الآن بحالتها الراهنة ـ ألا أركن الى الكسل والتراخى على الاطلاق ، وساحاول أن أقرأ كل ما فى وسعى قراءته بحيث يكون متصلا بالموضوعات السيكولوجية(٧) ٠

وكان چيمس فى أثناء صيف سنة ١٨٦٩ قد تسلم عددا من الرسالات من أخيه هنرى الذى كان يقوم بسياحة فى سويسرا ، وكان يسبح على موجة عالية من جيشان العافية الجسمية . وفى سبتمبر استبدل قمم الجبال الطبيعية لسويسرا بالمرتفعات العاطفية والروحية لايطاليا ، ثم أخرج ما به من دوار وميدان فى سلسلة من الرسائل الطويلة المتوهجة الزاخرة بالمتعة التلقائية والتقويم الفاحص على السواء .

كامبردج ٢ أكتوبر سنة ١٨٦٩

« الأعز هارى :

فى مدى عشرة أيام تسلمنا منك رسالتين ـ احداهما مرسلة من كومو ، والأخرى من بريشيا ، وحقا ما أحلاهما وما ألذهما من رسالتين ٠ انه لبلسم للقلب أن يفكر فيك وقد تمكنت أخيرا من أن تعب وتنهل جرعات كاملة من الجميل والعتيق . وكما قالت الوالدة العزيزة منذ أيام ، فانه يبدو أن حياتك كلها لم تكن سوى استعداد لهذا . منذ أن كتبت لك من بومفريت من شهرين حدثت أمور كثيرة جدا ، وجدت أحداث متنوعة ، لدرجة أن جعبتى زاخرة بالكثير الذى أريد أن أخبرك به عن أمور شخصية وخلقية وروحية وعملية ، الأمر الذى جعلنى فى حيرة من أين أبدأ ، وكيف أستهل لك هذه الرسالة . وعلى أية حال فلا مفر من أن تتزاحم بعض الأمور وتتداخل بعضها فى بعض. على أية حال ، أولا اسمح لى أن أتحدث عن صحتى . لقد سارت الأمور على ما يرام ، ودبت فى العافية زهاء ستة أسابيع فى بومفريت ، وبدأت أشعر بأن الأسقام هجرتنى الى غير رجعة ، ولكن فجأة هجرتنى الصحة وانتابنى السقم قبل رحيلى بأسبوع ...

W.J. to Henry Bowditch, August 12, 1869 ; L.W.J., I, 154. (٧)

والنتيجة أننى أجد نفسى عاجزا عن التنبؤ بحالتى كما كان فى وسعى أن أفعل من قبل ، ولكنى على العموم أشعر ان ذلك مما يشجعنى ، لانه بينة على أن الحالة – مهما تكن – مدوارة ومتقلبة ، ولست حتما مقتضبا ... اننى أشعر بهبوط كبير فى القــوة العصبية ، ولذلك عزمت على أن أقلل من قراءتى بقدر الامكان فى هذا الشتاء ، وأن أكف عن الدراسة مطلقا ... اى اننى لا أقرأ شيئا يثير شغفى وتفكيرى . ثمة كتب كثيرة فى السير والتراجم والتاريخ والأدب ، كان فى مرجوى دائما أن أقرأها يوما ما ، ويظهر أن ميقاتها قد حل الآن . ولقد أصبح من هجيراى أن أرجىء زياراتى للمساء ، فأقوم بزيارة كل ليلة ما استطعت الى ذلك سبيلا ، بدلا من أن أقبع فى البيت كما كانت عادتى حتى الآن . وانى لعاجز عن التعبير لك يا أخى العزيز عن مدى اعجابى بجســـارتك الصامتة التى أفصحت عنها ابان هذه السنين الطويلة ، وان اعجابى ليزيد ويزيد على طول الخط ، وقد بلغ الذروة فى المدة الأخيرة . لم ادرك أبدا – الا فى خلال الشهور الثلاثة او الأربعة الأخيرة – مدىطاقتك وتحملك للعبء الذى تنوء به العصبة أولو القوة ، والذى يتطلبه انجاز كل هذه الأعمال الادبية وخصوصا نشاطك الاجتماعى الجبار الذى لا يكل ولا يمل ولا يتقلص . اسمح لى أن أعترف بالهزيمـــة وأقر بعجزى كرضيع اذا ما قارنت نفسى بك ، وأن كنت من حين لآخر أجد قلبى متقد الجذوة ، وعزيمتى تسترد قوتها بموجة مفاجئة من ذكرى سلوكك ...

لقد عاد توماس سارجنت بيرى فى أطيب صحة بعد اجازته . ان تواضعه الصادق وشعوره الحانى الباسط نحو كل انسان ، علاوة على روح دعابته وحماسته ، يجب أن تنال حظها من التقدير العظيم ، والا تبخسه ما هو أهل له من التجلة والاحترام . كلما عشت فى الحياة وزادت تجاربى ، أحسست بسوط عذاب برود وأنانية وغرور الناس يلهب ظهرى ، وأحسب أن توماس سارجنت بيرى مبرأ من هذه العيوب الى درجة العذوبة والحلاوة . خذ مثلا – وندل هولمز – كل صفاته النبيلة مسممة بهذه العيوب . وبقدر ما أحب أن أكون له وليا حميما ، بقدر ما أرى أن الخير الذى فعله معى من النوع الذى يجعلنى أريد أن أركله بقدمى أو أعرض عنه وأنأى بجانبى بدلا من أن أقبل عليه وأتبعه وأعتنقه . لم أره الا لماما فى الربيع ، ولكنى أتوقع مجيئه الليلة الى هنا ... لقد نسيت أن أحدثك عن قصتك « جابريل دى برجـــيراك » ، وما أنسانيها الا وندل هولمز أن أذكرها ... ان لمساتها رائعة بارعة ، ولكن الخاتمة dénouement سيئة فى كونها لم تنته بموت كوكيلن فى ذلك اللقاء العاصف بدلا من دخولها دير الراهبات . وعلى الأقل كان ينبغى أن يكون معها أوراق اعتماد Lettre de cachet وتظل على مقاومتها للفايكونت ثم ينتهى الأمر بدخولها الدير . ان خاتمة القصة مملة وفى نفس الوقت بعيدة الاحتمال . فى مرجوى الآن أن أكون أكثر انتظاما فى الكتابة اليك . اغترف ما شئت من المتع وطيبات الحياة هذا الشتاء .

محبك دائما

و . ج »

وفى باكورة أكتوبر وفى أثناء زيارته لمدينة فلورنسا وقع هنرى طريح الفراش بمرض أصابه لعدة أسابيع ، ولقد أسهب فى وصف أعراضـــه

طالبا المشورة الطبية وملتمسا العلاج من الطبيب النطاسي الجديد ، وضمن رسالته أيضا ما اعتمل في نفسه من هواجس أخوية وبلبال ينطوي على شبوب فلسفي فيما يلي :

« انني لاحس بالسقم عندما أفكر في حياتك وقد أصابتها هذه الآفة الفظيعة . ولن أبوح للأسرة بشيء عنها حيث انهم لن يستطيعوا أن ينفعوك بشيء ، ولن يصيبهم من ذلك الا الالم والحسرة . ولكن أرجوك الا تتردد من الآن فصاعدا في أن تحيطني علما بكل تفاصيل حياتك . ادعو الله مخلصا أن يهيىء لك من أمرك رشدا ، وأن يهديك الى الطريق المفضي الى الصحة والعافية وبركة الحياة . لماذا نتعذب على هذا النحو ؟ لست أدري – وأحسب أن فلسفة الوالد العزيز لن تفلح في تفسير ذلك أكثر من أية فلسفة أخرى . ولكن على حد تعبير باسكال : "malgré les miséres qui nous tiennent par la gorge" (وعلى الرغم من التعاسة والبؤس والشقاء التي تمسك بخناقنا) فان في كل منا غريزة الهية مقدسة ، وفي ختام الحياة فان الخير يبقى والشر يهوي خائرا في أعماق الظلام (فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) . واذا كان وجود الشر ضربة لازب في هذه الحياة ، فلماذا لا يصيبنا – أنت وأنا – كما يصيب بقية الناس ؟ لماذا لا نكون من ضحاياه – أنت وأنا مثل أي انسان آخر – والمشكلة هي : هل لابد من وجوده ؟ وهل لامناص من أن يكون له ضحايا ؟ هذه هي المسالة(٨) .

فلما أبل هنري من مرضه ذهب الى روما حيث « كان يمشي في الشوارع يتمايل ويلف ويدور ويتأوه في نشوة من الطرب وحمى المتعة» ، ومن هناك بعث بعدد من الرسائل الفائقة الرائعة ، التي سجل فيها خبراته (الموضوعية والذاتية) لأسرته في كامبردج (٩) .

كامبردج ٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩

« عزيزي هاري :

ان رسالاتك التي بعثت بها من ايطاليا تتجاوز المدح والثناء . وانه لما يدعو الى الأسف والحسرة أن مثل تلك الرسائل تنجب لكي تنزوي على استحياء بعيدة عن جمهور القراء والرأي العام ، وأن المادة التي تحتويها عينا – وربما في أسلوب أقل طوافا وهيمانا – لا تنشر على الملا في أعمدة صحيفة الأمة The Nation انا نقرأ أجزاء منها على بعض زوارنا من أصحاب الذوق والتذوق ، فتحدث فيهم « طربا حقيقيا » . ولقد حمل الوالد بعض رسائلك ليطلع عليها امرسون في كونكورد منذ بضعة أيام . فلما قرأها على مسامعه ألح عليه باصرار أن يتركها له لكي يتمعن فيها ويدرسها دراسة مستفيضة ، ولكن الوالد أبى . فلما قابلت أدوارد (امرسون) في المتحف الاغريقي في اليوم التالي ، قال لي

(٨) October 25, 1869.

(٩) To W.J., October 30, 1869 ; L.H.J.[2] , I, 24-5.

ان أباه لا يفعل شيئا سوى الحديث عن رسائلك . أعتقد انه ينبغى أن تكون هذه العينة فيها الكفاية لك .

أما فيما يتعلق بشخصى المتواضع فان ملاحظاتك اللاقطة النافذة الجديرة بالاعجاب بخصوص الفن ــ أصابت كبد الحقيقة . اننى أفهم جيدا واشاركك وجدانيا فيما لابد أن يكون قد اعتمل فى نفسك من أحاسيس حيال كل هذه الكنوز الغالية ! انى لأفهم جيدا ذلك الوازع العجيب الذى يشبه المخاض ، والذى يحفز المرء الى اخراج الروح واستخلاصها مما يحتويها من « ارواح شريرة » ، ثم انجابها حية نابضة فى كلام وتعبير ، والتى يستحيل ترجمتها بموجب طبيعة الأشياء ، ولكن كل محاولة لاقتحام معاقله فى علاها ــ تنتج مع كل غمرة ونزع وغصة من الفشل والاخفاق ــ احساسا احد وشعورا أشد بحقيقة الموضوع الذى يفوق الوصف ولا ينطق به ومن ثم ترحيبا بشوشا بالخضوع لنيره . لقد مستنى تلك الجذوة وشعرت بحماها تسرى فى أوصالى ابان وجودى فى درسدن المتواضعة ــ فما بالك وأنت من انت ــ وأمامك كل تلك الفرص الكبيرة المتاحة ــ لا ريب أنها ستفتح أمامك آفاقا فكرية جلية تنضج خبراتك وتؤتى منها أكلا سابقا لأوانه ... من المرجح أنه ميسور النقل للآخرين وقابل للتداول والايصال للغير ... وما من نفع يرجى او يفى بالغرض أن يثق المرء ويعتمد على المادة المترسبة فى الذاكرة . لا شىء يستطيع أن يحل محل تسجيل المذكرات وهى فى فورة حرارتها واتقاد جذوتها ــ وآمل الا يفوتك ذلك لكى تفيد منها على مدى الزمن .

ان ما قلته عن الآثار القديمة وعن فن المعمار مس وترا حساسا من صميمى . ان الأمر ليبدو كما لو كان الفرق بين الكلاسيكى والرومانتيكى فيه شىء من التطابق الميتافيزيقى فى التوازن ، وأن الفرق لم يكن سوى رمز من الرموز .

انقع نفسك فى الرمز ، ولعل المعنى يبرق أمامك فجاة بأشعة الصواب . انك لا تدرى مدى شعورى بالرضا لكونى أصبحت قادرا ــ أخيرا ــ على فقه هــــذه الأمور ورؤيتها بوضوح ، وكم أدعو لك أن تبلغ فى النهاية من القوة ما يمكنك على أن تسلك حياة عملية خصيبة تتيح لمواهبك أن تؤتى أكلها وأن تحمل من الثمار ما هى خليقـــة به وما هو حلال لها ...

فى المدة الأخيرة عكفت على قراءة مؤلف ماكس مولر « شظايا » (من ورشة ألمانية) ، وقد قرأته بسرور بالغ ، وكذلك قرات ما تيسر من ليوباردى ، وأحسب أن لغته الايطالية ليست بمستعصية باية حال ، ثم ان مادته وأسلوبه يروقان لى بشـــكل عجيب . أن الاقتباسات التى استخلصها س.ا. نورتون من شاعر فارسى ، ونشرها فى العدد الأخير من North American Review روائع جبارة(١٠) . اقترض الكتاب منه اذا واتتك الفرصة ... ان الزمن يدور بى كالاعصار ... ولقد بدات فى الانتظام فى عادة الزيارة المسائية ... أكتب أخبارا طيبة عن نفسك لأخيك ،

« و . »

---

(١٠) Norton's citations from Fitzgerald's translation of Omar Khayyâm, October, 1869.

وبتاريخ ٢١ ، ٢٣ ديسمبر كتب هنرى لوالدته وصفا لخليج نابولى وبومبى وبايستوم ، وتفصيلا لأحداث وصوله الى روما :

« والآن وأنا على وشك الرحيل من ايطاليا — أشعر بقوة مضاعفة ببلاغتها الساحرة وحسن بيانها ، وأقلب فى كنوز هذه الشهور الأربعة الاخيرة بنفس الهيام الذى يقلب به جامع العملة الحبير فى مجموعة نادرة من السكة والنياشين النفيسة » .

واحتوى رد وليام — فى التاسع عشر من يناير — على الفقرة التالية:

لقد تمتعت فى الأسبوع الماضى باللذة العظيمة لقراءة « بيت الثرثارات السبع » "The House of the seven Gables" ولم أكن أتوقع أن يكون مؤلفا عظيما بهذه الدرجة . انه يشبه السيمفونية الرائعة — كل لحن فيها متناغم فى الكل بحيث لا تستطيع أن تبدل فيها لمسة أو همسة دون اخلال بالنغم . لقد أحدثت فى نفسى انطباعا عميقا ، وانى لأحمد الله أن هوثورن كان أمريكيا . ثم ان هذا الكتاب — دغدغ عزتى القومية الى درجة كبيرة من جراء وجه الشبه بين أسلوب هوثورن وأسلوبك وأسلوب هاولز — حتى لو كنت فيما مضى قد لاحظت وجه الاختلاف والعكس . وحقيقة كونك انت وهاولز — على الرغم من وفرة النماذج فى الأدب الانجليزى أمامكما للنسج على منوالها ، تجنحان الى تقليد هذا الأمريكى بطريقة تكاد تكون غير ارادية ، هذه الحقيقة تومىء الى وجود خصيصة عقلية أمريكية حقيقية . ولكن ... معذرة فلأقتصد فى بصرى وأكف عن الكتابة .

أخوك المحب دائما

« و م س . »

وأجاب هنرى على هذا التعليق الأدبى فى ختام رسالة حررها فى الثالث عشر من فبراير بعد عشرة أيام من عودته الموفقة الى انجلترا :

« أنا سعيد لتقبلك هوثورن بقبول حسن . وفى نيتى أن أكتب قصة — يوما ما ، وعسى أن يكون قريبا — (ولعلها) تضارع قصة « بيت الثرثارات السبع » .

الاثنين ١٤ . بهذه النبوءة المروعة التى انعقدت عليها نيتى بالأمس أمسكت بالقلم وشرعت ... لذلك لا تلمنى اذا ختمت رسالتى ... عندما بدأت فى كتابتها كان فى نيتى أن أتحفك بموجز عظيم لرحلتى فى ايطاليا . ولكنى عدلت — ولذلك لن تظفر بهذا الموجز ... الآن ، من حسن حظك ... وداعا . بلغ حبى للجميع . أخوك الى أقصى فروة الأخوة .

« هـ . چيمس الصغير »

١٣

كبوة وصحوة

فى أثناء خريف وشتاء سنة ١٨٦٩ هبطت معنويات چيمس على نحو موصول ٠ ولقد كتب الى بوديتش عن مشاكله الخاصة ومتاعبه الشخصية، كما أحاطه علما بما يدور على الألسن من قيل وقال فى الشئون الطبية المحلية ، وبما يعتمل فى نفسه من أسى وحسرة لهجرة الفسيولوجيا التى كان بوديتش يواصل دراستها بنجاح وتوفيق بدلا منه ، وأفضى اليـــه برأيه فى الحرب الفرنسية ـ البروسية التى أثرت فى وجـدانه تأثيرا عميقا . والرسالة التالية ـ الى بوديتش تمثل كل ذلك أصدق تمثيل :

كامبردج ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٦٩

« عزيزى هارى :

أعلم أننى شقى تعيس ، لاهمالى لك كل ذلك الوقت دون أن أخط لك حرفا واحدا . لقد كنت فريسة للتقزز من الحياة طوال الشهور الثلاثة الأخيرة ـ بلغ حدا جعل كتابة الرسائل تكاد تكون مستحيلة ! ... لقد استمعت الى جزء من رسالة بعثت بها الى جيفريز وايمان ، قرأها على منذ ليال ، وسعدت اذ علمت انك بخير وعلى ما يرام ، وانك فى جوف هذا الترف الفسيولوجى الذى تصف به معمل لودويج . اليك آخر الأنباء هنا . فأما حالتى ـ فيؤسفنى أن اقول أنها تسير من سيىء الى أسوأ بمواظبة فى كل النواحى ، على الرغم من نهفة لطيفة لمدة ستة أسابيع فى هذا الصيف . على أننى بدأت أتجول فى المدينة وأقوم بالزيارات على الرغم مما بى ـ مما ينعشنى ويشرح صدرى . ولكنى هجرت كل طلب للدرس أو حتى أية قراءة جدية من اى نوع ـ بالمعنى الحرفى لكلمة هجرت . فاما الفسيولوجيا والطب فتبدوان لى كما لو كانتا صوتين غائمين آتسن من بعيد منذ أزمان غابرة ...

وندل هولمز يعمل بجد وكد ، وأخشى أن يرهق نفسه اذ عهد اليه بعمل لمدة عامين لتحرير تفاسير كانت Kent ، ونظرا لأنه طموح الى بلوغ حد الروعة والاتقان ، فانه يقول ان الوقت قصير جدا بحيث لا يكفى لانجاز كمية العمل التى أخذ على عاتقه أن يؤديها ، ومن ثم فإنها تنيخ بكلكلها على روحه وتهبط أعصابه ... سأترك لك أمانة تزويدى بأية مراجع جديدة ذات أهمية ، سواء فى الفسيولوجيا أم السيكولوجيا ...

اما فيما يتعلق بجدول المحاضرات الجديد للبروفسور اليوت (١) ، فيبدو أن المقرر العلمي الذى يعطيه كان بداية موفقة ، وفى مرجوى أن يواظب عليه ويجوده . أما المقرر الادبى فيبدو أنه (كشكول تافه) وعديم الفائدة . بالامس استمعت الى تشارلز بيرس يلقى أولى محاضراته التسع عن « المناطقة البريطانيين » . وكان يلقيها بلا مذكرات ، وكانت محاضرته رائعة بارعة فى المادة والاسلوب ووضوح العبارة . ولقد عين حديثا فى منصب مساعد فلكى بمرتب ٢٥٠٠ دولار فى السنة . ولكنى اتمنى له أن يحصل على وظيفة أستاذ للمنسعة باحدى الجامعات . فهذا مجال مهارته وبراعته ــ ويقينا هو ضليع جدا فى هذا الاختصاص بالذات . لم أر فى حياتى رجلا أقدر منه على الغوص فى أغوار الامور والاحاطة بأبعادها على هذا النحو من الشمول والاتقان .

والآن ــ فى وسعى أن أتوقع بكل ثقة واطمئنان أنك ستجلس فورا وتحرر لى رسالة مطولة ، بمجرد أن تتسلم رسالتى هذه . وأعدك بأننى سأكون عنــد حسن ظنك فى المستقبل . فاذا لم تجلس من فورك وتحرر لى رسالة فخير لك ألا تكون قد ولدت قط ، لاننى سأتسبب فى موتك بألوان من العذاب ــ البطىء والفظيع ــ مما لم يسبق لعين بشر أن رأته او لأذن أن سمعته أو لعقل أن تصور له نظيرا ــ عندما تعود . هل فى طوقى أن ابخل بأى شىء نظير قضائى عشرة أيام اخرى معك فى ليبزج على غرار تلك النوبة السعيدة التى نعمنا بها معا فى باريس ؟ لن أنسى ما حييت هناءة تلك الأيام . ولن أنسى ما حييت كل الأفضال والنعم التى أسبغتها على .

تقبل خالص الود الأبدى من صديقك ،

وم . چيمس »

فلما عاد أخوه هنرى فجأة الى كامبردج فى نهاية ابريل سنة ١٨٧٠ فان معظم الذين كان يراسلهم من قبل ــ أصبحوا ــ ابان السـنوات القليلة القادمة ــ جيرانه أو أعضاء من أسرته مقيمين معه فى عقر داره . ومن ثم فان الرسالات التى حررها فى تلك الفترة تعطى سجلا ناقصـا جدا يزودنا بأحداث تلك المرحلة الهامة . ولقد كانت مرحـلة خطيرة الشأن فعلا ، لأنها تميزت ببلوغ الدرك الأسفل من كآبة چيمس وكساده وبدايات تحسنه الدائم وانتهاضه . ثمة خطوات ثلاث الى الأمام واضحة المعالم والتحديد كل على حدة ــ على الرغم من الذبذبات والتأرجحـات المتضمنة فيها والأقل بروزا :

(١) الأزمة الروحية لسنة ١٨٧٠ .

(٢) بدء احترامه لمهنة التعليم سنة ١٨٧٢ .

(٣) زواجه فى سنة ١٨٧٨ .

---

(١) The So-called "University Lectures" designed for "graduates, teacher, and other competent persons.

ولست أقصد بأزمة چيمس الروحية الاشارة بصفة خاصة الى تلك النوبة الحادة من داء السوداء التى وصفها بنفسه فى الجزء الخاص بسيرة حياته فى كتاب أنواع الخبرة الدينية The Varieties of Religious Experience (٢) ولا يمكن تحديد تاريخ تلك الخبرة بالضبط ، وربما يكون قد تعرض لها فى أى وقت بين عودته من أوروبا والتحسن النهائى لصحته فى سنة ١٨٧٢ . على أنها كانت من الأعراض الدالة على حالة الوسوسة وضعف الأعصاب التى انتابته فى أثناء تلك السنوات ، والتى أسهمت فى فهمه للتصوف الدينى وللعقلية المسؤودة . ولكنها كانت تقبضا مرضيا لا أزمة روحية . على أن الأزمة الروحية الجوهرية كانت انحسارا من ارادة الحيـاة الذى استبد به لافتقاره الى فلسفة للحياة يعيش وفقها ، والذى تجلى فى نوع من الشلل فى التصرف والأداء مرده الى احساس طاغ بالعقم الأخلاقى . وفى اليوم الأول من فبراير سنة ١٨٧٠ سجل چيمس فى مذكراتـه اليوميه ثبات رأيه على الاقرار بسمو الأخلاق وسيادتها :

« اليوم ـ كدت ألمس القاع وأدرك بوضوح أنه ينبغى على أن أواجه الاختيار بعينين مفتوحتين : هل أطرح المسألة الاخلاقية بصراحة وأضرب بها عرض الحائط على اعتبار أنها لا تتلاءم مع استعداداتى الفطرية ، أم أتبعها وأمضى فى طريقها ـ فى طريقها وحدها ـ جاهلا من كل شىء آخر مجرد مادة حشو لها فحسب ؟ على كل حال سأعطى الاختيار الثانى فرصة عادلة للتمحيص والاختبار . ومن يدرى ـ لعل الاهتمام الخلقى ينمو ويربو ويصبح متطورا . . . حتى الآن لقد حاولت أن أضرم نفسى بالاهتمام الخلقى وبالمصلحة الأخلاقية كعامل مساعد فى بلوغ غايات نفعية معينة » .

بيد أن المشكلة الشخصية لم تحسم بعد ، لأن صاحب الورع الأخلاقى قد يساق الى اليأس بوجود الشر :

« هل فى وسع المرء ـ بمعرفة كاملة وباخلاص ـ أن يروض نفسه على أن يرق بكل عواطفه لسبيل الكون بأكمله ، وبكل جوارحه وقلبه ، بحيث يرضى بالشر الذى يبـدو قطريا ووليد ذاته فى تفاصيله ؟ هل العقل سيال ومرن الى هذا الحد من الصفاء والنقاوة ؟ اذا كان ذلك فالتفاؤل ممكن . أم ، من جهة أخرى هل المصالح الخاصـة والعواطف الشخصية للفرد لازمة وجوهرية لوجوده بحيث لا يمكن أبدا التهامها فى شعوره حيال السبيل الكلى ؟ وهل الفرد ـ مع ذلك ـ يشتهى عاتبـا نوعا من الوفاق أو الوحـدة على نحو ما ؟ ان التشاؤم فى هذه الحالة لابد أن يكون من نصيبه . ولكن ـ كما هو الحال فى هومر ـ اذا كان عالم منقسم مفهوما يمكن لعقله أن يطمئن اليه ، وفى نفس الوقت يكون عنده من قوة الارادة ما فيه الكفاية لكى يواجه حقيقة « كل من عليها فان » دون ان

(٢) cf. below, 363.

تطرف له عين ، ففىوسعه عندئذ أن يحيا الحياة الاخلاقية . ان وجودا محاربا مجاهدا ، توضع فيه الذات كعنصر أحادى الذرات غايتها الخير وعزاؤها الأخير الوحيد هو المقت الذى لا يقبل المصالحة ولا المسالمة ، على الرغم من أن الشريدبحنى ، الا أنه لا يستطيع أن يغلبنى على أمرى أو يجعلنى أعبده · ان القوة الوحشية كلها تحت تصرف الشر ، ولكن الاحتجاج النهائى لروحى وهو يعتصرنى من الوجود عصرا ويستل أنفاسى — لا يزال يمنحنى — فى معنى معين اليد العليا »(٣) ·

وبعبارة أخرى اذا آثر المرء اختيار البديل « الأخلاقى » ، سواء اتخذ ذلك شكل أمل فى قهر الشر ، أو عقد النية على الموت ببسالة — ففى كلتا الحالتين يحتاج المرء الى « قوة الارادة » التى تنبع من الايمان بحريتها ·

ولقد كان ذلك هو ما استقاه چيمس من تشارلز رينوفيير كما سجله فى مذكراته اليومية بتاريخ ٣٠ أبريل سنة ١٨٧٠ :

« أعتقد أن الامس كان أزمة فى حياتى . لقد اتممت قراءة الجزء الأول من محاولات Essais رينوفيير الثانية ، ولست أرى سببا يدعو الى دفع تفسيره للارادة الحرة على اعتبار أنها « دعم فكرة ومساندتها ، لأنى أريد ذلك بمحض اختيارى فى الوقت الذى يكون فيه لدى أفكار أخرى » — بأنه تفسير واهم غرار . وعلى أية حال فسأفترض مؤقتا — حتى السنة المقبلة — أنه ليس بوهم ولا خداع . ان أول عمل لى من أعمال الارادة الحرة هو أننى سأومن بالارادة الحرة »(٤) ·

ومن ثم ، شعر چيمس بأن الشكوك القديمة التى ساورته بددتها بصيرة جديدة وثورية . ومن المهم ملاحظة أمرين ، **الأول** : حقيقة أنه مارس أزمة شخصية لم يمكن تخفيف حدتها الا ببصيرة فلسفية ، **والثانى** : الكيف المعين بالذات للفلسفة التى يتطلبها مرض روحه كبلسم شاف · على أن مجرد حقيقة كونه قد مارس مثل تلك الخبرة على الاطلاق ، كفيل بحد ذاته أن يزودنا بأحسن برهان ممكن على نزعة عقل چيمس الفلسفية . لقد ظل سنوات كثيرة يفكر ويتأمل ويتدبر فى طبيعة الكون وفى مصير الانسان · وعلى الرغم من أن المشكلة نشطت حب استطلاعه وخلبت لبه· الا أنها فى نفس الوقت كانت مشكلة حيوية جوهرية · لقد كان يبحث عن حل لا يستند فى الدفاع عنه الى احكام المعايير العلمية فحسب ، ولكنه يكون فى نفس الوقت موافقا ومناسبا بما فيه الكفاية للحياة فى كنفه · فالفلسفة

(٣) From loose sheets cut from a notebook, apparently of the same date as the Diary.

(٤) L.W.J., I, 147.

عند چيمس ، لم تكن أبدا مجرد بحث عن الحقيقة فى عزلة خالية من الغرض ، بله أن تكون ترفا أو ضربا من اللهو والتسلية ، وانما كانت سعيا دائما وبحثا دائبا حصيلته موضع رجاء ومناط خشية روح - على المحك - وفى انتظار قضائها • صحيح ان مركز جاذبية سعيه الفلسفى اختلف باختلاف مزاجه وحالته النفسية والصحية • ففى فترات قوته وفورته كان يستطيب اطلاق العنان لقواه التأملية ومواهبه النقدية • وفى أثناء المدد الطويلة من الانتاجية الناشطة بهمة وعزم أصبح - مثله كمثل أى باحث ساع واع - مهتما ببعض المشاكل المعينة فى حد ذاتها ، ولكن وراء ذلك كله كان هنالك شيء يعيد توكيد نفسه مع كل تعمق جديد من التأمل ، شيء حاسم فى تقرير النغم الكلى وتحديد الاتجاه لحياته الفلسفية، ألا وهو مطابقته الفلسفة على العقيدة الشخصية • ففلسفته لم تكن أبدا مجرد نظرية ، وانما كانت دائما مجموعة وثيقة التركيب من المعتقدات التى وفقت بينه وبين الحياة ، والتى نادى بها ودعا اليها كما يبشر صاحب الدعوة بسبيل الخلاص •

وانه لجدير بالتنويه ، من ثم ، أن چيمس كان يتطلب فلسفة لخلاصه ونجاته • ولا يقل عن ذلك أهمية وفحوى الكيف المعين بالذات للفلسفة التى كانت تحتاج اليها روحه المعينة بالذات • فبالنسبة لمزاجه ونزعته ما كان يمكن لحيلة التسليم والاذعان أن تكون أبدا أكثر من مخدر مؤقت، ولقد كان عميق الانسية لدرجة تحول بينه وبين أن يجد سلواه فى السماء أو جنة المأوى • وكان حساسا جدا لدرجة تعصمه من تجاهل الشر ، وخلقيا جدا لدرجة تحول بينه وبين التسامح معه وتحمله ، وحمسا وحميا جدا الى حد يحول بينه وبين تقبل الشر كأمر محتم لا مناص منه • لقد كان التفاؤل عنده مستحيلا كالتشاؤم سواء بسواء • وما كان فى وسع أية فلسفة أن توافقه اذا كانت لا تعترف صراحة وباخلاص بالأقدار والخطوط المبهمة المريبة للجنس البشرى ، وتشجعه كفرد أخلاقى على أن يشد سلاحه ويشمر عن ساعد الجد ويمضى قدما الى المعركة • وبعبارة أخرى - فانه لكى يشفى من ضعفه ويبرأ من عجزه ، كان يحتاج الى دواء الرجل القوى . ولقد كان رجلا قويا - أدركه الضعف والوهن - رجل عمل أقعده العجز والضعف الجسمانى عن العمل ، رجلا لا يسيغ أى تعاليم تدعو الى الركون والى الدعة وايثار العافية أو تدعو الى التملص والهروب والمراوغة - فما كانت تلك التعاليم مقبولة ولا شهية ولا مغذية•

ولكن ما هو دواء الرجل القوى المشعشع لكى يلائم حالته المعجزة ؟ **بشرى الايمان** . لأن الايمان عمل،وهو عمل من نوع معين لايعفى حتى الرجل المريض من الوفاء به • والايمان قد يكون العمل هو غايتــه • وكونك تعتقد ــ نتيجة لتصرف من عمل الارادة ــ فى فاعلية واقتدار الارادة ، فذلك انجيل يلائم سجية العمل ، ومن الممكن الافادة منــــه لكى يعيد للمحارب السقيم لبوس الحرب وسربال الجهاد . لقد كانت أزمة ابريل سنة ١٨٧٠ نقطة تحول ، ولكنها لم تكن دواء ولا علاجا . لقد كانت هناك أمامه سنوات عديدة ظل طريقه طوالها محفوفا بالمصاعب وان كان خط سيره يمضى صعدا بالتدريج • وعلى الرغم من كل الاقرارات الدالة على العكس ، فان عقل چيمس كان عقلا ناشطا بلا توقف .

وفى اليوم السابع عشر من ديسمبر سنة ١٨٧٠ كتب الى توم وارد:

« لقد أسفت لأننى لم أرك ثانية قبل عودتك . ان الحديث معك ثبت عزمى على البحث فى الرياضيات وانعام النظر فيها ــ ليس الآن طبعا ــ ولكن اذا قدر لى أن أصبح قادرا على الدراسة . وفى غضون ذلك أحب أن أضع خطة للمشروع ، لذلك ارجوك ان تكتب لى برنامجا للدراسة الرياضية وقائمة بالكتب التى يتعين على دراستها وبأى ترتيب أدرسها بادئا بالهندسة التحليلية واللوغارتمات » .

هذا نعتى مميز لكلا مثابرة چيمس وكده الذى لا يكل واعتقاده المخلص بأنه ما كان ينجز شيئا . وفى أثناء تلك السنوات من الكتب والاحساس بالحبوط قرأ چيمس كثيرا وبنهم كمية كبيرة من الكتب ــ كما كان ذلك شأنه دائما • وكان يقرأ قراءة هادفة مثمرة ، اذ لديه مقدرة فائقة جدا على الالتقاط السريع والكشف العاجل لما عسى أن يكون فى كتاب أو مقال من مادة لائقة يضع يده عليها • ثم انه لم ينفذ قراره بهجر الدراسة • وظل محتفظا بشغفه الحيوى بالفسيولوجيا ، واستمر يرنو ببصره فى لهفة وشوق ــ وأحيانا فى أمل ورجاء ــ حيال هذا الاتجاه • وفى أثنــاء قراءته كان يفكر ــ وكلما فكر ــ كتب ــ كتب صفحات كثيرة من التحليل والجدل عائدا مرارا وتكرارا الى المشاكل التى حيرته وأعيته •

وفى أثناء سنة ١٨٧١ استأنف چيمس ــ تدريجيا ــ دراساته العلمية، ورحب بتحمس وشوق لافتتاح بوديتش الرسمى لمحاضرات الفسيولوجيا التجريبية فى مدرسة الطب فى خريف تلك السنة • ولقــــد كان شتاء ١٨٧٢ ــ ١٨٧٣ فصلا هاما فى حيـــاته يستحق الذكر بسبب حادثين بالغى الأهمية والدلالة :

١ ــ بدء تراسل چيمس مع رينوفيير .

٢ ــ وبدء حياته كمعلم •

فأما علاقاته مع رينوفيير فسنرجىء الكلام عنها الآن لكى نعود اليها فيما بعد.وأما بدء حياته كمعلم،فأول حقيقة فى هذا الصدد هى أن ارتباطه وتعهده باحتراف التعليم بدآ فى أبريل سنة ١٨٧٢ عندما تلقى وقبل عرضا غير رسمي من هارفارد . وفى شهر أغسطس عين معلما للفسيولوجيا لكى يقوم بتدريسها فى العام التالى مشتركا بالزمالة مع أستاذ التشريح، الدكتور تيموبى دوايت ، وكان هذا المقرر اختياريا للطلاب فى كلية هارفارد تحت اسم «التشريح المقارن والفسيولوجيا» ، وهكذا . وأخيرا ، وبعد تأجيلات طال أمدها ، وشكوك وحيرة وعدم تثبت كثيرة — دخل چيمس وقد بلغ سن الثلاثين الحياة المهنية التى قدر له أن يكرس نفسه لها ، من ثم ، زهاء خمسة وثلاثين عاما . فأما أنه سيكون معلما وعالما باحثا فقد كان ذلك الآن — أمرا مقضيا ومستقرا ، وأما ماذا ينبغى عليه أن يعلم ويبحث فقد كان ذلك — لايزال — عرضة للتغيير . كانت الفسيولوجيا وعلم النفس والفلسفة — كلها تجذبه وتقول له «هيت لك». ولقد انتهى به الأمر الى تدريسها جميعها مبتدئا بالفسيولوجيا — لا لأن شغفه بها كان أعظم ، ولكن لأن الفرصة الأولى واتته فى هذا الميدان . وكان على الفلسفة وعلم النفس أن ينتظرا يومهما — ولم يكن ذلك اليوم ببعيد . وعلاوة على ذلك فان المواد الثلاث كانت متداخلة بعضها فى بعض . فالتشريح المقارن والفسيولوجيا كانا يفضيان عن طريق مفهوم التطور الى فلسفة الطبيعة ، وفسيولوجية الانسان الى علم النفس ، فى حين أن علم النفس كما عرفه چيمس كان يتلمس تفسيره السببى عند الفسيولوجيا ، وكان يبحث عن مضامينه العميقة فى نظرية للمعرفة والميتافيزيقيا .

وكان چيمس معلما صالحا بسبب ما فيه من نزعة وسليقة كرجل وليس بسبب أية طريقة معينة اتخذها عامدا . كان فى قاعة الدرس — تماما كما هو فى أى مكان آخر ، بنفس صفاته ونزعاته،لايتقيد بنظام رتيب — فوارة حية تنعش كل ما حولها ومن حولها ، شخصية جذابة آسرة لا سبيل الى مقاومة جاذبيتها وسحرها الفتان . ولقد زعم بعضهم أحيانا أن چيمس كأستاذ — كان طائرا حبيسا فى قفص ، تواقا الى أن يحلق فى السماء السابعة ، ولكنه رهين محبس واجباته الأكاديمية وما تفرضه عليه من قيود الحذلقة والعمل النمطى المطرد النسق . ولكنه كان يعتبره أمرا فى المرتبة الأولى من الأهمية انه ينبغى على الرجل أن يكون له جدول محدد

من العمل والمسئولية ، ولقد وصف هذا الدواء للآخرين وآمن بفاعليته بالنسبة لنفسه · ولقد كان ـ علاوة على ذلك رجلا تواقا الى سماع الحقيقة التي يعتقد أنها كانت فيه ، ولقد زودته مهنة التعليم بما كان (بالنسبة له) المطلع الاجتماعي الذى لا غنى عنه لاختياره اللوذعى لدعوته في الحياة . كان يتمتع بطلابه ويحبهم وينعشهم ويدفع بهم قدما ، وأحيانا كان ينتهرهم ويعنفهم · كل ذلك ساعد على استنفاد طاقته ، وكان حلول شهر يونيه ـ يجده عادة كليلا منهوك القوى راغبا في الخلاص من تلك الأعباء ·

وقبيل نهاية حياته في المهنة عندما كان يناضل ضد المرض الذى قضى عليه آخر الأمر ، ابتهج طربا لخلاصه الدائم من النير الذى ناء بحمله خمسة وثلاثين عاما · ولكنه بصفة عامة ـ كان فيما يتعلق بعمله كمعلم كما هو شأنه في أى شيء آخر ـ سرعان ما يضيق صدره ويتبرم بأى عمل يؤديه ، وبنفس القوة سرعان ما يفتقده ويهفو اليه عندما يكف عنه ·

وحتى الأمل المنظور في احتراف مهنة التعليم كان له تأثير نافع مباشر على صحة چيمس · ففى مايو سنة ١٨٧٢ كان أخوه هنرى قد سافر ثانية الى الخارج ، ومن ثم استؤنف تبادل الرسائل الأخوية :

سكاربورو ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٢

« هنرى الحبيب :

تسلمت رسالتك التى بعثت بها من جرندلوالد وميرنجن منذ عشرة أيام تقريبا فى اللحظة التى كنت فيها على وشك الذهاب للمرة الثانية الى « جبل الصحراء » Mt. Desert ... لقد جئت الى هنا بالسيارة مساء الأمس من بورتلاند ... حيث لم أستطع أن أقاوم اغراء التوقف هنا والاستمتاع بثلاثة حمامات فى البحر . وسأعود يوم الاثنين . ان الشاطىء يلمع ويتلألأ مثلما كان فى سالف العصر . انه رائع حقا ونفيس . والغابة بهيجة حتى بعد جبل الصحراء ... اننى أكتب لك فى الردهة الصغيرة المواجهة للمكتب . ان هدير أمواج الشاطىء الصخرى وزمجرتها الموصولة تنساب من خلال النافذة المفتوحة يحملها النسيم اللذيذ المرطب بأملاح البحر عبر الشاطىء المرصع بأشجار الصفصاف المتهدلة متخطيا السهل والجبل · أما أشجار القسطل الصغيرة المجدية اللون فما زالت كعهدك بها لم تكبر ولا أصبعا ، والبقرة ذات الوجه الملوح ما زالت تقرض الحشيش الاخضر والسماء الواسعة والبحر الفسيح يبضان بالضياء الرخيم النشوان . كل شىء كما كان وكما سيكون ...

انى لأغبطك كثيرا على ما ستراه فى ايطاليا ، وأغبطك أكثر على ما تراه الآن وما رأيته فى سويسرا . وعلى الرغم من أن الطبيعة ـ بالقياس الى جوهرها ـ واحدة فى كل مكان ، وكثير من التجعدات العصبية التى كانت فى عقلى عندما غادرت كامبردج فى يوليه قد

ملستها وصقلتها ـ بنعومة وبرقة ـ التأثيرات الحلوة العذبة لاستلقائى مرارا وتكرارا على قمة جبل الصحراء والسماء والبحر والجزر أمامى ، وكذلك التجديف فى البحر اكثر من مرة ، وركوب السفينة بضع مرات ، وحمام البحر والقيلولة فوق الرمل الساخن هذا الصباح . ولكنى مع ذلك كله أحسدك على عالم الفن الذى تعيش فى رحابه . فبعيدا عنه ، كما نعيش فاننا نغرق فى نوع من النفاق وضرب من الوغى المداهن ، وننغمس فى غفلة شبيهة بسهو العامة عن أغلى وأثمن ما لدينا من امكانات ، ثم نصاب بالجفول والذعر عندما يلطمنا بذلة ـ مصادفة ـ عمل فنى انسانى سخى تصويرى أو أدبى أو معمارى . اننى أشعر أكثر واكثر كما لو كان ينبغى على أن أتعلم الرسم بالألوان المائية ، ولكنى أكسل من أن ابدأ . ان رسائلك الى مجلة الأمة The Nation (٥) ، والتى لم يقدر لى ان أرى منها الا ثلاثا ، كانت رائعة شائقة جدا . ولقد وجدت فيها أنا وغيرى نبعا من الانعاش والترطيب . بيد أن المرء كلما أصبح أكثر تذوقا وكلما راض نفسه على رقة الادراك ورقة اللمسة الادبية ، سواء فى الشعر أم فى النثر ، فان المرء يجد ايضا أن ثمة عددا قليلا جدا من الناس من يقدره ويرق له وينعطف اليه . وأحسب علاوة على ذلك أن الكتابة الوصفية ـ ليست على الاجمال من النوع الرائج المألوف لدى الجمهور. ثم ان نزعتك الخاصة تجنح أكثـ فأكثر الى المبالغـة فى التدقيق والتمحيص واحكام الصنعة . تذكر أنه فى الكتابة الصحفية ، فان المعالجة الأوسع والأفسح تصيب أهدافا أوسع وأفسح ، وأولى بك أن تظل محافظا على تلك الطريقة ما استطعت الى ذلك سبيلا ، ودون أن ترهق نفسك من امرك عسرا . وأحسب أن ترقيط أعمدة الصحيفة بتحليلات لخصائص الطبيعة البشرية ، سيرقشها ترقيشا مستحسنا . ولعلك تريد أن أزودك بوصف لحالتى . فأما عيناى فمعملان لمدة من ثلاث ساعات الى أربع ساعات يوميا . ولا أريد فى هذه الاجازة أن أستخدمهما أكثر من ذلك ـ الا نادرا ـ ولكنى واثق أنهما ستستجيبان لى اذا طلبت منهما المزيد . وأما أعراض أمراضى الاخـرى ، فانها تعدل نفسها بالتدريج ... ان تعيينى فى وظيفة معلم للفسيولوجيا عطية غير منتظرة فى غاية التوفيق ـ وخاصة الآن . فهى تهيىء لى حافزا خارجيا للعمل ، ومع ذلك لا تتطلب منى جهدا يرهقنى ، وتتيح لى التعامل مع الناس بدلا من مجرد التعامل مع عقلى ، ثم انها تصرفنى عن تلك الدراسات التأملية الباطنية التى أفضت بى فى المدة الأخيرة الى ضرب من الوسواس الفلسفى لا ريب أنه من الخير لى أن أكف عنه عاما أو بعض عام ...

من أخيك المحب دائما

و . ج . »

كامبردج (١٠) أكتوبر سنة ١٨٧٢

« عزيزى هارى :

أحب أن أستهل رسالتى بأن أقول لك ما أطيب رسائلك التى بعثت بها الى الوطن والأسرة ، وما أزخرها بالمعلومات ـ التى لم تترك ـ فى الحقيقة شيئا لمستزيد . أما

---

(٥) The reference is to a series of communications on the places of interest which he visited, reprinted afterwards in Transatlantic Sketches.

رسائلك الى مجلة الامة The Nation فقد شحت جدا ، وان كانت على قلتها مصدر متعة كبيرة لى ، ولعدد كبير غيرى من الناس ازداد لدرجة أعترف أنهـا كانت مبعث دهشتى ، لأننى حسبت أن الأسلوب لا يخلو من شيء غير قليل من التعقيد والنحويات التى لا تلائم العقل المتوسط . أو بصفة عامة قاريء الصحف العادى . وفى رأيى أن ما ينبغى عليك أن تربيه وتغرسه من الآن فصاعدا هو استقامة الأسلوب . فأما الرقة والكياسة والحذق والبراعة واللوذعية ، فهذه جميعا ستتكفل بنفسها ... لقد ران على فى المدة الأخيرة نوع من السأم والبرم والارتياب فى نشاطى الفلسفى ، وما انفقت فيه من جهد ، لدرجة جعلتنى أندم كثيرا وآسى على أننى لم اثابر على الرسم والزمه ، وأحسد أمثالك ممن يجدون فى العلاقات الجمالية للأشياء عالمهم الحقيقى . انها يقينا تكشف بعدا من أبعاد الحياة الكونيه فى شمولها ـ أعمق مما تكشفه كل التجريدات الآلية والمنطقية ـ ولو كنت مكانك لما تضجرت ابدا من أن حياتى دارت فى فلك تلك العلاقات والتقيت فى كنفها بدلا من أن تحط رحالها فى مجال آخر ... ولا أدرى أين ولا كيف تصل هذه الرسالة اليك ،ولكنىاحسب انك تؤثر البقاء فى انجلترا بعض الوقت قبل أن تعود الى الجنوب . ما أسعدك من وغد . آمل أن تحمد نصيبك الذى هيأ لك أن تقضى الشتاء فى بيئة تترك أعمق بصماتها على كل حاسة وجارحه فيك وتثير كوامن شغفك واهتمامك، بدلا من هذه الأمريكا الخاوية العريانة ، وفى جو ـ على الرغم من مبلغ قرس برودائه الا انه ـ حسنة عامة لا يتدخل فى شؤونك على نحو لا يعكر جونا اللعين أبدا فى أن يفعله ، ثم انه بريء من الرياح الشمالية الغربية ، وما أدراك ما هيه ؟ ...

محبك الدائم

و م . چيمس »

كامبردج ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٢

« عزيزى هارى :

من بين الناس الذين بينهم وبين قصصك ما يمكن تسميته بالنفور الشخصى ، فان معظمهم سيشمئزون من العنصر الذى يتجلى فى (بعض) العبارات ـ عنصر فيه برودة وقشعريرة ، أسل الدم خنزيرى عنيد يفلت بغتة ويطل فجأة بحيث يجمد التيار اللطيف ويحيل أنسه الى وحشة . وفى رأيى أن ذلك هو العيب الرئيسى الذى يتعين عليك الآن أن تقى نفسك من مغبته . فأما فى مرونة الأسلوب ويسره وخفة قوته ، فانك بلا ريب تمضى قدما ونموك فى اطراد واضح . اننى أوجه اليك كثيرا من سهام النقد ، بحيث قد أبدو مجرد مكابر ومماحك ، ولكنى أعتقد انه مما يعود عليك بالفائدة أن تتلقى نقودا تفصيلية حتى من حكم خاطيء ، ثم انك لا تتلقى كثيرا من النقد على أية حال من أى امريء آخر . واسمح مؤقتا لى ألا أقول شيئا عن الطرب العظيم الذى تبعثه كل قطعك فى نفسى ، بما فيها من بصيرة ونفاذ فىظلال الكون ، وبما تزخر به من تعبير نفيس ومنطوق شائق واحساس بالجمال ...

قضى وندل هولمز ليلة معنا هنا فى نهاية الأسبوع . ولقد ركز نفسه أكثر وأكثر فى القانون ـ بحيث احتل كل وعيه وسعيه . ان عقله يشبه اللولب الجاسيء الذى يتطلب

اختطافا عنيفا ، والذى ـ فى كل لحظة تتركه لنفسه ـ سرعان ما يعود سيرته الاولى مشدودا مطبوقا ...

تشارلز بيرسى وحرمه سيذهبان الى واشنطون ثانية مدة الشتاء وربما ليقيما هناك بصفة دائمة . انه يقول انه يلقى هناك تقديرا واحتراما ، فى حين أنه هنا يحتمل فحسب ، وانه يعتبر نفسه غبيا أحمق اذا لم يذهب الى هناك . ولقد قرأ علينا منذ أيام ثلاثل مقدمة كتابه عن المنطق . اننى أذهب الى مدرسة الطب كل صباح تقريبا لأستمع الى محاضرات بوديتش أو لأبربط فى معمله . انه لشىء رقيع يسمو بالروح المعنوية للمرء أن يكون لديه عمل مسئول يؤديه . اننى أتمتع جدا بقراءاتى الفسيولوجية التى بعثت بعد موتها ـ ولقد شعرت بتحسن ـ فى المعنى الجسمانى ـ طوال الأسابيع الأربعة أو الخمسة الأخيرة ـ بدرجة تفوق كل أيامى الماضية منذ تركتنا .

المحب دائما

« و . ح . »

١٤

تشونسى رايت وتشارلز بيرس

لما كتب چيمس مقدمة مؤلفه « مبادىء علم النفس » ، سجل اعترافه بالجميل والمنة لما أسداه اليه تشونسى رايت وتشارلز بيرس بفضـــل « زمالتهما الفكرية فيما سلف من الزمان » • وكلا هذين الصديقين من أصدقاء الصبا – مثل هولمز ووارد – كانا ذوى نزعة عقلية ارتيـــابية مدققة ، وبالتعرض لنقودهم أصبحت ميتافيزيقة چيمس الثابتة أصلب عودا •

ولقد قال چيمس عن تشونسى رايت « ان أحسن عمل أنجزه كان فى الحديث » • وكان أستاذا صاحب مكانة مرموقة فى دائرة أصدقائه فى كامبردج ، لا بسبب أى عمل ايجابى أنجزه وانما بسبب ما لديه «من قوة العارضـــة ومنطقه التحليلى النقى البســـيط » فحسب(١) . وفى سنة ١٨٦٥ عندما كان چيمس يعانى من علة الاشتياق الى الوطن وعلة الحنين الفكرى ابان وجوده فى البرازيل ، كتب يقول « ليتنى أستطيع أن أستمع ولو ليلة واحدة ــ الى تشونسى رايت وهو يتفلسف »(٢) .

وفى أثناء العقد الذى تلا تلك الفترة حتى موته فى سنة ١٨٧٥ كان رايت صديقا حميما لأسرة چيمس وكثيرا ما كان يحاور الواله والابن على طريقة سقراط • فأما بالنسبة لوليام فقد كان بطلا جبارا وفارســا

---

(١) W.J., "Chauncey Wright," in C.E.R., 20, 21. Wright's literary remains were edited and published by C.E.Norton in 1877 under the title of Philosophical Discussions. A volume of his letters (including correspondence with Darwin) was edited and published by James Bradley Thayer in 1878, under the title of Letters of Chauncey Wright. Wright was favorably known in England, especially in the Darwinian circle.

(٢) Cf. above, 75.

مناضلا فى حلبة النقاش ، بحيث أن التغلب عليه فى الجدل كان يعطيه لذة خاصة : مثلما حدث عندما كتب فى سنة ١٨٧٢ مزهوا بنشـــوة الانتصار - الى عمته وأخته فى أوروبا يقول : « تشونسى رايت الجبار الذى يرقد الآن بين ذراعى لا حول له ولا طول كالوليد الأليف (بالنسبة لمفهومه عن الكون) » (٣) .

أما فيما يتعلق بعلاقات رايت بوليام چيمس ، فقد أحدث فيه أولا تأثيرا نافذا وطويل الأمد فى تفكيره وتعبيره على السواء . كان چيمس كثيرا ما يبدأ ملاحظاته بقوله : « على حد تعبير تشونسى رايت » . ذلك أن رايت مثل بيرس كانت لديه تلك الجرأة فى الأفكار التى كانت دائما تجذب چيمس ، ثم انها كانت غالبا مقرونة بالعبارة الموفقة السارة . وكان چيمس يعتبره أستاذا ضليعا فى ميدان التفكير العلمى ويتقبل آراءه على اعتبار أنه حجة مبينة فى الدعوة الى الأهداف والطرائق العلمية . والى حد ما - مثل جيفريز وايمان - كان يمثل المثل الأعلى للمزاج العلمى : فهو متحفظ وغير شخصى وشديد التدقيق (حنبلى) . وكان يمثـــل شخصيا وبقوة النزعة المعاصرة للتفكير العلمى التى تتخذ شكلا تجريبيا ووصفيا لا ميتافيزيقيا . ولقد تقبل چيمس هذا التأويل التالى للعلم : « ان النظام المادى للطبيعة ، اذا أخذ ببساطة كما يعرفه العلم ، لا يمكن حسبانه من حيث هو - كاشفا عن أى مقصد أحادى روحى متناغم «ولكنه» مجرد **جو كونى** كما أسماه تشونسى رايت - فى حالة تفاعل موصول - ترتيبا وتفككا دون نهاية »(٤) .

على أن الوفاق بين الاثنين تجاوز الى ما وراء ذلك .

كان رايت من أشد المتشبثين بالفلسفة التجريبية ، وليس ثمة أدنى ريب فى أنه أيد نفس الاتجاه لدى چيمس . وفكرة رايت بأن العلاقات المنظمة للأشياء وفئاتها المنسقة لا تتطلب أى تفسير ، حيث انها لا تتضمن شيئا مدهشا أو غير طبيعى ، هذه الفكرة ترتبط ارتباطا وثيقــا بفكرة چيمس بأن صـــلات الأشياء وعلاقاتها لا تعطى وتؤدى دون الأشـــياء نفسها (٥) .

---

(٣) To A.J. and Mrs. Walsh, May 30, 1872.

(٤) W.B., 52. Wright's notion of "cosmical weather" can be found in Philosophical Discussions, 10, 23.

(٥) Cf. C.E.R., 23-4.

ولقد كان كل من رايت وچيمس على استعداد لتقبل صدع من القدرية التى لا تجبر فى الوجود ـ شيء لا يرد لأصله ولا جدوى ولا فحوى من المضى فى تقصيه ٠ لقد كان الاثنان ـ بالاختصار ـ تجريبيين ٠ ولقد أسهمت مقالة رايت «تطور الوعى بالذات» ـ التى نشرت فى سنة ١٨٧٣ـ فى تكوين وجهة نظر چيمس عن الدور البيولوجى للتفكير ، والتى عرضها فى مقالته عن « الفكر البهيمى والانسانى » التى نشرت فى سنة ١٨٧٨ ، ثم ضمنها بعد ذلك كتابه مبادىء علم النفس فى الفصل الخاص «بالتفكر».

وأخيرا عندنا شهادة چيمس بأنه لم يدرك المذهب النفعى «دون ظهير» وانما بتأثير ومؤازرة تشونسى رايت على الرغم من « رد فعله المضاد » ضد تعاليمه المضادة للدين(٦) . وعن طريق رايت كان چيمس مدينا لچون ستيوارت ميل بفضل حسن تفهمه وفقهه لنظرية « النفعية » على نحو يحررها مما علق بها من شوائب سوء السمعة ، ومن ثم أعانه على أن يدركها على أنها فلسفة تتضمن « أسمى الحوافز التى يمكن أن تتألف منها سعادة الفرد » (٧) .

ولكن ٠٠٠ بعد أن يقال كل ذلك ـ تبقى مع ذلك حقيقة لا تقل صحة عن كل تلك الأسانيد ـ وهى أن رايت بالنسبة لچيمس كان خصما فلسفيا. والسبب طبعاً رابض فى « تعاليمه المضادة للدين » ونبذه لحقوق الميتافيزيقا . فبالنسبة لوليام چيمس ولأبيه أيضا كان رايت الشارح الموصل للفلسفة الوضعية (الذى يبحث فى الظواهر دون الأسباب) بكل مضامينها السلبية . وثمة بينة على أن چيمس فى السنوات ١٨٦٨ـ١٨٧٠ شايع تلك المدرسة الفكرية مشايعة وقتية شرطية ٠ ولقد ظل يعتبر رايت مثالا لذلك الشح الفكرى الذى يحصر نفسه فى وصف الظواهر دون عللها ٠ « لم يسبق أبدا فى رأس بشرى ، أن كان التأمل معزولا عن الرغبة أكثر مما كان فى رأس رايت » ٠

وبعد كر سنين عديدة كان چيمس يذكره « كصديقه القديم الصلب الدماغ تشونسى رايت ، رفيق الصبا العظيم تجربى هارفارد » الذى اعتاد أن يقول : « وراء الحقائق الظاهرية المجردة ، لا يوجد أى شيء »(٨).

---

(٦) Monist, XIX (1909), 156.

(٧) Wright, op. cit., 418.

(٨) C.E.R., 23 ; Pragm., 263.

ولكن قبل سنة ١٨٧٥ كان چيمس قد وضع الوضعيين فى فئة أولئك الذين لكونهم غير واعين بالاهتمامات الذاتية (على سبيل الاقتصاد فى التفكير) والذين هم أنفسهم يتحركون بدوافعها ، رفضـــوا الاعتراف بالتفضيلات المخالفة . ولكن ـ المضارعة ـ للآخرين . ولقد عزا چيمس ما فى رايت من شح فكرى الى « عيب فى الجزء الناشط أو النازع من طبيعته العقلية » (٩) وقصد عمدا بمبحثه فى « الدوافع التى تفضى بالناس الى التفلسف » أن يقدم الدليل على أن الوضعية ضيقة حاصرة وتعسفية على السواء .

فاذا قارنا بين تأثير هولمز وتأثير رايت على چيمس وجدنا أن تأثير هولمز كان تأثيرا خلقيا وشخصيا ـ أجيج اثر أجيج من زمالة الصبا ، فى حين أن تأثير رايت كان بصفة رئيسية ضربا من التحدى والمناهضة والاثارة . يشعر به چيمس فى المرحلة الأولية من تفكيره . فأما تشارلز س. بيرس فقد جمع فى تأثيره على چيمس بين النوعين من التأثير مضافا اليهما تأثيرات أخرى لا سبيل الى حصرها . ولم يكن بيرس يكبر چيمس الا بثلاثة أعوام فقط ، ولكنه كان تخرج ـ سابقا ـ فى كلية هارفارد سنة ١٨٥٩ ، فى الوقت الذى كان فيه چيمس ما زال منهمكا فى خبراته التربوية التمهيـــدية فى الخـارج . وعنـــدما قابل چيمس لأول مرة ابن الأستاذ بيرس « الأنيق » ولكن « المستقل العنيف » كانا زميلين فى دراسة الكيمياء فى مدرسة لورانس للعلوم(١٠) بيد أن بيرس كان بصدد تسلم شهادة دالة على ختام الدرس ، فى حين أن چيمس كان لا يزال يحبو على أولى عتبات السلم . وبالاضافة الى كون بيرس عالما مدربا ، فقد أظهر علامات نبوغ وعبقرية ، اذ على الرغم من أنه كان لايزال غير معروف فى الدوائر الفلسفية الواسعة فى أمريكا ، عندما قدمه چيمس فى سنة ١٨٩٨ على اعتباره مؤسس البراجماتية ، الا أن نزعته الابتداعيـــة وما يبشر به من عظمة كانت دائما موضع تقدير واعتراف زملائه المقربين .

وفى باكورة العقد السبعين (١٨٧٠) كان چيمس وبيرس وكذلك رايت أعضاء فى جماعة صغيرة تألفت ابتغاء المناقشة الفلسفية . ولقـد وصفها بيرس نفسه على النحو التالى :

---

(٩) C.E.R., 24

(١٠) Cf. above, 69

« كان ذلك فى باكورة العقد السابع (١٨٧٠) — عندما اعتادت زمرة منا نحن الشباب فى كامبردج العتيدة — وسمينا انفسنا على سبيل السخرية وعلى سبيل التحدى ، «النادى المتافيزيقى» لأن مذهب اللاادرية كان عندئذ فى أوج رواجه ، وكان ينظر بازدراء شديد الى كل الميتافيزيقات — اعتادت ان تلتقى — أحيانا فى غرفة مكتبى وأحيانا عند وليام جيمس . ولعل بعض حلفائنا القدامى فى العصابة لن يحفلوا اليوم بأن يذاع على الملأ أننا كنا فى شهوات الشباب ، على الرغم من أن كل نصيبنا من شهوات الشباب لم يكن سوى الشوفان المسلوق واللبن والسكر فى كل ورطة على المائدة المشتركة . فأما المستر جستس هولمز فأعتقد أنه لن يسوءه ان نقول اننا فخورون بأن نتذكر عضويته ، وكذلك العالم الموقر جوزيف وارنر . ولقد كان نيكولاس سانت جون جرين من أكثر الزملاء الأعضاء اهتماما وشغفا ، وهو محام ماهر ضليع فى مادته ، واحد حواريى جرمى بنتام ... ثم تشونسى رايت الذى كان شيئا فلسفيا مذكورا فى تلك الايام ، وفيلسوفا ذائع الصيت ، والذى لم يتغيب أبدا عن اجتماعاتنا . وكنت على وشك أن أسميه « المايسترو » قائد الأوركسترا ، ولكنه خليق بأن يوصف أستاذنا فى الملاكمة الذى اعتدنا — وخصوصا انا — أن نواجه لكماته ولطماته القاسية مرارا وتكرارا . وكان قد نبذ تعلقه السابق بالمذهب الهاملتونى لكى يألف مبادىء ميل ويأنس بها التى كان يحاول أن يلحم فيها — وفى قريبها المشابه مذهب اللا أدريه — افكار داروين المناقضة لها حقا . وكان جون فيسكه وفرانسيس الينجوود أبوت يحضران أحيانا ، وان كانت زيارات الأخير متباعدة ونادرة — ويعيران محياهما لشد ازر روح محاولاتنا ، بينا يترفعان عن أى استصواب أو قبول لنجاحها . وكان رايت وجيمس وأنا من رجال العلم ، نجنح الى تقصى مذاهب الميتافيزيقيين وتحرى مبادئهم من جانبها العلمى بدلا من جحدهم والتبرؤ منهم على اعتبار أنهم فى غاية الخطورة — روحيا . وكان نسقنا فى التفكير — حتما — على النمط البريطانى . وكنت أنا وحدى من بين كل زمرتنا الذى دخل بيدر الفلسفة من مدخل كانت ، وحتى افكارى اكتسبت النبرة الانجليزية »(١١) .

أما عن انطباعه الخاص فقد كتب بيرس الى وليام فى اليوم السادس عشر من ديسمبر سنة ١٨٧٥ يقول :

(١١) From a paper (circa 1906) published for the first time in Vol. V, 812, of the Collected Papers of C.S. Peirce, ed. by C. Hartshorne and P. Weiss, Harvard University Press, 1934. Joseph B. Warner, Harvard' 69, a Boston lawyer and lifelong friend of the James family, died in 1923. Green graduated from the Harvard Law School in 1853. He was present at Chauncey Wright's deathbed and survived him only one year. F.E. Abbot (1836-1903), a classmate of Peirce, was for one year (1887-8) an instructor of philosophy at Harvard, but spent most of his life as a private scholar and writer in that subject.

« اننى أرى اخاك كثيرا . انه امرؤ رائع ، وأنا معجب به اعجـابا عظيما ، ولم اكتشف فيه الا عيبين فقط : العيب الأول هو أنه لا يملك معدة نعامة فى هضمها وطحنها ، والعيب الثانى هو انه ليس مشغوفا مثلى بالتحول عن الأسئلة ، وانما يحب أن يبت فيها ويفرغ من أمرها الى غير رجعة . انها سجية فيها نخوة وشهامة ، ولكنها ليست سجية فلسفية » .

والرسالة الآتية تختم تلك الفترة المبكرة من صلة الود الوثيقة · وهى تكشف عن باطن ذلك الخيال أو الطيف الذى كان هنرى چيمس وهو فى باريس قد تأمله من الخارج :

فندق بريفورت ــ نيويورك أول مايو سنة ١٨٧٧

« عزيزى ويلى :

اننى على وشك الرحيل ولقد اضطررت للمجيء هنا لقضاء الليلة . تصور مدى استيائى وأنا أقرأ فى صحيفة الهيرالد هذا الصباح أن البروفسور ت · س · بيرس الاستاذ بكلية هارفارد مقيم فى بريفورت . وبصفة خاصة لأننى أكاد أخجل من ايثارى الاقامة فى بريفورت . ولكنى اعتدت الحضور الى هنا سنوات كثيرة لدرجة أننى معروف شخصيا عند كل نادل وخادم فى الفندق ، بحيث أجد نفسى وكأننى فى بيتى . هـذا الفندق تؤمه طبقة من الناس من النوع الذى فى غاية الامتثال « كما ينبغى أن يكون » ولكنهم ليسوا فى دائرة عملى . وبطريقة غير محسوسة اتشحت بنوع من القنزحة هنا ــ والتى آمل الا تكون لدى فى أى مكان آخر ــ ضربا من الاختيال الهادف لان يقول « أنت امرؤ لا جناح عليك ــ فى حالك وفى طريقك ــ أما من أنت فلست اعرف ولا يهمنى أن أعرف . ولكنى أنا ــ كما تعرف ــ المستر بيرس صاحب الشهرة وذيوع الصيت بسبب منجزاتى العلمية المتنوعة العديدة ــ وفوق كل شيء بسبب تواضعى الشديد الذى يحدونى الى تحدى العالم » . وأنا الاحظ أن المرء اذا تحرى الدقة تماما فلن يجد امرا واحدا خاليا من القنزحة كليا ــ الا نادرا ــ فى تلك القلة النادرة الخالية من القنزحة ، فان ما فيهم من جفاف ويبوسة يثير النفور والاستنكاف .

المطلوب : مقال عن الذوق السليم فى القنزحة . لم تقل لى كيف حال الوالد وبقية الأسرة · لقد تسلمت أخيرا رسالة من هـ · چيمس الصغير ·

محبـــك

ت · س · ب · »

على أن بيرس لم يحتل مكانا هاما فحسب ــ ولعله المكان الأول ــ فى تاريخ البراجماتية ، وانما أثر تأثيرا عظيما فى ميتافيزيقيات چيمس النهائية · ومما لا ريب فيه أن الاختلافات الشخصية والمزاجيـــة بين الرجلين ــ اختلافات صارخة . كان چيمس بالغريزة والسليقة مثلما كان بالتنشئة والخبرة مهيأ للمخالطة الاجتماعية متكيفا للأخذ والعطاء ، وعلى

الرغم من ميوله العصبية ونزعات الوسوسة المتأصلة فيه ، وعلى الرغم من مشغولياته الفكرية كان رجل دنيا ، فى حين أن بيرس كان مبلبلا قلقا ذا مزاج متقلب متردد ، ووجد من الصعوبة بمكان وبشكل آخذ فى الازدياد كلما مضت به الحياة — أن يخـــالط زملاءه وأنداده وأترابه ويشاركهم اجتماعيا . ثم ان چيمس أيضا كان متوانيا فى الهجوم على الغير أو الاساءة اليه ، موسعا دائما للناس من حرج ، معفيا اياهم من الشك بسليقة الأريحية التى تعد الناس أبرياء رغم الاشتباه فيما يقولون أو يفعلون ، فى حين أن بيرس كان وعقا سريع الغضب ، ميالا الى الارتياب فى الناس . ومن ثم فان چيمس كان رجلا يكاد يكون مفرطا فى تواضعه وخفض جناحه وتقديره للغير ، فى حين أن بيرس كان يجنح منحدرا الى الغطرسة والتعاظم .

فالفروق بين الرجلين كانت فروقا فكرية وخلقية فى نفس الوقت . فبيرس كان بالسليقة والاستعداد والتدريب من أنصار الحقائق العلمية المضبوطة الدقيقة ، حيث يتسنى للمرء أن يتيقن على سبيل الجزم ، وحيث يعتبر عدم الدقة أو الصحة أم الكبائر ، فى حين أن چيمس كان يأنس بالأدب وعلم النفس والميتافيزيقيا أنس المرء بين أهله وعشيرته من دون كلفة ، وحيث تكون الدقة والصحة التى لا يأتيها الخطأ من بين يديهـا ولا من خلفها من قبيل الادعاء والحذلقة ، وحيث تعوض العاطفة والمشاركة الوجدانية والبصيرة والخصوبة النفسية ورقة الشعور ما عساه أن يفتقد من دقة وصحة وضبط . ومن الأقوال الشائعة أن چيمس لم يفهم بيرس، ولقد صرح چيمس نفســه بهذا القول ووافقــه بيرس على ذلك . ومن المفترض بصفة عامة أن بيرس فهم چيمس ، ولكن ينبغى التنويه فى هذا الصدد بأن چيمس نادرا ما زعم أنه فهم اى انســـان ، فى حين أن من خصائص بيرس المميزة لشخصيته أنه كان يشعر بأنه يفهم كل شخص ، وأن فهمه لكل شخص ينفذ الى صميم الصميم .

فالفرق بين الرجلين — فرق لافت جدا ، بحيث يحسن اغفال كلام الاثنين فى هذه المسألة . وفى نفس الوقت نضع نصب أعيننا أن الشعور بفهم أو اساءة فهم مذهب أو مبدأ ما ، يعكس درجة توقع المرء ورجائه .

كان چيمس عادة — يتوقع كثيرا ويؤمل عظيما ، ولكنه كان يحتاج الى وقت طويل قبل أن يستطيع الشعور بالثقة بأن اخفاقه أو عجزه عن رؤية الضوء كان مرده الى حقيقة عدم وجود أى ضوء مطلقـــا . أما عند

بيرس فقد كان ذلك فرضا طبيعيا ويسيرا . والى هذا ينبغى أن يضاف أن چيمس كان تواقا جدا وبكل حماسة الى أن يفهم ، فى حين أن بيرس كان احيانا يتعمد أن يكون غامضا ، اما عابثا أو بخبث .

وفى نفس الوقت ينبغى أن نسلم بأن چيمس كان — نسبيا — به قصور فى المنوال الشكلى أو الرمزى للتعبير (١٢) ، والذى كان بيرس يعتبره — بصفته رياضيا ومنطقيا مدربا — ذروة الوضوح . وقبيل ختام حياته سجل بيرس آراءه فى صديقه القديم بشىء من الاسهاب ، على وتيرة من المفاجأة الذاتية التلقائية للأيام السالفة ، وبطريقتـــــه المميزة فى ادماج العاطفة والتحليل . وبعد أن أشار الى عجز چيمس — الذى يكاد يكون لا نظير له عن التفكير الرياضى المقرون بالكره الشديد للمنطق — مضى يقول :

« بعد دراسة وليام چيمس من الناحية الفكرية زهاء نصف قرن — لأننى لم أتعرف عليه وهو صبى — حق على أن اشهد أننى اعتقد أنه — وقد كان دائما طوال معرفتى به — محب كامل للحقيقة بقدر ما فى وسع المرء أن يكونه ، واحسب أنه لا يوجد أى حد معين أو نهائى لقدرة المرء على حب الحق والسعى فى طلبه ...

وفى معرض الحديث عن وليام چيمس من الزاوية التى أتناولهـــــا ، فاننى اقول أعظم ما فى وسعى أن أقوله عن الخلق الفكرى لأى انسان ، ولم يكن هذا الخلق العظيم سوى جزء واحـــد من تاج كامل من الفضائل . وعلى الرغـــم من أن ما سأقوله يعتبر خارجا هنا عن الموضوع كلية (وأرجو أن يغفر لى القارىء استطرادى على هذا النحو من النقطة قيد البحث ، فاننى أفتقر حقا الى ضبط النفس الذى يمكننى من كبح تأملاتى بمجرد أن أذكر اسمه) . فعلى الرغم من أن محاضراته كانت مطربة ، الا أنها لم تظهر ابدا أحسن ما فيه . ولقد كان مسلكه العادى الارتجالى هو المسئول عن ذلك ، ونتيجة لكمال آدابه وذوقه حيث كان متحررا على نحو تام من الملق أو الاطراء او النفــاق أو أى تعبير آخر زائف او لا يليق بالمناسبة . ولم يكن يعبر عن نفسه بسهولة ، اذ كان بينه وبين الفصاحة تنافر روحى وكان المنطق يثقل عليه ويبهظه . كان المرء منا دائما يشعر بأن القلم الرصاص لا القلم الحبر هو الرافعة التى كان ينبغى عليه أن يحرك بها

---

(١٢) In the famous essay "How to Make Our Ideas Clear", Pop. Sc. Mo., XII (1877-8), Peirce distinguished three grades of clearness: familiarity, analytical definition, and an apprehension of the object's "practical bearings." He said later that "the third grade is the most important of all and a good example of it is William James who is phenomenally weak in the second grade, yet ever so high above most men in the third".

العالم . ومع ذلك لا . لم تكن قشور الأشياء وخارجها ، وانما لبابها وروحها هى التى كان فى وسعه أن يصورها .

ولقد كان فهمه للناس – الى صميم صميمهم – مدهشا الى أقصى درجة . من ، مثلا ، كان أكثر اختلافا عنه فى الطبيعة منى أنا ؟ كان هو فى غاية التماسك والحيوية فى حين أننى لم اكن سوى فهرس أو قائمة محتويات ، فى غاية التجريد وغاية التعقيد النافر . ومع ذلك ففى حياتى كلها لم أعرف أى روح قادرة على الفهم والاحتواء – طبيعيا – أفضل منه (لا) بالقياس الى مفاهيمى ، ولكن فيما يتعلق بالدافع الأصلى لحياتى . وكان فى تطبيقه لعلم النفس أعظم منه فى نظرياته » (١٣) .

وحقيقة كون چيمس كان أكثر تأثرا ببيرس فى باكورة صلاتهما مما كان بيرس متأثرا به – حقيقة مقررة فيما أعتقد لا سبيل الى دحضها. فلقد كان بيرس « الصاحب الأرشد » الذى خلص دارس العلم الصغير من سحر هربرت سبنسر . ومن المعلوم أن چيمس الذى ما قام أبدا برحلة فى آفاق الفكر ولو ليوم واحد دون أن يلقى فيها **شخصا ما** ، والذى سجل تلك المقابلات ، كتب كثيرا من أقوال بيرس منذ عهد يرجع الى باكورة سنة ١٨٦٢ . وكان تأثيرهما المتعادل مثل فهمهما المتبادل ، الى حد كبير ، نتيجة لامناص منها لاختلافهما فى المزاج . كان بيرس أكثر اكتفاء بذاته كمفكر ، فى حين أن چيمس كان رجلا يغذى عقله بالمخالطة الاجتماعية وبالتقبل الجزئى المؤقت لحشد من الأفكار التى كان وجدانه الملبى يجد فيها شيئا ذا قيمة .

كان عقل چيمس كريما مضيافا ، وفى نفس الوقت مبذرا ومسرفا على السواء ، أكثر من صاحبه ، وفى حين أن قصده أو جهة وصوله لم تكن أقل ثباتا وتوطيدا من قصد بيرس أو جهة وصوله ، الا أنه وصل اليها بطرق أكثر انحرافا ومروقا ، وكثيرا ما اضطر الى الوقوف كثيرا – ضالا – زائغا على مساره الموصول .

وثمة نواح ثلاث كان فيها چيمس آخذا وحافظا لتأثير بيرس فى السبعينيات والثمانينيات . فأولا كان يستطيب جرأة بيرس فى التفكير وقلة وقاره الفكرى التى تصل الى درجة الوقاحة ، وكان يستسيغ طريقته الصفيقة القليلة الحياء فى عدم الاكتراث بالعقائد الفلسفية والمعلومات الاعتيادية التى تواضع الناس عليها . فالابتداع عند چيمس كان دائما

(١٣) From "A Sketch of Logical Criticism". Collected Papers of C.S. Peirce, Vol. VI.

له سحر لا يقاوم . وثانيـــا لقد غذى بيرس وشجع فى چيمس تبرمه وسخطه على مجرد الحصيلة المرجفة الحماسية للتجريبية • فأيا ما كان الاهتمام أو التركيز الذى يضعه التجريبى على ما يعرض على الحواس ، فينبغى ألا يغفل ترابطات الأشياء وصلاتها فيما بينها ، وألا يهمل شأن عنصر البداهة فى الحكم وسمو موضوع المعرفة بما يفوق العقل • ولم يسمح بيرس أبدا ، الذى كان يحتقر الحس ، بأن يتغاضى چيمس عن تلك الاعتبارات . ولقد تميزت تجريبية چيمس بأنها وضعت تلك الاعتبارات حيث ينبغى لها أن توضع . وأخيرا فان بيرس مثل چيمس كان مهتمـــا بطبيعة الشك والاعتقـــاد • ولقـــد عالجت مقالات بيرس التى نشرت عام ١٨٦٨ موضوع الشك وعالجت مقـــالاته التى نشرت عام ١٨٧٨ موضوع الاعتقاد • ولا يوجد شىء أكثر تعارضا مع مذهب بيرس القاضى بالاعتقاد المعين قبلا بالحقيقة والموافقة الاجتماعية ـــ من اباحة چيمس للتفصيل الانفعالى • ولكن من الأهمية بمكان أنه فى وقت مبكر يرجع الى سنة ١٨٦٨ نجد ان كلا الفيلسوفين بيرس وچيمس ، أحدهما لدواع نظرية والآخر بصفة أولية لأسباب شخصية ودينية ، مهتمـــان بنفس المشكلة ، وأن كليهما كانا مستعدين سواء بسواء من أجل حلها وحسمها بصرف النظر عن الحدود القائمة بين الفلسفة وعلم النفس • وبسبب هذا الاهتمام ـــ الى حد كبير ـــ وجد چيمس بيرس ليس فقط « شخصية مشوقة بنوع غريب »(١٤) وانما أيضا لائقة وسديدة وموافقة .

---

(١٤) Of. above, 112.

١٥

الاستتباب فى مهنة

على الرغم من الهواجس والوساوس المعتـــادة التى خامرت چيمس وأفضى بها الى أخيه فى رسائله ، الا أنه بدأ تدريسه « للتشريح المقــارن والفسـيولوجى » فى يناير سنة ١٨٧٣ . ولم يكن ثمة شك فى نجــاحه استنادا الى وجهة نظره هو والى حكم طلابه . وثمة انطباعات أبوية سجلت فى رسائل الى هارى :

كامبردج ١٤ يناير سنة ١٨٧٣

« وبلى ماض فى تعليمه . لقد دقت الساعة الحادية عشرة فى هذه اللحظة ... وهو الآن واقف على منصته يفسر أسرار الفسيولوجيا ويشرح الغــازها . وهو ينهك نفســه من حين لآخر بالزيارات وبكل ما يلحق بها مثل الجدل حول « Middlemarch (أواسط مارس) وغيره من الموضوعات العابرة ، ولكنه على العموم على خير ما يرام . وهو كثيرا ما يتحدث عنك . وطبعا كلنا نفعل ذلك ولكنه هو غالبا جدا الذى يستهل الحديث عنك . ولا حاجة بى الى القول بأنه يتحدث عنك دائما بكل رقة وتقدير ومحبة الى أقصى درجة . نعم نحن جميعا نكن لك أعمق الحب وأرق الود أيها العزيز هارى ، ولعل أكثرنا فى ذلك هو أبوك المحب .

هـ . ج . » .

كامبردج ٢١ يناير سنة ١٨٧٣

« وبلى يعود من درسه ويلقى بنفسه على المقعد الأخضر الكبير فى ضوء الشمس الدافئة الفسيحة ، فاقول له : « ماذا سأقول لهارى ؟ » فيجيب « قل له انه كان فى مرجوى أن أكتب له منذ زمن طويل ، ولكننى الآن لا أستطيع أن أقول متى سيكون فى وسعى ذلك » .

أعتقد أنه يجد فى دروسه التى يلقيها كل ما فى وسعه . ان الجزء العقلى ســهل جدا ، ولكن الأمر كله يبهظ أعصابه الضعيفة ويفرض عليها ضريبة فادحة . وفى مرجوى ان العادة والخبرة كفيلتان باخماد هذا الارهاق . وهو يشكو من الأخلاق الفظة الجافة للشباب بصفة عامة ، وأن قليلا منهم من تلوح عليه مخايل الذكاء أو يبدى اهتماما وشغفا بالعلم ــ وعلى أية حال فهو يقر بوجود تلك القلة . ولا جدال فى أن ذلك من الخبرات المعتــادة المألوفة لدى أساتذة الكليات . أذكر أن المستر جورنى قال ذات مرة : « قل لوليام انه ، يجب عليه أن يتأكد من أنه لن يتوقع شيئا من الشبان الصغار » .

« أمك المحبة »

وفى اليوم العاشر من فبراير سنة ١٨٧٣ كتب الفقرة التالية فى مذكراته اليومية :

« اليوم عزمت على ان اثابر على البيولوجيا كمهنة اذا لم اطلب لشغل كرسى الفلسفه. بدلا من أن أحاول كسب نفس القدر من المال بالأعمال الادبية ، مع الاستمرار فى متابعــــه ثقافة عامة أو دراسة فلسفية . على اننى مع ذلك سأظل أعتبر الفلسفة مهنتى المختارة وحرفتى ، ولن اترك اية فرصة تفلت من يدى دون أن أنال منها صفقة » .

لقد صرفه عمله كمعلم عن الاستبطان المســـئود فى فحص ذاته ، وخلصه رينوفيير من الاحساس بالعجز من جراء الحتمية الفلسفية • لقد وجد لديه عملا فى الدنيا يتطلب الانجاز ، وفى وسعه أن يأخذه على عاتقه بقلب سليم حيث انه أصبح يعتقد الآن بفعاليته وجدواه . ثم أن رينوفيير كان قد ساعد على تقليم أظافر العلم بحيث يمكن استئناسه وتدجينه دون تعريض الروح للخطر •

والرسالة التالية ــ من والده الى هنرى تلخص مجمل تقدم چيمس:

١٨ مارس (١٨٧٣)(١)

« محبوبى هارى :

ويلى موفق فى تعليمه يسبح فيه كالاوزة . وطلابه (٥٧) يزهون بحظهم الموفق فى ان يتتلمذوا على مثل هذا الأستاذ . وأكبر الظن بل أقوى اليقين ان حلقة طلابه ستزيد اتساعا فى السنة القادمة ــ منجذبة الى شهرته وبعد صيته . لقد دخل المنزل عصر أحد الأيام ، عندما كنت جالسا وحدى ، وبعد أن ذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا بكل حيوية وانتعاش لبرهة ، صاح قائلا : « يا سلام ! ما أبعد الفرق بينى الآن وبينى فى الربيع الماضى فى مثل هذا الوقت ، حينما كنت عندئذ مصابا بالوسواس الى حد الاكتئاب . (ولقد استعمل كلمة وسواس ربما فى صيغة اسم موصوف) والآن أشعر أن عقلى صفا وراق وعاد الى السلامة . انه الفرق بين الموت والحياة » واستمر يتدفق فياضا بأفكاره، وخشيت أن اتدخل فى تدفقه أو اكبح جماحه ، ولكنى غامرت بأن أسأله عما يعزى اليه بصفة خاصة ــ فى رأيه ــ فضل هذا التغيير والدفع به قدما . ولقد عزا التغير الى أمور كثيرة : عزاه الى قراءة رينوفيير (خصوصا تزكيته لحرية الارادة) ، وعزاه الى قراءة وردزورث الذى ما برح يتغذى عليه منذ مدة ، ثم بصفة خاصة الى هجره فكرة أن كل اختلال عقلى لابد أن يكون منشؤه اعتلالا جسمانيا . ولقد ثبت بطلان هذا الفرض تماما بالنسبة له . لقد اتضح له ــ فى نفسه ــ أن العقل أدى وظيفته فعلا بصرف النظر عن القسر المادى ، ومن ثم يمكن معاملته رأسا بلا وساطة ــ وكان ذلك بردا وسلاما عليه . ولقد كان اعترافه هذا جليلا وباهرا . وعلى الرغم من اننى كنت أعرف أن التغيير قد

(١) Published in part in N.S.B., 264, and L.W.J., I, 169-70.

حدث من علامات محققةمعصومة منالغلط ، الا أننى لم أكن فى حياتى أبدا أكثر سرورا وطربا كما كنت عندئذ وأنا اسمع ذلك على لسانه دون أى تحفظ مطلقا . ولقد بدأ فى الآونة الأخيرة ينفض احترامه لرجال العلم المجرد فى معناه الضيق ، بل لقد أصبح أكثر عالمية وانصافا فى أحكامه العملية مما عرفت فيه من قبل على الاطلاق .

وداعا يا محبوبى هارى . ان الكلمات عاجزة عن أن تعبر لك عن مدى معزتك فى قلبى ، ومدى زهوى وفخرى بطيبتك وصدقك ، ومدى سعادتى بالوصف الذى يخلعه عليك المستر أرنولد « تعقلك العذب » . حقا اننى والد سعيد ومعترف بالجميل لقاء كل مرة أتذكرك فيها .

محبك دائما

« م . ج . »

وبعد أسابيع قليلة عندما عرض عليه اليوت تجديد تعيينه لتعليم البيولوجيا توطئة لتثبيته على الدوام ، فان أول خاطر دار بخلده كان هو الرفض :

كامبردج ٦ ابريل سنة ١٨٧٣

« عزيزى هارى :

اننى ألتقط قلمى مرة أخرى بعد تلك الفترة الطويلة لكى أتحدث الى أخى الذى أعتبره توأم نفسى من وجوه كثيرة . اننا لم نسمع منك شيئا لمدة أسبوعين ، وكلنا نتوقع بلهفة رسالة تصل منك اليوم تصف فيها مباهج حسية جديدة وألوانا من الترف والمتعة عسى أن يكون جسمك وروحك - قد تمرغا فيها وانغمسا . ان آليس وأنا نحتفظ دائما بنار المزاح والهزل متقدة ، وانت الذى تزودنا بوقودها . فأما هى فلا تتحدث عنك الا بكلمة « ذلك الملاك » وأنا - بكل سخرية أدعوك « الملاك - البطل - الشهيد » . وعادة قبيل وقت النوم أطوف بغرفة الجلوس حيث أجد الثلاثة جالسين وأقول « أحسب أن ذلك الملاك يفعل الآن كذا وكذا » ثم يسعفنى خيالى بموقف شرقى جدا أتمثلك فيه لا تجد آليس ما ترد به على أحسن من حملة قذف على الأحقاد الحقيرة التى توسوس فى صدور الناس . أتمنى أن تطول وتطول قدرتك على التمتع بكل ما فى وسعك أن تغترف منه من مباهج ولذات ... لقد فرغت لتوى من ثلاثة شهور من التعليم ، تعقبها أربعة أسابيع عطلة قبل استئناف التعليم لمدة شهر ختامى . ولقد تبينت أن هذه المهنة أصلب وأجمد مماتوقعت ، بالقيـاس الى المجهود الذى تتطلبه لأدائها ، وبالقياس الى المعلومات التى نقلتها - على السواء ... ولقد عرض على اليوت منذ أيام قلائل الاضطلاع بالقسم كله (أى هذا الشطر من الفسيولوجى مضافا اليه شطر دوايت الخاص بالتشريح) ابتداء من العام القادم . ولكنى أخبرته بأننى صممت على خوض المعركة الى آخر أشواطها فى سلك العلوم العقلية ، وانه نظرا لمتأخراتى فى الوقت التى يتعين على اللحاق بها ، ونظرا لما يتطلبه عملى الحالى من اقتضاب الجهد المبذول فى النواحى الاخرى - فليس فى وسعى أن أقوم بهذه الرحلة او الحملة المطلوبة منى فى

التشريح . ولقد اقتضى منى اتخاذ هذا القرار شيئا من الحيرة والبلبلة ، اذ لو قدر لى أن أقبل ذلك العرض فربما يفضى بسهولة الى وظيفة دائمة فى البيولوجيا قد أخلف فيها وايمان . ثم أن هذه الدراسة وان كانت غريبة بعض الشيء على ذوقى ، الا أن مزاياها أرجح فى ميزان الاعتبار .

محبك دائما

و . ج . »

بيد أنه سرعان ما غير فكره مسجلا هذا القرار فى مذكراته اليومية بتاريخ ١٠ ابريل ، ومبلغا اياها لأخيه بعد شهر من ذلك التاريخ . ولم يكن مرد ذلك الى أن شغفه بالفلسفة اعتراه الفتور ، ولكن لكونه لم يكن واثقا من قوته على متابعته وتحمله ، وخشى تأثيره على صحته ــ

« بالأمس أخبرت اليوت بقبولى تدريس التشريح فى العام القادم اذا كانت حالتى الصحية ستسمح بتحمل العبء ، واننى ربما الازم هذا القسم . ولقد انتهيت الى ذلك القرار بصفة رئيسية لشعورى بأن النشاط الفلسفى كعمل أو مهنة حياة ليس أمرا طبيعيا بالنسبة لمعظم الناس ولا لى . فكونى أصبح مسئولا عن مفهوم كامل للأشياء ، أمر فوق مقدور طاقتى . وجعل قالب معين لكل تفكير ممكن ــ المادة الرئيسية المسيطرة على تفكير المرء ــ يسبب الوسواس . وطبعا سيظل أعمق اهتمامى مثلما كان دائما ، منصبا على أكثر المشكلات عمومية . ولكن حيث أن حنينى الخلقى واشتهائى العقلى فى أقصى درجاتهما يتجهان الى تلمس واقع راسخ ثابت أرتكز عليه . وحيث ان الفيلسوف المحترف الذى يعترف به لابد ان يقطع على نفسه عهدا أمام الملأ أنه لم يسبق له أبدا الاكتفاء بالشك حيال تلك الموضوعات ، ولكنه مستعد كل يوم لأن ينتقد من جديد ، ويضع على المحك الأسس التى بنى عليها عقيدة اليوم السابق ، فاننى أخشى أن الاحساس الدائم بعدم الاستقرار الذى يولده مثل هذا الموقف سيكون أكثر مما فى وسع العقيدة الطوعية التى أستطيع الاحتفاظ بها ــ بحيث يكفى لعملية التحييد المطلوبة فى هذا السبيل ... فأما الترجيح الذى آثرته فكفيل بأن يزودنى بواقع أستطيع أن أضيع فيه مسئوليتى . ثم ان الحقائق الملموسة التى تقع فى دائرتها مسئوليات عالم البيولوجيا تشكل أساسا راسخا وطيدا يستطيع أن يستند اليه ويطمح كما يحلو له ، ابتغاء الظفر والغلبة على القضايا الكلية فى الوجود ، عندما يكون صافى المزاج والريح مواتية ، ثم انها أيضا تهيىء ركيزة يستطيع أن يطفو عليها بلا مقاومة ويجدف بسلام ، متغلبا على تيارات الضعف والضيق والكرب التى يحملها مد الزمان وجزره ، مسلما زمامه كل الوقت لقوى الطبيعة الخيرة ، واثقا منها ثقة عمياء ، مؤمنا بالفرج بعد الكرب وبعودة الفرص الاعلى والأحسن .

ان الفيلسوف رجل نبذ على الملأ حق وميزة الثقة العمياء والتسليم الاذعانى الذى هو حق مخول لكل انسان بسيط ، ثم أن بصرى ليس دائما حديدا بما فيه الكفاية للالتزام بمثل هذا الواجب الدائم . وطبعا فى وسعك أن تقول ان فى استطاعتك ان تجعل

من علم النفس الخالص وكيزة على هذا النحو تمـــاما ، ولكن ذلك ليس كذلك ، اد لا يمكنك تطليق علم النفس من التأمل الباطنى . ومهما بلغ حجم العمل الهائل الذى يتطلب شقه الموضوعى الفسيولوجى البحت ، الا أن الشق الآخر هو الذى يتوقع منه أن يكون الاستاذ مسئولا عنه أمام الملا .

وليس من الضرورى الهجوم على مشاكل الكون العـــامة بطريقة مباشرة ، ومن حيث هى مشاكل شاملة فى صورتها المجردة . اننا نعمل فى حلها فى كل يوم ــ بالعيش وبحل بعض العصايا الصغرى الملموسة ، وحسم بعض المسائل الثانوية المحسوسة ، حيث انها متضمنة فى كل شىء وداخلة فى كل أمر من الأمور . ان طريقة الطبيعة هى الصبر ، وهى ذلك الايمان المطمئن المستكن ، والذى لا توتر فيه ولا ضغط ولا عصر وانما يتسم مع نزر يسير من الشك الذى لا يقنط من تأجيل حل ما ــ على غرار الشك الذى أبداه جوته فى شعوره نحو الفلسفة والطبيعة ، ومثل ذلك الايمان ليس اتجاها خسيسا أو دنيئا ، ولعله ينتمى الى أسلوب يأخذ الحياة أخذا أوفر وأفسح وأبعد مدى فيما تبشر به من آمال مرجوة ــ من طريقة الهجوم الغائلة العاتية الحامية . ان غايات الطبيعة تدرك كلها عن طريق وسائل ــ ولعل أسلم طريقة لاكتشافها وكسبها هى اقتفاء اثرها بوساطة كل الوسائل » .

على أن چيمس على الرغم من تحسنه عقليا ، الا أنه لم يكتسب بعد الجلد الجسمانى الكافى الذى يعينه على تحمل اجهاد التعليم المستمر . ويقبل آخر مايو ليجده مرة أخرى غارقا فى بحر من الشك يفكر فى القيام برحلة أخرى الى أوروبا . بيد أن هذه المرة تتميز بنغمة من الرجاء حتى فى غمرة وهن عزمه واحساسه بالخيبة . انه فى هذه المرة مقتنع بأن الصحة فى متناول يديه ، أيسر منـــــالا وأقرب ادراكا ، وأن فترة من الاستجمام كفيلة بأن تحرره الى الأبد من ربقة مرضه المزمن . ثم ان الأبدال المهنية أيضا ــ اختزلت الآن فى حيز ضيق يتمثل أمامه فى ممكنات محسوسة ملموسة ، يشعر أنه كفء لأى منها ، وأن صحته تسمح بها . ولما طلب المشورة من أخيه هنرى أوصاه بذهابه الى روما نظرا « لمناخها المسكّن المخدر » وملاهيها الاجتماعية المسلية و « لكونها ملائمة بصفة خاصة لمساعدة المرء على السلوى واجتياز محنة الوقت » (٢) . ولقد عرض عليه بكل تحمس أن يرافقه هناك اذا قدر له أن يحضر . بيد أن وليام چيمس متع نفسه أولا باجازة أمريكية ، وذاق فى حضرة الطبيعة الاطراء المميز ، الذى اختص به والذى وصفه فى الرسالة التالية لأمه :

---

(٢) H.J.[2] to W.J., June 18, 1873.

ماجنوليا (٨ يوليه ١٨٧٣)

« يا أعز من أعز ، مار ...

لم يسبق أبدا أن حدث لى فى خمسة أيام مثل هذا التعثر فى المشاعر مثلما حدث فى الخمسة الماضية . ولقد بلغت مزايا هذا المكان أوجها بالأمس فى فترة كاملة من فرط السرور والطرب استمرت طوال بعد الظهر . لقد كانت فكرة عظيمة أن أخلف عملى ورائى لمدة ثلاثة أسابيع سيترتب عليها بلا شك أننى سأقبل عليه بعدئذ بشهية . ثم ان جلب العمل معى الى هنا الآن كان من المؤكد سيفسد على كل بهاء هذا الاسترخاء العقلى الحر المتهاون الذى أنعم به الآن . لقد قضيت كل فترات الصباح وبعد الظهر فيما عدا صباح الأمس فقط ــ فى الغابات والحقول والصخور ، ونسيم الغابات ينفذ الى رئتى، ورائحة شجر الغار فى انفى ، وايقاع أمواج الشاطىء الصخرى يسجع على أذنى ، ثم الضوء الغامر الجميل أمام بصرى . انها تمحو تجاعيدك وتزيل تغضناتك وتغسل أدرانك كلها نتعودين نظيفة نقية من جديد ممتلئة شجاعة وفى غنى عما عساه أن يحدث لك فى المستقبل ــ فى حين أن وعيك ببوم عملك العادى يمتلىء وخامة ووبالا بالعزلة النكدة والخلوة الشكسة والمخاوف المنذرة بالشر . لست أدرى كيف يتسنى للناس أن يعيشوا دون شهر فى السنة من هذه الحياة الطبيعية ــ لأننا اذا أخذنا الجنس البشرى فى مجموعه وجدنا أن الوجود فى الهواء الطلق والخلاء من يوم ليوم كان دائما الحياة الطبيعية ، وحب هذه الحياة والحاجة اليها لهما جذور عميقة فى طبيعتنا .

استودعك الله بحبك الى الأبد

« و . ج . »

وفى ٢ سبتمبر كتب چيمس الى أخيه :

« قضى الأمر ونفذ السهم . مرتب ستمائة الدولار الشهرية يسكن فى جيب آخر . ولمدة عام أجد نفسى ثانية طافيا على وجه الماء حرا . اننى أشعر بجلال اللحظة وخشوعها، وانه يجب على أن أبل من مرضى الآن أو أقر بعجزى . ويبدو كما لو كان ذلك حتما مقضيا على أيضا ... لذلك توقع أن ألحق بك حوالى أول نوفمبر » .

وفى شهر أكتوبر أبحر على السفينة اسبانيا حيث نزل فى ميناء كوينزتاون ، ومن ثم مضى قدما على الفور الى فلورنسا ، ولم ير من لندن أو باريس الا لمحات خاطفة فى طريق السفر . وفى الثامن والعشرين من نوفمبر وبصحبته أخوه ، سافر من فلورنسا الى روما حيث ذاق مزيجا من الرهبة والنفور عبر عنهما بأعنف حميا فى رسائله التى بعث بها الى الوطن . وبينما كان لا يزال معجبا بروعة روما وآثارها الخالدة الغنية ، الا أنه شعر باشمئزاز خلقى قوى حيال انحلالها ، ووثنيتها وتشبثها بالتقاليد السلفية ــ اشمئزاز خلقى اعتقد أن أباه وحده هو القادر على

الجهر به على نحو كاف واف . أما كون صـــحته كانت فی تحسن سريع فيظهر من رسالة بعث بها أخوه الى أبيه بعد بضعة أسابيع قليلة :

روما ٢٢ ديسمبر ١٨٧٣

« والدی العزيز .

لابد أن ويلى سيكتب لك عن نفسه ويحيطك علما ـ فيما أرجو ـ بما أصابه من تقدم مثلما يفعل معی كل يوم ، وكما ينطق بأجلى بيان مظهره كله ، وتشهد بذلك مآثره اليومية وأعماله الباهرة . انه يبدو راضيا جدا بحاله ، ومدركا لتحسنه الموصول الآخذ فی الازدياد . لقد دخل لنوه الى غرفتی يطفح وجهه بالصحة وينضح بالعافية ، لكی يسألنی عما اذا كنت قد وجدت أية رسائل لدى موظفی البنك هذا الصباح ، وليستفسر منی عن المكان الذی ينبغی عليه أن يقصده اليوم . فلما رآنی مكبا على الكتابة قال : « بلغهم حبی وأخبرهم أننی على خير ما يرام » . والواقع أنه فعلا على خير ما يرام ـ وتقدمت صحته جدا ، وهو يمشی ويصعد السلالم الرومانية ، ويشاهد المناظر بطريقـــة تملأنی بالســـعادة والرضا الى أقصى درجة ... ان ويلى الذی خاب أمله فی روما فی أول الأمر ، اتقدت جذوته الآن حماسة لها ، ويعترف بسلطان تأثيرها الجليل . بيد أنه يتمنع بكل كآبة العاديات تحت احتجاج دائم يملأنی سرورا كعـــلامة على ازدياد التفاؤل والمرونة فی نزعته ومزاجه . أما حديثه ـ كما تتصورون ـ عن كل الأمور ، فهو حديث زاخر بالدسامة والحيوية الى أقصى درجة . ان مشاعری واحساساتی ومداركی البليدة لا يمكنها أن تواكب حديثه . تقبل يا والدی الحبيب والجميع خالص حب، واعزاز محبكم

هـ . ج »

واضطر وليام الى مغادرة روما فی نهاية ديسمبر بسبب حمى الملاريا التی انتابته ، فعاد الى فلورنسا حيث لحق به أخوه فيما بعد . وبعـــد ذلك فی فبراير بدأ وليام رحلته ميمما شـطر الوطن ، ولـكنه عرج فی الطريق أولا على فلورنسا حيث بعث بالرسالة التالية لأخته :

١٣ فبراير سنة ١٨٧٤

« محبوبتی الجميلة الصغيرة :

ودعت فلورنـسا منذ ثلاثة أيام وبنفسی لذعات من الأسى على فراقها لأننی لم أنصفها وأفيها حقها فی الشهر الأخير الذی قضيته فيها ، من جراء مرض « الملاك » وانحراف مزاجی اللذين جعلانی فی حالة غير لائقة لاهتبال الفرص المتاحة أمامی . ولكن مدينة البندقية أقالتنی من عثرتی وأعادت الى شهيتی ومقدرتی على مشاهدة المناظر والتجوال مرة أخرى . ثلاثة أيام متوالية وأنا أركب الجندول وأتفرس فی المناظر والصور تحت سماء صافية ، وان كان الهواء ثقيلا كثيفا وخصوصا فی الاكاديمية حيث تثقل وطأة برده

على الحراس . لم أر فى حياتى قبلا مثل هذه العظمة فى الرسم والنقش يلازمها مثل ذلك الانحلال والتسوس . لقد تسلقت عصر اليوم هضبة الكامبانيل ، وشاهدت من فوقها منظرا فسر لى الكثير من فن البندقيه ... أعنى الضوء كواحد من أشخاص الرواية، فى حين أن الجندول يجعل المرء يفهم كيف أن الاشكال التى ترى من أسفل تجاه السماء ... كانت تأتيهم بشكل طبيعى للغاية ... وعلى وجـه الاجمال فان زيارتى كانت موفقـة توفيقا عظيما . وغدا أرحل الى ميونخ متلبثا فى فيرونا ست ساعات ، وفى درسدن على أن أقرر اذا ماكنت سأعود فى مارس أو لا ، وهى خطوة ليس من الهين البت فى امرها . وداعا ياطفلتى الحلوة .

اخوك المحب

« و م . »

وفى مارس أبحر چيمس من بريمن عائدا الى الوطن . والرسـالة التالية الى أخيه تمثل حالة عقله المألوفة **المعتادة** بعد عودته من أوروبا مباشرة .

كامبردج ١٨ ابريل سنة ١٨٧٤

« عزيزى هارى .

أى ثرثرة عن فلورنسا ما زال فى وسعك أن تحيطنى بها علما سأعبها عبا وبشراهة ـ لاننى أشعر نحوها مثلما أشعر نحو مرتع طفولتنا ـ البانى العتيدة بظلال أشجارها الوارفة فى العصارى ... الخ ... ولا تحسبن أن الأمر منوط بسعادتى هنا ، بل لعلنى اكثر سعادة هنا مما كنت هناك ، ولكننى لكونى فى طريق مستمر مما يبرهن لى كيف ان فكرة الكل تسيطر على اللحظات الجزئية المعينة ـ بالنسبة لطرازنا من الشخصية. ان كل لحظاتى هنا أدنى من لحظاتى فى ايطاليا ، ولكنها أجزاء من منهاج طويل فيه خير ونفع وبر ، ومن ثم فهى ترضى نفسى أكثر من اللحظات الايطالية التى وجدت من أجل ذاتها فقط . اننى أشعر بقوة وعافية ـ بشكل لم أعهده ـ منذ ثلاثة أسابيع تقريبا ... ولقد أنجزت قدرا كبيرا من العمل فى معمل بوديتش ... ان اقامتى القصيرة فى الخارج زودتنى بشعور جديد على بما اعتدت أنت أن تسميه ضيق حيز بوسطون وريفيتها ، ولكن لا ضير فى ذلك . ان ما يكدرنى هو افتقار الناس الى القوة والاقدام والانصـاف والاستقامة ، وتقاعسهم واستكانتهم الفائقة الحد ، وحـذرهم وخبثهم ومكرهم وهيئة مشيهم المتوقرة التى تتخذ سمة أولى النهى . وما هم بأولى نهى ولا ذوى عقول راجحة . ولعل ذلك مما يفت فى عضدك . ولكنى مع ذلك ما زلت سعيدا . وهذا يذكرنى بموضوع عودتك الذى فكرت فيه كثيرا . فمما لا ريب فيه أن عيشك لن يكون صـفوا لبعض الوقت هنا ، ومما لا ريب فيه أيضا أن الزمن ... كفيل بعلاج جزء كبير من مصادر الكدر، وانك سوف توفق « وتوزن » أنغام حواسك الخشنة (فى الوقت الحاضر) لكى تخطف متعة متهيبة من أسوار خشبية ووجوه تجارية ـ وهى متعة لها مزيد من الاثارة والامتاع لكونها تقتلع على هذا النحو من المراوغة والدهاء . هل أنت مستعد للمجادلة الفدائية ؟..

هذه هي معضلتك : خفة ظل أوروبا وملاءمتها من جانب مضافة اليها صعوبة كسب عيشك كله من انشاء الكتابة وشذوذ ذلك بالقياس الى الصحة العقلية ... أم كآبة أحوال الحياة الأمريكية ووحشة مضافة اليها مهنة أو عمل آلي مطرد النسق من الممكن الحصول عليه – يؤدى من يوم لآخر – ويفرغ من أمره عندما يؤدى مقرونا بالكتابة التي تقطر فيها جوهرك .

وصفوة القول ، لا تحضر الا بعد أن تحسم أمرك وتبت في مصيرك ... فاذا حضرت فستكون أسوأ سنواتك هي الأعوام الأولى . واذا آثرت البقاء فالسنون العجاف قد تكون هي الآخرة لا الأولى عندما لا يكون في وسعك أن تغير مجرى حياتك . وعندي ريب وهو انك اذا حضرت واستطعت أن تتأقلم وتوطن نفسك على الحياة هنا ، فان كيف ما ستكتب سيكون ارقى واجود مما يقدر لك أن تكتبه في أوروبا ... انها لحظة في غاية الحرج من حياتك ، ولكن أمامك شهورا عديدة للتروى قبل أن تبت في الأمر .

وداعا .

« و . ج . »

وثمة صورة حية لمناشط وليام وصلاته الشخصية في أثنـــاء تلك الفترة – تنقلها الينا الرسالة التالية الى أخيه روبرتســـون الذى كان يعيش آنذاك في مروج الجرو Prairie du chien بولاية ويسكونسن .

كامبردج ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٤

« لقد استقر بنا المقام لفترة الشتاء ، وهارى في أطيب صحة حقا بادى الفـــرح لعودته . أما الحادث الهام الوحيد الذى يستحق التنويه فهو زواج ادوارد امرسون والآنسة كيز بالأمس في دار آل كيز . ولقد ذهبت الى الحفل في عربة احتل نصفها عدد من المدعوين من المدينة – منهم آل فوربز وعدد آخر من الأقارب . وكان اليوم دافئا مرذا كثير المطر الضعيف ، بحيث أكسب الريف الأخضر رونقا وبهاء وزاده اخضرارا وجمالا . وكان عقد القران شيئا بهيجا وسارا بالنسبة لى ، لأنه أول عقد قران من نوعه أحضره في حياتي – باستثناء عقد قران العمة كيت وعقد قران وندل هولمز (الذى تم في كنيسة). وكل أصدقائي قد أصابتهم في المدة الأخيرة جائحة من الانفعال الحادة ، ت . س . ميرى ، آلين جورني ، جون لافارج ، كلوفر آدمز ، وهلم جرا ، للتحمس للزواج سرا لا علانية ، حتى لا تدنس عين من عيون البشر الفاني شعائر الحفل – ولقد تقبلت ذلك باستسلام على اعتبار أنه الطريقة الوحيدة التي تليق بشخص « مثقف » يحترم نفسه . بيد أن حفل الأمس فتح عيني كلية ، وعندما أتزوج فسأوثر أن أحاط بحشد فرحان مفرح من الناس من حولى . لقد كان كل المدعوين في حفل الأمس من أهالي كونكورد – تلوح على محياهم تلك النظرة الفاضلة الواثقة التي تنم عن عشيرة كونكورد – وكلهم كانوا يتنادون بأسمائهم الأولى في الفة ومودة ، وكنت تشعر بأن الرجـال – وخصوصا النساء – الواقفين الى جوارك – على الرغم من أنك لا تعرفهم – كانوا جديرين باحترامك. توم وارد كان موجودا بالحفل ، والمس ليزى سيمونز الشهيرة ذات الحسن والجمال ،

وأسرة بارتلت كلها بوجوهها التى تشبه التفاح المشوى ، والمستر امرسون العجوز شاحبا وهزيلا وغير متوازن الجنبين أكثر من أى وقت مضى ، وكان هناك أيضا المستر سانبورن الذى كان يسند نفسه بالتوكأ بيده على السقف ، والذى يبعث اليك والى ويلكى بسلامه واحترامه . وكل الناس يذكرونك ، وكثيرون منهم سألوا عنك أكثر مما فى وسعى أن أتذكر الآن ـ وأذكر لك منهم على سبيل المثال لا الحصر ، المس اليزابث هور ، والمسز سيمونز . ولقد بدت الين امرسون فاتنة فى ثوب أبيض وشال كريشة بنفسجى فاتح ، وكانت اديث فوربز حاضرة فى ثياب فاخرة ومعها أطفالها الثلاثة الذين تبدو على وجوههم نضرة النعيم . على أن أكثر من سرنى كانت زوجة مالكولم فوربز الشابة ، ذات الوجه المليح والصوت العذب والحديث الطلى الشهى الذكى . وكان ادوارد فى أحسن صحة ، وسلك سلوكا طيبا ، فى حين أن المس كيز التى أبلت لتوها من مرض عنيف « معضمة » حذا بادية الهزال ، وعلى وجنتيها البارزتى العظام بقعتان قرمزيتان (٣) . ولقد دعانى ويل فوربز للذهاب الى نوشون لقضاء بضعة أيام فى نهاية الأسبوع ، وسيكون ادوارد وزوجته هناك ، وسيؤلف الجميع حملة لصيد الغزال . سأكتب لويلكى عن أنباء الصيد . صدقنى يا بوب العزيز أسى دائما ـ محبك

« و . ج . »

---

(٣) The bride was Miss Annie Shepard Keyes, daughter of Judge John S. Keyes. Dr. Josiah Bartlett was the well-known Concord physician. Miss Elizabeth Hoar, sister of Judge Ebenezer R. Hoar, had been engaged to Charles Emerson, who died a few months before the marriage was to take place. Mrs. George Francis Simmons was formerly Miss Mary Ripley of Concord and Miss Lizzie Simmons was her daughter. Mr. Sanborn was the well-known Frank B. Sanborn whose school the younger James boys had attended. Mrs. John Malcolm Forbes was the former Miss Sarah Jones.

١٦

استقرار فى الحياة

فى سنة ١٨٧٤ ــ ١٨٧٥ استأنفت چيمس عمله كمعلم ، مضطلعا هذه المرة اضطلاعا كاملا بمقرر « التاريخ الطبيعى ٣ » عن « التشريح المقارن وفسيولوجية الفقاريات » وهو المقرر الذى استمر يعطيه خمس سنوات متوالية · وبعد موت جيفريز وايمان فى سنة ١٨٧٤ خلفه چيمس مؤقتا فى الاشراف على معمل التشريح المقارن الذى كان وايمان قد أنشأه فى قاعة بويلستون · ولقد أزاحه أساتذة الكيمياء من هذا البنـــاء فى سنة ١٨٧٥ وحلوا محله · وأنا مدين للبروفسور تشارلز لورنج جاكسون بالقصة التالية التى رواها عن زيارة قام بها چيمس الى المعمل فى أثنـاء الخريف لكى ينقل من المعمل بعض المواد والعتاد الذى كان قد خلفـــه فيه :

« لقد عدت حالا من أوروبا بعد سنتين ، وفى معرض الحديث عن عملى قلت اننى ذات مرة عندما كنت أجرى تجاربى على نترات النشاء فى برلين ، بدا رجل انجليزى كان معنا أيضا فى الرواق ــ يغنى ويضحك كما لو كان ثملا · وعندما حل المساء وجدت نفسى فى مثل حالته · واهتم چيمس بهذه الظاهرة اهتماما بالغا ، وطلب أن يجرب بعضها على نفسه . وفى أول الأمر أمسك بالقارورة بعيدا عن أنفه وحرك البخار المنبعث منها نحوه ، ولكن عندما كان جوابنـــا عن أسئلته المستمرة « هل وجهى يتزهزه ؟ » هو « كلا » ، قرب القارورة من أنفه ثم وضع فوهتها أخيرا فى منخريه وتنشق منها بكل عمق · ثم تحسس المائدة بيده كالأعمى ووضع القارورة عليها وقال : « أوه ــ اننى أشعر بشعور غريب » · وتناول جرتين من النوع المستعمل للبطاريات ، وكانتا مملوءتين بالكحول (حوالى لترين اذا لم تخنى ذاكرتى) وهرول الى الفناء لا يلوى على شىء » · ويبدو أن چيمس وصل سالما الى مقصده الذى كان من المفروض أن يصل اليه ، وهو متحف علم الحيوان المقارن الواقع فى شارع آكسفورد ·

وفى هـــذا الخريف من عام ١٨٧٥ أعلن چيمس عن مقرر لخريجى الجامعة بمثابة دراسة عليا بعنوان «العلاقة بين الفسيولوجيا وعلم النفس» ولقد أعطى مقررا مشابها لطلاب الجامعة فى السنة التالية ۰ وبترقيته الى وظيفة أستاذ مســـاعد سنة ١٨٧٦ رسخت قـدم چيمس مهنيا على نحو مستقر ۰

وكذلك هنرى ـ استهل حياته المهنية بصفة قاطعة فى نفس الوقت تقريبا مع أخيه ۰ ولقد بدأ أولى قصصه الطويلة رودريك هدســـون Roderick Hudson فى فلورنسا سنة ١٨٧١ ۰ وعاد الى كامبردج فى خريف تلك السنة لكى يحسم الموضوع الهام الشأن الخاص بمستقره الدائم ، بينا كانت قصة رودريك هدسون تنشر تباعا فى مجلة الأطلنطى الشهرية The Atlantic Monthly (١) ، فلما اتخذ قراره الكبير بايثـــار أوروبا لاذ عائدا اليها فى خريف سنة ١٨٧٥ ؛ ولم يعد الى أمريكا ، الا بعد ست سنوات سويا . وعلى ذلك استؤنفت المراسلات بين الأخوين .

وكتب هنرى من باريس فى الثالث من ديسمبر يقول :

« رايت عددا قليلا من الناس ... أهمهم تورجنيف ... انه رجل فى غاية الجاذبية ، ولقد هوى فؤادى اليه بكل شـــغف ... وكذلك تشـــارلز بيرس الذى يرتدى ملابس جميلة ... الخ ... وهو مشغول فى تحريك وتطويح الرقاصات والخطارات «البندولات» فى المرصد ، ويعتقد ان علماء باريس يعاملونه بشىء من عدم الاكتراث والبخس . ونحن نلتقى كل يومين أو ثلاثة لنتناول العشاء معا ، وعلى الرغم من أننا مؤتلفان ويود كل منا الآخر ، الا أن انعطافنا اقتصادى لا عقلى » .

وأجاب وليام بالرسالة التالية فى ١٢ ديسمبر :

« يطربنى ويسلينى أنك وقعت فى براثن ت . س . بيرس الذى أحسب أنك تجده كميما متعبا ، حسكيا ووعرا ، ولكن سبيل معاملته السديد هو طريقة الرجمة المعروفة « بحشيشة القريص » الأسطورية . كيل عليه يمينك وناقضه من خلاف ثم غته غتا عنيفا واسخر منه سخرية لاذعة فاذا به يتحول الى حمل وديع لطيف المعشر ، ولكن حذار ثم حذار من طريقته فى الاجمال المحكم وعباراته المتناقضة الملتعزة ـ تريث وترو وافحصها مليا

---

(١) The trials of an author residing abroad, where he had no chance to read his own proofs, are illustrated by the misadventure with his letter to the Nation from Pisa, in which "idle vistas and melancholy nooks" appeared as "idle sisters and melancholy monks" Cf. letter of H.J.[2] to W.J., June 13 (1874).

وانتظر كما يقـــولون حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأســـود من الفجر ، ولن تشعر حياله بسر ، ولن تجـــد أمرك معه هينـــا لينا رخيا أكثر مما وجـــدت انا معه لسنين طويلة ، حتى غيرت سياستى معه ، وحولت مجرى دفتى حياله ، وعاملته بشيء من المماحكة والمماكسة . وانى لأقر بأننى أحبه كثيرا على الرغم من كل ما فيه من غرابة وهجنة ، لأنه رجل عبقرى ، وصفة العبقرية تحمل المرء دائما على الانعطاف نحو صاحبها مهما كان ...

قصة رودريك هدسون أصبحت على كل لسان وموضوع حديث شائع ... وبنظرة فاحصة فى الكتاب يبدو لى أن القصة وهى كاملة منشورة أحسن مما بدت لى وهى أجزاء متفرقة ، ولكن يجب على أن أقول لك اننى مرة أخرى لا أستطيب جنوح شخصيات القصة الى العود على أنفسهم باللوم والتقريع ، وسرد تصنيف حاد من النقد العلمى المستبطن الفاضح لدخيلة أنفسهم فى طبائعها وحالاتها العقلية على طريقة ج . صاند . خذ حذرك مرة أخرى ... ان الشيء الوحيد الذى فعلته فيما عدا اهتمامى بالتشريح هو كلمة تقريع اكتبها لمجلة الأمــة The Nation ، وهى التى ارفقها بهذا ... وفى المدة بين ارسالها الى المجلة ورؤيتها منشورة غصت فى بودلير وشعره ، وأنا مضطر لان اعترف على مضض ان شيرر لا يقل خطأ عن سانتسبرى سواء بسواء . انه لما يؤسف له أن كل كاتب فى فرنسا ملزم حتما بانصاف « المسكر » المضاد . فبودلير حقا فى كتـــابه « أزهار الشـــوك » مبدع ومبتكر ، وبلغ مرتبة السمو فى معنى معين — وعلى العموم انا لا أستطيع تحمل اية سخيمة أو غل ضده ، وان كان أحيانا يكتب كشخص نصف مستيقظ يتحسس الكلام ويتلمسه . على أن أعظم ما يسر ويطرب فى الأمر كله هو الانطباع الذى يستقر فى المرء عن براءة وطهارة جيل كان ينبغى أن تحدث فيه « أزهار الشوك » فضيحة . انه كتاب رقيق ومعتدل وروحانى بمعايير اليوم . اذا راق لك فاحصل عليه واكتب عنه فى مجلة الأمـــة The Nation او الاطلنطى Atlantic ، واوصيك بصفة خاصة أن تقرأ رسالة سانت بيف الى بودلير فى خاتمة الكتاب التى بلغت منتهى الذروة فى التعبير عن دهائه الشيطانى وخبثه الرجيم(٢) .

قابلت ت . س . اليوت اليوم وهش وبش للقائى ، وبشرنى بأن أتوقع ١٢٠٠ دولار هذا العام ، وان آمل فى ٢٠٠٠ دولار فى السنة القادمة ، وستكون بركة ونعمة اذا تحقق

---

(٢) James's "squib" was a letter to the Nation in which he pretends to be composing a manual of the literature of the nineteenth century and calls attention to the flat contradiction between Saintsbury's favorable (Fortnightly Review for Nov. 1875) and Edward Scherer's unfavorable (Études) judgment of Charles Baudelaire. Cf. the Nation, Dec. 2, 1875 (XXI), 255. Sainte-Beuve's letter to Baudelaire appears in the Appendix of the first volume of the latter's Oeuvres ocmpleètes, 1869.

الأمل . كلما تقدم الفصل الدراسى يزداد شعورى بأسى حقا احسن مما كنت فى العـام الماضى من كل ناحية تقريبا ، مما يفسح لى ابواب الأمل المنظورة للمستقبل ... وداعا . وليباركك الله . أنعم بالصحة وعشرة الناس ما استطعت الى ذلك سبيلا . ان رسالتك الأولى كانت استهلالا طيبا . وان كان المرء يحس من بين سطورها انك الى حد ما تبحث جاهدا عن النغمه الملائمه أو الأسلوب المناسب . بودى لو صحبتنى معك الى بعض المسارح. أستودعك الله . و . ج .

حاشية : آخر نكتة أمريكية رواها جودكين مساء الأمس :

الطفل (الذى تاه فى المهرجان) : أين أمى ؟ لقد أخبرت الملعونة أنها ستتوه منى ! » .

أما أن عقل چيمس الفلسفى كان مزدحما مشغولا فى أثناء ربيع وصيف سنة ١٨٧٦ فأمر يتضح من رسائله المتبادلة مع رينوفيير(٣) . ومن رسالة حررها الى مجلة الأمة عن (تعليم الفلسفة فى كلياتنا) . دافع فيها عن حرية التعليم التامة فى هذا الميدان ، وناضل ــ بطريقـــة تمثل تفكيره وخبراته الأخيرة على نحو عميق ــ بأن القيمة التربوية الرئيسية للفلسفة تكمن فى « بلوغ أفق أوسع للعقل وادراك أسلوب للتفكير أكثر مرونة »(٤) .

وفى الواقع من الأمر فلقد انقضت سنوات كثيرة قبل أن يقدر للمثل الأعلى للتعليم الفلسفى أن ينتصر على سلفه القديم المتمثل فى ادعاء التثقيف الغطريسى ، ولا ريب أن چيمس نفسه قد قام بدور قيادى فى هذا التغيير .

وخريف سنة ١٨٧٦ يستحق الذكر لأنه كان ايذانا بافتتاح أول مقر دراسى فى علم النفس يعلمــه چيمس لطلاب الجــامعة ، والذى كان اسمه « مقرر سبنسر الجديد الاختيارى » ، والذى أشار اليه چيمس فى رسالته التالية الى توماس و . وارد :

كامبردج ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦

« عزيزى توم :

لقد اثبت أن مقررى « سبنسر الجديد الاختيارى » فى غاية الاثارة والتشويق وان كان عسير المرتقى ... لشد ما أحسدك على رصيدك من الطاقة التى لا تنفد . ان رصيدى لا يزيد على ملء ملعقة معدة لكل يوم ، وعندما تنفد هذه الكمية الضئيلة ــ وهى عادة ما تنفد حوالى الساعة العاشرة صباحا ــ أصبح كلا على نفسى لا أصلح لشىء . ينبغى على كل انسان أن تتوافر لديه فرصه خارج عمله لكى يرقى مائلته فى الحياة ويفلحها . ينبغى

(٣) Cf. below, 152-3.

(٤) L.W.J., I, 190. For the article in full, Cf. Nation, Sept. 21, 1876 (XXIII).

ان تتاح لى المقدرة على قراءة السير والتراجم وكتب التاريخ ... الخ ... لبضع ساعات كل مساء ، لأننى أعتقد أن الأستاذ بالاضافة الى مادة تخصصه ينبغى أن يكون موسوعة ثقافية — ولكنى لا أستطيع قراءة أى شىء . وعلى وجه التحديد فان جزءا من رسائل دودان (مادة طبية تشرح الخاطر) ونصف رسائل المدموازيل ليسبيناس(٥) ، هى حاصل مجموع كل ما قرأته فى ثلاثة أشهر . وهذه الأخـــيرة تبين مرض الحب على نحو كامل يضاهى — ان لم يفق — كل ما قرأته فى هـــذا الصدد . بيد أننى أحب الطبيعـــة الانسانية ، ولا أستطيع أن أتنفس دون ايعاز ما بالصلة بحياة الناس الآخرين — أعنى — أن تكون حياتهم من النوع القوى الشديد .

كل الرجال هنا يبدون مسببين بالغى الجفاف ، وكأنهم خشب مسندة من النوع الذى يعلق على واجهة الحوانيت . عندى بعض الطلبة النجباء فى درس علم النفس — مقرر سبنسر — ولكنى متقزز كلية من الفيلسوف الرفيع الشأن الشاهق الذى يبدو لى أنه يزداد ويزداد فى عقمه المطلق فى كل المسائل الأساسية فى التفكير بقدر ما هو بارع ومعجب وحاذق وذكى فى المسائل الثانوية . ان عقله لغز محير لى تماما ، ولكن محصل الانطباع الكلى هو الأثر الذى تحدثه باقة خانقة من الورق المقوى من فئة الشلنين وستة بنسات .

محبك دائما

و . ج . »

ويبدو أن أنباء مقرر وليام الاختيارى الجديد كانت قد ترامت الى أخيه هنرى ، لأنه كتب فى اليوم الثامن والعشرين من فبراير (١٨٧٧) يقول :

« ما هذا « الهربرت سبنسر الاختيارى » ؟ الذى أشرت اليه ، ولكن دون أن تقسر خلقه المفاجىء . وأيا ما كان فأنا سعيد بأنك تحبه . اننى كثيرا ما أتقيل الى جوار هربرت سبنسر فى المتحف الأثينى ، وأشعر كما لو كنت أسرق منك هذا الحق المخول لك . ثمة كلمة لماثيو آرنولد يبدو أنها أصبحت من الأقوال المأثورة الكلاسيكية هنا : « نعم ، زوجتى امرأة سارة بارة — فيها كل عذوبتى وحلاوتى ، ولا شىء من زهوى وعتوى واستكبارى » .

وفى يونية ســنة ١٨٧٨ عقد جيمس صلته بمؤسسة هنرى هولت وشركاه للطباعة والنشر — التى أفضت (بعد اثنى عشر عاما) الى طبع ونشر كتابه مبادىء علم النفس Principles of Psychology

وفى اليوم العاشر من شهر يولية سنة ١٨٧٨ تزوج آليس هـ . جبنتر التى كان قد التقى بها منذ عامين بوساطة صديقه توماس دافيدسون(٦) .

---

(٥) The letters of Mlle. Julie Elénore de Lespinasse were published in Paris in 1809, second edition in 1876.

(٦) Cf. below, 166 ff.

ولولا هذه الصلة الثانية لكان من المرجح ألا يستطيع چيمس الوفاء بالتزامه الخاص بصلته الأولى . القد كانت المسز چيمس سيدة جديرة بالاعتبار فى ذاتها ، ممتازة فى الجمال والبداهة وروح الدعابة والخلق. ومهما قيل فى تأثيرها الحميد على سعادة زوجها وخصوبة حياته وفعاليتها فى أن تؤتى حياته أكلها ثمرا جنيا – فلن يكون موضع مبالغة . كانت تشاركه فى اهتماماته الفكرية والمهنية بنوع من الولاء الحانى البصير . وفى حالة غيابها كان يتحدث عن نفسه كشخص « ترك وحيدا أعزل محروما من الأذن المعتادة التى أسكب فيها كل ملاحظاتى ومثلى وحكمى وأمنياتى وشكاواى » (٧) . كانت ترعاه بحب وتكريس واخلاص ، لا تكل ولا تمل ، واقية اياه من نتائج مروءته الطائشة وشهامته المتهورة .

وفوق كل شيء فقد أدخلت الى بيته نموذجا مجسما حيا وملهما للسكينة التى تحتاج اليها طبيعته الحادة المتقلبة السريعة التأثر أمس الحاجة . ثم انه كان هناك فى نفس الوقت ضرب من التتمة ومحط الختام فى حقيقة الزواج ذاتها – قوامه الاحساس بالرسو على مرفأ آمن ، وبالمضى قدما ابتغاء حياة هادفة لها معنى . على أن المرفأ العائلى الذى لاذ به چيمس لم يكن دائما ساكنا وهادئا ، وانما كانت أمواجه تضطرب من حين لآخر بأمواج أحداث الحياة العادية التى تصاحب الحياة المشتركة للكبار ومن ينجبونهم من أطفال صغار . وكانت أعصاب چيمس حساسة بشكل عجيب حيال الضوضاء والمضايقات والازعاج والهموم والبلبال والقلق ... التى لا مناص منها فى حياة أى أسرة . ومن ثم كتب فى سنة ١٨٧٩ الى أخيه الأصغر روبرتسون يقول : « انى لأجد هم وغم وعناية والد صاحب عيال « دادة » مختلفة جد الاختلاف عن هموم واهتمامات شخص أعزب . وداعا للعقل الهادىء » (٨) .

وفى سنة ١٨٨٧ ، فى رسالة بعث بها من شوكوروا كتب يقول :

« انه لما يعقد الحياة تعقيدا كبيرا ان يكون للمرء اطفال . هذا اذا نحينا جانبا التعقيدات التى تسببها لهم . فاذا اضيفت الى تلك التعقيدات الحموات واخوات الزوج واخوات الزوجة وعمات الزوجة والزوج وخالات الزوج والزوجة فانها « تجعل المرء نشوان وثملا » (مثل ذلك المدلك المجوز – كما قال هورن عن ظهرى) . اننى أنظر الى ماضى

---

(٧) W.J., to William M. Salter, May 11, 1893.

(٨) August 18, 1879.

حياتى – الى حياتى الضيقة « الهشة المقل فى عهد العزوبية ، فأرى أنها كانت أكثر عصور حياتى تدرنا ، وان كان يشوبها شىء من الاعتراف بالجميل من جراء الاحساس بالامكانية والاحتمالية المرتبطة بها » (٩) .

والفقرة التالية من احدى رسائل سنة ١٨٩٢ ، كتبت بشعور أصيل صريح ، ولو أنه مشوب بما عهد في چيمس من غلو واغراق واطناب :

« أحسب أن أقدس واجب يتعين على أن التزم به فيما بقى لى من عمر هو أن انقذ بنى جنسى الغفل الذين لا حظ لهم من خبرة أو تجربة بالحياة ، فلا يصحبون صغارهم معهم – جهلا وغفلة – الى الخارج عندما يذهبون الى هناك للتسلية والترويج . ان الجمع بين ضروب الحيرة والبلبال والجزع التى لا عهد للمرء بها والشديدة الكرب ، وبين تربية اطفالك وتعليمهم ، واقتران صلات النهار والليل التى تبلغ أقصى الخصوصية والسرية بصراخهم وعويلهم وشجارهم وعراكهم وأسئلتهم وتمرغهم ودموعهم ، وبالاختصـــار بكل وظائفهم الانفعالية والفكرية والجسمية – وحدوث ذلك كله فيما لا يزيد من الوجهة العملية فى تلك الظروف على غرفة واحدة – ان اقتران كل هذه الاشياء (أقول) بعطلة ينشدها المرء للترويح عن نفسه فكرة جديرة أن تصدر من مستشفى المجاذيب »(١٠) .

وثمة أيام مرت بچيمس أيضا – كما حدث فى منتصـــف العقـد التاسع (١٨٩٥) – ناخ العبء المالى بكلكله عليه من جراء زيادة عـدد أسرته ، الأمر الذى أفضى به الى مضاعفة المحاضرات العامة والمقالات ، مما زاد من وطأة الجهد العصبى الذى كان يعانى منه من قبل ، نتيجـة لشهرته المتزايدة واهتماماته الفكرية الآخذة فى الاتساع على نحو موصول. بيد أنه ليس ثمة داع للظن بأن حياته العائلية كانت مصدر سـخط واثارة أو زاخرة بحوافز الكرب والهم الى درجة يترتب عليها أنه فى حالة غيابها – لن يجدها فى أى مكان آخر . أما القول بأنه كان ينبغى عليه أن يكون رزينا كتوما فى سلام ووئام مع نفسه ومع العالم ، فهذا مالا يمكن تصوره. لقد تكفل مزاجه الفطرى بذلك . على أن ما هيأته له حياته العائلية هو أنها خلقت أحسن بيئة ممكنة لميوله الطبيعية ، وزودته بأقصى ما يمكن من الاستقرار الموافق لعبقريته الزئبقية الألوبة ووجهت طاقته العصبية المفرطة الفائضة بحيث تنساب فى مسالك انتاجية ايجابية ، وأوجدت فى بيته تلك العلاقات الانسانية الرقيقة الحانية التى كانت طبيعته تحن اليها وتشتهيها ، وغرست فى صميم قلبه ولب وجوده احساسا شاملا أضفى على نفسه ايمانا بأنه يعيش حياة كاملة نافعة طيبة .

(٩) To A.J., July 7, 1887.

(١٠) To Grace Ashburner, July 13, 1892, L.W.J., I, 321.

وقضى العروسان شهر العسل فى أثناء صيف سنة ١٨٧٨ فى وادى كين بنيويورك فى المنزل الريفى الذى كان چيمس (بالاشـــتراك مع بوديتش وآل بوتنام) قد حولوه الى منتجع خلوى لقضـــاء الاجازات الصيفية • وهذا المنتجع الخلوى والمنطقة المجاورة له من جبال آديروندااك لعبا دورا خاصا فى تطور چيمس . فبعد سنين طويلة كتب يقول : « أحبه كفلاح • واذا كانت مدينة كاليه قد نقشت على قلب مارى تيودور ، فمن المؤكد ان وادى كين سيكون منقوشا على قلبى عندما أموت »(١١) . فهنا وفى الجبال البيض الى جوار منزله الصيفى فى شكوروا بنيو هامبشاير وجد چيمس ذلك الوجه البرى الفطرى من الطبيعة الذى كان يشبع نفسه وينقع غلته الى الأعماق . كان يقول : « على وجه الاجمال فاننى أفضل أعمال الله على أعمال الانسان (١٢) ، وعلى الرغم من أنه كان يملك عين فنان مصور للمناظر الطبيعية ، الا أن التجاه للطبيعة واعجابه بها وما بينهما من مناجاة متبادلة كان شيئا أعمق من النظرة الفنية بكثير•كان المنظر الفسيح الحر غير المعاق يعطيه الاحساس بالفضاء الهامس والشعور بالتوقان الى الملأ الأعلى والنزعة الى التجرد والتحنث • كان يتمتع بالغوص فى الفلاة حتى يصبح مغمورا فيها ، وكان يستطيب بساطة الملبس والعـــادات الشخصية الطبيعية التى تتطلبها مثل تلك الحياة • كتب مرة من أوروبا يقول : « ان أقصى ما تشتهيه نفسى هو بقعة من الريف الأمريكى الفطرى• انها حاجة مصدرها احساس عضوى عجيب . ان علاقات المرء بالمنـــاظر الطبيعية الاوروبية مختلفة تماما ــ فكل شىء مســـور أو مزروع بحيث لا تستطيع أن تستلقى وترقد وتتمدد » (١٣) . كان يستطيب ما أســـماه علاقات الأمريكى الشخصية الحيوانية المتوحشة بالطبيعة(١٤) . ان نظرة على قائمة مؤلفات چيمس تزودنا ببنية قاطعة ، على أن عام ١٨٧٨ كان نقطة تحول فى حياته المهنية وكذلك فى حياته الشخصية . ففى أثناء العقد ١٨٦٧ ــ ١٨٧٧ كتب مالا يقل عن خمسة وأربعين تقريظا ونقدا ، وفحصا ومقالا قصيرا • وهى أعمال ذات أهمية ضئيلة نسبيا حتى على اعتبارها بينة تفصح عن اتجاهات مؤلفها المذهبية وكيفه العقلى . وأما فى سنة ١٨٧٨ فقد نشر ثلاث مقالات رئيسية هى :

(١١) To the Author, January 2, 1900.

(١٢) To H.J.[2], August 11, 1898, L.W.J., II, 81.

(١٣) To Frances R. Morse, July 10, 1901 ; J.W.L., II, 158.

(١٤) Ibid.

« ملاحظات عن تفسير سبنسر للعقل كمراسلة » ٠

« العقل البشرى والبهيمى » ٠

« نظرات فى المنهاج الذاتى » ٠

والمقالات الثلاث كلها تمثل مميزات چيمس الخاصة الى أقصى درجة ، وتبين بجلاء أن بعضا من أفكاره الرئيسية المعينة فى الفلسفة وعلم النفس قد تبلورت فعلا . وبعد سنة ١٨٧٨ انساب تيار انتاج چيمس بلا انقطاع، وزاد حجمه على نحو موصول لمدة ثلاثين عاما — أو حتى قبيل موته بشهور قليلة ٠٠٠

على أنه لم يفقد شغفه بالفن والأدب أو يتوقف عن الاهتمام بهما والتعبير عن نفسه حيالهما ٠ ولقد ضاعفت زياراته المتكررة لاوروبا من صلاته ، وأيقظت اهتمامه بالسجايا القومية ٠ وكذلك لم يفقد أبدا اهتمامه بحياة أخيه المهنية أو يتخل عن قراءة مؤلفاته ونقدها ٠ وكان هذا الاهتمام بين الأخوين متبادلا ، ولكنه لم يكن بأقدار متكافئة من انطرفين . كان وليام يبعث بمقالاته لهنرى ثم بكتبه فيما بعد ، وكان هنرى يتسلمها شاكرا ذاكرا وأحيانا يقرأها ولكنه كان قليلا ما يعلق عليها أولا يعلق عليها مطلقا ٠ ومن الواضح جدا أن الأدب كان يعنى لوليام أكثر مما تعنى الفلسفة أو العلم لهنرى ٠

وكان هنرى قد نقل محل اقامته من باريس الى لندن حوالى أواخر عام ١٨٧٦ ٠ ورسائل وليام الى هنرى فى السنوات الأربع التالية لم يعثر لها على أثر ، ولكن هناك أصداء لها واشارات فى ردود أخيه عليها ، والتى وصف فيها انطباعاته عن الأشخاص الذين يهم أمرهم وليام مثل هكسلى، ومورلى ، وجلادستون ، وتنيسون ، و « سبنسر الراعد » ٠ وفى غضون ذلك استمر وليام يضرم نار النقد ضد أسلوب أخيه الأدبى ٠ ووصف كتابه « الأوروبيون The Europeans » بأنه « هزيل وأجوف » وبأنه خال من « الدسامة » أو « الضخامة » — وبأن أسلوبه فيه يجنح — بالاختصار — الى تضحية الموضوع على مذبح الشكل والصياغة(١٥) . وكان هنرى عادة يسلم بهذا النقد ويقر بحقيقته دون أن يذعن للمبدأ البتة ٠

(١٥) L.H.J. ², I, 65-6.

وقضى وليام صيف ١٨٨٠ يستجم فى أوروبا . وكان ابان ذلك الصيف قد تعرف لأول مرة على الرجلين اللذين اعتبرهما « أسبق فيلسوفين » فى زمانه ، ألا وهما : شادورث هودجسون ، وتشارلز رينوفيير (١٦) . ولقد قابل الأول فى لندن حيث كان يقضى بضعة أسابيع فى زيارة أخيه . ومن لندن رحل الى ألمانيا حيث جدد صلاته بعلم النفس الفسيولوجى فى صحبة ستانلى هول . وكان ستانلى هول أحد تلاميذ چيمس ثم زميلا له فى هارفارد ، وكانا يؤمان معا معمل بوديتش ، ثم سافر هول الى المانيا لاستكمال دراسته منذ سنة ١٨٧٨ . والرسالة التالية موجهة الى بوديتش الذى غير خطته وترك ألمانيا قبيل وصول چيمس مباشرة .

هيدلبرج ١٩ يولية (١٨٨٠)

يا لك من انسان لا يستحى ... يا لك من فظ غليظ القلب ... الخ ... الخ .

انظر ماذا ضيعت بنقضك وعدك وهروبك بهذه الطريقة الخسيسة النذلة . وصلت الى كولون فى منتصف ليلة الأربعاء ووجدت رسالتك وبطاقاتك محولة على من لندن تؤكد لى أنك ستنتظر يوم الخميس من أجلى فى هيدلبرج . وبناء على ذلك ضحيت بيوم كنت أزمع قضاءه على ضفاف الراين ، وأبرقت اليك فى الساعة التاسعة وبلغت هيدلبرج مساء الخميس ولم أجد سوى رسالتك الشيطانية الأنانية الاذلالية !! ، المليئة بالأخطاء الهجائية ، والتى تقول فيها انك لم تستطع الانتظار ثم تفخر بمنادمتك وقصفك ولهوك — بلا حياء ولا خجل — مع كوهنى(١٧) (وبهذه المناسبة فسأبلغ كل ذلك لزوجتك المسكينة) . وفى غضون ذلك فاننى وستانلى هول (الذى وصل أيضا مساء الخميس تحدثنا حديثا فى غاية السمو والتثقيف ، كنا سنسمح لك بالاستماع اليه مجانا لو كنت هنا . لقد تحدثنا زهاء اثنتى عشرة ساعة بلا انقطاع يوم السبت ، وقفينا عليها بثلاث عشرة ساعة ونصف ساعة دون أى توقف ولو لحظة واحدة بالأمس . انه انسان رائع بارع ولقد ترسخ وتوطد بنوع غريب منذ حلوله هنا . وعلى محمل الجد ، كم كنت أدعو أن تبقى وتنتظرنى ، فثلاثة احسن من اثنين وان كان الثالث ليس سوى ذلك المدعو هـ . ب . بوديتش . لقد رحل هول هذا الصباح الى باريس عن طريق كولون . وبعد ذلك سيعجل بالذهاب الى لندن ، وعلى سبيل الجزم — تقريبا سيكون بين أهله فى اغسطس حيث سيحصل فيما أرجو — على وظيفة فى بالتيمور فى الشتاء القادم . بعد ساعة سأرحل الى ستراسبورج ومنها الى بازل وديرشويز .

المخلص دائما

« و . ج . »

C.E.R., 133. For Shadworth H. Hodgson Cf. below, 157. (١٦)

Wilke Kühne was professor of physiology at the University of Heildelberg. (١٧)

ومن سويسرا حج الى Uriage-Les-Bains ذات الينابيع والنافورات الطبيعية بالقرب من جرينوبل حيث زار رينوفيير فى أغسطس وفقا لما ذكره فى الرسالة التالية الى هودجسون التى بعث بها من كامبردج فى اليوم الخامس والعشرين من سبتمبر :

كامبردج ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٠

، عزيزى هودجسون :

عيناى ، عيناى ، عيناى . لم يطرأ عليهما أى تحسن أكثر مما كانتا عندما تركت الوطن ، ولعلك تلاحظ أننى اكتب بيد زوجتى . لقد ساءت حالتهما تماما بمجرد أن بدأت امشى فى سويسرا ولهذا لم اقرأ سطرا واحدا من اعمالك الخالدة منذ تركتك . ولقد عدت الى الوطن مبكرا ثلاثة أسابيع عما انتويت ، ولم أقض سوى ثلاثة أيام فى لندن فى طريق عودتى . وقضيت يوما لطيفا مع رينوفيير الذى هو صاحب أعجب شكل لولد عجوز يمكنك أن تراه فى حياتك ! . ولقد تحمل بشجاعة « رواقية » ظاهرة ــ فيما عدا بربشة عينيه ــ ما قلته له عن مقالاتك ، معترفا باهتمامه العظيم بكتاباتك ، ولكنه قال انه وجدها فى غاية الصعوبة فى الفهم الى درجة فظيعة ، متصورا أن جزءا من الصعوبة مرده الى عدم المامه بالانجليزية .

مرفق طيه هجو لى مضاد لسبنسر ظهر الآن فقط(١٨) . ولقد كتبت هــذا التنديد وألقيته كمحاضرة ، وشطب المحرر كل الآثار الدالة على ذلك ولم أر التجارب قبل طبعها . لا أستطيع الاستمرار فى الكتابة الآن ، ولكنى لن أنسى أبدا الساعات التى قضيتها معك فى غرفتك . من الآن فصاعدا سيكون شارع « كوندوى » ، مناط أعذب الألحــان لأذنى اليانكى المنفيتين .

المخلص دائما

« و م . چيمس »

(١٨) "Great Men, Great Thoughts and the Environment", which appeared in the October number of the Atlantic.

١٧

الصلات الأوروبية فى ١٨٨٢-١٨٨٣

فى صيف سنة ١٨٨٢ ، وقد حصل على اجازة دراسية لمدة عام . ذهب چيمس الى أوروبا فى سياحة استمرت سبعة شهور ، وبالقياس الى أثر هذه السياحة على تطوره الفلسفى ، فقد كانت أهم مغامرات چيمس الأوروبية على الاطلاق . لقد اشتغل بالتعليم ثمانى سنوات متتالية بلا انقطاع ، وكتب عدة مقالات . ولكن فى هذه المرة كانت الراحة والصحة فى المرتبة الثانوية من حوافزه للسفر . ثم انه لم يذهب الى أوروبا لأن معينة من الأفكار نضب ــ بل على العكس تماما ، كان معينه زاخرا بالأفكار ونفسه تواقة للكتابة ، وكان يبحث عن مهرب من المقاطعات التى كانت تبدد وقته سدى . وما استطاع الى ذلك المهرب سبيلا ، ووجد أن كمية الكتابة التى نجح فى انجازها كانت ضئيلة هزيلة . ولكن معترضاته فى أوروبا كانت من نوع أكثر جدوى وثمرة ، قوامها بصفة رئيسية صلات شخصية أنعشت تفكيره ودعمت ثقته بنفسه على السواء .

وكان چيمس عندئذ ليس فقط ملتزما تماما بالارتباط بمهنة الفلسفة وحمل أمانتها ، ولكنه أيضا كان قد بدأ يصبح معروفا فى أوروبا عن طريق مقالاته المنشورة . وفى ذلك الوقت أيضا كان قد اكتسب تلك السمعة التى وفق أحد كتاب السير المحدثين أعظم توفيق فى وصفها بقوله : « كان يتقبل فى أمريكا على اعتباره فيلسوفا عالميا الى أقصى درجة ، وفى أوروبا على اعتبار أنه أمريكى قح » (١) .

وأصبح چيمس الآن قادرا على أن يلعب ذلك الدور الهام الذى أهلته له نشأته وأسفاره ، وكذلك سجاياه الشخصية بكيفية بديعة ــ ألا وهو دور

---

(١) Il a pu passer en Amérique pour le plus cosmopolite et en Europe pour le plus américain des philosophes" ; M. Le Breton, La Personnalité de William James, 1929, 35.

سفير الفكر الأمريكي « والمبعوث الدولى للسلام والوئام » الى دول غرب أوروبا • وكان الفكر الأمريكى يكاد يكون مجهولا فى أوروبا • وكان چيمس يمثل تفكيره وتفكير غيره من بنى قومه . ولقد ساعده اتقانه للفرنسية والألمانية ، وحديثه الطريف الفكه المسلى ، وسرعة تذوقه وتقديره للفضل والجدارة ، وشهامته الحارة ومروءته المتوهجة - على كسب ود وثقة ومحبة دائرة واسعة من الناس • وكان من هجيراه أن يزكى أولئك الذين يحمد صحبتهم بعضهم الى بعض ، ويقوم بدور الوسيط فى تعارفهم وتوادهم • وكان بيته فى كامبردج قبلة يقصدها أصدقاؤه الأوروبيون أو أصدقاء أصدقائه للزيارة والصحبة . وكان يزود أصدقاءه الأمريكيين ببطاقات توصية لأصدقائه الأوروبيين • بل انه كان يقدم الأوروبيين للأوروبيين • ولقد حدث - فى مرات ليست بالقليلة - أن أصدقاءه الأوروبيين أحبوه أكثر مما كانوا يحبون بعضهم بعضا •

وذهب چيمس أولا الى ألمانيا حيث تعرف على العالم الطبيعى والفيلسوف ارنسنت ماتش الذى شعر نحوه برباط فكرى متين - ولعل ذلك راجع الى أن ماتش - على غراره - كان قد وصل الى فلسفته التجريبية عن طريق العلم • وهنا أيضا أرسى أسس صداقة دائمة مع العالم النفسى كارل ستامف . ورسائل چيمس المنشورة عن تلك الفترة تحمل فى طياتها نغمة عالية من الثقة بالنفس • فليس فيها ثمة أعذار يقدمها ويطلب فيها الصفح - من نفسه أو من هارفارد أو من أمريكا • ولقد أيدت أسفاره فى ألمانيا توكيد هذا الشعور وتثبيته فحسب :

« لقد انتصرت ثرثرتى القومية الأصيلة حتى على صعوبات النطق الألمانى • ولقد مضيت فى المدرج سراعا أعدو عدوا فوق الحفر والوجرات والمتاريس لدرجة أننى كنت أنا نفسى فى دهشة مذهلة لوصولى سالما غانما ... فى آخر الشوط . نحن أمة صحيحة مكينة ، وفكرتى عن قيمتنا الجوهرية صعدت ولم تهبط . والشىء الوحيد الذى تفتقر اليه هو العمق الجوفى فى المزاج والقوة الذى يمكننا من أن نجلس ساعة نحتسى قدحا واحدا من البيرة دون أن نستطيع أن نقول فى ختامه فيم كنا نفكر ... رأيت فى ألمانيا كل الرجال الذين يهمنى رؤيتهم - وتحدثت مع معظمهم ... ومع ثلاثة أو أربعة منهم قضيت وقتا مغذيا مثمرا مباركا حقا ... لم أر جامعة فى أى مكان تفعل **لكل** طلابها شيئا يماثل ما تفعله هارفارد . ان مناهجنا أحسن على طول الخط ... ولا ريب أننى أخذت فكرة واضحة جدا عن معلوماتى بالنسبة للمسائل الفلسفية الحديثة تؤيد أنها أوسع وأعم مما لدى أى امرىء ممن قابلتهم ، واتضح لى أن مركز مراقبتنا الهارفاردى أكثر عالمية »(٢) •

---

(٢) To A.H.J., November 2 and November 20, 1882, to H.J.[2], November 22, 1882, L.W.J., I, 212-216-7. For Carl Stumpf cf. below, 193 ff.

وفى أكتوبر يمم چيمس شطر البندقية حيث قضى عدة أسابيع أحيت صراعاته القديمة من جديد : التناقض بين الاشتغال النظرى بالفن وبين مجرد التمتع به ، والتناوب المزاجى بين ازدراء ايطاليا وبين الاستكانة لفتنتها والاستسلام لسحرها وبهجتها . والرسالة التالية وصلت أباه قبيل وفاته بوقت قصير فى ١٨ ديسمبر (٣) .

البندقية ٢٣ اكتوبر سنة ١٨٨٢

« والدى العزيز العتيد :

ان منظر خط يدك القوى فى الرسالة التى حولها الى هارى منذ ثلاثة او اربعة ايام ــ حفزنى الى الكتابة اليك مباشرة ولكنى لم أستطع ذلك الا الآن ... لقد مكثت هنا فى البندقية زهاء ثلاثة وعشرين يوما وانى لأغادرها اليوم على مضض فى ماخرة تريستا فى منتصف الليل .. انى أكره أن أترك هذا السحر الايطالى الفتان لكى أعود ثانية الى الشمال الغليظ الفظ . ان سماحة كل شىء فى ايطاليا ــ ودع المقادير تجرى فى أعنتها ، ولا تبيتن الا خالى البال ــ التى تسود الحياة هنا ، هى أرحب الوسائل الممكنة ــ راحة وسلوى ــ التى يغرق المرء نفسه فيها ــ على نقيض انجلترا تماما . لقد بلغ الأهالى المساكين حدا من الدلة وتقبل السراء والضراء ، والتضرس بكل مناظر الحياة من أسفل سافلين الى أحسن تقويم ، لدرجة أن أى شىء لم يعد يثير دهشتهم أو استغرابهم أو يصدم شعورهم . لذلك يتركون كل انسان وشأنه ، ويتوقعون من كل انسان ان يلبس ويتحدث ويأكل ويشرب ويتصرف كما يحلو له ، على الرغم من أنهم لم يسبق لهم أن شاهدوا شخصا آخر يفعل ذلك الصنيع أمامهم .

انى أكره أن أهجر الصور واللوحات الفنية الرائعة النفيسة التى يتعين على المرء أن يراها بهذه الطريقة الجهنمية المزعجة . هذه اللوحات ينبغى أن تقام على نحو ما فى مكتبة متنقلة تلف الدنيا بأسرها ، بحيث يستطيع المرء أن يشترك فيها لقاء مبلغ يدفعه يتيح له الحصول على احدى روائعها لمدة شهر على مدار العام . اذا كان هناك أى شىء يجعل المرء قدريا فهو منظر الذبول والبلى والانحلال ــ الذى لا مناص منه ــ والذى يحيق بكل فن جميل بعد أن يبلغ أوج نضجه . ولقد فكرت فعلا فى أن أخط بضعة تعليقات عن هذا الموضوع وأبعث به لمجلة الأمة The Nation ، ولكنى عدلت عن هذا بعد ان فكرت مليا وبعد أن تسللت روح الشاب الايطالى القب البخس بالتدريج الى روحى ، والذى يرى أن الفلسفة الحقة على الاطلاق هى الفرشحة والفج بأوسع خطى فى ميدان سانت مارك ، ومشاهدة آيات البلى والذبول وهى تنخر فى الآثار الفنية بابتسامة راضية على الوجه وقبعة عالية مقرطفة مائلة على جانب الرأس تتسلل من تحتها خصلة من الشعر على الجبهة ، ومعطف جرابى ملقى على الكتفين ، وسيجار من فئة ستة سنتيمات

(٣) Cf. also above, 34.

بين الأسنان . هذه هى الفلسفة الحقة عنده فى أعلى منجزاتها . وأيا ما كان هـــذا الرجل ، فانه ليس رجل قواعد ومعادلات « ووصـــفات مرسومة » . ولقد ادركت فجأة منذ ليال أننى مطابق تماما لوضعه باستثناء خصلة الشـــعر ، وشعرت فى نفس الوقت الى اى حد يطيب مذاق ترك « القواعد والمعادلات والوصفات المرسومة » فى مرقدها نائمة بعض الوقت . بيد أن سـمات السفاهة والرذالة البادية على الناس فى ميدان سان مارك أمر فظيع بالمعنى الحرفى للكلمة عندما يفكر المرء فيما كان عليه هذا الميدان يوما ما . أوغاد من كل جنس ـ وبالنسبة للعين الخارجية لا يمكن أن يكونوا سوى أوغاد. اننى اتخيل أحد النبلاء القدامى وقد انسل من جدثه وعاد الى الحيـــاة الســاخطة الحانقة مرة ثانية ، لمجرد أن يصب علينا لعناته ويطردنا بعيدا ... وانا متأكد أننا سنفر جميعا من أمامه ونهرب بضمائر مثقلة بالاثم والعـــار لدن رؤيته ، لأن نشاط البندقية وطاقتها وقوتها ، مثلما اتضحت لى فى قراءاتى ، لابد أنهـــا كانت شـــيئا هائلا ضخما مدهشا ومتواصلا ... لقد شعرت كثيرا يا والدى العزيز طوال الأسابيع القليلة الماضـــية بمدى احساسك بالوحدة ، والى اى حد مريع يكون الفراق حين لا يتسنى للمرء أن تصـــله رســـائل . ولكنى آمل أن تكون جوزيت بهذه الرسالة خير تعويض . حبذا لو أرسلت لى تجارب طبع ما تكتب بمجرد أن تتسلمها . اننى افضل ان أقرأها قطعة فقطعة ... اننى دائما محبك

و . ج . »

ومن البندقية سافر چيمس مخترقا ألمانيا وبلجيكا الى باريس حيث كان فى مرجوه أن يقضى بضعة أسابيع ويرى رينوفيير فى أواخر الشتاء. بيد أن أنباء مرض والده حملته على الاسراع بالسفر الى لندن حيث لحق بأخيه هنرى واحتل مسكنه بعد أن سافر هنرى الى أمريكا . وهنالك استقر به المقام حتى شهر مارس . وعلى الرغم من مشغولية البال والجزع والقلق بخصوص الأسرة ، وعلى الرغم من علة الحنين والاشـــتياق الى الوطن ، وعجزه عن انجاز أى مقدار كبير من الكتابة ــ الا أن هذه الفترة كانت من أخصب الفترات وأثمرها فى تطوره الفلسفى . فلقد كان فى أثناء هذه الشهور بالذات وجد نفسه أقرب ما يكون تعاطفا فلسفيا ، وأوثق ما يكون مشاركة وجدانية فكرية مع رينوفيير وهودجسون وداعبه الأمل فى أنهما قد يجدان نفس الرباط الوثيق الذى يؤلف بين قلبيهما مثلما يؤلف بين قلبه وبين كل واحد منهما .

وعلى الرغم من الظروف التى حالت دون رؤية چيمس لرينوفيـــير بلحمه ودمه ــ كما كان فى مرجوه ــ الا أن جوارهما استحث تراسلهما ــ الذى ظل قائما بينهما بلا انقطاع منذ سنة ١٨٧٢ ، عندما بعث اليـــه چيمس من كامبردج يقول : « اليك يرجع الفضل فى أنه أصبح لدى لأول

مرة مفهوم واضح ومعقول للحرية • اننى أكاد أتقبل هذا المفهوم كليا • أما بالقياس الى النقاط الأخرى من فلسفتك فقد بدأت أشعر وأمارس ميلادا جديدا للحياة العقلية ، وأؤكد لك يا أستاذ أن ذلك ليس بالأمر الهين» (٤) .

وعندما كتب چيمس تلك الرسالة كان شابا لا يتجاوز الثلاثين من عمره فى مستهل حياته المهنية ، فى حين أن رينوفيير كان فى السابعة والخمسين من عمره ، وشخصية راسخة منذ أمد طويل ، وذائعة الصيت فى الحياة العقلية لفرنسا • وعلى الرغم من هذا الفرق فى العمر الزمنى الا أن الاثنين تبـــادلا نفس الاحترام والتبجيل . وبوصف رينوفيير محررا لمجلة النقد الفلسفى Critique Philosophique فقد نشر ترجمات لأبحاث چيمس من حين لآخر . أما كون رينوفيير كان أعظم تأثير مفرد على تطور تفكير چيمس ، فهذا أمر لا سبيل الى التشكك فيه . وفى كلمة الاهداء التى تتصدر كتابه : « بعض مشاكل الفلسفة » ، والتى طبعت بعد وفاة المؤلف فى سنة ١٩١١ ، ولكن چيمس كان قد أعدها قبل وفاته – نجدها تحتوى الحكم التالى الناظر الى الماضى :

« كان (شارلز رينوفيير) أحـد أعاظم الشخصيات الفلسفية ، ولولا التأثير الحاسم الذى خلفه فى نفسى فى السبعينيات ببراعة دفاعه عن المذهب التعددى بأسلوب الأستاذ القدير لظللت الى الأبد أسير الخرافة الوجدانية التى نشأت فى ظلها . وموجز القول ، فان هذا الكتاب – لولاه – لما ظهر الى حيز الوجود أبدا . ولهذا ، وبشعور من الاعتراف بالجميل والشكران بلا حد ، أهدى هذا الكتاب الى ذكرى رينوفيير العظيم » .

وفى حين أن مذهب رينوفيير فى الحـرية بتخليصـــه اياها من الوحدانيات السائدة المتسلطة ، هو الذى وجد فيه چيمس خلاصـــه الشخصى والخلقى ، الا أنه لم يكن أقل انجذابا وتلبية لنظرية رينوفيير فى المعرفة • وفى نفس الرسالة التى صدر بها كتابه « بعض مشاكل الفلسفة » والتى اقتبسنا منها الفقرة السابقة نجـد چيمس يقول « ان فلسفتك – من جانبهـــا الحاضر للمعرفة فى الظـواهر (par son côté phénoméniste) يبدو أنها تروق بكيفية خاصة للعقول المدربة المتمرنة فى المدرسة الانجليزية التجريبية » . وكان چيمس يشير هنـــا الى تدريبه

---

(٤) November 2, 1872.

ومرانه نفسه . ولكن بينا شعر أنه من أتباع لوك وبركلى وهيوم وميل فى تقبله لفلسفة أساسها الخبرة ، وبينا نجده قد غذى نفســـه من كتاباتهم ؛ الا أنه لم يستطع أن يروض نفسه على الوسائل الشريرة من الارتياب والمادية والحتمية التى ترددت فيها تلك المدرسة . كان يرغب ليس فقط فى الانضمام الى المدرسة ، ولكن تخليصها والأخذ بيدها من تلك الوهـــدة ، وقد التمس العون من رينوفيير — من رينوفيير ومن شادورث هودجسون .

وفى أثناء الشـــهور التى قضـــاها چيمس فى لنـــدن فى شـــتاء (١٨٨٢ — ١٨٨٣) كانت عنعنة المذهب التجريبى ذات ســطوة وسمو مقام .

وثمة رجلان سبق ان طورا المذهب فى اتجاه الطبيعية والوضـعية الذى لم يرض عنـه چيمس ، أحدهمـا و .ك. كليفورد الذى مات سنة ١٨٧٩ ، والآخر ت.س. هكســلى الذى كان فى عنفوان قوته . وهذان الرجلان كانا نموذجى چيمس المفضلين للولع اللاشعورى بالعلم الى درجة الوجد . وباسم العلم الذى أخلص له هذان الرجلان بكل عاطفة وانفعال ، حضا الناس على نبذ انفعالاتهم والاقلاع عن عواطفهم . ولكن چيمس تساءل قائلا «كيف يمكننى أن اقول أن معرفة الحقيقة معالسيدين هكسلى وكليفورد أجدى على عقلى من احساسى بالخير واللطف مع السيدين مودى وسانكى ؟ »(٥) .

ولقد عاش سبنسر حتى ١٩٠٢ وكان فى تلك السنوات المبكرة من العقد الثامن من القرن التاسع عشر يعمل بفدائية لاستكمال كتابه «الفلسفة المركبة » . ولكن كتبه العظيمة كانت قد ظهرت منذ زمن طويل ، وشيوع مصطلحاته كان قد تجاوز طور ذروته . وبالنسبة لچيمس حقق له غرضا

---

(٥) C.E.R., 66. For the most important reference to Huxley and to Clifford, the "delicious enfant terrible", cf. W.B., 8. Clifford's scientific creed is set forth in "The Ethics of Belief" in Lectures and Essays, 1879, II. James reviewed this work at length for the Nation in 1879 (cf.C.E.R.,137), and, while he concerded its brilliancy, complained of its thinness and inconclusiveness. Clifford was also to James a favorite example of the "mind-stuff theory", and both Clifford and Huxley of the "automaton" theory.

معينا فقد كان له بمثابة رتيمة تسنين – انصرمت مدتها – كطور مضى من أحداث طفولته الفلسفية – أعقبته أطوار أخرى عاشت بعد انقضائه ٠ وعلى أية حال فلم يبذل چيمس اية محاولة لرؤية سبنسر .

كان الكسندر بين – على الرغم من أنه عاش حتى سنة ١٩٠٣ – أقدم من چيمس بأسبقية اربعة وعشرين عاما . وكان مع هيوم وميل وتشونسى رايت ينتمى – فى نظر چيمس – الى مدرسة المتشككين والعدميين الذين رفضوا أن يعكر صفوهم تعسفية وتعددية الحقائق المجردة ٠ بيد أن چيمس فى نفس الوقت كان قد استقى منه بفزارة فى المدة من ١٨٧٦ – ١٨٧٩ فى تفكيره وكتابته عن حوافز التفلسف ، وفيما بعد فى دراسته الفاحصة لسيكولوجية التفكير ٠

وكانت جمعية البحوث النفسية قد أنشئت فى انجلترا فى شهر فبراير سنة ١٨٨٢ ، وفى أثناء زيارة چيمس لانجلترا كان رئيسها هنرى سد جويك . وكان ذلك بداية اهتمام چيمس بالموضوع وتعرفه على ذلك الرجل الشهير الجدير بالاعتبار ٠ بيد أن تباعدهما الفلسفى بمعزل احدهما عن الآخر كان بلا شك راجعا الى تقسيم مجال اهتمامهما . فلقد كان شغل سدجويك الشاغل – أساسا – هو الأخلاق ، فى حين أن اهتمام چيمس كان منصبا على علم النفس والميتافيزيقا ، وكان مرده أيضا الى اختلافهما العميق فى المزاج ، فلقد كان سدجويك حازما رزينا صارماً مدققا ونقادا بقدر ما كان چيمس متحمسا وحميا وتأمليا . ومن المحقق أن چيمس كان سيستطيب نكهة الشعور الذى حدا بليزلى ستيفن الى أن يقول – فى معرض وصف أحد اجتماعات الجمعية الميتافيزيقية : « لقد أبدى سدجويك تلك الصراحة المتفكرة والاخلاص المتأمل اللذين يصبحان فيه أحيانا مصدر ازعاج واثارة ٠ ان المرء لا حق له فى أن يكون منصفا لخصومه الى هذا الحد »(٦) . وكانت الجمعية الميتافيزيقية بلندن واحدة من عدد كبير من الهيئات التى وجدت فى انجلترا فى ذلك الوقت بقصد الجمع بين الزمالة الطبية والفلسفة ٠ وكانت الجمعية الأرسطوية قد أنشئت فى سنة ١٨٨٠ ، وكان مراد النادى الميتافيزيقى هو تهيئة جو أكثر تحررا من الرسميات والشكليات يتيح لأعضائه صلات ودية وثيقة فى الفة ودالة . وفى معرض الحديث فى هذا الصدد كتب چيمس الى صديقه توماس دافيدسون فى الثامن عشر من يناير سنة ١٨٨٣ يقول :

(٦) F.W. Maitland, Life and Letters of Leslie Stephen, 1906, 333-4.

« لقد انحشرت فى خضم المجتمع الفلسفى هنا » .

وفى الجمعية الارسطوية قابل صاحب المقام الرفيع رتشارد ب . هالدين الذى أصبح فيما بعد وزير مالية الدولة ووزير الحرب المشهور : « ذهبت الى الجمعية الأرسطوية مساء الأمس وقضيت وقتا مفيدا ... وكان هناك أحد ... تلاميذ كايرد ... يسمى هالدين ، ولو أنك سمعته لاعتقدت أنه بالمر العزيز هو الذى يتحدث ـ نفس التدفق الذى لا نظير له ولا شبيه ، ونفس الأسلوب السلس الذى لا تشوبه شائبة ، ونفس صفاء التفكير »(٧) . بيد أن محور « مجتمع چيمس الفلسفى » كان نادى « الخدش ٨ » الذى أصبح هو فيه العضو التاسع . ولقد وصف أول اجتماع حضره فى الفقرة التالية المقتبسة من رسالة بعث بها الى زوجته:

« بالأمس تناولت العشاء عند جورنى مع اعضاء « الخدش ٨ » المشار اليه فى الدعوة المرفقة مع هذه الرسالة . فأما جورنى نفسه صاحب كتاب القوة والصوت Power and Sound ، والذى انتهيت من قراءة نصفه فلا شك انه احد عقول الطراز الاول فى زماننا ، وهو رجل فى غاية الفخامة والروعة يشبه ادونيس* ، ست اقدام واربع بوصات فى الطول ، يزينه وجه فى غاية الجمال وصوت فى غاية العذوبة وسمت عام من الوجاهة ـ وهو من مفرق راسه الى اخمص قدمه النقيض التام للصورة الكلاسيكية عن الفيلسوف . اما السبعة الاعضاء الآخرون فهم روبرتسون وهودجسون وسلى وكارفيث ريد وفردريك بولوك وليزلى ستيفن وشخص باسم ميتلايد ـ باعتباره ـ على قدر ما أعلم ـ الشخص الوحيد المغمور . ولقد شعرت بألفة ودالة كأننى بين اهلى وعشيرتى ، ودعانى ستيفن وبولوك لحضور الاجتماع التالى ... الخ ... الخ ... ولقد برهنت المناقشة التى اخذ بزمامها سلى وهودجسون وروبرتسون بصفة أساسية ـ ان هناك منعذا كبيرا لدخول علم نفسى . وثمة قصة تعزى الى كارليل أنه قال وهو على فراش الموت بمناسبة رغبة الأسقف ستانلى فى تقديم بركات كنيسة ويستمنستر : « ذلك الخطاف للجثث ... لن ينال جثتى » . ولكن كيف السبيل الى رواية كل هذه الأشياء ـ وآذان أبى ـ التى تهيم شغفا بسماعها ـ ربما تكون غير قادرة على السماع . لقد جاء روبرتسون وذهب ، ولابد من أن اسرع الى بيت هودجسون لتناول العشاء ثم اذهب بعد ذلك الى الجمعية الأرسطوية » .

---

(٧) W.J. to A.H.J., Feb. 6, 1883. R.B. Haldane, like Robert Bridges and W.R. Sorley, was a member of "The Tramps", but not of the Scratch Eight. George Herbert Palmer was W.J.'s distinguished elder colleague.

* ادونيس (اسم عشيق أفروديت فى الأساطير اليونانية) .
(المترجم)

وفى الاجتماعات التى تلت ذلك لنادى « الخدش ٨ » عرض چيمس أفكاره – الأفكار الرئيسية لعلم نفسه الجديد ، وشعر بثقة متزايدة فى أفكاره وفى قدرته على جعلها فعالة مؤثرة فى السامعين – على السواء .

ومن بين أعضاء نادى « الخدش ٨ » كان جورج كروم روبرتسون أسبق من عقد معه صلة الصداقة وأوثق من ارتبط به برباط الود ، وروبرتسون هذا شغل منصب أستاذ الفلسفة العقلية والمنطق من سنة ١٨٦٧ فى كلية الجامعة بلندن وكان أول محرر لمجلة العقل Mind . وكان رجلا فى مثل عمر چيمس وعلى شاكلته . وفى الحقيقة كان واحدا من أولئك الرجال الذين من نصيبهم المحتوم أن يحتلوا فى قلوب أصدقائهم أعز وأحب مكان، بدلا من أن يتجسدوا فى تماثيل من صنع أيديهم . كان عالما لوذعيا كاملا ومعلما خلابا جذابا ولكن ضميره الحى وذمته المتيقظة وشهامته ومروءته ذاتها هى التى حالت بينه وبين أى انتاج علمى ضخم (٨) . كانت أبرز صفاته الجوهرية هى الزمالة والاشتراك فى عمل مع الغير . والى روبرتسون يعزو چيمس فضل مراجعة وطبع عدد كبير من مقالاته الفلسفية والسيكولوجية المبكرة فى سنة ١٨٧٩ ، عندما كانت درجة الأستاذية التى يطمح اليها على كف عفريت .

وماتت زوجة روبرتسون فى شهر مايو سنة ١٨٩٢ ولم يعش روبرتسون نفسه بعدها سوى أربعة شهور . وقبل موتها بعشرة أيام كان قد كتب الى چيمس أنه يائس من شفائها . ووصلت الرسالة الى چيمس فى أوروبا وكان جوابه عليها هو الآتى :

فريبورج ١٥ يونيه سنة ١٨٩٢

« صديقى العزيز القديم :

ان رسالتك التى تمزق نياط القلوب والمحررة بتاريخ ٢١ مايو لم تصلنى الا الآن فقط بعد أن حولت الى من كامبردج . ما أشد حزنى . ما أشد أسفى . وما أثقل العبء الذى اضطررتما لحمله – كلاكما – طوال هذه السنين ... ولكن يا صاحبى العزيز – فى كل الظلام « الدامس كالليل الخالد » الذى يزنرنا – لابد أن يكون ثمة مغزى وراءه فى حقيقة أن قلوب الناظرين تضطرم بالغيرة والحرارة عندما يرون أن كوارث مثل التى حاقت بكما – والتى تنوء بها العصبة أولو القوة – قد أمكنكما تحملها

(٨) His scattered writings, other than his volume on Hobbes, were published in 1894 under the title of Philosophical Remains.

يمثل هذه الروح الامينة المبينة الوفية غير شاكية ولا متذمرة . ان الخبرة التى تؤلف منها ذلك جزءا متكاملا لا يمكن أن تكون فى باطنها بمثل السوء الذى تبدو عليه فى ظاهرها . انك طبعا أدرى الناس بما يحتويك من عجز وضعف واخفاق وتقزز ، ولكنى أؤكد لك أن حياتك للآخرين ثابت مع أعمق الهام ، وليس عندى ما أقوله أكثر من ذلك . وداعا يا عزيزى القديم روبرتسون . لك أحر الأشواق والحب من صديقك .

و م . چيمس »

وبعد سنة ١٨٨٠ ولمدة الاثنى عشرة عاما الباقية من حياته ، أصيب روبرتسون بمرض مؤلم مميت ــ اعتبره ــ وفقا لتعاليم الرواقيين فرصته ليعيش بنبل . وعندما كتب چيمس عن موته وعن « العطر » الذى خلفته رجولتـــه ومروءته وشهـــامته وراءها عاد بذاكرتـــه الى تلك الفترة من ١٨٨٢ ــ ١٨٨٣ : «من ذا الذى لم يلق منه مساعدة اذا كان فى وسعه أن يمد اليه يد العون ــ حتى عندما كان هو فى أمس الحاجة الى المساعدة؟ أنا ــ على سبيل المثال ــ لا يمكننى أن أنسى أبدا ما أدين به لتشجيعـــه ومروءته وشهامته ولطفه التى لا تكل ولا تمل منذ سنوات عديدة ولولاه لقضيت فى لندن شتاء قاتما قاسيا »(٩) .

فلنعد الى نادى « الخدش ٨ » كمـــا عرف چيمس أعضـــاءه فى سنة ١٨٨٢ ــ سنة ١٨٨٣ . فأما بالنسبة لليزلى ستيفن الذى كان أسبق من چيمس بعشر سنوات . فقد شعر چيمس نحوه بالاعجاب والحب معا . ولكن ما كان من الممكن قيام نوع من المشاركة الوجـــدانية العميقة بين الرجلين . كان ستيفن يجنح الى الجناح التشاؤمى الجبرى أو بالأحرى اليسارى من التجريبية فى حين أن چيمس كان يجنح الى الجناح الأيمن . وأما چيمس سلى الذى قابله چيمس لأول مرة فى حفلة عشاء اقامها نادى « الخدش ٨ » فقد أصبح صديقا مدى الحياة ، وكانت أحكامه موضـــع احترامه فى مسائل علم النفس لا مسائل الفلسفة . وكتب چيمس فى هذا الصدد يقول « لقد ألف كل منا الآخر بطريقة هادئة وطيدة » . وفى سنة ١٩١٠ عندما مات چيمس وصفه سلى بأنه « أحد الدعامات القوية لحيـــاتى »(١٠) .

والفقرة التالية كتبها چيمس بعد مرجعه من رحـــلة الى أوروبا فى سنة ١٩٠٨ :

---

(٩) Philos. Rev., II, (1893), 255.

(١٠) James Sully, My Life and Friends, T.F. Unwin, Ltd., 1918, 221, 249.

« كانت الأيام العشرة الاخيرة التى قضيتها فى انجلترا مضطربة مهوشة وعجولة .. ويؤسفنى اننى لم ارك بعد ذلك كله .. والحقيقة هى أن واجباتى كرب أسرة تدخلت كثيرا فى ميولى ورغباتى التى كانت تعيدة وملازمة وألونة ولطيفة العشرة نحو أصدقائى القدامى .. لم ار صديقى العزيز القديم شادورث هودجسون ، الأمر الذى ندمت عليه جدا . ما أشد تغير الزمان . من بين كل أعضاء ذلك النادى الفلسفى العشائى الذى كان لك الفضل فى انضمامى اليه فى سنة ١٨٨٢ ، انت وهو وأنا فقط الذين ما زالوا على قيد الحياة اذا لم تخنى ذاكرتى . أما جورنى ، وروبرتسون ، وستيفن رميتلاند فقد حصدهم الموت »(١١) .

وأول من « حصدهم » الموت من هذه الزمرة (فى ١٨٨٨ وفى سن الواحد والأربعين) كان ادموند جورنى - الذى كان أحبهم الى قلب چيمس . وولاؤه لجورنى واعجابه وتقديره « لاخلاصه لهذا العمل غير المألوف » كانا أحد الحوافز القوية التى حملت چيمس على ملازمة سفينة البحوث النفسية (١٢) .

بيد أن ذلك الحافز لم يكن - بأية حال - الفضيلة الوحيدة أو الرئيسية التى جعلت چيمس يحمد جورنى ويقدره . لقد رأى فيه بشيرا « بمركب فكرى » يلزم أن يكون « أرسخ وأوطد من أى مركب فكرى لأى شخص آخر .. فيما عدا - ربما - رويس »(١٣) . فاذا اضيفت الى « قوة » جورنى « الميتافيزيقية النادرة » « أرق قلب بين جنبيه » فلا عجب أن فى موت جورنى « غلب ملاك الموت - حتى نفسه فى القسوة »(١٤) .

كتب چيمس الى روبرتسون رسالة فى الثانى والعشرين من أغسطس سنة ١٨٨٨ يقول فيها :

« جورنى المسكين . لشد ما سأفتقد وجود هذا الرجل فى الدنيا . أعتقد - من قبيل مقارنة الأشياء الحقيرة بالعظيمة ، أنه كان هناك نوع خارق للعادة من لحمة النسب بين عقلى وعقله . كانت مشكلاتنا واحدة - وحلولنا فى معظمها واحدة . لقد التهمت بكل شغف كل كلمة كتبها وكنت دائما على وعى خاد به كناقد وحكم . كان لديه الكم

---

(١١) November 9, 1908. James had evidently forgotten Frederick Pollock, who still survived.

(١٢) To Carl Stumpf, February 6, 1887 ; L.W.J., I, 267.

(١٣) W.J. to H.J. [2], July 11, 1888, L.W.J., I, 280. For Royce Cf. below, ch XVIII.

(١٤) Nation, XLVII (1888), 53.

والكيف سواء بسواء وكنت أؤمل عملا فلسفيا عظيما منه قبل أن يمضى . والآن ــ لقد أصبحت الدنيا أكثر خواء ! .

والعبارات الأخيرة من المقدمة التى كتبها صديقهما المشترك ف.و.هـ. مايرز بعد وفاة جورنى ــ كانت صدى لما يعتمل فى نفس چيمس ، وكان من الممكن أن يقولها بالحرف الواحد : « لم يذهب حزنـــه على بلايا البشر وهمومهم سدى . لقد أدمن الطرق على حواجز سجننا الأرضى الذى نعيش رهينى محبسه ــ وأفلح فى شق فتحة ضيقة نستطيع أن نستنشق منهـا نسيم الخلود »(١٥) .

وفى اليوم الثالث عشر من يناير سنة ١٨٨٨ كتب چيمس لزوجته :

« قضيت ليلة مؤنسة مساء الأمس فى نادى « الخدش ٨ » ، كلهم رفاق فى غاية الظرف . ان جورنى يبدو لى كرجل عظيم ضخم يملك قوة فياضة الى غير حد . ولكن هودجسون ليس سوى ملاك من لحم ودم ، انه أروع وانفس مخلوق بشرى رأيتـــه فى حياتى ، جنتلمان سميدع من فرع راسه الى أخمص قدمه وفيلسوف محترف فى آن . اننى أحب هذا المزيج النادر » .

وفى حين أن جورنى أصبح عند چيمس أحب وأعز الرفاق فى الزمرة الانجليزية ، الا أن شادورث هودجسون « المقدس » كان هو المصدر الذى استقى منه چيمس بغزارة معينه الفلسفى ــ هودجسون « أغنى منجم للفكر » قدر له « أن يلقاه فى حياته »(١٦) .

كان هودجسون عالما خاصا غير مقيد ــ وكان يكبر چيمس بعشر سنوات ، ولكن قدر له أن يعيش بعده ، وكان موضع احترام معاصريه الذين عرفوه وتحدث معهم ، ولكنه لقى اهمالا واغفالا من الخلف الذين لا يمكنهم التفاعل معه الا عن طريق كتبه . وكان ــ مثل چيمس ومن قبل چيمس ــ تجريبيا مقوما يهدف الى اعادة مقام التقليد البريطانى الى سابق هيبته ومكانته . واعتبره چيمس كحليف وظهير فى هذه القضيـــة . وعلى غـــرار چيمس ورينوفيير شهر حربا ضد كل جوهر وكل قوام ــ فوقى أو تحتى ــ دفاعا عن الظواهر ــ عن الأشياء كما تعطى الخبرة . وكان أمل چيمس الحمسى ــ والذى قدر له أن يخيب ــ هو أن يكون هذان الفيلسوفان العظيمان ــ عظيمين أحدهما حيال الآخر مثلما كانا عظيمين حياله . كان يمشى بينهما فرحا منبسط الأسارير متأبط ذراع هودجسون من جانب وذراع

(١٥) Proc. of Soc. for Psych. Research, V. (1885-9). For Myers cf. below, 204 ff

(١٦) W.J. to Josiah Royce, February 16, 1879 ; L.W.J., I, 203.

رينوفيير من الجانب الآخر متلفتا الى هذا مرة وذاك مرة اخرى . وقد برف وجهه بأشعة المودة والصداقة . بينا يستجيب له شريكاه ذات اليمين وذات الشمال بنفس المودة والصداقة ولكن بنصف احجام . ولكن كلا منهما كان يحيى الآخر بما لا يزيد عن ايماءة ودية على احسن الفروض . والذى حدث أن كلا من رينوفيير وهودجسون لم يخفقا فقط فى اكتشاف ان كلا منهما كان توأم الآخر وشقيق روحه ، وانما چيمس نفسه على الرغم من عرفانه بالجميل أبد الدهر . سرعان ما شعر أن احدا منهما لم يحقق المصير او النصيب الذى كان قد عينه لهما . فعلى الرغم من اقرارهما واعترافهما بالتجريبية ، الا أن كليهما . فى نظره — استسلما فى النهاية لجراثيم المذهب العقلى (المعتقد بكفاية العقل دون الوحى) ؛ بل لجراثيم الوحدانية — التى اصابتهما بعدواها فى نشأتهما المبكرة .

على ان تلك الشهور التى جلبت لچيمس كثيرا جدا من الانعاش الفكرى والشخصى لم تخل من منغصات . لقد زاد ثقل حنينه الطبيعى الى الوطن وطأة عليه من جراء الثكل . فلقد ماتت أمه فى يناير من السنة السابقة — وجاء دور أبيه فمات فى ١٨ ديسمبر قبل أن يتمكن هنرى من الوصول اليه قبل موته . ولقد انعكست هذه الحالة من الكآبة فى تعليقاته على كل ما يحيط به فى رسالة بعث بها الى أخيه فى بوسطن :

(لندن) ٩ يناير سنة ١٨٨٣ (١٧)

« عزيزى هارى :

ان الافتعار الكامل لاية دلالة اجمالية أو تعبير خارجى عن الذكاء الصافى المباشر هو الذى يسترعى نظرى هنا بشكل ضارب . فبعد باريس ، تبدو لندن كقرية من قرى القرون الوسطى ... بلا شىء سوى غطائها من القذارة المذهبة لكى تحل محل الاسلوب والجمال والبيان والادراك . ثمة أوقات يشعر فيها المرء بأن الأولى كانت بديلا مسكنيا ركيكا . ثم لا يلبث المرء فى أوقات أخرى — أن يضجر ويمل من ذلك الغباء الاجمالى الذى يعم كل شىء بأسره — غباء ثقيل كثيف يشوبه ضرب من التوطيد الذاتى الطوعى مما لم ار له مثيلا فى أى مكان آخر تحت الشمس . ان ألمانيا تعتبر جنة السماح والرشاقة فى أنقى مراتبهما ومثابة الاشراق والتألق اذا قورنت بهذه الحياة المرقلة بكل انواع ما لا لزوم له من فاقد الشعور .. متحركة عبر القرون تحت أقمطتها الغليظة — لا تعى بما فوقها من عبء واصر . انها تروقنى كصورة مادية ، لاشك أن لها مساسا بأحوال الظواهر الجوية التى أعيش فى ظلها هنا : هذه هى انجلترا تحت ضباب قذر

A Paragraph from this letter is cited above, 41. (١٧)

دنس ملطخ ملوث داخن قاتم ، عفية سعيدة شديدة البأس ، سليمة قوية يلفها الأثير المتسع بضوء الشمس من خارجها . وهى مع ذلك لا تحسب أو لا يهمها أن تحسب انها بنفخة واحدة من نفسها تستطيع أن تميط اللثام وتمزق الحجاب الى الفضاء المطلق .

ليتك ترى معرض دوريس – انه من عمل احدى الطالبات فى مدرسة داخلية ، لا لون ولا رسم ولا مهارة من أى نوع – لا شيء سوى الوهن المجسم ، وضرب من العرض المفضوح الحاضر الى أقصى درجة دون أية دون فنية خبيرة تعمل على بلوغه . ولكن يا لهول ما سمعت من عبارات الاعجاب من المشاهدين . ثم المسارح وما أدراك ما المسارح ! وأسوأ الاعجاب والسرور الى يصدر عن المتفرجين والتى تشبه ما يصدر عن (سيد قشطة) ! ان مسارحنا بكل ما فيها من عيوب ونقائص لم تبلغ هذا الحد الكثيف الميئوس منه . انها تجعل باريس تبدو كما لو كانت أثينا القديمة . ثم ذلك الاصرار من جانب كل الكتاب ... على أن يكتبوا كهواه . فلا يستعملون أبدا أساليب ولغة الكتاب المحترف ، وكل ما يعنى الواحد منهم هو أن يكون أولا من غير أرباب الفن أو المهنة . وقبل كل شيء جنتلمان سميدع ويدعى أن أفكاره تجيء اليه عفو الخاطر كيفما اتفق ، وأنها أمور لا تعنيه ولا ناقة له فيها ولا جمل . كما قلت لك من قبل ، ان المرء ينفد صبره أحيانا ويجد نفسه يتساءل فى حيرة عما اذا كان فى وسع بريطانيا أن تمضى الى الأبد فى هذا الشوط – فى الوقت الذى يعيش فيه منافسوها ومزاحموها على هدى ضوء العقل الصافى الى هذه الدرجة العظيمة ، وهى تتخبط خبط عشواء على مسار موصول من الخطأ بلا نظام ولا تدبر ، حاسبة أن الحظ البحت سيمد لها يده لكى يعينها على أن تجد الصالح والخير والنافع ... بالقطاعى . انه لغز محير ! أنها لم تفشل أبدا فى أن تجده – حتى الآن – وبنسبة أعلى من مزاحميها ، بطريقتها الفريدة فى الانسياق فى الخطأ حتى تصادف الصواب بالحظ . ولكن هل سيستمر ذلك الى الأبد ؟ وهل يمكنها أن تحارب دائما دون أن تجرد سلاحا أو تشفشف ضرعا ؟ أفلا يكرهها الوضوح العام والمضاء والحدة المصاحبة لعصر عقلى على أن تطوح ببعض سفسافها وهرائها أو تتخلف عن الركب ؟ أخوك المحب دائما

و . م . جيمس »

وبالنسبة لهنرى – الذى كانت وجهة نظره عن انجلترا جد مختلفة . فقد كان مما لا يمكن تصديقه أن يصر وليام على وجوب عودته عاجلا الى الوطن . وفى رسالة حررها فى ١١ يناير تقاطعت مع رسالة وليام فى الطريق – كتب يقول :

« انك تتحدث عن اصرارك على أن تبحر – « على أقصى تقدير فى التأخر على متن السيرفيا التى ستقلع يوم ١١ فبراير » وان الأسى ليحز فى نفسى لدرجة تكاد تبكينى ، وعندما أنظر الى المشهد القفر الذى ينتظرك هنا (ما خلا زوجتك وأطفالك) أشعر بأننى محق فى فعل أى شيء يستبقيك على الجانب الآخر ... انها فرصة ومصادفة ... قد لا يجود بها الدهر مرة ثانية لسنوات قد تطول وتطول . كل هذه الخواطر دهمتنى هذا

الصباح عندما ذهبت الى الفضـــاء القفر الذى تطـــالك به كمبردج ، وقلت لنفسى : أهذا وحياتك فيه هو ما تتعجل العودة اليه ؟ مهما طال بقاؤك فى انجلترا فانك ستستأنف حياتك هنا عاجلا أم آجلا ، فلم لا تنتهز الفرصة وتعترض سبيل عودتك أطول ما يمكن قبل حلول ذلك اليوم • خليق بك أن تستمر أطول وقت ممكن فى اوروبا مادامت الفرصة فى يدك فعلا ... لذلك دعنى اقول لك ، الزم أوروبا حتى الصيف على الرغم من كل شىء موطدا ثقتك بأنك تفيد من اقامتك هناك فائدة عظيمة وأن ذلك عمل مجد وقيم » .

وأجاب وليام على هذه الرسالة فى الثالث والعشرين من يناير بقوله :

« ان الفزع الذى يبدو انك تشعر به حيال كامبردج شىء لا اشاركك الرأى فيه ولم يجد له صدى فى نفسى ، علما بأننى أفضل كامبردج واوثرها على أى مكان آخر فى عالمنا المعروف . فؤادى يهوى الى كامبردج ، وشعورى بنعيمها المقيم لا يدانيه أى شـــعور آخر ، سواء أاكتب فى لندن أم فى أوروبا ، على الاطلاق .

الحقيقة هى ان كلا منا يتحدث من وجهة نظر عمله الخاص به ، ان المكان الذى يستطيع المرء فيه أن ينجز عمله على أحسن وجه يبدو وينبغى أن يبدو مكان الامكنة بالنسبة له . أشعر بحافز يغرينى على العودة الآن ـ لكى اثبت لك فقط كيف يكون المرء سعيدا فى الظروف التعيسة التى تفم خيالك الى هذا الحد » .

بيد أن چيمس لم يعد فورا الى الوطن كما دبر وقدر . لقد طرأ عليه شىء من التحسن فى صحته وفى مقدرته على العمل وأثمرت بعض صداقاته وأينعت ـ ثم استحثاثات أخيه هنرى ... كل ذلك افضى بچيمس الى اطالة مدة اقامته فى لندن ـ ولكن الى مارس فقط .

١٨

جوزياه رويس والمثالية

عندما استأنف چيمس القاء دروسه فى خريف سنة ١٨٨٣ كان قسم الفلسفة قد كبر بضم جوزياه رويس اليـــه ، الذى كان قـــد دعى من كاليفورنيا ليحل محل چيمس فى أثناء غيبته ، والذى استبقى الآن بصفة مستديمة وقدر له أن يصبح واحدا من أعظم علماء هارفارد شهرة وذيوع صيت ، وزميلا وثيق الصلة وجارا محبوبا — كريما لچيمس .

وقصة علاقات چيمس برويس تؤلف الخيـــط الرئيسى فى نســيج علاقاته « بالمثالية » — تلك الفلسفة التى انبثقت من كانت ، ثم تطورت وراجت فى ألمانيا على يد فيشته ، وهيجيل ، وشيلنج ، وشوبنهـاور . فلما نقلت بذورها وغرست فى انجلترا ، عبرت من هناك ثم الى الولايات المتحدة الأمريكية واحتلت مقاما عليا بسرعة . وكان زميل چيمس — جورج هربرت بالمر الذى كان اقـــدم من چيمس فى المهنة — احـــد انصارها المعتدلين . ولكن رويس هو الذى أصبح أقوى فرسان حلبتها وأصـــبح عند چيمس اروع أبطالها بلا منازع .

بيد أنه بالنسبة لچيمس فى سنة ١٨٨٣ لم تكن المثالية ولا رويس أمرا جديدا عليه ، فمنذ زمان طويل وهو يجمع الذخيرة استعدادا للحملة والجهاد . لقد كتب فى سنة ١٨٦٨ الى هولمز يقول « من الآن أرى سحابة كائنة من المثالية المطلقـــة تنتظرنى بعيدا على الأفق ، وليس بى هوى أو شهوة للعراك »(١) .

ولكن هذه الشهوة سرعان ما انبجست . ففى أول الأمر هاجم المثالية بالأسلحة الحقيقية التى كان يتقن استعمالها وتدبيرها . كان يشير الى جماعة المثاليين الامريكيين بعبارة « العصبة ذات الجناح الأبيض » الذين « تتعارض أهواؤهم الكهنوتية » تعارضا عجيبا مع « عقم » فكرتهم (٢) .

---

(١) May 15, 1868 ; cf. above, 96.

(٢) To Royce, February 3, 1880 ; L.W.J., I, 205.

كان يتحدث عن مقاومة غزوات هذه الفلسفة (« المتعفنة الى الباب والمعطوبة بالتدجيل والشعوذة – لدرجة لن تسمح لها بالبقاء طويلا ») كتسليته الرئيسية فى أثناء شتاء ١٨٧٩ – ١٨٨٠ (٣) .

وفى مقاله الشهير بعنوان « عن بعض الهيجيليات » الذى نشر فى سنة ١٨٨٢ فضح وهتك ، أصدقاءه المثاليين ، بمقارنة الهيجيلية الجدلية بتجربة التسمم بغاز أوكسيد النتروس المشبع بملح البارود . وكتب فى مقال آخر نشر فى سنة ١٨٨٤ ما يلى :

يقينا ، وفيما أعلم شخصيا ، ليس كل الهيجيليين خنازير ، ولكنى أشعر على نحو ما كما لو كان من المحتم على كل الخنازير ان ينتهوا .. الى أن يصبحوا هيجيليين.. ان فلسفة « على طول وعلى طول » كما هى قائمة فعلا .. يبدو أنها مزررة جدا وخانقة جدا بربطة رقبة بيضاء ، وحليقة جدا ناعمة الملمس لدرجة لا تمكنها من التحدث باسم النظام الكونى البطىء التنفس بمهاويه الرهيبة ونياراته المجهولة » (٤) .

بيد أنه بمضى الوقت بدأ يزداد احترامه لهذه الفلسفة حتى عد الهيجيليين فى ختام حياته فئة « من أعظم أنماط البصر الكونى »(٥) . وفى حين انه استمر يتمسك بأن « خط التقدم الفلسفى » لا يكمن « بوساطة كانت بقدر ما هو حوله » ، وأن « الحق يمكن بلوغه على نحو أفضل بمد خطى لوك وهيوم فحسب »(٦) . الا أنه ايقن ان المثالية لا يمكن ابعادها وصرفها بسهولة واستخفاف . لقد قضى أعواما فى الحصول على حق نبذها ، والفضل فى تقوية عضلاته الفلسفية راجع – الى حد كبير – الى علاقاته وصلاته بجوزياه رويس . فى سنة ١٨٨٨ فى ٢٦ يوليو كتب چيمس الى رينوفيير عن رويس : « اننى الى حد ما – راعيه – لأننى أنا الذى اكتشفته فى كاليفورنيا وأتيت به الى كلية هارفارد حيث أحدث كوكبه الدرى كسوفا لنجمى الفلسفى الخافت الضوء » .

ولد رويس الذى كان يصغر چيمس بثلاثة عشر عاما فى وادى المراعى

(٣) To Renouvier, December 27, 1880 ; L.W.J., I, 208.

(٤) "Absolutism and Empiricism", Mind, IX (1884), 285, reprinted in E.R.E., 276-8.

(٥) P.U., 108.

(٦) C.E.R., 436-7 ; Notes made in 1896-7 for an article on Kant which he never published.

على منحدرات جبال سيرا ، وتعلم في مدارس سان فرانسسكو العـامة وفي جامعة كاليفورنيا · ثم أكمل دراساته في جامعة جونز هوبكنز ، وقضى عاما في ألمانيا حيث تأثر تأثيرا عميقا بفلسفة وأدب الحركة الرومانتيكية· وإبان وجوده في شرق أمريكا زار چيمس · ولقد وصف هذا اللقاء الأول في حفلة عشاء أقيمت في بيت چيمس سنة ١٩١٠ :

« لقد بدأت معرفتي الحقيقية بمضيفنا أحد أيام صيف سنة ١٨٧٧ ، عندما زرته أولا في دارهم في شارع كوينسي ، وأتيحت لي الفرصة أن أفضي بدخيلة نفسي لانسان كان يبدو عليه أنه مؤمن حقا بأن من حق شاب في مقتبل العمر أن يكرس نفسه وحياته للفلسفة اذا اختار ذلك ··· لقـد اكتشفني چيمس فورا وتبين اهتماماتي الجوهرية في أول لقاء لنا ، وتقبلني بقبول حسن ، وبكل ما في من نقائص وشوائب على اعتبار أنني واحد من تلك الأرواح العديدة التي من حقها أن تتاح لها القدرة على اكتشاف ذواتها بطريقتها الخاصة . واستمع الى باذن صاغية واعية صبور وأنا أقص عليه ما في جعبتي من أشتات حيرتي الفلسفية ، ثم بذل نفوذه منذ ذلك الوقت فصاعدا لا ليكسبني كتابع ، ولكن ليهيىء لي فرصتي ··· فكيفما أكون فالفضل – في هذا المعنى – راجع اليه ..

وأحيانا عبر بعض الناقدين عن ذلك بالقول بأن چيمس كان دائما مغرما جـدا بالموجبين العلابين من الناس غير المأمونين ، وأن هذه الفئة من الناس قد بادلته حبا بحب . فليكن أنا واحد من مريدي چيمس من تلك الفئـة من الموجبين . كان طيبا معي وأنا أحبـه . ان نتيجـة صلاتي المبكرة بچيمس هي أنها جعلتني لسنوات حواريه وتلميذه ، وما زلت الى حد كبير تحت سحر رقيته . فاذا كنت أخاصمه وانازعه أحيانا فأعتقد أنه بروحه الحرة المسماحة هو الذي علمني هذه الحرية – الى حد كبير »(٧) ·

وعندما غادر چيمس الوطن الى الخارج سنة ١٨٨٢ – سنة ١٨٨٣ أوصى بأن يحل محله رويس طوال العـام الدراسي ، مؤملا ومتنبئا بأن رويس حين يوطد نفسه راسخا على أرض ثابتة ، سيظفر بمكان ثابت في القسم – كما حدث فعلا . وفي الفترة الأولى من تراسلهما وجد چيمس ورويس أنهما على وفاق في الرأي لمدة ما ، فكلاهما مهتم « بالحوافز التي تدفع الناس الى التفلسف »(٨) . وكان چيمس قد قاد زمام هذه المسألة بمقاله (الذي كتب في سنة ١٨٧٧ ونشر في سنة ١٨٧٩) عن « عاطفة التعقل » · ووجد الاثنان حوافزهما العميقة في الارادة بدلا من الفكر البحت · ونمة وشائج أخرى كانت تؤلف بين قلبيهما ، وشائج فلسفية

(٧) Harvard Graduates' Magazine, XVIII (1910), 631-2.

(٨) Mind (IV), 346, footnote.

ووسائج خلقيه وصله الجوار · ولكن بمضى الزمن أصبح من الجلى أكثر وأكثر أن الاتفاق بين سليلى المدرسين البريطانية والكانتية لا يمكن أن يكون أكثر من اتفاق موفوت وسطحى · كانت التجريبية والتعددية فى دم چيمس . وكانت العقلية والوحدانية فى دم رويس . وعندما ظهر كتاب رويس الأول « الناحية الدينية للفلسفة » فى سنة ١٨٨٥ ، زكاه چيمس لهودجسون ورينوفيير . لا بسبب ما يتفق معه فى آرائه التى عرضهـــا بقدر ما حواه من مجادلة مبتكرة لانبات « المطلق » — ذلك الكائن الروحى الشامل المحيط الذى وسع كل شيء واليه ترجع الأمور — والذى وجده خلفاء كانت (وعلى وجه الأخص الهيجيليون) موافقا ومجانسا وممكن الاثبات . ولم يقبل چيمس شيئا من ذلك ، واقتضى الأمر منه عددا من السنين لكى يجد الاجابات الوافية للرد على الحجج — وخصوصا حجـــة رويس — التى انبثقت من نفس نفط البدء التى انطلقت منها حجتـــه · فالأفكار الانسانية تشير الى أشياء أو موضوعات تقع وراءها وتتجاوزها، وهى اما صحيحة أو باطلة ، وصحتها أو بطلانها لابد اذن أن يكون رابضا فى نطاق وعى أعلى يتضمن الفكرة وموضوعها . ولم يقتنع چيمس الا بعد سنة ١٨٨٠ وما تلاها — بصفة نهائية — وبعد « جولة أخيرة مع نظرية رويس »(٩) بأن الفكرة وموضوعها ، واشارة الواحدة للأخرى ، ومرجع هذه لتلك ، يمكن أن يتم فى نطاق الخبرة الانسانية ، الأمر الذى يجعل ، من ثم ، المطلق لا لزوم له فكريا ، مثلما كان غير مقبول اخلاقيا .

وثمة لمحة عن شخصية رويس تزودنا بها فقرات من رسالة الى چيمس كتبها رويس عندما كان يقوم باحدى رحلاته البحرية حيث اعتاد أن يلتمس فيها الترويح والاستجمام من عناء العمل الأكاديمى :

« المحيط الجنوبى :

المدار : على بعد ٦٠٠ ميل من ملبورن

خط العرض ٤٠° جنوبا

خط الطول ١٣٥° شرقا

٢١ مايو سنة ١٨٨٨

عزيزى چيمس :

كان من المحتم ان تكون هذه الرسالة طويلة لو أننى تعهدت بان اخبرك بكل ما جرى لى منذ وقعت عينى لآخر مرة على منار ميناء بوسطون ، ولكنى مضطر للايجاز اذ لدى

(٩) W.J. to Dickinsons. Miller, November 19, 1893, L.W.J., II, 18.

رسائل أخرى شعره لابد أن أكتبها ... مع رياح وطيور البحر الجنوبى أقبلت حيـــاة جديدة . لقد نشط عقلى طوال الوقت ولم يكف عن التفكير . وفى أعماق خواطرى أقرأ علم الميكانيكا والرياضيات ومارتينو وحتى كازانوفا بصيرة نزيهة تحاول النفاذ الى جوهر دون التعاملات الثانية ، والعذارى اللاتى يسهل غزو قلوبهن ، والقوانين المقدسة ـ جميعه . ولكن فى حين استغرقت فى التأمل فى عالم الشهوة فان عقلى كان بريئا طاهر الذيل الى المدى الذى تذهب اليه ممكناتكا التفكير المجرد . والآن أقبل الهوى مرة أخرى وبدو ان العناية الالهية تغمس بدنا فى ملكوتها الأرضى من الشمس والمجرات ، الأمر الذى أيقظ ذكائى وزاده ايجابية ، ومن ثم أصبحت أنظر أكثر وأكثر الى الرحلة كخبرة تربية من أعلى طراز . وصفوة القول فقد حللت بعد لأى ـ العقدة الميتافيزيقية الكبرى عن الخلود والحرية ومعادلة الكون ـ التى ـ كما تذكر كانت تخبلنى عندما بدأت ...

ولقد ونفت الى صحبة طيبة على ظهر السفينة . قبطان السفينة رجل يانكى من أهالى كيب كود ـ جدير بموطنه ونسبه ـ قرأ كثيرا فى ساعات أسفاره الطويلة فى البحر ، ومن ثم فهو من الطراز التأملى المفكر . ومن حين لآخـــر يضطرنى الى أن افسر له الميتافيزيقيا على النحو التالى : نحن نجلس على ظهر السفينة فى المنطقة الاستوائية نرنو الى السماء ونتحدث عن كتاب نيوكوم فى علم الفلك الذى يقرؤه القبطان . وهو الآن يزداد تأملا وتفكرا فى ملكوت السماوات ، وفى الأبعاد الهائلة بين النجوم والكواكب السيارة وبقية الأجرام السماوية ثم يبدى الملاحظة التاليه : « حسنا ـ انها تبدو لى وكأنها لا تشىء أى شىء سوى حلم . أفلم يخطر ببالك أبدا أن الأمر كله فى الملا الأعلى . وفى الحياة أيضا ، قد يكون حلما من نسج وعمنا ، وأنه ربما ـ لا يوجد شىء ـ أى شىء ـ حقيقى ؟ » وأقر له أن مثل تلك الأفـــكار طافت بخـاطرى . فيقول لى : « ادن ـ ماذا تعلم فصولك فى هارفارد عن كل ذلك ؟ » ومن ثم ، وقد طلب منى أن أشرح ـ وسط هبوب الرياح التجارية وتحت خفقات الأشرعة ـ ألغاز المثالية المطلقة ، فاننى أطرح المسأله على النحو التالى : « كان يا ما كان ، فى سالف الزمان ، رجل من أهالى كيب كود ذهب الى بوسطن لكى يستمع الى محاضرة لمارك توين ، وليمتع روحه ويطربها، بأعظم مازح تربع على عرش الفكاهه عندنا ـ ولكنه ـ عندما وصل الى بوسطن ـ كمـــا علمت ـ ضل طريقه وأخطأ قصـــده ، وبدلا من أن يستمع الى مارك توين استمع الى احدى محاضرات جوزيف كوك التى يلقيهـــا يوم الاثنين من كل أسبوع ، فلما عاد الى أهله وعشيرته فى كيب كود سألوه عما وعاه من محاضرة مارك توين وقالوا : « هل كانت فكاهية جدا ؟ » .

فأجاب الرجل بحذر(*) : « أوه ... لقد كانت فكاهية ـ نعم ـ كانت فكاهية ... ولكن ... يا اخوانى ... لم تكن فكاهية الى درجة تستحق اللعنة ... الى هذا الحد ».

(*) ربما يكون أكثر عونا للقارىء على فهم مضمون هذه القصة أن أنقل له النص الانجليزى بحذافيره لاحتوائه تعبيرا ـ مهما برع المترجم فى ترجمته فلن يضاهى الأصل على نحو يرضى ضمير المترجم : المترجم

"Oh, it was funny, Yes, - it was runny, but then, you see, it wasn't so damned funny".

ثم امضي قائلا للقبطان ، وبالمثل يا سيدي القبطان — أنا أعلم في هارفارد أن السماوات والكواكب والملأ الأعلى كلها حقيقية — ولكنها ليست حقيقية الى هذا الحد ... الى درجة تستحق المنعة » . ومنذ ذلك الوقت والقبطان من أشد المتحمسين لقراءة كتاب « الناحية الدينية للفلسفة » يقبل على قراءته ودراسته باخلاص من حين لآخر وان كان في الفترات التي يعلو فيها حماسه ويصفو ذهنه يؤكد أن الحصيلة برمتها هراء هذري ... وبقية ألوان الحياة في السفينة — سارة تارة — على الاجمال . ولقد نجوت تماما من دوار البحر في مستهل الرحلة ، ربما بسبب أعصابي المضطربة غير الطبيعية .

فلتحل بركة الله على بيتكم . المخلص جدا

جوزياه رويس »

ويمضي الوقت — انتقل چيمس من الدفاع الى الهجوم ، ثم من الهجوم الى التسامح . ومن ثم كتب في سنة ١٨٩٩ :

« منذ ان بدأت تعليم « مفاهيم الله » The Conceptions of God وقد بدأت أدرك ما لم يكن في وسعي أن أومن به من قبل — أن انحلال الفكرة هو عنصر «ر» الجوهري . انه يريدها ليس ثمة مفصل لاحم في نسق فكرته ... ولا مفصل واحد على سبيل الحصر . ولقد حسبت أن عقلا كعقله قادر على أن يعودني في متاهات الرياضيات والمنطق بالغازها ومعمياتها واحجيتها — عقلا تسليته المفضلة هي التأليف والشغل في هذه الموضوعات — لابد بالضرورة أن يخفى « كتمة » وضوابط محكمة من القياس المنطقي والاستدلال والاستخراج التي لا يتيح لي ذكائي أن اكتشفها ، ولكنك لن تجد عنده مثقال ذرة من الاستدارة القاطعة أبدا ، ولا مثقال ذرة من التمام أو الكمال أبدا . ولكن أليست الخصوبة أحسن من الكمال ؟ » (١٠)

وفي سنة ١٨٩٩ ألقى رويس مقرره المعروف بمحاضرات جيفورد .

وفي سنة ١٩٠٠ رحل چيمس الى الخارج لنفس السبب . وثمة من الرسائل المتبادلة بينهما تكشف عن أن الصداقة القائمة بين الاثنين لم يصبها وهن أو فتور بسبب اختلافهما الفلسفي العميق . كتب رويس من كامبردج في ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠ :

« ان العام الآتي سيكون عاما موحشا جدا بدونك . ثم ان شغفي بهارفارد مرتبط ارتباطا وثيقا بعلاقاتي وصلاتي بك اكثر من أي شيء آخر . فالفلسفة أنا أحبها لذاتها ، والحياة أحبها لمغزاها العام . أما هارفارد فهي عنت لي أصلا — أنت ورباطنا القديم الوثيق لا يزال على أعمق ما كانه . سأستمر وأمضي في محاضراتي ، ولكن القسم لا يمكن أن يكون له معناه الحقيقي بالنسبة لي شخصيا الا وانت هنا . ويجب على أن افصح

(١٠) To Dickinson S. Miller, January 31, 1899; L.W.J., II,86.

عن ذلك بوضوح بلساني . لأنى لا أحسن كتابة الرسائل والتعبير فيها عن كل ما يعتمل في دخيلة نفسى ثم انني رجل صامت كتوم واخشى ان تظن فى أن رباطى الوثيق بك أوهى مما هو دائما . ان عيبى ككاتب رسائل هو نتيجة لكثرة ما أكتب في غير الرسائل . أن مراكز الكتابة لا تدور ولا تثور الا حول المحاضرات والكتب . ولكن للفؤاد حياته أيضا . لشد ما افتقدك من صميم صميمى » .

واجاب جيمس عن تلك الرسالة بالآتى :

ناوهايم ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٠٠(١١)

« الحبيب رويس :

كم كان سرورى لتسلم رسالتك الطويلة المبهجة مساء الامس ... لا حاجة الى أن اقول يا فتاى العجوز العزيز ــ كم تأثر فؤادى بما افصحت عنه من مكنون حبك وودك ، وكم أنعمت على من سرور اذ تقول لى أنك افتقدتنى . انى أيضا أفتقدك جسدا وأحن اليك من صميم فؤادى . انني لا أجد فى نادلى الفندق ولا خادماته ولا مفسليه الذين لا أكاد أحظى بصحبة أحد غيرهم ــ ذلك المزيج الفريد الفذ من سعة الاطلاع واللوذعية والابتداع والعمق والشمول والاحاطة والذكاء والفطنة والسماحة والهوينساء التى بتعويدك لى عليها طوال كل تلك السنوات أفسدت على رضائى بالذى هو ادنى منها من انواع الحديث والمعاشرة . انك لا تزال بؤرة انتباهى ومركز بصرى وقبلة فؤادى والقطب الذى يجذب مغناطيس عقلى . وعندما أكتب ، فانني أكتب باحدى عينى مثبتة على الصفحة والأخرى ترنو اليك . وعندما أؤلف محاضرات جيفورد ــ فى عقلى ــ فانني أضع نصب عينى قصدا واحدا لا أبتغى سواه وهو أن احب فكرتك ووجهة نظرك وأمحق سكينتك وأقوض دعائم سلامك . انني أعيش حياة طفيلية عليك لأن أقصى ما ينشده مثلى الأعلى فى طموحه هو أن أصبح قاهرك وغالبك ويقول عنى التاريخ انني قاهر رويس ، وقد اعتنق كل منا صاحبه فى صمت (أو من الأفضل أن نكون لا نزال نرغى ونشقشق ونلهضم) على أثر آخر جولة فى الحلبة نموت بعدها وقد تشبث كل منا بحضن الآخر . آه يا عزيزى رويس هل يتسنى لى أن أنساك أو أشعر بالرضا بعيدا عن جوارك الوثيق ؟ وبقدر ما بين عقلينا من اختلاف فان عقلك غذى عقلى ورواه ــ كما لم يغذه أو يروه أى تأثير اجتماعى آخر ، وكلما تحدثت معك ــ أشعر دائما أن حياتى لها طعم ومعنى وأننى لا أعيش عبثا وانما أعيش حياة لها أهميتها وخطرها . ثم ان عقلينا ليسا مختلفين فى الموضوع الذى يتصورانه ويواجهانه . انه السمك المادى ــ الخلقى ــ الروحى برمته الذى يسلخ منه معظم الناس شظية قشرية هزيلة ، هو الذى يحتويه كلانا بعينه ويحيط به بنظرته . كلانا « ينشده بصفة عامة » فى حين أن معظم الناس لا يفعلون . أعتقد أننا لن نفترق فى المقام الىالأبد ــ على الرغم من أن معادلة كل منا فى الحياة لن تلتقيا فى مسكن واحد .

حبى لكم جميعا

« و . ج . »

---

(١١) L.W.J., II, 135-8.

ومن المستحيل ان نفهم علاقات چيمس بالحركة الكانتية المثاليــة لزمانه ، ما لم ندخل فى اعتبارنا وحسابنا المكانة العجيبة النى كانت تتمتع بها تلك الحركة · كانت تدعى لنفسها نوعا من حق الخلافــة الرسولية بعد ليبنتز تختص بحوارييه خلفا عن سلف · على ونيرة الفلاسفة الكبار الدين انبجسوا من أفلاطون · ولقد لقيت هـذه الدعوى اعترافا وافرا على نطاق واسع جدا ، بحيث ان فلاسفة المــدارس الأخرى فى العقدين أو الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر وخصوصا فى انجلترا وفرنسا شعروا بأنهم فى موقف دفاع · وهذه الحالة العقلية تفسر ليس فقط كمية الوقت الذى انفقه چيمس فى التخلص من نيرها ، ولكنها تفسر أيضا العنف الذى انتهجه فى هذا الصدد · فقبيل ختام حياته حلت محل انفعالات وعواطف الاحترام والاحتقار نغمة استواء ولهجة أكثر انصافا · فلمــا انفثأت وانفش ورمهـــا ، وافتضحت مزاعمهـــا المتعجرفـة ، ونزعت الثقة من ادعاءاتها المتكبرة ، أخذت المثالية المطلقة مكانهـــا بين العروض الرئيسية الكبرى التى يجب على الفيلسوف أن يختار من بينها ويتخذ سبيله فى الفلسفة ·

ولقد كان فى أثناء نفس تلك الفترة التكوينية من الثمانينيات المبكرة عندما بدأ چيمس يعقد صلحا مع المثالية ، أن عقد چيمس أواصر الصلة الوثيقة مع توماس دافيدسون وجورج هـ· هوويسون · وكان من مرجوه أن يفطمهما من نزعتهما المثالية السابقة باللجوء الى فرديتهما الذاتية ، حيث أنهما مثل چيمس كانا يجحدان المطلق الواحدى ، ولكن على الرغم من كل جهوده التى بذلها بسخاء فقد رفضا تقبل تلك التجريبية المخلصة من صميم الفؤاد التى كان چيمس يؤمن بأنها الطريق الوحيد المفضى للتعددية . كان چيمس صاحب موهبة عظيمة فى فن المقال التذكارى . وكان ذلك احدى طرائقه فى احلال القلم محل فرشاة الرسم التى كان قد تركها منذ سنين عديدة · ولعل أجمل وأرق هذه المقالات التذكارية ـ المقال الذى أهداه للرجل الأسكتلندى الذى اقتلع من جذوره ــ توماس دافيدسون الذى أسماه « الفارس الجوال فى تطوحات الحياة الفكرية »· وكان رجلا فى مثل سنه ، رفيقا بشوشا ، صاحب مزيج عزيز من السجايا، موطأ الأكناف رفيع القدر . ويتحدث چيمس عن « جبهته العريضــة . وصدره الواسع ، وعينيه الزرقاوين البراقتين ، وطلاقته فى الحـــديث والضحك » التى « تنم عن حيوية فوق العادة » · كان رجلا طيب الصحبة

فى النزهة فى ذلك الخلاء المترامى الأطراف فى ربوع آديرنوداك ـ الذى كان كلاهما يحبه حبا جما ٠ وكان رقيقا بقدر ما كان سريع الغضب ، وحساسا سريع التأثر بقدر ما كان عفيا قويا ، دكتاتوريا عدوانيا ، ولكنه رقيق الحاشية ، ورحيما الى أقصى درجة ـ وفى جملته كان رجلا « ذا أبعاد جسيمة مجسمة »(١٢) .

وعلى الرغم من أن دافيدسون كان لا يشغل مركزا أكاديميا ، وكان يزدرى الحذلقة الأكاديمية ، التفيهق ، الا أنه كان رجلا واسع الاطلاع غزير العلم ، قوى العارضة ، له ولع شديد بالمسائل الفكرية ، ارتبط بالتقليد الأوروبى لا البريطانى فى الفلســـــفة ، يبجل كانت ويزدرى سبنسر وميل ٠ وكان قد جاء الى بوسطون فى سنة ١٨٧٥ ، ولم يمض وقت طويل بعد وصوله حتى عقد أواصر صلاته بمصير چيمس ، بأن قدمه لآليس جيبنز التى اصبحت فيما بعد حرم وليام چيمس ٠

وفى سانت لويس حيث كان دافيدسون يعلم اليونانى فى المدرسة الثانوية ، أسهم فيما سمى بحركة سانت لويس ٠ وهذه الظاهرة الثقافية الجديرة بالذكر كانت نتيجة علاقة ـ تمت فى تلك المدينة ـ بين رجلين فذين هما هنرى ٠ س ٠ بروكماير ، ووليام ٠ ت ٠ هاريس ٠ وكان الاول مزيجا معجزا من العالم المصلح والجندى والفنان والمغامر والسياسى . وكان قد هاجر من ألمانيا سنة ١٨٤٤ ، واستقر به المقام فى ســــانت لويس ، واقتحم ميدان الحياة السياسية فى أثناء الحرب الاهليــه ، ثم أصبح أخيرا وكيلا للحاكم ثم قائما بأعمال حاكم الولاية (١٨٧٥ ـ ١٨٧٧). وفى غضون ذلك كان ينشر دعوة هيجل ٠ أما وليام هاريس (الذى أصبح فيما بعد الأمين العام للتربية للولايات المتحدة الأمريكية) فقد جاء الى سانت لويس سنة ١٨٥٧ كمعلم فى المدارس العامة ٠ ولم يلبث أن التقى ببروكماير ووضع نفسه تحت اشرافه وتعليمه ٠ وفى سنة ١٨٦٦ نظم الاثنان الجمعية المسماة باسم « جمعية سانت لويس الفلســفية » التى أصبح توماس دافيدسون وجورج . هـ . هوويسون عضوين فيها . وبعد ذلك يمم الجميع ـ هاريس ودافيدسون وهوويسون ـ شطر بوسطون ، ومن ثم نقلوا بذور الهيجيلية من الغرب الى الشرق ٠

وفى محاجات چيمس الفلسفية مع دافيدسون فى السنوات الأولى

---

(١٢) M.S., 76-7.

من الثمانينيات وجد چيمس نفسه ، وهو الفيلسوف التجريبي ، في موقف الدفاع عن الله ، ضد دافيدسون ، وهو المعتقد بكفاية العقل دون الوحي . كان چيمس في ذلك الوقت حامي حمى(١٣) فكرة اله دنيوى عالمي متناه تستطيع الارادة الخلقيه للانسان أن تعتمد على تأييده وقوته في كفاحها ضد الشر . في حين أن دافيدسون كان ينبذ هذه الفكرة على الاطلاق ، ولكنه في نفس الوقت عظم الانسان لدرجة التأليه ، وتصور العالم على أنه طائفة اجتماعية من « الأرواح » خالدة في الطبيعة وموحدة بروح من التناغم والحب . وفي هذا الصدد كتب دافيدسون الى چيمس في الرابع عشر من ديسمبر سنة ١٨٨١ :

« بالنسبة لاله حقيقى ، فذلك ما نجهله على الاطلاق ، وانما نحن نسلم فقط بنوع من التحيز المزمن المدمن ، ونكرر شعارا رائجا على غرار كلمة السر عندما نقول اننا نعلم . وعلاوة على ذلك فانني أجد أن الحياة قصدية ، وان الكون زاخر وأكثر من زاخر ، بالهدف الذى يستدعى أحسن جهودى ، ويضرم أعمق ما فى من حماسة وشغف دون عون من ذلك المعبود الذى تخر له الحياة . سعادة وغبطة وبركة لى وللآخرين . لى ــ على يد الغير ــ وللغير على يدى ــ هذا أكثر مما فى وسع أية جنة من جنات اله قادر على كل أمر ــ أن تمنحه . انني خالد ــ دون بداية أو نهاية ــ وهذه الحقيقة واضحة لى اليوم وضوح حقيقة وجودى فى هذه اللحظة الراهنة . وأنا متوكل فى بلوغ أعلى مراتب سعادتى وغبطتى وبركتى على قبول ورضا وعون كل « أنا » أخرى فى أية مرحلة من مراحل تطورى ونموى ، سواء أكانت ملغاة بالتبادل كمادة ، أم فطرة بالطاقة البحت ــ كأرواح متآلفة متجاوبة . وفى معنى معين فان الفلاسفة الوضعيين على صواب. فالانسانية هى الله ، والانسانية وحدها ــ بقدر ما نعلم وهذا هو كل ما نعلم ــ هى « القوامة بالقسط » ــ على الأقل ــ بوعى هادف . ولكن الكون كله متحرك تلقاء البركة والغبطة ــ على العميانى فى معظمه ــ وبتبصر وهدى فى الأخيار والأبرار . الله هو الحب فى أدق معنى للكلمة على سبيل الحصر . والشر هو نتيجة العماية والضيق ــ مجرد نشوز ــ مجرد خليط زائف . فاذا ما نسخنا الله ونقلنا مسئولية صلاح الكون وتدبير شؤونه ووضعناها على عاتقنا ــ حيث ينبغى لها أن تكون ــ فعندئذ سنبدأ فى الشعور بواجبات الوعى والسعى حيال الكون . ولن نبلغ ذلك حتى نتخلص من تلك » .

وأجاب چيمس فى الثامن من يناير سنة ١٨٨٢ بالرسالة التالية :

« انها لمسألة عجيبة ــ مسألة الله هذه . فى وسعى أن أعطف تماما على أكثر كارهيه سعارا وأشدهم هياجا ضد فكرة الله عندما افكر فيما حدث من استخدامه فى التاريخ

---

(١٣) In his essay "Reflex Action and Theism", afterwards incorporated into his "The will to Believe and other Essays," 1897.

والفلسفة كنقطة بداية أو فرض منطقي يتخذ أساسا للاستنتاج والاستدلال والقياس . ولكن فكرة الله ـ كممثل أعلى ينشد ويناهز ، فانني أجد نفسي أقل وأقل استغناء عنها . ليس ثمة داع لأن يكون الله « وحدة ذاتية للكون » شاملة محيطة بكل شيء . وكل ما أعنيه هو انه لابد أن تكون هنالك وحدة ذاتية للكون على نحو ما ذات مقاصد ومآرب مطابقة لمآربي ومقاصدي بمقدار متعادل ، وهي في نفس الوقت تبلغ حدا من الشمول والاحاطة يجعلها ـ من بين كل القوى الأخرى المحتمل وجودها ـ أقواها . وعندما أقول : « الله موجود » ، فكل ما يتضمنه قولي هو أن غاياتي وأهدافي موضع رعاية وعناية من قبل عقل يبلغ حدا من القوة والمشيئة ـ بحيث ـ يدبر الكون ويتحكم في تيساره ـ على الاجمال ... والصعوبات الوحيدة للاعتقاد بوجود الله ، هي الصعوبات الأخلاقية والخساسات والسفاسف ، والتي في رأيي ـ صدرت دائما عن العقيدة التعسفية الاعتباطية بأن الله حقيقة منزهة عن كل شيء ـ مطلقة ـ حائلة لكل ما عداها ـ بمجرد أن تتصور أن الممكن قيام تعددية أصلية منشأية ـ الله عنصر واحد فيها ـ ولا يوجد فيها مركب ذاتي واحد ، وسرعان ما تتوقف التقوى عن أن تصبح لا تليق بالرجولة والشهادة ، و « العقيدة » الدينية مناقضة للصواب العقلي ...

ماذا في جعبتي من أخبار أحيطك بها علما ؟ لاشيء في الكلية حيث ما زال كل شيء كعهدك به يمضي في نسقه الرتيب . لقد أسس هاري « نادي هيجيل » الذي يجتمع اعضاؤه مرة واحدة كل أسبوع في يوم السبت ، حيث يفسر المجلد الثالث من كتاب المنطق على اسماع عشرة منا : بالمر ، كابوت ، هول ، افريت ، امري(١٤) ، وبقية الآخرين . ولقد كسبني الى صفه ببراءته ونزعته الرسولية ، ولكن كلمة واحدة مما قال لم تقع من نفسي موقع السحر » .

وفي أثناء أسابيعه الحزينة من تباريح الحنين الى الوطن ومن التردد الحيرة والتقلب ابان وجوده في لندن سنة ١٨٨٣ ، تاقت نفس جيمس بقوة الى اللحاق بدافيدسون في ايطاليا ، وكان دافيدسون هو الشخص الذي ظفر بأكبر نصيب من رسائله بعد عودته . وكان قد وعده بأن يدبر له ـ اذا أمكن ـ وظيفة تعليمية في أمريكا ، وفي شهر ديسمبر أشار على مدير الجامعة اليوت بوجوب تعيين دافيدسون في هارفارد . ولكن محاولته باءت بالفشل كما كان يتوقع فعلا . ولقد أفضى جيمس لدافيدسون بما خامر نفسه من هواجس وريب حيال هذا الأمر مقرونة بالنصح الودي :

---

(١٤) J.E. Cabot, Emerson's biorgapher; for G. Stanley Hall cf. below ,182 ff.; C.C. Everett, Dean of the Harvard faculty of Theology, S.H. Emery, Jr., was director of the Concord School of Philosophy.

كامبردج ٢٠ ديسمبر (١٨٢٣)

« عزيزى توماسينو :

هذه عجالة ــ اكتبها بسرعة لكى اقول لك هذا : مات سوفوكليس(١٥) منذ ثلاثة أيام، وفى اليوم التالى لموته ذهبت الى المدير وقلت له انه اذا كان ذلك الحادث قد أحدث فراغا لابد من ملئه فحبذا لو نظر فى أمرك من جديد ــ معززا قولى بأن « الفلسفة القديمة » شىء يطيب لك أن تتولاه بحس الرغبة والشهية والقدرة التى أنت مستعد لان تتولى بها أى شأن آخر . ويبدو أن كلامى كان له وقع فى نفسه ... ولكنى لا أستطيع أن أخفى عنك ــ أيها الهوام الخالد العتيد ــ حقيقة أن المدير والمجلس سوف يسمعون كثيرا من الاستنكارات وهز الرؤوس بخصوص الاطمئنان اليك شخصيا وخلقا . ستهطل عليك اتهامات تصف ذنوبك وآثامك من بين ما تصف ــ بالطيش والنزق والغلو والافتقار الى الكياسة ، وحب العراك والخصام ، والاستبداد بالرأى والغرور والانفعال الجامح بصفة عامة ، مما يجعلهم يتشككون ــ مهما كانت كفايتك العقلية والعلمية ، فيما اذا كنت جديرا حقا بالانضمام والانتماء الى أسرة سعيدة مثل هيئة تدريس الكليه . ولقد سمعت مثل هذه الاتهامات من قبل كلما ذكرت اسمك ، ويبدو أنها جميعا تلخص فى هذا : وهو أنه سواء أكنت مصيبا أم مخطئا فى أية حالة معينة بالذات ، فانك فى الواقع من الأمر قد نجحت فى فرش طريقك بالأعداء ، الأمر الذى يعتبر طبعا حجة عليك توضع فى كفة نبذك . وعبثا أحاول أن أبين لهم أن أولئك الأعداء لا يعرفونك الا معرفة سطحية ، وأنهم اذا قدر لهم أن يعرفوك على حقيقتك مثلى فانهم على الأرجح سينتهى بهم الأمر الى تفضيلك على أنفسهم ، بيد أن مجرد وجود هؤلاء الأعداء يعتبر بمثابة تحذير كما لو كان علامة موضوعة عليك تقول : « حذار » . لذلك رأيت من الحكمة أن أحدثك بصراحة لكى أنبهك الى اتجاه الخطر الذى يتعين عليك اتقاء مغبته ، والذى قد يعينك على ملاقاته . وانى لادعو الله أن يسفر كل ذلك عن نتيجة مرضية ولكنى لست واثق الأمل . ولعلك انت أيضا لا تكون مؤملا فى الأمر كثيرا . اننى وغيرى « سنعمل » كل ما فى وسعنا من أجلك ، ولتحتفظ أنت بكبريائك وعظمتك ، وخلاك ذم . ان المرض الذى تعانى منه الكلية سكرات الموت هو افتقارها الى عدد قليل من طرازك فيها ــ ولكن ماذا فى وسع المرء أن يفعل فى بلد يتخذ « السلامة » مبدأه الوحيد فى البت فى الشئون الفكرية .

صديقك المخلص دائما

و م . چيمس »

والسنوات التى تلت هذه الأحداث تنطق بالقصة المعتادة لصداقة تعمر أكثر من التجاوب الفكرى . كان چيمس يقول كلما ازدادت معرفته بدافيدسون وتغلغل فى طوايا نفسه ، ازداد له حبا . وما كان فى وسعه

(١٥) Evangelinus Apostolides Sophocles, tutor and professor of Greek at Harvard, 1842-83.

أن يقول : « ازددت اتفاقا معه » . لقد مضى كل منهما في سبيله متخـــذا لنفسه طريقة تفكيره الخاصة به . وحتى مذهب چيمس فيالذاتية الخلقية. لم يكن عند دافيدسون سوى « ضرب من المغامرة الاستيفنسونية — المقحامة السبهللية »(١٦) . وفى غضون ذلك بقى الحب القديم موصولا ، وقد يكون فاترا بعض الشيء في نكهته وشذاه لدن استعادة الذكرى ، ولكنه سرعان ما يستعر أواره من خلل الرماد عندما تباغت الأحداث الكبرى أي واحد منهما — مثل الكتب أو المرض .

وبمضى الزمن وتكر السنون تم نجـــد چيمس يكتب من أوروبا فى ١٦ فبراير سنة ١٩٠٠ , لخليله الحبيب وصفيه القديم ت.د » :

« فى وسع المرء أن يلاقى المرض المميت (أو المفضى الى الموت وشيكا) اما بنوع من الاستخفاف الماجد ورباطة الجاش الرواقية التى لا تبالى باللذة أو الألم ، واما بالحمية الدينية . وأنصحك يا عزيزى القديم ت . د أن تتبع منهجى فى مداعبة الجمع بين الثلاثة معا ، آخذا كل واحدة بالتناوب pro re nata (١٧) وفقا لمقتضى الحال.نحن هنا لمدة ستة أسابيع فى صحبة ف.و.هـ . مايرز وأسرته ، نقيم فى قصر تشارلز ريتشيت (١٨) الحالى بين طولون وهيريز ، والذى حللنا فيه اهلا وسهلا بفضل كرم ت . و . الجو رائع . والظروف مواتية لاراحة الأعصاب ... لقد بلغت أعصابى أسفل سافلين من التوتر فى انجلترا حتى يناير . انهيار عصبى حاد الى جانب اضطراب فى القلب . وطبعا المرض الاخير هو الشيء الخطير » .

وأجاب دافيدسون على تلك الرسالة بتاريخ ٤ مايو بالآتى :

« لا حاجة بى ان أقول لك يا صاحبى العزيز ان حالتك ملأتنى غما وحزنا فى الصميم . ويبدو ان مرضك اكثر خطورة من مرضى الذى لا يهدد الحياة ، ولكنى واثق انك تبالغ فى تقدير خطورة مرضك . انك لا تزال قويا ، وستكون قادرا على استئناف عملك اذا أخذت قسطا كافيا من الراحة وأمسكت التأمل هونا ما ... ان الموت لا يعنى بالنسبة لى شيئا أكثر من الذهاب الى الغرفة المجاورة . لقد كان الموت طوال حياتى أنيسى وألفى ، لا أشعر فى صحبته بوحشة أو غربة » .

ولم تحل حالة دافيدسون الصحية دون الذهاب ثانية الى جلينمور بعد وقت قصير من تحريره لتلك الرسالة الأخيرة الزاخرة بالأمل . ولكن فى شهر سبتمبر التالى حمل الناعى الى چيمس نبأ موته المفاجى :

---

(١٦) Davidson to W.J., March 29, 1897.

(١٧) As occasion may require.

(١٨) The bond uniting Myers, Richet, and James was their common interest in psychical research.

« ذات يوم من ايام سبتمبر سنه ١٩٠٠ وأنا فى « كورهاوس » بمدينة ناوهايم اشتريت نسخه من الطبعة الباريسية لصحيفة « نيويورك هيرالد » وقرأت فيها الخبر التالى مطبوعا بالحروف الكبيرة « موت البروفسور توماس دافيدسون » وكنت على علم بما عاناه من مرض عضال ، ولكنه كان صاحب حيوية جبارة بحيث ان صدمة موته كانت غير متوقعة · لم أدرك حتى تلك اللحظة الى أى حد كانت تلك الصحبة الحرة المسماحه الكريمه معه كل ربيع وخريف تحوطنا تلك الطبيعة الجميلة — تعنى بالنسبة لى · ولم أكن ادرى حتى تلك اللحظه مبلغ جسامة الفراغ الذى خلفه انتزاعه من حياتى بانتهاء حياته »(١٩) ·

وعلى الرغم من أن جورج هولمز هوويسون كان يكبر چيمس فى العمر بثمانى سنوات الا أنهما كانا زميلين معاصرين فلسفيين · وفى سنة ١٨٧٢ قبل أن يبدأ چيمس عمله معلما بهارفارد — بسنة واحدة — اصبح هوويسون استاذا للمنطق وفلسفة العلم فى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا ببوسطون · وفى سنة ١٨٨٤ عين فى جامعة كاليفورنيا حيث ترك بصمات آثاره على عدة أجيال وراء الأخرى من الطلاب بقوة ايمانه وحجته ، واستنهض هممهم بجده الخلقى · وعلى الرغم مما كان بينهما من بعد يبلغ آلاف الأميال ، الا أن چيمس وهوويسون احتفظا بصداقة وثيقة وطيدة حتى العام الذى وافت فيه المنية هوويسون ·

وكان هوويسون فى أثناء اقامته فى بوسطون ينتمى الى حلقة أولئك الذين — على غرار چيمس ودافيدسون وبالمر ، كانوا يدرسون هيجيل يلهبهم هاريس — بل يحولهم عن عقائدهم بتحمسه المتشبع . كانوا جميعا فى حالة اكتشاف لهيجيل ، وكان كل واحد منهم — بسبيله الخاص — يتصافق معه تراضيا واتفاقا . أما فيما يتصل بهيجيل وشانئيه فقد كانت عواطف هوويسون فى ذلك الوقت تميل الى هيجيل كل الميل . ولكنه فيما بعد أيقن أن « هيجيل بكل نواياه الشخصية القوية الضليعة لحق المذهب الحلولى ، الا أنه لم يبلغ أبدا الى منسوب نظرة منظمة منسقة تتناسب مع غاياته الدينية ومآربه السياسية · وفضلا عن ذلك فهو فى كل مكان ، يؤسس شركة متحدة شائعة المسئولية للطمس المنطقى للانسان الفرد » · ونظرا لتوكيد هوويسون للفرد الأخلاقى فى مدافعته فيما بعد عما أسماه « المثالية الشخصية » فقد كان أمرا يدعو للدهشة ، وسببا لشىء من خيبة الأمل عند هوويسون نفسه ، ان فلسفته لم تلعب

أى دور فى تعددية چيمس . وتفسير ذلك يكمن فى جذورهما المختلفة ، حيث ان چيمس بالمزاج والسليقة والارتباط سليل التجريبية البريطانية، فى حين ان الدم الذى يجرى فى عروق هوويسون – مهما تخاصم معهم وتنافر – كان دم كانت وهيجيل . وبعد سنوات كثيرة – فى تعليقه على كتاب هوويسون « حدود التطور » وضع چيمس كتابه انه كان من الممكن ان يوجه نفس الكلام لرويس أو دافيدسون – عن السبب الذى حدا به الى عدم الاتفاق فى الأساسيات حتى مع أحسن سبط الكانتيه الهيجيلية:

« أولا . الأسلوب ممتع ومنعش ؛ يرطب النفس ويبهجها فى هـــذا العالم المبتذل الفظ . سمود ورقته وفذاذته وامتيازه الى جانب وضوحه النادر وصراحته . ان الكتاب سمدع – جنتلمان (– أو خاتون ؟) . ان قوته فى نظرى تكمن فى الطريقة المتطرفة المباشرة التى لا تلتبس . والتى يصنع بها مفهوما للعالم على وتيرة « الفلســفة المنطقية » ... ان قليلا من الفلاسفة اليوم لن يجرؤ على أن يمضى فى الفلسفة العالمية على هذا النحو من النفى واليقينية ... وضعف هذا الكتاب يبدو لى أنه يكمن فى « الحتمية » التى تسلى بها اعتبارات لياقة الفلســفة الغائية نفسها . انك تكاد تكون على غير وعى بالتمرد « الأول وهلى » لعالم الحقائق . ومن ثم فانك تدوس عليها فحسب هوى فى اعتقادك بالكمال النهائى . فى حين انه بالنسبة لمعظمنا فان وحشيتها وحماقتها هما الحافز الرئيسى للمفكر . وحل العقدة لا فطمهـــــا . هو الذى تتطلب المعونه فى عملــــه ...

فيجب أن أقول – انه بالنسبة لعقلى فان استدلالك على الشر من الحتمية المنطقية لعيب ما أو نقص ما ، فى تفسير كل محدود أو متناه ، لا يلاقى الحاجة ، وانى أجد نفسى أجنح أكثر وأكثر الى الاعتقـــاد باللاعقلية على اعتبـــار أنها الأصــــل الذى ينبثق منه الكمال بطيئا وتجريبيا بسبيل حقيقى فعلى من التطور – أو اذا شئت ؛ بسبيل من التحسن بالتغيير . ولكن فليكن . لا أريد ان أماحك وأكابر لأن الكتــاب سعر قيم جليل ؛ وأنت على الجناح الأيمن ؛ وأنا على الجناح الأيسر ، فى وسعنا أن نعقد واحدة من حركات كشنر الكاسحة ونطهر البلاد من كل الأجلاف والوحدانيين والقدريين ونلحقها باسم الفلسفه التعددية »(٢٠) .

(٢٠) Howison to W.J., 19, 1894; W.J. to Howison, June 17, 1901.

١٩

تعلم وكتابة وسفر

بعد عودة چيمس من اوروبا فى مارس سنة ١٨٨٣ قر قراره على تركيز العمـــل فى علم النفس » فغاص فى بطاح ومستنقعات نظرية المعرفة » وحاضر فى يوليه فى مدرسة كونكورد ا « يونان بين الأنبياء » (١) ثم حول المحاضرات الى مقال هام بعنوان « بعض ما حذف وأسقط فى علم النفس التأملى » والتى نشرت فى « العقل » فى العام التالى ·

والعقد التالى شهد تكريسه لكتابه « مبادىء علم النفس » الى جانب تحرير والده « الآثار الأدبية » Literary Remains ، وكذلك القاء المحاضرات الفلسفية المتنوعة التى طبعت بعد ذلك تحت عنوان « ارادة الاعتقاد The Will To Believe » · ولقد امتد نطـــاق تعليمه على مدى واسع تضمن تاريخ الفلسفة ، وعلم نظام الكون ، والأخلاق ، وعلم النفس الابتدائى والمتقدم · وعلى الرغم من أحزان الأسرة ومسئولياته العائلية المتزايدة ، واشتغاله ببناء بيته فى شارع ارفنج رقم ٩٥ بمدينة كامبردج ، وشرائه لمزرعة شوكوروا ، الا أنه وجد نفسه على الاجمـــال كفئا تماما لعبء التعليم والكتابة · وكان يشعر بأنه لا ينجز الا القليل، ومن ثم كتب فى سنة ١٨٨٦ الى أخيه هنرى يقول : « ان الأشغال الصغيرة والنوافل تهلكنى ، وتحول دون تقدمى فى الأشغال الكبرى للحياة وفروضها الأساسية » (٢) . بيد أن فهارس الكلية وبرامجها ، وسجلاتها المكتبية ، والمراسلات الأخرى تخبرنا بقصة أخرى ·

ثمة عدد كبير من الاهتمامات الأدبية الجديدة التى هام بهـا شغفا يظهر فى رسائل چيمس لتلك الفترة . ففى سنة ١٨٨٥ كان يقرأ قصة دستوفسكى « الجريمة والعقاب » ، التى اعتبرها ، « دراسة نفســية

---

(١) To Renouvier, August 5, 1883; L.W.J., I, 230; to Davidson, May 2, 1883.

(٢) December 2, 1886.

رائعه - في غاية العمق والمغزى الاخلاقى ، على الرغم من كل ما فيها بحيث أن كل القصص الفرنسية الجنسية تبدو بالقياس اليها مجرد هنوف»(٣).

وفي فبراير سنة ١٨٨٦ كانت قصة أنا كارينينا Anna Karénina هي التي قرأها على الأسماع . ولقد كتب چيمس الى أخيه هنرى فى هذا الصدد يقول : « أليس تولستوى - بعد كل شيء - هو أكمل القصاصيين طرا ؟ ثمة نوع من المعصومية من الخطأ ، واليسر المواتى بلا سعى أو كد بلا زمانه مثل الطبيعة الأم المنصفة المقسطة . كما لو كان كل شيء سواء وكل أمر سهلا - لا فرق بينه وبين اى شيء آخر » . والثالث من معبوداته الأدبية الجديدة كان روبرت لويس ستيفنسون .

وثمة لمحة عن مناشط چيمس ومزاجه تزودنا بها الرسالة الآتية - مرة أخرى - لأخيه :

كامبردج أول سبتمبر سنة ١٨٨٧

« عزيزى هارى :

انه لوقت طويل جدا الى درجة الفظاعة - منذ أن كتبت لك آخر رسالة ... لقد عشت هذا الصيف فى فوضى لا حد لها محاولا أن أكتب شيئا ، وأشرف على بناء البيت فى نفس الوقت ، بحيث ان كتابة الرسائل كانت أمرا مستحيلا ... شوكوروا ، ن . ه . ١٩ سبتمبر . هذا التاريخ تفسير للسطور السابقة . لقد حملت هذا الجواب معى الى الاديرونداك ، وعدت ثانية دون أن أجد فعلا فسحة من الوقت تتيح لى أن أتمه على الرغم من أنى كنت متذكرا له كل يوم . وأخيرا حانت الساعة . آليس تتولى شؤون النجارين والماهدين والأجراء ، مما يتيح لى فترة الصباح بأكملها للجلوس الى مكتبى . وأنا معوق للغاية بسبب عجزى عن الكتابة بالليل ، ثم ان التوقف الكامل للعمل الفكرى طوال الصيف جعلنى مكتئبا وخائر النفس جدا . ولكن الاضطرار مؤقت . وفى النواحى الأخرى مثل قوتى على المشى واستمتاعى بالنوم ، فان حالتى أحسن بكثير مما كانت عليه من قبل لمدة طويلة . بعد قضاء تسعة أيام فى ربوع الجمال الخالد لغابات وادى كين ، وحصولى على أكبر قدر من الترويح ، أتيح لى أن أحصل عليه من قبل فى مثل هذا الحيز من الوقت ، عدت ثانية عن طريق البانى ونيويورك .. وسأعود بعد أسبوع الى كمبردج مستعدا لالقاء محاضراتى على جمهورى (لدى حوالى مائة من الدارسين فى أحد مقرراتى) فى اليوم التاسع والعشرين من سبتمبر . وفى مرجوى أن أنتهى من كتابة مخطوط كتابى « علم النفس » قبيل عيد الميلاد ، هذا اذا سارت الأمور على ما يرام . وعلى أية حال فسوف أنتهى منه هذا الشتاء ، وعندئذ ينزاح

(٣) To H.J. [2], April 18, 1885.

(٤) February 21, 1886.

عبء ثقيل من فوق كاهلي . ولابد أن سماعك لبطئي وتقاعسي يثير ابتسامتك — أنت الذي تستطيع انتاج قطعة فنيه رائعة كل ثلاثة شهور ، ولكن وقتي منهوب في أعمال كثيرة — وكل ورقة من كتابي هذا تكاد تكون مقاومة لشيء لا سبيل لك الى معرفته في الجو الرومانتيكي الذي تعش فيه والذي لا يتحداك بأية مقاومة . لنبدأ أولا بمقاومة الحقائق ، فلابد من رشوة كل منها لكي أنسمها الى وصفي ، ثم مقاومه الفلاسفه الآخرين — أخيرا — اذ لابد من ذبح كل منهم على حدة . ان ذبح الهلمهولتزيين والسنسريين ليس أمرا سهلا ولا فكها . وعندما أفرغ من هذا الكتاب فسأقول لعلم النفس وداعا — لفترة من الوقت — ثم أكرس نفسي لدراسة أشياء أخرى . قليل من الطبيعة ، وشيء من تاريخ الفلسفة الذي أشعر أنني متخلف فيه الى درجه فظيعة . تسلمت بيان تكنور في الأسبوع الماضي — ان كتاب الوالد « الآثار الأدبيــــه » لم تبع منه الا نسخة واحدة في الشهور الستة الماضية . مسكين . انه أمر يدعو للرثاء والأسى ولكن ما باليد حيلة .

لو كنت مغرما بالوصف لكان خليقا بي أن أفصل لك تفصيلا نزلنا الصغير ، ولكن يجب عليك أن تنتظر حتى تراه بنفسك ... انه منزل جميل الشكل جدا مغطى بالقرميد بقراطيف خضراء اللون ، وله أحد عشر بابا خارجيا بحيث أن كل الغرف مســـتقلة عن الأخرى ... ولا يوجد أي شيء عادي او مألوف في أي معنى — في منظر المنزل أو مخبره .

علمت أن ر . ل . ستيفنسون بين ظهرانينا في هـــذه البلاد وقرأت في الصـــحف انه قد خصك بعدد من « التقدمات » المليحة في مجلد أشعاره الجديد . أنا سعيد بذلك . وفي مرجوي أن أراه قبل رحيله — اذ لو أنه كان هناك مؤلف واحد أحبه — فهو ر . ل . ستيفنسون ، وأنا على يقين من أنه الى آخر الزمان ستذكره الأجيال وتعده واحدا من اساتذتنا في الانجليزية الكلاسيكية الراسخة . الى متى يؤخرون اصدار مؤلفاتك ؟ لشد ما أنا متعطش لشيء جديد ينقع غلتي ...

أخوك

و . ج .

وثمة رسالة أخرى لأخيه وأخته يستأنف فيها الحديث عن مناشطه المتنوعة .

شوكوروا ١٤ أكتوبر سنة ١٨٨٨(٥)

« عزيزي هاري وآليس :

لقد نهضت لتوي الآن لأستقبل يوم السبت وأزور الأسرة ثم أعود أدراجي غدا ... ونحن الآن بصدد نقل المخزن من أمام المنزل ، لكي ينفسح المنظر قليلا ، ونطل على المرج الأخضر المنبسط في أسفل الوادي بأشجاره الوارفة التي تحف به والتي يجري

(٥) A paragraph of this letter appeared in L.W.J., I, 283. John Chipman Gray was professor at the Harvard Law School and lifelong friend of James.

من ورائها الحدود الرقراقة . ان معظم الناس يشترون المستنقع أولا ثم يبنون بيتا فوقه ، أما أنا فقد اشتريت بيتا وأنا الآن أخلق مستنقعا حوله بأن أخفض مستوى الأرض من كل جانب حتى يبدو المنزل مرتفعا بعض الشيء ... ان الرجال والثيران والأرض السمراء وأكوام الأخشاب الحديديه المقطع — كلها أشياء طيبة يطيب للمرء أن يعيش فى كنفها . ولا يمكنني أن أتصور طريقة أكثر سحرا وفتنة لانفاق المال اذا توافر للمرء — من امتلاك قطعة من الأرض يقيم عليها ويلعب دور « الفلاح الجنتلمان » .

يبدأ العام الدراسى فى كامبردج بحميا متوقدة — فلدى فصل كبير فى الأخلاق ، وسبعة دارسين من خريجى الكليات الأخرى لدراسة عليا فى علم النفس ، الأمر الذى يضع على عاتقى قدرا كبيرا من العمل . ولكنى أشعر بتوقد وشهية للعمل وقوة على نحو لم أعهده من قبل ، وأحس فى قرارة نفسى أننى بلا شك سأخرج فى النهاية فى أتم عافية وصحة ... ولم يكبر حجم الكلية هذا العام بشكل ملموس ، فى حين أن الكليات الأخرى مثل ييل ، كورنيل ... الخ ... قد كبرت وربت . واخشى أن نكون قد وصلنا الى الحد الذى لا يمكن تجاوزه فى الوقت الحاضر ...

بنفسى جوع وظمأ لمزيد من تلك القصص الكثيرة التى تعمدت تلافى قراءتها فى مرحلة نشرها مسلسلة . ان قصة « الترجيع » قصة خالدة .. لست أدرى كيف يتسنى لك أن تنتج بهذه السرعة أو كيف يتسنى لك تدبير الوقت اللازم للقـراءة أو لأى شيء آخر . وأحسب أنك لابد تشعر بالخواء التام باطنيا ، ومن ثم تحتاج الى الامتلاء قطعا ... أما أنا فيتعين على أن أقرأ كثيرا ولا أكتب شيئا — بالنسبة لهذا العام — وفى مرجوى أن أجد فى ذلك لذة عظمى . انه مما يفيد المرء جدا أن يقرأ الكتب الكلاسيكية ، ومنذ شهر وأنا لا أفعل سوى ذلك لحساب تلاميذى فى مقرر الأخلاق — أفلاطون — أرسطو — آدم سميث — بتلر — بالى — سبينوزا — الخ ... ليس ثمة كتاب يظفر بشهرة دون أن يستحقها ، والكتب الحديثة التى لن يقدر لها أن تظفر بالشهرة وذيوع الصيت زاخرة بالخبيص ... وندل هولمز سيعطى صوته لهاريسون — والله وحده العليم بالسبب — الا اذا كان لا يريد سوى أن يظهر الجانب المعتم من نفسه — لقد عجز عن أن يعطى سببا واضحا بيننا لذلك منذ بضع ليال . لقد قام برحلة طائرة الى كاليفورنيا بصحبة زوجه ، ورأى ما لا عين رأت وشاهد ما لا أول له ولا آخر ، مما جعله يتيه عجبا ، ثم بعد ذلك أمضى شهرين فى كليفتون هاوس عند شلالات نياجرا ، ونعم بكل سعادة وغبطة كما هو شأنه دائما . ولقد عكف على قراءة الانجيل من أوله الى آخره ، وكما يقول جون جراى فانه لشيء عظيم أن يتجه عقل بكر الى كتاب رث قديم كهذا — لا يقل غرابة عن رسوم جوستاف دوريه . ولست أدرى كيف يتسنى له أن يجد كل هذا الفراغ من الوقت على الرغم من منصب القضاء الذى يشغله . وداعا لكما . تقبلا بركة أخ يحبكما .

« و م . جيمس »

ولم يقدر لجيمس أن يبحر الى أوروبا ثانية حتى سنة ١٨٨٩ على متن السيفالونيا التى ألقت مراسيها على ميناء كوينزتاون . وكان بصحبته على

نفس السفينة وندل هولمز « الذى جعل نفسه فى خدمة الجميع وأسرهم وابرهم »(٦) وفى انجلترا راى اخته آليس التى كانت تعيش هنـا منـذ سنة ١٨٨٤ تحت رقابة أخيها هنرى . أما انطباعها عن تلك الزيارة فقد سجلتها بتاريخ ١٨ يوليو :

« وصل وليـام الى لندن بالامس فقط ، لانه قضى ثلاثة أسابيع فى أيرلنـدا واسكتلندا . ان السنوات الثلاث الأخيرة منذ فراقنا لم تجعـله يبدو أكبر سنا مما لى . وكل ما يمكن أن يقال عنه طبعا ، هو أنه ما زال هو هو ، انسان يتكلم بلغـة اخرى ، كما يقول هنرى ، تختلف عن لغة بقية الجنس البشرى ، وفى وسعه أن يسعى الحياة والسحر على معصره . كم كانت خبرة عجيبة مدهشة ان يجد المرء أمامه فجـأة — ما كان قد ذبل وذوى وبدا أنه ذهب — كل هـذه السنوات — وقد انتعش وازهر ، كما لو كان واحه وارفة الظلال فى عنفوان ريعانها فى هذه الصحراء الغريبة ، نواحة بعبير الأسرة الذى يذكرنا بالأيام الخوالى ، ذلك العبير المؤلف من اللمحـات والاشارات ووجهات النظر المشتركة ، بحيث أن احساسى بالذرات السـابحة تاه لمدة ساعة أو أكثر ، تاه فى وهم أن ما كان تصدع الى الأبد قد انبثق حيا من جديد ، واستقر خارج ذاكراتنا ، حيث يظل يانعا ومزدهرا أبد الدهر » .

وثمة تعليق أخوى آخر سجلته آليس فى هذه المناسبة ابان نفس تلك الزيارة فى الفقرة التالية :

« لقد عبر وليام عن نفسه وعن بيئته — الى درجة بلغت حد الكمال — عندما اجاب عن سؤالى بخصوص بيته فى شوكوروا بقوله « انه أبهج نزل رأيته فى حياتك — له أربعة عشر بابا كلها مفتوحة الى الخارج » .

ولعل عقله — من سوء الحظ — ليس محددا بأربعة عشر(٧) . وبعد قضاء عشرة أيام فى لندن — ذهب چيمس الى باريس كعضو — يمثـل الأمريكيين — فى المؤتمر الدولى لعلم النفس الفسيولوجى الذى عقد فى الفترة من ٥ الى ١٠ أغسطس (٨) . ولقد وجد هذه الخبرة منعشة وباعثة على النفة بنفسه فى آن ، على الرغم من أنه باشرها فى أول الأمر تخامره الوساوس والريب بشأنها .

---

(٦) W.J. to H.J.[2], July 1, 1889.

(٧) A.J., Journal, July 18 and December 14, 1889.

(٨) James wrote an account of this congress for Mind (XIV), 1889.

والرسالة التالية حررت عشية رحيله من لندن لأختــه حيث كان الاهتمام المشترك بالبحوث النفسية قد أفضى به الى الاتصال بالعــالم ف و.هـ. مايرز . والبروفسور هنرى سيدجويك وزوجته .

لندن ٢٩ يوليه سنة ١٨٨٩

« عزيزتى آلس :

أنا راحل غدا — سيه سادقه — الى بولونيا حيث أننى مكثت هنا يومين أطول مما انتويت . ولقـــد دعيت الى برايتون وسرى ... الخ ... واحسن ما حــدث هو أننى سللت طريقى بعد طير أمس فى الزحام عند ركوبى الحافلة الى هامتون كورت عن طريق كيو ، وتشموند ... الخ ... وانى لأجـــد نفسى أزداد رغبة باستمرار فى السفر والتجوال عملا من الاسم والتمتع بالديموقراطيه أكثر من الجلوس معتدل القــــامة لأحدث الناس . ان مايرز وسيدجويك وزوجته يبهظوننى بالمسئولية المريعة حيـــال علم النفس ، انهم يحيطون علما بهذه المادة الى درجة جبارة وهم فى غاية الحماســة والغيرة عليها . كيف أستطيع أن أجابههم لمدة عشرة أيام فى باريس — لست أدرى — ولكن يبدو أن هذا هو القدر المحتوم . لقد نعمت جدا بوجودى مع هارى ، أما بالنسبة للندن ذاتها فقد بشمت منها تماما ، ولا يهمنى أبدا أن أرى سمرتها الصفراء ورحابتها التافهة المتبدلة — مرة ثانية .

ما أتعس أمثالنا ممن لا يجدون نفس الشىء — هو هو — مرتين متتاليتين . اننى سعيد أن زوجتى قادرة على اجتياز امتحان اللقاء ثانية بعد الغيبة ، أو على الأقل لقد نجحت فى ذلك حتى الآن . لقد وصلتنى منها رسالة صباح اليوم تقول فيها ان كل شىء على ما يرام . لقد كان هارى فى غاية الامتاع أسهل منالا وأكثر تحررا مما كان عليه عندما كنت هنا من قبل ، وتحت كل هذا التراكم من السنين ووطأة الحيـــاة ، فلا يزال هو نفس هارى العزيز الطاهر الصافى الذى عهدناه فى أيام الصبا . أما لهجته وأسلوبه واصطلاحاته الانكليزية فليست « سوى سور دفاعية » — انه حقا ، لا أقول بانكيا صميما ، وانما ، هو مواطن لأسرة چيمس وليس له وطن سواها ...

لقد انفقت نصف مستقبل اطفــــالى على شراء ملابس لهيكل جسمى المهـــدم الذى أكلف به كعابد الأوثان ، وأشعر داخل كل تلك الملابس كما لو كنت نوعا من الحيوان الرخو الوارم . ما أبشع مسالة الحضــــور الى الخـــارج هذه . لك حبى الكثير — دائما .

« و . ج »

وبعد العودة الى كمبردج شغل چيمس نفسه باتمام كتابه « مبادىء علم النفس » Principles of Psychology الذى نشر فى خريف سنة ١٨٩٠ أما كتاب أخيه هنرى « عروس الشعر والأدب الحزينـــة » فكان قد بدأ يظهر تباعا فى يناير سنة ١٨٨٩ .

شوكوروا ٢٦ يونية ١٨٩٠ ،

« عزيزى هارى :

واخيرا فعلتها ، وكان لابد لك أن تفعلها حتما مقضيا . « عروس الشعر والأدب الحزينة » تاج الذروة . انه انتاج فى غاية الابداع والاصالة ، مدهش ومبهج وباهر الى اقصى درجة . لابد أنك تشعر بالطرب ، ان استطعت بكل هذا الحذق واللوذعية واليسر أن تنفى عن نفسك تهمه أنك لا تستطيع أن تفعل أى شىء سوى معالجة المسائل الدولية والوطنية العالمية ، وعلى الرغم من أن جو الكتاب كله عالمى ، الا أن الناس والسياق والتركيب كلها انجليزية وبطريقه سهلة وطبيعية ، ثم ان الجو الكامل للمجتمع السوى الذى يسود الكتاب من أوله لآخره هو احدى خصائص الكتاب البارزة . ان قراءة الكتاب تترك نكهة طيبة فى فم المرء ، فكل انسان فيه انسانى وخير ، وعلى الرغم من أن خاتمة الكتاب ، كما هو عهدك دائما ، تضع القصة فى متاهة ، الا أن هذه هى الطريقة التى تنتهى بها الأمور فى الحياة الواقعية الحقيقية — تتبدد وتضيع فى الرمال ...

وليس عندى ما أقوله بالتفصيل . فالكتاب كله فى مبناه جيد السبك متين التركيب ، وانه لمما يدعو للرضى حقا أن يتبين للمرء أن التدريب والجهد المبذول والمثابرة تفضى بالمرء الى أن يبلغ مأربه من العيش والكمال والخصوبة — التى استطعت أخيرا أن تنالها . ان عباراتك أكثر استقامة وبساطة مما كانت عليه قبلا ، وسلاسة ملاحظاتك منثورة كالدر فوق كل صفحة . وكم كان بودى أن تمضى مع جولبا الى آخر الشوط قبل الخاتمة . ان المشهد الذى تبث فيه لواعج حبها ، مشهد فى غاية الروعة والنفاسة ، ولكن يظهر أنه من الصعوبة بمكان رتق الفتق بين سحرها وفتنتها وانوثتها . وبين صلابتها وبصرها بالعواقب . ان الأمر كله سراب رائع يظل سابحا فى فضاء عقل المرء ... أما فيما يتعلق بحجم جمهورك ، فأنا أرتجف . ان القصة فى غاية الرقة ، وفى غاية الاتفاق ، وفى غاية الدقة . وتتطلب نوعا من القراءة المستأنية التى لا تتسنى الا للقلة المختارة . ولكن ينبغى عليك الا تهتم بذلك . فهذا الكتاب سيظفر دائما بقرائه وجمهوره . على أن ذلك لا ينبغى أن يحول دون كتابة قصص أقل احكاما ودقة فى الصنعة ، لتكون موضع تقبل دائرة أوسع من القراء — وفى مرجوى أن نقدم الدليل المباشر على ذلك فى القريب العاجل .

تجارب طبع كتابى بدأت تأتينى الآن فقط ، ولكنها تبشر بأنها ستدهمنى متلاحقة وسريعة وغزيرة . وانى لا أشعر بأى زهو أو مسرة حيال هذا الكتاب اللعين الذى تشبث برقبتى تلك الفترة الطويلة ، ولكنى سأكون سعيدا اذ يخرج الى حيز الوجود — لا لشىء الا لأثبت ان فى وسعى أن أكتب كتابا واحدا .

المحب دائما

« و . ج . »

شوكوروا ٢٢ أغسطس سنة ١٨٩٠

« عزيزى هارى

طربت جدا لتسلمى رسالتك التى بعثت بها من فالومبروزا منذ حوالى أسبوعين ... ولعلك تدرك الآن لماذا كنت أحثك طوال كل هذه السنين لكى تمضى قسطا أكبر من اجازتك فى احضان الطبيعة • ان رسالتيك الأخيرتين تنضحان بروح الشباب ، بنوع من الشبق الذى طالما افتقدته فى رسائلك منذ زمان طويل ••• والذى لا يمكن لشىء أن يمنحه لنا الا أمنا الأرض الطيبة . ان التناوب بين الطبيعة وبين حياة العواصم الفاسدة المضاءة بالغاز هو خير ما فى قصارى معدور الانسان فى عالمنا الأرضى هنا .

ولكن لا تكفى واحدة منهما بمفردها اذ لابد من وجود الاثنتين • أنا سعيد اذ تسنى لك أن تأخذ مثل هـــذه الاجازة من الكتابة . ولست أدرى كيف يتسنى لك أو لهاولز الاســـتمرار فى الكتـابة بهـذه الدرجة . لقد وصلت الآن منتصـــف كتـــابه Hazard of New Fortunes « خطر الحظوظ الجـــديدة » ، وهو كتـــاب فى غاية القوة لدرجة تفوق الحد ، ويمكننى أن أقول انه يضارع ديكنز فى الفكاهة ودقة الملاحظة والأنس ، مع وجود أشخاص مرنين من دم ولحم على مسرح الأحداث بدلا من الدمى . وبهذا الكتاب وكتابك « عروس الشعر والأدب الحزينة » ، وأخيرا وليس آخرا كتابى « علم النفس » ، فان سنة ١٨٩٠ التى شهدت ظهور هذه الكتب الثلاثة فيهـــا سيذكرها التاريخ على اعتبار أنها العام التاريخى العظيم الحاســم فى تاريخ الأدب الأمريكى . بالأمس فقط انتهيت من كتابة فهرس كتـابى وأرســلته بالبريد ، ومن ثم فان عقلى أصبح حرا لكى يخلو الى الكون ويتلقى منه ثانية . يالها من نعمـــة وبركة وفضل بديعة . لقد قضيت ســـتة أسابيع فى كامبردج بمفردى فى البيت حتى آخر أسبوع ... وراجعت أربعمائة صفحة من تجارب الطبع معظمها من حروف الطباعـــة الصـــغيرة ، وكنت لا أكاد أبرح مقعدى على المكتب حتى التاسعة مساء ، ثم بعـــد ذلك كنت أخرج — وانا أتضور جوعا — أدوى وأعجج فى حر الليل اللافح جالســـا على المقعد الأمامى لعربة كهربية — ألطف وســـيلة للانتقال فى العالم — لكى أتناول عشـــائى فيما بين الساعة التاسعة والساعة العاشرة فى مطعم يونج أو باركر ، بعـــد أن ارسل تجارب الطبع من مكتب بريد بوســـطون لكى تلحق بآخر بريد يرســـل الى نيويورك • ولقد أرهق كل ذلك جهازى الهضمى ، ولكنـــــه لم يترك آثارا سيئة • وانى لارجع البصر فى هذا الشهر والنصـــف الأخير فأراه من ألذ وأبهج الفترات ، حيث لم يكن يشغل بالى ســـوى شىء واحد ، وحيث كنت أنجز خطوات عظيمة من العمل كل يوم وأشعر بأننى أمضى قدما ، على نحو يختلف كثيرا عن العـــام الدراسى حيث يشغل بالى خمسون أمرا من الأمور دون أن أتقدم تقدما محســـوسا فى أيها على الاطـــلاق ...

لقد تمكنت من الحصول على مبلغ ٤٠٠٠ دولار دبرت من ميزانيـــة الكلية لانشاء معمل سيكولوجى واجهزة ومنشآت ، فمع هذا العمل مضـــافة اليه أعمالى الأخرى اتوقع عاما حافلا بالمجهود الشـــاق فى الـــسنة الدراسية المقبلة . وفى عزمنا أن نرحل الى الخارج فى ١٨٩١ — ١٨٩٢ اذا كان فى مقدورنا تدبير تلك الرحلة ، ولكننا لن نتأكد من اى شىء عن ذلك حتى الربيع القـــادم ... أخوك

و . ج »

ولقد افضى الشغف بالبحوث النفسية الذى حركه فى چيمس فردريك مايرز . وادموند جورنى . وهنرى سيدجويك وزوجته فى أثناء اقامته بانجلترا ١٨٨٢ — ١٨٨٣ — الى قيامه بأبحاث منقطعة وخصوصــا عن الوسيطه الشهيرة المسز بايبر التى كتب عنها تقريرا قدمـــه للجمعية الأمريكية للبحوث السيكولوجية فى سنة ١٨٨٦ .

وفى سنة ١٨٩٠ ارسل تقريرا مكتوبا(٩) عن نفس الموضوع لجمعية الآباء فى انجلترا ، وتلا أخوه هنرى التقرير فى غيابه ، الأمر الذى اعتبره چيمس « أكثر الأشياء فكاهة » سمع بها فى حياته من قبل . وعندما قالت له زوجته : ان هذا الموضوع مازال يخلف راسبا فى نفسه ، وانه لم يذب ذوبانا كافيا ـ كتب لأخيه هنرى قائلا : « تأكد أننى ذبت لدرجة الصهر التام . انه أشهم واكرم واجمل عمل أخوى عرفته فى حياتى ، وآمل أن يكون ذلك بداية لحياة جديدة من جانبك تصبح فيها من الحواريين النفســيين فليباركك الله لقاءها . أكتب بايجاز ، ومرات كثيرة »(١٠) .

وفى رسالة شهيرة بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٩١ كتب چيمس لأخته بشأن الموت باعتباره انعتاقا وخلاصا من الألم والكبت والكظم (١١) واشار الى بعض أفكار الخلود التى احتوتها محاضرته المعروفة بمحاضرة انجرسول لسنة ١٨٩٧ . ولقد أعقبتها الرسالة التالية — عاجلا — التى كتبها من مقامه فى آشفيل بكارولينا الشمالية .

جبل رون ٢٣ اغسطس سنة ١٨٩١

« اختى العزيزة :

تجولت هنا بالأمس وصباح هذا اليوم المشمس المشرق الساكن بعالم الجبال المواج من حوله ومن أسفله وبالنسيم العليل البلسمى (على الرغم من حيويته) كما لو كنا على السفح لا على ارتفاع ٦٣٠٠ قدم — هى الفرق بين السفح والهضبة . وهو جد مختلف عن هواء جبل واشنطون .

تسلمت رســالتك المدهشة — الملهمة قبل أن أغادر الوطن . انه لمما يشرح الصدر ان تتحدثى عن هذا العام كواحد من احسن سنى حياتك . عظيم أن أسمعك تتحدثين عن الحياة والموت من وجهة نظر راسخة مطمئنة على هذا النحو — على غرار ما تحدث عنه أحــد مرشدى أديرونداك وأسماه « السكون العلوى السماوى » فى وجهة النظر . ولقد جاءتنى رسالة من هارى — منذ أيام قليلة فقط تؤكد لى هذا الانطباع . انه يقول

---

(٩) This report was published in the Proc. of the S.P.R., VI (1890).

(١٠) October 20, 1890.

(١١) This letter will be found in L.W.J., I, 309, IWI.

انه أقل « قلقا » عليك مما كان فى أى وقت مضى ، وأعتقد أنه ينبغى علينا جميعا ان نتحد فى وجهة النظر كما نحن الآن . لقد اتضح ان مرض لويل المسكين كان السرطان(١٢) وهو لم يعرف حقيقة مرضه أبدا ، وفى سورة ألم ايجابى فانه قاسى قليلا نسبيا ، وان كان قد لقى من المتاعب المتعددة والمضايقات ما لا حصر له ولا حد . والآن وقد رحل ... فهو يبدو شخصا أكثر فذاذة ونفاسة وندرة مما كان قبلا . واحسرتاه — هكذا الشأن دائما . وفى مرجوى أن تتركى بعض المذكرات عن الحياة وعن الحياة الانجليزية ، بحيث يستطيع هارى أن يفيد منها فيما بعد لكى يؤلف أحسن كتاب كتبه فى حياته على الاطلاق . تشارلز نورتون — فيما علمت — يستلم مخطوطات لويل حسب وصيته ... الخ. ان الطريقة التى يلصق بها هذا الرجل اسمه بكل عمل عظيم وبكل عظيم طريقة تشبه الأساطير . لقد لصق اسمه بدانتى . وبجوته ، وبكارليل ، وراسكن ، وفيتزجرالد ، وتشوتسى رايت .. ، والآن لوويل .. ان اسمه سيحتل مكان الصدارة والسيادة فى التاريخ الأدبى لهذه الحقبة . وبعد مائة سنة من الآن ستنشر مجلة العالمين Revue des deux mondes مقالا بعنوان « حساة الروح فى الولايات المتحدة الأمريكية قبيل نهاية القرن التاسع عشر ... دراسة عن شارلز نورتون » . انه مركز ذكائنا foyer de lumières ... وأسوأ ما فى الأمر أنه يؤدى عمل الجوقة كلها ضمن حدا ... وفعلا يملأ المركز أحسن مما لو كان هو القالة الحقيقية الأصيلة ...

يبدو أننى أكثر قوة وعافية بدنية ، وفى مستطاعى انجاز قدر أكبر من العمل العقلى المستمر — مما كنته فى كثير من سنواتى الماضية . ولقد أضحى كتاب علم النفس أكبر وأضخم مما ظننت ، (ولقد فهمت) أن المجلات الفنية تتلهف عليه وعما قريب ستذيع عظمته الحقيقية فى الآفاق وتخبر العالم بالنبأ العظيم ... أطفالنا يزدادون ظرفا ولطفا كل عام ... ويوحون بالثقة على نحو موصول ... فليباركك الله يا أعز أخت .

محبك

« و . ج »

وفى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩١ أبحر چيمس الى أوروبا على متن السفينة ايدار — لقد انتابه نوبة عاتية من القلق الحانى على أخته فذهب ليراها . وفى أول أكتوبر كان فى طريق عودته الى الوطن ثانية — بعد أن مكث فى لندن عشرة أيام سويا .

ولقد ماتت هذه المرأة الموهوبة الباسلة فى شهر مارس التالى ولما يتجاوز عمرها الرابعة والأربعين . وكانت سقيمة عليلة معظم سنى حياتها ، وعانت من الآلام والأوجاع بدرجة كبيرة — من الآلام الجسمية ومن آلام الصراع الناشب من جراء عللها الجسمية من جهة ، وروحها العالية ونخوتها وهمتها الجبارة من جهة أخرى . كانت تشبه والدها

---

(١٢) James Russell Lawell died on August 12, 1891.

وأخاها وليام فى مرحها وفطنتها ونفاذ بصيرتها وحيوية أسلوبها ونضارته • ولم تتخذ شجاعتها – لا شكل المكابدة العابسة ولا شكل الهروب من الواقع أو مراوغة الحقيقة ، وانما اتخذت نوعاً من السخرية الرقيقة التى نبذت بها الحياة ، وفى نفس الوقت احتفظت بدفء وجدانها وتعاطفها •

وعلى الرغم من أنها كانت شبيهة بأخيها وليام ، الا أن أخاها هنرى هو الذى كان من نصيبه أن يكون راعيها الأمين فى أثناء السنوات الأخيرة. ويمكننا تبين درجة حبه واخلاصه ومبلغ ما بلغاه من كيف فى كلماتها هى نفسها التى كتبتها فى سنة ١٨٩٠ :

« حضر هنرى فى اليوم العاشر من الشهر – لقضاء اليوم – هنرى الصبور – كما ينبغى لى أن أسميه . منذ خمس سنوات فى نوفمبر ، عبرت المحيط – وعلقت نفسى – كعجوز البحر – فى رقبته – حيث تدل كل الظواهر أننى سأبقى متعلقة بها الى الأبد . لقد منحته كل عنايتى وحبى واهتمامى ... دون حد ، ولكن على الرغم من ذلك وعلى الرغم من طبيعة آلامى وهمومى التى لا يمكن تصورها ، لم أر أبدا نظرة ضجر أو ملل ينم عنها وجهه . ولم أسمع أبدا كلمة خالية من الحنان او الفهم تنبس بها شفته . انه رهن اشارتى – لاقل همسة ، يسير المنال « تحت تصرف » أى عضو من أعضائى يتمرد على أو يسىء التصرف ، ويبعث فى نفسى السكينة والطمأنينة بأن يؤكد لى أن أعصابى هى أعصابه ومعدتى هى معدته – وهذه الأخيرة هى ذروة من الحب الأخوى لم يبلغها الجنس البشرى من قبل أبدا . ولم تصدر عنه أية اشارة ولو من بعيد جدا تلمح الى انه يتوقع منى أن تتحسن صحتى فى أى وقت معين – ذلك العبء الذى يفرضه الصديق الحميم والقريب المحب – لا مناص – على المريض العزيز . لم يتغير أبدا – منذ الوقت الذى أستطيع تذكره – وانه يكاد يتميز بنفس القوة – كالوالد – فى تلك الحساسية الشخصية – التى – ماذا يستطيع المرء أن يسميها . انها تبدو كما لو كانت وشاحا جلديا مزودا بحاسة اضافية يستطيعان بها الاحساس بحالتك دون أن يشعراك بذلك بطريقة غفل ودون أن يعميا عينيك عن رؤيتها »(١٣) .

وفى أثناء سنواتها الأخيرة ، كان أخوها وليام هو حلقة الاتصال الرئيسية بينها وبين الوطن ، مع دائرة الأسرة والأصدقاء القدامى ومع البلد الذى لم تهجره أبدا فى صميم قلبها . كان الوافدون جديدا من أمريكا أو الأصدقاء الأمريكيون الذين يرونها عشية رحيلهم عائدين الى الوطن يذكرونها بطريقة أليمة واخزة – بمنفاها • وفى احدى تلك المناسبات سجلت انطباعها على النحو التالى :

(١٣) Journal, March 25, 189.0

« أى تيار جارف من الحنين الى الوطن ــ يكسحنى من الاعماق فى هذه اللحظة . كم أنا تواقة الى رؤية مسكة من اشعة الشمس تومض خلل أشجار الصنوبر ، واتنفس ملء رئتى من الهواء الزاخر بعبير صمغ الصنوبر ، وألقى بجسمى الذابل الواهن على أمى الارض الطيبة ، وأدفن وجهى فى العشب الاحرش ، ساجدة لكل ما يمثله الفضاء الغفل للأرض المباركة ــ مجسم ماثل لفرصة هائلة أمام انسانية أحيط بها وضيق عليها الخناق ، حيث تمتد ظروفها وأحوالها المرنة لتشمل كل حجوم الانسان ــ شاحبة وعارية بالضرورة لا تكسوها أوهام وألغاز طحلب أو كشة أوماض شع كنسيج العنكبوت ، وانما تزدهر بفكاهة قدسية وسلامة حميدة ، ويد حانية معينة مبسوطة للمضطرب أو المتردد ، وفكرة سموحة تساير المسكين والضائع وعديم الثقة وتأخذ بيدهم ، وقلب زاخر بالأمل لكل طريد وشريد ومنبوذ من ضحايا التقاليد »(١٤) .

هذه النتف العرضية تعطينا فكرة يسيرة عن خصيصة آليس جيمس. كانت لديها النزعة الى الكتابة والمقدرة عليها فى آن . وكانت مشغوفة ــ بشدة وشوق ــ بالحياة من حولها ، زاخرة بالبصيرة الحصيفة والحكمة، يحركها باعث قوى خلاق يعتمل فى صميمها . أما أنها خلفت وراءها قليلا جدا من الآثار ، فلا لوم عليها ولا تثريب ، وانما اللوم يقع على جسمها الواهن الضعيف الهش ، وليس على الروح المتوقدة ــ التى تضطرم جذوتها فى داخلها ــ والتى لم تخمد ابدا حتى آخر دقيقة من حياتها .

---

(١٤) Journal, May 20, 1890.

٢٠

چيمس وعلم النفس

كان أول مؤلفات چيمس الكبرى هو « مبادىء علم النفس » الذى ظهر فى سنة ١٨٩٠ عندما كان المؤلف فى سن الثامنة والأربعين . وكان عملا فى غاية الأهمية ــ ليس فقط بالقياس الى چيمس ، ولكن بالنسبة لتاريخ علم النفس – ثمرة أكثر من عشرين عاما من الدراســـة والبحث والكتابة فى أثناء فترة حاسمة من مراحل تطور الموضوع الذى كرست نفسها له . ذلك أنه سواء اعتبر چيمس أم لا ، كواحــد من مؤسسى علم النفس الحديث ، ففى أى من الحالين كان موجودا ابان تأسيسه . وشعر فى نفسه بالحوافز التى أفضت الى تأسيسه . وفى هذا الصدد كتب من برلين الى توماس و . وارد فى خريف سنة ١٨٦٧ يقول :

« يبدو لى ان الوقت قد حان لكى يبدأ علم النفس أن يكون علما ــ لقد تم بالفعل عمل بعض التدابير والقياسات فى المنطقة الواقعة بين التغييرات الجسمانية فى الأعصاب وبدء ظهور الوعى بها (فى صورة مدركات حسية) وقد يأتى المزيد منها . وأنا مستمر فى دراسة ما قد سبقت معرفته ، ولعلنى أستطيع أن أفعل شيئا فيها . ان علمهولتز وعالما آخر باسم ڤنت فى هيدلبرج يجريان التجارب فى هـــذا الميدان ، وآمل أن أجتاز هذا الشتاء بسلام لكى أذهب اليهما فى الصيف » .

ولقد أشار چيمس فى العبارة السابقة الى أهم علامات « علم النفس التجريبى » الحديث . وكان فشنار(١) سبق أن نشر فى سنة ١٨٦٠ كتابه Elemente der Psychophysik وصاغ قانون ويبر – فشنار المشهور ــ الذى بالغ فى شدة وقوة ارتباط الحافز الجسمانى . وكان هلمهولتز قد عالج علم النفس عن طريق فسيولوجية الحواس . وكان ڤنت هو الرجل الذى فطم علم النفس التجريبى من هذه الأبوة الجسمية الفسيولوجية . كان يكبر چيمس بعشر سنوات ــ فى العمر وفى المنزلة الأكاديمية ، وكان ،

---

(١) Cf. also below, 331.

قد سبق له ان نشر فى سنة ١٨٦٢ مجلدا من الدراسات التجريبية عن ادراك الحواس(٢) ، وبدأ يلقى محاضرات عن «علم النفس كعلم طبيعى» .

وفى نفس الوقت تضافرت خبرة چيمس الطبية مع خبراته الشخصية على أن تغرس فيه اهتماما عميقا بعلم الأمراض النفسية الذى حول انتباهه تجاه المدرسة الفرنسية المعروفة بمدرسة تشاركوت(٣) .

ولقد اكتملت فيه عناصر العالمية السيكولوجية بميراثه المباشر من التقليد البريطانى المتمثل فى چيمس وجون ستوارت ميل ومودزلى وسبنسر وبين ٠

وحقيقة أن چيمس كان امريكيا تفسر الكثلكة العجيبة لعلم نفسه ــ لقد أفاد من الحركات الجديدة اليانعة فى علم النفس الألمانى والفرنسى والانجليزى دون أن يخضع نفسه اخضاعا كليا لأى منها ٠ واتساع دائرة معارفه وكثرة تنقلاته ــ بالنسبة للناس والعقل على السواء ــ مكنته من أن يغترف من كل تلك الولائم الحافلة وأن يجمع بين كل قيمها الغذائية المتعددة ٠

وبعد أن تشرب چيمس بالاتجاهات الحديثة فى أوربا ثم اتبعها بدراسات فسيولوجية وتجريدية من لدنه ، أصبح واحدا من أوائل المعلمين الأمريكيين الذين اعترفوا بوجود علم النفس كعلم مستقل ٠ وعلى الرغم من أنه لم يكن من سجيته ولا من خصائصه أن يدعى لنفسه حقا أو فضلا ، الا أنه أقحم فى نزاع عام حول مسألة السبق التى بالغ فى ادعائها من كان تلميذا له ٠ ففى أكتوبر سنة ١٨٩٥ نشر ج٠ ستانلى هول ــ الذى كان وقتئذ مديرا لجامعة كلارك ــ فى دوريته « مجلة علم النفس الأمريكى Journal of American Psychology » مقالا سرد فيه قائمة طويلة تحتوى أسماء الرجال الذين ارتبط بهم فى وقت أو آخر فى جامعة جون هوبكنز أو كلارك ، ثم أردف قائلا : « وتحت تأثير هؤلاء الناس وبفضلهم انشئت اقسام ومختبرات علم النفس التجريبى فى هارفارد ، وييل ، وفيلادلفيا ، وكولومبيا ، وتورونتو ، وويسكونسون ، وكثير غيرها من معاهد التعليم العليا » . وعندما قرأ چيمس مقالة هول الغريبة كتب له على الفور (١٢ أكتوبر سنة ١٨٩٥) رسالة مطولة قال فيها :

(٢) Beiträge zur Theorie der Sinneswahrnehmung.

(٣) James was attending Charcot's lectures in Paris in 1882 when he received news of his father's last illness.

« بصفتى أستاذ كرسى فأنا أقر بصراحة بنفسى كمعلم في المختبر وباحث . بيد أن شيئا من الاعتذار ينبغى أن يولى للنية الحسنة التى حاولت بها أن أقهر طبيعتى ، وللأعمال العملية التى أنجزتها . ومن هذه الأعمال — على سبيل المثال ادخالك وتوصيلك أنت للبحث التجريبى . بطرق في غاية السذاجة . هذا صحيح ولكن لعلك تذكر أنه لم يكن ثمة مكان آخر سوى هارفارد حيث كان يسنى لك في تلك السنين أن تحصل حتى على ذلك . وانى لأذكر أيضا أنى أعطيت مقررا متواضعا من المحاضرات في علم النفس في جامعة جون هوبكنز قبل ان يقدر لك الذهاب اليها بسنوات طويلة(٤) ، وكانت تلك المحاضرات مقصورة على علم النفس التجريبى . ولقد قيل لى انها كانت فاتحة عهد جديد هناك في تقرير الرأى .

وانا أدرك أيضا الى أى حد كانت تلك البدايات ضئيلة وهزيلة وحقيرة ، وانك وتلاميذك قد قطعتم شوطا بعيدا عنها في تلك السنوات الأخيرة . ولكنك الآن تتصدى للتاريخ ، ومن ثم فان البدايات جزء منه لا مناص من تسجيله ، اذ لا ينبغى أن يكتب التاريخ معكوسا ... في هذا العالم كل منا مدين للآخر بشىء . وانا مدين لك ولكلارك بدين عظيم ، ولو أن الأمر كان يتعلق بشخصى أنا فقط ، لكان لزاما على أن أتركك تقول ما تشاء دون اعتراض ، لأن السامعين والمتفرجين بصفة عامة — يعرفون الحقيقة ويرونها ، ولكن الخطأ في هذه الحالة التى نحن بصددها يظلم جامعتى ولا يصون ذمة التاريخ » .

والتاريخ المبكر لتعليم چيمس لعلم النفس هو بايجاز ما يلى :

ابتداء من سنة ١٨٧٢ ولمدة أعوام قليلة بعدها أعطى مقررات فى التشريح والفسيولوجى فى كلية هارفارد . وفى تلك المحاضرات أولى قسطا كبيرا من الاهتمام لفسيولوجية الجهاز العصبى وبعض الاهتمام للظواهر الطبيعية النفسية .

وفى سنة ١٨٧٥ أعلن عن مقرر من الدراسات العليا للخريجين عن « العلاقات بين الفسيولوجيا وعلم النفس » ، ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا المقرر أو ما يناظره — يعطى بانتظام . وبدأ تدريسه لعلم النفس على مستوى طلاب الكلية قبل التخرج فى ١٨٧٦ — ١٨٧٧ . وكان مجال هذا المقرر واسعا جدا يشمل علم النفس الفسيولوجى ، والموضوعات التقليدية للترابطيين ، والمشاكل الفلسفية مثل معرفة العالم الخارجى وحرية الارادة . والواقع أن محتواه يضاهى بالتقريب محتويات كتاب «مبادىء علم النفس » . ثم ان معظم وجهات نظر المؤلف تم تكوينها فى محاضراته وفى نقوده للكتب المقررة التى كان يفرض دراستها على الطلاب .

ومن الجلى أن چيمس كان يدافع عن الاعتراف بعلم النفس الجديد —

---

(٤) In 1878.

« جديد » فى معنى ربط نفسه حليفا للعلم وللفلسفة كذلك ، وفى الجمع بين طرائق الملاحظة والتجربة وبين طرائق التأمل والتمعن النظرى · وكان ذلك جبريا من التحديد الواضح · لأن علم النفس كما كان يعلم عندئذ فى الولايات المتحدة كان لا يمكن تمييزه أو فرقه من فلســـفة الروح · اذ كان يتضمن موجزا عن الحواس والترابط ، ولكنه كان ينصب أساسا على العمليات الأخلاقية والمنطقية العليا ·

فلا عجب اذن أن يجذب تعليم جيمس المبكر لعلم النفس الفسيولوجى فى هارفارد قدرا كبيرا من الانتباه · وفى اجابته المنشـــورة عن دعوى اسبقية ستانلى هول المشهورة قال جيمس ان المعمل السيكولوجى فى هارفارد نما ونشأ مرتبطا بتلك المقررات الجديدة :

« انا نفسى « انشأت » تعليم علم النفس التجريبى فى هارفارد فى ١٨٧٤ ــ ٥ أو ١٨٧٦ــ لقد نسيت أيها . ولمدة سنوات طويلة كان المختبر يحتل غرفتين من بناء مدرسة العلوم اكتظتا أخيرا حتى اختنقتا بالأجهزة والعتاد ، الأمر الذى تطلب نقل المختبر الى مكان آخر . وبعد ذلك فى سنة ١٨٩٠ صممت على نقله الى مكان جديد ، ودبرت بضعة آلاف من الدولارات وجهزت قاعة دان ، وادخلت التمارين المعملية كجزء منتظم من مقرر علم النفس لطلاب الكلية»(٥) ·

أما متى يمكن القول ــ على وجه التحديد ــ بأن معملا سيكولوجيا قد بدأ ، فهذه مسألة لا يمكن البت فيها على نحو جازم ، لأنه من المستحيل أن يحدد بالذات متى يصبح مختبر فســــيولوجى أو طبيعى ، مختبرا سيكولوجيا ، ولا متى تصبح مجموعة من الآلات والعتـــاد المنظمة والمستخدمة فى الايضاح أو البحث فى علم النفس ــ تصبح **مختبرا** · بيد أن معظم تعليم جيمس للطلاب على هذا المستوى كان بصفة رئيسية من الكتب ، ولكنه كان يستخدم الأجهزة كوسائل لتوضـــيح الدروس فى الفصل ، وكان فى نفس الوقت يشغل طلابه المتقدمين على مســـتوى الدراسات العليا بمشكلات تجريبية ، ويجرى هو قدرا معينا من البحث التجريبى لنفسه بنفسه ·

أما بالقياس الى ستانلى هول فكان قد بدأ دراســـاته العليـــا فى سنة ١٨٦٩ فى ألمانيا ، ولكن اهتمامه انصب أساســـا على الفلســـفة واللاهوت · وبعد أن قام بتعليم أشتات متنوعة من المواد الدراسية زهاء

---

(٥) Science, N.S., II (1895), 629.

أربع سنوات فى كلبـــه انتيوك ، جاء الى هارفارد فى سنة ١٨٧٦ حيث انتظم فى الدراسه لمده عامين . وارتبط ارتباطا وثيقا بچيمس فى دراسه علم النفس الفسيولوجى .

وعندما كان چيمس فى أوروبا سنه ١٨٨٠ لحق به هول فى هيدلبرج حيث خاضا معا فى مناقشات كلاميه كثيرة فى علم النفس . وعاد هول الى أمريكا فى نفس صيف ذلك العام . ودعى فى يناير سنة ١٨٨٢ الى جامعة جون هوبكنز حيث بدأ فى اعطاء مقرر منتظم (يشمل علم النفس التجريبى فى المعمل) فى الخريف التالى – أولا محاضرا ، وبعد ذلك فى سنة ١٨٨٤ كأستاذ . ثم دعى الى جامعة كلارك فى سنة ١٨٨٨ . وازاء هذه الحقائق، ماذا فى وسعنا أن نقوله بالقياس الى أسبقية چيمس النسبية فى المختبر وأسبقية هول ؟ لقد قال البروفسور لورنج عبارة يبدو أنها تجمل حكمة المسألة : « لا يوجد شىء يسمى « الأول » يمكن أن يكون الأول بالمعنى الحرفى أبدا – اذ يظهر دائما انه مسبوق بتوقعات وتقـــديمات » . ثم يضيف الى ذلك قوله « ومثل هذه التقديمات لا تنشأ انشاء ، وانما هى تحدث فحسب وتوجد . وكان مختبر چيمس واحدا من قبيـــل تلك التوقعات . لقد كانت أسبق ولكنها « ولدت » فى حين أنشأ هول مختبره . والفرق بين الايجاد والانشاء هو فرق فى مزاجى الرجلين »(٦) . وبعد حوالى خمس سنوات بعد هذا « الانشاء » (أو بعد عشر سنوات بعد « التقديم أو التوقيع ») . بفضل تأثير هارفارد وچون هوبكنز . وبفضل الدراسات المستقلة التى قام بها علماء النفس الأمريكيون فى ألمانيا : بدأت المختبرات والمعامل تتكاثر بسرعة . وما وافت سنة ١٩٠٠ حتى كان هناك خمسة وعشرون منها أو أكثر فى الجامعات الأمريكية . وفى سنة ١٩٠٥ نقل مختبر هارفارد من قاعة دان الى قاعة امرسون ، وكان هذا المختبر من أول المختبرات السيكولوجية – ان لم يكن أولها – التى صممت أصلا وبنيت لهذا الغرض .

على أننا عند الحكم على علاقات چيمس بعلم النفس التجريبى بصفة عامة ، ينبغى أن نتذكر أن هناك أكثر من معنى واحد للفظ « تجريبى » . ففى المعنى الواسع للفظ الذى يفيد اختبـــار الفروض على محك الخبرة والتجريب . فقد كان عقل چيمس غريزيا وبعمق – عقلا تجريبيا . فما

(٦) E.G. Boring, History of Experimental Psychology, The Century Company, 1929, 318, 507.

لا يزيد عن خمس كتابه « مبادىء علم النفس » يمكن أن يقال ـ انه حتى ـ يتصل بالعمل التجريبى للآخرين . أما انه كان لا يطيق قضاء ساعات طويلة فى مختبر ، فقد كان ذلك راجعاً لأسباب جسمانية ٠ وكونه كان لا يجنح الى استعمال القياسات الكمية ، فقد كان راجعا الى نزعته العقلية غير الحسابيه ٠

وأما أنه كان لا ينظم التجارب ويستمر فيها على نحو موصول لسنوات طويلة من المثابرة الجهيدة فقد كان ذلك راجعا الى قلة صبره ٠

والى هذا العجز المثلث أضيفت فكرة أن طريقة المختبر الجديدة لم تؤت نتائج هامة أو تسفر عن حلول يعتد بها .

وسواء أخسر علم النفس أم كسب بهذا العجز وهذا النفور ـ فمن ذا الذى يتسنى له أن يقول ذلك ؟ وكون الخاصية العجيبة لتأثير چيمس ـ راجعة اليها ـ الى حدما ـ يبدو واضحا ٠

لم يكن فى مقـدوره أن يقف فى المختبر ، ولكن كان فى مقدوره أن يتحرك وينشط فى الخارج ٠ ومثلما كان متحررا لا يقيد نفسه بأية حركة قومية ، فكذلك لم يقيد نفسه بأى طريقة ٠ كان ملاحظا حاداً نافذا ـ بشكل نادر المثال ـ للانسان الطبيعى فى كل نواحى حياته المتعددة٠ وكان صاحب خيال خصب حيوى صحيح ٠ وكان يستخدم أية حقائق يستطيع أن يجدها ، من ثم ، أو يجمعها من غيره من الملاحظين ، ويفسرها بعقلية متحررة ، ويكون صورة عن الطبيعة الانسانية لم تعقم بعد أربعين عاما ٠

٢١

تأليف كتاب علم النفس

فى يونية سنة ١٨٧٨ – فى ختام العام الدراسى الذى حول فيه مقرره العام الى قسم الفلسفة . وقبل زواجه بشهر واحد . تعاقد چيمس على كتابة « علم نفس » مع الناشر هنرى هولت ضمن « سلسلة العلوم الأمريكية » ، وأبى أن يتعهد بتقديم المخطوط فى ظرف عام واحد ، ولكنه ارتأى أن فى وسعه أن يعد المخطوط فى عامين . وبدأت الشكوك تساور هولت منذ وقت مبكر يرجع الى خريف سنة ١٨٧٨ ، وبدأ يلمح الى احتمال اللجوء الى هول أو مؤلف آخر من منافسى چيمس . وفى الواقع من الأمر – استغرق تأليف الكتاب زهاء اثنى عشر عاما – وانتظر هولت .

بيد أن علاقات چيمس بهنرى هولت لم تكن مجرد علاقات مهنية وتجارية فحسب . لقد كانت فعلا مهنية وتجارية ، ويظهر ذلك بكل جلاء فى المراسلات المتبادلة بينهما والتى امتدت الى فترة تبلغ عشرين عاما ، والتى اتسمت بطابع الصراحة من كلا الرجلين ، والتى يبدو فيها ما يحدث عادة من مضايقات بين الناشر والمؤلف وكيف يزعج الناشر المؤلف ، ويزعج المؤلف الناشر وهكذا دواليك ... ولكن هولت كان رجلا صاحب اهتمامات فكرية خاصة به ، مكنته أن يلاقى المؤلف الذى يعمل معه ثابتا فى مركزه وعلى أرضه هو ، ثم انه كان رجلا قادرا على الدعابة والفكاهة واللذع واللسع ، الأمر الذى كان يقع من نفس چيمس موقع الاستساغة وطيب النكهة – بلذة عظيمة .

وبين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٩٠ كان چيمس يعلم علم النفس باستمرار. والكتاب – كما يخبرنا هو فى المقدمة – نشأ ونما « مرتبطا بتعليم المؤلف فى قاعة الدرس »(١) .

ويعزى أسلوب الكتاب – الى حد كبير – الى طريقة چيمس الحية الفوارة والزاخرة بالجدل والنقاش فى التعليم – والى ما فيها من قوة

---

(١) Psychology, V

الاقناع ووفرة الحجج وفيض الايضاح وضرب الأمثال والسخاء فى الاستشهاد بالمؤلفين • ولقد كان تأليف كتاب « علم النفس » – على غرار كل مؤلفات چيمس – عملا شاقا متعبا • وكان چيمس سرعان ما يدب فى أوصاله التعب أمر أى جهد يبذله • ولما كان رجلا متعدد الاهتمامات ، وصاحب عقل نهم ، ونزعة خلاقة دافقة ، وقلب كريم شهم – فما أكثر ما كان يتعبه ويضنيه ويرهقه من أمره عسرا ! فاذا كانت العبقرية تتضمن تلقائية موصولة دافقة سيالة بلا فرك ولا حك ، فاذن لم يكن چيمس عبقريا . كانت فترات التدفق تتناوب مع فترات الجهد المضنى والسعى المؤلم • لقد كافح ، وقاسى وعانى ، وعلى الرغم من أنه أنجز الكثير ، الا أنه كان يبدو فى نظر نفسه وكأنه لم ينجز الا القليل • وكان يغلو فى الاعجاب ويبالغ فى التقدير – لما اعتبره كثرة خصوبة وانتاج معاصريه الأكثر موهبة ، والذين كانوا فى نظره يفوقونه فى الخصيصتين على السواء •

وعلى الرغم من أعبائه الأخرى – التى تنوء بها العصبة أولو القوة – وعلى الرغم من مرضه وقنوطه ونوبات فتوره وتململه وتذمره وتبرمه ، الا أنه مع ذلك مضى الى غايته بعزم وحزم ومواظبة – مضيفا فصلا الى فصل من فصول الكتاب •

وحتى سنة ١٨٨٢ – ١٨٨٣ • التى قضى منها چيمس سبعة شهور سويا فى الخارج • كان چيمس قد نشر ست مقالات يمكن أن يقال أنها اسهمت فى عمل كتاب « علم النفس » ، وان كان لم يضمن الكتاب غير مقال واحد منها بصورته الراهنة • وكان من أهم الحوافز الرئيسية لتلك المرحلة الأوروبية الحصول على فرصة مواتية لكتابة هذا الكتاب – دون مقاطعة • ولكنه فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ ، اضطر الى الاعتراف بأنه – على الرغم من أنه « كان يأمل أن يبدأ فى الكتابة حوالى مستهل نوفمبر » الا أنه « لم يكتب – بعد – سوى ست صفحات » • وفى باكورة السنة الجديدة انحسر الجزر وتحول الى مد ، ففى ٢٢ ، ٢٣ يناير سنة ١٨٨٣ – كان قد « كتب شيئا من علم النفس »(٢) .

والفقرة التالية مقتبسة من رسالة لزوجته حررها من لندن فى اليوم العاشر من فبراير سنة ١٨٨٣ :

(٢) W.J. to Renouvier, December 6, 1882, W.J. to H.J. 2, Januery 23, 1883.

« بالأمس كنت فى حالة مخاض — يعمل فى نفسى — بالحق السيكولوجى — حالة من تلك الحالات المحمومة التى تنتاب المرء عندما تنبجس الأفكار جمعا ، تجعل تنزع المرء نزعا من عالم المحدود والمتناهى . لقد كتبت كثيرا دفعة واحدة وبسرعة متهورة . وفى المساء — نظرا لوقوع الاختيار على للكلام فى نادى الخدمس ٨ — تلوت عليهم ما كتبت عن الفرق بين الشعور والتفكير » .

ويبدو أن هذا « الحق السيكولوجى » كان مادة محاضرات كونكورد لسنة ١٨٨٣ ، وركيزة مقاله « عن بعض ما أغفل فى علم النفس التأملى » الذى نشر فى مجلة العقل Mind فى سنة ١٨٨٤ . والذى وزع فيما بعد على فصول عديدة من كتابه (علم النفس) .

على أن تقدمه فى وضع الكتاب وعثـــا لسببين : أولهما سبب شخصى مرده الى وقته المحدود وقدرته المحدودة على العمل . كما سجل ذلك فى مثل هذه الفقرات التالية المقتبسة من رسائل بعث بها الى أخيه :

١٨ أكتوبر سنة ١٨٨٤

« لم يسبق لى فى حياتى أبدا أن بدأت عامى الدراسى بالكلية بمثل هذه الخفــة والنشاط ، وبمثل هذا القدر الضئيل من التوتر والضيق .. وفى مرجوى أن يتيح لى ذلك أن أفعل شيئا حيال كتابى « علم النفس » . ان يوم عملى قصير الى درجة محزنة ، ومع ذلك فسأبذل قصارى جهدى علما بأنى لا أستطيع أن أروض عينى على عمل أى شىء تحت ضوء المصباح دون أن أدفع الثمن غاليا فيما بعد ، وأحيانا يستبد بى الشغف للقراءة فى المساء الى درجة تبلغ فى شدتها حدا فى غاية القسوة » .

أول ابريل سنة ١٨٨٥

« اننى أمضى فى عملى كالسكين فى الزبد .. بكل ملاسة ويسر . وعيناى .. لا يمكنك أن تتصور أبدا مدى ما طرأ عليهما من تحسن .. لقد بدأت بداية طيبة فى الكتاب ، وسأعمل فيه باعتدال طوال الاجازة وفى مرجوى أن أفرغ منه بعد عام من الخريف القادم على سبيل الجزم . ويومئذ ينكسف نجم رواياتك الرومانتيكية »(٣) .

والمعوق الثانى لتقدمه المواظب كان صعوبة العمل ذاته . لقد أخذ على عاتقه أن يكتب — ليس موجزا للمعرفة السيكولوجية الراهنة ، وانما توسيعا واطالة ومدا ومراجعة لها . كان يجد « كل مشكلة محفوفة ومنتفشة بالمعوقات والسدود » تتطلب سنين « لتلطيفها وتخفيفها » . كل عبارة كان يتعين صهرها وطرقها « لكى تسبك فى أسنان الحقائق العنيدة التى لا تقبل التنقيص » . كان لزاما عليه أن يتغلب ليس فقط « على مقاومة الحقائق وعنادها » ولكن أيضـــا « على مقاومة وعناد

(٣) Reprinted from L.W.J., I, 242-3.

الفلاســـفة الآخـــرين » . لم يكن من « الهين ذبح الهلمهـولتزيين ولا الاسبنسريين » (٤) . لقـــد كان « علم » علم النفس فى حالة من التخلبط والتهويش والنقص . لدرجة أن كل فقرة كانت تعرض « امرا معقدا غير منتظر ولا متوقع » (٥) .

وبعبارة اخرى فان چيمس بين سنة ١٨٧٨ وسنة ١٨٩٠ لم يكن فقط يؤلف كتابا منظما عن علم النفس ، وانما كان يلاحظ ويرصـــد ويبحث عن فروض مقبولة ويعلن حربا جدلية عنيفة .

وشهدت سنة ١٨٨٤ نشر « نظرية چيمس ـ لانج » المشهورة عن الانفعـــال (٦) .

وفى سنة ١٨٨٥ كتب بحثه الهام عن « الحقائق الضرورية وآثار الخبرة » الذى أصبح الفصل الأخير من كتابه « علم النفس » . ووجده شتاء ١٨٨٦ ـ ١٨٨٧ ماضيا فى عمـــله « بيسر » ، يكتب بمزيد من المواصلة ، وقد فرغ من « كتابة ثلثى الكتاب » مؤملا اتمامه فى مدى عام واحد (٧) .

وكثير من الفصول التى فرغ من كتابتها تباعا ، أرسلت الى كروم روبرتسون لكى تنشر فى مجلة العقل Mind . فلما اقترب الكتاب من ختامه ، اصبحت مراسلات چيمس مـع ناشره هنرى هـولت ، كثيرة وغزيرة وضخمة الحجم وحادة . وكان هولت فى غاية الحساسية والتنبه لعادات مؤلفيه التى لا تتسم بطابع رجال الأعمال . كان يتلقى اللوم ويكيل اللوم بكل تسامح وتغاض . ومن ثم كتب مرة الى چيمس يقول له «رويس العزيز القديم » كان عندى فى المكتب « يعلن أن المحاولة الوحيدة لحياته هى « أن يتحرر من فضائل رجال الأعمال » . ومع ذلك فأنا أحب هـــذا المخلوق البرم اللعين » (٨) .

ذلك أن المؤلفين الذين كان هولت يتعامل معهم ـ لم يكن لهم فقط دستورهم الخاص بهم فحسب ، والذى كان يختلف عن دستور الناشرين،

---

(٤) Cf. above, 173.

(٥) W.J. to H.J. 2, April 12, 1887; L.W.J., 1, 269,

(٦) "What is an Emotion ?" Mind, IX.

(٧) W.J. to H.J. 2, April 12, 1887; L.W.J., 1, 269.

(٨) July 24, 1893.

وانما كان يؤمن تماما بأن دستورهم الأخلاقى كان أسمى وارفع . ولم يكن يستطيع اخفاء هذا الشعور – الا جزئيـــا – تحت قناع من المزاح والدعابة :

كامبردج ٢١ مارس سنة ١٨٩٠

« عزيزى هولت

الناشرون – شياطين – ما فى ذلك أدنى ريب . ما أسخف أن يهب المرء فى وجه الرصيد المجمع من حكمة الجنس البشرى ، ويظن أنه لمجرد أن واحدة منها تبدو لطيفة اجتماعيا ، فمعنى ذلك أن القانون الطبيعى العظيم قد كسر وأنه هو أيضا بشر بموجب معدرته المهنية . تبا لهذا الضعف . لن أقترف هذا الاثم مرة ثانية .

أما فيما يتعلق بالمخطوط ، فأعترف أننى فى عجب من أمرك لا أعرف لماذا تريد المخطوط برمته – فى يدك – قبل أن يبدأ الطبع ! . بعد انقضاء الأسبوع الحالى من الراحة ، سأكتب فصلا قد يستغرق ثلاثة أسابيع ويكمل الكتاب . وعندئذ سيكون هنالك حوالى ١٧٠٠ صفحة من المخطوط معدة للطباعة دون أن أمسها مرة أخرى . وسيتبقى خمسة فصول أو ستة تحتاج قليلا من اللمسات والاضافات ، وهذه يمكن لى أن أنجزها على أكمل وجه فى فترات مراجعة تجارب الطبع ، مما يمكن مراجعة التجارب أن تبدأ فى مستهل مايو حيث يكون الكتاب برمته كما قلت ، قد كتب بأكمله فيما عدا الفصول القليلة التى لم تراجع . ان الوقت ثمين جدا الآن ، بحيث اننى لا أرى أية مخاطرة فى المضى فى طبع المخطوط الذى تمت مراجعته . وفى الامكان طبع الجزء الباقى دون مراجعة ، وان كان من الأوفق أن ألقى نظرة ثانية عليه . اكتب لى وقل لى ما يقر قرارك عليه . اريد أن أمضى قدما الآن دون أقل تأخير ممكن .. لقد وجدت أننى فقدت العقد الذى ارسلته لى فى الربيع الماضى . ولم أحفل بفحصه عندئذ . بالله عليك ارسل لى عقدا آخر لكى أعرف التزاماتى .

صديقك دائما

« و م . چيمس »

نيويورك ٢ أبريل سنة ١٨٩٠

« عزيزى چيمس :

اذا « لم يكن الناشرون شياطين » فذلك مثال فذ على طول المعاناة فى البأساء والضراء وحين البأس . لدى أدلة هنا – ووعود صدرت منذ أعوام – بتقديم مخطوط لم يخرج ابدا الى حيز الوجود . ان رسالتك توضح صراحة ما سلمت به تسليما – وهو أن مخطوطك لن يكون معدا فى مستهل مايو . وطبعا أنت « لا تعرف لماذا اريد المخطوط برمته قبل بدء الطبع » . ولا جناح عليك ألا تعرف ذلك . فهذه أمور لا تدخل فى دائرة عملك . فاذا قدر لك أن تتحول تدريجيا الى شيطان مريد بسبب المزعجات والمضايقات التى يسببها المؤلفون من حين لآخر – فسوف تعرف كل شىء عن ذلك .

لم يسبق فى حياتى أبدا أن بدأت فى طبع جزء من مخطوط – بقدر ما فى وسعى ان أتذكر – دون أن أضطر الى وقف العمل قبل اتمام الكتاب ، ولذلك أكره الطابع على ان يحتفظ عدة الطبع كلها فى مكانها انتظارا للباقى ، الأمر الذى يعطيه أسبابا ويهيىء له

أعدارا (وهم دائما يستعملونها الى أبعد مدى) للتلكؤ والتواني واضاعة الوقت بالنسبة لنفيه المخطوط عندما يجيء ؛ ومن ثم يتأجل انجاز العمل ، وبعد حدوث كثير من الاحتكاكات التي ما كان أغنانا عنها لو ان الطبع لا يبدأ الا بعد أن يكون المخطوط برمته حاضرا .. ومن صميم الأمور التي تجعلني شيطانا هو اضطراري الى تقديم هذا التفسير المتعب مرارا وتكرارا . ومما يثلج صدري أنك « تريد أن نمضي قدما الآن دون أدنى تأخير ممكن » . ولكن تجنب ذلك — وصدقني أنني لا أقل عنك رغبة في ذلك — ضع بعض الثقة في حسرتي . وأكمل مخطوطك قبل أن تؤدي أي عمل آخر .

على أن خلقي الشيطاني لم يتطور ويزدد كثيرا ، بسبب المؤلفين الذين لا يكترثون بالنظر في عقود الاتفاق المبرمة بيني وبينهم ؛ وبسبب فقدها — مثلما يتطور ويزداد من جراء السبب الآخر ؛ ولهذا فسأكون ملائكيا على قدر الكفاية لكي أرسل لك نسختين أخريين من العقد أرجوك أن توقع على كليتهما وترسل لنا واحدة منهما . لقد وقع بصري حالا على عقد مذيل بتوقيعك الكريم تتعهد فيه باعطائنا ذلك المخطوط في يوم ١٢ يونية سنة ١٨٨٠ ومع ذلك فأنت — أنت — أنت ، يا بليد — تسبني وتعيب على أن أكون شيطانا .

ومع كل ، فأنا آسف جدا ، انك لن تحضر هنا وتتناول معنا العداء — ولكن لابد أن تجيء الفرصة في الوقت المناسب .

المخلص دائما

هـ . هولت ، شيطان محترف

كمبردج ٥ أبريل سنة ١٨٩٠

« عزيزي هولت :

وجدت رسالتك في انتظار مرجعي من نيوبورت . أيها الناشر المسكين ، الشريك المسكين ، الانسان المسكين ، الشيطان — سابقا .

لابد أن أولئك الواغش من المؤلفين قد فعلوا بك الأفاعيل ، وأمعنوا في الكيد لك والمكر بك في سالف أيامك بحيث أجبروك على مثل هذه الحملة . حسنا ، لقد أفدت درسا بأن أحطت علما بوجهة نظر الناشر . على أن السقطة المهلكة التي ترديت فيها هي أنك لم تدرك أنني طراز من المؤلفين جد مختلف تماما عن أي من أولئك المؤلفين الذين أعتقد أن تلفاهم ، وأن تلك الرشاقة — الرشاقة المتجسدة — هي باعث ونتيجة كل خططي وأعمالي . وليس من الانصاف أن تقذف بذلك العقد السابق في وجهي ، وأنت تعلم أو ينبغي لك أن تعلم أنه عندما انقضى أجل السنوات العشر أو ما يزيد عليها قليلا من وقت التوقيع عليه ، كتبت لك أنه لا جناح عليك من أن تحصل على رجل آخر ليكتب هذا الكتاب لك ، فلم أكن أدري عندئذ كيف يتسنى لي اتمام هذا الكتاب أبدا في الظروف والأحوال التي كانت قائمة ابان ذلك .

ولم أكن لأتردد في أن أعيد اليك هذين العقدين وعليهما توقيعي طيه ، لولا نقطتان : أولا ، الشرط القاضي بأن المؤلف « يتعين عليه اعداد » المادة للطبعات الجديدة من الكتاب « كلما طلب منه الناشرون ذلك » .. وثانيا : وجدت في العقد السابق اضافة بخط اليد تفيد بأنه عند صدور الكتاب فانك تتفضل بتسليمي عشرين نسخة بلا مقابل. وليس في ذلك أي اجحاف . ولكني كنت أحسب منذ أيام عدد الذين يلزمني أن أهدي

اليهم نسخا من الكتاب ووجدتهم ، على الأقل خمسة وعشرين ، ومعظمهم أساتذة هنا وفى الخارج .. دعنى أعرف رأيك فى هاتين النقطتين وسأوقع العقدين .

المخلص دائما

و م . چيمس »

نيويورك ٧ أبريل سنة ١٨٩٠

« عزيزى چيمس :

« الرشاقة » طيبة . ولا اريد أن ألقى بأى شىء فى وجهك ، ولكنى أقسم بروحى لست أفهم ــ بعد الاتفاق على أداء أمر معين ــ كيف أن اقتراحا بأن شخصا آخر ينبغى عليه أن يؤديه ، يحسب بديلا صحيحا عن أدائه ، ولكن ذنوبك الكثيرة ــ مغفورة ــ كما تعرف . لا تخش شيئا من ذلك الشرط الخاص بالطبعات الجديدة . لقد أثبتت الخبرة والتجربة أنه من المحتم الاتفاق حول هذه النقطة مقدما بشكل حاسم .. ولن نسىء استعمال هذا الشرط وتنفيذه بحذافيره معك ..

المخلص دائما

هـ . هولت » .

كامبردج ٨ ابريل سنة ١٨٩٠

عزيزى هولت :

اليك نسخة من العقد عليها توقيعى . لقد وجدت نسختك ثانية . وانى أضيف ــ حسب اقتراحك ــ الشرط الخاص بالعشرين نسخة من الكتاب ، وأترك الشرط الخاص بتقديم المادة الجديدة للطبعات الجديدة ، ولكنى أحذرك بكل صراحة بأننى لن أوافق على تقديم مثل تلك المادة الجديدة الا فى حالة واحدة فقط ــ حالة كونها لا تتضمن أية تضحية جارة . بوسعى أن أتصور نفسى بسهولة ــ غارقا فى عمل آخر فيما بعد ، وأننى قد بلغت حدا من الزهد فى علم نفسى القديم ، بحيث أجد أن اعادة معالجته عمل فكرى مستحيل . وفى تلك الحالة فسأنسم ذراعى بكل هدوء وأقول « لقد بلغ الكتاب أجله وانتهى زمانه ــ واذا كان لابد من أن يعاد طبعه ــ فليطبع على أنه نصب تذكارى تاريخى ، وليس كمعرض لعرض آرائى الراهنة » . لابد أن يحين وقت بالنسبة لكل كتاب لا يتسنى للمؤلف عنده أن يرممه على أى نحو . انما يعين عليه أن يكتب مؤلفا جديدا على الاطلاق .

المخلص دائما

و م . چيمس »

كامبردج ٩ مايو سنة ١٨٩٠(٩)

« عزيزى هولت :

لقد راودتنى الآمال بأنك ستقترح الانفصال عن « السلسلة » الشهيرة وتنشر الكتاب مستقلا عنها فى مجلدين . وعندئذ يمكن اعداد موجز لينشر فى السلسلة . اذا كان هناك

Reprinted from L.W.J., I, 293-4. (٩)

أى شىء أمقته فهو صفحة من ورق حقير يزيد عدد سطورها على المعتاد ومطبوعة بالحروف الصغيرة ، وأعتقد أن مشاعر المؤلف ينبغى أن تراعى الى حد كبير فى حالة العار الهائل الذى تمخض عنه حمل عشر سنوات .. لا يمكن أن يكون هناك من هو أكثر منى تقززا عند النظر الى الكتاب . لا يوجد موضوع يستحق أن يعالج فى ألف صفحة . لو أن لدى عشر سنوات أخرى لكان فى وسعى أن أعيد كتابته فى خمسمائة صفحة — ولكن الكتاب بصورته الراهنة — اما أن يكون كذلك أو لا شىء — مجرد حشد كريه تعافه النفس فى حالة تمدد وتورم وانتفاخ ، مفرط السمن كالمريض بالاستسقاء ، يشهد بحقيقتين لا ثالث لهما : أولا ، أنه لا يوجد شىء يسمى علم النفس وثانيا ، أن وليام جيمس غير أهل وعاجز .

المخلص — بشرط أن تكون عجولا .

و م . جيمس »

وتمت كتابة كتاب علم النفس فى شهر مايو ، وظهر الكتاب فى الخريف . وقضى چيمس الفترة بين هذين التاريخين فى كامبردج يصحح تجارب الطبع . وهذه رسالة لأخته تزودنا بلمحة عنه ابان تلك الفترة :

كامبردج ٢٢ يوليو سنة ١٨٩٠

« آليس الأعزة :

لقد ارتأيت — كما تعرفين بلا شك — أنه من الضرورى المجىء الى هنا منذ بضعة أسابيع وأعكف على تصحيح تجارب الطبع . والطابعون ماضون فى اغراقى ودفعى الى أن أطلب الرحمة الآن (لاننى سبق أن شكوت فى أول الامر من التأخير والبطء) بحيث أن كل بريد — أربع مرات فى اليوم — يحمل لى حزمة كبيرة . ولقد تحملت العبء — على ما يرام — حتى الآن . ولكنه عبء مؤذ للرأس والمعدة . وكل ليلة أحمل آخر دفعة وأرسلها من مكتب بريد بوسطون ، وغالبا ما لا أستطيع تناول عشائى قبل التاسعة مساء . أما فطورى كل صباح فعادة ما أتناوله فى بيتنا القديم بشارع كوينسى ، الذى تجددت واجهته وطليت بطلاء براق وأحدثت فيه تغييرات فى بعض أجزائه ، مما محا تماما كل الخواطر القديمة المتعلقة به . على أن المنظر من النوافذ ما زال كما هو فيما عدا أن الأشجار الخلفية والجانبية قد كبرت وسدت المنظر وأكاد أستقل بالبيت الآن ، والشخص الوحيد الذى يحتمل أن أراه هناك هو جيم مايرز(١٠) ، وانى لاعترف بانه مما يثلج صدرى أن ترحب بى تلك البقعة ثانية وتعرف مشيتى . حيطان البيت مشبعة بأناتى ودموعى — وتنضح بهمساتك وصرخاتك وزحيرك وعبراتك . ولكن ورق الحيطان الجديد — يلتصق بها التصاقا شديدا ولا يسمح لاى منها بأن تتبخر أو تشيع .

---

(١٠) The House at 20 Quincy St. has become the Colonial Club, where one of the most familiar figures was Hon. James J. Myers, Harvard 69, Speaker of the Massachusetts House of Representatives.

ولكن ... ها هو ذا موزع البريد قد أقبل يحمل تجارب الطبع . أربعين صفحة تجربة أولى ، وستا وخمسين تجربة ثانية على أن أفرغ منها وأرسلها كلها الليلة . الساعة الآن الثالثة والنصف — ومعنى ذلك أنى لن أستطيع طبعا . على أية حال ... لا مداعبات ولا مغازلات ولا عبث مع أمثالك ... بعد الآن ... وداعا وألف قبلة .

و . ج .

وبينما كان شعور چيمس فى اول الأمر هو الاحساس بالتعب والنفور والكراهة ... الا أن هذا الشعور سرعان ما تبدد بمضى الصيف وحل محله شعور سعيد عامر ببلوغ المأرب واتمام الانجــــاز . كان على وعى بأن مرحلة من مراحل حياته قد بلغت أجلها ، وأن عصرا قد انتهى ودخل فى ذمة التاريخ . وليس ثمة ريب فى أن معظم الكتاب . كان غير مستساغ القراءة من أية وجهة نظر انسانية » ولكنه مع ذلك شعر لدن رؤيتــــه « كوحدة » كما لو كان الكتاب « قطعــة مكعبة عفية قوية سخية الألوان» . هو — الذى اعتبر نفسه دائما « طيفا من الأطياف ، ضربا من الانقطاع . . . فى المنظر » قد تمكن أخيرا من كتابة كتاب كبير فى علم النفس — «وكتاب عظيم صالح بالقدر الذى تتيحه علوم النفس »(١١) .

---

(١١) L.W.J., I, 295-8.

٢٢

مصادر ومذاهب وأثر كتاب علم النفس

ان الذى يتصدى لمصادر كتاب چيمس « علم النفس » لابد أن تمتلىء نفسه روعة واعجابا بعددها وتنوعها • على أن هـــذا الفيض الزاخر من الروافد المساعدة ــ لم يكن من قبيل المصادفة ، ولا هو يتضمن أى افتقار الى الابتداع من جانب المؤلف • وانما هو أمر يمضى مع مفهومه لمجال علم النفس ــ المفهوم الذى وصفه عينا ــ « بالوظيفى » أو « الاكلينيكى » :

« اعتدنا أن نسمع كثيرا فى هذه الأيام عن الفرق بين علم النفس التركيبى وعلم النفس الوظيفى . ولست متأكدا من اننى أفهم الفرق ، ولكن من المرجح أن هذا الفرق له مساس بما اعتدت فيما بينى وبين نفسى أن أميز فيه بين وجهتى النظر التحليلية والاكلينيكية فى الملاحظة السيكولوجية .. فالمفاهيم الاكلينيكية ــ وان كانت أكثر غموضا من المفاهيم التحليلية ، الا أنها يفينا أكثر كفاية وايفاء وأكثر اعطاء للصورة الملموسة المحسوسة للطريقة التى يعمل بها العقل برمته . ومن ثم فهى أكثر لزوما وأهمية عملية »(١) •

وبعبارة أخرى فان علم النفس ، عند چيمس كان يعنى احاطة النظر بالانسان وفحصه فحصا شاملا كما يعرض نفســـه على الطبيب وعالم البيولوجى والمسافر والفنان أو القصاص . ومن ثم فقد كان چيمس على استعداد ورغبة لأن يتعلم عن الانسان من أى مصدر ــ بما فى ذلك علماء النفس الصالحون والطالحون على السواء •

وعلماء النفس الذين استقى چيمس من كتاباتهم الى أكبر حد كما يتجلى ذلك فى الاستشهادات والمراجع المذكورة فى كتاب علم النفس ــ هم سبنسر وهلمهولتز وڤنت وبين • فأما سبنسر وڤنت فقد استخدمهما وأفاد منهما ونبذهما فى آن • استخدمهما كمستودعين للحقائق وكنصوص للدرس والمناقشة ، ونبذ أفكارهما السائدة المميزة لهما •

ومن بين معاصريه الذين تأثر بهم أعظم تأثير ــ كان چيمس وارد من

(١ "The Energies of Men," Philos. Rev., XVI (1907). 1,2,

جامعة كامبردج ، وكارل ستامف، صاحبي أقوى تأثير عليه . وكلا الرجلين أصبحا له صديقين حميمين . وعند هذه النقطة يتوقف التطابق . كان چيمس ممتدا ، انتشاريا ، نيرا ، زاهي الألوان ، في حين أن وارد كان حاضرا دقيقا تحليليا ورتيبا . كان وارد يفتقر كليـــة الى المزاج العقلي المتطرف الذي كان من خصائص چيمس الجوهرية ، وفي كتابة « المبادىء السيكولوجية » الذي نشر بعد ثماني سنوات من موت چيمس ، لم يذكر الا قليلا عن مزايا چيمس ، وذكر الكثير عن « سخافاته »(٢) وثمة فرق مزاجي يفصل بين الرجلين فلسفيا ، على الرغم من حقيقة أن وارد ــ مثل دافيدسون وهوويســـون ، كان يدين بالتعـــددية . بيد أن الرجلين ظلا صديقين حميمين ، وكانا كثيرا ما يلتقيان قبيل نهـــاية حيـــاة چيمس عندما حمله المرض ومحاضرات جيفورد على السفر الى اوربا . اما عالم النفس التجريبي الأثير المفضل لدى چيمس فقد كان كارل ستامف الذي علم في ورتزبرج وبراغ وهال وميونخ واخيرا برلين . كان ستامف غملاجا يتميز بصفات التقلب والتغير والانطلاق التي كان چيمس يحبها ، وعلى الرغم من انه كان يصغر چيمس بست سنوات الا انه كان سابقا لاوانه ونابغا بالنســـبة لعمره ، وحصل على درجة الدكتوراه في سنة ١٨٦٨ وعمره لا يتجاوز العشرين عاما ، بحيث أن السبعينيات والثمانينيات وجدت الرجلين في نفس المرحلة من تطورهما العلمي والأكاديمي . ولقـــد تلقى ستامف تعليما فلسفيا كاملا وظل فيلسوفا طوال حياته . أما أول مؤلف له في علم النفس فقد كان عن الادراك الحسي للفراغ . وفي الديباجة التي اقر بها چيمس بفضل من سبقوه في هـــذا الميدان قال چيمس : « ستامف يبدو لي أكثر الكتاب ــ طرا ــ فلسفة وعمقا وأنا مدين له بالكثير »(٣) .

ويعزى ــ الى تأليفه لهذا الكتاب عن الفراغ ــ أن چيمس بحث « عن ستامف الأمين ذي الأنف المدببة » في براج في نهاية أكتوبر سنة ١٨٨٢، وبعد أن تحدث معه لمدة اثنتي عشرة ساعة في مدى ثلاثة أيام خرج من عنده وقد صمم على أن يشغله بالمراسلات (٤) .

(٢) He declares James's treatment of the emotions and the self to be absurd, and these are the only doctrines of James which he treats at length. (Cf. Psychological Principles, 1918, 379, 270.)

(٣) Psychology, II, 282. Stumpf's work was Ueber den psychologischen Ursprung der Raumvorstellung, 1873.

(٤) W.J. to A.H.J., September 24, 1882; L.W.J., I, 211, 212.

وقد بدأت هذه المراسلات على الفور ، واستمرت تنتابهـا من حين لآخر فترات من الفتور والحمى حتى موت چيمس . وكان لا مناص من أن التعاون الفكرى بين العالمين يضمحل ويهبط بمرور السنين ، ولكن حرارة الود والصداقة الشخصية بين الرجلين لم يصبها أى فتور ، ولما انتقل چيمس الى ميادين الأخلاق والدين والميتافيزيقيا حاول بحميته المعهودة أن يحمل ستامف معه . وبصدد الحديث عن كتاب «مبادىء علم النفس» باعتباره ينجنب نظريات التفسير الروحية والترابطيـة أو غيرها من النظريات الميتافيزيقية كتب چيمس :

« فى هذه الوجهة النظرية الوضعية البحت تكمن القسمة الوحيدة منها التى فى وسعى . . . ان ادعى الابتداع » (٥) .

وعلى الرغم من هذه الدعوى فان أية مقارنة بين كتاب چيمس « علم النفس » وبين اى كتاب آخر او معاصر يدعى أنه يعالج علم النفس ؛ هذه المقارنة تكشف أن چيمس استقى من المادة الفلسفية الموجودة بسخاء مع استقلال فى الرأى ٠

وصادف تأليف كتاب علم النفس ــ چيمس ولديه نظرية عن المعرفة نصف كاملة . فاذا كان عليه الا يصب تفلسفه فى علم النفس ، فعليه أن يعقد هدنة ٠ وبعبارة أخرى فان فلسفته الوضعية لم تكن مجموعة من الفروض الكاملة السابقة المحكمة المدبرة لعلم النفس ، وانما كانت نوعا من التسوية أو المصالحة قصد بها أن تعطيه مهـلة مؤقتة تريحه من التفلسف ٠ وهذا يفسر قوله فى سنة ١٩٠٠ « أعترف أننى فى أثنـاء السنوات التى مرت منذ صدور الكتاب ، أصبحت مقتنعـا أكثر وأكثر بصعوبة معالجة علم النفس دون ادخال مذهب فلسفى صحيح ومناسب» (٦) على أن وضعية چيمس السيكولوجية كانت لها معنى ايجابى لا مجرد معنى سلبى ، كانت مجافاة صريحة للميتافيزيقيا ، ولكنها كانت تفضح ضربا من الجنوح نحو ميتافيزيقية طبيعية ٠ ولقد أفضى به كلا الحافزين ــ مثلا ــ الى تقبل النظرية المسماة بنظرية « قوس الانعكاس » ٠

وثمة مقالة نشرت فى سنة ١٨٨٨ تحتوى الفقرة الهامة التالية :

---

(٥) Psychology, vi.

(٦) Preface to Italian translation of Psychology, xi.

« ان المفهوم الوحيد – الذى يعتبر مجددا وأساسيا – والذى أثرى به البيولوجى علم النفس – ان النقطة الجوهرية الوحيدة التى تجعل علم النفس الجديد متقدما على القديم ، يبدو له أنه الفكرة العامة جدا والتى أصبحت شائعة ومألوفة جـدا الآن – القائلة بأن كل نشاطنا يرجع فى أساسه جذريا الى نوع من الفعل المنعكس ، وأن كل وعينا تصاحبه سلسلة من الأحداث أولها تيار وافد فى عصب حسى معين ، وآخرها يصب فى عضلة ما أو شريان أو وريد دموى أو غدة ... فاذا نظر اليها فى ضوء ذلك ، فان الأجزاء المفكرة والشاعرة من حياتنا لا تزيد على كونها منازل فى منتصف الطريق حيال السلوك ، ووفقا لهذا فان علم النفس الحديث يجنح أكثر وأكثر الى معالجة الوعى كما لو كان يوجد فقط من أجل المسلك الذى يبدو أنه يدخله ، ويحاول تفسير خصائصه (بقدر ما يمكن تفسيرها على الاطلاق) بنفعها العملى »(٧) ٠

وهكذا استصوب چيمس نظرية « قوس الانعكاس » لأنها فى حين انها تدخل العقل الى محتوى الطبيعـة فهى فى نفس الوقت تعترف بتلك الصفة من الغرضية التى تميز العقل ٠

فاذا انتقلنا الى مبادىء چيمس السيكولوجية الأكثر نوعية ، فينبغى ان نعطى أول مكان « لتيار التفكير » (٨) . أن أكبر علامة دالة على « اغفال علم النفس التأملى » كما رآها چيمس ، كانت الحالة المتعدية أو النسبية ، التى اذا أدركت ادراكا كافيا تعطى الوعى مظهرا من الاستمرار الشبيه بالجريان المتصل للتيار المائى ٠ وباستثناء فكرة اعتماد المعرفة على الارادة فقد كانت هذه هى أهم بصائره على الاطلاق ، ذلك أنها كانت تتضـمن نبذا «للترابطية» وتدل على انفصام حاد من التقليد . وهذا المذهب يتغلغل فى نسيج الكتاب برمته ، وكان چيمس يشعر أنه جديد وهام .

ويلى ذلك فى المرتبة الثانية من مبادىء چيمس الأساسية – مذهبه المعروف « بالخلقية الأصلية » ، وهو اصطلاح عام توسـع چيمس فى استعماله بمعنى الاتجاه الى وضع مركز الثقل على ما هو فطرى وأصلى بدلا مما هو محصل ومكتسب ٠ ولقد اتخذت ذلك شـكلين : أولا ، تحت تأثير داروين ، حظى العقل البشرى بنصيب سخى من الخلال والاستعدادات الفطرية . وثانيا كان يعتقد بتنوع واختلاف وتعدد واخصاب الخبرة الأولى ٠ وكان مرتابا فى امكان توليد خبرة من الأخرى ، لأنه كان حاد الانتباه والادراك للخصائص الفريدة لكل خبرة على حدة ، ولم يكن يشعر

(٧) "What the Will Effects," Scribner's, III (1888), 240.

(٨) His "radical epmiricism" is a philosophical application of this doctrine.

بالحاجة الى مثل ذلك السياق التوليدى . لأنه كان واثقا من وجود الخبرة المستقة بين الخبرات الأصلية .

ومن الجلى ان بذرة نظرية چيمس الشهيرة القائلة بأن الانفعالات هى صهر وامتزاج واتحاد من الأحاسيس العضوية تثار بالتعبير الجسمانى – بأننا « نشعر بالحزن لأننا نبكى ، وبالغضب لأننا نضرب، وبالخوف لأننا نرتجف »(٩) – هذه البذرة غرست فى عقله فى تاريخ مبكر جدا . وكان هناك تأثيران عامان أفضيا به نحو هذا الاتجاه ، أولهما تأثير داروين الذى جنح به الى ربط الانفعالات بالغرائز ، والى توكيد الناحية البيولوجية فى التعبير الانفعالى . وثانيهما تأثير التجريبية البريطانية التى جنحت به الى توكيد الجانب الحسى للمحتوى العقلى .

ولقد جذبت الانتباه كثير من فصول وفقرات كتاب علم النفس ، وغالبا ما كانت مستحقة للتنويه ونافذة التأثير – لا بسبب أى ابتداع سيكولوجى فيها ، وانما بسبب تألق الأسلوب واشراقه ، وغزارة الشواهد الملموسة التى بعثت حياة جديدة فى موضوع قديم قدم الدهر . كان ذلك هو الشأن مثلا فى المناقشات الخاصة بالعقيدة والغريزة . بيد أن أبلغ الحالات دلالة فى هذا الصدد كانت الفصل الشهير عن العادة . وفى رسالة بعث بها الى روبرتسون أشار چيمس باستخفاف الى أول مقال عالج فيه هذا الموضوع ، فوصفه بأنه « مجرد قدر للغلى رقد فى قمطرى طويلا بعد أن كتبته . . لا جديد فيه ، لذلك أنصحك بشدة ان تقرأه »(١٠) .

بيد أن چيمس الفنان والمعلم ، الذى يجمع بين الحيوية والعقيدة الأخلاقية ، خلق عملا كلاسيكيا محبوبا لدى الجمهور . ولم يكن الأمر دون ارتباط بنجاح الكتاب ، ان الكتاب لابد أن يكون قد انبثق من عقيدة مبكرة لازمت المؤلف طوال حياته – عقيدة خاصة به تؤمن بالنتيجة الحميدة للنسق المطرد والأهمية التراكمية للأعمال الصغيرة . وعلى هامة الفصل الخاص بالعادة فى المقرر الموجز Brief Course كتب بخط

(٩) Psychology, II, 450. This theory is now commonly called the "James-Lange Theory," because the Danish physiologist C. Lange published a similar view in 1887. James first published his view in Mind in 1884, (What is an Emotion ?)

(١٠) The article, entitled "The Laws of Habit," was published in Pop. Science Mo., XXX (1887); W.J. to Robertson, March 19, 1887.

بده : « ابذر عملا ، تحصد عادة . اغرس عادة . تجن خلقا ، ازرع خلقا تنل مصيرا » .

وكان كتاب « مبادىء علم النفس » ناجحا في معنى غير عادى بالنسبة لكتاب علم – فلقد اتسعت دائرة قراءته ، ليس فقط من قبل علماء النفس الآخرين أو دارسى علم النفس ، ولكن من قبل أناس لم يكونوا معيدين بأى التزام لقراءته . ولقد قرىء الكتاب لأنه كان سائغ القراءة ، وقرأه أناس من كل طراز ونوع – وغالبا ما كانوا يقرأونه لنفس الصفات التى عابته فى أعين بعض علماء النفس المحترفين .

كان كتابا عجيبا يتميز بالسماحة واليسر ، ولأن مؤلفه رأى ذلك المدى الفسيح من الممكنات ، وكان مضيافا لها بلا ترتيب ، فان أى تطور لاحق فى علم النفس يستطيع أن يقتفى أثرا من الأسلاف هناك يربطه بسلسلة موصولة من النسب . لقد قيل ان هناك ثلاث مدارس لعلم النفس : «الوعيية ، واللاوعيية ، والضدوعيية»(١١) . اشارة الى المدرسة التأملية، ومدرسة التحليل النفسى، والمدرسة السلوكية. ومن السهل أن تجد المدارس الثلاث كلها مجتمعة فى چيمس ، ونفس القول ينسحب على مدرسة « الجشطالت » أو مدرسة « الأداء » أو المدرسة « الوظيفية » . ولقد دفع چيمس قدما بطريقة التأمل الباطنى التقليدية فى المدرسة البريطانية ، واستورد نتائج وطرائق المدرسة التجريبية من ألمانيا . وكان مهتما بعلم النفس التطبيقى وعلم النفس المقارن . والفصل الذى كتبه عن الغريزة كان بمثابة محرك قوى استحث علم النفس الاجتماعى. ثم ان منهاجه الطبى وتركيز اهتمامه على « الحالات العقلية الشاذة » أفسحا له مكانا فى تطوير سيكولوجية الشواذ والمرض النفسى . ومن ثم لقى كتاب علم النفس استحسانا وتهليلا من غير أرباب المهنة ، ومن المبتدئين ، ومن طلاب المواد الأخرى الذين كانوا يبحثون عن تطبيق معين لعلم النفس على مشكلاتهم الخاصة ، ومن دارسى علم النفس الفلسفيين أو غير الطائفيين الذين لم يصبحوا مدمنين لأية طريقة معينة فى البحث ، فى حين أن الكتاب فى نفس الوقت نظر اليه نظرة يشوبها شىء من الاستنكار والاستهجان من جانب التجريبيين المعمليين والترتيبيين من أصحاب السنن المطروقة ومن ضمن الذين قرظوا الكتاب – جورج سانتايانا الذى بعد أن علق على افتقاره الى التدقيق والنظام انتهى الى الآتى :

---

(١١) Grace Adams, "The Babel of the Psyche", American Mercury, xx (1930),463.

« ولكن من الحذلقة ، الأسى على فقدان الوحدة المنطقية فى كتاب غنى خصب حى بهذه الدرجة ، حيث تنفجر طبيعة كريمة سخية فى كل نقطة ، وحيث تناقش المشكلات الدائمة للعقل البشرى على هذا النحو من التواضع والحياء ، وبهذه الدرجة الفائقة من المتانة والرسوخ الموطد الموطأ ، وبمثل هذا الاخلاص العميق المحرك للعواطف »(١٢) ٠

على أن اتمام كتابه علم النفس فى سنة ١٨٩٠ دفع چيمس الى الجهر بآراء ليس فقط عن كتابه بصفة خاصة ، ولكن عن علم النفس بصفة عامة. ومن أهم الأحكام المشوقة التى أصدرها چيمس فى هذا الصدد ، ما كتبه فى صيف سنة ١٨٩٠ الى چيمس سالى ، الذى كان من سوء حظ جهوده ومحاولاته الباهتة فى علم النفس أن تكون معاصرة لعبقرية چيمس الزاهية :

« يبدو لى ان علم النفس يشبه الطبيعة قبل عصر جاليليو — ليس ثمة قانون أولى واحد يلوح فى الأفق بعد . وهى فرصة لجهبذ من جهابذة علم النفس فى المستقبل لكى ينال لاسمه شهرة أعظم من شهرة نيوتن ، ولكن من ذا الذى سيقرأ عندئذ كتب هذا الجيل ؟ لا أخال أن كثيرا سيقرأونها ٠ وفى غضون ذلك فلابد من كتابتها »(١٣) ٠

أما حكم چيمس بأن ما قدمه لعلم النفس سوف يحل محله ، ويستحق أن يحل محله ، علم نفس آخر أكثر « علمية » — فقد سبق أن أصدره فى رسالة بعث بها لأخيه ، ويبدو منها أن الموضوع كان يحتل مساحة كبيرة من تفكيره آنذاك :

« فى حدود « علوم النفس » الراهنة فالكتاب لا بأس به ، ولكن علم النفس فى حالة من القبلعلمية بحيث ان الجيل الراهن منها برمته مقضى عليه — ضربة لازب — أن يصبح ركاما بائدا لا يقرأ من سقط المتاع ، حالما تبدو أول بادرة صحيحة من البصيرة . وكلما كان ذلك أسرع ، كان أحسن ٠٠٠ بالنسبة لى »(١٤) ٠

ومن الواضح أن چيمس لم يتقبل علم النفس التجريبى لزمانه على اعتبار أنه دليل على حلول العصر الجديد ٠ فلا ريب أن ذلك لم يكن هو ما يبحث عنه . وصحيح انه من أول الأمر نظر باحترام — ولم يفقد هذا الاحترام أبدا — الى الحقائق والوقائع ٠ ولكنه بالنسبة لعلم النفس التجريبى شعر بنفور متزايد مرده الى أسباب جسمانية ومزاجية . كان

(١٢) Atlantic, LXVII (1891), 556.

(١٣) July 8, 1890.

(١٤) June 4, 1890, L.W.J., I, 296.

يفتقر الى القوة التى تعينه على قضاء ساعات طويلة فى مختبر او معمل لاجراء التجارب . وكان يعانى من ألم فى مستدق الظهر ينتابه من حين لآخر ويحول دون احتماله الوقوف ، وكان ما بعينيه من سقم يتدخل فى قدرته على استعمال الميكروسكوب .

وجنبا الى جنب مع صحته المزعزعة الخرعة كان يلازمه ضرب من القلب المزاجى مما أعياه وأعجزه عن الاستمرار فى نسق مطرد . ثم مع ذلك كله كان جيمس صاحب عقل رومانتيكى تواق الى المغامرة الجديدة ، نفور من التفصيل والتكرار . وكان انتقاله من النفور الى الازدراء سهلا وطبيعيا . وفى فقرة كالتالية من المستحيل تحديد أى من تلك الاتجاهات كان صاحب القول الفصل الذى يغلب عليه :

« ان النتائج التى تأتى من كل هذا العمل فى المختبرات تبدو لى انها تزداد سخفا وتفاهة وخيبة أمل . ان الذى نحتاج اليه بشدة هو الأفكار . ومقابل كل رجل عنده فكرة واحدة ، يجد المرء مائة لا هم لهم الا الكد والعناء بكل صبر وطول اناة فى تجربة لا طائل وراءها ولا أهمية لها »(١٥) .

وموجز القول أن چيمس لم يكره المختبر السيكولوجى فحسب . وانما انتهى الى الكفر بأى انتاج مفيد منه يتناسب مع الجهد المبذول .

ولكن ... هل أعطى چيمس أى شىء عوضا عن علم نفس المختبر التجريبى الذى بخل عليه باحترامه ؟ هل كانت لديه أية ارهاصات تومىء الى الاتجاه الذى يتقدم فيه جاليليو سيكولوجى ؟

ليس ثمة ريب فى أن چيمس كان يبحث عن علم نفس يفسر ويؤول ويشرح . ومن الجلى أنه كان يعتقد أن خير ما يرجى من تفسير عرضى هو ما تزودنا به علاقات العقل والجسم . وكان يشكو من علم النفس التأملى البحت بأنه مضجر — « مضجر — ليس من قبيل الأشياء الصعبة حقا — كالطبيعة والكيمياء — ولكنه مضجر وممل وشاق تماما مثلما يكون القاء الريش ساعة وراء ساعة مضجرا ومملا (١٦) .

وبعبارة أخرى فان چيمس كان ساخطا على مثل هذا العلم الدنس ، لأنه كان هينا جدا ، وهذا الهوان كامن فى حقيقة أنه يتحاشى مشكلة التفسير العرضى . لابد اذن من قوانين عرضية — لأجل التنبؤ والضبط — فى العلم العقلى — مثلما هو الحال فى العلم الطبيعى والا فلا .

(١٥) W.J. to Thoedore Flournoy, December 7, 1896; L.W.J., II, 54

(١٦) C.E.R., 343.

« بصفتها تشكل الحياة الباطنية لذوات الأفراد الذين يولدون ويموتون ، فان حالاتنا الوعيية أحداث وقتية تنبثق فى المجرى العادى للطبيعة - وعلاوة على ذلك فهى أحداث تقوم ظروف حدوثها أو عدم حدوثها من لحظة لأخرى - بكل تأكيد - وعلى الاجمال - فى العالم المادى الطبيعى . ليس هذا فقط ؛ وانما هى أحداث ذات أهمية وخطورة لنا بالغتين من الوجهة العملية ، بحيث ان التحتم فى تلك الظروف على نطاق واسع يعتبر انجازا اذا وزن به التحكم الحادث فى بعض الشئون المادية فانه يبدو طفيفا نسبيا »(١٧) .

وفى سنة ١٩٠٦ ألقى چيمس محاضرة أمام نادى علم النفس بهارفارد، ومن يرجع الى مذكراته الخاصة بتلك المحاضرة يقرأ الآتى : « عندما كنت طالبا أتعلم علم النفس ، كنت دائما لا أعتبره ألا جزءا من العلم الأكبر للكائنات الحية ... ان علم النفس الرسمى جزء صغير جدا » . ثم مضى چيمس فى تفصيل خصائص علم نفس « ثابت » أو « وظيفى » يتعين عليه - بعد أن يتم له اكتشاف القوى التى تتحكم فى الحياة الخلقية والدينية - أن يصطنع طريقة للتحكم فيها وضبطها . وفى نفس السنة دعا چيمس الى دراسة « دينامية النشوء » فى كلمة الافتتاح عن « طاقات الناس » التى ألقاها أمام الرابطة الفلسفية الأمريكية :

« ينبغى علينا - كيفما كان - أن نتزود بتخطيط مفصل (طوبوغرافى) لحدود القوة الانسانية فى كل اتجاه يمكن تصوره - شىء شبيه بخريطة اخصائى العيون الموضحة لحدود المجال الانسانى للابصار . وستكون هذه الدراسة حتما - دراسة ملموسة محسوسة ثابتة - تدبر باستعمال المادة التاريخية وسيرة حياة الانسان - بصفة رئيسية . على ان حدود القوة ينبغى أن تكون حدودا قد لمست فى اشخاص واقعيين ، والطرق المتعددة لاطلاق منابع القوة ينبغى أن تتجلى فى حيوات فردية . هنا برنامج لعلم نفسى فردى ملموس فى وسع أى انسان أن يعمل فيه - الى حد ما . وهو برنامج مفعم بالحقائق الممتعة المشوقة - برنامج يشير الى مسائل عملية تفوق فى أهميتها أى شىء نعرفه »(١٨) .

وأخيرا ... وقبل سنة واحدة من وفاته ، رحب چيمس بالتحليل النفسى وهلل لأهدافه - حتى عندما كان لا يثق فى أنصاره كأفراد :

« اننى ارتاب بشدة فى أن فرويد بنظريته فى الاحلام كان علجا منتظما يهذى . ولكنى آمل أن فرويد وحوارييه سوف يدفعون بالنظرية الى آخر حدودها ، حيث انها بلا شك تغطى بعض الحقائق ، وسوف تضيف الى فهمنا « لعلم النفس الوظيفى الذى هو علم النفس الحقيقى »(١٩) .

---

(١٧) Ibid., 318-9.

(١٨) Philos. Rev., XVI (1907), 19.

(١٩) To Professor Mary W. Calkins, September 19, 1909.

بيد ان ذلك الذى أوصى الآخرين به هو عين ما اخذ جيمس على عاتقه أن يؤديه بنفسه ، فى مدى الوقت المحدود الذى كرسه بعد سنة ١٨٩٠ لعلم النفس • ولقد واصل اهتمامه بالبحوث النفسية وبعلم نفس الشواذ •

وتطبيق نظرية « الانتقال » على مسألة الخلود كان فرضا من فروض الدماغيين • وفى مقاله « طاقات الناس » وضح جيمس قوة العقل فى مقاومة التعب الجسمانى والتغلب على العوائق المادية • وكان مدار اهتمامه هو أنماط العقلية فى تمام اكتمالها ، على غرار تلك التى تتجلى فى الدين والحرب ، كما كان مهتما بعلم النفس التطبيقى وخصوصا بالتطبيقات الخلقية والتربوية • وفى كل تلك المقالات وضع نصب عينيه الرجل الكامل ، والتمس التفسيرات العرضية عن طريق ادخال الجسم والبيئة فى الاعتبار • ولم يشعر أبدا بثقة بأنه قد وجد مثل ذلك التفسير، ولكنه مارس عقيدته السيكولوجية وترجمها الى سلوك عملى •

٢٣

ربة كتاب علم النفس

عقب صدور كتاب علم النفس ، شعر چيمس بلا شك باحساس عميق من الفرج وبرغبة فى أن يرتع فى مراع أخرى . وصحيح أيضا أنه لم ينتج بعد ذلك أبدا اية مقالة ضخمة أو اى سفر جليل يتناول المشكلات الأساسية لعلم النفس . والى هذه الدرجة دعم حكمه الذى كتبه سنة ١٨٩٤ : « لا توجد صفحة واحدة زيادة من المؤلفات النفسية فى هذا الجهاز العقلى للطفل ... ان شهرتنا تبدأ فى البزوغ عندما تعدأ موهبتنا فى الأفول »(١) .

ولكن من الخطأ أن نحسب أنه هجر علم النفس — الآن أو فيما بعد . لقد استمر يقرأ فى المؤلفات والرسالات ، وكذلك فى المقالات والنبذ والمطبوعات الدورية . وكتب عددا كبيرا من الفحوص والتقريظات السيكولوجية — تبلغ فى جملتها خمسا وخمسين بين سنة ١٨٩١ وسنة ١٨٩٨ — لدرجة أنه عندما طلب منه فى سنة ١٨٩٨ أن يقرظ كتاب هنرى رانجرز مارشال « الغريزة والعقل » كتب الى المؤلف يقول :

« لقد اضطررت تحت قوة الغريزة والعقل — يعملان معا — أن أحمى واصون جسمى وروحى ، وأن أقلع عن تقريظ الكتب وأنبذه الى الأبد . لقد أتممت مدة خدمتى ونلت حريتى ، ويجب على أن استخدم ما بقى لى من عمر آخذ فى الأفول — فى أشياء طفيلية ، سفهية ، وغير قاطعة »(٢) .

وفى سنة ١٨٩٢ نشر چيمس كتابه المسمى « بالمقرر الموجز » أو الوجيز — وهو كتاب صغير — خمسا مادته جديد أو أعيدت كتابته ، والباقى « مقص ولصوق » . وعلى وجه التخصيص — وعلى مضض منه — أضاف فصولا عن سيكولوجية الحواس المتعددة . وكانت حوافزه — صراحة

---

(١) W.J. to Henry Rutgers Marshall (1894).

(٢) Ibid., November 22, 1898.

وعلانية – تجريبية بحت . ولقد تحققت توقعاته وأحس بقوة مسوغاتها عندما أصبح الكتاب وظل – لسنين طويلة – أوسع الكتب الانجليزية انتشارا بين الطلاب في هذه المادة .

وفي التسعينيات استغل چيمس شهرته الصاعدة الذائعة بأن ألقى عددا كبيرا من المحاضرات العامة . وكثير منها كان يتناول موضوعات أخلاقية وفلسفية ، ولكن كان منها سلسلتان من المحاضرات في علم النفس: أولاهما نشرت في كتاب بعنوان « أحاديث للمعلمين عن علم النفس »*** ، وهو مجموعة من المحاضرات ألقيت أصلا في كامبردج سنة ١٨٩٢ ثم أعيد القاؤها بعد ذلك في أجزاء مختلفة من أمريكا . وأما الثانية فكان عنوانها « الحالات العقلية الشاذة أو غير الطبيعية » . ولقد ألقيت هذه المحاضرات – أول ما ألقيت أمام معهد لوويل Lowell Institute في سنة ١٨٩٦ ، ولم يقدر لها أن تنشر أبدا .

ومقدمة ومحتويات كتاب « أحاديث للمعلمين » كما ظهرت في صورتها النهائية ، توضح بأجلى بيان كيفية تفكير چيمس في أفضل الطرق التي يستطيع العالم النفسي أن يخدم بها المعلمين – ليس عن طريق تأويل وتفسير علم النفس في اصطلاحاته الفنية كعلم – ولكن بتمكين العلماء من أن « يتصوروا – اذا أمكن – من أن يتمثلوا وجدانيا في اخلادهم الحياة العقلية للطالب الذي يعلمونه – بأعتبارها الوحدة الناشطة العقلية التي يشعر الطالب نفسه بها في قرارة نفسه (٣) . وفي هذه السلسلة لا نجد فقط صدى لما جاء في كتاب علم النفس ، وانما نجد أيضا ذكرى لتلك الأيام الخوالي عندما كان هو نفسه الطالب الذي يتعلم – وتعلم شيئا عن الحياة العقلية لمعلميه .

لقد اهتم چيمس اهتماما صادقا وحانيا وبصيرا بعمل المعلم ، وأسهم اسهاما أساسيا في تطوير وانماء علم النفس التربوي . وكان لنبذه لفكرة امكان انتقال أثر التدريب في الذاكرة – أي اعتقاده بأن خاصية أو قوة الحفظ العامة غير قابلة للتغيير أو التبديل ، وأن المرء لا يستطيع تحسين ذاكرته الا في مجالات معينة بالذات – بأسلوب المرء في معالجة موادها –

(***) « أحاديث للمعلمين عن علم النفس » قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بنقل هذا الكتاب الى العربية . ترجمة الدكتور محمد على العريان . الناشر عالم الكتب .

(٣) T.T., iv.

كان لنبذه لتلك الفكرة أثر يستحق الذكر والتنويه · ولعل الأهم من ذلك ــ وبسبب علاقاتها ومساسها الاوسع بالتعلم ــ كانت فكرة چيمس الخاصة بوضع مركز الثقل على الشغف والأداء وتوكيد أهميتهما فى عمليتى التعليم والتعلم · فالطالب ــ مثله كمثل غيره من الكائنات الانسانيه ــ جهاز تفاعلى بالفعل ورد الفعل ــ جوهريا وحتما ، ومن ثم فان هذا الجهاز لا يمكن أن يتأثر الا ببواعث وحوافز مناسبة لقابلياته واستعداداته الراهنة ــ والتى لابد أن تشكل ــ لامناص ــ ونتيجة لرجوعها عادات تكيف أرجاعها المقبلة وتتحكم فى ردود أفعالها · ·

وفى خريف سنة ١٨٩٢ ، أقبل هوجو مونستربرج الذى كان قبلا احد طلاب ڤنت ، من جامعة فرايبورج لكى يريح چيمس من عبء الاشراف على مختبر هارفارد السيكولوجى · ومكث ثلاثة أعوام سويا ، ثم انقطع لمدة عامين ، عاد بعدهما لكى يبقى فى هارفارد حتى موته فى سنة ١٩١٦ · وكان چيمس معجبا بكيفية عمل مونستربرج واعتبره « أقدم عالم نفسى تجريبى فى ألمانيا ، مع التجاوز عن حقيقة كون عمره لا يزيد على ثمانية وعشرين عاما » · وكان معجبا أيضا بجرأة ومرونة عقله وبقوة أسلوبه· وعلى هذا فان چيمس فى سنة ١٨٩٢ عندما كان يبحث عن رجل لكى يحل محله مؤقتا كمعلم ، ولكى يصبح فى نفس الوقت مشرفا ــ بدلا منه ــ على المختبر السيكولوجى ــ اتجه « الى ذلك العالم النفسى القوى الصفى الفتى » « الشاب مونستربرج العديم المبالاة »(٤) .

وعلى الرغم من مونستربرج دأب على تهييج التجريبية واثارتها بين طلابه فى المختبر ، الا أنه مثل چيمس ، أصاخ السمع الى صوت نفير الفلسفة ، وسرعان ما أصبح أكثر شغفا واهتماما « بمبادىء » علم النفس مما هو باكتشاف حقائق جديدة · ولقد ذاعت شهرته فى أمريكا للوذعيته وبراعتــه واشرافه · ولاسهامه فى الشئون العامة ، ولكتاباته الوفــيرة الفياضة السائغة لدى الجمهور ، ولتطبيقاته التجديدية لعلم النفس على الصناعة والقضاء والطب الشرعى والطب ·

وعلى الرغم من أن چيمس احتفظ بوده واحترامه لمونستربرج ، الا أنه بكل تأكيد ــ أخلف ظنه من جراء تشتت اهتماماته · وفى نفس الوقت ، وبمضى السنين ، انبثق ــ لا مناص ــ البون الشاسع والفتق الذى لا يمكن

(٤) W.J. to H.J. [2], April 11, 1892; L.W.J., I, 318; Psychology, 11, 189, 500.

رتقه بين فلسفتيهما • وكانت المناسبة المباشرة لأول دعوة لمونستربرج لهارفارد ، هى تدبير چيمس لرحلة اوروبية اخرى . وفى مستهل يونيو سنة ١٨٩١ كتب چيمس لأخيه يقول :

ان العام القادم ... سيكون عاما مشرقا رائقا لانا سنأخذ « أجازتنا الدراسية » فى خامه ، وحسب نيتنا الآن فسنرحل الى الخارج ـ كلنا بقضنا وقضيضنا . يا لها من فكرة عذبة وأمل حلو يشرح الصدر وينزل السكينة فى القلب . ان « النشاط الانتاجى » الموصول يتطلب فترات من الترويح . ان القلوب اذا كلت عميت . « والقلب نفسه يجب ان يتوقف ليتنفس ، والحب نفسه ينبغى ان يأخذ قسطه من الراحة » .

على أن النتيجة أثبتت أنها « أقل عذوبة وسكينة » مما ظن وتوقع • لقد وعد نفسه « بأجازة مكينة » باحضاره الأسرة كلها الى القارة ، ولكنه اكتشف أن « الاستهلاك والهرش والعناء الحادثة من جراء التعرض المستمر للطفولة ودواعيها فى الغرف الضيقة والحيز المحدود الذى يتعين على المرء أن يتحمله ويكابده فى الفنادق — شيء لا يمكن تصوره الا بالممارسة الفعلية »(٥) . كانت فترة ذات مناشط متقطعة وشتى ، من رعاية الأسرة، والانصراف الى المجاملات الاجتماعية ، والانغماس فى الفن والأدب ، والقراءة والتفكير الفلسفى — الذى فى أثنائه — وبعد غطسة طويلة فى أعماق علم النفس — رفع رأسه فوق الماء ونظر حوله • ولقد نعم بفترات من الراحة والسكينة والترطيب استعادت روحه المعنوية فى أثنائها نشاطها وخفتها • واستغرقت الأسرة مدة الشتاء فى فلورنسا،ومن هناك قام چيمس برحلتين الى بادوا والبندقية • وفى بادوا مثل جامعة هارفارد فى الاحتفال بمرور ثلاثمائة عام على ذكرى جاليليو . « وكانت متعة عظيمة »(٦) . أما عن بادوا نفسها فقد كتب الى زوجته بخصوصها فى ٢ نوفمبر ما يلى :

« نادرا ما قضيت فى حياتى يوما — يماثل يومى هذا فى الرضا والامتنان ... والامتنان ليس مصدره غيابك ، (بل ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة — اذ لا شيء يشغلنى سوى رغبتى فى أن تكونى الى جوارى) ولكن مصدر الامتنان هو الخطوة الفائقة التى يخلعها هذا المكان على العصر • انها ترطبه وتلطفه كما يرطب الهدوء السمع ويلطفه أو كما يرطب الماء الدافىء الجلد ويلطفه • اننى أستسلم لايطاليا ، وأعتقد أن أى رسام مستعد لأن ينسلخ من جلده فى مقابل أن يهيم على وجهه هنا من بلد لآخر • ان المرء يريد آن يرسم كل شيء يقع عليه بصره فى مكان كهذا — وكمدينة فان فلورنسا فى المحاق بالقياس اليها • صحيح

(٥) To S. Hodgson, July 13, 1892.

(٦) To C. Stumpf, December 20, 1892.

أنها زاخرة بالمتاحف العمة والقصور والمعابد . ولكن الباقي ثقيل وكاتم للانفاس ، أما هنا فالمدينة برمتها وبكل شبر فيها تعطي للمرء بكل سحر وفتنة وجمال ــ لا عوج فيه ولا أمت ولا اصطناع ــ بطريقة تبلغ الذروة فى الجلال . الآن فهمت سمو جيوتو ورفعة شأنه . لقد جاشت الدموع فى عيني لدى رؤيته ما كلف هذا المسكين الصغير العتيد نفسه لكي يعمل بكل هذه الروح وبكل هذا المرح ... وانه لشرف للطبيعة الانسانية أن كثيرا من الناس يشعرون تحت وقع عراقته ونبوغه . انه رسام **خلقى** » .

ومن البندقية ، بعد أربعة ايام . كتب چيمس لأخيه .

« بالامس قضيت أربع ساعات فى الأكاديميه وطفت ببعض الكنائس ، وعما قليل سأذهب الى القصر الدوقى . وانى لأجد الأكاديمية أقل روعة مما استقر فى ذاكرتى ، وبنفسى نوع من الانطباع بأن صور ولوحات البندقية اقل تحملا لبلى الزمان من الصور واللوحات الفلورنسية . ان جيوفانى بلينى والفنانين المبكرين هم أخلد الفنانين طرا ــ مدق العالم ــ اللحم والدم ــ الشيطان ــ الاناقة والمقدرة الواعية ــ كلها تؤلف طبقة سميكة تطغى على غيرها . وعلاوة على ذلك فهى معرطة الحلاوة ولذيذة جدا . وأيا ما كانت فهى تقيد من المشاهدين أبصارهم . والأمر العجيب فيها أنه على الرغم من أن شهيتى لرؤيتها شهية ضارية ، فاننى لا اتذكر شكلها بعد ساعة واحدة من ادارة ظهرى لها . ليس ثمة أخيلة بصرية ــ يا له من عتاد لطيفلخبير عليم ذواقة ــ باعتبار ما سيكون . وعلى أية حال فالشيء الهام هو أن تكون قادرا على استعمال عينيك مطلقا ... اننى حقا أتمتع بهــذه النعمة بشدة » .

بيد أن چيمس كان أقل زهوا بمنجزاته اللغوية ــ كما يتجلى فى الفقرة التالية التى كتبها حالما عاد الى فلورنسا :

« ان قدرتنا اللغوية الايطالية فى الدرك الاسفل من الجهنمية والخبث ، والعجيب فى أمر الأهالى هنا هو اذعانهم المحزن لهذه اللغة وأشباهها التى يتلقونها منا جميعا معشر الأجانب ــ ان منظرهم يحرك العواطف ويثير الشجون . قرون من العبودية ولدت فيهم روحا تختلف جدا عن روح الجدل والبسط والازدراء التى يلقى بها الانجلوساكسونيون الأحرار هجمات الأجانب على لغة قومهم . »(٧) .

فلما انتقل چيمس الى سويسرا فى الربيع لخص زيارته لايطاليــا وما طرأ عليه من تغير فى المزاج فى رسالة بعث بها الى ستامف من ميجين يوم ٢٤ ابريل سنة ١٨٩٣ :

« لو قدر لك أن تشهد الفوضى التى قضيت فيها أسابيعى الستة الاخيرة ، لغفرت لى أى اهمال من جانبى . اجتماعات متوالية فى فلورنسا بلغت حدا من التطرف ، لدرجة

(٧) To Francis Boott, November 18, 1892.

ان زوجا من الشباب الامريكى حضرا ووسعا طفلا ... فى شعتنا ، اذ لم يكن هناك مكان آخر مناسب للحدث السعيد سوى شقتنا المباركة . ومن حسن الحظ أن زوجتى كانت قد حضرت منذ ثلاثة أيام ثم تركتهم محروسين — « الأم والطفل — فى خير أمان ورعاية » . فى نيتنا أن نقضى معظم الصيف فى انجلترا وقد اتخذنا طريقنا خلال سويسرا . نحن الآن فى البقعة المباركة ، والأشجار من حولنا وارفة الظلال فى أوج ازدهارها ، وسنمكث أسبوعين على الأقل قبل أن نواصل سيرنا ... أنا سعيد بأن قلت وداعا لمدن ايطاليا الحلوة ورميمها الخلاب — الذى سأحتفظ له فى جلدى بأرق الذكريات ، وان كنت سأشعر دائما فيه بأنى غريب . ان وجوه السويسريين الدميمة ، وملابسهم الشنيعة ، ولغتهم القبيحة ، تبدو لى لذيذة ، وفطرية ونقية ، وزاخرة بالصحة الانسانية ، وفياضة بالخير الأخلاقى . والهواء . وما أدراك ما الهواء — لا مثيل له فى العالم » .

وعاد چيمس الى كامبردج فى سبتمبر سنة ١٨٩٣ شاعرا بأن خمسة عشر شهرا كانت « أجازة طويلة جدا » بالنسبة لرجل مثله : « فالتعليم عادة ونظام ونسق اصطناعى الى حد كبير ؛ بحيث أن المرء يكاد يفقد عادته على الفور ، ويبدو أنه قد نسى كل ما عرفه على الاطلاق » . وعندما طلب من چيمس بالحاح أن يحضر المؤتمر الدولى لعلم النفس فى ميونيخ سنة ١٨٩٦ كان لا يزال تحت تأثير هذا الاحساس . وفى هذا الصدد كتب الى ستامف يقول (٨) :

« لقد أفلست ماليا من جراء رحلتى الأخيرة بصحبة الأسرة الى أوروبا ، وليس ثمة ما يمكن ان يسوغ سرعة تكرار العملية سوى الحاجة الى السفر للخارج من أجل صحتى . وعلاوة على ذلك فان كثرة سفرى الى الخارج يزعزع أمريكيتى (تلك الشجرة الرقيقة) ، وان كان ذلك ينبغى أن يوضع فى الكفة المقابلة للمزايا الفكرية والاجتماعية للمؤتمر . فليس بالأمر الهين أن يشعر المرء بالغربة فى وطنه وعقر داره . ولم أكد أشعر بأمريكيتى ثانية حتى اقبل هذا الاغراء . ان عبء عملى ثقيل هذا العام ؛ ولكن لا جديد فيه ولا يتطلب ابتداعا . وكلما كبرت سنى ازداد فروغ صبرى (وعجزى) عن التفاصيل ، وازداد تحولى نحو التجريدات الشاملة الفسيحة . بودى أن أرتاح من علم النفس بأسرع ما يمكن ، ولكنى أحاول فى الوقت الحاضر أن أحتفظ بعش مونستربرج دافئا لحين عودته ، التى نرجوها جميعا ، لانه برهن على أنه رجل كفء . وفى الحقيقة هو رجل لا غنى عنه هنا ولا يقدر بثمن . هنالك سجايا قيمة كثيرة — حتى فى أستاذ بالاضافة الى العصمة والتنزه عن الخطأ واذا تساوى اعجابنا برجل مع سرورنا برجل آخر فان مونستربرج يتساوى فى العصمة والتنزه عن الخطأ مع أى انسان آخر يدلى بدلوه فى ميدان فسيح كميدانه » .

على أن منشطين من مناشط چيمس ابان التسعينيات ساعدا على ربط اهتماماته السيكولوچية بشغفه المستغرق الآخذ فى الازدياد فى الأخلاق والدين والميتافيزيقيا . فأما المنشط الأول فكان اسهامه الموصـــــول فى

(٨) To Stumpf, January 24, 1894 and December 18, 1895.

« البحوث الروحانية » ، بيد أن هذا الاهتمام « بالبحوث الروحانية » لم يكن من قبيل الوهم والشرود والهوى ، وانمـــا كان اهتمـــاما مركزيا ونموذجيا . لقد نشأ فى دائرة كانت فيها البدع والضلال الدينى والهرطقة موضع تسامح بسوش أكثر من صحه المعتقد والتمسك بأهداف اليقين • فرجال من طراز أبيه وأصدقاء أبيه ، ممن كانوا ينجذبون الى المـــذهب الفوريرى ، والى الاشتراكية المتطرفة ، والى علاج المثل بمثـــله ، والى حقوق المرأة والغاء الرق ، والى مخاطبـــة الأرواح ، ما كانوا على الأرجح ليكون عندهم أية كراهة أو تعصب ضد الوساطة ، والبصر المغناطيسى ، ورؤية الأشياء غير المنظورة ، والتنويم المغناطيسى ، والكتابة التلقـــائية اللدنية ، وفتح المندل ، والعرافة بالنظرة البلورية • فمنذ صـــباه — وجيمس يتأمل فى مثل هذه « الظواهر » دون نفور او كراهه او صــد ، وبعقل مفتوح •

ولم تكن البحوث الروحانية سوى واحـد من امثلة كثيرة لشغف جيمس بجوب وارتياد السفلى العلمى . ثم ان تحرره من التعصب وخلوه من التحامل ضد نظريات أو شيع ذات سمعة مريبة — تحول الى شىء أكثر ايجابية على يد شهامته ومروءته وفروسيته • فلم يكن موقفه موقف التسامح فحسب ، ولكن موقف التفضيل والايثار لما هو محتقر ومنبوذ فى الحركات وفى الناس على السواء . كان العلم المعتقد بصحته لمجرد أنه معتقد — رمزا للغطرسة وانجاح التسولى المبتذل الذى يجنح الى المبالغة فى ادعاءاته والى اساءة استعمال قوته • وفى أى نزاع بين العلم وشقيق أضعف كان يبدو العلم فيه أن هو المعتدى . فكان جيمس لا يتوانى عن التدخل فى النزاع دائما • ومن ثم اقترح كشعار مناسب لمؤلف مايرز الذى طبع بعد وفاته أن تتصدره آية الكتاب المقدس .

"And base things of the world and things which are despised hath God Chosen, yes, and things which are not, to bring to naught things that are." (٩)

على أن جيمس كان يأمل أن البحوث الروحانية — مثلها كمثـــل الدراسات الأخرى للظواهر الشاذة — قد تلقى ضوءا على النظام المركزى والأسباب العميقة للطبيعة الانسانية • ولقد رأى فيها أيضا امكان علاج

(٩) L.W.J., II, 157. The motto was not adopted.

للآلام والمعاناة الانسانية أكثر شفقة ورقة . وكانت مرتبطة فى ذهنه بامكان البرء العقلى ، وهذا بدوره كان مرتبطا بأسقامه الشخصية والابلال منها .

ولقد أنشئت جماعة البحوث الروحانية فى سنة ١٨٨٢ ، سنه اقامة چيمس فى لندن ابان صلته الوثيقة بأمثال جورنى ومايرز وسيدجويك وزوجته - أولئك الذين يعزى اليهم أساسا فضل نجاحها . وأصبح چيمس عضوا فيها فى سنة ١٨٨٤ وظل عضوا فيها حتى وفاته . وشغل منصب نائب الرئيس زهاء ثمانية عشر عاما واحتل مقعد رياستها فى ١٨٩٤ - ١٨٩٥ و ١٨٩٥ - ١٨٩٦ .

أما الجماعة الأمريكية المناظرة لهـا فقد أنشئت فى سنة ١٨٨٤ ، وكان چيمس من مؤيديها والعاملين فيها .

وكان فريدريك مايرز - عند چيمس - ليس فقط زعيم الداعين الى البحوث الروحانية وقائد زمامها . ولكن خالق نظرية علمية جريئة . ألا وهى النظرية الأوسع للوعى الناقص المستور وراء الوجدان والوعى الزائد عدا الوجدان ، والتى تعتبر أن « جهاز الوعى برمته الذى يدرسه علم النفس الكلاسيكى ليس الا ملخصا أو اقتباسا » . ولكن فى حين أن چيمس شعر بأحر انعطاف نحو هذه النظرية ، الا أنه مع ذلك كان على وعى تام بأن دعائمها كانت غير مأمونة . وكما لاحظ ، بمناسبة نشر كتاب « الشخصية الانسانية وبقاؤها » الذى طبع بعد وفاة مؤلفه : « ان أسياخ الحديد الثاقبة للرمال الحية عددها قليل جدا لاقامة مثل هذا البناء وتوطيده »(١٠) .

على أن چيمس لم يكف أبدا عن الأبحاث الروحانية - النفسية . ففى سنة ١٩٠٩ نشر أعظم أبحاثه طموحا فى هذا الميدان فى صورة تقرير كبير الحجم عظيم الجرم عن "Mrs. Piper's Hodgson-Control" وبعد ذلك فى نفس السنة وقبل موته بأقل من عام واحد نشر مقالا لقى رواجا لدى الجمهور بعنوان « متيقنات باحث روحانى »(١١) .
The Confidences of a "Psychical Researcher'

(١٠) M.s., 163-4; W.J. to F.C.S. Schiller, April 8, 1903, for Schiller Cf. below. 301 ff.

(١١) Proc. of the Soc. for Psychical Research, XXIII (1909); and American Magazine, October 1909. Richard Hodgson had died in 1905.

هذا باختصار هو تاريخ اشتراك چيمس واسهامه فى البحوث الروحية . فالى ماذا انتهى ؟ وما هى النتيجة التى خرج بهـا ؟ أولا من المهم أن نذكر أن هذا المجال من البحث الخارج عن العلم تقريبا كان بالنسبة لچيمس موصولا بعلم المرض النفسى وعلم نفس الشواذ ومطردا معه . لقد رأى ظواهر ، مثل التنويم أو الاستهواء المغناطيسى ، ومثل انقسام الشخصية وتعددها ، تخرج من دائرة التدجيل والشعوذة والخرافة ، وتدخل فى حظيرة العلم ، ولم ير سببا يحول دون وجوب الاعتراف المماثل بالظواهر التى كانت لا تزال طريدة القانون . وقبيل انتهاء خريف سنة ١٨٩٦ بدأ فى اعطاء مقرر مؤلف من ثمان محاضرات عن « الحالات العقلية الشاذة » ألقاها أمام معهد لوويل ببوسطون . وكانت موضوعات المحاضرات هى :

١ ـ « الأحلام والتنويم المغناطيسى » .
٢ ـ « الهوس (الهستريا) »
٣ ـ « التلقائيات اللدنية »
٤ ـ « الشخصية المتعددة »
٥ ـ « المس الشيطانى »
٦ ـ « السحر والعرافة »
٧ ـ « التنكس والانحطاط »
٨ ـ « العبقرية »

ولم يقدر لهذه المحاضرات أن تكتب أبدا ، وانما المذكرات الباقية منها تبين غزارة مادتها ووفرة الأمثلة والشواهد الملموسة المحسوسة التى جعلتها سائغة لدى جمهور المستمعين .

ولقد صدرت عن چيمس الاشارة التالية الى الميدان الماثل وراءها فقال :

« (أنا) واقف على بوابة البحث الروحانى ـ التى قلت اننى لن أقتحمها . وأنا بالذات ليس عندى أى ريب فى أن معادلة الشخصية المنحلة ستقوم بتفسير الظواهر التى عرضتها أمامكم ... ولكن القول بذلك شىء وانكار أى مدى آخر للظواهر شىء آخر ، واحتمال حدوث قوى خارقة من المعرفة والدراية فى بعض الأشخاص أمر تفرره البيئة » .

وتبقى هنالك مسألة حكم چيمس النهائى على هذه الظواهر «الخارقة» المتبقية . كان مستاء من جراء المفظاظة والتبذل والفضيحة والافتراءات

التى كثيرا ما تصاحب « المظاهر » الوسيطية والروحية • وكان مدركا تماما لضروب النصب والاحتيال والادعاء التى كانت تمارس عادة ، وكان يعتبر القسط الأكبر من مزاعم الرؤيا والوحى ، والكشف » ، حشارة وقشاشا « ونفاية » • ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل ذلك فقد « وجد نفسه مؤمنا »(١٢) بأنه لابد أن « يكون فيها ثمة شيء » ــ فضلة من المعرفة الخارقه للعادة ، نمط من العقلية لا يقره العلم الارثوذكسى •

وبالاضافة الى ذلك فقد كان لدى چيمس فرض زعم أنه « قوى الاحتمال » ــ وهذا الفرض قوامه « أن هناك نسقا مطرد الاتصال للوعى الكونى ، وأن ذاتيتنا لا تبنى سوى أسوار عفوية فى مواجهته ، وأن عقولنا العديدة تغطس فيه كما لو كانت تغطس فى البحر الكبير الأم أو خزان مياه خضم » (١٣) •

على أن هذا الفرض لم تتحقق صحته فى أى معنى يجعله موضع التقبل من العلم • فلم تؤيده التجربة ، ولم يستطع أن يقدم أى أساس للضبط أو التنبؤ . ولقد تقبله چيمس كتعميم يكاد يرضى كل المطالب المتشعبة لفلسفة ما ، ويتعهد بتقديم حقائق الخبرة والحاجات الذاتية للموضوع الأخلاقى •

ولقد طبق چيمس نفس الفرض على موضوع الخلود • واستخدمه هنا فى ربط علم النفس بالدين . وفى سنة ١٨٨٨ القى چيمس « محاضرة انجرسول عن خلود الانسان » • التى نشرت فيما بعد تحت عنوان « الخلود الانسانى : اعتراضان مفترضان » • وأول الاعتراضين المفترضين كان حجة العلم بأن العقل متوقف على الجسم ومن ثم لا يستطيع أن يعيش بعده • ورد جيمس بأن حقائق علم النفس الفسيولوجى لا تتطلب الا اعتمادا « وظيفيا » للعقل على الجسم • ومثل هذا الاعتماد لا يتضمن بالضرورة أن المخ **ينتج** العقل ، وانما قد يطلقه فحسب أو **يسببه** **ويعتقه**(١٤) . وفى هذه الحالة فان المستودع الأكبر للوعى يظل على حاله

---

(١٢) M.S., 196 ff.

(١٣) Ibid., 204.

(١٤) This idea that the brain, instead of creating mind, merely strains and canalizes it, was an idea that James had long entertained, and an idea which seemed to him entirely congruent not only with the alleged phenomena of psychical research but with the mystical religious experience.

غير ممسوس بعد تحلل المخ ، وقد يحتفظ بآثار من تاريخ حياة انبعاثه الذاتى . ولقد داعب چيمس نفس الفرض فى رسالة بعث بهـا الى دافيدسون . ومن ضمن الاستعارات التى كان دائم الاستعمال لها (واحيانا مخلوطة) كانت الاستعارات الخاصـة بالضوء ـ « الاشعاع الأبيض للخلود » المبقع بقبة من زجاج مختلف ألوانه ـ « والبحر الأم الذى تقسمه الأخاديد أو الذى يفيض على حواجزه بطوفانه » (١٥) .

كامبردج ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٩٨ (١٦)

« عزيزى توماس :

لو أن لديك أقل شرارة من الخيال العلمى لرأيت أن البحر الأم ذو قوام غروى دبق ، وعندما يرشح أجزاء من كيانه خلال القبة ذات الزجاج المختلف الالوان فانها تلصق بشدة متشبثة بحيث لابد أن تهز نفسها بشدة هزا عنيفا لكى تتخلص منها . وحيث انه لا يوجد فعل دون رد فعل ، فان الهزة يشعر بها كلا العضوين ، وتظل مسجلة فى البحر الأم على غرار « كعب » دفتر الشيكات أو الصكوك ، بحيث يحتفظ « بذكرى » العملية . وهذه الكعوب تشكل أساس الحساب الخالد الذى نبدأه عندما يتحطم القبة الوشورية الشكل . هذه المسائل كما ترى فائقة البساطة وسوف تتكشف لك لو أن لديك قلبا أكثر تواضعا وأكثر قابلية للتعليم . ان كل أسئلتك التحاملية العيابة العقيمة ـ تصدر عن عتو فكرى ـ ما فى ذلك أدنى ريب ـ وهى أسئلة مجردة من أى رغبة صادقة للتعلم ، ولذلك لن أحفل بالاجابة عنها كلها . . . فى غاية العجلة .

المخلص

« و . ج . »

---

(١٥) H.J., 1899, 16.

(١٦) This letter has also been printed in J.S. Bixler's Religion in the Philosophy of William James. 1926, 152.

٢٤

إرادة الاعتقاد

فى سنة ١٨٩٩ ، فى اليوم العاشر من سبتمبر ، كتب چيمس الى ستامف :

« أخشى اننى توقفت عن أن أكون عالما نفسيا وأصبحت مقصورا على أن أكون أخلاقيا وميتافيزيقيا » . على أن هذه المشكلات الأعمق عرضت نفسها أولا كمشكلات حياة لا كمشكلات نظرية ، الأمر الذى كثيرا ما دفع چيمس الى توكيد وتضخيم عقيدة صباه . بيد أن التحرر من الضغط والنظام اللذين فرضتهما عليه كتابة مؤلف علم النفس جعله مرة ثانية عرضة لهجوم الكآبة التأملية والغم المستغرق فى التفكير ، وشعر ثانية بالحاجة الى انجيل مخلص . وفى نفس الوقت اتسعت دائرة عواطفه الانسانية ومناشطه السياسية والاجتماعية على نطاق كبير . وكان ذلك ابان العقد الذى شهد الحرب الاسبانية وقضية دريفوس . وكلاهما حرك عواطفه الأخلاقية جذريا . ثم ان مناشطه فى البحوث الروحانية أحيت شغفه القديم بالتصوف الدينى ، وأعطته أملا جديدا لتسويغها . ولقد تآمرت كل هذه الأسباب لتجعل العقد من سنة ١٨٩٠ الى سنة ١٩٠٠ أو على وجه التحديد من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٢ ، هى الفترة التى شهدت تقوى چيمس وانجيليته .

والمجلد المعنون « ارادة الاعتقاد ومقالات أخرى فى الفلسفة الشائعة » كان يتألف من المقالات والمحاضرات التى سبق أن كتبها على فترات متقطعة من سنة ١٨٧٩ الى سنة ١٨٩٦ . أما المحاضرة الشهيرة التى اشتق منها اسم الكتاب فهى المحاضرة التى ألقاها فى سنة ١٨٩٥(١) .

والمذاهب التى يعرضها الكتاب تقع طبيعيا فى ثلاث فئات : فئة

(١) "... luckless title, which should have been "Right to Believe" (W.J. to F.H. Bradley, June 16, 1904.

تعالج – أساسا – الصدق العقلى والتعددية والذاتية . فأما الصـــدق العقلى فيمس نظرية المعرفة ، وأما التعـــددية فتمس الميتافيزيقيا ، وأما الذاتية فتمس الأخلاق ، ولكن فى كل الحالات الثلاث نجد أن النبرة الشخصية والعملية هى الغالبة .

وفى باكورة حياته ، فى فترة ربما تعود الى سنة ١٨٦٨ ، ســـجل چيمس الملاحظة التالية فى احدى مفكراته : « الفلسفات تدين بوجودها الى حافزين فى العقل : (١) الحافز الهادف الى الوحدة الفكرية أو التناغم الفكرى ، (٢) والحافز الهادف الى مضمون يتكفل باهتماماتنا » .

وفى يولية سنة ١٨٧٩ نشر چيمس فى مجلة العقل Mind مقـــالا بعنوان « عاطفة القوة العاقلة – The Sentiment of Rationality » أضاف اليها عبارة أن هذا المقال « هو أول فصل من مؤلف سيكولوجى عن الدوافع التى تفضى بالناس الى التفلسف » .

ولقد قسم چيمس تلك الدوافع ثانية الى فئتين :

« الدوافع النظرية أو المنطقية » « والدوافع العملية والانفعالية » . فأما الصدق العقلى فيقع فى الفئة الثانية من تلك الدوافع – التى تعبر عن « قوى الانسان الناشطة » وتحمل الاعتقاد الى ما وراء مادة الخبرة .

ولقد كان ذلك ذريعة للايمان والثقة بوصفهما مضادين للارتيـــاب والشك . وكون هذه الذريعة عبرت عن حماســـة وحرارة مزاج چيمس الشخصى . فانه هو نفسه آخر من ينكر ذلك . ثم هنالك أيضـــا ، ولا مراء ، ارتباط محقق بنشأته . فحقيقـــة كون چيمس لم يلتزم فى صباه بأى ضرب من ضروب التسليم أو سرعة التصديق أو فيض الايمان أو اليقين – فلم يكن هنالك ما يندم عليه أو يتوب عنـــه فى كهولته أو شيخوخته . ولكن فى حين أنه كان تواقا الى الاعتقاد الا أنه التمس ذلك الاعتقاد بشىء من التحفظ والكبح والاعتدال والأناة . كان يدافع عن قضية الاعتقاد بحميا وسورة ، لأنه كان يخـــاطب فئة « الدوائر الأكاديمية »(٢) الذين كانوا يعيشون فى الجو غير الطبيعى للمســـاعى العلمية . وكان يخاطب نفسه أيضا . لم يكن سريع الاعتقاد من النوع التسليمى ، ولكنه كان يعانى من الريبة وعدم الاعتقاد . كان معنيا من

---

(٢) W.B., X,

صميم صميمه بالحاجة الى الاعتقاد وبحق الاعتقاد ، ولكنه لم يستعمل هذا الحق الى اى مدى كبير .

ونفس هذه الروح من التجريبيه الخالية من الادعاء والتظاهر — هى التى استحثت چيمس على تثبيط حمىا الأصدقاء الذين حملوا مذهبه فى أصدق العقلى على محمل الجد جدا :

« اما فيما يتعلق بالايمان — فلا تعاملوه كاصطلاح فنى . انه يعنى فحسب ذلك النوع من الاعتقاد الذى قد يدين به الفرد فى حالة مشـــكوك فيهـــا — وقد يحمل احساسا « بالحرارة فى حلقك » — واستعدادا للنضال فى سبيله ، وضربا من الاباء الحماسى الحار الذى يرفض الهزيمة ، أو مايدانيها ، كما هى نفس الحالة عندما يطبق المرء على بعض الشئون العملية الخاصة بك أو على عقيدة دينية سواء بسواء (٣) .

فاذا فرضنا أن الاعتقاد قد تمليه تفضيلات طبيعتنا العملية ، فما الذى تمليه تلك التفضيلات ؟ ان الاجابة تكمن فى « التعددية » . على أن هذا المذهب بدوره ، يتعين تفسيره فى ضوء باعثه الذى يحركه . فهو ليس مجرد مذهب من التعدد وانما تعدد فى صلته ومساسه وتأثيره على المشاعر والقرارات الانسانية . وعلى هذا فان التعددية تعنى الها متناهيا يستدعى ولاء حارا لأنه — الى حد ما — معوق بظروف ومعول على معونة الغير أو بسبب كون شر العالم خارجيا بالنسبة له . فأولى أن يحب دون تحفظ . وچيمس فى مقاله الرائع البارع عن « معضلة الجبرية » التى تشكل جزءا من « ارادة الاعتقاد » لا يعنى بنبذ الجبرية بصفة عامة بقدر ما يعنى بنبذ الجبرية **الواحدية** . التى يتحتم فيها — لكون العالم كله قطعـــة واحدة — تقبله أو نبذه كوحدة . فالارادة الأخلاقية بالضرورة مشايعة — تدرك ما ينبغى أن يكون وتعترف به وتدفع به قدما — فى محتوى أشياء كان من الخير ألا تكون قائمة . وفى نطاقها تسعى بكل قوتها وطاقتها أن تجعلها كما لو كانت كأنها لم تكن أبدا .

ولكن الارادة الخلقية تحتاج الى بيئة تعددية لسبب آخر : ليس فقط لأن الخير يجب أن يتحرر من آى تسوية أو تراض متبـــادل مع الشر ، ولكن أيضا لأن ارادة خلقية ما ينبغى ألا تتراضى بالتبادل مع ارادة أخلاقية أخرى . ان صميم خير الحياة ذاته لا يمكن فصمه من وجـــه حريتـــه

---

(٣) To Mrs. Glendower Evans, July 29, 1897.

الخصوصية . ان العالم ضرب من « الوليمة الجمهورية ... حيث تحترم كل خصائص الوجود القدسية الشخصية لبعضها البعض الآخر ، ولكنها تجلس على نفس المائدة المشتركة للفراغ والزمان » (٤) . ومن ثم فان التعددية تتحد مع الذاتية . على أن تعددية وذاتية « ارادة الاعتقاد » لچيمس لم تكن فقط رباطا يوثقه بأصدقائه القدامى من أمثال دافيدسون وهوويسون . وانما جلبت له اصدقاء جددا .

فى سنة ١٨٩٣ جاء الى أمريكا الأستاذ ونسيننتى لوتوسلاوســـكى العالم الحجة فى فلسفة أفلاطون والجهبذ اللغوى والمصلح الاجتمـاعى ، ونصير اليوجا ، والبولندى المتعصب لوطنه . واخيرا البروفسور المشهور فى ويلنو . أقبل هذا العالم الى أمريكا ليحضر مؤتمر الأديان فى معرض شيكاغو العالمى ، وانتهز الفرصة وزار چيمس فى كامبردج . وكانت هذه السنة بداية التراسل المتبادل – الشخصى والفلسفى بين الرجلين ، والذى استمر حتى سنة ١٩٠٩ . ولقد اهتم چيمس اهتماما ودودا حارا بحياة صديقه المهنية وشئونه الشخصية ، واحتفى به فى بيته . وحاول موفقا أن يحصل له على دعوات للمحاضرة وغيرها من المهـــــام والوظائف فى أمريكا . وقرأ كتاباته وروج لها وشجعها ما استطاع الى ذلك سبيلا . ولقد هلل چيمس لفلسفته التعددية الذاتية ، ومذهبه الأخلاقى الباسل: « ثمة وداد حار يبلغ ذروة الكمال ، وحب وأخوة ، تشدو بأعذب الألحان خلال صفحاته »(٥) . بيد أن تحمس **لوتوسلاوسكى** وسورته وحميـاه زادت على حدها قليلا – حتى بالنسبة لچيمس : « هؤلاء السلافيون يبدو أنهم أعظم الناس تطرفا فى اعتصار نظرياتهم الى آخر قطرة فيها » مما أفقد النظريات نفسها معقوليتها وتقبلها الظـاهر بسبب اسرافهم وتبذيرهم .

وفى ســـــنة ١٨٩٩ زار **لوتوسلاوسكى** چيمس فى ناوهايم « وقـرأ عليه فى ترجمة انجليزية ارتجالية كثيرا من روائع الأدب البولندى » . ويعطينا وصف چيمس لهذه الزيارة – موجزا للفلسفة والفيلسوف كليهما .

« كان فى زيارتنا بولندى معجز اسمه لوتوسلاوسكى يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاما، وهو مؤلف لكتب فلسفية بسبع لغات مختلفة ... وملم بلغات أخرى عديدة ، وهو رجل

(٤) W.B., 270.

(٥) James's Preface to Lutoslawski's World of Souls, G. Allen and Unwin Ltd., 1924.8,

[illegible] وهو صاحب فلسفة [illegible] فلسفة [illegible] وهو يحصل على محصل الحد من [illegible] ما يعرف [illegible] Zoolo [illegible] والى الاجسام [illegible] انه رجل [illegible] Wunderlicher Mensch [illegible]

[illegible] ذكرتهم حديثا [illegible] في كتاب « ارادة الاعتقاد » كان بنجامين بول بلود من حي أمستردام [illegible] نيويورك — الذي كان قد استمع الى والد جيمس وهو يعظ منذ خمسين أو ستين سنة [illegible] « [illegible] الاسم الاسرد واستلطفه »(٧) [illegible] بنجامين بول بلود [illegible] ١٨٣٢ وعاش سنة وثمانين عاما • وفي أثناء ذلك الوقت [illegible] كثيرا ولكن بلا نظام ولا اطراد • وكانت وسيلته المفضلة في النشر هي كتابة الرسائل للصحف — وبصفة رئيسية الصحف المحلية ذات التوزيع المحدود . وكان بلود رجلا من الطراز الذي يروق الى [illegible] جيمس • سواء في مزاجه وأساليبه أم في مادة تفكيره • وكان فيلسوفا غير أكاديمي يكتب من أعماق خبرته أو من ضحالتها — سيان ، مطابقا أسلوبه لمحتواه • وكان صوفيا ، وهي خصيصة بحد ذاتها كانت خليقة بأن تمدحه لدى چيمس . ولكنه كان أيضا رجلا ذا قوة بدنية خارقة وواقعا بما فيه الكفاية تحت تأثير تنوع واختلاف وتعدد وتفاصيل هذا العالم لدرجة تجنح به الى التعددية بدلا من الواحدية •

وفي مقدمة كتاب « ارادة الاعتقاد » استشهد چيمس ببيانات من كتيب بلود « الصدع الفالج للسمو » ، ولقد أشار في تلك المقدمة الى المؤلف « ككاتب موهوب » وحليف تعددي (٨) .

The last three quotations are taken from W.J.'s letter to Frances R. Morse [illegible]
of September 17, 1899; L.W.J., II, 103.

Blood to W.J. August 9, 1882, "... The first man of genius I ever saw [illegible]
alive was Henry James. He preached at the Presbyterian church here." Cf. also
below, 352-363.

W.B., viii - [illegible]

أمستردام ١٨ أبريل سنة ١٨٩٧

« عزيزى الدكتور :

لقد ذهبت زوجتي الى الكنيسة ، واما انا فقابع فى مكانى متردد حول مزيد من المشكل فى محاولة بعض الانصاف لكتابك « المقالات » ـ التى قرأتها وأعدت تلاوتها مرارا وتكرارا كل يوم منذ [illegible] ... وتقول زوجتي ان هذه هي الشهرة التي نلتها في حياتي والتي لها أي فائدة ... انها معتبرة وناجحة . ولما أخبرتها بفكرتك عن « عاطفة القوة العاقلة » على اعتبار أنها [illegible] بسمات [illegible] ... الخ ... قالت ان فيها ما هو أكبر من ذلك ، شيء لابد أن [illegible] لكي [illegible] في [illegible] أي حماسة . ثم ضربت مثلا بما كانت تفعل بقولها : « اذا [illegible] الغد غداء [illegible] يوم الجمعة [illegible] أن تأكل كمية [illegible] الغد فى فطورك يوم [illegible] حاما نقيا صافيا لا عوج فيه ولا أمت . ولكني سأحتاج الى مادة تبلغ [illegible] لكي أقول لك رأيي فيه . لأن كتاباتك [illegible] فى [illegible] . وكل ما فيه [illegible] طول الخط [illegible] الأعوج التي [illegible] جدا . أما الأسلوب فلم يبلغ حد الكمال. [illegible] وانى [illegible] نوعا من اللامبالاة الملونة الدارجة التي لا يأتيها رجل يكسب [illegible] عيشه ، الا اذا كان حقا لا يبالي مطلقا سواء أعاش أم مات ...

[illegible] لقصد الكتاب الرئيسي : « التعددية » ـ أنا نعددى بكل سهولة وراحة ، ولا [illegible] الأدنى من الآلهة ، ولا أعتقد بأية نتائج حرجة أو خطيرة للوجود تتمم بالجلال والشمول ، فليس ثمة ختام ، ليس هناك درس واحد يلقن .. كل شيء يحدث في وسط الأزلية . كل الأيام ـ أيام قيامة وحساب ، وكل صباح ـ صباح خلق ووجود ـ فعلام كل هذا الدفع والهز واللغط والضجيج والعجيج ! علام كل هذه اللهفة والقلق التى [illegible] الرجل منا اذا ضاع منه يوم واحد ؟ . علام كل ذلك ، وفي عنقه أمانة يحملها ، وعنده اله يمجده . وبين جنبيه روح لن تموت أبدا ، وعليه خلاصها . وعليه التزامات خلقية تطالب [illegible] ـ علام ذلك كله وقد أستأصله من « سلالة رحم من رحم [illegible] »(٩) ، ذلك أن [illegible] الانسان [illegible] [illegible] التي [illegible] . أن الآلهة تصطلى على البروق ، [illegible] [illegible] الكريه ، [illegible] [illegible] . ليس [illegible] و أنه ما شيء صحيحا ـ على [illegible] [illegible] [illegible] الواحد يبقى ، والكثير يتغير ويمضى [illegible] »(١٠) ـ أن « معضلة [illegible] » هي أروع « قطعة [illegible] بارعة » فى كتابك ، وان كانت « عاطفة القوة العاقلة » ربما تكون أكثر ابتداعا ولكنها جميعا جيدة ولها مستقبل ، صحيح أنها سلبية ومحطمة للصور والتماثيل الدينية ، ولكنها قوية وفوارة . انك لا تبني ، وكيف يتسنى لك أن تبنى على أسس تجرى في كل اتجاه ؟ ولست متأكدا من أنك تعمم على الاطلاق ... لقد آمن العالم طويلا بالفضاء المحدود (الذاتى) وبوحدة الذكاء ، وبمجمع

---

(٩) Tennyson's "Lady Clara vere de vere".

(١٠) Shelley's Adonais.

وباسرة ، وجنة ، وواجب ، ونظام ، وبفرصة للشهرة يذيع صيتها بين الجمع ، ـ ليس عالما ولكن العالم ـ تحت ضبط وتحكم ـ كل حفائه وممكناته معروفة ومحققه ـ سـلام ماهلى ...

وحتى فى التعددية فى حد ذاتها فلا بد أن يتم ذلك فى وقت ما فى حين ما ، فاذا أردنا أن نحصل على كل شىء فلا بد أن نحاول الواحد لوقت ما ـ الى حين ، مهما أصبح ذلك الحين المؤقت باليا ومتبدلا حتى « ينفخ فى الصور » .

ان التعددية يصعب تجمعها فى نقطة مركزية ـ انها كالرمل أو الدقيق . انها مفهوم ضرورى ، ولكن الواحد كذلك مفهوم ضرورى سواء بسواء . وانى لأترك لك وللزمان مهمة التوفيق بين الاثنين . ولك الفضل الكبير فى أن دافعا حفزك الى الكتابة عنها ، وأنا شاكر لك تفضل السماح لى بقراءتها ... صدقنى لقد انعمت بنعمة جزيلة وحظ عظيم على صديقك المتواضـع .

بنج . بول بلود »

كامبردج ٢٨ أبريل سنة ١٨٩٧

« عزيزى بلود :

رسالتك ممتعة لذيذة أنيقة . ولكونك لم تقر ، بعد ، بوصول الكتاب فقـد بدأت اتساءل : يا ترى هل تسلمته أولا ؟ . ولكن هذا الاقرار الذى تضمنته رسالتك فيه الكفاية . اما فكرتك فغامضة ، ومضات من البرق ، لمحات مندفعة بسرعة السهم ـ ولكن هذا هو سبيل الحقيقة دائما فى انطلاقها . وعلى الرغم من أننى « أضع التعددية محل الفلسفة » الا أننى لا أفعل ذلك الا بقدر ما تعنى الفلسفة التبيينى والعلمى . فالحياة والصوفية تتجاوزان التبيينى ، واذا كان هناك الواحد (ويقينا لن يعظم الناس أبدا من فكرته) فلابد أن يظل التعبير عنه تعبيرا صوفيا فقط .

لقد طفقت آزمجر وأزأر مستشهدا ببعض أقوالك فى رسالتك التى طربت لها زوجتى بقدر ما طربت لها . نقودك الخاصة بانجليزيتى فى محلها ، وعلى العين والرأس اتقبلها بكل تواضع . أعلم أن بى جنوحا الى الافراط فى اللغة الدارجة ، وأنا أثق بذوقك اللغوى أكثر مما أثق بذوق أى ناقد آخر فى طول البلاد وعرضها . لدى عمل هائل فى هذه اللحظة ، على ان ألقى خطابا ـ بمناسبة ازاحة الستار عن نصب عسكرى (١١) ـ على مسمع من ثلاثة آلاف من القوم ، وعلى رأسهم المحافظ والفرق العسكرية الخ ... أما لماذا وقع اختيارهم على، فالله وحـده العليم بذلك . أما وقد اختارونى ودعونى للنزال ، فلن انكص على عقبى . والمهمة مهمة آلية ، والنتيجة تكاد تشبه انشاء صبى فى المدرسة . ولولا خشية أنها ستبعث فيك الملل والسأم لأرسلت اليك نسخة منها لتنقيحها من الناحية اللغوية . ولعلى بعد ذلك اتبعك فى كل تصحيح تشير على به . ما قولك فى هذا ؟

المخلص

و م . چيمس »

---

(١١) The monument to Robert Gould Shaw, unveiled in Boston, May 31, 1897. The address is published in M.S.

وبعد بضع سنوات كتب چيمس الى بلود :

« انك صاحب أعظم موهبة فى الثرثرة الفائقة منذ شكسبير » .

ولكن التماس چيمس من بلود لكى يراجع خطاب شو ظفر بالاجابة الفورية الحاسمة التالية :

« كلا وشكرا . ليست لدى البسالة الكافية لآخذ على عاتقى تحسين انجليزيتك ، التى هى بالنسبة للأغراض العادية ، سواء أكانت للدعاء أم اللعن ، لغة مفهومة وسائغة ، والحاصل عندى انها ذات سحر وفتنـــة وروعة خاصة بها » .

وعلى الرغم من أن مكاتبة چيمس لبلود اعتورها الفتور والذبول فيما بعد من السنين ، الا أنها لم تنطفىء وتنته ابدا . لقد ظل چيمس يبدى اعجابه بأسلوب بلود على الرغم من افتقاره الى التماسك والالتحام. وفى هذا الصدد كتب له چيمس فى سنة ١٩٠٧ : « فى الكلمات والجمل المفردة المعجزة البعيدة الرمية ذات الومضة الساطعة كخفق البرق ، فأنت أكبر عبقرى أعرفه ، ولكن عندما يتطلب الأمر بناء حجة كاملة أو انشاء مقال كامل ، اختلط حابلك بنابلك » (١٢) .

والبينة على مدى متانة صلة چيمس الشخصية وعاطفته الوثيقة نحو بلود تتجلى فى حقيقة ان آخر مقال كتبه چيمس ونشر فى أثناء حياته كان بعنوان « صوفى تعددى » ، ولقد كرس هذا المقال لفلسفة وعبقرية صديقه القديم . ومن الجلى أنه وجد فى هذا المفكر الهاوى الغامض « تحقيقـــا صوفيا لصحة التعددية » :

« أعترف أن وجود هذا الطراز الجديد من الصوفية شد قامتى وجعل حالة انحنائى تولى فرارا . اننى أشعر الآن بأن تعدديتى ليست بلا ظهير وسند من قبل التعزيز الصوفى . ان الواحدية لا تستطيع من الآن فصاعدا ان تدعى انها المستحق الوحيد لأيما حق قد تملكه الصوفية فى اضفاء الاحترام والهيبة والمقام » .

ولقد ذكر چيمس أن فلسفة بلود « ليست مختلفة عن فلسفتى » . وكان يرغب فى أن كلمة بلود « الأخيرة » كصوفى ، ينبغى أن تكون كلمته الأخيرة كفيلسوف .

---

(١٢) W.J. Blood, November 28, 1909, Blood to W.J., April 29, 1897; W.J. to Blood, March 13, 1907.

« فلتكن كلمتى الاخيرة اذن ــ باسم الفلسفة الفكرية ــ هى كلمته « ليس ثمة بت . فى أى بت وفض حتى نبت فيه ونفضه ؟ لا يوجد بخت يفتح ولا نصبحة تعطى ... جمعت الأعلام وطويت الصحف ــ وداعا .. »(١٣) .

ومن بين ناقدى « ارادة الاعتقاد » كان هناك ناقد واحد على الأقل عاب على چيمس ، ليس جراته ، ولكن حذره المفرط .

ان اعتقادا ــ عاما الى هذه الدرجة ــ ومسوغا بكل هــذا التدقيق والتأنق والقصد العامد ؛ ليس اعتقادا مطلقا . كان جون چاى تشابمان فى ذلك الوقت يشتغل بالمحاماة فى مدينة نيويورك ، وكان صديقا قديما لچيمس منذ سنوات كثيرة ومن أقرب المقربين لروحه .

نيويورك ٣٠ مارس سنة ١٨٩٧

عزيزى المستر چيمس :

ان شروط التفكير المنطقى ــ او قل حالة عقل امرىء يسوغ الاعتقاد بالاعتبارات التى تذكرها ــ لا حاجة عليه . انه يجعل نفسه قانعا وراضيا . وعشته التى أسكن نفسه فيها تبقى الى يوم ديمومته . ولديه نوع من الطلاء المقطرن أو الآمال التى تحفظ الاعتقاد فيه وتصونه وتحول بينه وبين التبخر . ولكنه لن ينقله أبدا ــ لن يثيره أبدا ــ لن يستحضره أبدا فى غيره . هذه طريقة مداورة بعض الشىء للقول بأن مثل هذا الرجل ليس عنده اعتقاد مطلقا .

ان الاعتقاد الذى تتحدث عنه لقى من التسويغ والتدعيم ما لا حصر له ، وتجرع الناس معاره علوا وسفلا ، وكبل بالحديد والسلاسل وأحيط بالأسلاك الشائكة . تبا لى اذا أسميت ذلك عقيدة . ملعون أنا اذا أسميت ذلك عقيدة . ولو أننى كنت معنيا بمثل هذه الأمور وحملتها على محمل الجد والاهتمام ، لصيرتنى مقالك كاثوليكيا رومانيا . أعتقد بصدق أن البابا الرومانى يحتوى نابا أحس للحق الروحى من هذه الرمية المسيحية . ان المسألة مسألة مزيج وحلاء العسير . لعلك تذكر فى قصة ديكنز Pickwick Papers أن رئيس العمال ــ لدى بدء الحديث يسأل سام ولر اذا كان قد لاحظ كربونات الحديد الطبيعى فى مياه المنهل فيجيب سام « لقد لاحظت طعم مكواة الثياب الحارة ــ ولكنى لم الاحظ أى كربونات حديد واعتقد أن كربونات الحديد كلمة غير واضحة التعبير » .

وشىء آخر ... ظللت أتساءل فى عجب ــ « ولم كل هذا التشويش ــ هل ثمة فرق يحدث سواء أكان المرء يعتقد أم لا يعتقد ؟ ما الذى يعطى هذا السؤال كل هذه الأهمية لكى يطرح على بساط البحث ؟ » لقد افترضت أن فكرة تلك الرسالة المختصرة ــ الصلة المزعومة بين الاعتقاد والسلوك ــ كانت واحدة من الأفكار التى ضج بها العالم ولفظ ، مثل علم التنجيم أو العصا السحرية ...

المخلص

جون چاى تشابمان »

M.S., 374-5,411. (١٣)

كامبردج ٥ ابريل سنة ١٨٩٧

عزيزى [illegible]

[illegible] بعد ان فحصت الرسالة الاخيرة [illegible] الى [illegible] الخجله والدعابه [illegible] من [illegible] اصابتكم [illegible] ذلك بدلا من [illegible] وفضلا عن ذلك [illegible]

[illegible] ذلك [illegible] الوسعية [illegible] اما [illegible] الدراسات على تلاميذ [illegible] من الرفه والتهذيب [illegible] لذلك ارسل [illegible] الى [illegible] اذا كانت [illegible]

[illegible] والفلسفة ليست الا لاعتراض [illegible] ايمانك عاقبة وقوة [illegible] وقاب بعضها بعضا [illegible] بسلام فلا مناص [illegible] والاستدلالات [illegible] أنا [illegible] واحدة من الافكار التى [illegible] انها واحدة من أروع القوى [illegible]

[illegible] واقرأ مقدمتى اذا لم تكن قد [illegible]

و م · جيمس

فى سنة ١٩٠٤ نشر ل .ت. هوبهاوس مقـالا هاجم فيـه چيمس واتهمه بأنه مزدوج المذهب : « الأول هو أنه باعتقـادنا بشيء فاننا نجعله صحيحا . والثاني هو أننا نستطيع أن نعتقد فى شيء دون أن نســأل أنفسنا جديا عما اذا كان صحيحا أم باطلا » ·

واجاب چيمس :

« اننى أصرخ الى عنان السماء لكى تنبئنى من أية شجرة مجنونه [illegible] جبابذة المدرسيين [illegible] حيث تشبههم آفة كل هذا العمى بالنسبة لمعنى النصوص المطبوعة . [illegible] الآخرين عاجزون على الاطلاق عن جعل معنانا واضحا ؟ وأحسب أنه لا [illegible] هناك شجرة مجنونة ولا [illegible] غير واضحة . ولكن المسألة هى انه فى هذه الشئون – كل امرىء يكسب من [illegible] وعى يثوى فيه [illegible] النعم « الرابض فى مؤخرة الوعى هو الموضوع الرئيسى . فما يعبك

فهو الخرافة ، وأما يعبعى فهو التيبس ، وكل واحد بدافع تاثير المقابلة الضدية — يتشبث بأى نص يستطيع أن يضع يده عليه على اعتبار أنه يمثل العدو ، بصرف النظر عن الخواص التفسيرية . وفى مقالتى ، كان شبح الشر صورة « للعلم » فى صيغة تجريد وصلف ونشارة تتسلط على كل شيء . خذ أعقم وغد مغرور علمى تعرفه ، وقارن بينه وبين أخصب قريحة دينية تعرفها ، وستجد أنك لن تعطى الاول — أكثر مما أعطى أنا — الحق المخول الوحيد للطريقة »(١٤) .

واساس شكوى چيمس واضح تماما . لقد اتهم بتشجيع مشـــيئة أو نزق الاعتقاد ، أو بالأحرى اتهم بالمدافعة عن الاعتقاد من أجل الاعتقاد، فى حين أن هدفه كله كان تسويغ الاعتقاد . لقد أكد أن الاعتقاد طوعى، ولكنه ، طبيعيا ، افترض أن الخيار — فى ذلك كما فى غيره من الحالات الأخرى — محكوم بالحوافز ومضاء ومفسر بالعقل والصواب والنهى . لقد اتهمه ناقدوه بالمدافعة عن **الرخصة** فى الاعتقاد ، فى حين أنه ، على النقيض ، كان غرضه صياغة قواعد للاعتقاد . وأيا ما كان رأى المرء فى التطبيقات الدينية الواسعة لقواعده ، فان أطروحته فى غاية البساطة . لقد حاج بأنه فى حالات معينة حيث يكون كلا الاعتقاد والشك ممكنين ، فعلى الأرجح الوصول الى الحقيقة بالاعتقاد أكثر مما يحدث بالشك — أو على الأقل تتساوى كفتا الترجيح ، مع اضافة المزايا والفوائد الأخرى . وعلاوة على خطر التعرض للخطأ ، الذى يتأثر به العلم بشدة ، فثمة خطر آخر يتعين اعتباره ، ألا وهو خطر فقدان الحقيقة . أما أية حقيقة كانت — فذلك أمر لم يأخذ على عاتقه أن يبينه ، ولكنه استأنف هذا الموضـــــوع فى البراجماتية .

---

(١٤) Hobhouse, "Faith and the Will to Believe," Proc. of the Aristotelian Soc., IV (1904), 91; W.J. to Hobhouse, August 12, 1904.

٢٥
الذاتية الأخلاقية

لقد عبرت « ارادة الاعتقاد » بالاضافة الى كتابات چيمس ومناشطه الأخرى لنفس الفترة عن مذهبه الأخلاقى الأساسى . ولقد كان هـذا المذهب هو الذى وقف فى طريق انعطافه وميله ووده ـ على نحو أكثر تماما وصفوا ـ حيال أعظم أصدقائه القدامى خفة ظل وتوافقا معه وانعاشا لنفسه · ففى اليوم السابع من مارس سنة ١٩٠٠ أقامت رابطة المحامين ببوسطون حفل عشاء تكريما لهولمز ـ الذى كان وقتئذ يشغل منصب رئيس المحكمة العليا لماساشوستس · وفى هذه المناسبة ألقى خطابا كان بمثابة صياغة موجزة لفلسفة حياته :

« انا لا نستطيع ان نعيش احلامنا . وانا لنكون من أصحاب الحظ السعيد اذا استطعنا ان نعطى عينة من خير ما فينا ، واذا استطعنا أن نشعر فى صميم فؤادنا اننا فعلناه بنبل ومروءة ... ان متعة الحياة هى أن يبذل المرء طاقته وقوته بطريقة طبيعية ونافعة او غير مؤذية . وقاعدة المتعة وقانون الواجب ـ فى نظرى واحد . واعترف بأن الحديث الغيرى والحديث الاثانى الساخر ـ يبدوان لى ـ كليهما غير حقيقيين سواء بسواء ... فمن وجهة نظر العالم فان غاية الحياة هى الحياة . والحياة عمل ، وهى استعمال قوى المرء . وكما ان استعمال هذه القوى الى أسمى مراتبها هو متعتنا وواجبنا ؛ فكذلك الأمر بالقياس الى الغاية الواحدة التى تسوغ بنفسها ... الحياة غاية فى ذاتها . والسؤال الوحيد عما اذا كانت تستحق الحياة هو عما اذا كانت لديك الكفاية منها »(١) ·

فلما قرأ چيمس هذا الخطاب كتب لصديقته الآنسة فرانسيس ر . مورسى ، الرسالة التالية :

« اشكرك لارسال نص كلمة رئيس المحكمة العليا التى القاها فى مأدبة رابطة المحامين . وابادر الى القول بأننى اشعر بخيبة أملى فى ا . و . هـ لكونه عاجزا عن القاء كلمات أخرى سوى خطاب موضوع او محضر يبرزه فى كل مناسبة . ولا جناح على المرء أن يفعل ذلك مرة ،

---

(١) Speeches by Oliver Wendell Holmes, Little, Brown and Company, 1913, 83-6.

فى فورة الشباب ليحمل بالمهيج الحيوى البحت ، بمتعة الحياة ، كاحتجاج ضد التوقر المتحجر والترمت الممل . أما أن يجعله مطردا بنظام ويضعه موضع التعارض ، كممثل اعلى وواجب من الواجبات العادية المعترف بها ، فمعناه صده ومنعه كله — وخصوصا اذا كان الشخص قاصى العصاة . ان الامر يبدو لى صبيانيا — بشكل عجيب ، وندل ينسى دائما انه وفقا لشروطه هو فان الناس المتمثلين للواجب ايضا يحققون قانونه ... حتى اذا كانوا يعيشون عيشه ضنك ويتمتعون بالكفاح ضد شياطينهم الواقفين فى وجوههم . ومن ثم فاذكرهم لشأنهم . وندل يذكرنى ببيت من الشعر للشاعر براوننج الذى يقول سانتيانا فى شعره الجديد ان آبيلا أو الاريك ربما كان قد كتبه :

« مربوط يوما ما الى عجلة التغير
ليروى ظمأ الله » ...

ان مجرد التهييج مائلة فجة لا تليق بالمفوض الرسمى للمحكمة العليا . » (٢)

على أن صلة چيمس القوية بهولمز واتفاقه الوثيق معه فى أمور اخرى، يجعل هذا الشقاق أكثر لفتا للأنظار ويضفى عليه مزيدا من الدهشة الأخاذة . وتزداد اهميته من حقيقة أن چيمس نفسه كان فيما يبدو كثيرا ما يدعو الى نفس الانجيل — انجيل العمل من اجل العمل ذاته . ولكن ليس ثمة ريب مطلقا فى احساسه وسرعة تأثره بالنسبة لأى وصمة مريبة تلطخ الغيرة الأخلاقية أو لأى هجر خائر العزم لقضية الاستقامة والبر . فاذا كان هناك أى شيء قيم فى العيش — وليد فطرة الحياة ، فلابد ان يكون عيشا من نوع ما ، يخدم فيه المرء مائلة أخلاقية ويؤمن بها فى نفس الوقت . وسواء كان چيمس فى هذا يردد صوت عبقرية أسلافه — فى رعونتهم وطيشهم وخفتهم الأسكتلندية الأيرلندية ، وقد كبحتها وردعتها رزانة ووقار الكنيسة المشيخية (Presbyterian) — فذلك أمر لا أجرؤ أن أقوله ، ولكن هناك ارتباطا — لا سبيل الى انكاره — بين ذلك وبين حاجة چيمس الشخصية الى مثبت وموطد لمزاجه الزئبقى .

على أن نفس هذا المذهب الأخلاقى اثر على موقف چيمس حيال قصص أخيه ، وعلى تمتعه بالشعر الوجدانى الغنائى البحت .

وفى معرض الرد على نقد تشارلز اليوت نورتون لكتاب Oxford-Book of English verse كتب اليه فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٠٧ ما يلى :

(٢) April 12, 1900; other parts of this letter appear in L.W.J., II, 124-9, and below, 257.

[illegible]
[illegible] الشعر الانجليزى ؛ [illegible]
درجة . [illegible] أن الانحطاط كامن فى الشعراء وليس فى ــ انهم لا يستطيعون أن ينموا
قصائدهم بنفسهم . هذا يرىء ساحتى وأنا متفق معك تماما . لا علم لى بمجموعة قصائد
كوبلر كاوش ولكنى أرى أن اقتباس « الكنز الذهبى » Golden Treasury —
شىء فظيع فى جملته ... انها عديمة الانسانية الى أقصى درجة . هل رأيت كتيبا بعنوان :
« أحسن مائة قصيدة شعر فرنسية ؟ » انها تبدو لى ــ من الوجهة الموضوعية ــ تفوق أية
مجموعة انجليزية ... ولكن يتعين على ان اقر ــ من أول الأمـــر ــ اننى لا أملك الأذن
الشعرية ــ انا أصم شعر » .

وثمة أمر آخر يرتبط ارتباطا وثيقا بغيرة چيمس الأخلاقية وهو نفوره اللغوى من أى شىء يتوجس فيه الانحطاط والتدهور . ولم يكن ذلك لمجرد أنه يستهجن الانحلال الأخلاقى ، ولكن لأنه كان يشعر بما يشبه التقزز الفســــيولوجى من أى شىء مفرط التنفيج أو مفرط الذبول أو مفرط النضج . لقد هلل للاحظة بلود بان الكون « منوبل بطيوب أشـــيد كجناح الصقر »(٣) . ولكنه ما كان يريد أن يكون صيده فى أعلى عليين . كان يحب البساطة ويؤثر النقاء ويبتغى النجيع فى الحياة وفى الطبيعة على السواء .

أما أنه كان فى نفس الوقت متسامحا حيال الاختلاف مدمنا لعـــلم النفس المرض وكاثوليكيا فى حبه للفن والأدب ، فذلك أمر لا سبيل الى انكاره ، وانما اعترف به كبرهان على مدى رسوخ الشجرة ــ الى أبعد الأعماق ــ التى استطاعت أن تقاوم تلك التأثيرات المضادة .

ثمة بينات كثيرة على هذا الجانب « الصحى » من أخلاقية چيمس. يتجلى ذلك فى تنافره الروحى المعجب مع فلســـفة سانتيانا « بكمال عفونتها » و « تعريبها المحتضر » (٤) . والأحسن من ذلك كله ما يتجلى فى شعوره نحو غواية ايطاليا وهتك عرضها . من التناوب بين الاستسلام وبين النبذ . وعندما حكم على وهن وهزال « وفساد ايطاليا اللذيذ »(٥) فقد كان عادة على سبيل المقابلة والتباين بينهـــا وبين عدم الطـــلاوة أو « السلاخة » الصحية لسويسرا . « سويسرا طيبة ! قوم طيبون ! »(٦) .

---

(٣) W.B , ix.

(٤) L.W.J., II, 122-3.

(٥) L.W.J., I, 342.

(٦) Ibid., I, 328, Journal, May 10, 1905.

ولقد تجلى هذا الشعور فى رسالة بعث بها الى تشـــارلز ريتر من فلورنسا فى الخامس من أكتوبر سنة ١٨٩٢ :

ان فلورنسا تبدو لى أكثر جاذبية وفتنة حتى مما كانت عليه عندما كنت هنا منذ ثمانية عشر عاما ... ولكن ما اسمى واطيب سويسرا . انها تشبع كل الحاجات الأساسية للجسم والروح بما لا مثيل له فى اى بلد آخر ـ فى فصل الصيف . بعد بديعيات ، ووبالة وفساد ايطاليا ، كيف يعوزنى مرة ثانية ان ارتد الى عالمكم الأرضى !!

لا شك أنك صدمت لموت رينان . كان ساحرا حقيقيا ، ولكنه كان رجلا تسبب فى خيبة أمل مشروعه بالصيغه التى وجدتها قريحته اخيرا اكثر موافقة له . كان يستعمل لغة الحياة الأخلاقية والدينيه بكل عذوبه وسحاء بالنسبة لامرىء يرفض تفكيره ان يتقيد بتلك المثل العليا . ان المثل العليا الأخلاقية تمضى جنبـــا الى جنب مع الانكار والنبذ والرفض والتضحيات . ولكن هنالك شىء صاعق حول الوظيفة الموسيقية البحت التى يلعبونها فى صفحات رينان . لذلك اسمية سطحيا بعمق . ولكن يا له من فنان » .

فلا غرو أن تكون قوة الباعث الجمـــالى لدى چيمس أمرا معروفا وشائعا وزاخرا بالشواهد والأدلة .

ولقد أعجب فى شبابه اعجابا عميقا بلا أخلاقية جوته ، ولقد تكرر هذا الاعجاب وتأكد مرارا حتى وقت متأخر فى حياته يصل الى سنة ١٩٠٢ . كان يحترم شرائع الذوق فى مسلكه وفى أحكامه على السواء . أما نزعته الفنية ، وقد تحولت عن الرسم ، فقد وجدت تعبيرها فى التفلسف الذى تضمن نفس « العنصر القربانى » (وبالنسبة لچيمس على الأقل) نفس الامتزاج والصهر والاتحاد بين الأسلوب والمادة ـ اللذين لا سـبيل الى فصمهما .

ومن وقت لآخر ـ وعلى الخصوص فى باريس ودرسدن ابان صباه ، ثم بعد ذلك فى فلورنسا بعد خمسة وعشرين عاما ـ انغمس بشهية نهمة فى الفنون البصرية . وكان كثيرا ما يقول انه ليست لديه **ذاكرة** بصرية ولكن تأثير هذه الظاهرة أنها جعلته أكثر لا أقل اعتمـــادا على الخبرة البصرية المباشرة .

ومن ثم فانه اذا كان قد شعر بعقم البديعيات النظرية ، فلم يكن مرد ذلك الى الافتقار الى دقة الاحساس الفنى أو الحط من قدر قيمة الفن . ثم انه لم يغفل المشكلة . لقد عاد اليها مرارا وتكرارا ولكن بنفس الاحساس بالاخفاق دائما . وبمرور الوقت تحول هذا الشعور بالعقم الى حكم نهائى بأن الخبرة الجمالية كانت شخصية وذاتية على نحو لا يقهر .

وما كان السبب هو ان چيمس اعتبر هذه الخبرة ــ خبرة انفعالية عديمه التمييز ــ بل على النقيض تماما • ففى كتابه « علم النفس » يصف زوجين مسنين جلسا أكثر من ساعة أمام لوحة تيتان « الوهم » فى البندقيــة بفبثهما « رخبخ من العاطفة الزائفة التى لو شهدها تيتان العجوز المسكين لأصيب بدوار » • بعد أخطأ المرمى • ، ففى كل فن ، فى كل علم يوجد تمييز حاد لعلاقات معينة يدرك اذا كانت صحيحة أو لا ، ثم هناك الفورة الانفعالية والراجفة الناجمتان بناء على ذلك »(٧) . ولكن هذه « الفورة » أو « الرجفة » هى المعيار النهائى ، وهذا أمر نسبى جدا بالنسبة للملاحظ الفردى ــ بشكل يستحيل معه اى تعميم فى القـــاعدة . فاذا تركنا نسبيتها على جنب ، فان الخبرة الجمالية تأبى التقنين والصياغـــة فى قواعد لأنها تتألف من **احساس** • وفى هذا الصدد كتب ، فيما بعـــد ، الى هنرى راتجرز مارشال فقال :

« ان الفرق بين أسمى مراتب الانتاج الفنى وما هو دونها مباشرة ــ يبدو أنه يفلت من التحديد الكلامى على الاطلاق ــ انها مسألة شعرة ، ظل ، مثقال ذرة ، رجفة باطنية من نوع ما ــ ولكن ما أبعد آمادها بالنسبة للنفاسة . وقطعا ــ تنطبق نفس الصيغة الكلامية على النجاح الفائق وعلى الشيء الذى يعوزه النجاح بالتمام ، ومع ذلك فالصيغ والقواعد الكلامية هى كل ما عند بديعييك وبديعاتك »(٨) •

وهذا الاعتراض هو تطبيق لأعم مبدأ فى فلسفة چيمس الا وهو أسبقية الخبرة الأصيلة على التمثيلات أو الأوصاف أو الدلالات ــ « التباين بين ثروة الحياة وخصوبتها وبين فقر وجدب كل الصيغ والقواعد الممكنة »(٩) . ولقد أصر على هذه الأسبقية أينما كانت خبرته الخاصة الأصيلة ــ حيوية وزاهية ــ بطريقة مميزة • ثمة معين للتأمل فى حقيقة أنه فى حين كتب باسهاب عن الخبرات الدينية ، الا أنه أعرض بعيدا ونأى بجـــانبه عن التصدى لأى خبرات جمالية • وأكبر ظنى أن التفسير يمكن أن يلتمس فى حقيقة أنه كان **يملك** الخبرة الجمالية فى حـــين أنه افترض الخبرة الدينية ، التى كانت ، من ثم حتى فى « مصادره » قد تحولت الى كلام ــ من قبل •

---

(٧) Psychology, II, 471-2.

(٨) (February 7, 1899 ?); L.W.J., II, 87.

(٩) Nation. LIX (1894), 49.

[illegible] ان جيمس [illegible]
[illegible] وعمقه [illegible] وهكذا يبدو أنه لا يتصور [illegible] حظ
من قدر [illegible] الجمالية أو الفن فى سلم القيم . ولكى نقرر هذا الحظ ينبغى ان نلتفت الى اعتبارات أخرى ونلاحظ أولا أنه كانت فى جيمس حساسية من **الفطرية** تنازع وتحاج لتملك روحه . فاذا سلمنا بأن الفن ، بل حتى المنظر الطبيعى أيضا يتضمنان بعض الاعتبار للصيغة والشكل . فان التمتع بهما كان يتصادم فى جيمس مع استطابته — لما لم يأخذ شكله وما لم يتم تكوينه وصياغته — للخام والغفل .

« يحدث أحيانا أن أتمتع بشيء مصادفة عندما يعترض طريقى مثل يورك أو دارم — ولكن كونى أسعى سعيا حثيثا فى طلب المبنى الذى يستحق التصوير — فلتعمل السماء [illegible] من الوجود — اذا فعلت . ان الشيء الوحيد الذى يفيدنى حقا هو الريف فى القطر الامريكى على اعتبار أنه شيء نستطيع أن نرحل فيه ونتسكع على أرضه مع [illegible] طوال [illegible] . أما هذا الريف (الانجليزى) فرائع اذا كان لدى المرء الأرجل المناسبة والأنفاس التى لا تنقطع ، وهو ما ليس عندى . انه ملىء بالصخور الشامخة والشقوق والمنحدرات وأماكن العزلة ، ولكن صوره كلها قد زحفت عليها المدنية بقضها وقضيضها وزخر بجو المدنية الى [illegible] حد وتناثرت فيه الأبنية الصلدة وأحاطت به الأسوار من كل جانب »(١٠) .

ففى حيز عالم محدود منظم ، سواء أكان من صنع الانسان أم من صنع تفكيره وخياله ، كان جيمس يشعر بنوع من الخوف الجنونى من الأماكن المغلقة Claustrophobia . وكان **التاريخى** يثير فيه شعورا مماثلا . وكانت طقوس عبدة الفن مرتبطة فى ذهنه بالمذهب النقلى السفلى وخصوصا فى ايطاليا ، فى حين أن جيمس كان يفضل المستقبل غير المحدود أو الحاضر الموافق فى حينه . كان جيمس من أنصار المعاصرية . فثمة شيء يتعين عمله الآن — حالا ومباشرة — لجعل العالم أحسن وأفضل وأقوم سبيلا . ولقد كان هذا هو مزاجه عندما كتب الى أخته من روما فى اليوم الرابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٧٣ :

« ان ايطاليا مكان يبهج ويسر ويفرح — لكى يغطس فيه المرء غطسة واحدة — لا أكثر . ولا أستطيع أن أتصور الى أى حد — ما لم يكن المرء منهمكا فى دراسة التاريخ على نحو ما — تستطيع ايطاليا فى المدى الطويل أن [illegible] كل قوى المرء الناشطة . ان وطأة عالم الماضى هنا وطأة مرهقة — بحيث تنتهى بالمرء الى أن يصبح مجرد [illegible] الماضى بدلا من أن يكون ندا له .

---

(١٠) To Charles A. Strong, June 2[illegible] 1909.

هذه العبادة للناس الآخرين وهذا الاعتماد على الناس الآخرين ـ أمر شاذ غير طبيعي . ان القدامى عندي ما عملوا بتصريف شئون حياتهم في يومهم . ولسن بفغر أفواههم مبهوتين أمام قبور أسلافهم ـ والرجل الطبيعي اليوم سيفعل مثلهم وينسج على منوالهم . خمسون سنة من كامبردج أفضل من فلك الصين الدوار . وداعا . أحوك المتوحش الذى لا يهتم الا بالماديات ؟ .

وعلى عدا . نعود ثانية الى أسبقية الارادة الخلقية ـ على الشعور ، وكذلك أيضا على التفكير . كان جيمس ابعد ما يكون عن طلب الغـــاء الشعور الغاء . ولقد اعترف به على اعتبار أنه يؤلف جزءا كبيرا من تلك الدخيلة الباطنية للحياة التي يستمد منها الود فذاذته وتفرده وكرامته . بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك . لقد دافع عن حدة الشعور والمبـــالغة فيه :

« نتيجة « لقانون التنبيه » .. انه بصرف النظر عن التأثير الحركي وفي حد ذاته ، فان الشعور يعد خيرا . أيهما يعيش أكثر ، ذلك الرجل المنظم المرتب الذى تمضى حياته على قضبان مزيتة من اللباقة والحشمة والمناسبة ، ولا يفعل أبدا ما يشين ، أو يهفو هفوة ، أو يرتكب خطأ ، أو يخالجه ندم ، أو تكربه غصة ، لأنه لا يحيد عن الصواب قيد شعرة ، ولأن العمل الصواب في كل مناسبة يفرض نفسه على عقله وهو يؤديه فحسب ؟ أم ذلك الرجل الحماسي الجاد الطبع العجاج الضجاج المضطرب الأرعن الخطاء ، الذى حياته كلها عبارة عن تعاقب من الثوران والنهجان والخفة والطرب ، ومن الندم الفظيع التوقان الى الخير الذى حاق به الدمار والخراب ؟ هذا **يشعر** ، أما الآخر **فيؤدى** . فاذا قدر لهـذا الطراز من الناس أن ينقرض ، أفلا يضيع من الحياة ـ يقينا ـ عندئذ ـ واحدة من أسمى وأقدس المواهب الانسانية ، الا وهى موهبة حدة الشعور ؟(١١) .

ولكن جيمس ـ كما قال ـ كان « قوة محركة »(١٢) . لقد كان من أحد الملامح الجوهرية لفلسفته ، علاوة على ذلك ، أن الانفعال نهاية مطاف غير طبيعي للعقل . فالدورة المكتملة للحياة الواعية لابد أن تبلغ أوجها في عمل ـ والأحاسيس التي تقتصر على المتعـــة فحسب تفضى الى ضمور الارادة وذبولها :

« حتى عادة الانغماس المفرط في الموسيقى بالنسبة لأولئـــك الذين لا هم عازفون ولا لاعبون ، ولا من أصحاب موهبة موسيقية كافية بحيث يتخذونها بطريقة فكرية بحت ، هذه العادة ربما يكون لها أثر على الخلق يفضى به الى الترهل والتراخي . فالمرء يتسمم متعما

---

(١١) From a loose undated note entitled "Æsthetics".

(١٢) To Pauline Goldmark, September 14, 1901, L.W.J., II, 163.

بانفعالات تمر اعتياديا دون ان تحفزه لأى عمل ، وبهذا تستمر حالة الجمود العاطفى وتظل هامدة خامدة . والعلاج هو الا يسمح الفرد لنفسه بأن يكابد أى انفعال من جـــراء جوقة موسيقية دون أن يعبر عنه فيما بعد بطريقة ايجابية نشطة على نحو ما »(١٣)

ولقد تساءل چيمس فى سنة ١٨٧٩ (١٤) :

« ما الذى يعنى الغيور الأخلاقى فى فلسفة الأخلاق ؟ » ان « الفيلسوف الأخلاقى والحياة الأخلاقية » التى كانت فى الأصل محاضرة ألقاها فى سنة ١٨٩١ ثم ضمنها بعد ذلك كتابه « ارادة الاعتقاد » هى اجابة چيمس عن هذا السؤال ، وهى معالجته الوحيدة للأخلاق النظرية التى وجدت طريقها الى النشر . لقد أقر بفذاذتها ولكنه شعر بخيبة الأمل مما قوبلت به . ولقد استخلص الآراء التى انتهى اليها من قراءاته وتفكيره وهو يعد لمحاضراته عندما عهد اليه بتدريس مقرر الفلســـــفة ٤ محل بالمر فى ١٨٨٨ — ١٨٨٩ . ولقد احتفظ بمسودة هذه المحاضرات فى سجلاته ، والمختارات التالية تصلح لتكملة البيان الذى طبع ونشر :

مادمت أشعر بأن أى شىء خير ، فانا أجعله كذلك . فهو **كذلك** بالنسبة لى ... ولأول وهلة فان الطيبات تشكل غاية متعددة الأنواع متضاعفة التركيب . فهل ينبغى علينا أن نتركها على ما هى عليه أم فى وسعنا أن نوحدها . ان أفضل تجريد هو أن كل الطيبات ينبغى أن تستوعب وتنال .وهذامستحيل ماديا — لأن كثيرا منها تحجب ويطرد بعضـــها بعضها الآخر ، وصعوبة الحياة الخلقية كلها قوامها البت ، عندما تكون الحالة بهذا الوضع ، فأى خير نضحى به وأى خير نحتفظ به ... والحل هو (أن) نعتبر كل خير كخير حقيقى ونحتفظ بأكبر عدد فى مستطاعنا ... وهذا العمل هو أحسن اجراء يؤدى الى الكل الاحسن، على اعتبار أن الكل الأحسن هو ذلك الذى يسود بأقل نفقة ، والذى تكون فيه الطيبات المقهورة هى الاقل الغاء كليا الى الحد الادنى ... اتبع التقـــاليد المشتركة ، ضح بكل الارادات غير القابلة للتنظيم والتى تتصادم جهارا ضد الكل . ولا أحد يدعى — على العموم — تنقيح الوصايا العشر أو العدوان ضد الحياة أو الملكية أو الصدق أو اللياقة ... فى الكل الدائم . فاذا كانت هذه طيبات رجل ، فالرجل ليس عضوا فى الكل الذى نقصد الاحتفاظ به، ونحن نضحى بكلا الرجل وطيباته دون أن نسكب دمعة واحدة . وعندما تكون المنافسة بين طيبات حقيقية قابلة للتنظيم ، فالقاعدة هى ان الفائز منها ينبغى أن يحافظ — بقدر الامكان — على تمثيل المقهور ، موسعا مخرجا بريئا » .

المبدأ واضح ، فالقيمة تشتق فى نهاية الأمر من مصالح الفرد ، والكل

---

(١٣) Psychology, I, 125-6.

(١٤) "Sentiment of Rationality". Mind, IV (1879), 338.

الاجتماعي يسوغه احتواء أجزائه الفردية والتوفيق بينها • فالذاتية أساسية •

بين سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٩ القى چيمس عددا كبيرا من المحاضرات والخطب العامة فى أجزاء مختلفة من الولايات المتحدة الأمريكية : فى هوته سبرنجز (فرجينيا) ، شوتاكوا ، بافالو ، شيكاغو ، ليك جينيفا (ويسكونسن) ، كولورادو سبرنجز ، كاليفورنيا . وفى اثناء أسفاره اكتشف اكتشافات انسانية وكذلك جغرافية • ولقد كان التنافر الخارجي والتفاهة البادية للعيان فيما شهده — تحديا لذوقه ووجدانه • ومن ضمن المحاضرات التى ألقاها كانت هناك واحدة بعنوان « عن عمى معين فى الناس » . وفى هذه المحاضرة تكلم عن وجوب تصحيح منظر الملاحظ الخارجي بفهم متخيل للخبرة الداخلية • وعندئذ فان الحياة الاجمالية للانسان التي تبدو وحشية ومملة وتافهة تتخذ شكلا من الكرامة والتنوع الخصب• وعندما كتب چيمس الى المسز جلندوور ايفانز عن كتابه « أحاديث للمعلمين » الذى تضمن المحاضرة المذكورة (١٥) آنفا ، والذى أرسل اليها نسخة منه ، قال :

« أرجوك ألا تخوضى فى الجزء الخاص بالمعلمين الذى هو الملل مجسما . لم ارسل اليك هذا الكتاب الا لتقرئى الفصل المعنون « عن ظاهرة عمى معين » الذى هو فى الحقيقة البصيرة التى ترتكز عليها فلسفتى الذاتية برمتها » .

وفى نفس السنة كتب الى صديق آخر « اننى أهتم جدا بالحقيقة التى يحاول الكتاب — بشكل غير كاف ولا واف — أن يعبر عنها » (١٦) .

وفى مقدمة كتاب « أحاديث للمعلمين » نقرأ :

« بودى لو استطعت أن أجعل الجزء الثانى « عن ظاهرة عمى معين فى الناس » اكثر تأثيرا ووقعا . انها أكثر من مجرد قطعة عاطفية كما قد تبدو فى نظر بعض القراء . وأولئك الذين شرفونى بقراءة مجلدى الخاص بالمقالات الفلسفية سيدركون أننى أعنى الفلسفة التعددية أو الذاتية . وطبقا لتلك الفلسفة فان الحقيقة أكبر من أن يعيها كلها عقل واحد حقيقى ، حتى اذا منح هذا العقل لقب « المطلق » . ان حقائق وقيم الحياة تحتاج الى عارفين كثيرين لاستيعابها . لا توجد وجهة نظر عامة على الاطلاق وشاملة على الاطلاق ...

(١٥) In an appended portion referred to in the sub-title: and to Students on Some of Life's Ideals.

(١٦) Reprinted from Atlanitc, CXLIV (1929), 377; to Pauline Goldmark; April 18, 1899.

والسجية المعنية لمثل تلك الفلسفة هي ذلك الاحترام الديموقراطي الذائع الصيت — (فلسفة الغرب ، ١٧٠) .

ومن عجب الاتفاق أن بيرس ورويس اللذين كانا في عزلة وبكادان يكونان غير لائقين للعلاقات الاجتماعية والعامة . قد وضعا مركز الثقل على الجماعة المشتركة — على المجتمع كحقيقة ومثل أعلى على السواء ؛ في حين أن چيمس الذى كان أكثر الناس لباقة اجتماعية ودماثة أخلاق وتحضرا — والذى كان بكل حماسة وشغف ونشاط وايجابية — بل بألم أيضا — مهتما اهتماما كبيرا بحالة وطنه وحالة العالم — فقد نادى بالقيمة السامية لتلك المجاهدة والكد والكدح والكفاح التى هى فريدة فذة فى كل فرد على حدة ، والتي تتجلى خصيصتها الأصلية الصحيحة بشكل مباشر فيه هو وحده . وهذه الخصيصة — صفة فردية معتقة مخلصة ما دامت مصحوبة بنكهة من الاخلاص أو الشجاعة ؛* « وما العمى المعين فى الناس » الذى يشيع فيهم علوا وسفلا سوى اخفاقهم فى الفطنة الى تألقها الباطنى . كتب چيمس مرة الى ابنته عن كلب كان يرافقه يوما ما فى بيته : « انه يظل يبصبص بذيله طوال الوقت ، والانطباع الذى يتركه فى نفسى هو انطباع ملاك يتوارى وراء سحابة . انه تواق لأن يفعل الخير » (١٨) .

وكذلك الأمر بالقياس الى الناس — فهم كالكلاب — كانوا عادة يبصبصون بذنبهم فى حضرة چيمس ، وكانوا تواقين لفعل الخير الأمر الذى — بلاشك — أكد انجيله بأن كل انسان هو ملاك متوار وراء سحابة .

وبقدر ما يتذوق المرء مكامن المغزى الباطنى فى حياة الناس الآخرين يقدر ما يعطى أهمية للاختلافات :

* « ان الاصرار العنيد على أن نغمة الكمان ليست هى نغمة الربابة هو لب ونخاع الحياة . أنظر الى اليهود والاسكتلنديين تحزبهم وتعصبهم وفتنهم التعسة ومنازعاتهم الطائفية ، ومؤامراتهم وتشيعاتهم وطردهم وابعادهم لكل من لا يدين بملتهم — لقد أصبحت تواريخهم تراثا كلاسيكيا لأن رجالا من العباقرة اشتركوا فيها وتغنوا بها ... ان الشيء هام اذا اعتقد المرء انه هام »(١٩) .

---

(١٧) T. T., V.

(١٨) August 8, 1895; L.W.J., II, 26,

(١٩) Psychology, II, 674-5. note.

[illegible] ان [illegible] بالفطرة [illegible]
[illegible] لانفعالاتهم الى ما يصنعون من [illegible]
[illegible] هو ما يسوع ، اما التصنيف أو التنظيم • لقد قال چيمس • « ان ذكرى دافيدسون » ...

ستقوى دائما ايمانى بالحرية الشخصية وتلقائياتها ، وســـتجعلنى اخفف من غلواء احترامى للحضارة أكثر مما كنت قبلا — الحضارة بتقسيماتها للناس الى اسراب وقطعان ، وبوصفها للعلامات والأنواع ، والتمغة على صنف وفئة ، وباعطائها الرخص والبراءات ، وبمنحها الشهادات والدرجات العلمية ، وبتخويلها السلطة ووضعها فى يد من تشاء • وبتعيينها وتنصيبها ومراسيمها وتدابيرها • وعلى العموم لتنظيمها وادارتها لدقة حياة الناس — بالنظام والنسق والجهاز ... وبالتأكيد فان الفرد ، الشخصى فى صيغة الفرد هو الظاهرة الأكثر جوهرية وأساسية ، فى حين أن النظام الاجتماعى ، أيا كانت مرتبته ، ليس سوى ثانوى ووسيلى • وأيا ما كان عدد المصالح والرغبات التى تؤديها وتشبعها النظم الاجتماعية ، فلابد ان تبقى دائما مصالح ورغبات [illegible] مشبعه ، ومن بينها مصالح ورغبات يجور عليها النظام — من حيث هو نظام — [illegible] وتضع يده علينا • ان أحسن جمهوريه مشتركة ستكون دائما هى الجمهورية التى تعتز الى أقصى حد بالرجال الذين يمثلون المصالح المتبقية ، هى الجمهورية التى تفسح أرحب مجال لصفاتهم المميزة ورغباتهم »(٢٠) •

على أن القيمة الباطنية المحسوسة لحياة انسانية ما ، مستقلة عن احترام العالم أو هى فى غنى عن معايير مثل الشهرة والأهمية • ومن هذه البصيرة انبثقت مصادقة چيمس على الديموقراطية . فبينا يؤلف الجنس البشرى ، اذا أخذ بالجملة وخارجيا — مشهدا غير مهذب ولا مثقف ، نجد أنه اذا أخذ فرادى ، واحدا واحداً ، كل فرد منه بقبسه الخاص به من المثالية ، فمن المرجح انهم يحترمون ويقدرون حق قدرهم •

على أن التسامح جزء جوهرى من مقومات نفس الانجيـــل ، فعندما يبحث المرء عن القيمة الباطنية لحياة الآخرين فانـــه يعترف بحقهم فى الوجود • بل هو يتهلل جذلا لوجودهم . كان چيمس يشعر بالتسامح حيال الجنس البشرى حتى فى جمهرته • وقد عالج هذه المسألة فى الجزء الأخير من محاضرته عن « الخلود الانسانى » • لم يكن يخشى أن تضيق الجنة على من فيها بما رحبت :

فلنثق بأن الاله الذى ابتلى بنا [illegible] على أن [illegible] من [illegible]
وعجائبنا ومن لا يداخلونا فى السخط والاستياء ... [illegible] انا [illegible] فى [illegible]

---

(٢٠) M.S., 102-3.

نـاب قدر لها أن تسمو فى غابات هذه الدنيـــا وتخشخش تحميها فى النسيم ـ يجب أن تصبح خالدة(٢١) .

كان التسامح شعار شباب چيمس ـ ليس فقط من قبيل التعاطف الوجدانى مع ما هو مختلف ، ولكن أيضا التسامح الفكرى وخفض الجناح الذى ينجم من الاحساس بما فى العطف الوجدانى من حدود . ومن ثم كتب فى سنة ١٨٧٣ :

« منظر الفيلة والنمور فى معرض وحوش بارنوم ، الذى يتسم وجوده بهـــذا الطابع الشخصى الغريب ، ومع ذلك يقوم هنالك حقيقيا واقعيا بكل قوة وحيوية ، كما لو كان ملكك الخاص لدرجة أن المرء يشعر ثانية بتوقد وحدة ، عمق علم الكائنات وحقيقتها ، الذى لا يسبر غوره ، على فرض وجود علم الكائنات وحقيقتها على الاطلاق . انها تلتحم مع نفسى ، ومع ذلك فأنا بادعاءاتى او على الاقل بأطماحى وآمالى فى تمثيل العالم ـ تمثيلا كافيا لا يمكن أن آمل فى أن أشترك وجدانيا ـ فى اى معنى حقيقى للكلمة ، مع وجودها . والافتقار الى الانجذاب هنا ، ليس كما هو الشأن فى بعض اشكال الحياة الانسانية المشوهة أو التى تعافها النفس ، لأن كيانها مدهش ويدعو للاعجاب لدرجة أن المرء يشتهى أن يكون على نحو ما شريكا أو زميلا أو مواطنا لها . ومن ثم فان أحنبيتها تحرى تظاهر المرء بأضواء الحياة ـ فى حين أن خصائصها المدهشة المعجبة تقوض العقل الذى يستند الى مرجع رواقى أو أخلاقى يقول فيه المرء أن المعنى الحقيقى للحياة هو عملى . هذا العالم العظيم من الحياة فى غير صلة بعملى ، حقيقى للغاية »(٢٢) .

وفى نفس تلك الفترة من حياة چيمس التى أمتدح فيها هكذا الاعتراف بالجهل ، وضع نفسه معيارا من التساهل فى أحكامه الأخلاقية :

« أن ارتياب « رجل الدنيا » ... يبلغ ذروة ذكائه ولطفه فى تلك الشخصيات الكريمة المسامحة الذين يبدون ارتيابهم بالنسبة للحظ فيما يعطى وفيما يسلب . مثل هؤلاء الناس يستطيعون أن يسخروا من القدر ، وفيهم مرونة وتعاطف وجدانى مع مجرى الحياة الماضى فى طريقه لا يلوى على شىء ، هم يؤمنون دائما بالخير ، ولكنهم راغبون فى وحوب تغير شكل الخير . وهم لا يطبقون ايديهم على ما يملكون ولا يجعلونها مغلولة الى أعناقهم . وعندما

(٢١) H.J., 43-4. This is a very old motive in James's thought. In the "Sentiment of Rationality," where referring to " a too infinite accumulation of population in the heavens", he goes on to say that the real wonder of existence is not that there should be so many, but that there should be any. Mind, IV (1879), 344.

(٢٢) This note is dated May 16, 1873, and the following is probably of the same year.

يعلنون عن رغباتهم فى لزوم اعطاء الحرية لقوم معينين ، فانهم لا يعنون بذلك ما يعنيه معظمنا عندما نجهر بذلك مع تحفظ فكرى ، مثل ذلك القاضى بأن الحرية يجب أن تستخدم استخداما حسنا ، وما يشبه ذلك من الغش والخداع والدجل — وانما يعنون ذلك بكل اخلاص ودون أن يطلبوا أى ضمان ضد سوء الاستعمال ، الذى اذا حدث فانهم يتقبلونه بلا شكاية ولا غل ، على اعتبار أنه جزء من مصادفات وحظوظ اللعبة . انهم يطلقون طيرهم فى الفضاء ليطير دون أن يربطوا خيطا فى رجله » .

ان باطنية احساس الفرد ووجده — ثمينة عزيزة — ولكن مم تتألف قيمتها العالية ونفاستها ؟

ان الملحق المكمل لموضوع « عن ظاهرة عمى معين فى الناس » يبدأ عنوانه بسؤال « ما الذى يجعل لحياة ما مغزى ؟ » والجواب هو أن الذى يجعل لحياة ما مغزى هو الشجاعة والكفاح والمغامرة — وفى كلمة واحدة هو البطولة — وهذه تتكشف لعين العطف — للبصيرة الحانية المشاركة للغير فى حالته الوجدانية .

لقد اقتضت زيارة چيمس لمجمع شوتاكوا أن يشعر بأن « البطولات العليا والطيبات العتيقة النادرة بدأت تختفى من الحياة » — حتى لاح فى خلده فجأة أنّ هناك « مجالات عظيمة من البطولة قائمة من حولنا » — « فى الحيويات اليومية للطبقات العاملة » (٢٣) .

وهذا موضوع مألوف ودائم لدى چيمس . انه انجيل كارليل القديم الذى لقح به چيمس فى طفولته . انه الاجابة التى أعطاها فى « ارادة الاعتقاد » عن سؤال « هل الحياة تستحق العيش ؟ » نعم ، انها تستحق العيش لأن فى الامكان جعلها تستحق العيش ، بأن ننقل اليها « كيف » العمل الجرىء الغيور الجهيد . وكانت الروح العسكرية متضمنة فى ثنائية چيمس الأخلاقية . فالخير خير والشر شر ، ودور الاستقامة والبر هو أن تحب الخير وأن تكره الشر بنفس الاخلاص القلبى سواء بسواء . وبالنسبة « لمحرك » فان الكره لا يمكن أن يعنى سوى الهجوم والتدمير . ولقد كان هذا هو اتجاه چيمس منذ باكورة شبابه .

« ان كره الشر ليس معناه الاغراق فى احساس حاضن ضد شرور معينة ، بمعنى أن يصبح الشخص رهينة ويستولى عليه . كلا ، وانما هو صرف الانتباه عنه حتى تواتيك الفرصة ثم تضرب ضربتك فى الصميم وتصيب الهدف . ومشكلتى هى أن وجود الشر قادر

(٢٣) T.T., 265, 273-4; L.WJ., II, 40 ff.

[illegible] الوجود »(٤٢) .

على أن الباعث البطولى لدى جيمس كان مرتبطا بميله الى الوسوسة (النوروسثانيا) . فالمرض يجعله يحمل على نفسه ، وبعد ذلك تنتابه سورة انفعال تجعله ينفجر بحجة يتذرع بها للعمل . وثمة حادثة من هذا النوع سجلت فى مفكرته بدرسدن سنة ١٨٦٨ عندما كان شـــابا فى السادسة والعشرين :

هذه الليلة ـ وانا استمع لعزف المس هافن الساحر وغناء الدكتور والسيدة الايطالية ؛ انتاب مشاعرى نوع من الأزمة . ان سرعة ادراكى بأن شيئا هنا ـ مطلق وتام ـ الى درجة ما ـ بعث فى نفسى تعززا لا سبيل الى التعبير عنه ـ من جمود حياتى الماضية التى كانت [illegible] فى مهب الريح لوقت طال أمده . يا الهى . وداعا الى غير رجعة ـ للاغراق [illegible] العقيم فى المقدمة الذى لا يتناسب مع الموضوع . كل خبرة صالحة ينبغى أن تعبر عن ... احتفظ بشدة عصبك وقوتك كل الوقت ـ وأعمل فى الحاضر باعتقاد صوفى فى حقيقة الانسانيةـ وفسره كيفما تشاء » .

وكون دعوة جيمس للروح الحربية كانت تعكس حاجته لا انجازه ـ فذلك ما يقربه صراحة بصدقه واخلاصه المعهودين فى رسالة بعث بهـــا الى لوتوسلاوسكى فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٩٩ :

« اعلم ، طبعا ، كما يعلم غيرى أن الذى يمجد شفويا ويبجل بالكلام عملا ما فانه يشهد على نفسه مؤقتا بأنه انسان لا يمارس هذا العمل ، وانما طمح اليه ويتطلع الى بلوغه وأنه يحاول أن يبعث فى نفسه الحماسة ويرفع من روحه المعنوية وشجاعته ... ومن ثم ، والى هذا الحد ، فان كل كاتب هو من نسميه « مستضعفا » . ولكن الانســـــان ـ كانسان ـ بالضرورة مستضعف . والبطولة دائما على حافة هاوية ، ولا تحتفظ بحياتها الا بالجرى . وكل لحظة هى هروب . وكل من هو حساس جياش ومحرك يعرف ذلك جيـــدا وينبغى الا يخجل من جراء ذلك » .

ويمكن اعتبار مقال جيمس ـ الذى كتبه فيما بعد فى سنة ١٩٠٧ عن « طاقات الناس » ، ممثلا لوجهة نظره فى سيكولوجية البطولة . فهنالك حد لقوة الناس فى حياتهم اليومية يقفون عنده ، وفيما وراء هذا الحد توجد مجالات وآماد للنشاط نادرا ما تبلغ ـ ضروب من التهيج والنوران

---

(٤٢) From a loose undated note, circ. 1868.

والاستفزاز تحملنا فوق السد الفعال عادة . ثمة خيط مشترك يشيع فى كل ملاحظات چيمس عن الدين ، والوسوسة (النوروستانيا) ، والحرب ، والزلازل والصوم والقصاص الاعتباطى بلا قانون ، وحب الوطن ، — خيط موصول يتغلغل فى النسيج الكلى لآرائه — قوامه الاهتمام بدراسة السلوك الانسانى تحت وطأة ضغط ثقيل والانتهاء الى أن الظروف الاستثنائية فوة باطنية استثنائية . ولهذه الظواهر علاقة بالميتافيزيقيا ، لأن مثل هذه القوة الاستثنائية توحى بالازاحة الفجائية لعائق وبالاستقاء من معين أكبر من الوعى . ولهذه الظواهر أيضا علاقة بالأخلاق حيث ان هذه القوة تختلف — فى الدرجة لا فى النوع — عن القوة الأخلاقية ، تلك الروح المناضلة المغامرة ، تلك الصفة البطولية التى تضفى على الحياة لون وبهاء القيمة .

ومن الخصائص المميزة للذاتية أنها ينبغى أن تكون قابلة للتقسيم الى حافزين متفاجين يخلقان توترا حتى عندما لا ينفلقان ويدخلان فى عداوة علنية . فأما الحافز الأول فهو حافز لتوكيد الذات ، وأما الحافز الثانى فهو حافز المشاركة الوجدانية : حافز التعبير عن شخصية المرء الذاتية وحافز تقدير ذاتية الغير .

وفى حالة چيمس كان كلا الحافزين أصيلين خليقيين فيه وقويين .

ومن ثم فهناك تذبذب بين أخلاق الوفاق والسلام والمنفعة الاجتماعية ، وبين أخلاق العدوان والاشتباك فى الحرب والفروسية .

ولقد تبع تحمسه الأدبى هذين الحافزين — حينا هذا الحافز ، وحينا آخر ذاك . وكان يشيد بمدح شعراء وكتاب القصة الخيالية لاحساسهم الجياش بجوانبه الطبيعية أو لخلقهم شخصيات حية تسعى . ولقد روى عن تولستوى ، وهاولز ، ووردزورث ، وهويتمان ، واقتبس من أقوالهم جميعا — كشهود يشهدون بقيمة الحياة كما تتكشف لبصيرة حانية متحررة . وأضيفت اليهم ، فيما بعد ، ثلاثة كواكب درية أخرى : و . هـ . هدسون ، وروبرت لويس ستيفنسون ، هـ . ج . ويلز . ولقد تحدث عن هدسون بغيرة تكاد تبلغ حد التقديس . ففى سنة ١٩٠١ فى معرض الكتابة الى صديقه أرسلت اليه صورة هدسون ، قال : « حبذا لو كان فى وسعى فقط أن أعتقد أنه هو الذى أرسلها بنفسه . انه لبس مجرد وغد كلاب ، ولكنه كائن علوى

من الملأ الأعلى ــ تجسدت فيه ثانية روح بوذا أو ما يشبهها . فى مرجوى ان اكون على مقربة منه فى الآخرة » (٢٥) .

والى قصة ستيفنسون « حملة الفوانيس » يدين چيمس بفضل المجاز الذى ينطوى عليه كل مذهبه فى النورانية الباطنية للحيوات المتواضعه .

والى ويلز « الذى هو تولستوى مشمس عفى صحى العقل » والذى كان چيمس يستطيب مذاق أسلوبه الشفاف وغيرته الأخلاقية « وقلبه الانسانى المثلث الأبعاد » وفلسفته الاصلاحية ومنهاجه التجريبى الانجليزى – كان فى سنواته الأخيرة – يدين بفضل منحه تعزيزا قويا شد أزره وثبت تفاؤله المتقلقل (٢٦) .

ومن جهة أخرى فقد ظل حبيباه القديمان ، كارليل وامرسون ، الهاتفين المفضلين الناطقين بوحى الانجيل المضاد ، والمعلنين حق الفرد الموقوف عليه وقفا مؤبدا ــ فى توكيد ذاته وتحقيقها ، وواجبه فى تنفيذ مثله الأعلى **الخاص به** .

على أن أغرب ساكن حل بهيكل آلهة چيمس الأدبى كان راديارد كيبلنج ، نبى الاستعمار الامبراطورى .

والرسالة التالية التى بعث بها چيمس لأخيه تلقى ضوءا على منشأ هذه الصلة الودية :

كامبردج ١٥ فبراير سنة ١٨٩١

« عزيزى هارى :

تناولت عشائى يوم الأحد الماضى مع هاولز ... وطربت جدا لسماعه يقول ان كليكما صديق لراديارد كيبلنج ومن أكثر الناس اعجابا به . يخجلنى أن أقول اننى كنت اخجل من الكتابة عن هيامى بهذه الظاهرة الوليدة ، ولم اكن اعلم ، كيف يمكن لمثلكما ولكما كل هذا الذوق البديع الفائق ــ أن يتأثر به ، لذلك خشيت النزاع ولذت بالصمت . وبقدر ما يطربنى الآن أن أعلم ذلك بقدر ما أتعجب لماذا لم تخبرنى بذلك قبل الآن؟ انه أقرب الناس شبها بشكسبير أكثر من اى كاتب آخر ــ حتى الان ــ فى جيلنا هذا ، فى رايى . ثم ان رؤية الآثار الجديدة التى احدثها اخيرا فى « الضوء الذى خبا » . وقصة سيملابول وشخصية

---

(٢٥) To Mrs. E.L. Godkin, September 21, 1901.

(٢٦) T.T., 234-40; To H.G. Wells, November 28, 1908 and June 5, 1905; L. W.J., II, 316, 231. James visited Wells at Sandgate in July 1908.

المسز هوكسبى المنشورة فى Illustrated London News تجعل المرء والقا الآن من انه ليس الا على أول الدرب فى بداية حياة مهنية تتسع دائرتها بسرعة ، وأن أمامه فرصة لا حد لها للنمو والتطور . ان كثيرا من خشونته وغلاظته ونزعته فى القذف والرج — ليست سوى لورة شباب — شباب قدسى . ولكن يا له من شباب . انه أكبر ظاهرة أدبية لزماننـــا العاصر — بلا مراء . ان له أحشاء فى غاية القوة ، ولا يحتاج الا الى أقل وقت لكى ينفذ الى صميم شخصياته ويضع أنامله على أوتار قلوبها ويحركها كيفما شاء — وهو فى ذلك يفوق أى شخص آخر أعرفه . وعلى العموم فطوبى له .

كل الأعمال الفكرية متشـابهة — ان الفنان يغذى الجمهور من صميم باطنـــه الدامى . ما الفرق بين كتاب الفيلسـوف كانت « النقد » وموسيقى الفالس لستراوس ؟ لا شىء ، ولقد شعرت منذ أيام وقد انتهيت من قراءة « الضوء الذى خبا » ومن كتابة محاضرة أخلاقية سالقيها فى كلية ييل — فى نفس الوقت(٢٧) ، انه ليس هناك ثمة فرق جوهرى بين راديارد كيبلنج وبينى بالقياس الى عنصر الضحية هذا ...

لقد زارتنى عصر اليوم المسز هـ . من برنسنون واستمرت زيارتها ساعتين ... ان زوجها ضحية من ضحايا السخريات الفظيمة البشعة لحضارتنا ، وهو الآن يقضى مدة عامين بالسجن ، تنفيذا لعقوبة حكم بها عليه ، بسبب ارسال كلام بذىء وفاحش للناس عن طريق البريد ، على شكل صفحة صغيرة جدا تسمى « الصوت » ، اخذت على عاتقها — من بين كل الأسباب التى يمكن أن يتصور المرء انها مدعاة للتظلم — الدفاع عن بعض كلمات ساكسونية معينة لا تذكر عادة فى المجتمع المهذب . وهذه الكلمات القليلة هى شهيدة وضحية الاجحاف والتعصب ، ويجب على المرء أن يموت فى سبيل ردها الى ما كانت عليه . يا لعظمة وتفاهة الانسان . Grandeur et Néant de l'Homme!

هل يستطيع أى انسان أن يتصور مثل هذه الحملة الصليبية ؟ ان المسز هـ . سيدة موهوبة على منوالها الخاص بها ، ولكنها فعلا مجنونة تماما . ولابد أن الله جل جلاله قد ضحك وهو يراها تنشب مخالبها فى الدكتور بيابودى(٢٨) فى أثناء سير المحاكمة . وجاءت هذه المرأة الى هنا لكى تظفر ببعض العلماء الذين يدافعون عن زوجها ويقفون الى جانبه . ولما كانت لا تعرف أى أسماء ، فقد طرقت باب أحد البيوت كيفما اتفق وسألت عن أسماء « المتحررين » فى الكلية . « هل تقصدين متحررين بمعنى متساهلين فى العطاء ؟ » « كلا — متحررين فى التفكير » .

فقيل لها عليك ببيابودى و س . س . ايفريت . ثم تذهب المرأة الى بيابودى فيقول لها :

« أن زوجك — رجل شرير — شرير جدا . جزاؤه السجن » ... فقالت له المرأة انها تكره البكاء وانها قد غفرت له مقالته . ثم خرجت من عنده ولم تكد تغادر بابه حتى هطلت دموعها على الأرض ...

---

(٢٧) "The Moral Philosopher and the Moral Life".

(٢٨) Dr. Andrew Preston Peabody, former Plummer Professor of Christian Morals.

والإشارات [illegible] الكلمات [illegible]
[illegible] ...

و. ج. »

في [illegible] سنة ١٨٩٦ [illegible] عملا [illegible]
[illegible] اتجه الى كبلنج [illegible]
[illegible] ... كتب
[illegible]
[illegible] فضلا عن [illegible]
[illegible] المساكن المتواضعة [illegible]
بعنوان « ما الذي يجعل لحياة ما مغزى » [illegible]
[illegible] في كل مكان ... والعاقبة [illegible] العقل [illegible]
[illegible] حتى ان ندرك [illegible] فليس في الإمكان [illegible]
[illegible] هاولز أو كيبلنج لهذه الرسالة (٢٩).

وكان كبلنج على وشك الإبحار الى أوروبا على [illegible]

[illegible] ٣١ أغسطس سنة ١٨٩٦

عزيزي چيمس

كانت رسالة عادلة ونيرة [illegible] ولكن بالله عليك لماذا اخترت [illegible] من [illegible] الأماكن (؟) والشيء الذي جعل لهذه الرسالة وقعا خاصا على نفسي هو انني [illegible] كتابة قصة طويلة [illegible] فيها عمدا على منوال النهج الذي تقترحه ... بمعنى انني [illegible] تفاصيل حرفة مضنية خطيرة (صيد الأسماك على الشواطىء الكبرى) واستعملت [illegible] التفاصيل في نسج كل حكاية [illegible] في [illegible] القصة وفي اضفاء الطابع الرومانسي على [illegible] يقع عليه البصر(٣٠). لقد فكرت على نفس [illegible] ثم [illegible] في شوتاكوا منذ سبع سنوات عندما فكرت في أمور لا سبيل الى الجهر بها. [illegible] عن لعنة أمريكا – [illegible] ويوما ما سوف [illegible] اللعنة [illegible] العالم بأسره. [illegible] الشعوب الأخرى [illegible] في اليوم. ولقد [illegible] أمريكا على [illegible] وحتى الآن لا [illegible] وبدأت [illegible] قساوة وعلى نحو [illegible] والمحاضرات [illegible] من [illegible] الخشب والعار الطبيعي. [illegible] ... [illegible] جريدة [illegible] وعندي أن

(٢٩) T.T., 277.

(٣٠) Captains Courageous, which appeared in McClure's Magazine in November and December 1896.

« حضــارة » شوتاكوا على نفس الصــعيد بالضبط مثل قرع الطبول الرتيب بطقوسه المضنية ، والرقص والكش والطلع المقدسة بكل ما فيها من كهنوت ورهبـــوت التى اصطنعها الزونى Zuni (وغيره من الشعوب البدائية الاخرى) لكى يحض روحــه المتحجرة المململه ضد عزله ووحشه بيئته . (لست عالما نفسيا ، وانت فارس حلبة علم النفس ، وقطعا ستدرك ما أعنى) . اهبط الى حيث يعيش قومك من رجـــال الحرف ، ولن يعوزك الدليل على وجود الحادثة والواقعة واللون فى حياتهم ــ وصيغة الحديث السجية الايقاع المؤثرة التى يلجأ اليها دائما فى أوقات الشدة والضـــغط أو الحســدة والولع . أما نحن البورجوازيين ، فنصبح بكما ، مدغمين ــ غير واضـحى اللفظ أو ــ اذا نطقنا ــ فانما ننطق كلاما سخيفا اخرق فى غير محله . انه موضوع شاسع وفاتن ، وسترى فيما بعد كيف انتوى الافادة منه . لقد أطرب عويلك « وبجشؤك » روحى .

المخلص دائما

رادیارد کبلنج »

وصفوة القول ــ فى التحليل النهائى ــ أن جيمس كان يؤثر انسانية السلام على بطولة الحرب القاسية • ان قبضة اليد على السيف تتراخى بالتأمل فى أن قضية الطرف الآخر قضية حقيقية وحارة لديه مثلما تكون قضيتى بالنسبة لى ــ سواء بسواء ، ولها نفس التسويغ الباطنى الذى عندى سواء بسواء • فاذا أعطى لمبدأ المشاركه الوجدانية ــ الأسبقية على مبدأ توكيد الذات ، فلايزال من الممكن مع ذلك الاحتفاظ بالصـــفات البطولية والجهادية • على أن مبدأ المشاركة الوجدانية هو نفسه قضية تستدعى شجاعة أدبية بل شجاعة جسمية أيضا •

هناك عدوان ينبغى أن نشن عليهمـــا الحرب بلا هوادة • الأول : الطبيعة المادية : « على انتبار أن المثل الأعلى لميدان الأخلاق هو تحالف المصالح البشرية ضد البيئة المادية ، وما يلحق بذلك من لجوء الى التعقل والتفكر فى كل شىء ــ يبدو لى أنه الحق والبداهــــه المنطقية والذوق السليم ــ التى لا غالب لها » (٣١) .

والعدو الثانى الذى يظل قائما عندما تتربع الانسانية على العرش ــ هو عدم الانسانية ــ الفظاظة ــ غلظ القلب ــ أيما شىء يضعف أو يقاوم أو يعارض الارادة الخلقية •

وقضية الحياة الرئيسية هى الحرب بين الخير والشر • وهذه الحرب فضائل الجهاد مثل الشجاعة والتحمل والصـــبر والأمانة والاخلاص

(٣١) W.J. to the author, July 17, 1909.

والطاعة والولاء . وعلى الرغم من ان الحرب ـ فى معناها الحرفى ـ تهيىء ـ بنوع خاص ظروفا مواتية لشحذ هذه الفضائل ، وخصوصا فى شدتها وحدتها البطولية ، الا أن تلك الفضائل تظهر فى كل الحيـــاة ـ عندما تستدعى هذه الحياة تحمل المشاق أو التغلب على المقاومة . على أن من الجلى أن چيمس لم يكن يعتقد أن السلام فى حــد ذاته هو « العوض الأخلاقى عن الحرب » . وعندما ألف المقال الذى يحمل هذا العنوان ، فقد ذلك بسبب اعتقاده أن الصفات الجهادية الباهرة متوقفة على الحرب لدرجه أنه لا يمكن الاحتفاظ بها الا باثارتها العامدة وتنبيهها المقصود . ولقد نشرت رابطة الوفاق الدولى هذا المقال فى سنة ١٩١٠ ولقى نجاحا عظيما ورواجا ، ووزع منه أكثر من ٣٠٠٠٠ نسخة ، وأعيد طبعه مرتين فى المجلات الشهيرة . وهطلت على الكاتب رسالات التأييد والاستحسان من جميع الأنحاء ـ ليس فقط من أنصار السلام المؤيدين لدعوته ، ولكن أيضا من عدد كبير من غيرهم ، ومن بينهم ضباط الجيش الذين راق لهم اعتراف چيمس الصريح المخلص بالدواعى النفسية والأخلاقية للحرب . ولم يثر چيمس ضجة حول تعطش الانسان الطبيعى للدماء ، وأبدى تفهما وعطفا على أولئك الذين يسوغون الحرب على أساس أنها الحافظ العظيم الذى يصون المثل العليا للبسالة والاقدام والجرأة :

انهم يحاجون « بأن فظائعها ... »

« ثمن بخس ندفعه لقاء الخلاص من البديل الوحيد المفروض ـ من عالم الكتاب الديوانيين والملقنين ، من عالم التعليم المختلط الجنسين وعشق الحيوان ، من « أحلاف المستهلك » و « الصدقات المتحدة » ، من السياسة الصناعية بلا حدود ولا قيود ، من مبدأ مساواة المراة بالرجل مساواة مطلقة ـ بلا استحياء . لا ازدراء ولا قساوة ولا بأس بعد ذلك . تبا وسحقا لمثل هذه الحظيرة للأنعام فوق هذا الكوكب . والى الحد الذى يذهب اليه الجوهر الأساسى لهذا الشعور ... فلا يملك شخص ذو عقل سليم الا أن يشترك فيه ـ الى درجة ما » .

ولكن هدف المقال كان دعم قضية السلام وتأييدها باقتراح وسيلة لتسامى هذه الروح الحربية :

« ينبغى ان نجعل الطاقات والبسالات الجديدة تستبقى الرجولة والنخوة والشهامة التى يتشبث بها العقل العسكرى بكل هذا الاخلاص والغيرة . ان الفضائل الجهادية ينبغى ان تكون الأسمنت الساند المستديم ، ويجب أن تظل البسالة ، واحتقار النعـــومة والميوعة ، واخضاع المصلحة الشخصية ، وطاعة الأمر ، هى الصخرة المنيعة التى تبنى عليها الدول » .

وبتجنيد كل الشباب لكى يؤلفوا – لعدد معين من السنين – جزءا من الجيش المتطوع للحرب ضد « الطبيعة » ، أعتقد چيمس أن ذلك كفيل بنسج المثل العليا العسكرية للبسالة والنظام فى نسيج النـــاس وفى خيوط قوتهم ونشاطهم النامى ، ولكن دون القساوة والغلاظة والصرامة والعنف والانحطاط التى تصاحب الحرب (٣٢) .

(٣٢) M.S., 276, 287-8. 290-2.

٢٦

عواطف اجتماعية وسياسية

على الرغم من أن هناك مبدأين بارزين – يبينن بشكل واضح جدا في فلسفة جيمس الاخلاقية : مبدأ توكيد الذات الحربي . ومبدأ الانسانية . فان المبدأ الثاني كما رأينا هو أكثرهما رسوخا وجوهريه – نظريا وعمليا على السواء – على أن عاطفة جيمس الانسانيه انبثقت من منابع عديدة . فأولا كانت عنده حساسيه المعاناة والتألم حيال آلام الآخرين . وكانت هناك لحظات – اتخذت فيها هذه الحساسية عند جيمس مثلما بلغت عند أبيه – مظهر السوداء والوبالة . ودراسه علاقاته بأخته آليس خلال مرضها الذى لازمها طوال حياتها وموتها البطيء المتوانى تمدنا بسجل كاشف جدا لهذه الخصيصة .

بيد أن ما كان من الممكن أن يصبح بسهولة عيبا ونقصا وخالا فيه ، أصبح فى نهاية الامر – بسبب التأثير التعويضى والتخفيفى لسجاياه الأخرى ، مصدر قوة . وبدلا من أن تمضى رفضه المفرطه فى الاستجابة الوجدانيه الى اتقاء الحياة والتملص منها ، امتزجت بالعناصر الاخرى فى سجاياه مؤلفة صداقات ودية وولاء ايجابيا للمثل الانسانية بل ميتافيزيقيا تعددية .

على أن وجود رحمة غير معقولة فى جيمس فرضت على كل أفكاره وأعماله أن تلائم نفسها لها ، يتجلى فى عجزه التام عن أن يطرح من عقله أية حالة من حالات الكرب اذا ما استرعت انتباهه . فهو لا يتركها الا ليخضع ثانية لحافز لا سبيل الى مقاومته . وهذه الرحمة التى تذهله عما عداها أفضت بجيمس الى شفا الموافقة على أن « الشفقة رذيلة ينبغى أن تستأصل هى وموضوعها » . ثم قال « وأعتقد أن هذا كذب ولكنى أقر بأن حفر مصارف الشفقة مشكلة هندسية صعبة » (١) .

---

(١) To Mrs. Glendower Evans, April 13, 1900.

والوجه الآخر لسفقته هو كره القسوة التي كانت من بعض الأمور لدى چيمس عندما يفكر بمهنة ذات غرض سام . حتى الواجب حسم دعواه عندما يحجر القلوب • ودون ان يتضح مزاج حكمه على « محك التحقيق » التي تشير قريبا الى « الاحساس العجيب المتسم باحساس [illegible] الذي توحي به الى الصحبة — وجمعنا بين [illegible] وضعف العقل — وبين قوى الحياة والموت مع جهاز عقلي يكاد يبلغ مبلغ [illegible] — عقل لا [illegible] على رأس [illegible] ارادة [illegible] لمجرد [illegible] (٢) .

ويتجه احساسه [illegible] الى [illegible] على الدوام — الى جانب العاملين على [illegible] والمعذبين في الارض تحت نير الظلم — الى جانب [illegible] ضد انجلترا . والى جانب الفلبين ضد الولايات المتحدة الامريكية . والى جانب الصين [illegible] ضد [illegible] . والى جانب الجنود أو الأهالي ضد الضباط . الى جانب الكافة ضد الارستقراطية . الى جانب المغمورين ضد أصحاب السيادة والاحترام . الى جانب [illegible] والارتياب ضد العقيدة المطلقة . الى جانب الشباب ضد الشيوخ . او الى جانب الجديد ضد القديم •

ويمد مصدر آخر — مستقل تماما — لعاطفة چيمس الانسانية الرحيمة — هو لطف عشرته ومؤانسته الاجتماعية • كان شخصا اجتماعيا من أعلى طراز — ليس بمعنى أنه مسرب بالتقاليد أو واقع تحت سيطرة الجماعة . ولكن بمعنى تذوقه العجيب واستطابته وموهبته الفذة في المعاملة الانسانية • كان كريما رحوما خيرا — بشكل ثابت متماسك • كان يتسامح مع الناس . ليس من ناحية المبدأ فحسب ، ولكن عمليا ، ثم انه لم يكن يتسامح معهم فحسب . ولكنه كان ينعم بوجود الناس بلحمهم ودمهم . وعندما كان بصفو مزاجه كان سخيا وصريحا ومنفتحا ومنسعا في علاقاته بالغير • ولكن هذا المزاج — مثله مثل كل احوال چيمس وأمزجته — كان معرضا للتقلبات من حين لآخر . كان يكره المناسبات الرسمية او المناسبات العامة المزدحمة عندما تطيب تشجيع العلاقات الانسانية السارة وفي نفس الوقت تستحيل ممارستها . ولما كان من أكثر الناس ادراكا لما يعتمل في نفس شخص ذي حساسية اجتماعية من احساس

(٢) Notes for the Lowell Lectures of 1806-7.

بالوحشة والكآبة فى وسط عديم الحساسية الاجتماعية ، فقد كان كثيرا ما يجامل ضيوفه بموجب هذا الاحساس ، وسيظل دائما عالقا بالأذهان أن چيمس ذات مرة عجل بخروج احد طلابه — دون أن يأخذ قبعته — من الباب الخلفى — كان چيمس قد تصور خطأ أنه يتوق الى الهروب من كزازة الحفاوة واكرام الوفادة .

وثمة حادثة أخرى من هذا النوع حفظتها لنا سجلات حياته :

« فى أثناء دراساتى عليه ، دعانى چيمس لحفلة شاى بعد الظهر فى منزله . وكنت شابا خجولا وتهيبت الذهاب ، ولكنى رأيت لزاما على أن أذهب ، فلما دخلت الدار بدا لى المكان مزدحما بالناس وشعرت بحرج وعدم ارتياح — بكل تأكيد . وقابلت چيمس فى صالة المدخل ، وكان هناك شىء فيه يوحى بالثقة التامة ويبعث فى النفس الطمأنينة فوجدت نفسى أبوح له بما يخالجنى من شعور ، فقال : « نعم ، أنا أدرك ذلك ، وعندما أرى هؤلاء الناس الذين يعرفون بالضبط ماذا يقولون وماذا يفعلون بالنسبة لأى أمر من هذه الأمور ، فانى أشعر برغبة قوية فى أن أحطم رؤوسهم بصخرة من صخور رصف الشارع » . ولقد شعرت بفرح كبير وانشرح صدرى بسبب فهمه الحانى العطوف وطريقته القوية المعهودة فيه فى التعبير عما يخالجه ويخالجنى من احساس »(٣) .

على أن هناك ناحية أخرى من انسانية چيمس يصعب وصفها وتحديدها أكثر من النواحى الأخرى . فاذا وصفت بلفظ « الخلط » لكان الوصف أقوى جدا مما يجب ، فى حين أنها اذا وصفت سلبيا على اعتبار أنها غياب المناكفة فيه لكان الوصف أضعف جدا مما يفى بالغرض .

ومن بعض صفحات معينة من كتاب « مذكرات ولد وأخ » نستدل على أن هنرى چيمس كان يشعر بأن أخاه وليام چيمس يفتقر الى الذوق فى اختيار خلطائه . والحقيقة هى أن وليام كان عنده تحرر الفاحص الطبى من التعصب أو التحيز — فالانسان المتألم هو انسان متألم — أيا كان وأنى كان .

وكان لديه رفاقه المختارون ، ولم يكن هناك من هو أسرع منه ادراكا للفرق بين الخفيف الظل والثقيل الظل . ولكنه كان يتجاوز الى ما وراء والى ما فوق هذا الانطباع ، ولم يكن من النوع الذى لا يتضايق من المتطفلين ، ولكن كدره كان ينفثىء بمجرد أن يجد « تحت القبة شيخا » . ولقد كان جزءا من عبقريته أنه يجد شيئا فى داخل الغير لم يكن فى وسع

(٣) From a letter to the author by George D. Burrage, Harvard '83.

الآخرين تبينه . وكان جزءا من فلسفته أنه يؤمن بأن هناك دائما شيئا في داخل كل انسان ـ يجده من ينفذ اليه ببصيرة حانية . على أن تعميم رقة قلب جيمس الى عاطفة انسانية رحيمة وعقيدة خيرية . كان راجعا الى حد ليس بالهين ـ الى انعدام التأفف والقرف عنده . كان خلقه قادرا ـ على نحو ما ـ على الجمع بين ذوق انتقائي مدقق يختار الأصدقاء الحميمين ويؤثر الصحاب ، وبين عاطفة وجدانية مشاركة شاملة محيطة تضم عابر السبيل كما تضم أقرب المقربين ـ عاطفة كانت تمد عقيدته الانسانية الخيرية بالاخلاص والصدق وسلامة النية .

وكل صفات جيمس الخيرية تتجلى في صداقاته . كانت الوحشة والغربة والرسميات والشكليات سرعان ما تذوب في حضرته ، والمعرفة تنضج وتثمر الى ود والود الى حب مقيم .

وتتجلى موهبته للصداقة في علاقات شبابه مع وارد وعولز . وفي علاقاته فيما بعد مع هودجسون وروبرتسون ورينوفيير ودافيدسون وجورني وستامف . وانا لنجد الحرارة التي أثمرت بذرة الصداقة وأخصبتها وعجلت بنمو شجرتها النامية . في رسالتيه الى المسز فرانسيس تشايلد وتشارلز اليوت نورتون . فأما أولاهما فقد كتبها ردا على رسالة تهنئة بمناسبة تعيينه في منصب أستاذية الفلسفة . وكانت المسز جيمس في ذلك الوقت مريضة بالحمى القرمزية .

(كامبردج) ٢٧ مارس سنة ١٨٨٥

« عزيزتي المسز تشايلد :

ان رسالتك هي أحسن ما ظفرت به بمناسبة ترقيتي ـ تساوي أكثر من كل ما تضفيه على هذه الترقية من شرف أو سلطة أو دخل . لقد أضاءت رسالتك بيتنا بضياء الوداد والتعاطف . لقد فرغت لتوي من قراءة رسالتك على آليس من خلال الباب الذي حشيت شقوقه بالقطن ، وكل ما سمعته منها هو نوع من القرقرة والهديل في صوت « تخنقه عبرات » السعادة . انها تشعر ـ كما أشعر ـ أن كلمة واحدة من المشاركة الوجدانية الصادقة تساوي كل فلسفات وأستاذيات الدنيا بأسرها . مع صادق حبي واعزازي لأسرتك المباركة ، اقبلي أخلص الود والمحبة من ...

و . م . جيمس »

حاشية : كما يقول شوبنهاور الخالد « في وسع أي انسان أن يواسي غيره في أحزانه ، أما مشاركة الغير في سعادته فذلك وقف على الملائكة » (٤) .

(٤) "Anyone can sympathize with another's sorrow, but to sympathize with anothers joy is the attribute of an angel".

وبعد اثنى عشر عاما من هذا التاريخ قدم چيمس لنفس الصديقة كتابه « ارادة الاعتقاد » وكتب بها اهداء بخط يده . « الى المسز تشايلد من محبها و . ح . ثم ذيل الاهداء بعبارة « ليس هذا الكتاب للقراءة — وانما لمجرد الاقتناء فحسب ، والابتسام من حين لآخر لحب المؤلف » .

ولقد استمرت الصداقة القديمة بين أسرتى چيمس ونورتون طوال حياة چيمس — فى صلته الوثيقة مع جريس نورتون وتشارلز اليوت نورتون :

كامبردج ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٧

« عزيزى تشارلز :

لا يمكننى أن أترك يوم عيد ميلادك الثمانين يمر دون ان أكافئك بدمعة رخيمة عذبة . ولعلك الآن تتلقى اليوم سيلا لا عدد له من التهانى والتمنيات بالسعادة يهطــل عليك مدرارا ؛ ولكن لا يمكن لأى منها أن تفوق فى الاخلاص والقلبية — تهنئة آليس أو تهنئتى أو تهنئة أولادنا أيضا لأنهم « رضعوا من نفس النبع » ، ولقد كنت بالنسبة لعقولهم واخلادهم وأفئدتهم عبقرية الجيرة الحارسة التى تكلؤهم برعايتها — كنت لهم بمثابة العم الرفيق الحميد الوهاب الذى يتحفهم دائما بكلمة طيبة أو هدية لطيفة تسرهم وتبرهم ، وذكراك ما زالت خالدة فى أفئدتهم كاحدى القوى الودودة الصديقة الحانية التى تعرش على عالم الطفولة . انه لمنال عظيم أن يعيش الانسان ثمانين عاما مجسمة ، كل عام منها لاهث خافق يلتهم أحدها « واطئا طبقاتها بخطو الدهور » ومختزنا فى أعطافه كل تلك الخبرة وحتى فى حالة ما تكون الخبرة عاطلة هامدة ، فالمنال عظيم ، فما بالك اذا كانت الخبرة ناشطة حية كخبرتك تلعب دورا حيويا فى كل محاولة وفى كل مشروع يعرض فى حياتها ، وما بالك عندما يكون صاحب تلك الخبرة ، رجلا مثلك مد يده بالعون والتأييد والسماح لمثل هذا الجم الغفير من الناس الذين كانوا يكافحون فحولت عسرهم يسرا ؟ ان الناظر الى ماضى هذه الحياة لا يسعه الا أن يشعر بالرضا والسعادة وبركة العمر . انك واحد من أولئك الذين جعلوا من حياتهم توفيقا ونجاحا فى أسمى معـــانى النجـــاح والتوفيق ... أما الأمانى بأن يطول عمرك — سعيدا مديدا موفقا للســـعادة والبركة والطمأنينة والسكينة ، فهذا هو الدعاء الذى يبتهل به صديقاك المحبان :

وليام وآليس چيمس »

أما ما كانت تعنيه صداقة چيمس بالنسبة للآخرين ، فيتجلى فى رسالة بعث بها اليه أحد أصدقاء شبابه ، تشارلز ريتر ، شاكرا وذاكرا لتسلمه آخر كتاب ألفه :

جنيف ١٥ يونيه سنة ١٩٠٢(٥)

وصلني سفرك الجليل ، الانواع المختلفة للخبرة الدينية " يوم الاثنين الماضي ٩ يونيه وملأني سرورا وسعادة ، كرمز للحياة في صديق قديم ، ودليل على قدرتك على انجاز مشروع كنت مهتما به للغاية . وأخيرا من اجله ذاته ... والآن يا صاحبي العزيز توج مروءتك نحو صديق مريض قديم قعيد دار شارع سانت ليجر بأن ترسل اليه صورة شخصك العزيز وصورة مدام وليام جيمس وصور اطفالك العزاز . فاذا تفضلت أنت (أو المدام) بأن تضيف كلمة صغيرة عن حياتك الراهنة فقد أوفيت المنة ... امنح صداقة قديمة ، بعد اثنين وأربعين عاما ، صيف سان مارتن ، وشمس أواخر خريف رائع ... وطوال هذا الأسبوع وأنا أقلب صفحات سفرك الجميل ، كنت أتوقف لأتذكر مراحل تلك الصداقة :

أولا . أيام سنة ١٨٦٠ الجميلة وعندما كان يبرق جبينك ببهاء الصباء...أيام ما أسرع ما مرت ... أيام ما أقصرها وا أسفاه . وبصفة خاصة أيام عيد الربيع في مودون عندما كنت تسخر من حماستي الفتية لرينان ، وعندما كنت تستشهد بعبارته " بالنسبة لي أعتقد أنه لا يوجد في العالم كله ذكاء يفوق ذكاء هذا الرجل " ــ يقينا ليست صيغة سالمة الأرثوذكسية .

وبعد ذلك زيارتك لجنيف سنة ١٨٦٨ ، وتعابلنا في غرفة نوم أحد الفنادق . ثم اجتماع الشمل اللذيذ في محطة برن في مايو سنة ١٨٩٢ من عشر سنوات .

ثم ذلك اليوم الحلو في ميجين على شاطيء بحيرة لوسرن في مايو سنة ١٨٩٢ .

وأخيرا الأوقات الطيبة في أبريل سنة ١٩٠٠ ... ولقاؤنا القصير في الخريف .

وتمضي الأيام يا صاحبي ... وبعد خمسة عشر يوما أبلغ العام الرابع والستين من عمري . فلقد ولدت في اليوم التاسع والعشرين من يونية سنة ١٨٣٨ ... وليس عندي الكثير الذي أشكو منه ــ بل على العكس ، ينبغي أن أعتبر محظوظا في هذه المغامرة مع القدر . تلك المغامرة المحفوفة بالصعاب والمعرضة للمصادفة .

وعلى أية حال فان من أسعد المصادفات التي كانت من نصيبي في حياتي ... كانت مصادفة لقائي في عامي الثاني والعشرين من حياتي الصديق الفاتن الذي يسبي العقول ، والذي قدر له أن يصبح رجلا مشهورا ذائع الصيت ، والذي يطيب لي أن أشد على يده بكل رقة وبأعمق ما في فؤادي من ود وحب وولاء ...

تشارلز ريتر .

وآخر هذه البينات التي تومىء الى الصداقة ... تأتي من تشارلز بيرس . وهي رسالة كتبها بعد موت جيمس بوقت قصير الى ابنه هنري وليام جيمس :

---

(٥) Translated by the author.

ميلفورد ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٠

« عزيزى المستر جيمس :

كان ابوك آخر البقيه الباقيه من أولئك الرجال القلائل الذين قطعوا نياط قلبى . ولم يسبق لانسان آخر أن انفطر قلبى حزنا عليه ــ مثلما انفطر عليه ، حتى ولا والده جيمس الكبير . ما كانت نفسى تطيق البعد عنه أياما قليلة دون أن تهفو للقائه . وعندما كنت اسكن فى شارع بريسكوت وأطل من النافذة وأراه ــ أخيرا ــ يمر من الشارع ، فما كانت أشد لهفى على أن يزورنى . أن تغلغله فى قلوب الناس ونفاذه الى فؤادهم ــ بلغا ذروة الاعجاز . ولم يكن واحدا من أولئك الناس الذين يرون فى القلوب شرورها وآثامها أساسا . واعلم أن رسالتى لابد أن تبدو فى عينك انانية جدا ، ولكن عذرى أن اباك كان زميلا يحب ويحب بكيفية شائقة رائعة ، بحيث انه لا جدوى من أن اقول لنفسى ما أكثر ما لابد أن يقاسيه أولئك الذين كانوا يرونه كل يوم ... ومع ذلك فليس فى وسعى أن أخفف من لوعة حزنى عليه . لا ريب أن لافونتين كان يعنيه عندما كتب :

Qu'un ami véritable est une douce chose.
Il cherche vos besoins au fond de votre coeur;
Il vous épargne la pudeur.
De les lui decouvrir vous-même.

ما أعذب وأحلى أن يكون لك صديق حميم
انه ينفذ الى صميمك مفتشا عن حاجتك ويلبيها
فيعفيك من الاستحياء من الافصاح عنها بنفسك .

ثمة نقود يمكن أن توجه الى كتبه الثلاثة الأخيرة ، ولكن كل الرؤوس السليمة والقلوب السليمة ستمجد وتحب الى الأبد ... الرجل .

ت . س . ب . »

بيد أن نعومة وطراوة وليونة قلب چيمس لم تنتشر لتبلغ رأسه . لقد اقتضت منه أعمالا من المروءة والشهامة والنخوة كانت كثيرا ما تكلفه عنتا وتعبا ومشاكل وترهقه من أمره عسرا . ولكنه كان لا يزيد عن سواه من الناس فى تعرضه للخطأ فى أحكامه الشخصية . والفرق بينه وبين غيره هو أنه حين كان يرى ضعف الناس مثلما يرى قوتهم ، فانه كان يعجب بما فيهم من مزايا بدلا من أن يحتقرهم لما فيهم من نقائص وعيوب . ومما يعزى اليه أن عاطفة الرحمة كانت تعمى عينيه ، وخصوصا رحمته بالأشخاص المقلبين غير المأمونين . والحقيقة هى أن الخبرة الطويلة زودته بمعرفة بصيرة ذكية بالنوع الانسانى . وعندما كان يشفق على شخص « ملتو » فقد كان على وعى تام بأنه يمنح عطفه ورحمته لشخص « ملتو » . ولكن حتى فى الأشخاص الملتوين من طراز أسفل سافلين ، فقد كان يجد

شيئا يمس قلبه . وفى هذا الصدد كتب الرسالة التالية الى هنرى هولت :

كامبردج ١٩ يونية سنة ١٨٩٦

« عزيزى هولت .

ملنر مسكين – يهودى روسى – من شيعة سبينوزا استدر شفقتى برغبته فى ان اساعده على نشر مؤلفه العظيم (الذى لا يزيد على ثلاثمائة صفحة اختصرت من أصلها البالغ ١٤٠٠ صفحة) . وهو يموت حزنا – بالمعنى الحرفى – بسبب عجزه عن نشرها . والموضوع كان من الممكن أن يثير بعض الاهتمام فى سنة ١٦٥٠ ولكنه – طبعا – ميئوس منه الآن . ومع ذلك فكزميل له فى الالتواء والاحتيال فقد اندفعت بباعث العطف الانسانى الى الاسهام بمعونة الأصدقاء بمبلغ خمسين جنيها لطبعها ، وكتبت له اننى سأكتب الى ناشر من معارفى أستشيره فى الأمر – وكنت اقصدك انت . كم ينبغى أن يطلب ناشر كضمان فى مثل هذه الحالة – لنشر كتاب من ٣٠٠ صفحة وطبع ٥٠٠ نسخة من ورق رخيص ، وطبعا دون تصحيف (فى الطباعة) ؟ هل لك رغبة فى أن تسمح لهذا الكتاب بأن يحمل اسمك ؟ ان الفتى المسكين صاحب أسلوب عظيم على طريقته .

صديقك المخلص دائما

وليام چيمس »

وكان لعادة توجيه اعتباره للجانب المعجب من أى رجل ، أثر عميق على علاقات چيمس المهنية . لقد اخصبت أشعة وده التربة التى أضاءتها بنورها – والتى كثيرا ما تكون تربة – ظلت حتى ذلك الوقت – جرداء قاحلة متوارية لا يحفل بها أحد ولا ينتظر منها أحد ثمرا أو خصوبة ، لأنها مطمورة فى روح انسان مغمور خجول . كان الطلاب والزملاء يحاولون أن يرتفعوا الى مستوى الخير والصلاح الذى كان چيمس يتوقعه منهم . كانوا يحاولون أن يكونوا عند حسن ظنه .

كتب مرة الى مونستربرج : « اقرأ الآن كتاب أوستوالد « محاضرات عن الفلسفة الطبيعية » Vorlesungen über Naturphilosophie وانى لأجده كتابا أنيقا لذيذا الى أقصى درجة . ولست أعتقد أنه سبق لى أن غبطت عقل أى رجل مثلما غبطت عقل أوستوالد – باستثناء عقل ماش »(٦) . وهذا التحفظ الذى يؤثر ماش على من عداه يكشف عن دخيلة نفس چيمس تماما . كان يغبط كل انسان تقريبا على عقله ، لأنه كان

---

(٦) July 23, 1902.

يرى فى كل عقل صفة طيبه معينة ليست عنده ، وكان يقر بقيمتها بالتعبير عن رغبته فى أن يحوز تلك الصفة ٠

كان چيمس يؤمن بحكمة أن الناس يبلغون أوج ازدهارهم فى ضوء شمس الاستصواب والاستحسان ، وكان يمارس هذه الحكمه عمليا ٠ وعندما هناه صديق له تهنئة حارة على أحد كتبه أجاب چيمس :

« تصور مبلغ عطفى لدى تسليمى بطاقتك هذا الصباح ، انها أول مدح حقيقى قدر لى أن أظفر به لقاء هذا العمل ... ومن مثلك ... ان ما قاله صديقى هوويسون صحيح ، اذ أنه قال :

« ان أكثر ما يشتهيه فيلسوفك الأصيل هو المديح والاطـــراء ، المنزلة ، المديح الاحرش بلا صقل » . هاريس ... يسميه الاعتراف بالفيلسوف ، ولكن المديح فى الحقيقة هو ما نطلبه جميعا ونسعى اليه ونعمل من أجله . ومنذ سلمت مديحك وأنا اشعر أن كتابى يقينا قد أفلح(٧) ٠

وكان اثر حضور چيمس بين أى جماعة . هو أنه عادة ما يرفع درجة الحرارة العامة للترحاب والانعاش ٠ كان الناس يتبادلون العبـــارات اللطيفة ، وحيث ان الناس كانوا بدورهم آخذين متلقين للسلام والوئام فقد كانوا غريزيا يبحثون عن كسب السلام والوئام — الأمر الذى يوضح حكمة چيمس الفلسفية المأثورة القائلة بأنك اذا **أردت** أن تعتقد الخير فى الناس **وشئت أن** تحسن الظن بهم ، ففى وسعك أن تخلق الخير الذى تعتقـــد به ٠

وفى هذا الصدد قال چيمس فى سنة ١٩٠٠ : « ان الفائدة العظمى لحياة ما هى أن تنفق فى سبيل شىء يخلد بعدها »(٨) وهذا الحافز لما هو أدوم وأخلد وأبقى ، كان عندئذ مثلما كان دائما فى ســـابق الأيام هو سعادة البشرية . بيد أن چيمس لم يكن يوتوبيا (خيالى التفاؤل بكمال البشر) ٠ لقد قال « أومن بكل ورع وقنوت بسيادة حكم الســـلام ، وبالمقدم التدريجى لنوع ما من التوازن الاشتراكى »(٩) . كتب هذه العبارة فى سنة ١٩١٠ ، كتبها قبل أن يقول الآتى باثنى عشر عاما :

(٧) To Theodore Flournoy, June 2, 1902; the book was : The Varieties of Religious Experience.

(٨) To W. Lutoslawski, November 13, 1900.

(٩) M.S., 286.

« على المجتمع أن يمضى ... قطعا ـ نحو توازن جديد وأفضل ، وتوزيع الثروة لابد أن يتغير ببطء دون شك . ومثل هذه التغييرات حدثت دائما وستحدث الى آخر الزمان ، ولكن ، بعد كل الذى قلته ، اذا توقع أى منكم أنه سيحدث أى فرق حقيقى حيوى على نطاق واسع فى حياة خلفنا ، فانكم بذلك يفوتكم مغزى محاضرتى كلها . ان المعنى المجسم للحياة هو دائما نفس الشىء الخالد ـ ألا وهو الزواج بين مثل أعلى غير اعتيادى ، مهما كان خاصا ، وبين اخلاص وأمانة وشجاعة وصبر ، وبين آلام رجل أو امرأة ـ وأيا ما كانت الحياة وأينما كانت ، فستكون هناك دائما الفرصة لكى يتم هذا الزواج »(١٠) .

وبين هذين التاريخين ـ حدث فيما أعتقد ، تغير فى مركز الثقل ، مرده جزئيا الى الاشتراكية الفابية لهربارت جورج ويلز(١١) . ولكن هذا التغير لم يبلغ من التطرف حدا يكفى لازالة اللبس الأساسى الذى لفتنا اليه النظر آنفا . هل تلتمس الحياة الطيبة فى تلك الحالة من الأمور التى تبدأ بعد القمع الظافر للشر ، أم هى تلتمس فى القمع ذاته ؟

فمن جهة ، كان چيمس يمقت الشر ويمقت التجاوز عن الشر . ومن جهة أخرى كان يشعر أن الصفة الفاديه المستنقذة للحياة هى تلك البطولة التى لا يمكن أن توجد الا اذا كان هناك شر ماثل يقاوم ويقهر ويقمع ، ومن ثم فان الاعتراف بأن الشر ظرف لا غنى عنه لحدوث الخير ، معناه التجاوز عنه ، ومعناه الانزلاق الى « الذاتية الذهنية » التى كان چيمس قد فهم مفاتنها الفلسفية المخاتلة فهما جيدا ، والتى درأها بعنف شديد فى الثمانينيات المبكرة .

ثمة طريقة ، طريقة جيمسية ، يمكن بها تلافى هذا التناقض الظاهر ، فالمطلوب لجعل الحياة ذات مغزى هو « معركه فعلية » ، مغامرات ومخاطرات واقعية وعوائق حقيقية . فاذا اعتقد امرؤ أن المخاطرات والعوائق موضوعة هناك فقط من أجل تأثيرها الأخلاقى ، فان روح المغامرة لديه تتقوض . ان أعظم عالم ممكن ـ من وجهة نظر أخلاقية ، هو ، اذن ، عالم لا يدبر عمدا لهذا القصد ـ عالم تكون فيه ظروف الحياة ذات المغزى عفوية وليست قصديه . وحيث ان هذه الظروف ، فى الواقع من الأمر ـ تحدث فعلا ،

---

(١٠) T.T.,298-9.

(١١) Especially this author's First and Last Things, which James read with high approval.

(١٢) W.B., 169 ff.

وتحدث بالمثل فى كل عصر وعمر ، فليس ثمة تقدم بالنسبة للممكنات البطولية للحياة . ولكن الحياة البطولية قد تكون حياة كلها شفقة ورحمة وانسانيه — وهنا يجب على المرء أن يبحث عن التقدم — فى جعل الصفة البطوليه للحياة الفردية لشخص ما لا تكلف الآخرين ثمنا باهظا . « كلنا على استعداد لأن نكون متوحشين فى بعض القضايا . والفرق بين رجل خير ورجل شرير هو اختيار القضية »(١٢) .

والمنشأ الجذرى لسياسة چيمس العملية ، لا يلتمس فى أخلاقياته وفلسفته ، وانما فى حقيقة أنه كان ينتمى الى الطبقة المثقفة ، وأنه بموجب هذا ارتضى لنفسه دورا خاصا ومسئولية معينة بالذات . كان مستقلا فى السياسة الأمريكية ، مناهضا للاستعمار مصلحا للجهاز الحكومى ، مسالما يكره الحرب ، ومن المدافعين عن دريفوس** ، دوليا وليبراليا . أى سيماء تؤلف هذه الملامح ؟

انه — بكل وضوح — نصير التخفيف والمعرفة باعتبارهما مضادين للعنف واهوى الجامح . وما تضمنت ديموقراطيته ولا انجيل سلوكه وعمله رفعا للفروق . وما كان يؤمن بأن الناس سواسية كأسنان المشط، ولا فرق بين رجل ورجل . وما كان يؤمن بأن قضايا الحياة على حد سوى — فى قيمتها . وكانت سياسته يحكمها مبدأ التمييز . فالرجل المتربى هو الرجل الذى يعرف كيف ينقد ، وأخذ على عاتقه فى السياسة أن يقوم بدور المقاصة والموازنة بخير ما فيه من قوة — بين وصولية الطامحين الانتهازيين وبين الأهواء الضالة للجماهير .

ومما لاريب فيه أن أعظم أثر مفرد على تفكير چيمس السياسى كان ذلك الأثر الذى أحدثه أ٠ل٠ جودكين . ففى أثناء اقامة جودكين فى كامبردج فى السبعينيات الأخيرة أصبح صديقا حميما لأسرة چيمس . وكان وليام چيمس وهنرى چيمس ودائرة أصدقائهم فى كامبردج يقرأون مجلة الأمة

(١٢) To E. L. Godkin, December 24, 1895; L.W.J., II, 28.

** قضية مشهورة اتهم فيها دريفوس — ظلما — بالجاسوسية لحساب دولة أجنبية ثم ظهرت براءته . وقد تحولت القضية الى مسألة سياسية ، وعجلت بمبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة فى فرنسا . ولقد انقسمت فرنسا ازاء هذه القضية الى شيع وأحزاب لمدة عشر سنوات . وكان للقضية صدى فى أمريكا . ولقد ظهرت براءة دريفوس بعد أن حكم عليه بالأشغال الشاقه المؤبدة (١٨٩٤) . ولقد ساند دريفوس الجمهوريون والاشتراكيون والمضادون للكنيسة ، ووقف ضده الملكيون والعسكريون والكاثوليك .

وصحيفة الايفننج بوست ويكتبون لهما · وكانت صحف جودكين هى أهم وسيط فى ذلك الوقت يجد فيه المتحررون والساخطون متنفسا فعـــالا وتعبيرا نافذ المفعول لآرائهم السياسية · وكانت هناك فترات من الزلل والنشاط تنتاب چيمس فى صلته بهذه الحركة ؛ فأما الزلل فقد كان مرده الى كره چيمس لانكارات جودكين ومجادلاته . وأما النشاط فقد كان راجعا الى احساسه بأن جودكين – فى كل ما يتعلق بالمسائل الهامة – كان دائما يحارب فى صف وجانب الحق . والرسالة التاليـــة حررها چيمس لجودكين فى سنة ١٨٨٩ :

« فى السنوات السابقة من حياتى – لا جناح على من أن أقول ان كل تربيتى السياسية كانت تعزى الى مجلة الأمة ؛ ثم جاء بعد ذلك وقت حسبت فيه انك تنظر الى أعمال تيرانس باودرلى وشركاه – من الخارج كثيرا جدا ، ومن الداخل قليلا جدا ، والآن أثوب اليك ثانيا كعزائى الوحيد فى عالم ضل سعيه ، كله عوج وأمت · أن لك أعجب طريقة فى كونك دائما على صواب ؛ لذلك لا أجرؤ أبدا – الآن – على أن ألق نفسى عندما تكون ضدى » .

وبعد ست سنوات من هذا التاريخ ، وبمناسبة حادثة فنزويلا كتب چيمس معبرا عن تعهده بالولاء لجودكين ، وهنأه بحرارة على شجاعته ، ولكنه فى نفس الوقت حثه ؛ ابتغاء الفعالية ، أن يتحاشى « الحشو » وأن يصطنع الصبر فى التفسير والشرح جهد استطاعتـــــه : « لا تلعن الله وتموت – يا زميلى العزيز القديم · عش وصابر وكافح من أجلنا – زمنا طويلا – ما زال أمامنا – فى الحرب الجديدة »(١٤) .

على أن چيمس مستقل سياسيا – فى كلا المعنى التاريخى والمعنى العام · والرسالة التالية تمس موضوع حمـلة بلين Blaine التى فى أثنائها شاع استعمال لفظ « مستقل سياسى Mugwump » ولقد كتب چيمس هذه الرسالة الى ف. ج. برومبرج الذى كان زميلا له فى الدراسة فى مدرسة لورانس للعلوم ، والذى أصبح عضـــوا فى الكونجرس من ولاية الباما ·

سبرنجفيلد سنتر · ن · ى ·
٣٠ يونيه سنة ١٨٨٤
« عزيزى برومبرج

ان ما تقوله عن بلين ... مؤثر . وكنت أؤمل أن أجـــدك فى الحزب الجمهورى « الفتى » . صحيح أن بلين لم تشبه أبدا أية شائبة بالنسبة الى الفضائح والرشاوى

(١٤) April 15, 1889 and December 24, 1895; L.W.J., I, 284, II, 30.

والمفاسد المالية الجسيمة . ولكننا لا نلومه على ما هو عليه بقدر ما نلومه على ما هو ليس عليه ، ولهذا السبب ساهمت لادخال الديموقراطيين لهزيمته • انه أعمى • وكل قطاع الجمهوريين الذين يمثلهم عمى ... لا يبصرون حياة البلاد الحقيقية اليوم . كل ما يشغل بالهم هو كلمات السر القديمة الميتة التى تميز حزبا عن الحزب الآخر ، ويجعلونها بمشابة برزخ بين هـذا وذاك . انهم يعيشون على كره ومقت اسم الديموقراطى ، تماما كما يعيش الديموقراطيون على كره اسم الجمهورى • اذا رشح أى ديموقراطى لائق نفسه ، فسوف يسعدنى جدا أن اعطيه صوتى ، لكى نقضى قضاء مبرما الى الأبد – على الحفرية الراعبة للحزب الجمهورى ، ولكى يتسنى لنا بعد أربع سنوات طرد الديموقراطيين بنفس الطريقة ؛ باسم حزب قومى جديد له صبغة فكرية فى هدفه ، بحيث يكرس نفسه للخدمة المدنية والاصلاح الاقتصادى ، وربما – أخيرا – يكرس نفسه لاحداث تغييرات دستورية معينة نحن فى مسيس الحاجة الملحة اليها . انظر الى اعلان الزنوم المسمى بالساحة الجمهورية . هل فى امكانك بأية حال – أن ترغب فى رؤية حزب بهذا الشكل ينيخ بكلكله وثقله المرفل على وجه الأرض بعد ذلك ؟ حاشا وكلا ...

صديقك دائما

و م • چيمس »

وكان چيمس أيضا . عمدا وصراحة . مستقلا سياسيا فى المعنى الأكثر تعميما للكلمة . لقد تحالف مع الأقلية التى كانت وظيفتها تطبيق التفكير التأملى الناقد على الشؤون العامة ، والتى كان مصيرها أن تظل أقلية • أما فى الشؤون الاقتصادية فان المستقل ينظر وراء الحـافز المباشر للكسب ويتجاوزه الى المبادىء الأخلاقية التى تنطوى عليه ، والى الغرض الانسانى الوسيع للنظم الاجتماعية . ولما كان چيمس متحررا من النظرة القومية البحت أو النعرة القومية ، فقد كان مسـتعدا لتمجيد الصفات الانسانية السامية بصرف النظـر عن مكانها أو قوتها . وفى السياسة الداخلية لوطنه لم يكن يتقيد بأى ولاء حزبى ، ولكنـه كان مستعدا لاستعمال صـوته لـكى يرجح كفة ميزان العقل والقسط . أما بالنسبة لواجبات المستقل سياسيا فكان چيمس على بينة من أمره ، وبالنسبة لفعاليته فقد كان چيمس واقعيا خاليا من الأوهام الفرارة . كان يتساءل عما اذا كانت التربية تحدث – حقا أى فرق بالنسبة للخير حيث ان المتعلمين كانوا على كلا الجانبين – الخـير والشر – بالنسـبة لـكل القضايا ، وكانوا على استعـداد لأن يعطوا أو يبيعوا ثمرات تعليمهم لمساندة أى هوى أو انفعال أو شهوة مهما بلغت الحضيض • ولقـد أحدث نقده للتعليم العالى شيئا من سوء الفهم ، الأمر الذى اضطره فى ١٢ يوليه سنة ١٩٠٥ الى أن يكتب الى اليوت من شيكاغو ويشرح له أنه

لم يقصد أن يقول ان الكليات « كانت مدارس تدريبيه للجريمة » . « لم أر الا تعليقا واحدا في احدى الصحف — فقرة واحدة — ولكنها كانت جهنمية وفي غاية الخبث . ولقد أرسلها الى مراسل غير معروف قال انه يحمد الله الذى أنشأ » رجلا واحدا لديه من الشجاعة الكافية ما يحمله على أن يقول الحق بشأن الكليات « مضيفا » ثم أتلق أبدا أى تعليم فى أى كليه ، ان دم عيسى يكفينى » .

على ان چيمس كان يدرك قوة السياسى المحترف ونفوذه :

« ان اقوى قوى فى السياسة هى التدبير الانسانى .. ومدبرو المكائد لن يدخروا وسعا فى القبض على زمام أى جهاز يمكنك أن تقيمه فى وجوههم » .

وكان چيمس يفهم الدعاية ، « ذلك التسمم الذاتى الذى يخدر به المجتمع نفسه بالافراز الصحفى » .

ولكنه رفض أن يستسلم للقنوط واليأس مؤمنا بأن حزب الذكاء الناقد قد يقوم بدور المقاصة التى تعوض افتقارهم الى الحرارة بمزيد من الاستقامة .

وفى ٩ يناير سنة ١٩٠٢ ألقى چيمس محاضرة أمام مدرسة الدراسات العليا بهارفارد ، أسهب فيها فى موضوع الوظيفة النقدية التى يتعين على الطبقات المتعلمة أن تمارسها فى الشؤون العامة :

« ... واذن فحيث ان رسالة العقل المتربى فى المجتمع ليست هى ان يوجد أو يخترع الأسباب والمسوغات التى يفرضها الهوى ، فيتعين على هذا العقل أن يقتصر على هذه الوظيفة الصغيرة — ولكن المستمرة — وظيفة النقد والمعادلة .

ولكى يقوم بهذه الوظيفة يتعين عليه أن يطفىء نار التهييج والانفعال الحار ، وأن يضرم نار الحافز الهامد الخامد البارد ، وهذا الاتجاه الحكيم القضائى المحايد ، ينبغى أن نعترف ، انه أحيانا يتخذ مظهر الغرور والتصلف ، وعادة ما يكون منفرا ومكروها .

والناقد العقلى — من حيث هو ناقد عقلى — ملم بكثير من المصالح والرغبات لدرجة انه يبدو للحزبى الحمسى ، وكأنه ليس عنده أية مصلحة أو رغبة — وكأنه ثقيل عديم الدم ومستقل سياسى سمج . والذين يتوقعون حكم التاريخ ويقيمون لقضائه وزنا ، مثل أنصار الغاء الاسترقاق ، أو المفكرين كما سمى أساتذة الجامعات ، الذين وقفوا فى صف دريفوس ، ومثل المناهضين الحاليين للاستعمار الخ ... الخ ... هؤلاء يثيرون حفيظة

---

(١٥) W.J. to Lutoslawski, March 20, 1900, and recollection by Professor A. Forbes, letter to the author of March 29, 1932.

من يناهضونهم ويستفزون نعورهم الى درجة تكاد تصل الى حد التقزز الجسمانى ... وغالبا ما يكون جمهورهم الوحيد هو الخلف ... هو الأجيال المقبلة . ان أول تكريم ينالونه أو شرف يخلد اسماءهم هو عندما تفارق الحياة أجسامهم ويصبحون فى عداد الموتى ، ومثلهم كمثل أصحاب « بوالص » التأمين على الحياة ، فان لزاما عليهم أن يموتوا أولا لكى يكسبوا رهانهم ... وبصفة عامة ، لا يوجد أبدا أكثر من حزبين أساسيين فى أية أمة من الأمم . حزب الدم كما يسمى نفسه ؛ وحزب التأمل برفق وهوادة حزب الغريزة المهمدة والصليل والشغب ، والهرج والمرج والاثارة والتفخم ، وحزب التفكر والتنبؤ والنظام الذى يسال بالنمو والتطور والوسائل الروحية — وصفوة القول حزب العنف وحزب التربية . ان المحافظين فى أى بلد والدهماء — يتكاتفون دائما — بعضهم لبعض ظهير فى حزب الدم الاحمر عندما تدبر له الشعارات كما يجب — مثلما حدث منذ عهد قريب على يد دزرائيلى ، أما حزب الأحرار فستجده بين شقى الرحى اذ لم يكن له قائد جذاب خلاب ... والعيب المزمن للتحررية هو افتقارها الى السرعة والحدة . فمرارا وتكرارا يحدث أن التعميمات تنتهى الى درجة من التوقف وحبوط السعى بحيث يلزم عمل ثقب فى السد — فى مكان ما — وبعد ذلك يوسعه الماء المتدفق . ان رصاصة البندقية تحدث ثقبا بسرعتها فقط فى حين أن الضغط الساكن لكتلة أثقل منها لا يحدث شيئا . ولكن من حين لآخر يجيء قائد ذو أطماع آمال تحريرية وعنده قوة دفع رصاصة البندقية . وقد يكون شخصا متعصبا . أو رجلا من طراز كروموبل أو غاريبالدى أو بسمارك أو ربما يكون مغامرا مثل نابليون . وطوبى للدولة التى تبرهن على أنها قادرة على أن تفيد من أمثال هؤلاء الرجال لما يصلحون له فى الوقت المناسب ، ثم تلقى بهم وتنبذهم نبذ النواة قبل أن يجعلوها ضحية من ضحاياهم . مثل هذه الدولة — دولة متربية حقا » .

على أن التفسير الناضج لدور چيمس السياسى ؛ من الممكن أن يلتمس فى محاضرة بعنوان :

« القيمة الاجتماعية للمتعلم الجامعى »(١٦) . ان وظيفة المتعلم الجامعى هى حراسة « نعم » المجتمع ، وانماء « وانضاج الحساسيات النقدية » أو « الاعجاب بما يستحق الاعجاب حقا » وتقديس « القادة الأفضل والأقوم سبيلا » :

« ينبغى أن يكون عندنا وعينا الطبقى الخاص بنا . « المفكرون » . Les Intellectuels! — هل يوجد اسم نادر أكثر فخرا وكبرياء من هذا الاسم — الذى يطلقه عليه — من باب السخرية والاستخفاف — حزب « الدم الأحمر » ، حزب كل تعصب أحمق وعوى حانق ، فى أثناء اللوثة المعادية لدريفوس ، لكى يلمز أولئك الرجال فى فرنسا الذين ما زالوا يحتفظون بالحاسة النقدية والحكم المميز »(١٧) .

---

(١٦) Delivered November 7, 1907. First published in McClure's, Magazine in February 1908, and reprinted in M.S.

(١٧) M.S., 314, 319-20, 323.

چيمس كمصلح اجتماعى

فى ضوء عقيدة چيمس الأخلاقية العامة ومفهومه لدوره فى الاصلاح الاجتماعى والسياسى ، فقد حل الآن الميقات لمراجعة مناشطه بايجاز . فمن وقت مبكر يرجع الى سنة ١٨٨١ القى چيمس على طلاب كلية هارفارد أحاديث تتناول موضوع ضبط النفس والاعتدال والعفه ، ثم بعد ذلك تحدث مرتين أمام « رابطة الزهد الكلى » .

وفى محاضراته الأولى عالج — بصفة رئيسية — التأثير الضار للكحول وفقا للأدلة التى أوضحتها الفسيولوجيا التجريبية(١) . ومن الواضح أن چيمس كان بينه وبين استعمال المنبهات تنافر روحى أساسى ، الأمر الذى يبدو اكثر عجبا لأن چيمس كان صاحب اهتمام غريب وشغف مفتوح العقل واسع الأفق بكل الخبرات الشـــاذة (ومن الطبيعى أن التسمم الكحولى ربما كان من ضمنهـــا) ولأنه كان يعطف ويحنو على الخلاص من الكبت الذى يزعم بعضهم انه احدى مزايا الخمر . والأمر الذى لاشك فيه أن حكمته الأساسية التى اتخـــذها كمبدأ مقرر للطهر والصحة كانت هى منشأ المسألة ، ولكن كان هنـــاك فى نفس الوقت جاذبية مضادة ، لقد وجد أن الزهد أكثر احداثا للنشوة من الانغماس فى الشهوات . والمذكرة التالية — كتبت بمناسبة الاعداد لمحـــاضرة ألقاها سنة ١٨٩٤ أو سنة ١٨٩٥ :

. ان العذر الاكبر هو الأنس ... وحتى عنا فانك تدفع الثمن — ولكنك هنا بالذات ما تدفعه بقمة الثمن ... ان قائمه الحساب كلها المرفوعة ضـــد الخمر هى غدرها وخيانتها . فالسعادة التى تحدثها وهم غرار ، وفى أعقابها سبعة شياطين ... من كل وجهة نظر — أيا ما كانت — تتضح لنا نتيجة واحدة من الأسلم أن نشرب ماء باردا أو ماء ساخنا أو أى نوع آخر من الماء . وفى العصر المحمل بالأعباء الباهظة ، وخصوصا

---

(١) "William James on Temperance", Independent, June 23, 1881.

هنا فى أمريكا قبل أوقية تضاف من العوين يسمى بحاشيها . والتعاطى اليومى لأى مقدار من الخمر ربما يكون معوقا حقيقيا يترتب عليه المزيد من تعب الحياة ومن استهلاكها ، مما يقلل من قوة الاحتياطى المذخورة وينقص من مرونتها ولدونتها ويؤدى الى تقصير الحياة . قل ما شئت عن كيف الوجود ... ان البهجة الزائفة المصطنعة التى يعقبها المرض ليست هى الكيف الحقيقى ... وانها لتبدو طريقة دنيئة أن نبت فى مسألة تهدد ... بالخوف . ان أفضل طريقة لفطام الناس من ادمان السكر هى أن نملأهم بحب ضبط النفس والعفة والاعتدال لذاتها . وبعبارة أخرى ضع محل معبود الشراب ومائدته — مائدة أخرى . ما هى هذه المائدة ؟ انها مائدة التمتع ببنية فى أتم صحة وتركيب جسمى فى مرونة الفلين ، بحيث لا يكسر أبدا أو يعلوه الصدأ أو يواجه أى موقف لا يستطيع أن يلاقيه بخفته ونشاطه وطفوه الذاتى من لدنه » .

وفى أثناء التسعينيات شغل چيمس بالمشكلات التربوية التى تجابه عادة عضوا فى هيئة تدريس هارفارد . ولقد أفضت به عقيدته الذاتية المتحررة — كقاعدة — لمساندة سياسة اليوت . وجنح به تدريبه العلمى وحبه للتجديد وأسلوبه العصرى العام الى تأييد تحرير المنهج على حساب المكانة المميزة التى كانت تتمتع بها اللغات القديمة بين مواد المنهج . وفى هذا الصدد قال :

« يجب علينا أن نهز الطيبة المزدوجة للقلع ونشرها بحيث تتعرض للريح وضوء الشمس ، ثم ندخل كل مادة حديثة ، ومن المؤكد أن كل مادة ستبرهن على أنها انسانية ، اذا ما كان وضعها فسيحا واسعا بدرجة كافيـــة (٢) .

وبين سنة ١٨٩٠ ، وسنة ١٩٠٩ كانت هناك محاولة طالت وأرجىء تنفيذها — لانقاص المدة العادية المطلوبة للحصول على درجة الليسانس من أربع سنوات الى ثلاث . وكان چيمس عضوا فى لجان هيئة التدريس العديدة التى وكل اليها التداول فى الاقتراح(٣) . وفى سنة ١٨٩١ دافع عن المشروع الجديد فى مقالة عن « الانقاص المقترح لمقرر الكليه » نشرها فى مجلة هارفارد الشـــهرية Harvard Monthly والفقرات التاليـــة نماذج بيانية :

(٢) M.S., 321.

(٣) The result of the agitation was to make the three-year degree possible by an increase of the number of courses taken each year. This possibility having proved more and more unrealizable, the number of men who thus obtained the degree soon became negligible.

« كل معلم سرعان ما يجد نفسه مجبرا على الانتباه الى حقيقة انثروبولوجية معينة . هذه الحقيقة هى أن هناك فرقا عميقا جدا بين نوعين من الطلاب . نوع يولد للحياة النظرية وفى مستطاعه المضى قدما الى ما لا نهاية فى حذقهـا وفى الالمام بأسرارها وخاصياتها ... والنوع الثانى من الناس قد يكون ذكيا ولكنه ليس **نظريا** ، ثم ان اهتمام أفراده فى معظم الموضوعات يصل الى درجة التشبع بعد الوصـول الى نتائج أوسع نطاقا وقوانين تبلغ أقصى درجات التعميم . ثم ان معلم النوعين يدرك جيدا وطأة وثقل تلك القوانين الخالدة التى تجعل من المستحيل صناعة حيوان آكل عشب من حيوان آكل لحم بتقديم وجبة مستمرة من العشب للحيوان آكل اللحم . هؤلاء الزملاء البارعون يحتاجون الى الاحتكاك من نوع ما بالجانب العراكى للحياة ، بالعالم الذى يعيش فيه الرجال والنساء ويكسبون فيه عيشهم وزبدهم ويحيـون ويموتون ؛ لابد أن يحمل ما تقدمه لهم رائحة الدم ، على نحو ما ؛ والا فلن ينتبه اهتمامهم . والدم المسفوح فى مقرراتنا الاختيارية لا يفلح فى اشـباع حاجاتهم مدة طويلة . ان درجة الليسانس ينبغى أن تلاءم مع حاجات طلاب هذه الفئة الثـانية ، ونظام ثلاث السنوات بالنسبة لهم مدة تكفيهم وزيادة » (٤) .

وفى سنة ١٨٩٤ ، سنة ١٨٩٨ استعمل چيمس نفوذه ضد مشروعات قوانين معروضة أمام مجلس تشريع ماساشوستس بقصد وضع الشروط المطلوبة لامتحان الأطباء والترخيص لهم بمزاولة المهنة . وقال چيمس أن المعرفة الطبية ناقصة جدا وفى تغير سريع متلاحق ، وان الخبرة ينبغى أن يرحب بها من أى مصدر . كان يفضـل التربية على التشريع ، والتسامح على التحريم ، والتجربة على الأحكام السابقة(٥) . وكان ظهوره فى جلسة تشريعية يسبب كثيرا من الفضيحة لزملائه بمدرسة الطب ، ولكنه « كان أيسر عليه مواجهة سخطهم من مواجهة سخط ضميره » . ولقد كتب فى هذا الصدد الى جون جاى تشابمان فى ٤ مارس سنة١٨٩٨: « أقول لنفسى : هل ستظل الفضيلة المدنية محصورة كليا فى زولا ، ج.ج.س والكولونيل بيكار ؟ فتقول نفسى أبدا ، وعلى هذا أمضى فى طريقى غير عابئ » .

أنفذ الرئيس كليفلاند رسالة فنزويلا فى ١٧ ديسمبر سنة ١٨٩٥ ويبدو أن الأزمة التى تلت ذلك اجبرت چيمس لأول مرة على التنبيه للخطر الكامن فى « غريزة المقاتلة » — « ثلاثة أيام من هستريا القتال من الدهماء

(٤) Harvard Mo., II-2 (1890-1), 132-5.

(٥) Boston Evening Transcript, March 24, 1894; March 2, 1898. "I assuredly hold no brief for any of these healers." (L.W.J., II, 69).

في واشنطون كفيلة في أي وقت بأن تجب وتنسخ كل عادات السلام التي تكونت في قرن من الزمان »(٦) .

لقد اعتبر چيمس ، أن اتخاذ اية خطوات لاثارة هذه الانفعالات الحادة ، جريمة سياسيه • وبعث برسالة الى صحيفة هارفارد كريمزون Harvard Crimson • وكان تيودور روزفلت — الذى كان عندئذ رئيس هيئة أمناء الشرطة لمدينة نيويورك — سبق أن كتب في نفس عمود تلك الصحيفة معلنا احتجاجه ضد الضغط الذى يقوم به معارضو سياسة الحكومة — على الكونجرس . وردا على ذلك ، أجاب چيمس بالآتى :

« يبدو أننا متهمون بالخيانة العظمى فى نظر المستر روزفلت ، وعلى الرغم من ان رئيسا مجنونا قد يلزم الدولة — دون سابق انذار — بحياة جديدة على الاطلاق ، ويفرض عليها تاريخا جديدا على الاطلاق ، فليس من حق أى مواطن ، مهما كان شعوره ، أن يفتح فمه . وانما يجب عليه أن يلوذ بالصمت ولا يبوح بما فى نفسه ولو للمثل المعين بمقتضى الدستور لكى يكبح جماح الرئيس عند الضرورة . هل تسمحون لى أن أعبر عن الأمل — بأننا فى هذه الكلية — ان لم يكن هناك مكان آخر على هذه القارة — ستكون لدينا الوطنية الكافية بحيث لا نقف مكتوفي الأيدى فى الوقت الذى تدبر فيه مصائر أمتنا بالمباغتة • فلنكن اما (مع) واما (ضد) . فاذا كنا (ضد) ، فاذن نقاوم بكل وسيلة فى طاقتنا وقوتنا عندما نشهد سياسة تشكل يترتب عليها حتما تغيير كل المثل العليا القومية التى غرسناها حتى الآن • فلنرفض أن نتقيد بين عشية وضحاها ببلاغ يعلن أو ننوم تنويما مغناطيسيا ونحن أيقاظ — بعبارات تتخذ مظهر السر المقدس • أولى بنا ثم أولى أن نحكم عقولنا ونتفكر فيما هو افضل ، ثم بعد ذلك نؤدى واجبنا كمواطنين بكل ما فينا من قوة » (٧) •

وكتب چيمس الرسالة التالية الى فردريك مايرز فى اليوم الأول من يناير سنة ١٨٩٦ فى أثناء نفس تلك الفترة العاصفة :

« لا مراء ... فى أن بلدينا سرعان ما يلغان فى دماء بعضهما ... وستكون حرب فناء لا تبقى ولا تذر عندما تنشب لان أى الجانبين لن يستطيع أن يعرف متى ستحيق به الهزيمة ، وآخر رجل سيقوم بدفن الرجل الوحيد الباقى قبله ، ثم بعد ذلك يموت هو نفسه . وعندئذ سيحتل الفرنسيون انجلترا ويحتل الأسبانيون أمريكا . وسيتحد الاثنان ضد الالمان ولن يستطيع احد أن يتنبأ بالخاتمة . ولكن على سبيل الحد . كل الوطنيين الصادقين صادفوا فى حياتهم أوقاتا عصيبة من الهم والغم والكرب . من أعظم الدروس والعبر التى يتلقاها دارس التاريخ المنصف هو أن يرى الى اى حد تكمن غريزة المقاتلة القديمة — قرب السطح عند معظمنا ، والى أى حد تنتبه من غفلتها لاقل اثارة

(٦) W.J. to E.L. Godkin, December 24, 1895; L.W.J., II, 28-9.

(٧) Harvard Crimson, January 7, 9, 1896.

بدر و بعوى بجراوة . وبمجرد أن تستيقظ فعلا فلا سبيل الى قمعها وتراجعها ، ومن ثم فان كل حكمة الحكام ينبغى أن ينصب على تلافى الاثارات المباشرة » .

واستنادا الى مذهب مونرو كما قرره كليفلاند وأولنى ، كتب چيمس فى الثالث عشر من فبراير الى زوج أخت زوجته ، و.م. سانتر :

ان توكيدات مثل « ارادتنا ستكون هى القانون » ، تشكل جزءا متكاملا من حياة أمة . وهذا المذهب يمكن اعتباره **على نحو ما** جزءا من حياة أمتنا . وتعبر هـــذه التوكيدات ــ أولا وقبل كل شىء عن الطموح ــ ولكنها ــ بطبيعة الحال تسعى (عن طريق) السابقة والحجة أن تسوغ نفسها . ان كليفلاند ليس صاحب حق فقط وانما واجب أيضا ، مع مراعاة كل الاعتبارات ، فى حمل انجلترا على الرضى والتحكيم ، وطبعا كان فى وسعه أن يفعل ذلك ... تلك السياسة ــ لو أنها نفذت ، لجعلتنا الرسل الحقيقيين للحضارة دون اضطرار مطلقا الى الخروج عن حدود القضية المعينة موضوع النزاع ، ودون أن تتبجح الى نظرية جامدة مثل لغو أولنى ... عن المصالح المعنوية لأمريكا على اعتبار أنها مختلفة ــ تشكل عديد الاتفاق عن مصالح أوروبا ، وعن الاتحاد السياسى الدائم بين الولايات الأوروبية والأمريكية على اعتبار أنه أمر غير طبيعى لا ينفع ولا يعى بالعرض ، وعن جمهوريات أمريكا اللاتينية على اعتبار أنها حليفاتنا الطبيعية المجانسة ؛ وعن حكمتنا التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وعن عدلنا وعن قسطنا وانصافنا وهلم جرا .. لقد كانت الأمور فى حالة تتيح لعقيدة ناشئة أن تتودك أو لا تتودك. وفى نظرى أن كل حكمة الناقدين المنصفين المنزهين عن الغرض فى مثل وقت كهذا ــ قوامها مقاومة عملية التودك » .

على أن القضية السياسية التى أثارت چيمس أعمق اثارة وأرهقته من أمره عسرا واستنفدت منه أكبر قدر من الوقت والجهد ... كانت قضية التوســع الاستعمارى . لقد نشر ثمان مقالات ورسالات ، أو أكثر بما فى ذلك محاضرة ألقاها أمام « عصبة مناهضة الاستعمار » التى كان نائبا لرئيسها فى وقت ما . وكان للحرب الأسبانية ولحـــادثة فنزويلا وقع شديد على نفس چيمس يرمز الى قوة حمى الحرب ... التى لا تدفع ولا تقاوم . والرسالة الثالثة كتبت الى صديقه السويسرى ثيودور فلورنوى فى السابع عشر من يونية سنة ١٨٩٨ بعد شهرين من نشوب الحرب :

« هذه أسوأ لطمة تصيب كرامة الحكم الشعبى ــ قدر لى أن أشهدها فى حياتى ... لقد كان مجلس شيوخنا مخلصا **قطعا** فى انكاره أى رغبة فى الغزو أو الضم . ولكن انظر كيف تتغير المثل العليا لأمة بين لمحة عين وانتباهتها . بانتصار ديوى الفاجىء ، نشأ هنا « حزب » استعمارى ، سيكون من الصعب مقاومته ، حيث انه سيضرب على وتر العنجهية القومية ويسوق الوطنية الفجة والبربرية للبلد . وفضلا عن ذلك فان عظمة أى أمـــة

عظيمة تتركز على تلك النزعة العريزية البحث والطموح ... ذلك الشعور بمستقبل عظيم ومصير عظيم ... ، وهذا الشعور متوافر لدينا ـ الى حد كبير . ولكن على المرء أن يرتفع الى مقام هذا المصير العظيم ـ وأن يكون كفؤا له ... ولكن واأسفاه . ان تربيتنا ـ كأمة ـ حتى الآن ـ لا تهيئنا للنجاح فى ادارة جزر يقطنها سكان أدنى منا وأحط . ان أسبانيا تستحق فقد هذه المستعمرات ، ولكن هل نستحق نحن الحصول عليها ؟ ومهما يحدث ، على أية حال ، فسوف يحدث ليس نتيجة لأى شد أو نهى معين ، وانما نتيجة للهوى والشهوة ، ونتيجة لشعارات معينة ـ تعلمت الأمم ـ أن تعتاد طنينها ـ ششنشة مستحكمة » .

كان چيمس يرى الاستعمار منفثا للشهوة الجامحة ـ يتلفع بقناع من فعل الخير :

« لقد أطلقنا غريزة المقاتلة وشهوة التسلط من عقالهما لأننا زعمنا ... أن فى استطاعتنا أن نستأنف مثلنا العليا وخلفنا بين أن تنطفىء نوبة القتال . ولقد تبين لنا الآن كيف قدرنا وحسبنا دون تدبر للعواقب . لقد رأينا ... الى أى حد تبلغ دائما شهوة الغزو العسكرية من الوحشية المطلقة ، ورأينا كيف أن الضمان الوحيد ضد الجرائم التى من المحقق أنها ستجر الأمة التى تستسلم لهذه الشهوة هو قمع هذه الشهوة واعتقالها مكبلة بالأغلال الى الأبد ... اننا الآن منهمكون ـ مجاهرة وبلا حياء ـ فى سحق أقدس شىء فى هذا العالم الانسانى العظيم ـ ألا وهو محاولة قوم طال استرقاقهم لكى يمسكوا بزمام أنفسهم وينظموا قوانينهم وحكومتهم ، وأن يكون لهم الخيار والحرية فى تصميم مصيرهم وفقا لمثلهم العليا التى يرتضونها ... لماذا اذن نمضى فى هذا الشوط ؟ أولا : حمى الحرب ثم العنجهية والعتو والتكبر التى ترفض دائما أن تتقهقر عندما تكون وسط المعمعة وتحت السعير . ولكن هاتين الشهوتين ـ انفعالان جامحان يتدخلان فى التدبير العاقل لأى أمر ، وفى هذا الأمر يتعين علينا أن نعالج عنصرا غريبا ـ كلية ـ عن اعتقادنا ... فى مصير قومى ومستقبل يتحتم أن يكون « كبيرا » بأى ثمن ... نحن رسل الحضارة ... ولنتحمل عبء الرجل الأبيض ... مهما كان مؤلما ... وكثير ما هو . أما حيوات الأفراد فلا شىء . واجبنا ينادينا ، ومصيرنا ينادى ، وقافلة الحضارة لابد أن تمضى ... لا تلوى على شىء . هل هنالك تهمة أبشع خبثا من ذلك المعبود الوارم المنتفخ المسمى « الحضارة الحديثة » ، التى تسوغ كل هذا الباطل العقيم الذى ينتهى اليه كل هذا المنطق السقيم ؟ ! اذا كان هذا هكذا فالحضارة اذن هى السيل الجارف اليعبوب ، العارم ، الأجوف ، المفسد ، الطنان الرنان ، المضلل ، المغالط ، الذى يقصد به تمويه الحقائق وبلبلة النفوس ، انها تيار مدفوع بقوة الزخم الوحشى البحت وبعدم التعقل والتمييز التى تقذف بنتائج نجنى منها مثل هذا الثمر المر »(٨) .

وفى الحادى عشر من أبريل سنة ١٨٩٩ ألقى روزفلت خطابه الشهير عن « الحياة الجهيدة » ، الذى استدعى من چيمس الرد الآتى :

---

(٨) Letter to Boston Evening Transcript, March 1, 1899.

« هل سيسمح للمحافظ روزفلت أن يصبح فى آفاق بلادنا دون أن يرتفع صوت بمائه فى الحلجلة ـ بالرد عليه ؟ وحتى « الثرثارون الذين يقبعون آمنين فى بيوتهم يهذرمون بابتساماتهم الساخرة الحمقاء » لابد أن يشعروا بأن دماءهم « الخسيسة » و « النذالة » ـ تفور فى عروقهم من جراء مثل هذا التحدى . وانا واحد من الناس أشعر بأن من الشائن أن أتركه يصول ويجول فى الميدان بلا رادع ولا صاد ... من بين كل التجريدات العريانة التى قدر لها أن تطبق على الشؤون البشرية ـ على الاطلاق ، فان ما انبعث من روح المحافظ روزفلت فى هذا الخطاب يبدو أكثرها عريا وتجردا ... وعلى الرغم من أنه فى أواسط العمر وفى مركز مسئولية جسيمة مقررة ـ بما فيه الكفاية ـ الا أنه لا يزال عقليا فى مرحلة المباهاة بالقوة Sturm und Drang من المراهقة المبكرة ، ومن ثم فانه يعالج الشؤون الانسانية عندما يلقى عنها خطبا من وجهة النظر الوحيدة الخاصة بالاثارة العضوية والصعوبة التى قد تجلبها ، ويتدفق فيض الحرب على اعتبار أنها الحالة المثالية للمجتمع الانسانى استنادا الى الشهامة العنيفة والرجولة الجريئة والتحمس الجرىء التى تتضمنه ، ويعالج السلام على اعتبار أنه حالة من الخسة الوارمة المنفطرة بالبكاء التى لا تليق الا بالمستضعفين الواهنين الدوارين العنقاشين ـ القاطنين فى الغيشى ـ المؤثرين للعافية غير مكترثين بالحياة السامية . ولا كلمة واحدة عن القضية ـ وأى عدو لابد أن يكون كمثل أى عدو آخر ... فى كل شىء يأمرنا به ... ثم ولا كلمة واحدة عن شروط النجاح ودواعى الترفيق ... وانما يغرق كل شىء فى مستنقع وحل من طوفان من الانفعال الحزبى المجرد »(٩) .

وقد ختم چيمس اسهامه الايجابى فى الحركة المضادة للاستعمار بخطاب ألقاه أمام « عصبة مكافحة الاستعمار » فى بوسطون فى خريف سنة١٩٠٣. وفى هذا الخطاب قال :

« ان الحوافز الملائكية والشهوات المفترسة الضارية تتقاسم قلوبنا تماما كما تتقاسم قلوب الدول الأخرى ... ان الفضيلة السياسية لا تتبع التقسيمات الجغرافية . وانما تتبع الفروق الخالدة داخل كل دولة .. بين نوعين من الناس وبين طرازين من الرجال ... وبين الحيوانيين الشهوانيين وبين المفكرين أولى النهى ، بين النزعة الوراثية والنزعة التحررية ، بين شهوة القتال الصائلة وغريزة الحيوان التى تدفع الى تسيير دفة الدنيا بالعنف والقوة والاقتنائية الوحشية ، وبين الضمير الناقد المتفكر الذى يؤمن بالطرق التربوية وبالقواعد المنطقية للحق ... ان الحزب الدولى التحررى الكبير ، حزب الضمير والذكاء فى كل بقاع الدنيا بأسرها ، قد امتصنا ـ بالاختصار ؛ ونحن لسنا سوى جزء منه فى القطاع الأمريكى نشن الحرب ضد قوى الظلام هنا ، ونقوم بدورنا فى الجهاد الطويل من أجل الحق والعدل والقسط ، التى ينبغى أن تستمر فى كل بلاد العالم حتى آخر الزمان . فلنتقبل دورنا الأبدى راضين ، ولنشرع

(٩) Letter to Springfield Republican, June 4, 1900.

في المصى فيه ونحن اولى ما نكون سعادة ونشطه . والكفاح واحد - فى كل مكان - تحت اسماء مختلفة - الضوء ضد الظلام ، والحق ضد القوة ، والحب ضد الكره . ان الله معنا . وليس فى وسعنا ان نعشل على الدوام »(١٠) .

وما أكثر ما تلذ لنا وتعلمنا تغييرات اتجاه چيمس حيـــال ثيودور روزفلت . ففي سنة ١٨٧٧ - ١٨٧٨ كان الأخير أحد أعضاء مقرر چيمس عن « التشريح المقارن وفسيولوجية الفقاريات » . وكان فى ذلك الوقت يستطيع أن يفاخر بأنه قد بلغ بعض الشأو فى ميدان دراسة الطبيعه حيث انه سبق له أن قام برحلات كثيرة الى الريف لدراسة الطيور ، والى مرافىء ميناء بوســـطون ، بحثا عن نمـــاذج جراد البحر والكركدند البحرى والأسماك .

والفقرة التالية مقتبسة من مذكرات عضو آخر من جماعة الفصل :

« كانت المقابلات كثيرة بينه وبين الدكتور چيمس . وكانت الكلمة الأخيرة دائمـــا لثيودور روزفلت . وأعتقد أن تلك المناوشات والمفاخرات البسيطة ألقت ضـــوءا كبيرا على سجاياه . كان ساطعا ووهاجا اينما حل أضاء كنور الكلس . أما رأيى فى مادته فى تلك الحالات فهو أنها كانت خارجة عن الموضوع الى حد كبير وكثيرة المراوغة . وفى كل المناسبات ما تسنى للدكتور چيمس أن يستمر فى المجادلة - واســـتطيع الآن أن أستحضره فى ذهنى ، وأراه لابسا سترته الزرقاء ذات الصفين ، ورباط رقبتـه السميك ، وقد اضطجع على كرسيه الى الوراء وقد افتر ثغره عن ضحكة عريضـــــة ... منتظرا أن يفرغ ثيودور روزفلت من حديثه »(١١) .

وكمناضل فى سبيل المثل العليا ، كان روزفلت رجلا على مرام چيمس وهواه ، فى حين أن عنف وسائله وافتقاره الى الذوق والمشاركة الوجدانية المغزى والتمييز كانت كريهة ومزعجة جداً .

وفى سنة ١٩٠٢ كتب يقول : « وعلى الاجمال فقد نعمت بصـــحبة روزفلت حتى الآن ... ولكنى نفضت يدى من الرجل الذى يستطيع أن يتفوه بمثل هذه الأكاذيب الوقحة السليطة ... ان نسيجه الأخلاقى خشن جدا بحيث يستحيل صقله ... يا ليت لى قلم ڤولتير »(١٢) .

(١٠) Report of Fifth Annual Meeting of the New England Anti-Imperialist League, November 28, 1903.

(١١) From a letter to the author by Dr. Samuel Delano, Harvard '79.

(١٢) To Charles F. Norton, August 23, 1902.

وبعد ثلاث سنوات كان چيمس شفيعا لانتخاب روزفلت لرئاسة هارفارد :

« فكروا فيما تزخر به نفسه من نية طيبة جبارة ، وفى رضاه عن وظيفته وتمتعه بها ، وفى قوته ونفوذه كواعظ وخطيب ، وفى عدد الاشياء التى يستطيع ان يوليها انتباهه ، وفى أمان ترويه فى الأمور بعد أن يفكر فيها للمرة الثانية ، وفى الشجاعة المرايدة التى يبديها ، وفوق كل شىء فى حقيقة انه قائد صريح مجاهد لا يداور ولا يلجأ الى الحيل الخفية أو التحتية ، قائد يستطيع الناخبون ان يتحكموا فيه مرة واحدة فى اربع سنوات عندما يهرب ، له قلب فى مكانه الصحيح ، عدو للاجراءات الرسمية العقيمة والأسلوب الديوانى ، وعدو للمماحكة والمحاوتة ، ولكل شىء ترمز له كلمة « سياسى محترف » بصفة عامة . ان مغزى روزفلت لدى الرأى العام ميزة قومية عظيمة ، وانه من العار تبديد هذه الميزة أو تركها حتى تنجز لنا مزيدا من العمل أكثر وأكثر »(١٣) .

وبعد سنتين تطوح البندول ثانية . كان روزفلت قد ألقى خطابا فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٧ فى اتحاد هارفارد Harvard Union سخر فيه على سبيل الدعابة — من العلم والدراسة ، مما أرضى الطلاب وأضحكهم على حساب هيئة التدريس التى كانت جالسة فى الرواق . ولم يطق چيمس صبرا ، وعلى الرغم من أنه كان من المبشرين بانجيل القوة والشدة ، الا أنه كان عميق الاهتمام بمجال القوة والشدة . كان هناك دائما شرط سابق للخصام المشروع — ألا وهو طهارة قضية المرء .

وكانت مناهضة چيمس للاستعمار تطبيقا لتعدديته وذاتيته . كتب ديكنسون س . ميلر ذات مرة عن چيمس : « ليس الفصل ولكن الوصل كان صفته »(١٤) . وهذه ملاحظة عميقة . فحسن المعاشرة عن چيمس وصلاته الاجتماعية الواسعة النطاق والتى تكاد تبلغ حد التشويش ، لم تفصل چيمس عن اسرته ، وانما ضاعفت صلاته فحسب . وكذلك الأمر بالقياس الى وطنيته العالمية ، فانها لم تعزله عن قومه أو تفصله عن أمريكا ، وانما أخصبت ونوعت صلاته بتقديم موضوعات انسانية جديدة لشهيته المتفتحة الشرهة التى يبدو أنها كانت لا تقنع ولا تشبع . وعلى الرغم من أنه ما كان بأية حال أعمى عن نقائصهم وأخطائهم ، الا أنه

---

(١٣) W.J., to Henry L. Higginson, July 18, 1905; L.W.J., II, 232.

(١٤) "Mr. Santayana and William James," Harvard Graduates' Magazine, XXIX (1920-1), 351.

كان يجد شيئا يحترمه ويحبه فى كل أمة عرفها . وذات مرة ، بعد أن امتدح ايطاليا وانجلترا ، أضاف قائلا : « نعم - أنا أومن (أو أحسب) أن مصيرنا - أخيرا - هو الأكبر اذا استطعنا فقط آن ننجح فى أن نرتفع الى منسوبه ونحيا كفئا لتبعاته ... وفى غضون ذلك - كما كتب أخى هنرى ذات مرة - فالحمد لله على عالم تقوم فيه انجلترا ثرية خصبة الى هذه الدرجة . وتقوم فيه ايطاليا نادرة عزيزة الى هذه الدرجة (١٥) » . وكان سيقول نفس الشيء عن ألمانيا قوية عفية الى هذه الدرجة ، وفرنسا مهذبة مؤدبة الى هذه الدرجة ، وسويسرا شريفة عفيفة الى هذه الدرجة ... الحمد لله على عالم كريم سخى بحيث يحتويها جميعا .

وكان چيمس مغرما بالقول بأنه « يؤثر الأمم الصـــغرى والأشياء الصغرى بصفة عامة » « سحقا للامبراطوريات العظمى . بما فى ذلك امبراطورية المطلق ... أعطنى أفرادا ومناطق نشاطهم » (١٦) .

واليك تقريرا أوفى وأكمل عن المسألة :

« أنا ضد الكبر والعظمة فى كل أشكالهما ، ومع القوى الاخلاقية الذرية الخفية التى تعمل من فرد لفرد متسللة خلال شقوق الكون مثل كثير جدا من الجذيرات الدقيقة الناعمة أو مثل نز الماء - الرفيع مثل الشعر ، ومع ذلك فهى التى تصنع أصلب نصب لكبرياء الانسان وكرامته اذا اتحت لها الوقت الكافى . وكلما كانت الوحدة التى تتعامل معها أكبر ، كانت الحياة التى تبديها أجوف وأكثر وحشية وافكا ومينا . ومن ثم فأنا ضد كل التنظيمات الكبيرة ، وأولها وفى مقدمتها التنظيمات الوطنية . اننى ضـــد كل ضروب النجاح الضخم الكبير والنتائج الضخمة الكبيرة ، وأفضل القوى الخالدة للحق التى تعمل دائما بالطريقة الفردية التى لا تنجح مباشرة والتى لا تؤتى أكلها الا بعد حين . انها قوى المغلوبين على أمرهم دائما ، الواقعين تحت نير الظلم والعسف ... حتى يأتى التاريخ بعد أن يمضى وقت طويل على موتهم ويرفعهم الى أعلى عليين »(١٧).

بيـــد أن أمريكية چيمس ما تخلخلت قط بشكل جدى خطير . كان وليا حميما - بالغريزة والفطرة - لكل ما ينتمى اليه - سواء أكانت الأسرة أم الصديق أم الوطن . وفى سنة ١٩٠١ ، عندما اضـــطره المرض الى جانب محاضرات جليفورد الى البقاء فى الخارج زهاء عامين تقريبا ،

(١٥) To Pauline Goldmark, July 2, 1908; L.W.J., II, 305.

(١٦) W.J. to W. Lutoslawski, August, 10, 1900, and to Mrs. Glendower Evans, February 15, 1901.

(١٧) W.J. to Mrs. Henry Whitman, June 7, 1899; L.W.J., II, 90.

وال » كم أتوق الى أن أغط نفسى فى أمريكا ثانية ، وآدع جـــذيراتى المكسورة تلتحم من حديد فى أعماق تربة قومى • ان الرجل الذى يغازل دولا كثيرة لايقل سوءا عن المتزوج بامرأتين ، وهو يفقد روحه بالكلية.»(١٨)

ذلك كله رد فعله المعهود فيه ، والذى لم يتغير حيال أية فترة طويلة من الغياب عن وطنه وقومه •

على أن وطنيته سارت مع اثنين من اتجاهاته الاخلاقيه الأساسية • فأمريكا فى نظره كانت أقل نظامية وضعيفة وأقل خضوعا لتحكم الكنانات غير الشخصية الشائعه المسئولية بالتضامن — من أوروبا • وكنصـير لفلسفة الذاتية فقد كان چيمس ينفر من التنظيم النسقى المطرد ، ومن الآلية ومن الرسميات الشكلية والأصول والطقوس المقررة رسـميا • أما الاتجاه الثانى الذى عزز بقوة ودعم أمريكية چيمس فقد كان اشمئزازه من العاقر والعاجز والمتهور — وايثاره للبسيط والطبيعى والقوى العفى والناظر الى الأمام ••• ولقد وجد هذه الصفات فى أمريكا — ووجد أنها فى النهاية ترجح المفاتن المقابلة فى كفة الدول الأوروبية — مهما كانت قوة وجاذبية تلك المفاتن والمزايا « ... فلا يزال المرء يحب أمريـكا — فوق كل شىء — لشبابها وخضرتها ومرونتها وبراءتها ونواياها الطيبـة وأصدقائها وكل شىء » (١٩) •

وفى ٢٣ يولية سنة ١٩٠٣ كتب چيمس رسالة مطولة الى صـحيفة Springfield Republican عن موضـوع القصـــاص العرفى بلا قانون (lynching) • ولقد طبعت من هــذه الرسالة أعـداد كبيرة ، ووزعت على نطاق واسع • ولقيت كثيرا من التعليقات لدرجة أن چيمس عقد مؤتمرا صحفيا مع صحيفة بوسـطون جورنال Boston Journal ، عن نفس الموضوع •

ولقد جلبت له هذه التصريحات المنشورة فى الصحف كثـيرا من رسائل التأييد والاستحسان من الشمال ، وكثيرا من رسـائل السخط والاحتجاج من الجنوب •

فعند چيمس ، كان القصـــاص الوفى وحـــكم الغوغاء ظاهرتين سيكولوجيتين وخلقيتين على السواء ، تفصحان عن قوى الاندفاع الانفعالى

(١٨) W.J. to C.E. Norton, June 26, 1901; L.W.J., II, 152.

(١٩) W.J. to Mrs. Henry Whitman, October 5, 1899; L.W.J., II, 105.

النادرة على اكتساح كل ضروب الكبح والمنع والقمع العادية ، عندما تلقى تحريضا اجتماعيا :

« في وسع المرء أن يقول ان الفرد العادى المتحضر الذى يذهب الى الكنيسه . لا يعقه شيئا مطلقا عن النزعات العنيفة الطبيعية البشرية ، أو عن المقدرة الأصلية على الاثارة [illegible] رائده فى عقر صدره .. ان الحاجز المسبك المحكم الاغلاق الذى يحتبس وراءه الوحش الضار الكامن فينا — حاجز صناعى وليس عضويا ، ولن يكون عضويا ابدا . واقل وهن فى الضغط الخارجى ، واقل مزغل أو كوة من الاستثناء المباح ، تجعل الحاجز كله يرشح ، ومن ثم يبدأ الفتك الضارى مرة ثانية فى الطغيان ومجاوزة الحاجز . وحيث يكون الحافز جماعيا ، وحيث يعتبر القتل والفتك والجريمة واجبا للقصاص والثأر أو واجبا وقائيا ، فهنا يكون الخطر على الحضارة أعظم ما يمكن فداحة وتخريبا . وبعد ذلك ، كما هو الشأن فى عملية أخذ الثأر المتوارثة ، وفى المبارزة وفى المذابح الدينية ، فان التاريخ أصدق دليل على مدى صعوبة محو عادة القتل الانسانى اذا ما رسخت واستقرت »(٢٠) .

وفي حالة « وباء القصاص العرفي » ، مثلما هو الشأن فى حالة الروح الحربية والنعرة القومية ، فان چيمس كان فى غاية القلق العميق من جراء الدور الجديد للصحيفة الشعبية الرائجة :

« لقد اعتدنا أن نزعم أننا — معشر الامريكيين — أصحاب فطنة خاصة صائبة الفكر صلبة الرأى . واليوم يبدو أن القوم أصيبوا بقارعة من الحماقة المطبقة . فمبادئهم التى يقرون بها ويجهرون بها لا تعنى شيئا بالنسبة لهم ؛ وأى عبارة مثيرة ينعق بها ناعق ، أو ارجاف مثير للانفعال — يسلبهم عقولهم ويستبيها . والصحافة المثيرة المرجفة هى اداة نشر واذاعة واصدار هذه الحالة العقلية ، الامر الذى يعنى .. « عصورا مظلمة » جديدة قد تدوم قرونا أكثر من العصور المظلمة القديمة التى سبقتها . بيد أن الأمية فى العصور المظلمة الأولى كانت وحشية وبكماء ، والقوة كانت سلالة نهابة ضارية بلا استخفاء . أما الآن فالأمية تملك تنظيما أدبيا كتابيا هائلا جبارا ، والقوة مراوغه بالمكر السيىء ، والنتيجة المحتمة هى ظاهرة جديدة فى التاريخ — ضربة لازب — ظاهرة تتضمن كل ضروب الاثارة المعتلة والارجاف السقيم والنفاق والرياء والكذب فى العقل الجماعى »(٢١) .

أما آخر القضايا التى ظفرت بتأييد چيمس فهى الصحة العقلية والأسباب التى حركت چيمس واستفزته . فقد عرضها على أحسن وجه

(٢٠) Springfield Daily Republican, July 23, 1903.

(٢١) July 27, 1903, to Dr. Samuel Delano, who in a letter on lynching, Evening Post, July 24, 1903, had emphasized the importance of public opinion.

فى الرسالة المطولة التى بعثها بتاريخ ٢ يونية سنة ١٩٠٩ الى المستر جون د . روكفلر الكبير – على أمل الحصول على معونة مالية للقضية :

« فى أثناء حياتى « كعالم نفسى » كان لى شغل كثير مع مرضانا ومستشفياتنا الخاصة بمجانين . ولقد حاك فى صدرى وأثر فى نفسى تأثيرا مؤلما جسامة وضخامة الشر الانسانى الذى ينطوى عليه لفظ « جنون » الى جانب عجز تدابيرنا عن مكافحته .. لدرجة أننى منذ زمان بعيد سجلت على نفسى عهدا ، بأننى اذا قدر لى ، بفضل الله أن أكون قادرا على أن أترك أى مال للنفع العام ، فلابد أن يخصص هذا المال « للجنون » فقط .

ان تدابيرنا العادية المألوفه لا تراعى العلاج الوقائى ولا الرعايه بعد المرض . وما يتعين اعتباره كمرض وظيفى عادى ، يعامل كوصمة عار اجتماعية ... أما مناسبة وضع سخفى تحت نظر ... رجل عملى ، فمرده الى كتاب رائع نشر حديثا بعنوان « عقل وجد نفسه » وهو من تأليف كليفورد و . بيرز من نيوهافن ... فاليه يعزى فضل اقناعنا جميعا بأن ميقات عمل شىء – وليس مجرد الاحساس والرغبة وتسجيل الخواطر – قد حل » .

ان تأييد چيمس الايجابى « للقضايا » يكشف الطبيعة المحددة لمثاليته العملية . فالخير ليس شيئا لمجرد التأمل والتبصر فيه ، وانما هو شىء يستحضر ويسعى فى اتمامه . صحيح أنه يتعين الشعور به ، ولكن الوسيط وليس المشاهد هو الذى يشعر به . فالمثل العليا منوطة بالارادة ، وليست موضوعات للذوق . هذه هى وجهة النظر التى ينطوى عليها رد فعله العنيف حيال سانتايانا . ففى سنة ١٩٠٠ بعد أن قرأ كتاب سانتايانا « الشعر والدين » كتب چيمس الى بالمر ما يلى :

« ان الحدث العظيم فى حياتى أخيرا هو قراءة كتاب سانتايانا . وعلى الرغم من أننى أنبذ أفلاطونيته نبذا مطلقا ، الا أننى صهلت طربا (بالمعنى الحرفى لكلمة صهيل) للكمال الرزين الرابط الجأش الذى يبسط به الموقف على صفحات كتابه واحدة وراء الأخرى .. من المنعش رؤية ممثل للاتينية المحتضرة ينهض من حالة النزع ويسدد مثل هذا اللوم والعذل والتوبيخ لنا معشر البرابرة والهمج فى ساعة انتصارنا .. ومع ذلك.. فما أغرب هذه الفلسفة الوهمية .. كما لو كان « عالم القيم » مستقلا عن الوجود . ان شيئا ما أحسن من شىء آخر ... بكينونته فقط . ان فكرة الظلام لا تزيد ولا تنقص عن فكرة الضوء – كفكرتين . ثمة قيمة أكثر فى وجود الضوء فى كينونته .. وعندما .. تهبط الى الوقائع .. فالام تنتهى نظمك المثالية المتناسقة المنظومة الكاملة ؟ الام تنتهى – عمليا بشكل ملموس محسوس ؟ دائما .. تنبثق الأشياء بالمحتوى المتزايد النامى للخبرة . الوحدات التمثيلية ، قوانين قرض الشعر ، النظم الكنسية ، المذاهب اللاهوتية ، المبادىء المدرسية ، باطل الأباطيل وحصاد الهشيم وقبض الريح ..

أعطى والت هويتمان وبراوننج عشر مرات علاوة على المسح الجموح الذى يعطى ويسطلى فى براونج أحيانا ؛ وبشدة كما تمتعت بهجوم سانتايانا . ان البرابرة فى صف الصحة العقليه . وأولئك الذين يصرون على أن المثل الأعلى والواقع مطردان مستمران باتصال ديناميكى . هم أولئك الذين سيقدر لهم انقاذ العالم وخلاصه . ولكنى مع ذلك مسرور بأن وجهة النظر الأخرى ــ الموجودة فى العالم دائما ــ وجدت أخيرا من يعبر عنها بينما يمثل هذا التعبير الباهر الوقاحه والسفاهه والسلاطة »(٢٢) .

ولقد أرسل بالمر الى سانتايانا الرسالة المحتوية تلك الفقرات . ورد سانتايانا يوم عيد الفصح بالجواب التالى :

« لا مـراء أنك اكتشفتنى فى كتاب « الشعر والدين » أكثر مما اكتشفتنى فى اشعارى أو فى كتاب « معنى الجمال » ، وان كنت أحسب أن هذه الكتب الأخرى ليست أقل افصاحا عما فى دخيلة نفسى من كتاب الشعر والدين ... وأعتقد أنك ستتبين ــ بصرف النظر عن المزاح ــ أننى أقرب اليك مما تعتقد الآن . فما تقول مثلا عن قيمة الخير على اعتبار أنها قائمة فى وجوده ، وعن اطراد واتصال عالم القيم بعالم الواقع ليس مختلفا عما ينبغى على أن أقر به وأعترف . ان المثل العليا فارغة عقيمة اذا لم تكن تحقيقات طبيعية ماثلة فى الوجود ، اذا لم يستدعها شىء موجود قائم ، واذا ، بناء على ذلك ، لم يصر تحقيقها حاضرا ومتجليا فى خير واقعى ...

لقد ضربتنى مرات عديدة بضريبة الوقاحة والسلاطة والعلو والاستكبار . يا ترى هل تدرك سنوات كظم الغيظ التى قضيتها وسط بروتستانتية غير مفهومة ومتظاهرة بالتقوى ــ بل غالبا ما كانت مراوغة ماكرة كاذبة ، مما جعلها غريبة عنى تماما ومقززة لنفسى . ومما دفعنى الى الحاجة الى أن أضع يدى فى يد شىء يبعد عنها كثيرا ويعلو عليها كثيرا . ان عواطفى الكاثوليكية لم تسوغ لى أن أجهر بما عندى ، لأنى شعرت أنها لا تزيد على كونها مجرد عواطف ليس لها سند عقلى وانسانى ، ولكن دراسة أفلاطون وأرسطو أعطتنى ثقة . واستنادا الى مثل هذه الحجة التى يمثلانها ويمثلها كل من يتقبلهما ، فمن حقى أن أكون مخلصا ، ومن حقى أن أكون موضوعيا وغير اعتذارى ــ على الاطلاق ، لأن الذى يتكلم ليس أنا ، وانما المنطق الانسانى هو الذى يتكلم فى . حقا ان برج بابل الذى نعيش فيه ليس فيه ما هو أكثر احتراما عن وضع أسمى تقاليد العقل البشرى موضع الدفاع . ولا شك ، كما تقول ان اللاتينية فى حالة النزع . مثلما كانت اليونان نفسها عندما نقلت الى بقية العالم بذور فلسفتها العقلية ، ولهذا السبب فثمة حاجة أكثر الى نقل ونشر التفكير المستقيم بين الشعوب التى تأمل فى أن تسود العالم فى المستقبل القريب ، والا فسيصبحون سادته الجسميين الماديين فقط . وستحلق آلهة الفنون الجميلة فوقهم من بعيد وتتجاوزهم لكى تحط فوق جنس آخر فى المستقبل ــ ما زال فى ضمير الغيب ــ ربما يكون أقدر على فهم الآلهة » .

---

(٢٢) April 2, 1900; L.W.J., II, 122-3.

وفى حين أن چيمس عارض بشدة الطلاق الأفلاطونى للخير من حيز الوجود ، وأصر على أن « المثل الأعلى والواقع مطردان مستمران باتصال ديناميكى » ، الا أنه لم يكن أقل معارضة من سانتايانا لأى اختزال للمثالى الى الواقعى . فالمثل الأعلى شكل مفضل للحياة – شىء يتحول الى واقع عن طريق طاقة الارادة . ومن ثم فان چيمس رفض – باستمرار مطابقة المعانى بالأصول ، واختلافات القيمة بالاختلافات المـــادية ، والأهميـة بالجسامة والضخامة أو التقدم الأخلاقى بالتاريخ الطبيعى (٢٢) .

---

(٢٢) W.B., 100; L.W.J., II, 345-6.

٢٨

الأنواع المختلفة للخبرة الدينية

ان فترة انشغال بال چيمس بالفلسفة العلمية ـ بلغت أوجهـــا فى محاضرات جيفورد لسنة ١٩٠١ ، وسنة ١٩٠٢ ، وفى نشر هذه المحاضرات فى سنة ١٩٠٢ تحت عنوان « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » . وكان ذلك ، أولا وقبل كل شيء ، عملا من أعمال الطاعة البنوية .

كتب چيمس الى زوجته فى السادس من يناير سنة ١٨٨٣ ، بعـــد موت أبيه مباشرة فقال :

« سيضاف اليك عمل واحد جديد بعد الآن ، أو بالأحرى ليس عملا جديدا بقدر ما هو « عقلنة » جديدة لعمل قديم ، يجب عليك الا تتركينى حتى افهم شيئا أكثر عن قيمة ومعنى الدين ـ فى معنى أبى ـ بالنسبة للحياة العقلية للانسان ومصيره . انه ليس الشيء الواحد المفرد المطلوب ـ كما قال . ولكنه محتاج اليه مع الباقى . أما أصدقائى فقد أسقطوا الموضوع كلية . واما أنا ـ فبصفتى ابنه (ان لم يكن من أجل أى سبب آخر) فيجب على أن أساعده على نيل حقوقه فى أعينهم وأن أضع الأمور فى نصابها . ولهذا السبب يجب على أن أتعلم أن أفسره التفسير الصحيح ـ كما لم أفعل من قبل أبدا ، ويجب عليك ان تساعدينى » .

وكتاب « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » هو الوفاء بهذا العهـــد بعد انقضاء عشرين سنة تقريبا . ولعل مما يثير الدهشة ألا يكون فى هذه المحاضرات سوى النزر اليسير من العلامات الخاصة الدالة على أثر أبيه(١) . ولكن الأثر لم يمتد الى التفاصيل ، كما أنه لم يتضمن المبادىء

---

(١) He refers to his father's conversion at Windsor in 1844 as an instance of "panic fear", but did not introduce it because there was "too much context required". (V.R.E., 161, W.J. to F. Abauzit, June 12, 1904). There is something reminiscent of his father in the vivid thrust at Calvinism in a footnote, "The very notion that this glorious universe, with planets and winds, and laughing sky and ocean, should have been conceived and had its beams and rafters laid in technicalities of criminality, is incredible to our modern imagination,,. (V.R.E., 448.)

اللاهوتية التى زخرت بها مؤلفات أبيه . لقد قال چيمس مرة : « أنا نفسى أعتقد أن الشهادة على أن لا اله الا الله تكمن – بادىء ذى بدء – فى خبرات شخصية باطنية » . وأثر الأب يتجلى فى ميل چيمس العام لتصديق « هذه الخبرات الشخصية » التى كان أهمها بصفة رئيسية – الاحساس المعين بالتأييد من قوة علوية (٢) .

وبالقياس الى چيمس نفسه فان الأفكار الواردة فى « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » تمثل أحد خيطين يكمن اقتفاء أثرهما باطراد الى فترة شبابه . كان هناك دائما نوعان من الآيمان . ايمان الجهاد وايمان السلوى ، أو – كما لا جناح من تسميتها – ايمان ضد التيار (مشرعة النهر) ، وايمان مع التيار (ادبارة النهر) . فالأول هو الايمان الذى ينبثق من القوة . فايثارا للخير على الشر ، يجاهد الشخص الأخلاقى ويكافح ويناضل ، من أجل الخير بذلك الضرب من الثقة التى يشعر بها الرجل الشجاع فى نفسه وفى حلفائه ، متهللا وجذلا بالخطر ، ومعتزا بالتباس الأمر عليه وبأنه غير محقق . هذا هو ايمان الصلابة العقلية (٣). عند چيمس ، الهواء المنعش الذى يفضل أن يتنسمه عندما يصفو مزاجه وتطيب نغمته الصحية ، ثم هو أيضا ايمان الملاذ الأخير الذى يلجأ اليه عندما يحرمه الشك والارتياب من كل سند آخر . انه نوع الدين المميز بنوع خاص « لارادة الاعتقاد » . والثانى هو الايمان الذى ينبثق من الضعف الانسانى ويطلب المأوى والمهرب والسلامة والأمن (٤) . ففى ايمان الجهاد يكون الدين منبها للارادة ، فى حين أن ايمان السلوى قابع فى استرخاء وفتور – فى قاع قلب المرء . وعلى الرغم من أن الانسان قد يجذف بتحمس وجد ، الا أنه يعى ويدرك تماما أن الذى يحمله الى بر الأمان – بسلام وبعناد – هو التيار ذاته الذى يطفو عليه المرء .

ولقد فهم چيمس الحاجة الى هذا النوع من الايمان ، بسبب ما انتابه من كلال واعياء وضجر من حين لآخر ، وبسبب عطفه ومشاركته الوجدانية واحساسه بتلك الحاجة القصوى وبتلك الورطة المحزنة التى يشترك

---

(٢) Pragm., 109; cf. L.R.H.J., 13-4, 72.

(٣) Opposed to "tender-mindedness", ct. Pragm., Lect. 1; not to be confused with "healthy-mindedness," as James discusses it in the Varieties.

(٤) This alternative appears clearly as early as 1861; cf. L.W.J., 1, 128 ff.

فيها الناس جميعا · ولهذا النوع الثانى من الايمان – ايمان السلوى – أولى چيمس عناية خاصة فى محاضرات جيفورد .

وهناك أيضـــا علاقة وثيقة بين وجهة نظر چيمس فى تغيـير الدين أو الملة ، وبين « أزمته » التى تعرض لها فى ١٨٧٠ – ١٨٧٢ · ولقـــد أفاد من احساسه باليأس المظلم والخوف الوبيل المسؤود ، فى كتابه «الأنواع المختلفة للخبرة الدينية» ، لايضاح وشرح حالة «الروح المريضة» . فهو يخبرنا أن تلك الخبرة جعلته « يحس بالمشاعر الوبيلة المسؤودة للآخرين » وبأن كآبته (ماليخوليا) وخروجه منها ، كان لهما « علاقـــة دينية » · أما خلاصه هو نفسه فقد أتى عن طريق الاعتمـــاد على النفس وفكرة الحرية الأخلاقية ، لا عن طريق الاحساس بفضل الله المعين – ولكنه أحس بتغيير واضح فى المزاج وبشعور بتجدد الحياة ثانية شبيه بالاحساس « بالميلاد مرة ثانية » (٥) .

على أنه فى نفس الوقت الذى انبثقت فيه محـــاضرات جيفورد من الوفاء البنوى ومن خبراته الشـــخصية ، فانها أيضـــا عبرت عن الاهتمام السيكولوجى الذى سيطر عليه فى أثناء التسعينيات · ولقد زوده الدين بأعظم مجموعة مفردة – أعظم فى كلا الحجم والمقام على السواء – من تلك « الحالات العقلية الشاذة » التى عنى بها أيضا « فى أبحاثه الروحانيـــة النفسانية » ، وفى اعتراضه على الحرب وعنف الغوغاء ، وفى دراساته للمرض النفسى ·

كنت فى سنة ١٩٠٢ يقول « أعتبر كتاب الأنواع المختلفة للخبرة الدينية – فى معنى معين – بمثابة دراسة فى علم النفس المرضى ، يقوم بدور الوسيط والمفسر للماديين ، شارحا لهم الكثير مما كانوا يحتقرونه وينبذونه نبذ النواة – برمته – خلافا لذلك » ·

وكان چيمس قد سبق له فى محـــاضرة انجرســـول عن « الخلود الانسانى » أن قدم الغرض الخاص « بالبحر الآم » من الوعى الذى فى وسع الوعى المحدود المتناهى للانسان أن يتلقى منه العون والسند وضمان البقاء (٦) .

---

(٥) Cf. above 135, and below, 360; V.R.E., 160-1, L.W.J., I, 145-8.

(٦) To Boris Sidis, September 11, 1902; cf. above, 206.

كما أننا يجب ألا ننسى ، وان كانت مقتضيات الســياق المنظم لا تسمح الا باشارة عابرة اليها هنا ، أن أول اعلان على الملأ للبراجماتية حدث فى سنة ١٨٩٨ ، بعد أن شرع چيمس فى اعداد محاضرات جيفورد ـ بوقت قليل . وفى محاضرة كاليفورنيا عن « المفاهيم الفلسفية والنتائج العملية » أشــار چيمس الى تطبيق خاص للبراجماتية فى فقرة تحدد بوضوح مبدان البحث الدينى :

« ان الذى يحفظ استمرار الدين هو شىء آخر خلاف التفاسير المجردة ونظم النعوت المتسلسلة فى ارتباط منطقى ، وهو شىء مختلف عن كليات اللاهوت وأساتذتها . كل هذه الأشياء هى نتائج بعدية ، تراكمات ثانوية على جمع من الخبرات الدينية المحسوسة الملموسة مرتبطه بالاحساس والمسلك تجدد نفسها in Saecula saeculorum فى الحياة الخاصة للناس المتواضعين . فاذا سألت ما هى هذه الخبرات ، فاعلم أنها محادثات مع الخفى الذى لا يرى ، أصوات وأشباح ورؤى ، واستجابات للدعاء ، وتحولات وتبدلات فى القلوب ، وخلاص من المخاوف ، وانسكاب داخلى للعون ، وتوكيدات للتأييد فى ساعة العسرة ، كلما عقد أشخاص معينون نيتهم على أمور معينه بالذات وبطرق معينة سديدة »(٧) .

وعلى الرغم من آن تعيين جيمس فى منصب محاضر جيفورد لم يعلن رسميا حتى سنه ١٨٩٨ ، الا أنه رشح له قبل ذلك منذ عام ١٨٩٦ ، وبدأ بطريقته المعهودة يجمع المراجع والكتب والقصاصات ، والاقتباسات ، والبيانات والأوصاف والرسائل ــ وكلها مادة لم يبدأ فى وضــعها فى شكلها النهائى المكتوب حتى سنة ١٩٠٠ . وتصادف أن اتفقت هذه الفترة مع انهيار جسمانى عنيف . فلقد كان فى ذلك الصيف من سنة ١٨٩٨ أنچيمس، بعد مجهود جسمانى فائق الحد، قضى his "Walpurgis Nacht" فى جبال الأديروندااك(٨) .

وفى حين أنه ليس ثمة ريب ــ كما قال هو نفســه ، أن مشروع محاضرات أدنبره التى أزمع القاءها عن الدين « قد عقدت الأمور تعقيدا شديدا ... القدام » (٩) ، الا أن مجهود عشر ســاعات ونصف ســاعة من المشى المتعب مع حمل حقيبة ، وخصوصا بعد عام شاق مضن ، تسبب

(٧) C.E.R., 427-8.

(٨) Cf. below. 364.

(٩) To A.H.J., July 9, 1898; L.W.J., II, 76.

ثى احداث تلف فى صمام قلبه لا سبيل الى اصلاحه . لقد دفع ثمناً غاليا لاخصاب خبرته . وفى أواخر صيف نفس السنة أفرط فى اجهاد نفسه ثانية فى تسلق الصمد (جبال متسلسلة وعرة تعرف بال Sierra) . ثم بعد ذلك فى يونيه سنة ١٨٩٩ « ضل طريقه فى جبال الاديروندانك ، وحول ما كان من المفروض أن يكون جوله الى ثلاث عشرة ساعه من التسلق الزاحف دون طعام ، وفى حاله من القلق الشديد » .

وهذا لسخرية واحدة من سخريات القدر . عانى من سوء الحظ مرتين فى نفس البقعة التى احبها أكثر من أى مكان آخر فى الدنيا . ومن ذلك الحين حيل بينه وبين ذلك النوع من الترويح الذى اعتبره « حصنه الرئيسى الذى يلوذ بسلامته الفطرية ابتغاء صحة روحه » (١٠) .

وابتداء من يوليـة سنة ١٨٩٩ بدأ يدخل فى فترة من السقم والضعف والوهن من نوع خاص غريب يكاد ينفرد به من دون الناس جميعا — فترة لم يشعر فى أثنائها الا بالكبت فقط — ولكنه استطاع فى أثنائها على نحوما — أن يدبر أمره بتثمير شظايا وقته والافادة من الفقرات المتقطعة من نبضان قوته ، لكي يمضى قدما ويقطع أشواطا طيبة فى العلم والكتابة . وسوف نلاحظ ، وهذا أمر جدير بالتنويه ، أن الجزء الأكبر من انجاز چيمس الفلسفى—ليس فقط «الأنواع المختلفة للخبرة الدينية» ؛ ولكن أيضا انشاؤه للبراجماتية برمتها ، وبلوغه أوج اثماره الميتافيزيقى، بالاضافة الى كل المحاضرات والأسفار والمحاجات والمراسـلات التى تضمنتها كل تلك المناشط ، هذا كله حدث بعـد أن حسب چيمس أن حياته المهنية قد انتهت ، وعندما كان قد وقع فعلا فى براثن ذلك المرض الذى ثبت أخيرا أنه مميت . فلا غرو أن چيمس كان شـاهد اثبات على « الطاقات الكامنة للانسان » فى رصيده المذخور .

على أن معظم ما كتبه فعلا فى تلك الفترة — تم وهو فى فراشه . وفى أوقات عندما كان الحد الأعلى الذى تسمح به قوته سـاعتين أو ثلاث ساعات فى اليوم . وكان من الضرورى تأجيل المحاضرات من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠١ ، ثم كان هناك دائما خوف ينتابه ويوجس فى نفسـه خشية ألا يستطيع القاءها حتى اذا تمكن من اكمال أعدادها . ولقد بدأت السلسلة الأولى من المحاضرات فى أدنبره فى السـادس عشر من مايو سنة ١٩٠١ ... أسبوعين فقط قبل أن يكتب :

(١٠) To H.J.[2], August 8 and June 21, 1899.

ما فيما يتعلق بصحتى الحربية — فانى أشعر الآن بأننى متأكد من أننى سأكون قادرا على القائها بنفسى ؛ المحاضرات تبدأ يوم ١٦ مايو — وأرجوك أن تدعو لى بالتوفيق فى صباح ذلك اليوم ؛ . اذا استطعت أن أتحمل الالتزامات الاجتماعية — فسيكون ذلك نصرا عظيما — فلقد أصبحت خلال العامين الماضيين هيابا جدا من كل شيء ، لدرجة انى خائف من الالتزامات الاجتماعية كما لو كانت كابوسا . لقد أصبحت نباتا .. نباتا مسأما . اذا جاز أن يكون هناك شيء كهذا ! وحيث ان الشبيه ينجذب الى الشبيه ، فانى سحبت صحتى بشكل رسمى حتى أستطيع أن أجد نفسى مستلقيا على خضرة أمريكية — راقدا تحت شجرة أمريكية ، علها ستجاب بأغانى من فوقها »(١١) .

وأحرزت المحاضرات نجاحا باهرا — في عدد جمهور المستمعين وفى اهتمامهم وشغفهم بها على السواء ، وأعاد اليه النجاح ثقه المحاضر فى نفسه . وبعد قضاء فترة الشتاء فى بيته عاد الى أدنبره ثانيا فى ربيع سنة ١٩٠٢ .

وفى التاسع من يونية كتب الى تيودور فلورنوى فى سويسرا ، ما يلى :

« انتهت آخر محاضرة اليوم ومضت الى غايتها — حوالى أربعمائة مستمع صامتين ومصممين ، وكان على رؤوسهم الطير .. وتحمس منقطع النظير فى ختسام المحاضرة . ولكن ما أسعدنى بانتهائها . انى لأشعر بالعرج بعد كرب . وفيما بعد لن أتعاقد ثانية على مثل هذا الالتزام . أنا مرهق وفى حالة اعياء تام — مضن وسأعود الى أهلى لاستئناف حياتى العادية لكى أسترد عافيتى » .

وكان چيمس قد أعد هذه المحاضرات للطبع والنشر قبل أن يغادر أمريكا الى أدنبره ، وظهرت فى يونية تحت عنوان « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية — دراسة فى الطبيعة الانسانيه » . ولقى الكتاب ، كالمحاضرات ، نجاحا منقطع النظير . وفى هذا الصدد كتب چيمس فى التاسع من يناير التالى — رسالة أخرى الى فلورنوى قال فيها :

« لقد راج الكتاب رواجا — فائق الحد — بين قراء الانجليزية — بالنسبة لكتاب ثمنه ثلاثة دولارات . والطبع ماض على قدم وساق ، وقد بلغ الآن عشرة آلاف نسخة . وتهطل على رسائل التأييد والتحمس من أغراب لا أعرفهم ، أما المقرظون والنقاد ، دون استثناء واحد — فكلهم يستعملون كلمة « غير مرضى » ، وبعد أن أرضوا ضمائرهم باستعمال هذا اللفظ شرعوا فى معاملتى برفق وهوادة وعطف ومديح واطراء » .

---

(١١) To Frances R. Morse, April 30, 1901.

بيد أن هذا النجاح كان متوقعا . فالشيء الذى لا شك فيه أن چيمس كان يتوقعه ، بشيء من الريبة حقا عندما قال « سيكون كتابا رائجا لدى الجمهور — لاشك — وان كان ··· بيولوجيا جدا بالنسبة للمتدينين — ودينيا جدا بالنسبة للبيولوجيين »(١٢) .

والمبحث الرئيسى لكتاب « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » يتجلى على أحسن وجه — فى رسالة كتبها چيمس الى المس فرانسيس ر . مورس جاء فيها :

« ان المشكلة التى أخذتها على عاتقى — مشكلة صعبة : أولا الدفاع عن ... « الخبرة » ضد الفلسفة ، على اعتبار أن الخبرة هى العمود الفقرى الحقيقى لحياة العالم الدينية .. وثانيا : ان أجعل السامع أو القارىء يؤمن — بما أومن أنا به نفسى ايمانا لا يتزعزع ، وهو أنه على الرغم من أن المظاهر الخاصة للدين ربما كانت تبدو سخيفة وغير معقولة (أعنى مذاهبه ونظرياته) ، الا أن حياته ككل هى أهم وظيفة الجنس البشرى على الاطلاق »(١٣) .

وبعبارة أخرى فان الدين ليس ناتجا ثانويا ، مجرد حالة من الشعور أو الأداء تستدعيها نظرة دنيوية للعالم ، ولكن الدين له بينته المباشرة والمستقلة الخاصة به . هنـــاك معلومات دينية أو **حقائق** ومدلولات . وليس مجرد أفكـــار دينية أو عواطف . ومنذ وقت مبـــكر يعود الى سنة ١٨٨٤ كان چيمس قد كتب الى دافيدسون أنه أولى به أن ييأس « من أى دين رائج له صبغة فلسفية » ووجد نفسه يتساءل :

« عما اذا كان من الممكن اقامة أى دين رائج شعبى على انقاض المسيحية القديمة ، دون وجود اعتقاد فى حقائق وممكنات روحية ونفسانية جديدة . ان النظر واعمال الفكر والتأمل .. المجردة عن الروح وعن حقيقة نظام أخلاقى ، لن تفعل فى عام واحد ما تفعله فى لحظة واحدة ، ومضة أو لمحة تنفذ الى صـــميم عالم من الممكنات الظواهرية التى تغلف ممكنات الحياة الراهنة ، والتى يزودنا بها نفاذ بصيرتنا فى نظام الطبيعة »(١٤) .

ولقد كانت تلك « الممكنات الظواهرية » هى التى انصب عليهـــا اهتمام « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » . ولكن ، فى حين أن چيمس

---

(١٢) To C. Stumpf, July 10, 1901,

(١٣) April 12, 1900; L.W.J., II, 127; for other parts of this letter cf. above, 216.

(١٤) March 30, 1884, L.W.J., I, 236-7.

طابق الدين — على سبيل التماثل — بخبرات معينة خاصة ، وبحقائق معينه ، وبأحداث وقوى وبمواجيد وكيانات تكشفها تلك الخبرات ، الا أنه لم يطابق الدين — على سبيل التماثل — بأى عقيدة معينة بالذات . كان يعنى بالدين — الأديان التاريخية ، ولكن بالقياس الى محتواها المشترك وليس بالقياس الى مذاهبها التعسفية الخاصة . فالدين شيء أكثر أصالة من العقل والمنطق ، وندلهما فى السلطة سواء بسواء . « فالايمان يتفرع بعيدا عن طريق المواصفات الرئيسى قبل أن يبدأ العقل » ذلك ما قاله جيمس لأحد طلابه الملحدين (١٥) .

وكتب جيمس فى مذكراته التى أعدها لمحـــاضرات جيفورد تحت عنوان « الايمان » ، مايلى :

« يبدو أن الصراع بين الجزء الأقل وضوحا وتفصيلا ، والاكثر عمقا من طبيعتنا ، لكى يثبت ويصمد ويقاوم ضد محاولات الجزء الأكثر سطحية ووضوحا ، أو الاكثر ثرثرة و معشقة من طبيعتنا ، لكبته وقمعه واخماده . فالجزء الأعمق يؤمن ، ولكنه لا يستطيع أن يقول الا قليلا جدا . فهل ينبغى لهذا الجزء أن يرعب ؟ أن يخضع ؟ أم ينبغى له أن يصمد ويقف على قدميه مسميا بمدده من الضوء والنور والسنا الذاتى . ان المرء لا يستطيع أن يحول كافرا حقيقيا بالدين أكثر مما يستطيع أن يحول بروتستانتيا الى كاثوليكى .. ولعل عرضى لأمثله صارخه ومتطرفة وغير معقولة — ربما يؤيد ويثبت مثل أولئك الجاحدين — بالكلية . ومن المرجح أنهم سيقولون : أرأيت أسخف من هــــذا السخف ؟ ولكن يجب على أن أضرب الأمثلة وأشكل الأشياء وأسوق الحجج المفضية الى نتيجه أن دين المرء هو أعمق وأحكم شيء فى حياته . يجب على أن أقرر بصراحة وأشيد — بلا مواربة — الثلمة القائمة بين حياة العقل البين وبين دفع اللاوعى الجزء الغريزى غير العاقل ، الذى هو أكثر حيوية .. وفى الدين .. تصــــدر الحاجات الحيـــوية والمعتقدات الصوفية العلوية .. من منطقة وراء / أو أبعد من / أو فوق العقل . وهى مواهب أو منح . والمسألة مسألة حياة — حياة فى هذه المواهب أو عدم حياة .. وهنـــا تعرض فرصة لعمل شيء قوى ولكن الامر من الصعوبة بمكان » .

والفقرة الأصلية التى كتبها جيمس ليستهل بها محاضرات جيفورد أكدت فذاذة الخبرة الدينية ، وأكدت قطع علائقها مع « العقل البين » .

« ثمة شيء فى الحياة — عندما يشعر الانسان بوجوده ، يبدو أنه يتحدى كل المصادر الممكنة للتعبير اللغوى .. ان الحياة تتحدى أساليبنا البيانية ، ليس فقط لأن الحياة موصولة على الدوام الى ما لا نهاية ، ومراوغة وقرارة ومغطاة بالأستار والحجب ، فى حين أن ألفاظنا الكلامية مميزة ومنفصلة ، وخام وقليلة ، ولكن لانه لا يزال هناك تباين

(١٥) Reported to the author by Francis G. Allinson Harvard '77.

اعمق من دلك بكثير . فتنماتنا تأتى معا مستندة بعضها الى بعض جانبيا لكى تماسك ، فى تسلسل وتتابع ومحمولات (مسند ومسند اليه) ، ولا يوجد أبدا محمول لا يحتاج الى محمولات أخرى بعده لمويسه وتمظمه ، وتمده أو لتخلصه — بطريقة ما — من التمويه أو الزيف بسبب النقص أو المبالغه التى يحتويها . وكذلك الأمر بالقياس الى الحياة أيضا ، فانها فى معنى ما ، تعثر فى حقيقتها نفسها بطريقه مشابهة ، لأن لحظاتها السابقة تعوض بلا توقف فى اللحظات اللاحقة التى تعيد تفسيرها وتصححها . بيد ان هناك شيئا آخر غير دلك فى الحياة — شيئا لا نظير له مطلقا فى التفكير الكلامى . واللحظات الحيه — بعض اللحظات الحية — على أيه حال — فيها من الاطلاق والحرية والتمام التى لا تحتاج الى اسناد جانبى . ويبدو أن معناها ينبع من نفس مركزها ذاته ، بطريقة يستحيل وصفها بالكلام . اذا أخذت قرصا على رسم حلزونى متحد المركز ، ثم ادرت هذا القرص حول محور ، فسيبدو لك القرص وكأنه يكبر باستمرار وعلى نحو غير محدود ، وهو مع ذلك لا يستوعب أى شيء من الخارج ، ويظل اذا ركزت انتباهك على حجمه الحقيقى ، دائما بنفس الحجم . ثمة شيء — شبيه بمثل هذا التناقض الظاهرى — يكمن فى كل لحظة راهنة من لحظات الحياة . وهنا ، أو أبدا — كما يقول امرسون — الحقيقة برمتها . فاللحظة تقوم وتحتوى وتوجز كل الأشياء ، وكل التغير فى جوفها ، تماما مثلما يقع المنظر المترامى الأطراف بكل حجمه وزيادته فى النطاق المحصور للمربع الزجاجى للنافذة الخلفية من آخر عربة من عربات قطار ينهب الارض بأقصى سرعة. هذا الاسناد الذاتى وسط المحور الذاتى ، الذى يميز كل الواقع والحقيقة ، شيء غريب على الاطلاق عن طبيعة اللغة ، بل عن طبيعة المنطق كما اصطلح على تسميته . شيء يتجاوز دائما التعبير ويفلت من البيان وينسحب من التحديد ، يجب ان يلمح ويستشعر ، لا أن يقال . ولا أحد يعرف ذلك مثل أستاذك الحقيقى للفلسفة . لأن ما يشقشق كالبصيص ويتلألأ فى طرفة عين كجناح طائر فى ضوء الشمس فمهمة الفيلسوف بالذات أن يختطفه اختطافا ويثبته تثبيتا .

وفى كل مرة يطلق فيها طلقات ألفاظه الخنفشارية من بندقية رشه الفلسفية ، فمهما شعر بحميا النجاح — ظاهريا ، الا انه فى دخيلة نفسه ، يدرك فى نفس الوقت الباطل الأجوف وعدم تعلق ما يفوه به ، بالأمر .. وبصفة خاصة تكون هده هى الحالة عندما يسمى الموضوع المطروح على بساط البحث بفلسفة الدين . ان الدين هو المركز الداخلى واللب الجوهرى للحياة الانسانية ، والزعم الذى يدعى أنه مترجم على نحو كاف واف الى ألفاظ مفرودة تعبر عن أفكار مجردة ، ضربا من الخبرة تذوب فيها القريحة والشعور والارادة ، وكل وعينا ولا وعينا ، فى مزيج كيميوى مذاب ، هذا الزعم فظيع وشنيع ومدعاة للاشمئزاز والمقت — على الأخص • دعونى أقل بصراحة فى مستهل حديثى : اننى اومن بأن من المستحيل على ما يسمى فلسفة الدين أن يمكنها أن تبدأ أن تكون ترجمة وافية لما يجرى فى دخيلة الانسان الفرد ، حالة كونه يعبر عن نفسه — حيا يرزق — بايمان وتصرف دينى » .

فالدين لا عقلى ، وهو أيضا ذاتى شخصى وهو مرتبط بما يجرى فى دخيلة الانسان الفرد » •

والجانب الاجتماعى او النظامى للدين لم يظفر باهتمام چيمس أو يبدو له هاما • فالدين أمر يتعلق « بالطريقة التى تقع بها الحيـــاة من نفس صاحبها ، وبحاجته الصميمية ومثله العليا ، وما يعتمل فى نفسه من كآبة ووحشة وحزن ، أو من سلوى وعزاء وتأس ، وما يصيبه من اخفاق وفشل وخيبة ، أو من نجاح وفلاح وتوفيق »(١٦) . كان هذا ـ على اية حال هو ما له قيمة وحساب ـ اما الباقى فمجرد الوسيلة . ولقد نشأت من توكيد چيمس لفذاذة الخبرة الدينية ومضامينها الواقعية الخاصة ، علاقته المتناقضة مع المسيحية المعاصرة • ان نوع الدين الذى كان يهتم به كان أقرب الى التقوى البسيطة للمذاهب الانجيلية ، مما هو للتحررية الدينية الحديثة . فعند چيمس . كما هو الشأن مع طائفة النظاميين Methodi;t: كان الدين حدثا ظاهرا منظوراً ، واضح المعالم فى تاريخ الفرد لا سبيل الى نسيـــانه • وكان مغرما بأن يذكر – بشىء من المداعبـــة والمزح – أورثوذوكسيته الانجيلية لأصدقائه المتحررين من خدمة الدين المسيحى • وخصوصا لصديقه بوردين •ب• باون ، أستاذ الفلسفة بجامعة بوسطون، الذى كان من طائفة النظاميين ، ولكن من طراز حديث فلسفى بلغ درجة انتهت به الى أن حوكم بتهمة الالحاد • وبمناسبة اهدائه نسخة من كتابه « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » لزميله الأستاذ فرانسيس ج• بيابودى كتب له « ستصنفنى كنظامى ناقص « مسيح » ! » • وكتب الى فلورنوى الواقعة التالية : « جاءتنى رسالة بالأمس من قسيس متحمس يقول فيها اننى أحشر فى زمرة عيسى والقديس بطرس • وكتبت له من فورى الرد التالى (على طريقة هويسلار) : «ولم نقحم القديس بطرس وعيسى؟ »(١٧) .

ووراء هذا القناع من الدعابة والفكاهة يكمن المعنى الجدى لمحاولة چيمس برمتها . كان يعتقد ان التحررية خلصت العقل على حساب نبذ الظاهرة التاريخية العظمى للدين ، وفى المذكرات التى أعدها لمحاضراته جاء ما يلى :

« تذكر أن جوهر المسألة كلها يكمن فى الاعتقاد حقا وصدقا بأنك بواسطه جـــزء معين فيك أو نقطة معينة فيك تمتزج وتتطابق مع الخالد . وهذا فيما يبدو هو الايمان المخلص فى كلا المســـيحية والفيدانتية* • وهـــــذا الايمان لا يقع من نفس المرء الا فى

---

(١٦) "Theological School Lectures" of 1902 or 1906.

(١٧) To Peabody, June 21, 1902; to Flournoy, July 23, 1902.

(*) Vedantism: Hindu philosophy based on the veda (ancient Hindu scriptures written in old form of Sanskrit.) (المترجم)

أوقات معينة بالذات . والحياة الدينية الحقة الأصيلة – دائما غائبة مشدودة نائمة من الوجدان – (فالناسك لا يملك شيئا سوى قيثارته) – وجوهر هذه الحياة هو أن تعطش فى مملكة أخرى – وتشعر بنظام خفى محجوب عن الأعين .. حيث أن الفهم المنوط بالادراك والفهم والاحساس العادى تختفى فعلا – على حسابها .. وهنا – حقا .. العداوة الحقيقية بين الادراك العادى وبين الدين .. وبين عقائد الأنبياء أصحاب المعجزات والخوارق – أيا كانوا وأنى كانوا .. فكل فريق من جانب يرى أن الفريق الآخر محصور فى نظره فى سوء عالم مختلف متباين يعيش كل فريق فيه على حدة » .

فى صيف سنة ١٩٠٢ ألقى چيمس محاضرتين امام مدرسة هارفارد للاهوت . وبهذه المناسبة كتب الى مونستربورج من شوكوروا فى الحادى عشر من يولية يقول :

« سأحاضر فى كامبردج ، يوم الاثنين ويوم الثلاثاء . واذا مضيت على هذا المنوال فلاشك أنهم سينصبوننى مطرانا . أما بالنسبة لكتابى فلا تقرأه حتى تقترب منيتك وتصبح على فراش الموت لكى يخلص روحك . وأحسب أن مثلك لابد أن يمقت هذا الكتاب اذا نظر فيه الآن » (١٨) .

وفى هاتين المحاضرتين وسلسلة المحاضرات الخمس التى ألقاها فى صيف سنة ١٩٠٦ واصل چيمس توكيد التناقض القائم بين الاتجاه الحديث للتسويغ العقلى وبين جوهر الدين التاريخى :

« بين الرجل العادى الذى يذهب الى الكنيسة وبين القديس العاطفى بوجد وحماسة يوجد ذلك العداء المستحكم المزمن بين أولئك الذين يميلون فطريا الى « أن يجعلوا الدين موافقا للعقل » وأولئك الذين يدينون به ويطيعونه بطرق لا تلين ولا تحيد ، ولا تقبل المشارطة ولا التسوية ، وبوسائل متعبة مضايقة ثقيلة . وهذا العداء فى جوهره الأصيل هو العداء المستحكم بين مذهب طبيعى بمجمل مخفف هين لين ، وبين مذهب غيبى فوق الطبيعة بمركز اهتمامه خارج هامش هذا العالم كلية . والحل الذى أراه – أنا – يؤثر وجهة النظر الأخيرة هذه . »

وحتى فى داخل حزب مذهب ما فوق الطبيعة فان چيمس طابق نفسه مع الجناح الأيسر . فثمة «فوق الطبيعية طبيعية» (عن كارليل) «فوق طبيعية فطرية داخلية أو كونية شاملة » . وهى تميز القيمة من الحقيقة ، ولا تكترث بالوصف العلمى لأنواع الوجود المعينة ، وتؤول المجموع على

---

(١٨) M. Münsterberg, Hugo Münsterberg: His Life and Work, D. Appleton and Company, 1922, 89.

اعتبار أنه فوق طبيعي . ولم ينبذ چيمس هذا الاتجاه نبذا مطلقا ـ وهو في مناقشته للدين لا ينبذ اي اتجاه ـ حيث أن من الخصائص الجوهريه لوجهة نظره أنه ينقبل ويحترم ـ كديني ـ أي شكل من أشكال التقوى ـ أيا كان ـ ينطوي على الاحساس بالخلاص • ولكنه مضى من جانبه الى الدفاع عن القضية القديمة الخاصة بما فوق الطبيعة « الثنـائية » « الخاصة » أو المنفصلة « قطعة » « فقطعة » التي تبيح دخول ما فوق الطبيعة الى نفس حيز الواقع مع الطبيعي • ولقد أحيا هـذه القضية « كممكن » مستشهدا بسيكولوجية الشواذ والخبرات الدينية للجنس البشري كبينات لتأييد وجهة نظره •

مثل هذا التقرير الثابت كان فاجعا لمعظم الناس ، ولكنه بالنسبة لچيمس كان على النقيض . فما كان يفجعه هو « الطرق المجردة البعيدة لاعتبار الحقائق الفردية » (١٩) .

وجدير بالتنويه ان كتاب «الأنواع المختلفة للخبرة الدينية» كان يحمل تحت عنوانه الرئيسي « دراسة في الطبيعة الانسانية » • وكانت نيـة الكاتب في الأصل أن يجعل الجزء الأول من السلسلة « وصفيا » والجزء الثاني « ميتافيزيقيا » ، ولكن الجزء الوصفي زاد وامتد الى درجة كبيرة جدا بحيث اضطر الى تأجيل الجزء الميتافيزيقي الى مناسبة أخرى • هذا هو على الأقل ما قرره المؤلف نفسه في هذا الشأن • لقد اعترف بأنه يقدم الحقائق تاركا للقارىء استخلاص النتائج التي ينتهي اليها • وفي هذا الصدد كتب الى بولين جولد مارك قائلا « الكتاب زاخر بفيض كبير من الطبيعة الانسانية ، ويجب أن يكتب على نحو « موضوعي » لأن أصدقاء الله وأعداءه على السواء ـ فيما يبدو ـ سيجدون فيه تسـويغا وافرا لوجهات نظرهم المختلفة »(٢٠) .

على أن الانطباع الذي خلفه الكتاب على القارىء هو أن أصدقاء الله هم اصحاب الكلمة العليا في الكتاب . فلم يكن وصف چيمس من ذلك الطراز المعقم الذي يسمى نفسه عادة علميا • صحيح أنه أدخل تخصيصين للتفرقة مثل « مولود مرة واحدة » ، « مولود مرتين » على سبيل التصنيف،

---

(١٩) The same theme, of "crass" vs. "refined" supernaturalism, is briefly presented in V.R.E., 520 ff.

(٢٠) To Pauline Goldmark, August 1, 1902.

ولكنه لم يقم لذلك كبير وزن ، ثم انه لم يستخدم الفروض التفسيرية لعلم النفس العام ــ بشكل منظم ــ سواء الفروض التى قدمها هو نفسه فى كتابه علم النفس ، أو الفروض الشائعة المصطلح عليها التى كانت مألوفة فى الوقت الذى نشر فيه « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » ــ باستثناء الفكرة المخالفة للتعاليم المسلم بها القائلة « بالوعى النــــاقص (وراء الوجدان) » . ولقد ترك چيمس وثائقه الدينية تتحدث عن نفســها بنفسها ، او بالأحرى اعانها على أن تتحدث عن نفسها بنفسها .

وهكذا نجد أنه فى حين أنه اعتبر « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » بمثابة « دراسة فى علم النفس المرضى » الا أنه بذل جهدا عظيمــا فى المحاضرة الافتتاحية لكى يخلص سامعيه من أى تحامل قد يشعرون به ضد حالة عقلية ما لمجرد كونها مريضة . وفى هذا الصدد قال فى مناسبة أخرى « ان مجرد السلامة العقلية هى أكثر خصائص المرء مادية ، وهى (فى واقع الأمر) أقلها جوهرية وضرورة » (٢١) .

ومن ثم فان الانطباع الذى خلفه چيمس فى القارىء هو ان چيمس اعتبر الخبرات الدينية ، على الرغم من أنها قد يحكم عليها بأنها مرضية بمعايير السيكاتيرى البحت ، خبرات ملهمة ــ فى معنى ما والى حدما . وهذه الصفة « الاستثنائية » الشاذة عن القاعدة هى التى جعلتها عنده حميدة وموضع استصوابه . ومما لا ريب فيه أن چيمس كان يسوغ الخبرة الدينية ولم يكن مجرد واصف لها فحسب . لقد وضع نفسه فى بؤرة وعى المؤمن أو المعتقد ، وحاول أن ينقل حرارتها وشغفها بنفس ما فيها من احساس أصيل . وكان مهتما بالقيم الدينية ، وبأمل واطراء الأشخاص ــ كأشخاص من لحم ودم ــ ، ذلك الأمل والاطراء اللذان ينبغى الاحساس بهما وجدانيا اذا قدر لنا أن ننقلهما على الاطلاق . وبعد ذلك، وخصوصا فى الجزء الأخير من الــكتاب دافع المؤلف عن دعاوى الخبرة الدينية .

ان الفلسفة ــ فى شخص وليام چيمس ، أكدت حقيقتها .

ثمة ثلاثة اختبارات يمكن تطبيقها على الحقيقة الدينية : الاشراق المباشر ، والتعقل الفلسفى ، والاسعاف الأخلاقى وهذه أسماء جــديدة لمعايير المعرفة تظهر مرارا وتكرارا فى فلسفة چيمس . فهناك البينـــة المباشرة للحقيقة ، وهناك توافق الحقيقة المزعومة مع العقائد المســلم

(٢١) Letters of Charles Eliot Norton, 1913, II, 348.

بها من قبل ـ بالاختصار البينة غير المباشرة للحقيقة ، ثم هناك ائتلاف وتجانس الاعتقاد مع الطبيعة الهووية وخصوصا مع الارادة الخلقية · والدعوى العالمية الشاملة للايمان الديني « بأن الشخص الواعي متواصل مطرد مع نفس أوسع وأعم تأتي عن طريقها خبرات الخلاص » ، هـذه الدعوى ترضى كل هـذه المعايير على نحو كاف واف · « فالخبرات الصوفية ··· ادراك حسي مباشر للحقيقـة بالنسبة لأولئك الـذين يمارسونها » · وهي في هذا تتفق مع العلم ، والفضل يعزى الى الفرض السيكولوجي الذي قدمه فريدريك مايرز الخاص «بالنفس المتسامية»(٢٢) أما تطابقها واتفاقها مع الفلسفة فيأتي عن طريق فرض التعـددية · فالصوفية وجدانية ـ عموما ، وفوق الطبيعية عقيدة تعسفية ـ عموما ، ولكن چيمس يقترح تحولا جوهريا : صوفية تعددية وفوق طبيعيـة تجريبية · ولم يكن ذلك التماسا خاصا على سبيل المرافعة ـ من جانب چيمس ، وانما كان بلوغ نهاية المطاف السديد لواحد من خطوط تطوره الفلسفي ·

وفي وقت مبكر يعود الى سنة ١٨٧٤ كان چيمس قد قرأ كتـاب بنجامين بول بلود « الكشف المخدر » ، الذي يعتبر معراجا من أهم معارج تفكيره كله فيما بعد . وفي سنة ١٨٨٨ راقته فكرة ادموند جورني التي أسماها « فوق الطبيعة الفرضية » بمفهومها الخاص « بنظام خفي متواصل مع النظام الحاضر للطبيعة » ، ومن هذه يوجد تحول طبيعي الى فوق الطبيعية المنفصلة قطعة فقطعة أو « الخشنة » لسنة ١٩٠٢ »(٢٣) .

وأخيرا فان « الاسعاف الأخلاقي » أو الائتلاف الهووي لمثـل ذلك الايمان الديني التعددي ، يكمن في كونه ينقل احساسا بالفرصة المفتوحة وبالمسئولية الجدية للوسيط الفردي · ويلحق بذلك « تلك الحالة العقلية العادية الأخلاقية » التي تجعل خلاص العالم متوقفا على « النجاح الذي تؤدي به كل وحدة دورها »(٢٤) .

ولقد أثار كتاب « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » تعليقات كثيرة ـ قادحة ومادحة ، منشورة وغير منشورة ، من زملاء المهنة ومن الأصدقاء

(٢٢) V.R.E., 18, 515, 423-4, 242, cf. P.U., 299, 309.

(٢٣) James's review of Gurney's Tertium Quid, in Nation, XLVI (1888). The varieties ends with a reference to this writer.

(٢٤) V.R.E., 526.

الشخصيين . ولقد أوجز چيمس فى ردوده على التعليقات ، خـــلاصة ما جاء فى الكتاب وقومه • ومن بين الردود التى رد بها على قادحيـــه ومادحيه على السواء ــ كان أعظمها تألقا وانارة هو ذلك الرد الذى كتبه لجاره فى كامبردج وصديقه القديم جريس نورتون :

شوكوروا ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠٢

« عزيزى جريس :

رسالتك الخاصة بكتابى وصلت فى حينها وملأتنى بمزيج من مشاعر الشغف والأسى.. وانا لا أعجب من أن بلى وتعفن وحصيبية (نسبة الى مرض الحصبة) كل هذا العدد الكبير من القديسين بعث فيك كل هذا النفور والتقزز والاشمئزاز الذى نأى بك عن عالم الغيب وحولك الى الطبيعية والانسية . ان رسالتك هى أحسن رسالة تسلمتها بالقياس الى وجهة النظر هذه ، لأنها أكثر الرســـائل وقارا فى التعبير وأعمقهـــا فى الاحساس . وأعتقد أن وجهتى النظر يجب أن تؤثر احداهما فى الأخرى ، حتى تؤلفا محتوى مشتركا وطريقة حياة معا ، بحيث أن مادة الحياة المباركة يكون التفكير فيها بالنسبة للانسانية خاصة ومقصورا عليها ، وبحيث أن الالهام يكون الشعور به كعلاقة الى ملأ أعلى من الكون ــ غير منظور الآن . ولكن الوقت سيطول ويطول قبل أن تتمكن الصيغ المختلفة للأشخاص من عدم احداث سوء فهم فى عقول بعضهم . وثمة فرق عملى ــ حتى الآن ــ هو الفرق بين أصحاب العقول السليمة (وأنا أعتبرك من ضمنهم ككاتب لرسالتك) وأولئك الذين يقنطون جديا من السلامة العقلية المستقيمة كحل جوهرى . وأنا نفسى لا أستطيع أن أرى كيف يمكن أن يكون حلا عالميا شاملا ، عندما يكون العالم مركزا لكل هذه التعاسة التى لا سبيل الى البرء منها حقا بالطرق العادية ، ولكنها تشفى (فى أفراد كثيرين) عن طريق خبرتهم الدينية . وليس فى وسع المرء أن يتجاهل الأشخاص التعساء ولا الطريقة المعينة الخاصة التى يفرجون بها كروبهم ، على اعتبـــار أنها حقائق فى التاريخ الانسانى لا سبيل الى جحدها ، ولما راجعت التاريخ الانسانى ــ موضوعيا ، لم يكن لى بد من أن أرى هناك ، ظاهرتها المميزة على أرجح الاحتمالات . ولكنى من أنصار الذاتية الى أبعد مدى ، وأومن بأن المسألة كمشكلة عملية للفرد ، تفرض أن الدين الذى يظاهره المرء يجب أن يكون الدين الذى يجده أحسن وخير دين بالنسبة له هو ، على الرغم من أن هناك أشخاصا أحسن منه ودينهم أحسن بالنسبة لهم . مثل رباطة الجأش هذه التى تدافع عنها هى من أنبل الاتجاهات الشاملة المحيطة ــ التى وجدت حتى الآن ، وهى فى مواجهة جنون واختلال وعته الاعتقاد بالله بصرف النظر عن الوحى ــ سيكون لها دور جبار ستؤديه يقينا .

الصيف آخذ فى الزوال .. وأنا أيضا أدخل فى المحاق . ولعل ذلك مجرد « حاجة الى التغيير فحسب » ولكنه أمر مثبط للعزم ، خصوصا فى ظروف وأحوال تبدو وكأنها قطعة من جنات النعيم ، أن يجد المرء أن تقدم كل هذه الأسابيع الكثيرة ، يذعن ويستسلم للنكوص والارتداد • وفى مرجوى أن ــ بل وليس عندى شك فى أن الأمور ستتحرك الى أعلى ثانية عندما يبدأ الفصل الدراسى . أشكرك مرة أخرى يا عزيزى جريس ، أشكرك ألف مرة لرسالتك الطيبة ولما تحتويه من نصيحة طيبة . وتقبل من آليس كل تمنياتها الحبية مقرونة بالمحبة الدائمة من

و م • چيمس »

٢٩

إيمان چيمس الشخصى

من العسير التمييز بين ايمان چيمس الشخصى وبين تلك المعتقدات التى آمن بها الآخرون ، والتى لم يتسامح معها ويحترمهـــا فحسب ، وانما فهمها وأدركها بكل ما فيه من عطف ومشاركة وجدانية بحيث أنه أحس بصداها فى فؤاده ٠

وعلاوة على ذلك ، فقد كان جزءا من عقيدته لزوم وجود عدد كبير من العقائد ، وليس من السهل أن نعرف متى كان يفصح عن مبدئه العام ومتى كان يدافع عن انجيله الخاص الذى يعزى اليه هو خلاصه ٠ وفى معنى ما فان عبقريته كلها كانت تكمن فى مضاعفة الفروق والأبدال وفى تسويغ كل مزاج وجبلة وفطرة من حيث هى ٠

وأخيرا ، فان چيمس كان رجـــلا متقلب المزاج والأهـــواء . ونوع الايمان الذى كان يستطيبه كان يتوقف على حالة مشربه الروحى ، وهذا المشرب الروحى بدوره كان يعكس حالته الجسمية العامة ونغمته العقلية٠

وكان چيمس فى صباه يجنح الى التبشير بانجيل الرواقية (فلسفة عدم المبالاة بالمؤثرات الجسدية كاللذة أو الألم) وخصوصا لصديقه توم وارد الذى وعظه فى وسط « ظلام ديسمبر » بأن يتذكر أن العالم لايزال « حقا » زاخرا بالحياة والمتعة كما كان دائما (١) .

ولقد استمر هذا الدافع يعتمل فى نفس چيمس . ولأن چيمس نفسه كان يتعرض للوسواس ووهم المرض من حين لآخر ، فقد كانت رباطة جأش الآخرين وشجاعتهم فى تحمل الآلام صابرين تمس قلبه ، وتحرك عواطفه ، بل تظفر باعجابه وتقديره . ولما كان چيمس نفسه فريســـة للتقلبات المزاجية بنوع خاص ، فقد سعى الى تبديدها والى تطهير وجهة نظره من تأثيرها المشوه :

---

(١) L.W.J., I, 128.

« ان عزاءنا ينبغي ان يلتمس فى الركون الى العام . ومن الخسة أن يشكو المرء — فى حالته الخاصة ، من ذلك الذى يتعين على طاقة اللحم والدم — حتى فى حالة اكثر أعضاء النوع زينة وزخرفا — أن تقاسى منه . وفوق كل شيء فان العالم ما زال زاخرا بالشباب والبكارة كما كان دائما من قبل ، لو اننا قد ادركنا هذه الحقيقـــة عندما يهن العظم منا ويشتعل الرأس شيبا »(٢) .

فهناك ، اذن ، ذخيرة مذخورة ، واحتياطى مدخر آخر ، من الرجولة والشهامة والموضوعية تعين الفيلسوف على الوفاق مع عالمه مهما قل نصيبه من الوئام معه . ولقد كان هذا جزءا ثابتا دائما من انجيل چيمس ؛ وان كان أقل الأجزاء تميزا له بنوع خاص .

والاعتراف التالى ، الذى كتبه فى سنة ١٨٧٦ يكشف عن تبرمه بانجيل من الشجاعة البحت فحسب ، وكذلك الحوافز الاضافية التى حركتـه بقوة أخذت فى الازدياد بمرور السنين — قبول الدين كحقيقة تاريخية ، وتسويغ العقيدة بالحاجة الذاتية ، والاحتفاظ بالعقيدة الدينية للحظات التى تصبح فيها الحاجة على أشدها :

« ان صلابة رواقيتى تظلمنى أحيانا . وموقفى من الدين هو موقف الاكرام والرعاية لاموقف التبنى والاتخاذ . فانا أرى مكانه ، واشعر أن هناك أوقاتا عندما يسقط فيهـــا اعتبار كل شيء آخر — ويبقى ذلك الاعتبار وحده ، ومع ذلك فانى أسلك وأتصرف كما لو كان يجب على أن أتركه بلا مساس حتى تأتى مثل تلك الأوقات ثم أنجذب اليه بضغط الجو المحض . وأنا متأكد أننى على صواب — جزئيـــا ، وأن الدين ليس عزاء وسلوى وراحة يومية . ومع ذلك فأنا أعلم أننى مخطىء جزئيا » .

على أن اكثر العنـــاصر تميزا فى انجيـــل چيمس هو اصراره على أنه حيثما تكن الذاتية الانسانية على درجة كافية من العمق والشمول ، ففى وسعها أن تفرض — بسداد — مطالبها على البيئة . فماذا كان المطلب الذاتى الذى شعر به چيمس أعمق الشعور واعتبره فى ذروة الصحة والشرعية ؟

لقد كان — كما رأينا — هو مطلب الارادة الخلقية تعتمد فيه قضـــية العدل والقسط ، وقد تحررت من ربقة الشر ، على حماسة وغيرة المخلصين لها والمكرسين ذاتهم لها .

بيد أنه كان هناك حافز آخر — فهمه چيمس فهما غير مباشر عن طريق المشاركة الوجدانية للغير ، وفهما مباشرا عن طريق آلامه ومعاناته بنفسه . هذا الحافز هو الحنين الى السلامة والأمن والطمأنينة .

---

(٢) To S.H. Hodgson, June 25, 1902.

وهذا الحنين لم يتوقف ابدا عن حفز چيمس على الرغم من أنه كان خاضعا — بلاريب — لاستطابته الشديدة للجدة واقتحام المخاطر · ومن ثم ، نجد أنه على الرغم من أنه أعلن فى سنة ١٨٨٥ فى «معضلة الجبرية»، حرب الابادة ضد الشر ، الا أنه تردد فى اغلاق كل باب للسلام · وفى نفس السنة فى كتـابه « الآثار الأدبيـة لهنرى چيمس » نادى بالتعددية والصحة العقلية من قبله ، وبالوجدانية للروح المريضة من قبل أبيه · ولكنه — من ثم ، مضى الى القول :

« نحن جميعا هؤلاء المرضى — على سبيل الاحتمال والامكان — فأعقلنا وأحسننا من نفس طينة المجانين والمعتوهين ونزلاء السجون · وكلما شعرنا بذلك — انتابنا احساس جارف بغرور وباطل حياتنا الطوعية المريدة ، لدرجة أن كل أخلاقنا تبدو كما لو كانت لصوقا يخفى تحته قرحة رمت على فساد ، ولا سبيل الى البرء منها أبدا ، وكل عملنا الطيب يبدو كما لو كان أجوف بديلا عن تلك الكينونة الطيبة التى ينبغى أن تكون هى فعلا لب حياتنا ، والتى — نحن بكل أسف — لسناها » ·

« ان التعددية نظرة — نكاد كلنا نجنح اليها عندما نكون تمام الممارسة الناجحة الموفقة لطاقتنا الأخلاقية » ، وقد كان هذا هو انجيل چيمس عندما يكون فى أحسن حالاته وأعلى منجزاته (٣) .

ولكن أى رجل لا يكون دائما فى أحسن حالاته وأعلى منجزاته واخفاق التعددية — بحالة اليأس وعلى آخر رمق — حجة عليها لا لها ·

وفى سنة ١٩٠٧ ، فى معرض المقارنة بين تعدديته الأخلاقية والفلسفية الواحدية للمطلق — قال چيمس :

« كلتا العقيدتين تؤكدان امزجتنا العنيفة الغيور ·· (فالواحدية) تلائم جيدا الأرواح المريضة والأرواح النشيطة — سواء بسواء . ولكن المرء لا يستطيع أن يقول ذلك عن التعددية : فعالم التعددية عالم عرضه دائما للهجوم — عالم مكشوف ، وقابل دائما لأن يتوه جزء منه ويشرد .. والمشايعون له لابد أن يشعروا دائما — الى حد ما — بعدم الطمأنينة . وحاجات الأرواح المريضة هى بكل تأكيد — الأكثر الحاحا والمتفذون فى المطلق أولى بهم أن يروا أن من مزايا فلسفتهم أن فى وسعها أن تلاقيهم على هذا النحو من التمام . أما البراجماتية أو التعـــددية التى أدافع عنها فعليها أن تستند على نوع معين من البسالة الأساسية ، على نوع معين من الارادة والرغبة فى الحياة دون توكيدات أو ضمانات »(٤)·

(٣) L.R.H.J., 118, 116.

(٤) M.T., 226-9.

وحيث ان الانسان ليس دائما باسلا ، فان انجيل التعددية لا يلاقى دائما حاجاته . ولكن چيمس كان ، على الاجمال وفى المدى الطويل ، باسلا روحيا ، ومن ثم فان انجيله كان التعددية . وبالاضافة الى ذلك ، فحيث انه يستعمل لفظ « صحى » للتعددية « ومريض » للواحدية ، فمن المستحيل تلافى الاستدلال بأن الصحة الروحية السديدة كفيلة بأن تفضى بالانسان الى تلك الحالة الأحسن التى تكون فيها التعددية سائغة ومقبولة، وبأن الرجل القوى المتحمس للجهاد والذى يتمتع بروح المخاطرة هو النمط الأكثر مثالية .

واذن ، فان دين چيمس الجوهرى من النوع الأخلاقى ــ التعددى . وقيمة الله هى أنه بمثابة « حليف أكثر قوة لمثلى العليا » . وهذه الحاجة الملحة الى الله والى الدين بمثابة تعزيز وظهير للارادة الخلقية ، هى السبب الرئيسى لعقيدته الشخصية . فما كان چيمس بالرجل الذى يتحاشى صرامة وقرص الفكر . لقد احتفظ بعضلاته الفكرية قوية . لقد قال يوما لطلابه : « بعد أن تأخذوا حماما فى الدين اخرجوا ودوروا دورة أخرى مع الفلسفة ــ حاصروها » (٥) .

ولكن بالنسبة للحقيقة الدينية ذاتها ، فانه لم يول اهتماما يذكر ــ نسبيا ــ للحجج الفلسفية ، حتى حججه نفسها . كان من رأيه أن البينة **المقنعة** بينة عملية ومباشرة .

وفى سنة ١٩٠٤ فى السابع عشر من ابريل كتب چيمس الى العالم النفسى چيمس هـ . ليوبا ما يأتى :

« ان موقفى الشخصى بسيط . ليس عندى أى احساس حى بالتجارة مع الله . وانى لأحسد أولئك الذين لديهم هذا الاحساس لأننى أعلم ان اضافة مثل هذا الاحساس سيساعدنى الى حد كبير . ان الالهى المقدس ــ بالقياس الى حياتى الناشطة ــ مقصور على مفاهيم لا شخصية ومجردة ، وهى كمثالات تهمنى وتقرر أمرى وقصدى ، ولكنها تفعل ذلك بضعف وخفوت اذا قورنت بالأثر الذى يحدثه الاحساس بالله اذا كان لدى هذا الاحساس . على أن ذلك ــ بالتأكيد ــ الى حد كبير مسألة حدة وشدة ، ولكن أقل ظل من الحدة والشدة فى وسعه أن ينقل كل مركز طاقة المرء الخلقية . وبناء على ذلك ، فانه على الرغم من أننى خال الى هذا الحد من الوعى الالهى Gottesbewusstsien فى معناه الأكثر مباشرة والأقوى ، الا أن هناك شيئا فى أعماقى يستجيبه عندما أسمع نطقا وتلفظا وترويحا صادرة من هذه الناحية من لدن الآخرين . اننى ادرك

(٥) L.W.J., II, 214; author's notes in Philos. 3, 1896-7.

ذلك الصوت الأعمق ـ الآتى من بعيد والذى يدعو الى بعيد . ثمة شيء يقول لى : « هنالك يكمن الحق » ـ وانى لعلى يقين بأنها ليست التحيزات اليقينية القديمة للطفولة التى لقنت فيها الاعتقاد بوجود الله . ولقد كانت تلك المعتقدات فى حالتى ـ هى المعتقدات المسيحية ولكنى تجاوزت المسيحية الى درجة بحيث أن الارتباك ضمن هذا من جانب تلذذ صوفى يتطلب تجريدا منه وتغلبا عليه قبل ان استطيع الانصات . سم ذلك اذا شئت ـ جرثومتى الصوفية . انها جرثومة شائعة جدا ومشتركة بين الناس . وهى التى تخلق الجماع الأعظم للمعتقدين والمؤمنين . وحيث انها صمدت فى حالتى ، فكذلك ستصمد فى معظم الحالات ، كلها نقد جمالى بحت » .

ومن ثم ، فعلى الرغم من أن چيمس لم يمارس نفسه خبرة وجود الله ، الا أنه شعر بأنه محق فى تقبل الشهادة بهذه الخبرة من أولئك الذين « حسدهم » . لقد كان معجبا « بالحيوية الفائقة لتبادل الانسان الحديث السيكولوجى مع شيء مثالى يشعر كما لو كان هو أيضا حقيقيا » (٦) .

ولقد اقتنع بتقبل هذا الشعور بالوجود الحقيقى الواقع للمثالى الغيبى ، لأنه وان كان لم يمارسه بنفسه ، الا أنه مارس خبرات مشابهة، ليس مجرد الخبرات العادية الطبيعية التى شكلت السمة الرئيسية لتجريبيته الفلسفية والسيكولوجية ، وانما أيضا خبرات « شاذة » من النوع الصوفى . فهناك على سبيل المثال ، تلك الليلة فى غابة الأدبرونداك عندما تلقى «صفاة الانطباع» التى ترك لنا عنها وصفا فى غاية الحيوية . وهو لم يدع أنه شعر بالله ، وانما فقط أنه استطاع من ذلك الوقت فصاعدا أن يفهم كيف يشعر الناس اذا ما شعروا بالله فعلا . ولقد قال فى هذا الصدد « ولاريب أن ما قلته فى محاضرات أدنبرة يمكن اقتفاء أثره الى تلك الخبرة بالذات » .

ولم تكن هذه سوى واحدة من أمثلة عديدة من تلك « الجرثومية الصوفية » (٧) التى أفضت بچيمس الى تصديق صوفية الآخرين فى أنضر ازدهارها أو الى ذلك التعرف على فضيلة الصوفية التى أفضت به الى تقبل جنسها الدينى .

هل آمن چيمس بخلود الروح ؟

من الجلى ، أنه هنا ، كما هو الشأن فى حالة الايمان بالله : دافع أولا

---

(٦) To James H. Leuba, April 17, 1904; L.W.J., II, 211; to Charles A. Strong, April 9, 1907, L.W.J., II, 269.

(٧) Cf. below, 364; L.W.J., II, 269.

وقبل كل شيء عن شرعية الاعتقاد ، ليس لحسابه الخاص ولكن للانسانية عموما • ففى محاضرته الموسومة « بالخلود الانسانى » حاج بأن الخلود لا يتناقض مع نظرية المخ لوعينا الدنيوى الحاضر •

وفى هذا الصدد كان معنيا بالدفاع عن الاحتمـــال النظرى الممكن للخلود •

ولكن ماذا عن موقفه الشخصى ؟

انه يخبرنا بأن ذلك الاعتقاد لم يكن « حادا » أبدا • لقد كان واحدا من أولئك الناس الذين يجدون فكرة موتهم أنفسهم فوق مقدور الاحتمال.

صحيح أنه كان عندما يشعر بجيشان وتدفق الحافز الخلاق ، فانه كان يكره فكرة كونه يقاطع : « ولكن ••• رباه • ما أشد حاجتى الى أن اقرأ واكتب ، وأمامى هذا القدر الكبير الذى أريد أن أنجزه ولما أتمه . لقد أصبحت فى غاية القلق حقا خشية أن أموت قبل الأوان » (٨) . ومع ذلك فقد كان فى چيمس دائما نوع من الاستسلام الباطنى • ففى معرض الحديث عن مرضه فى سنة ١٨٩٩ كتب يقول :

« الام ينتهى المصـــير ؟ فالله وحـده هو العليم . وانه لأمر يخمد العزيمة ويبعث فى النفس الأسى ، لاننى أحب أن أنتهى من هذين المجلدين من محاضرات جيفورد قبل أن اولى ظهرى لهذه الحياة الدنيا ــ متاع الغرور . « ولكن الانسان يقدر والقدر يسخر » على حد تعبير أحد الرفاق السود فى كامبردج فى تأويله للمثـــل الفرنسى ، ولن أسرم بما سيحدث أيا كان المصير . ومن بين كل الاباطيل الدنيوية ــ عندما تمعن النظر فيها وتنفذ الى لبابها فان المحاضرات عن فلسفة الدين التى يلقيها رجال القانون هى التى تظفر بالجائزة الأولى فى باطل الأباطيل وقبض الريح »(٩) •

وهكذا نجد ، أن جزءا من ميثاق چيمس الأخلاقى أنه ينبغى على الرجل أن يلقى الموت بشجاعة أو حتى عرضا بشيء من عدم الاكتراث • وفى شبابه عندما كانت التعاليم الرواقية موضع اعجابه القوى ، كتب الفقرة التالية فى مذكرته اليومية لدن سماعه نبأ موت ابن عمه مينى تمبل :

« بذلك الجزء الكبير منى الذى يرقد معك فى القبر ، فلأدرك وأومن بفورية الموت . ولأشعرن بأن كل عذاب تقاسيه هنا ينتهى ــ ويمر كما يمر نسيم الريح ــ وكذلك كل لذة أيضا . ان الأعمال والمثل باقيات . الدهر طويل . وحياة انسانية واحدة هى لحظة

---

(٨) L.W.J., II, 214; W.J. to F.C.S. Schiller, April 8, 1903.

(٩) W.J. to Theodore Flournoy, November 13, 1899.

فى عمر الدهر . هل صبرنا قصير الامد وفضولنا ميت هامد خامد ، أو حزمنا هش لدرجة أن لحظة واحدة احتطفت من عمر الدهر اللانهائى تذهب أنفسنا حسرات ولا نستطيع أن نتحملها بطيب نفس ؟ ميتى ... ان موتك يجعلنى أشعر بتفاهة وعدمية كل عضبنا الأنانى . ان اعتاقنا - المحتم - ضربة لازب . فلماذا لا نأخـذ دورنا بلطف وكرم أيا ما كان ينطوى عليه ؟ لم لا نسمو الى نوع من الزمالة مع القدر ، وحيث ان المأساة فى صميمنا فلم لا نذهب للقاء الموت ونطوعه لغاياتنا ، بدلا من أن نراوغ الموت ونتنصل منه طوال أيام حياتنا ثم يدهمنا فجأة فى نهاية المطاف ؟ أقد من موتك (أو من حياتك - فالأمر سيان والمعنى واحد) « tut twam asi » (١٠) .

وعلى الرغم من أنه بدأ ينظر الى المسألة نظرة أقل خشوعا ، الا أن هذا الحافز ظل متحكما فيه دون توقف أبدا .

ففى سنة ١٩٠٠ اقترح أن موقف الانسان من الموت ينبغى أن يكون مزيجا من « الاستخفاف النبيل » و « الرواقية السامية الفكر » و « الحماسة الدينية » .

أما فيما يتعلق بالمغزى الأخلاقى للخلود فقد اتخذ وجهة النظر السلبية التى انشق عنها ستامب . فلم يكن يرى من سبب يحملنا على الرغبة فى تسليم حماية ورعاية مثلنا العليا الى « أيد أخرى » (١١) .

بيد أن چيمس بمرور السنين وكبر السن ابتدأ يؤمن بالخلود . فلم تأت سنة ١٩٠٤ حتى كان لديه احساس « باحتماله » . وفى السابع عشر من يوليو من تلك السنة كتب الى ستامب ما يلى :

« لم يسبق لى أن شعرت أبدا بالحاجه المنطقية الى الخلود ... ولكنى كلما تقدمت بى السن - فانى أعترف بأننى أشعر بالحاجة العملية اليه ، أكثر مما شعرت فى أى وقت مضى - وهذه الحاجة تضاف الى أسباب ... لكى يعطينى ايمانا متزايدا بحقيقته » .

ماذا كان الباعث العملى لذلك الايمان ؟

فى تفسيره للسبب الذى حدا به فى خريف عمره الى الايمان بالخلود لأول مرة - قال چيمس : « لأننى على وشك أن أصبح لائقا للحياة » .

وبعد خمس سنوات من بوحه بهذه العبارة قال :

---

(١٠) "Thou art That". Entry for March 22, 1870.

(١١) Above, 169; V.R.E., 524.

« كثيرا ما قلت ان أحسن حجة أعرفها لحياة خالدة كانت وجود رجل يستحقها مثلما استحقها الابن » (١٢) .

وبحبه الذى طبع عليه لكل ما هو حى ، وعواطفه الودودة ووجدانه المشارك للغير ، واستحساناته الأخلاقية المتوقدة انتهى به الأمر الى أن يعمق فى وجدانه أكثر فأكثر الاحساس بأن الموت ضرب من الانكسار او النفى السالب العابث الغامض للاحسان والخير . ويظهر هذا الباعث او الخليط من البواعث فى تعليقاته على اثنين من أصدقائه . ولقد كتب التعليقين الأوليين فى سنة ١٩٠٤ أما التعليق الثالث فكتب فى سنة ١٩٠٦ (١٣) .

«لقد حضرت للاشتراك فى جنازة ساره هويتمان ، وحيث اننى هنا فقد مكثت حتى حفل التخرج بالجامعة ، ولكنى عائد اليوم . ولا يمكننى أن اذهب دون أن أفضى لك بما تطفح به نفسى . لقد كان موت ساره هويتمان بغتة ومحيرا . هذه المخلوقة العاطفية الحنون ، المبهمة المحبة للحياة ، السباقه للخير ، الباذرة للود أينما حلت – أين هى الآن ؟ وما معنى كل ذلك ؟ لم يسبق لى من قبل أبدا – أن شعرت بمس الشجن أو اقتنعت باللغز – على هذا النحو من الحدة واللذع المؤلم – مثلما شعرت به حين موتها ، وكل فكرتى عنها الآن – هى الرقة . الى أى حد تكون حياة الناس أكثر واقعية وحقيقية من كل نقدنا لهم . هذا درس لنا جميعا لكى يرعى كل منا الآخر ويسقيه ويفلحه – ما دام يملك بعضنا الآخر قبل أن نصبح نسيا منسيا » .

« كل شىء فى هذا العالم الجميل خير فيما عدا الشيخوخة والموت ، اذا افترض المرء عدم وجود شىء « وراء الحجاب » من أى نوع . لقد كانت جنازة المسز هويتمان مدهشة من الوجهة الجمالية . ولقد عمر حسد الأصدقاء عند القبر نفس الانفعال من الشجن وهى الآن تبدو – بالتأمل فى الماضى – مثل محلوقة نحيلة رقيقة ، وحيدة ، آمنة ، عمياء تشق طريق حياتها الساذجة السليمة النية وتبرمها بولع وشغف ماضية الى ذلك الكفن الأسود كنهاية مطافها . عجب يستنفد كل عجب .

« لقد كان موت المسكين (رتشارد) هودجسون هو أهم حادث قبل رحيلى . لقد سقط ميتا – بغتة وهو يلعب بالكرة . وقبل موته بأسبوع واحد قال لأحد أصدقائه انه يأمل – بكل معقولية – ان يعيش خمسا وعشرين سنة أخرى ، وأنه يركن الى هذا الأمل آمنا مطمئنا . كل عمله لم يتم – لا احد يستطيع أبدا أن يدرس تلك الوثائق كما عرفها هو – لو لم يخب أمله ويباغته الموت لكان بكل تأكيد قد كتب كتابين أو ثلاثة من احسن الكتب . وأسوأتاه . وأسوأتاه . ومن ذا الذى اختطفه الموت ؟ أشهم وأنبل وأزهد الناس جميعا . لعله لا يزال يتنشط فى مكان ما – ليست هذه دعوى استرداد requiescat » .

(١٢) L.W.J., II, 214; Proc, of the Amer. Soc. for Psychical Research, III (1909), Pt. I, 580.

(١٣) To Frances R. Morse, June 30, 1904; to Pauline Goldmark, June 28, 1904, and to F.C.S. Schiller, January 16, 1906.

وفى باكورة حياته ، عبر چيمس عن سخطه وتبرمه بالجنائز وصرح عن عزمه « على أن يعرض عنها اعراضا تاما » حتى يرتفع مستواها . وكان يجهر بأن طقوس العبادة المسيحية ومراسمها لا هى طبيعية ولا مقبولة . وما كان فى وسعه أن يصلى لأنه كان يشعر بأنه « أحمق واصطناعى » فى أدائها (١٤) .

وفى معرض الحديث عن هذا الموضوع كتب الى ف.ت.س. شيللر من أدنبره فى ١٧ مايو سنة ١٩٠٢ يقول : « عدت لتوى من الكنيسة . آليات وحركات وكلام وشكليات على طول الخط . فلنحذر من ذلك اليوم الذى تصبح فيه البراجماتية آلية فى أفواهنا » .

وكان چيمس يحضر الصلوات اليومية فى مصلى هارفارد ، ولكن الذى كان يجذبه اليها بلاشك هو بساطة العبادة وقلة جماعة المصلين . ولعل المصلى — كقضية مهملة ومخذولة بعض الشىء — ضربت وترا حساسا من نفسه فلبى دعوتها بسليقة الفروسية والشهامة والمروءة التى كانت تهيب بنخوته ازاء كل ضعيف وكل مغلوب على أمره . ولقد حاول چيمس أن يعرف أولاده بالتعاليم الروحية ، كما سجلت ذلك أخته حيث كتبت فى دفتر يومياتها فى العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٠ مايلى :

« لقد درج وليام — لسنين عديدة فى الماضى — على قراءة الانجيل لأولاده وكان يفسر ويشرح ويؤول (!) وهو يقرأ . ومنذ أيام صاح بلى قائلا « ولكن يا أبى — من هو يهوذا هذا على أية حال ؟ » ولابد أن ذلك كان صدمة ، بعد ثلاث سنوات من الهمة فى الوضوح والجلاء والنورانية المزعومة . ومنذ بضع سنوات عندما كان هارى فى الخامسة من عمره أو نحو ذلك ، أخذ وليام على عاتقه أن يشرح له طبيعة الله ، فلما سمع الطفل من أبيه أن الله فى كل مكان سأله عما اذا كان الله هو المقعد أو المائدة . فأجاب الأب « كلا .. أبدا . ليس الله شيئا . انه موجود حولنا فى كل مكان . انه متغلغل » فقال هارى « اذن فهو ظرمان » . أى شىء آخر كان من الممكن أن توحى به كلمة « يتغلغل » لطفل أمريكى ؟ » .

وعندما سئل چيمس عما اذا كان الانجيل منزلا قال : « كلا . كلا . كلا . انه كتاب انسانى جدا لدرجة أننى لا أفهم كيف يستطيع الاعتقاد بأنه منزل من السماء — أن يبقى حيا بعد قراءته » .

كان چيمس يشعر بالتناقض بين الطبيعة وبين الكنيسة :

---

(١٤) Cf. above, 70; L.W.J., I., 212,

« ان روح النظامون مختلفتان تماما بحيث انه بالنسبة لخيال تغدى على أحدهما ، فمما يكاد يستحيل تصوره أن يمده الآخر بالقوت والعول .. ويجب على شخصيا أن أعترف بأن تدريبى فى العلم الطبيعى قد جردنى من كل صلاحية واهلية للممالجة التعطفية للعالم الاكليروسى .. من المستحيل الاعتقاد بأن نعس الله الذى انشأ الطبيعة ، يشعر فى نعس الوقت أيصا بنوع خاص من الزهو فى أن يمثله ممثيلا مباشرا نفر من القسيسين بدلا من العلمانيين غير الكهنوتيين . أو انه يجد وقعا عذبا لصوت النصوص الكنسية وترنيمها أو نكهة لذيذة فى التمييز بين الشماسين ورؤساء الشمامسة والأساقفه . انه لا يتكلف الجد الى هذا الحد ولا يبلغ به التظرف والتانق فى المزاج هذا المبلغ »(١٥) ٠

ان دين جيمس لم يتخذ — لا شكل العقيدة التعسفية الحازمة ولا شكل الولاء المذهبى . كان چيمس جوهريا — رجل ايمان — وان لم يكن مشايعا لأية كنيسة أو مذهب أو ملة أو عقيدة ضد الباقى . وعلى خلاف أبيه فلم يكن يعنى باحكام الصنعة ولا بالصياغة الخاصة — حتى لمعتقداته الشخصية ٠ وانما اقتصر على التقبل الفكرى لما اعتبره جوهر كل الأديان، وعلى اتجاهات انفعالية شديدة التعميم . ولقد أصر على الاحتفاظ ليس فقط بمثالية الله ، ولكن بواقعيته أيضا — كقوة واعية علوية ، يستطيع المرء أن يتصل بها اتصالا أريحيا ٠ ولقد آمن بالنصر — بوساطة نفس هذه القوة — لقضية العدل والقسط التى تعهدت بها ارادته الخلقية ، ولقد خامره أمل يرتفع الى مقام نصف الاعتقاد بالخلود الشخصى ٠

هذه التوكيدات الفقهية المعينة ، مع اعتقاده بالاعتقاد وعطفه على كل ايمان شخصى يجلب للشخص العزاء والسلوى ، أو يبعث فى نفسه الحافز الذى يتطلبه ، وكذلك خصيصة الرقة وسليقة السلام والوئام ونزعته الحمسة للخير التى تغلغلت فى كل علاقاته مع الناس ٠٠٠ هذه كلها تشكل جوهر دينه الشخصى ٠

فاذا أضيفت الرسالة التالية ، الى ما سبق ، فانها تنقل الينا النكهة الخاصة الفريدة لاتجاهه . لقد كتب چيمس هذه الرسالة الى تشارلز اليوت بورتون عندما دهم الأخير مرض الموت الذى أودى بحياته بعد أربعة أيام من هذا التاريخ :

كامبردج ١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٨

« عزيزى تشارلز ،

لقد فاضت نفسى أسى وحسرة .. لأنباء آلامك وما تعانى من كبت وكظم . ما أضل طريق الشيخوخة الأسبق ! وما أغرب ذلك النصيب المختل النغم الذى تأخذه منها

(١٥) L.W.J., II, 214; and notes for lectures at Harvard Summer School of Theology, 1902, 1906.

أعضاؤنا المختلفة . يبدو أن مخك لم يحظ من الشيخوخة بأى نصيب يذكر ، وأن المرء لا يدرى أيجدر به أن يهنئك أم يشاطرك الاسى ؟ على أن وظائف مخك لم يعتورها الوهن وانما ما زالت مشحوذة عفية . اننى على يقين تام بأن خبرتنا هذه فى الحياة الدنيا ليست سوى جزء فقط من خبرة الكون الكلية ، وانها مرتبطة بها على نحو ما — ولكن ما هى الأجزاء الأخرى أو أين هى — فهذا ما لا أستطيع التكهن به . انها فقط تمكن المرء من أن يقول : « وراء الحجاب وراء الحجاب » . على نحو أكثر أملا ورجاء مهما كان حظ هذا القول من الاستفهام والتساؤل والخبرة والغموض ، مما يكون الحال خلافا لذلك ...

أشكرك يا عزيزى تشارلز على زهور الاقحوان اللؤلؤية النفيسة .. التى تدل على أن المرء مهما كان طريح الفراش فانه لا يزال قادرا على أن يؤدى دوره فى اشاعة الجو واللطف والكرم بين الناس . ان الشمس تجد دائما منفذا لتبذر أشعتها كالذرور من خلال الشقوق .
Toujours le soleil poudroie par quelque trou"

سأذهب الى شوكوروا بعد ساعتين .. وفى مرجوى وفى يقينى أننى بعد عودتى سيكون فى وسعى المجىء اليك « والشد على يدك » . ثق — يا عزيزى تشارلز — فى عسرك الراهن (؟) — بأن هناك قلوبا تحمل لك أعمق التبجيل وأحر الوداد والحب — وان أكثرها لك تبجيلا وحبا وودا هو قلب صديقك المحب دائما .

« و . م . چيمس »

٣٠

التجريبية الراديكالية

ثمة فكرة شائعة بأن الفلاسفة ينفقون أعوامهم في خريف العمر فى اصلاح او استرداد المعتقدات التىشكوا فيها أو نبذوها ابان عنفوان قواهم العقلية • وحيث انهم يصابون بتصلب الشرايين ويصبح شغلهم الشاغل هو الخلاص لأرواحهم ، فمن المفروض أنهم يزلون من النقد الى الاصلاح والتقوى اليقينية الجازمة •

فاذا كان هناك مثل هذه القاعدة ـ فجيمس هـو الشـذوذ منهـا بلا مراء .

فعلى الرغم من أن تيار اهتماماته لم ينحصر أبدا فى اى مجرى صيق، الا أن الثلاثين سنة الأخيرة من عمره يمكن تمييزها بوضوح بالتوكيـد والتركيز : على الفلسفة العـامة فى الثمانينيات ، وعلى الأخلاق والدين فى التسعينيات، وعلى الفلسفة النظامية فيما بين سنة ١٩٠٠ و سنة١٩١٠ . فبدلا من أن يكرس أعوامه الأخيرة للايمان والتعود والتعاطى والوعظ ، كرسها لفنيآت البحث النظرى • كتب الى صـديق له فى سنة ١٩٠٢ « أريد الآن اذا استطعت الى ذلك سبيلا أن أكتب شيئا جديا منسقا منظما وقياسيا (منطقيا) ، لقد طفح الكيل من الأسلوب الهابد الكابس للمحاضرة الشعبية . » (١)

أما كون محاولته قد قدر لها الحبوط الى حد كبير ـ فمرد ذلك الى سلسلة من الحوادث من النوع الذى كان جيمس عرضة له بشكل غريب. كان يدعى الى المحاضرة باستمرار ، وكان عادة يقبل الدعوة بكثير من الأنين والزمجرة والتهيب . أما الهيئات المسئولة أولا عن اخفـاق جيمس فى انتاج ميتافيزيقياته المنظمة فهى : أوصياء مؤسسات جيفورد وهيبارت ، ومعهد لوويل ، وينبغى أن تضاف اليهم سلطات جامعة هارفارد وجامعة

---

(١) August 25, to Mrs. Glendower Evans.

ستانفورد · كانت المحاضرات تستنزف تدفق الأفكار التى كان من الممكن أن تنصب فى انتاج مؤلف منظم · ولقد كانت شهرته هى التى جلبت له هذه الدعوات ، ولقد جلب له قبولها مزيدا من الشهرة وذيوع الصيت. وكان رفضها يتطلب قدرا غير انسانى وغير چيمسى من التقشف والتنسك لا طاقة له عليه · بيد أنه من المغرى أن نتأمل فيما عسى أن تكونه محتويات ذلك المؤلف « مبادىء الفلسفة » الذى كان من الممكن أن يكون حصيلة عقد من العمل الفلسفى الشاق الموصول ، على غرار ذلك العمل السيكولوجى فى الثمانينيات الذى أنجب « مبادىء علم النفس » ·

فليس من بين الكتب الخمسة التى كتبها چيمس فى العقد الأول من القرن العشرين ـ كتاب واحد يمكن القول بأنه هو الميتافيزيقيات المنظمة التى اختط مشروعها چيمس ، والتى أشـــار اليهـــا مرارا وتكرارا فى مناسبات كثيرة ·

لقد كان من المفروض أن يكون هذا المؤلف ـ فنيا ـ مصمما من أجل زملائه ومن أجل طلاب الدراسات العليا ، لا من أجل الرجل العادى من غير المختصين . ولكن چيمس ، كان عندما يكتب محاضراته انما يكتبهـــا للسامعين لا للقارئين ، ولم يكن ممن يبالغون فى تقدير قدرة جماهير المستمعين ولا قدرة الطلاب غير الناضجين ·

والنتيجة انه ، فى حين انه بلغ شأوا عظيما ، ونفوذا كبيرا ، وطبقت شهرته الآفاق على نحو يكاد يكون فريدا بين الكتاب الفلسفيين ، الا أنه استمر فى « أسلوبه الهابط الكابس للمحاضرة الشـــعبية » وأخفق فى انتاج ذلك « الشىء الجدى المنسق المنظم القياسى » الذى عقد النية على كتابته وتأليفه ·

على أنه ينبغى ذكر استثناءات معينة من هذا الحكم · فالمقالات التى نشرت بعد موته تحت عنوان «مقالات فى التجريبية الراديكالية» ، كان قد كتبها لمجلات فلسفية لكى يقرأها العلماء . وهذا أيضا صحيح بالنسبة لبعض الاجابات التى رد بها على ناقديه والتى نشرت فى كتاب « معنى الحق The Meaning of Truth » وينبغى أن يضاف الى ذلك أيضا حقيقة أن أجزاء من كتاب « بعض مشكلات الفلسفة » مثل تلك الأجزاء التى تعالج موضوع اللانهائى ، يمكن اعتبارها « جدية » و « قياسية » مثل أى شىء آخر كان من المرجح أن يكتبه چيمس تحت أى ظروف .

بيد انه مع ذلك ـ تبقى حقيقة أن چيمس لم يقدر له أن يكمل أبدا أى أطروحة منظمة جمع فيها مبادئه ومذاهبه وعرضها بتدقيق وتتابع على التوالى . ومن حسن الحظ أن آثاره التى لم تنشر تلقى بعض الضوء على ما كان من الممكن أن يكون .

ومن الطبيعى أن أفكار چيمس الفلسفية كانت تنضج وتكتمل على نحو موصول فى أثناء التسعينيات ، وكانت قد ظهرت بالفعل ـ من قبل ـ علامات التذمر من ضميره الفكرى . فلقد كتب الى چيمس م . بولدوين فى سنة ١٨٩٤ يقول : « اننى فى الوقت الحاضر أحاول أن أستخرج بعض الحقيقة العقلية من أعماق نفسى ... ولكنها تخرج بصعوبة ، ولابد من تفجيرها ، وأخشى ما أخشاه أن تنتهى النتيجه الى حطام وأنقاض لا شكل لها » (٢) .

وفى ديسمبر من تلك السنة ألقى أمام الرابطة الأمريكية للفلسفة خطابه الرئيسى عن « معرفة الأشياء معا » وفى هذا الخطـــــاب أسلف ـ بنوع أخص ـ بعض الأفكار الرئيسية لتجريبيته الراديكالية . ولكنه كان لايزال يدافع عن المثالية البركيلية ، وان كان من الواضح أن تفكيره أصبح لا يدين بالولاء لتلك العقيدة .

وكان چيمس فى كتابه « علم النفس » قد أرخى لنفسه العنان وسمح لنفسه ببحبوحة الثنائية ، ولكن الاتجاه الكلى لتفكيره الفلسفى قبل وبعد نشر « علم النفس » كان ضد ذلك المهرب المؤقت أو المخلص الاحتياطى . لقد رأى الآن بمزيد من الوضوح أنه لا يستطيع أن يتمسك برأى كعالم نفسى ، وبرأى آخر كفيلسوف ، وأصبح نبذه للثنائية بشكل متزايد حافزا يغلب على تفكيره . لقد استبان له أن عليه أن يصحح علم نفسه .

وفى سنة ١٨٩٦ ـ سنة ١٨٩٧ كرس چيمس النصف الثانى من مقرر دراسته العليا لطلابه لمناقشة « المشكلات النظرية ـ كالوعى والمعرفة والذات وعلاقة الجسم والعقل ... الخ ... » .

وتومىء مذكراته الى عزمه على اتخاذ فرض « التجريبية الراديكالية » المضى فيها الى آخر الشوط . وكانت « الظاهرة » تسمى أيضا «المدلول» أو المعلوم أو « الخبرة الصرف » . وكانت الفكرة الرئيسية هى استعاضة « مجالات » من الخبرة الصرف ـ متجانسة الأجزاء متشـــابهة النوع

(٢ August 25, 1894.

ومستمرة في معنى ما ، ولكنها ذات علاقات وظيفية خاصة ــ بكلا التناقض الثنائى للعقل والجسم والاختزالات الوحدانية للعقل الى مادة أو للمادة الى عقل · ففى مقدمة كتاب « ارادة الاعتقاد » التى كتبها فى ديسمبر سنة ١٨٩٦ يقول جيمس (فيما يشبه الاعتذار) ان تجريبيته الراديكالية تسمح بأن تناقش وتحاج وتمارى بشكل فنى اصطلاحى كما يرغب أى انسان » انه من المرجح « أن يسمح الوقت فيما بعد بانجاز قسط من ذلك العمل » (٣) .

ومن الجلى أنه كان فعلا يقوم بذلك العمل · ففى سنة ١٨٩٧ ــ سنة ١٨٩٨ استأنف جيمس هذا العمل فى حلقة الدراسات العليا تحت عنوان « المشكلات الفلسفية لعلم النفس » . وكان شغله الشاغل ــ بصفة رئيسية هو « فرض الخبرة الصرف » ــ فى محاولة كلها عزم وتصميم لحسم بعض التفكير **الكيانى** التقليدى الى فروق **علاقية او وظيفية** ·

فى اليوم السادس والعشرين من اغسطس سنة ١٨٩٨ القى جيمس محاضرته عن « المفاهيم الفلسفية والنتائج العملية » ، فى جامعة كاليفورنيا · وكانت هذه هى المحاضرة التى قدم فيها الحركة الفلسفية التى أعطاها اسم « العملية » أو « البراجماتية » · بيد أن الحركة لم تمض قدما فى الحال · وفى الواقع من الأمر لم تثر المحاضرة كثيرا من التعليق حتى بعد سنة ١٩٠٤ ، عندما أعيد طبعها مع تغييرات طفيفة تحت عنوان «الطريقة البراجماتية» (٤) ولم تتضمن هذه المحاضرة المذهب البراجماتى للحق الذى أصبح فيما بعد الموضوع الجدلى الكبير الذى أثار كثيرا من المحاورة والمناقشة والمناظرة ·

ان البراجماتية لم تحتل المركز الرئيسى على المسرح الفلسفى فى انجلترا وأمريكا الا بعد ظهور كتاب جيمس فى سنة ١٩٠٧ الذى يحمل ذلك الاسم ·

على أن ذلك ينبغى ألا يحجب عنا حقيقة أن الدافع البراجماتى كان أحد الجذور الأصلية لتفكير جيمس ، وانه قد أكد نفسه بقوة من سنة ١٨٩٨ ، وأنه لعب دورا هاما فى تكوين « نظامه للميتافيزيقيات » بعد سنة ١٩٠٢ .

---

(٣) W.B., ix-x.

(٤) Jour. of Philos., I (1904).

وفى سنة ١٨٩٨ ــ ١٨٩٩ اعطى چيمس مقررا دراسيا عن الميتافيزيقيات أعلن فيه أنه سيناقش « المشكلات الأساسية للفلسفة النظرية ، ووحدة أو تعددية الكون ، وقابليته أو عدم قابليته للمعرفة ، والواقعية والمثالية والحرية ، والفلسفة الغائية وفلسفة الاعتقاد بوجود الله » .

ومن المذكرات القليلة جدا التى بقيت ، لا يبدو أن هذا المقرر تميز بأى حركة أمامية ذات اهمية فى تفكير چيمس . فمبحثه الرئيسى كان الدفاع عن « عالم أخلاقى قلق هيلى » ضد الوحدانية والمطلق اللادهرى . وكانت الاعوام من ١٨٩٩ الى ١٩٠٢ أعوام اعتلال صحى كرس فى أثنائها ساعات عمله ــ كما نعرف ــ للتأليف والقاء ونشر محاضرات جيفورد عن الدين .

وفى هذه المحاضرات « أوعز بدلا من أن يقرر » ــ نتائجه الفلسفية، وعبر عن أمله فى انمائها وتطويرها واكمالها « ذات يوم فيما بعد » . « كل الحقائق ولا فلسفة » ، كما كتب لصديقه ، ف.ت.س. شيللر الأكسفوردى(٥) . والمجلد الحالى « سيعقبه آخر . . وسيتناول ليس فقط حجج البروفسور رويس ، وانما حجج غيره من أنصار الاطلاقية الواحدية، مع كل التمام الفنى الذى تستدعيه أهميتهم العظيمة » .

وفى خريف سنة ١٩٠٢ ــ بدت الأحوال كما لو كانت تؤيد هذا المشروع . صحيح أن بعض الوقت قد ضاع من جراء المرض والتعب والمقاطعات المعتادة (بما فى ذلك قراءة امرسون بقصد « القاء خطاب لا يتجاوز خمس عشرة دقيقة »(٦) . ولكن من الجلى انه كان يعتقد أن ميتافيزيقياته قد أثمرت وحان قطافها ... لكى تنشر على الملأ .

وكان چيمس قبل ذلك بعشر سنوات قد كتب ردا على هوويسون الذى أشار ــ بتوقع ولهفة الى « كتاب عن الميتافيزيقيا » يقول فيه « لم أبلغ أبدا مرتبة الحلم بامكان مثل هذا الشىء فضلا عن انجازه ، والآن ادرك أننى لن أستطيع ذلك أبدا . . . ان خلطى وملطى الفكرى لا يمكنهما أبدا أن يفضيا الى نظام من الميتافيزيقيا » (٧) .

(٥) Cf. V.R.E., 454 (note); to Schiller on April 20, 1902; L.W.J., II, 165.

(٦) W.J. to Th. Flournoy, April 30, 1903, L.W.J., II, 187.

(٧) October 28, 1893; Howison's letter is missing.

ثم عاد چيمس وكتب الى هنرى برجسون :

« فى نيتى اذا عشت أن أكتب نظاما عاما من الميتافيزيقيا » (٨) . وهذا التغير فى موقفه يعكس تطوره المثابر ابان التسعينيات فى شمول نظرته ورسوخ ادراكه واحاطته – على السواء .

ثمة مصدران خصيبان – هيآ – الآن طريقا لاجمال مذاهبه المتنوعة فى نفس الوقت الذى لاءمت عبقريته عقله ودعمت ثقته بنفسه . وكان هذان المصدران هما البراجماتية والتجريبية الراديكالية أو الخبرة الصرف . وبعبارة أخرى فان چيمس شعر بأن لديه شيئا يقوله للفلاسفة، شيئا يسهم به فى تيار الانارة الفلسفية .

وفى غضون ذلك وفى أثناء هذا العام الجامعى نفسه ١٩٠٢ – ١٩٠٣ نظم چيمس تفكيره الأساسى لاعداد مقرر دراسى عن « فلسفة الطبيعة » (فلسفة ٣) . والمنهاج الذى أعده لذلك المقرر ، وان كان يتألف فى معظمه من رءوس مسائل فقط ، الا أنه يعتبر أشمل بيان لفلسفته قدر له أن يسجله فى حياته كلها . وهو يكاد يناظر وصفا لنظامه شرحه بعد عام من ذلك لصديق رينيفوار ، فرانسوا بيللون :

« ان فلسفتى هى ما أسميها بالتجريبية الراديكالية ، التعددية ، التقدمية(٩) ، التى

تمثل النظام على اعتبار كونه يكسب تدريجيا ودائما فى صيرورته . انها فلسفة تعتقد بالله ولكنها ليست **بالضرورة والحتم** كذلك . وهى ترفض كل مذاهب المطلق . وهى متناهية ، ولكنها لا تعزو الى مسألة اللانهائى الاهمية المنهجية العظمى التى تخلعها عليها أنت ورينوفوار . أخشى أنك ربما تجد نظامى لا قرار له وخياليا جدا ، ولكننى على يقين – سواء أكان الحكم عليه فى النهاية بالصواب أم الخطأ – أنه نظام ضرورى وجوهرى لتطور الوضوح والابانة فى التفكير الفلسفى أن يلتزم شخص ما بالدفاع عن التجريبية التعددية دفاعا راديكاليا » .

لقد كان چيمس يعتقد بأن مثل هذه النظرة الى الكون – ليست فقط أكثر وصف اقتصادى للحقائق الممكنة الاكتشاف ، ولكنها أيضا

---

(٨) December 14, 1902; L.W.J., II, 178. For Bergson, cf. below. ch. XXXVI.

(٩) فى الأصل الانجليزى "tychism"

A term borrowed from Charles Pierce to signify there is an element of pure chance in nature.

تفرض نفسها كأحسن فرض للعمل · فهى تلغى مشكلة الشر ، وتتناغم مع التجريبية والتشخيصية والديمقراطية والحرية » (١٠) .

ولقد أذاع چيمس « مقرر الفلسفة ٣ » بين زملائه الفلسفيين . ولقد كتب الجواب التالى ردا على شيللر الذى كان قد تسلم نسخة منه وكتب له مهنئا « بتقدم نظامه » :

« لقد حررت الآن فقط اول جملة فى كتابى القادم ــ الجملة الوحيدة التى سطرتها حتى الآن « الفلسفة شىء عجيب غريب ــ فهى فى نفس الوقت اسمى المهن الانسانية وأحقرها » ! . لا يوجد شىء أروع من توفيق المرء فى الاستهلال . ومن ثم فينبغى على ألا أندهش اذا ما تدفق الباقى كالسيل المنحدر من أعلى الجبل الى السفح . وانى لعلى يقين بأن كتابا من النوع المنسق النظامى ــ فى الامكان كتابته ــ فلسفة من الخبرة الصرف ــ ستبرهن مباشرة على مركز تبلور ونقطة استجماع ولم شعث للآراء فى الفلسفة. ان الدهور تصرخ ــ ولها حق ــ مطالبة بها . لقد سررت بدرجة فائقة من البساطة واليسر التى استطاع بهما طلابى الجدد فى هذا العام هضم الاتجاه واستيعابه ، واعادة انتاج نبضه الحى فى امتحانهم وفى أعمالهم التحريرية الأخرى . هذه هى أول مرة حاولت فيها أن أوضحه وأنسقه ex cathedra . ان نجاحى يجعلنى أشعر بالثقة والحماسة والحرارة الى درجة كبيرة »(١١) .

وعلى الرغم من أن الجملة الأولى من الكتاب القادم كتبت فى شهر أبريل ، الا أن ذلك لم يحسب فيما يبدو ، استنادا الىالتقرير التالىالذى كتبه جيمس الى هوويسون فى الرابع من يوليو سنة ١٩٠٣ عشية رحيله الى شوكوروا :

« لقد تخلصت من عائق وراء الآخر وأزحتها من طريقى ، وبمجرد عودتى الى الريف غدا سأبدأ كتابى الجديد « نظام الفلسفة » "System der Philosophie" وسيكون تعددية تجريبية أصيلة ، وسيمثل العالم على النسق القوطى لدرجة فنية تحمل الناس على أن التعجب والدهشة من أن اية فلسفة كلاسيكية كانا موضع اعتقاد فى يوم من الأيام . انك يا عزيزى هـ . كلاسيكى على الرغم من تعدديتك » .

وما كان من الممكن أن يتوافر لچيمس كثير من الوقت للكتابة المتوالية فى أثناء هذا الصيف ، فما حل شهر أغسطس حتى كان فى طريقه الى مدرسة دافيدسون فى جلينمور قرب الأديرونداك حيث ــ قبيل نهاية

(١٠) "Syllabus of Philosophy 3".

(١١) Schiller to W.J. February, 1903; W.J. to Schiller, April 8, 1903.

الشهر ألقى خمس محاضرات عن « التجريبية الراديكالية كفلسفة » . كان عقله « يعمل فى المشكلة الجهنمية القديمة » مشكلة العقـل والمخ وكيفية انشاء العالم من خبرات صرف » (١٢) .

ثم بدأ عامه الجامعى الجديد يحدوه أمل قوى فى سرعة التأليف ، وخصوصا أن جدول محاضراته كان خفيفا . ولكن فى ربيع سنة ١٩٠٤ كان يشكو لأصدقائه من حبوط مساعيه وفشل خططه . وفى هذا الشأن كتب الى لوتوسلاويسكى مايلى :

« منذ عامين ، بعد أن نشرت (الأنواع المختلفة للخبرة الدينية) ، استقر رأيى على أن الطريق قد مهد أمامى ، وأن واجبى يحتم على أن أبدأ مباشرة فى كتابة نظامى الميتافيزيقى . وحتى شهر أكتوبر الماضى – عندما بدأ العام الدراسى – كنت قد فرغت من كتابة ما يقرب من مائتى صفحة من المذكرات ... أى خليط من شتى النتف المفككة . وكان فى مرجوى أن أكتب فى هذا العام أربعمائة صفحة أو خمسمائة من التأليف المنظم المنسق ، وكان فى امكانى أن أنجز هذا القدر دون المقاطعات . ولكن الذى حدث – فى الواقع من الأمر – ومع توافر أقوى ارادة فى الدنيا – هو اننى كتبت على سبيل التحديد اثنتين وثلاثين صفحة »(١٣) .

بيد أن المتاعب الشخصية والخارجية لم تكن هى العوائق الوحيدة فى سبيل اكمال عمل چيمس الميتافيزيقى . لقد كانت هنـــاك أيضـــا الصعوبات الملازمة للمشكلات ذاتها . فبدلا من التقـــدم للغزو السريع العاجل لمنطقة الميتافيزيقيا ، قسم المؤلف قواته ، وحاصر قلاعا ، واحتل حصونا ، وتسور مدنا ، واضطر الى ترك جزء من قواته فى كل تلك المراكز قبل أن يتمكن من المضى فى الغزو . وسجل هذه الاشتباكات المحلية وفيها « الصفحات المائة من شتى النتف المفككة » المشار اليها من قبل ، فى سلسلة من المفكرات الحاويه لكتابات ومسودات شـــتى ، بالاضافة الى مذكرات خاصة بحلقة الدراسات العليا فى الميتافيزيقيات بعنوان « وصف تعددى للكون » الذى ألقاه فى سنة ١٩٠٤ ، وموجود كذلك فى مجموعة من الأغلفة الليفية الموسومة بعناوين مثل « الاستمرار » ، « موضوع مشترك لعقلية » ، « الضرورة » ، « عالم الخبرة الصرف » . وقد احتوت هذه الأغلفة الليفية أيضـــا مخطوطا عن « عالم من الخبرة الصرف » وعلى رأسه عنوان « الفصل الأول » والكتاب الذى كان من

(١٢) W.J. to Dickinson S. Miller, August 18, 1903; L.W.J., II, 198. The lectures were not written out and his notes have disappeared.

(١٣) L.W.J., II, 171-2.

المفروض أن يكون ذلك هو انفصل الاول منه — كان سيسمى «التجريبية الراديكالية» بمعنى «انكار تجاوز الخبرة المحسوسة الملموسة» ، و «الاصرار على أن العلاقات الواصلة والفاصلة ، هى علاقات حقيقية سواء بسواء — عندما تمارس » .

وهذا الشتاء من سنة ١٩٠٣ — سنة ١٩٠٤ ، الذى شعر چيمس فى أثنائه بالحبوط المستديم ، كان فترة من الغرس سرعان ما أنجبت وآتت أكلها — وان لم تكن من النوع الذى كان فى مرجوه . فنصل رمحه لم يتوقف عن الطعن وانما تشظى وتكسر . فبين يوليو سنة ١٩٠٤ وفبراير سنة ١٩٠٥ اعد والقى سلسلة جديدة من المحاضرات وكتب « ثمان مقالات فلسفية جديدة » (١٤) . ولقد نشرت هذه المقالات الثمان بعد مرت چيمس تحت عنوان « مقالات فى التجريبية الراديكالية » (وهو العنوان الذى كان چيمس قد اختاره لها قبل موته) .

وعندما اتم چيمس كتابة تلك المقالات كتب الى أحد أصدقائه الأوروبيين « اننى معنى بنظام ميتافيزيقى (التجريبية الراديكالية) ظل يعتمل فى نفسى ويتكون وينمو ، وفى الواقع أنا مهتم به آكثر مما اهتممت باى شىء آخر فى حياتى » (١٥) .

ويتضح من هذه العبارة أن التجريبية الراديكاليه كانت عزيزة فى فؤاده لدرجة كبيرة ، وفى بؤرة تفكيره لدرجة أنه لم يتردد فى خلع اسمها على نظامه برمته ، ولدرجة أنها أيضا أجبرته على الاتصال بتلك النواحى الاصطلاحية الفنية من الفلسفة التى كان كثيرا ما يشعر حيالها بالنفور والاعراض . وما كان فى وسعه أن يبلغ الوضوح الذى يبتغيه فى هذا المحتوى بذاته — كما كان يشتهى .

ولكن فكرة الخبرة الصرف كانت أعمق بصائره ، وأكثر أفكاره ايجابية وانشاء ، وحله المفضل للصعوبات الفلسفية التقليدية . ولقد أمدته البراجماتية بمنهجه أو طريقته وأمدته التعددية بهندسة البناء للناتج المتمم ، ولكن التجريبية الراديكالية هى التى أعطته مادة البناء .

على أن نقاوة « الخبرة الصرف » تعنى صفتها الأصلية أو الاولية فى منشئها — أسبقيتها على التمييزات والتفرقات وبصفة خاصة على التفرقة بين الذات والموضوع .

---

(١٤) W.J., to The Flournoy February 8, 1905.

(١٥) To G.C. Ferrari, February 22, 1905.

وكان من العسير على قراء چيمس أن يدركوا أنه كان قد نبذ المثالية، وانه فسر الخبرة على أنها مجال أفسح وأوسع يمكن فى نطاقه تحديد تخوم الوعى والذات . واللوم من جراء سوء الفهم هذا يقع على چيمس نفسه الى حد كبير · كان مرتدا حديثا عن المثالية ، وكان سرعان ما ينزلق الى عاداتها فى الكلام . ثم ان چيمس لم يصبح أبدا واضحا تماما فى تفكيره عن المسألة القاطعة البائة بين المثالية والواقعية – ألا وهى وضع تلك الأجزاء من الطبيعة القائمة وراء الادراك العقلى للانسان · انها تتكون من خبرات اضافية – أبعد وأقصى – بلاشك ، ولكن خبرات من ؟ وكان أولى بچيمس تلافيا للتناقض لو انه نبذ ذلك كسؤال خاطىء ، لأنه اذا كانت الخبرة الصرف سابقة على الوعى والذات ، فاذن يكون الضمير الشخصى غير قابل للتطبيق عليها . ولكنه تردد بين نسبة هذه الآفاق الأبعد للخبرة الى أشكال أوطى من العقل (على منوال الروحانية الجماعية) وبين معاملتها على اعتبار أنها الخبرات « الممكنة » للانسان · فلا عجب اذن أن نجده مضطرا باستمرار الى ترديد وتكرار تشبثه بالواقعية ومشايعته لها ·

ولقد راق فى نظره اثنان من أنصار الفلسفة الوضعية فى عصره – هما رتشارد آفيناريوس وهنرى بوانكاريه · من جراء مطابقتهما لمحتوى الحيزين المادى والعقلى . والفلسفة الوضعية (بحكم كونها تبحث فى الظواهر دون الأسباب) اما أنها تنكر كل الميتافيزيقيا أو أنها تحت شبهة تكفف المسألة الميتافيزيقية لمصلحة المذهب الطبيعى · وبالنسبة لچيمس ، الذى كان نصيرا لميتافيزيقية روحانية ، فكلا البديلين كان موضع رفضه ونبذه · وفى هذا الصدد قال « لا يمكنني أن أستنبط ما سيصير اليه الكون » (١٦) . ومن ثم نجد أنه فى حين أن چيمس كان يشترك فى الكثير من الفلسفة الوضعية المعاصرة – وخصوصا فى التجائها للخبرة واعترافها بمعيار من النفعية أو الموافقة والراحة فى صياغة الفروض – الا أنه كان عديم العطف الى أعمق درجة حيال انكاراتها السلبية ·

وعلى هذا نجد أن أول مقال فى « مقالات فى التجريبية الراديكالية » يحمل العنوان المسترعى للنظر : « هل الوعى موجود ؟ » ثم يعرض المبحث الأساسى للخبرة « الصرف » أو « المحايدة » · وعالجت المقالات التى

---

(١٦) W.J. to S.H. Hodgson, June 14, 1900.

تلت هذا المقال تطبيقات هذا المبحث الأساسى : علاقة الادراك بموضوعه، دور المفاهيم المجردة والمدركات الحسية ، المشكلة العامة للعلاقات والاقترانات ، المعنى الذى يمكن أن يقال فى نطاقه أن عقلين عندهما نفس الموضوع ، مكان الشعور فى الخبرة ، علاقة العقل والجسم ، مسألة النشاط السببى والفاعلية ، طبيعة الحقيقه . وثمة نغمة جديدة من الثقة بالنفس الفكرية فى هذه المقالات . لقد بلغ ما فيه الكفاية من النواة فى المذهب ، ودرجة كافية من الوضوح تجيزان له أن يصدر نظاما من لدنه .

وفى زهاء فترة تبلغ عامين ونصف عام – مبتدئه من خريف سنة١٩٠٥، داوم چيمس على تسجيل أفكاره فى يومية فكرية . وعلى الورقة البيضاء التى تتصدر احدى مفكراته المخصصة لهذا الغرض كتب چيمس ما يلى :

« ان الأفعى المتلوية للفلسفة – على حد تعبير بلود – هى حبل واحد هائل الحجم من بيض الأنوق » .

وتحت كل ذلك التعذيب للنفس ، المطول والمزدوج المجاز ، كان يكمن صراع مذهبى أساسى ، لدرجة انه يتطلب اعادة النظر فى كل أفكار چيمس الفلسفية تقريبا .

لقد فعل ما فى وسعه فى كتاب « علم النفس » لكى يفحم فذاذة وتفرد التيار الذاتى للوعى ، وخاصية عدم التجزئة أو الانقسام فيه . وكان فى وسع چيمس من ثم ان ينزع من هذا الرأى دون تحيز الى وجود عالم مشترك ودائم بسبب تمييزه بين الأفكار وموضوعاتها حيث أن الأخيرة تملك عنصرى المشاركة والديمومة التى تفتقر اليها الأولى . ولكنه الآن كان قد نبذ هذه الثنائية قطعا ، وفى محل الأفكار والأشياء – لا توجد سوى « خبرات » فقط . أما كيف تدرك الخبرة بحيث يصبح فى مقدورها الاحتفاظ بكلتا المجموعتين من الخواص اللتين تؤلفان الحياة المباشرة والعابرة للموضوع ، وكذلك العالم المستقر للموضوعات العامة المشتركة – فهذه كانت مشكلة چيمس .

وفى نفس الوقت الذى كان فيه چيمس يحاول حل هذه المشكلة كان مشغولا بتقرير ما اذا كان يقبل أو يرفض « الروحانية الجماعيه » التى ألح عليه بها صديقه تشارلز أ . سترونج . لقد انجذب دائما الى الروحانية الجماعية ،واستسلم لمفاتنها وسحرها لفترات وجيزة . ولكنه فى النهاية نبذها نبذ النواة . كانت الروحانية الجماعية نوعا من الكيانية – تعطى

الأشياء لبا ـ فى حين ان چيمس كان قد نشأ على المذهب التجريبى القائل بأن الشىء هو مجموع مظاهره ٠

وفى الروحانية الجماعية لدى سترونج فان الشىء المادى الحقيقى لا يمكن أن يعرض مباشرة الا لنفسه ، أو هو ما يشعر نفسه بأنه يكونه، فى حين أن فى التجريبية الراديكالية لدى چيمس فان الشىء المادى يعرض على الحواس الانسانيه ، أو هو ما يحس بأنه يكونه ، وكان ذلك اختلافا بعيد المدى . ومع ذلك فان چيمس كان مدينا بالكثير لسترونج وخصوصا فى تنمية البراجماتية ٠ فالى واقعية سترونج الملحة يعزى ـ الى حد كبير ـ رفض چيمس الانزلاق الى حفـــر المذهب الذاتى التى حاول زملاؤه من جناحه اليسارى أن يجروه اليها ، ولقد أكد مرارا وتكرارا أن المعرفـة والتجربة الانسانية ينبغى أن تتلاءما لبيئة خارجية ليست من صنعهما ٠

٣١

منازعات ودية مع تشارلز بيرس

تشارلز بيرس صديق العمر – الفكرى ، الملهب المثير ، استمر يلعب دورا هاما فى حياة چيمس الفكرية . لقد أهدى چيمس اليه مؤلفه «ارادة الاعتقاد » قائلا الى « صديقى القديم تشـــارلز ساندرز بيرس الذى أدين لرفقته الفلسفية فى الأيام الخوالى والى كتاباته فى السنوات الحديثة ، بالحث والعون أكثر مما فى وسعى أن أعبر عنه أو أرد فضله » .

وفى المحاضرة الموسومة « المفاهيم الفلسفية والنتائج العملية » التى القاها چيمس سنة ١٨٩٨ ، قال انه سمع بيرس يعلن « مبدأ العملية – أو البراجماتية – كما أسماها » فى كامبردج فى باكورة السبعينيات. ولعل الاشارة هنا فيما يبدو – الى « النـــادر الميتافيزيقى » الذى كان چيمس ورايت وبيرس أعضاء فيه ، والذى قال عنه بيرس فيما بعد « لقد كان هناك . . . ان اسم ومذهب البراجماتية رأيا النور » . وفى محاضرة سنة ١٨٩٨ يشهد چيمس لبيرس باعطاء فكرته « أرجح الاتجاهات التى تفضى نقطة البدء منها الى اقتفاء أثر الحقيقة » . ويفسر هذا الاتجاه على اعتباره أنه الفكرة القاضية بأن :

« المعنى الفعــــال لأى فرض فلســـفى يمكن دائمـــا أن ينتهى الى نتيجة معينة على نحو ما – فى خبرتنا العملية المقبلة ، سواء أكانت ايجابية أم سلبية ، بمعنى أن المسألة كامنة فى حقيقة أن الخبرة يجب أن تكون معينة ، وليست كامنة فى حقيقة أنها يجب أن تكون ناشطة »(٢) .

ففى هذه المحاضرة وفى اشارة ألمع اليها فى سنة ١٩٠٢ ، يطابق چيمس البراجماتية « بالطريقة الانجليزية العظيمة لبحث مدرك كلى » أى

---

(١) Letter to Mrs. Ladd-Franklin, written in 1904-5, and published in the Jour. of Philos., Psych. and Sc. Methods, XXII (1916), 718-20. Peirce here dates the club "in the sixties".

(٢) C.E.R., 412.

البحث عن قيمته الفورية بالقياس الى الخبرة المعينة » ، ويسند الى بيرس فضل فرز وتسمية المبدأ الذى « استرشد به الفلاسفة الانجليز والأسكتلنديون غريزيا » (٣) .

وفى سنة ١٩٠٤ نجد چيمس يشهد بنسبة كلمة «براجماتية» الى بيرس ويقول انه (أى چيمس) يستعملها للدلالة على « طريقة للمضى فى مناقشة مجردة » ، وطبقا لها « يكمن المعنى الجدى لمفهوم ما ... فى الفرق المحسوس الملموس لشخص ما — الذى يحدثه كونه حقيقيا » (٤) .

ويبدو من هذه العبارات أن بيرس جعل چيمس على وعى حاد بفكرة كان مشربا بها من قبل واستمر يمتصها من مصادر كثيرة ، وأن هذه الفكرة فحواها أن معنى أى مفهوم يكمن فى خلعه مظهرا معينا على موقف مثيرا بذلك عملا معينا من نوع خاص . ويفترض چيمس أن الحقائق المدركة عندما تتغير فان شيئا يحدث حيالها ومن جرائها ، وأن معنى أى مفهوم يتألف من توقعات ادراكية (ومن ثم عملية) . فاذا كانت هذه التوقعات متشابهة ، فان مفهومين يعنيان نفس الشىء ، واذا لم تكن هناك ثمة توقعات ، فالمفهوم عديم المعنى .

ولكن فى حين أنه من الواضح أن هذه هى الفكرة التى ساعد بيرس على أن يودعها برسوخ وتركيز فى عقل چيمس ، الا أنه ليس من الواضح بأية حال أنها كانت فكرة بيرس . وفى معرض الحديث عن الفرق بين براجماتيته وبراجماتية چيمس ، كتب بيرس الى المسز لاد — فرانكلين فى سنة ١٩٠٥ قائلا : « على الرغم من أن چيمس يسمى نفسه براجماتيا — ولاشك من أنه استقى أفكاره عن الموضوع منى — الا أنه يوجد فرق جوهرى جدا بين براجماتيته وبراجماتيتى »(٥) .

(٣) Peirce states, in his contribution to the article on "Pragmatist and Pragmatism" in the Dictionary of Philos. and Psychol., 1902, that he derived this view from Kant. But it would be equally correct to attribute his view to Duns Scotus, or to the influence of scientific technique. Though the origin of pragmatism be obscure, it is clear that the idea that pragmatism originated with Peirce was originated by James.

(٤) C.E.R., 448; M.T., 51.

(٥) Jour. of Philos., XIII (1916), 718.

وفى نفس العام ، وبمناسبة الحديث عن الانتهاكات الجارية للفظ وصنوف سوء استعماله ، قال بيرس :

« واذن ، فما على الكاتب — وقد وجد براجماتيته الوليدة وقد بلغت أشدها — الا أن يشعر بأن الوقت قد حان لكى يقبل وليده قبلة الوداع ويتركه لمصيره الصاعد ، وهو فى نفس الوقت لكى يخدم الغرض الدقيق للتعبير عن التفسير الأصلى ، فانه يتوسل ليعلن مـيلاد كلمـة البراجماتزة — التى فيها من القبح الكافى ما يحميها من الخاطفين »(٦) .

وانه لسؤال طريف يلح علينا الآن : هل من الممكن استقاء أفكار من فيلسوف — ولم تكن لديه أبدا ؟ وهلا يشك المرء فى أبوته لوليد ، وهو كلما كبر يزداد اختلافا وتباينا عن أبيه ؟

ولعله من الصواب ومن الانصاف لكل الأطراف أن يقال أن الحركة الحديثة التى تعرف بالبراجماتية هى — الى حد كبير — نتيجة سوء فهم چيمس لبيرس . وطبقا لتفسير بيرس نفسه فان براجماتيته أو مذهبه البراجماتى يختلف عن براجماتية چيمس فى ناحيتين : أولا فى كون معنى مفهوم ما يفسر بالنسبة للمسلك وليس بالنسبة للاحساس . وثانيـا فى كونه يفسر بالنسبة للتعليم وليس بالنسبة للتخصيص . فعند چيمس تشير الفكرة الى تعرف حسى ، فى حين أن بيرس يفسر الفكرة ليس بالقياس الى النتائج المباشرة التى تفضى اليها ولكن بالنسبة للأداء والضبط .

وثمة فرق ثان يعكس توكيد بيرس على التعميم . « فالملابسـات العملية » تعنى ملابسات على غرض العمل الذى نتيجته « تعقل معين » ، أو الذى يصبح « محكوما بالقانون » أو « الغريزة بأفكار عامة » (٧) .

وصفوة القول ، أن المفهوم — ليس له معنى عند بيرس الا طالما أنه يعبر عن فكرة حياة أحسن تنظيمها وتدبيرها وينميها ويدفع بها قدما . فهو عادة يعكس استقرار واطراد وتناسق الأشياء ، وتكوينها هو فى نفس الوقت ملاءمة لهذا الاستقرار والتناسق ، ومشاركة فى نموه .

أما عند چيمس ، من جهة أخرى ، فان معنى المفهوم يكمن فى افضائه الى مجال التخصيصات والجزئيات المعينة وملاءمة الوسيط للمقتضيات واللزوميات التى تنجم فيها .

(٦) Monist, XV (1905), 165-6.

(٧) Dict. of Philos. and Psychol., loc. cit.; Monist, XV (1905), 481.

فالفرق بين الاثنين – ليس مجرد أن بيرس أكثر ربطا للبراجماتية بمثل أعلى أخلاقي – بنوع قطعي بات ، وانما هنا فرق هام في هذا المثل الأعلى ٠

فالخير عند بيرس يكمن في التناسق والنظام والاتحاد والالتئام والوحدة ، وعند چيمس في الذاتية ، في التنوع ، في الاختلاف ، في أشباع الميول المحسوسة الملموسة ٠

وثمة مجموعة اخرى من افكار بيرس أثرت في تجريبية چيمس الراديكالية ٠ ولقد برزت هذه الأفكار الى حيز الوجود في سلسلة من المقالات نشرت في مجلة الاحدى The Monist فيما بين أعوام ١٨٩١ – ١٨٩٣ ، والتي تنبأ لها چيمس بأنها « ستبرهن على أنها منجم ذهب من الأفكار لمفكري الجيل المقبل » (٨) .

لقد كانت « الصدفية » و « الآبدية » و « العيدية » هي الالفاظ التي استعملها بيرس لمذاهبه الخاصة بالمصادفة والاستمرار والحب – كل على حدة ٠

وعلاقتها بالمذاهب المقابلة عند چيمس تطابق حالة البراجماتية : كان چيمس يستمد العناوين والعون والتأييد من لدن بيرس ، ولكن نسق أفكار الاثنين كانا فيه مختلفين اختلافا عميقا ٠

فچيمس الذي يحب التمعن واطالة النظر في النظائر المذهبية والتعاون الفلسفي ، كان يؤكد عنصر الاتفاق والمشابهة ، في حين أن بيرس الذي كان اهتمامه بدقة آرائه أكثر من اهتمامه بسيمائها العامة ، كان يؤكد عنصر الاختلاف والتباين ٠

وبالقياس الى چيمس فان « الصدفية » أو مذهب المصادفة لقي منه استصوابا أولا على اعتبار أنه مدد للحرية الاخلاقية ، وكان موافقا أيضا لتجريبيته الأساسية – لرأيه القائل بأن الوجود – في تحليله النهائي – لا يمكن شرحه أو تفسيره ٠ ولكن بيرس لم يكن مهتما بأي من هاتين الفكرتين ٠

« فالصدفية » كانت موضع تقبله – أولا وقبل كل شيء – لأنها تعكس

---

(٨) P.U., 398. In this passage James goes on to identify Pierce's ideas with Bergson's cf. below, 291-2.

منطق الاحتمال أو الطريقة الاحصائية أو التقريبية للعلم • وبمرور الزمن، فان نظرية چيمس عن الصدفة على اعتبار أنها مجرد وقع لما لا يمكن شرحه أو تفسيره ، مجرد حادث سماوى ، أذعنت لفكرة « الجـدة » أو « الندرة » • فالجديد أو النادر غير العادى — أمر غامض — فى معنى معين — بحيث لا يمكن شرحه أو تفسيره ، ولكن ليس من المحتم أن يكون فجائيا أو بغتة ، لأنه قد ينمو ويتطور مما سبقه ، وبهذه الطريقة فهو ينتمى الى المحتوى أو السياق الذى ينجم منه •

أما « الأبدية » فكانت تعنى عنـد چيمس أن الواقع ، فى كونه مستمرا وانسيابيا على نحو موصول ، فانه يفلت من منطق المطابقـة أو المماثلة • فى حين أن « الآبدية » عند بيرس كانت طريقة للتوفيق بين المصادفة والمنطق • فاستمرار الأشياء معناه أن هناك دائما مجـالا لمزيد من التحليل . فبالنسبة لچيمس يوجد غامض لا يمكن تفسيره أو شرحه ، وهو لا يتطلب أى تفسير أو شرح ، لأن الخبرة تنقله على نحو كاف واف •

وبالنسبة لبيرس فان هذه البقية أو الفضلة ذاتها من الغامض غير المفسر ، تعنى أن الكون — الى الأبد — قابل للشرح وممكن التفسير •

ولقد خلع بيرس اسم « العيدية » على مذهبه فى « الحب التطورى»• ولكن الاختلاف بينهما فى التفاصيل اختلاف أصيل يستوقف الأنظار• ذلك أن بيرس يولج الكره فى الحب على اعتبار أنه وجه من أوجهـه اللازمة ، وبهذا يحل مشكلة الشر بهذه الطريقة الوحدانية التى أنكرها چيمس بكل شدة . ثم أن بيرس يضع مركز الثقل على الشخصية الاجتماعية أو الشخصية المتضامنة الشائعة المسئولية ، بطريقـة مناقضة تماما لمذهب چيمس فى الذاتية الذى لا يلين .

كانت المراسلات بين چيمس وبيرس من جانب واحد ، حيث ان رسائل بيرس كانت كبيرة الحجم — بالمعنى الحرفى للكلمة ، ولم يكن ذلك بسبب أن چيمس لم يكن عنده الكثير لكى يقوله لبيرس ، وانما كانت عنـده مسالك أخرى للتوزيع والمحاصة . فبالنسبة لچيمس كان بيرس واحدا من بين عشرات ممن يراسلونه ، مئات من الأصدقاء ، وآلاف من القراء، فى حين أن چيمس بالنسبة لبيرس كان بمثابة أمين سره وجمهوره فى آن •

وعندما كان چيمس يكتب لبيرس فقد كان عادة مشغولا بمشكلات بيرس الشخصية ، بحيث أن حالته لم تكن تناسب التفلسف .

وفي سنة ١٨٩٣ خطط بيرس برنامجا لأطروحة عن « مبادىء الفلسفة » ، في اثنى عشر مجلدا .

وردا على طلب بيرس من چيمس بأن يكتب رسالة يعبر فيها عن مدى اهتمامه بالمشروع ، أرسل چيمس الى بيرس الرسالة التالية ، التى لم يكد يتسلمها حتى طبعها ووزعها :

« لقد غمرنى الفرح من صميم فؤادى اذ اعلم انك تستعد لنشر نتائج ابحاثك وتفكيرك الفلسفى فى شكل كامل مترابط . ارجوك ان تعتبرنى مشتركا فى السلسلة كلها . لا يوجد مفكر اكثر ابتكارا وابتداعا منك فى جيلنا برمته — لقد أوحيت لى شخصيا بأمور فى غاية الاهمية اكثر من اى شخص آخر قدر لى أن أعرفه ، ومع ذلك فلم اعطك ابدا ما فيه الكفاية من الاقرار على الملأ بالفضل لقاء ما ادين لك به مما علمتنى من لدنك . وانا واثق ان هذا العمل المنسق سيزيد من دينى لك » .

ولم يدخر چيمس وسعا فى جهوده لتحسين مركز بيرس ، دون كلل أو ملل . ونجح فعلا فى أن يحصل له على عدد من المناصب المؤقتة كمحاضر ، ولكن محاولته فى سنة ١٨٩٥ لاقناع مدير الجامعة اليوت بمنح بيرس منصبا دائما فى هارفارد ، منيت بالاخفاق .

كامبردج ٣ مارس سنة ١٨٩٥

« عزيزى المدير

« انى لابغض أن أطاردك بمشكلات كريهة تتصل بالكلية . ولكن كيف يتسنى لكائن أسمى أن يحتجب عن مخلوقاته ؟ وخلاصة المشكلة هى هذه :

اجتمع قسم الفلسفة لكى يدبر المقررات الدراسية للعام القادم ... ومعنى اننى مسئول عن علم النفس ... هو ان المقرر الهام فى « علم نظام الكون » أو « فلسفة الطبيعة » ينبغى اما أن يلغى فى العام القادم أو يعهد به الى أستاذ من خارج الكلية . وأريد الآن أن اقترح عليك شخصا لا يقل عن تشارلز س . بيرس ، الذى لن يثير اسمه حماستك لأول وهلة — فيما أحسب ، ولكنك ستنصفه وسيروق فى نظرك بعد قليل من التأمل ... سيقبل الطلاب النجباء المتقدمون فى دراساتهم على محاضراته ... زمرا ويتقاطرون أفواجا للاستماع اليه ، فاسمه الآن يحمل الى نفوسهم ضربا من العظمة الساحرة ، وسيخلف فيهم موجة من التأثير والتقاليد والفضول والقيل والقال ... الخ ... لن تنحسر لسنين طويلة ... أما أنا فيقينا سأتعلم الكثير من مقرره . ولبس من شك فى أن الكل عالم بأن بيرس متعب شخصيا ، ولكنى لو كنت المدير لما توقعت نهاية منظومة حسنة الايقاع مواتية لعلاقته بالجامعة ، ولاعتبرت ذلك كجزء من

مناكفات العمل اليومي ، واغمضت عيني ومضيت فى طريقى ، واتخذت قرارى عالما بأن ذلك ـ من وجهة النظر الفكرية فى اسمى مراتبها ـ سيكون احسن شيء يمكن أن يصادف طلاب الدراسات العليا فى قسم الفلسفة . وسيكون لذلك ميزة أخرى ، بمثابة اعلان عنا يبين للناس اننا نفعل كل ما فى وسعنا ، واننا نحول كل شاردة الى فائدة ، وفى نفس الوقت سيكون ذلك اعترافا كريما منا بقوة ت . س . بيرس ـ وهو اعتراف فى يقينى ـ ليس الا من قبيل الانصاف والعدل لذلك الزميل المسكين . اننى مؤمن حقا بأن طريقنا (ربما) اقل راحة هو هنا الطريق الصحيح ، ولذلك لا أتردد فى أن أكون لجوجا فى دفع رأيى واستحثاثك على الأخذ به .

المخلص دائما

و م . چيمس »

وكان اليوت مهذبا فى رده ورقيقا ولكنه لم يستحث :

« ان كل ما تقوله عن قدرات وعلم ت.س. بيرس صحيح ، وكم كان بودى ـ من كل قلبى ـ أن يكون فى امكان الجامعة أن تفيد منها » (٩) .

ولقد توثقت عرى الصلات الفكرية بين چيمس وبيرس ، وبلغت أوجها فى العقد من ١٨٩٧ ـ الى ١٩٠٧ . وتأثر بيرس جدا من اهداء چيمس مؤلفه « ارادة الاعتقاد » له اعترافا بفضله ، ولما بدأ چيمس فى تجميع نظامه للميتافيزيقيا شعر بأن بيرس فى صفه كمشايع ليس فقط « للمذهب العملى » ولكن « للتحولية الكونية »(١٠) .

وبمرور السنين تلاشت قشرة الاتفاق وظهرت تحتها ضلوع الاختلاف الصلبة ، فى المنهاج والتفاصيل على السواء .

وثمة موضوع ثانوى ولكنه ملح ومنير ـ تقدمه مشكلة محاضرات بيرس العامة فى هارفارد ـ متى ، أين ، ماذا ، كيف ؟

كتب بيرس الى چيمس فى ٣ مايو سنة ١٨٩٧ يقول :

« سمعت منذ بضعة شهور من الدكتور (بول) كاروس انك كنت تحاول ان تهيىء لى الفرصة لكى أعلم المنطق فى هارفارد ... وعلى الاجمال ـ فأنت وأنا فى تمسكنا بأن العقيدة هى اساسا مسألة عملية ـ فيبدو اننا متفقان تمام الاتفاق ، ولو اجتمعنا معا هناك فسوف نترك بصماتنا على العالم الفلسفى ، ومن ثم على رجال العلم والمعلمين وفى النهاية على تيار تفكير العالم » .

---

(٩) Eliot to W.J., March 26, 1895.

(١٠) Expression used by W.J. in 1897, Philos. 3.

وفى ديسمبر أرسل بيرس الى چيمس مسودة المحاضرات الثمان المزمع القاؤها • وكانت رؤوسها كالآتى :

(١) الرسوم البيانية المنطقية •

(٢) دروس منطق المعادلات •

(٣) الاستقراء والفروض •

(٤) الفئات •

(٥) جذب الأفكار •

(٦) الاستدلال الموضوعى •

(٧) الاستقراء والفروض الموضوعية •

(٨) الخلق •

وفيما يلى اقرار چيمس بتسلمها :

كامبردج ٢٢ ديسمبر (١٨٩٧)

« عزيزى تشارلز ،

يؤسفنى انك ملازم للمنطق الشكلى الى هذا الحد . انى لأعرف قسم الدراسات العليا هنا حق المعرفة ، وكذلك رويس وكلانا متفق على أنه لا يوجد هناك الا ثلاثة رجال فقط يستطيعون متابعة رسومك البيانية ومعادلاتك • أليس من الأوفق أن تقرأ مثل هذه الرياضيات العليا والتصورات المجردة بدلا من أن تسمع ، أليس الأولى بك - ولو على حساب الابتكار - وأنت تعلم أن المحاضرة ينبغى أن تنجح كمحاضرة - أن تقتصر على الحد الأدنى من المنطق الشكلى وتمضى قدما الى الميتافيزيقيا وعلم النفس ونظرية خلق العالم - مباشرة ؟

ثمة مادة كافية فى المجلدين الأولين من مشروع نظامك (١١) • لتعطى منهما مقررا قصيرا دون التعدى على أى رموز رياضية بكل تأكيد - هذا طبعا بالاضافة الى بقية المجلدات • اسمع كلامى وكن ولدا مطيعا وفكر فى خطة أكثر رواجا وتقبلا • انى لا أريد أن يتضاءل حجم جهودك الى ثلاثة أو أربعة ، ولست أتصور كيف يمكن تلافى هذا المصير اذا أصررت على البرنامج الذى تقترحه ... لعلك ربما لا تتصور مدى قلة الاهتمام الموجود بالنواحى الشكلية البحت من المنطق . ان الموضوعات التى من هذا النوع ينبغى أن تطبع وتوزع على القلة المبعثرة هنا وهناك . انك مكتظ بالافكار ، وليس من المحتم بأى حال ان تؤلف المحاضرات كلا موصولا . فالموضوعات المتفرقة ذات الطابع الحيوى الهام كفيلة بأداء الغرض على أتم نحو . ان الذى أتمناه هو مضادات للاسمية ،

---

(١١) According to the prospectus, the title of vol. I was "Review of the Leading Ideas of the Nineteenth Century", and of vol. II, "Theory of Demonstrative Reasoning."

والفئات ، وجذب الافكار والفروض والصدفية والأبدية . اكتب الآن بأنك موافق على هذه الشروط ، وبالله عليك اجعل محاضراتك خالية من الرياضيات والحساب كما تخلو منها أكاذيبك .

مع أحسن تمنياتي ــ أقبل صادق ود واخلاص ،

و م . چيمس »

نيويورك ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٧

« عزيزى وليام ،

قبلت كل شروطك . وليس عندى شك فى انك تقيس مقدرة طلابك بمعيارها الصحيح، الامر الذى يتفق مع كل ما أسمع عن كامبردج ومع القليل الذى قدر لى أن أشهده منها ، وإن كانت طريقة الرسوم البيانية قد استساغها النيويوركيون بكل سهولة . ورب من يقول ان عقول النيويوركيين تنعشها وتنبهها حياة نيويورك ــ ولكن الطلاب الدارسين هم ابعد الناس عن عالم الرياضيات كأى انسان آخر فى نيويورك . على أننى أحب أن أؤكد ان فلسفتى ليست « فكرة » طفحت بها وفاضت بها نفسى ، وانما هى بحث جدى خطير وعر المسالك ، والجزء الذى يرتبط منها بالمنطق الشكلى أوثق رباط ، ليس هو أسهل جزء فيها ولا أقلها تعقيدا بأية حال من الأحوال . والذين لا يستطيعون التفكر بدقة (وهو النوع الوحيد من التفكر) لا يستطيعون أن يفهموا فلسفتى ــ لا سبيلها ولا طرائقها ولا نتائجها . ان اغفال المنطق فى كامبردج ــ اغفال مطلق ما فى ذلك ادنى ريب .. وطلابكم فى هارفارد من دارسى الفلسفة يجدون مشقة بالغة فى أن يتفكروا بدقة . واذا سار الحال على هذا المنوال فعما قريب ستجد أن مهندسيكم سيؤثرون ترك الأعمال الكبيرة بلا تشييد، كى يتحاشوا القيام بالحسابات اللازمة وعمل الاحصاءات والتقديرات الخاصة بها . وهارفارد لا تتقدم الا قليلا عن بقية بلادنا فى هذا المضمار . وبلادنا لا تتقدم الا قليلا عن أوروبا . وسيأتى اليابانى ويرفسنا ، وفى نهاية المطاف سيصادف الأسئلة التى تجيب عنها فلسفتى ، وسوف يعتصم بالصبر والتأنى الى أن يجد المفتاح ــ كما وجدته ...

اننى لا أكترث مطلقا بالأوقات والساعات . وسأكون كالطينة فى يد الخزاف . وما أحب الى نفسى أن أكلف بالغناء الفكاهى والرقص ــ وان كنت متأكدا من أن غنائى ورقصى فى غاية الرداءة . لست حنبليا الى الدرجة التى لا افهم معها لذة هذه الانغماسات فى « موضوعات ذات صبغة حيوية هامة » . انى لأفكر فى أنه خير لجمهور المستمعين أن يذهبوا الى بيوتهم ويصلوا صلاتهم الأخيرة استعدادا للقائى ...

ت. س . ب. »

وانتهى الأمر بأن تم القاء الثمان المحاضرات (ابتداء من ١٢ فبراير سنة ١٨٩٨) فى مسكن المسز أول بول القائم فى شارع براتل بكامبردج . أما العنوان الذى أعلن عن سلسلة المحاضرات كلها فقد كان موسوما « بالتفكير ومنطق الأمور » .

وكانت هذه هى المحاضرات التى عناها رويس عندما كتب الى چيمس فى ٢١ يونيه سنة ١٩٠١ ما يلى :

« أما بالقياس الى الافكار الواردة فيها ، فيبدو انني أيضا في المدة الأخيرة قد وضعت قدمي على أول الدرب في اثر عـــدد كبير من المسائل الهامة الطريفة في المنطق . ان تلك المحاضرات التي القاها ت . س . بيرس المسكين والتي كان لك فضل تدبيرها - ستظل أبد الدهر - بالنسبة لي من أبرز مميزات عصرنا التي تركت بصماتها واضحة على سجل التاريخ . لقد أوحت الى بارتياد هذه المسالك الجديدة » .

ولما تسلم بيرس كتاب جيمس « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » كتب اليه الرسالة التالية بهذه المناسبة :

ميلفورد ١٢ يونيه سنة ١٩٠٢

« عزيزي وليام ،

« لزام على أن أعبر لك عن اعترافي بفضلك لكل ما بذلته من أجلي لحمل معهد كارنيجي على معونتي في انتاج كتابي في المنطق .. حاول أن تفكر في مزيد آخر من العمل تؤديه ، اذ يبدو أن الأمور تسير من سيىء الى أسوأ محملة بالغم والهم وامتقاع اللون ..

ثمة نقطة في علم النفس شغلت اهتمامي .. والمسألة هي ما يمر في الوعي .. في شوط تكوين عقيدة جديدة . لقد وقفت عند هذه النقطة في اللحظة التي أقبل فيها موزع البريد العاجل حاملا نسخة من كتابك الجديد، وقضيت خمس دقائق أقلب صفحاته . وأستطيع أن أتبين السمة العامة لموقفك ، بدرجة تسمح بأن أقول انني على وفاق صميم معك . انني أقول للناس - على سبيل المناجاة الخيالية - اذ ليس عندي من أتحدث معه : انكم تظنون أن فرض أن الحق والعدل هما أعظم القوى في هذا العالم - فرض ميتافيزيقي . فليكن - أنا من جانبي اتمسك بأنه حقيقي واقع . ولا ريب في أن الحق لابد أن يكون له مدافعون لكي يؤيدوه ويعلوا كلمته . ولكن الحق يخلق أنصاره ويعطيهم القوة . ان الطريقة التي تؤثر بها فكرة الحق في العالم هي جوهريا نفس الطريقة التي تدفعني بها رغبتي في تحريك نار المدفأة بالمنكاش الى أن أنهض وأحركها . فهناك تسبيب فعال موجد ، وتسبيب نهائي أو مثالي . واذا كان علينا أن نقرر أيهما نعده استعارة فهو الأول بلا مراء . ان البراجماتية مذهب صحيح فقط طالما أنه يكون من المعترف به أن العمل المادي هو مجرد العشرة الخارجية للأفكار فحسب . ان العنصر البهيمي قائم ولا ينبغي أن ننفض يدنا منه بالتفسير . ولكن نهاية التفكير هي العمل فقط طالما أن نهاية العمل هي تفكيرا آخر .. بكل أفكارك وآرائك عن النفوذ الروحي - لم لا تنضم الى الكنيسة ؟ وأكبر الظن بل أقوى اليقين أنك لن تسمح للصيغ الميتافيزيقيـــة - الميتـة كدياميس سراديب الأموات - بأن تحرمك من حقك في تأثيرات ونفوذ الكنيسة .. لقـــد عكفت على دراسة كتاب رويس (العالم والفرد) . الافكار في غاية الجمال ، والمنطق ممقوت ولعين الى أقصى درجة . أعتقد أنه ليس من الذوق السليم أن يحشوه كل هذا الحشو بلفظ الله . ان المطلق - على سبيل التحديد الدقيق - هو الله فقط في المعنى البيكويكي أي في معنى ليس له أثر . اغفر لي هذه الثرثرة التي مردها الى حياتي الناسكة وليباركك الله .

ت . س . بيرس »

وفي ربيع سنة ١٩٠٣ (٢٦ مارس - ١٤ مايو) حاضر بيرس ثانية في كامبردج ، ولكن تحت رعاية الجامعة هذه المرة ، وعن موضوع « البراجماتية » .

وفي خريف نفس السنة (٢٣ نوفمبر - ١٧ ديسمبر) أعطى مقررا ضمن محاضرات لوويل في بوسطون عن « المنطق وموضوعات فلسفية أخرى » . وحدثت بينه وبين چيمس البوادر المعتادة . وعلى هذا صدر من « وليام » الى « تشارلز » في ١٣ مارس ما يأتي :

« وأخيرا « وفي ظل العناية الالهية » ، استطعت أن أساعد أمورك - قليلا - على الصعود والسير . لقد وافق مجلس جامعة هارفارد - بأغلبية الأصوات على تخويلك حق اعطاء ست محاضرات جامعية .. ولك الخيار في تسميتها حسبما تشاء . والخمسون طالبا الذين درسوا على مقرر الفلسفة (الذى أرسلت لك منهاجه) ضليعون جدا في « البراجمانية » و « الصدفية » وسيكون من دواعي اغتباطهم أن يسمعوا عنها منك مباشرة . أما « الأبدية » فستحدثهم غفلا منها . وستجد الأرض بكرا لتبذر فيها ما تشاء » .

ورد بيرس على هذه الرسالة في ١٦ مارس بقوله :

« تسلمت رسالتك الآن فقط بعد الظهر .. لا يوجد شيء أكثر ابهاجا لي وارضاء من ذلك .. وأعتقد .. أن المحاضرات الست ينبغي أن تنحصر جميعها في موضوع واحد فقط هو البراجماتية ، الذى كما أفهم هو احدى القضايا الرئيسية في المنطق .

ودراسة أساسه وتفسيره وحدوده وتطبيقاته على الفلسفة وعلى العلوم وعلى تسيير دفة الحياة تكفي جدا لست محاضرات .. عزيزى وليام أنا لم أشكرك بعد .. انك من بين كل أصدقائي الوحيد الذى يوضح البراجماتية في أكثر أشكالها طلبا . انك جوهرة البراجماتية » .

ولم يقدر لأى من هذه المحاضرات أن تنشر في حياة بيرس ، ولكنها كتبت وحفظت . وكان لدى چيمس المخطوط الأصلي لمحاضرتين منها(١٢) .

شوكوروا ٥ يونية سنة ١٩٠٣

« عزيزى تشارلز ،

لقد ارسلت محاضرتيك في مظروف مستقل الى عنوانك في ميلفورد ، ولكنى ارسلت لك هذه الرسالة الى كامبردج ظنا منى بأنك ربما تكون مازلت هناك ، انهما في غاية

(١٢) The Cambridge lectures on "Pragmatism" appear in the Collected papers, Vol. V, with short extracts in other volumes.

الابداع ولقد قرأت المحاضرة الثانية مرتين ــ انها فى غاية الابتكار ، ثم أن فئاتك غير مألوفة جدا لدى العقول الاخرى ، لدرجة اننى على الرغم من اننى أتعرف على منطقة التفكير وادرك عمق وحقيقة المستوى الذى تتحرك عليه ، الا أننى لم استوعب بعد المباحث المتعددة بمعنى ان أصبح قادرا على الافادة منها لأغراضى الخاصة .. لقد اشرت الى نشر هذه المحاضرات . ولكنى آمل الا تنشرها كما هى tel quels ... فهى بحالتها الراهنة ــ لن يستطيع الا الراسخون فى العلم والملمون بالمصطلحات ان يستنشقوا منها العبير النادر لتفكيرك ، وبعد موتك يعزون الامر كله الى عبقريتك . ينبغى أن تظفر بجمهور أكبر وأنت على قيد الحياة ، واذا تسنى لك فى العام القادم فقط أن تحرز نجاحا لدى الجمهور ، فسيكون ذلك أكبر عون لك بالقياس الى آمالك المرجوة فى المستقبل . وانى لأخشى اذا اعددت مقررا من المحاضرات جديدا بالكلية فانها ستكون ملبدة بالاصطلاحات الفنية ومثيرة للدهشة والاستغراب ، ولن تكون منيرة بالدرجة الكافية المطلوبة . فى حين أنك اذا أعدت فحص هذه المحاضرات ونقحتها ، فلن توفر على نفسك كثيرا من العناء فقط ، وانما ستكون أيضا قد فعلت أحسن ما فى وسعك لجمهور مستمعيك وقرائك . لا يمكنك أن تبدأ بفكرة حقيرة جدا عن ذكائهم . انظر الى انا كواحد منهم ...

و م . چيمس »

ان مشهد فيلسوفين يشكوان من أن أحدهما لا يفهم الآخر ــ مشهد ليس بغير عادى ، كما أنه ليس دائما مشهدا تثقيفيا . وطرافة هذه الحالة تكمن فى اقتران سوء الفهم بشىء كثير من الاتفاق والمشاركة الوجدانية والنية الحسنة .

وبعد سنة ١٩٠٣ كانت رسائل چيمس (ويبدو أنه لم يكتب منها الا رسالات مقتضبة وعلى فترات متباعدة) تكاد تكون مفقودة تماما . فى حين ان بيرس ظلت جذوة نار تعليقه على كتابات چيمس متقدة دون انقطاع ، محاولا أن يوضح آراء چيمس ، ونادبا عدم دقة الأخير وعدم ترويه .

والرسائل التالية مباشرة ، تنصب بصفة رئيسية على المقالات الخاصة بالخبرة الصرف أو التجريبية الراديكالية والتى تبدأ بسؤال « هل الوعى موجود ؟ » . ففى سبتمبر سنة ١٩٠٤ كتب بيرس الى چيمس رسالة قدم فيها ــ بعد ان اشتكى من غموض فكرة چيمس القائلة بأن « الوعى غالبا ما ينظر اليه على اعتبار أنه وحدة » رأيا مضادا من لدنه . ورد چيمس عليه بأنه لم يفهم « كلمة واحدة » (١٣) . والرسالة التالية هى رد بيرس على أقوال المدعى :

---

(١٣) C.S.P. to W.J., September 28,1904, W.I.to C.S.P., September. 30,1904.

ميلفورد ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤

« عزيزي وليام ،

انه لمما يكيدني ويغيظني جدا أن يقال لي في كل نوبة انني غامض أقول كلاما لا سبيل الى فهمه ، على الرغم من دراستي الدقيقة للغة . وعندما أقول ان ذلك يكيدني ويغيظني فلست أعني أنني لا أريد أن يقال لي ذلك ، بل على النقيض ، صحيح أنني واع تماما ان أساليب تفكيري وتعبيري غريبة غامضة ، وان عشرين سنة من الحياة المعتزلة قد زادت من غرابتها وغموضها ، وأعترف بالفضل للنـــاس الذين يساعدونني بتصحيحي .. ولكن عندما أكون قادرا ، كما هو الشأن في الحالة الراهنة ، على أن أبين أن الاتهام ليس سوى مجرد ضرب من الايحـــاء الذاتي مرده الى كونك لقد قلت لنفسك مرارا وتكرارا ان كل شيء يقوله بيرس غير مفهوم ، وانك فعلا وحقا قد صممت على أن تفهم ، فعندئذ أجد شيئا من الطرب وانشراح الصدر في أن أشعر بأن من حقي أن أستسلم لاحساسي الطبيعي بالكيد والكمد . ولعله مما يسرك ، وأنت صاحب طبيعة كريمة حقا ، أن تكون صاحب الفضل في أن هيأت لي كل تلك المتعة البريئة ... ان عقلك وعقلي غير متلائمين للتفاهم الى أقصى ما يمكن لعقلين أن يكونا عليه من سوء التفاهم ، ولذلك فأنا أشعر دائما بأن على أن أتعلم منك أكثر من أي شخص آخـــر . وفي نفس الوقت فان مما يزيد من وزن تفكيري أن أجد بينك وبيني اتفاقات عديدة في الرأي .. أن ما تسميه « الخبرة الصرف » ليس خبرة على الاطلاق ، وينبغي بالتأكيد أن يكون لها اسم . ومن المحقق أنه من سوء الأخلاق اساءة استعمال الكلمات على هذا النحو لأن ذلك يحول بين الفلسفة وبين أن تصبح علما . من الأشياء التي ألح في الحث عليها .. أن من المقتضيات اللازمة التي لا غنى للعلم عنها أن يكون له مصطلحات فنية معترف بها ، تتألف من كلمات تبلغ من النفور والكراهة حدا يغري المفكرين السائبين الفضفاضين بعدم استعمالها .. وانه لأمر حيوي بالنسبة للعلم أن من يدخل مفهوما جديدا ينبغي أن يلزم بواجب يحتم عليه أن يخترع سلسلة من الكلمات للتعبير عنه فيها القدر الكافي من النفور والكراهة . بودي لو أنعمت النظر جديا في الناحية الأخلاقيا لوضع المصطلحات الفنية .

المخلص دائما

ت . س . بيرس »

وفي ٣٠ ابريل سنة ١٩٠٥ قرأ چيمس بيانا بالفرنسية أمام المؤتمر الدولي لعلم النفس المنعقد في روما . واحتوى ذلك البيان موجزا للأفكار الواردة في مقالات چيمس في التجريبية الراديكالية . ولقد أرسل چيمس المقالات ومعها الموجز الى بيرس :

ميلفورد ٢٣ يوليه سنة ١٩٠٥

« عزيزي وليام ،

أولا وقبل كل شيء أحب أن أؤكد اعترافي بالجميل بنوع خاص لارسالك هـــذه المقـــالات .. لقـــد قرأت البيـــان الفرنسي أولا (١٤) .. ولقـــد وجـــدته في غاية

(١٤) "La Notion de Conscience"; cf. E.R.E.

الوضوح تماما وفي غاية الجمال من ناحية اسلوب الكتابة • عندما تكتب بالانجليزية (من الأحسن أن يقول المرء الشيء الكريه) فنادرا ما يكون في وسعي أن اقنع نفسي بانني اعرف ما تقصد • وانى لأرى أن كتابتك ستكون قوية جدا ونافذة المفعول اذا عرف المرء ما تقصد ، ولكن المرء رقم (١) لا يعرف . خذ مثلا ، عندما تتحدث عن التشكك فيما اذا كان الوعى « موجودا » ، فانك تدفعني على الفور الى الرجوع الى عدد كبير من الكتب .. لكى أتبين ما عسى أن تعنيه ، ولكنى أخرج منها بخفى حنين ، وفى التيه الذى كنت فيه من قبل .

اما عندما تكتب بالفرنسية وتتقيد بقواعد البلاغة الفرنسية فانك تكون فى غاية الوضوح التام ، وبودى ، وبود كثيرين غيرى أن تلتزم هذا التقيد عادة ، لأن هذا الالتزام لا يفعل لك شيئا سوى أنه يساعد على قوة أسلوبك ونفاذه . وطبعا فى وسعك أن تبتسم ساخرا من جرأة مثلى على أن يسدى اليك المشورة والنصح فى أى أمر – أيا كان . وحقيقة كونك قادرا على أن تفعل ذلك ، اذا شئت ، هى التى جرأتنى على ان أقول لك ما اقول.

ثم اننى متفق معك فى كل كلمة تقولها فى هذا البيان الفرنسى : فيما عدا استثناء واحدا ، وهو أننى على يقين تام بأن المذهب ليس جديدا على النحو الذى تذكره . وطبعا من الخير والأوفق الا يكون جديدا .. أنا نفسى سبق أن بشرت بالادراك الحسى المباشر ، كما تعلم . وفى مرجوى أن تكون كلمة « براجماتية » موضع القبول .. على أنها اصطلاح يعبر عن تلك الأشياء (ولعلنا لا نستطيع أن نتأكد تماما مما هى بالضبط) التى يتفق عليها كلانا بالقياس الى تفسير التفكير . أما بالنسبة لمذهب الانسية ، فيبدو لى أنه مذهب حليف يتناغم تماما مع البراجماتية وان كان لا يرتبط بالضبط بنفس المسألة . اننى أفضل كلمة « علم الانسانية » باعتبـــاره معبرا عن **الرأى العلمى** .. اننى أوقع بامضائى على علم الانسانية بالاجمال .. أما التعددية فهى لا ترضى – لا عقلى ولا قلبى ..

وأما فيما يتعلق « بمشكلة الشر » وما شابهها ، فلست أرى فيها الا محاولات ملعونة تجديفية لتفسير مقاصد العلى الأعلى .. لا يوجد شيء أنجع لنا من أن نجد مشكلات تتجاوز قوانا ، وينبغى أن أقول أيضا ان ذلك ينقل احساسا لذيذا بالتدليل فى مهـــد أمواه البحر – وهو شعور يلازمنى دائما وأنا أركب البحر . فمثلا – محال على أن أفهم لماذا تبدو لى – فئاتى بكل هذا الضوء دون أن تكون لدى القوة لكى أجعلها مفهومة لدى أولئك الذين هم وحدهم فى حال تسمح بأن يروا معناها .. ألا وهم زملائى البراجماتيون .. وأشد ما ارزح تحته من كآبة سببه هذا الأمر بالذات . ولكنى عندما أبسط شكاتى أمام ربى وأقدم كتابى بين يديه ، فأنا متأكد أننى طالما يكون فى وسعى أن أقول اننى استنفدت كل محاولاتى ، فلا لوم على ولا تثريب ، وأن مسئوليتى انتهت وبحسبى ذلك سعادة وغبطة ، وأن المسألة فى يد المؤلف الأسمى لكل التفكير •

عندما بدأت كتابة هذه الرسالة كنت أعانى من كرب عدم تحقيق أملى فى ذلك الأسبوع فى المدرسة الصيفية ، مضافة اليه هموم أخرى اقل أهميـــة ولكنها عظيمة البلية •• ولكن مجرد استقرارى وسردى لهذه النقاط القليلة المتعلقة بالاعتقاد الحقيقى الصحيح بالله – قد جلب الى نفسى السرور بحيث أن آلامى بدأت تنفثىء فعلا • اننى أشتم أن لا أمل لى فى فصل من الفصول هذا الصيف • محال أن أفهم •

ت • س • بيرس »

والرسالة التالية كتبت من الأديروندالك حيث كان چيمس يحاضر في مدرسة دافيدسون

هاريكين أول أغسطس سنة ١٩٠٥

« عزيزى تشارلز .

كتبت اليك عجالة قصيرة وانا اتأهب لمغادرة كامبردج . والآن ، وبعد أن أعدت تلاوة رسالتك أشعر بالرغبة فى أن أكتب لك ثانية · ان تشجيعك لى لكى أصبح أحـــد أساطين البلاغة الفرنسية يرضينى ويطربنى فى نفس الوقت . سأفعل ، اذا فعلت أنت – فكلانا سيكون أوضح بلا شك .. على أن الشيء الغريب فى أمر تلك المحاوله الخاصة بى هو أننى كتبتها مرتين بنفس السرعة التى اعتدت ان اكتب بها أى شيء بالانجليزية .. وعندما أكتب بالانجليزية فان عندى مجالا للاختيار من طرق ممكنة للتعبير عن نفسى ، وأحاول دائما أن أتحسن . أما فى الفرنسية فان الجملة الأولى التى ترد الى خاطرى هى القذيفة الوحيدة الممكنة ، وبناء عليه فلابد أن تبقى · ولقد شعرت بما يشبه الزغزغة لكونى قادرا على كتابتها على الاطلاق ، لدرجة أنها بدت فى نظرى وكأنها بلغت حد الكمال مباشرة ، الأمر الذى جعلنى أسارع الى كتابة واحدة أخرى من نفس الصنف – وكلها كانت ذكريات مختزنة فى الحافظة لجمل سبق لى قراءتها ثم أعيد انتاجها آليا ·

وطبعا ، نقطة بدايتى هى مبدأ الادراك المباشر ، ولكنى لم أظفر بالمعالجة المتقنـــة للموضوع فى أى مرجع سوى حديث عند اثنين من الألمان ، حيث وجدت أن وجهة النظر اللاثنائية التى تفسر الحالة « العقلية » و « الشيء المادى » لعلاقات مختلفة للمحتوى ، تشبه كثيرا تفسيرى .. لقد اقلعت عن قراءة ڤنت – انه يرتب الفلسفة بنفس الطريقة التى يرتب بها ونستون تشرشل وآخرون القصص التاريخية .

عندما كتبت بخصوص « المدرسة الصيفية » ظننت أنك تعنى اما هارفارد أو شيكاغو. ولكن يظهر أنك تعنى هذا المكان – هنا . لا تأس على ما فات . لقد ألقيت محاضرتين على حوالى ست من المستمعات ورجلين ممن يستطيعون فهم الفلسفة . انه لأمر يرثى له ، والأجر لا يكاد يفى بنفقات الرحلة . لا تسكب دمعة واحدة على فوات مثل هذه الفرصة. لقد جئت الى هنا لانى أحب المكان ، وسبق أن اشتريت قطعة أرض للبناء ، ولذلك أحب الحضور هنا وأتفرس فيها .

اننى آسف جدا يا عزيزى تشارلى لما أنت فيه من مأزق صعب ... وثق يا صاحبى اننى المخلص لك أبدا ،

و م · چيمس »

وعندما ظهر مجلد چيمس عن « البراجماتية » كان بيرس فى كامبردج يحاضر أمام نادى الفلسفة فى هارفارد ·

كامبردج ١٣ يونيه سنة ١٩٠٧

« الأعز وليام ،

لقد تسلمت فى هذه اللحظة كتابك ، البراجماتية . وتصفحت الفهرست وبحثت عن

بيرس ، ت . ســـانتياجو (١٥) س . ووجدت تعبيرا عن أفكارى نفسها ، وأنا أقدر من بقدرها لأننى عانيت مخاضها وازدحم طريقى شهورا ، وشهورا طويلة — ازدحم بحشود من الاصطلاحات الفنيـة والاعتراضات والسخافات — وأنا أحاول التعبير عنها . ولكنك وفقت أعظم توفيق فى أن تبسطها على صفحتك بكل هذا الوضوح والجلاء والصفاء فى أسمى مراتبها وبيسر سائغ . لم يكن فى الامكان أبدع مما كان .

ت . س . بيرس »

حاشية .. صدقنى يا أعز عزيز أننى لن اتسبب لك فى اى ازعاج أو كدر ولو فى مقابل الدنيا بأسرها ؛ ولقد مضى اليوم الذى اريد فيه اى شىء لنفسى . وهذه حقيقة أكثر صدقا مما تظن ، ولكن لا جناح عليك على كل حال فلتظن ما تشاء . بقيت لى رغبة واحدة — فقط لا تزال تعتمل فى نفسى ، من اجلك أنت ومن أجل العقول الكثيرة التى لا يحصيها عد والتى تؤثر فيها مباشرة أو غير مباشرة . هذه الرغبة هى اذا لم تكن قد بلغت من الكبر والجمود عتيا ، أن تحاول ان تتعلم كيف تفكر بمزيد من الدقة والاحكام . أعطنى خمسة عشر يوما من وقتك وأنا كفيل — فيما أعتقد — بأن أفعل شيئا من أجلك ، وعن طريقك ، من أجل العالم ، ولكن لعلنى لا أدخل فى حسابى بما فيه الكفاية الظروف الروحانية الأخرى الى جانب الظروف العقلية البحت .. كثيرا ما أشرت فى محاضراتى وعلى صفحاتى المطبوعة الى مدى سمو ملكة التفكير من أفكار غير دقيقة ، بحيث انهـا تكون أسمى وأرفع من التفكير من تعريفات وتحديدات شكلية ، وعلى الرغم من أننى أكاد اكون أسير طرقى الضيقة ، بحيث اننى غالبا ما أنوح على أنك لا تستطيع أن تمـدنى بالصيغ المضبوطة الدقيقة التى لدى المهارة والمقدرة على معالجتها ، الا أننى أتبين ، بكل اعجاب ودهشة كيف أنك مع ذلك تصل الى النتائج الصحيحة فى معظم الحالات ، والأكثر اعجابا وعجبا هو مدى قدرتك الفائقة على أن تنقل الى مستمعيك وقارئيك أقرب ما يمكن الى الحقيقة الدقيقة المضبوطة بالقدر الذى يتسنى لهم فهمه وادراكه . هذه الملكة تجعل المرء مفيدا ، فى حين اننى كالبخيل الذى يلتقط الأشياء ويكتنزها على احتمال انها قد تكون مفيدة للشخص المناسب فى الوقت المناسب ، ولكنها فى الواقع من الأمر عديمة الفائدة على الاطلاق لأى شخص آخر ، وتكاد تكون ذلك بالنسبة له نفسـه . ما هى المنفعة اذا اقتصرت على شخص واحد — بطريق المصادفة « الحق عام وعلى الشيوع » .

ولقد استؤنف الموضوع ثانية بعد سنتين بمناسبة الملحق ج المضاف الى آخر كتاب «الكون التعددى» والذى شبه فيه چيمس بيرس ببرجسون فى اعتقاده بأن الجدة الحقيقية تحدث فى التيار الموصول الانسـيابى للأحداث الطبيعية .

(١٣) A name adopted by Pierce, presumably in honor of James.

ميلفورد ٩ مارس سنة ١٩٠٩

« عزيزى وليام ،

فى اللحظة التى تسلمت فيها مسودات الطبع التى أرسلتها الى عكفت على دراستها ، وبمجرد أن تفقهت فى الملحق ج جلست الى مكتبى لكى أكتب لك عنه . ولكنى أتأنى فى الكتابة بسبب ضرورة وزن كل كلمة عندما أناقش مسائل المنطق ، وبعد أن ملأت أربعين صفحة وهممت بكتابة الصفحة الواحدة والاربعين ، انتهيت الى ان المسأله قد لا تهمك ولا تثير شغفك . اننى أصر على « صدفيتى » أكثر من أى وقت مضى . ولكن تشبيهك لى — على هذا الاعتبار — بشخص يتحدث عن الصيرورة الى حقيقة ، devenir réel يبدو لى تماما مثل الطبيب الذى يعلن بأن مريضا عنـــده شىء مثل الشلل البطىء أو الاختلاج الحركى لأن عنده حبة هشة تحت عقبه ...

لقد كنت أحسب أن كتابك « ارادة الاعتقاد » كان تلفظا فى غاية المبالغة ، بحيث يضر رجلا جادا ضررا بليغا ، ولكن تلفظك بما تتلفظ به الآن أكثر انتحارية بكثير مما فعلت من قبل . لقد ظللت مؤرقا ليالى عديدة متوالية وانا فى غاية الحزن والأسى من جراء عدم اكتراثك الى هذا الحد — بما تقول .. ان الشىء الوحيد الذى حاولت فى كل حياتى أن أفعله فى الفلسفة هو أن أحلل مفاهيم شىء بكل دقة وضبط ، ولكى يفعل المرء ذلك فمن المحتم أن يستعمل الفاظا بدقة علمية صارمة شديدة التحفظ .. ولكن ، لما كانت هـــذه هى دعواى الوحيدة للاعتبار ، ونظرا لأننى أومن ايمانا عميقا بأن الفلسفة اما أن تكون علما أو لغوا وهذرا وثرثرة ، وأن الرجل الذى ينشد الدفع بالعلم قدما لن يستطيع أن يرتكب اثما أكبر من استعمال ألفاظ علمية دون رعاية أو غيرة أو عناية باستعمالها بكل دقة وصحة وضبط شديد ، فانه لما يسىء لمشاعرى أن تلحفنى ببرجسون الذى فعل ما فوق الكفاية لتهويش كل الفروق ومزج كل الأنواع وخلط الحابل بالنابل..

المخلص جدا والمحب جدا والمعترف بالفضل جدا

ت . س . بيرس »

كامبردج ١٠ مارس سنة ١٩٠٩

« عزيزى تشارلز .

أمام من القيت بتلك اللؤلؤة من الملحق ؟ لقد خلتها أصفى وانقى روح لصدفيتك الابدية ، واعتقد مع ذلك أن غلطتى الوحيدة كانت فى ارساله لك دون المتن برمته الذى يقدم للملحق ويسوغه . وطبعا انك محق فى العالم المنطقى حيث كل لفظ ثابت لا يتغير ولا يتبدل الى أبد الآبدين ، ولكن العالم الواقعى عالم مغاير متناقض ، كما حسبت دائما انك تقر بأنه (غير محقق أو معين الا جزئيا) . والألفاظ المنطقية لا تشير الا الى مواقف ساكنة فى تدفق غير ساكن فى أى مكان . ولكن انتظر وتريث حتى ترى الكتاب (مرفق طيه نشرة عنه) . وفى مرجوى أن أرسله اليك فى ظرف أربعة أسابيع ، وانى لنادم لأننى أثرتك وأهجتك برد الفعل هذا المزعج قبل الأوان . أربعون صفحة . رحماك يا الهى.

اقبل خالص ودى .

و م . چيمس »

ميلفورد ١٤ مارس سنة ١٩٠٩

« عزيزى وليام ،

لابد أننى كنت فى حالة اليأس من العقل عندما كتبت لك ، اذ لم أوضح لك ، كما قصدت ، انك قد بينت موقفى بمهارة بالنسبة لمجرى عالم الوجـــود . ولكنى أحب أن تضع فى اعتبارك — كشرط فى غاية الأهمية ولا مناص منه — لجعل نفسك واضحا — وهو انه يجب أن يكون لديك مقيـــاس ثابت لا يتغير أو معين بدقة . لقـــد كان ذلك اللاذع ولكن الضحل — تشونسى رايت — هو الوحيد الذى أفدت منه كمسن لشحذ الفطنة والذكاء والحجا ، ولكنك احترمته أكثر من اللازم ، الأمر الذى ربما يعزى اليه أنه أوقعك فى شرك فكرته القائلة بأن فى بعض أجزاء الكون (واحد + واحد) ربما لا تساوى اثنين ...

عزيزى وليام .. ثمة شىء فى طريقة تعبيرك عن نفسك يجعل الناس البسطاء من أمثالى عاجزين عن فهم ما تعنى ، واليك السبب : انك تريد أن تجعل عالم الممكن والمحتمل (لأنه من المحقق عالم حقيقى) غير صحيح أو غير مضبوط بنفس الدرجة التى أرى أنك عليها العالم الوجودى . ولكن ذلك مستحيل ، لأن الممكن هو معيارنا الوحيد للتعبير .. فى وسعى أن أوضح لك المسألة وضوح شمس الظهيرة ، لولا أنك متزوج من نظرية أنك لا تستطيع أن تفهم الرياضيات . ولو انك فقط ، أجزت بأنك ربما تكون مخطئا فى هذا الظن ، فأنا أضمن أن أجعل منك عالما رياضيا من الطراز الأول . ولكن عندما يفرض المرء على نفسه حقيقة مقررة كبديهية بأنه لا يستطيع أن يفهم الرياضيات أى أنه لا يستطيع أن يفهم الواضح ، فذلك يسد الطريق امامه ، أفلا تعقل ؟

ت . س . ب . »

كامبردج ٢١ مارس سنة ١٩٠٩

« عزيزى تشارلز ،

لا أستحق منك كل هذه الرسالة المحكمة — المتقنة التهذيبية من لدن حكيم خبير ، كما أننى لا أستحق تماما كل لومك وعذلك ، على الرغم من أن حملى ومولدى وفصالى تمت كلها فى الخطيئة الفلسفية ، لأننى صراحة أعتقد فعلا معك بأن العـــلاقات فى عالم الممكنات ، ذات الصدق العقلى البحت ، كما يسميها لوك ، علاقات مضبوطة . ان الزمن الذى ينساب فى استواء وحدة تصورية لفكرة مجردة ، واللحظة التى تشعر أنت فيها بالملل والكلال ، وأنها تمضى ببطء السلحفاة قد أشعر فيها أنا بأنها تمرق كالبرق ، ومع ذلك يمكن تدبيرها وتخطيطها ومعادلتها بطريقة صناعية ، الأمر الذى يناسب الاجراء الانسانى أعظم مناسبة ويلائمه ، وكل علاقاتها المضبوطة تشكل نظاما رائعا صناعيا من التقسيم والترتيب الى جداول يمكن بوساطتها الامساك بأى عنصر مهما كان من عناصر التدفق الوجودى . ان صدفيتى مثل صدفيتك لا تتعلق الا بالتدفق والكرور والتتابع . ولكن تريث حتى ترى كتابى القادم ...

و . م . جيمس »

٣٢

البراجماتيــــة

« هذا العام ـ هو قطعا عامى الأخير من المحاضرات ، ولكنى آمل أن يكون عامى الأول من عــدم المحاضرات . لقد اتضح لى أكثر وأكثر أن تبسيط مجال واجباتى هو أسمى مبدأ اخلاقى بالنسبة لى ـ هو سدرة المنتهى . وانى لأعيش متوجسا خيفة أن يدهمنى المنتقم الجبار (الموت) ويقصفنى قبل أن أبلغ رسالتى ، وما ذلك بسبب أن الجنس البشرى يحتاج الى رسالتى ، اذ لا ريب فى أن الجنس البشرى يستطيع أن يمضى فى سبيله ويعيش على خير ما يرام دون أى فيلسوف : ولكن ـ موضوعيا انى لأكره أن اترك المجلدات التى نشرتها فعلا دون تتمتها المنطقة . انها لمأساة جمالية أن تبدأ بناء قنطرة ثم تتوقف فى وسط حنية »(١) .

وفى أثناء أعوام چيمس الأخــــيرة كانت رغبته فى أن يتم نظــامه ، ورغبته فى مقاومة ضعف ارادته فى تلبية المحاضرات العامة ، فى حرب مستديمة . ففى ربيع وصيف سنة ١٩٠٥ ألقى چيمس سلسلة من خمس محاضرات فى ولزلى وشيكاجو وجلينمور على التوالى . ولقد لقيت نجاحا باهرا خصوصا فى شيكاغو حيث تقاطر الى استماعه جمهور يربى على الخمسمائة .

ولقد كتب الى اليوت فى هذا الصدد يقول : « شعرت أنهم يسبحون معى كما لو كانوا سمكة واحدة » (٢) .

كان يحاضر فى تلك الفترة كانسان لديه رسالة ينبغى أن يوصلها . ومن الجلى أنه كان يندفع بتحريك الباعث المعهود فيه ، الهادف الى ايصال آخر ما عنده من أفكار دون أن ينتظر لاعطائها الشكل الفنى أو الصيغــة المنظمة ، ثم انه كان فى نفس الوقت مشغوفا بوضع أفكاره الخاصة على محك الاختبار الاجتماعى .

---

(١) September 10, 1906; L.W.J., II, 259.

(٢) July 12, 1905.

ولقد بينت هذه المحاضرات ما اسماه چيمس « بالفلسفة الذاتية » ، ولقد بدأها بمدح الفلسفة بصفة عامة ، على اعتبار أنها تتألف من ممارسة الفرد « للوظيفة النقدية » ، ودافع عن الفلسفه ضد تهمة أنها غير تقدمية . وأنكر التعارض السائد بين الفلسفة والعلم — « فكلاهما ليسا ســـوى الانسان يفكر بكل وسيلة فى حوزته » وخير الفلسفة هى التى تتحـــاشى « الاختيال والسلبية » ، وتحاول دائما أن تلحم نفسها فى مقومات «صبغة الواقع الدارج السوقى » . ثم استعرض بعد ذلك البراجماتية — مسميا لوك وبركلى وهيوم على اعتبار أنهم أول « البراجماتيين » ، ومستشـــهدا بمفهوم كانت عن الله كإيضاح للطريقة البراجماتية فى تضادها وتباينها مع الطريقة اللاهوتية للقرون الوسطى . ومضى چيمس يقول انه طور التعددية بتطبيق الطريقة البراجماتية على المشكلة « الواحد والكثير » . فكل وجهات النظر للكون ترتكز على قياس التمثيل بواحد من اجزائه . فبعضهم اختار « الضرورات الأدنى » أو الملأ الأدنى ، وبعضهم اختـــار « المثل العليا » أو الملأ الأعلى . ومن ثم تصور العالم كفكرة ، كجملة ، كقطعة موسيقية ، كحلم ، كعمل فنى ، كفرصة تتصيد ، كحقيبة تختطف. ثم أضاف چيمس الى ذلك قوله ان التجريبية الراديكالية ترتئى .

« القياس التمثيلى الاجتماعى ، تعددية الأفراد ، بعلاقات خارجية جزئيا ، وحميمية جزئيا ، متناظرة ومتباينة ، مختلفة فى المنشأ ، والمقصد ، ولكنها تعيش معا فى مسكن واحد يتدخل بعضها فى بعضها الآخر ، وتلتئم وتمتزج وتتحد وتلتقى وتفترق ، وتجد أسبابا جديدة للانبثاق الى أن تستقر لها عادات راسخة بالتدريج ، وتكسب نظـــاما ونسقا ، وتنفى من نفسها ما لا خير فيه ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

هذا هو العالم الصدفى ، الذى يتفق مع الافكار الجديدة « الذاتية » للعلم (حيث ان الاطراد ليس الا احصائيا) ، والذى يمدنا بالجــــدة والحرية ، والفاعلية الحقيقية للارادة ، والنبذ الذى لا يلين للشر . والله ليس هو المجموع الكلى — ولكنه فقط « الجزء المثالى » ، فهو يساعدنا ونحن فى وسعنا أن نساعده . وفى مضامينها الأخلاقية فان هـــذه الفلسفة الذاتية ، فلسفة تفاؤلية ، تحررية ، تسامحية ، ديموقراطية ، جهادية ، رحيمة .

وأعاد چيمس فى مقرره عن الميتافيزيقيا فى ١٩٠٥ — ١٩٠٦ بيان نفس الفلسفة وأسهب فيها وتوسع . ولقد أوجز الملامح « الســـارة » للفروض التعددية على النحو التالى :

« فهى تعتقنا من التجريد ، من الاستمرار فى قيد حسابنا فى دفترين ، على غرار مسيحية الأحد . وتعيد الى الفلسفة سجية العلم وعريكة الحيـــاة العملية ، وتنزل المثالى الى الاشـــياء ، وتتيح للنظام أن يزداد وينمو – فهى من ثم فلسفة تقـدم . وهى تجعلنا عوامل وعناصر من النظام . وهى تفسر الكون صراحة بموجب قياس تمثيلى اجماعى . وتقر بنظم مختلفة من التسبيب مستقلة نسبيا ، الصدفة ، بناء على ذلك وقس عليه » .

وعلينا اذن أن نحمل التطور على محمل الجد 'au grand sérieux'' باعتبار أنه يمدنا بالتغيير الحقيقى والجدة الحقيقية والتقدم الحقيقى . والدين بالضرورة اتكال على الذخر « الاحتياطى » أو « الحيوى » ، «حياة فينا تجد حياة تستجيب لها » .

وأخيرا كانت هناك مناقشة طبيعية المذهب الانسى للحق . «فالطريقة البراجماتية تؤكد أن ما يعنيه مفهوم هو نتيجته . والانسية تقول انه عندما تكون هذه مرضية ومشبعة ، فالمفهوم صحيح » (٣) .

وفى أثناء النصف الأول من العام الدراسى ١٩٠٥ – ١٩٠٦ أعطى چيمس أيضا موجزا منظما لفلسفته بشكل يلائم المبتدئين . ثم عاد وألقى نفس المقرر فى النصف الثانى من العام فى جامعة ليلاند ستانفورد ، وفى هارفارد أيضا فى ١٩٠٦ – ١٩٠٧ تحت اسم فلسفة د ، الذى قدر له أن يكون آخر مقرر نظامى من التعليم لچيمس .

وابان وجوده فى ستانفورد (فى ٨ يناير سنة ١٩٠٦) كتب فى مفكرته اليومية « أشعر بالعزلة والوهل » ، ولكنه عاد وكتب فى ١٠ يناير « انتهى الذعر . كل شىء مضى على ما يرام » . واستمر كل شىء يمضى على « مايرام » وأدى الى حياة متنوعة مجهدة منهكة لقواه ، زاخرة بالأعباء الاجتماعية والمحاضرات الشتى فى سان فرانسسكو وبركلى وكذلك فى ستانفورد . وتعبر رسائله عن تحمسه واعجـــابه بجامعة ستانفورد « ونضارة وعذوبة وشغف » مستمعيه :

« الفراغ الانسانى عجيب .. ان الصمت التاريخى يرن صداه فى أذنيك ... ولكن هذا الجيل هو الطبقة الأولى من الطلاء ، الزرعة الأولى من البرسيم لحرث التربة بعد بوارها ... يا للبساطة . ويا لروعة التحرر من التشتت ، ويا لجمال هذا الوسط النقى العنيف النبيل ! » (٤)

---

(٣) These lectures were never published, but full notes have been preserved.

(٤) W.J. to Pauline Goldmark, February 13, 1906.

ولقد تعين محتوى هذا المقرر الأخير ـ أولا وقبل كل شيء ـ بعامل صبغته كمقدمة . ومع ذلك فقد لعب هذا المقرر دورا هاما فى تطور چيمس الفلسفى ، فلقد أفضى الى كتابة المجلد ـ الذى لم يتمه ، والذى نشر بعد موت چيمس . ولكن وفقا لتعليماته بأن يحمل عنوان « بعض مشكلات الفلسفة » . ثم انه اضطر چيمس ايضا لأن يفكر فى فلسفته ككل ، وكان اكثر شمولا واحاطة من اى مؤلف آخر نشر له ، ويمكن اعتباره كمقال فى نسق نظامى مطول .

وفى أثناء سنة ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ عندما كان چيمس غارقا الى اذنيه فى المحاضرات العامة ، كان « الكتاب » لا يزال يشغل تفكيره ، ولقد أعد وصفين مختصرين له ، ولكنه بدلا من أن يضعهما موضع التنفيذ انحرف فى تيار المحاضرات العامة .

وفى أثناء صيف سنة ١٩٠٦ أعطى مقررا قصيرا أمام مدرسة هارفارد الصيفية للاهوت ، وبعد ذلك فى الخريف ألقى محاضرات لوويل عن البراجماتية ، وهى نفس المحاضرات التى أعاد القاءها فى جامعة كولومبيا من ٢٩ يناير الى ٨ فبراير سنة ١٩٠٧ . وكانت قد بدأت فى الفترة الواقعة بين الاثنين فى تأليف الكتاب الخاص بالبراجماتية ، وكان قد فرغ من القاء آخر محاضرة له فى الكلية يوم (٢٢ يناير) .

ولقد ألقى محاضرات كولومبيا امام جمهور يربى على الألف . ولقد تحدث عن تلك الأيام القليلة التى قضاها فى نيويورك ـ المحاضرات والاستقبالات ـ على أنها « يقينا أوج وجودى بالقياس الى أثرها فى انعاشى ، والى ما لقيته من « اعتراف وتقدير » (٥) .

بيد أن كلا المحاضرات والمجلد اللاحق أملتها عليها أسباب شخصية واستراتيجية ، بدلا من أن يمليها عليه منطق تطوره الفلسفى . ولقد اضطر المؤلف تحت وطأة الاقبال العام عليها والانتباه العام الذى قوبلت به الى مقدار ضخم جدا من الاعتراف بالجميل والتقدير ، ومن التفسير والشرح ، ومن الخلاف والتأويل ، بحيث ان الأطروحة الفنية أجلت ثانية . تلك كانت عقوبة النجاح .

ولقد ألحق چيمس بعنوان كتابه البراجماتية عنوانا آخر اضافيا موسوما ب « اسم جديد لبعض الطرق القديمة من التفكير » . وكان

(٥) W.J. to H.J 2 . and W.J., Jr., February 14, 1907; L.W.J., II, 265.

چيمس يعضد بلا شك أنه لم يخترع شخصيا هذه الطرق من التفكير ، وأن جذورها ليس فقط يمكن اقتفاء أثرها الى الماضى البعيد ، وانما أيضا تمثل اتجاها معاصرا واسعا يشترك فيه چيمس مع الآخرين . وكان هذا الاتجاه يتضمن المنطق الحديث بتوكيد على الوظيفة الأدائية للأفكار لتمييزها عن الوظيفة التمثيلية لها ، ويتضمن مذاهب التطور والنسبية التاريخية التى تؤكد أهمية التغير والمرونة والتكيف فى المعرفة الانسانية ، ويشمل ايضا « موضة » الاحتمال والفروض فى الطريقة العلمية التى أصبحت طراز العصر ، وكلها أمور احتضنها چيمس من بدء حياته الفلسفية .

على أن هناك اثنتين منها تفوقان الباقى فى الأهمية : الأولى هى الطريقة البراجماتية التى ترتئى تفسير المفاهيم بالقياس الى نتائجها للخبرة أو الاجراء العملى . والثانية هى النظرية البراجماتية للحقيقة ، القاضية بأن الحقيقة تعزى الى الأفكار وليس الى الواقع ، وانها تلحق بالأفكار بنسبة ما تبرهن الأفكار على فائدتها ونفعها للغرض الذى استحضرت من أجله .

ولكن عندما يتقرر هذان المبدآن الأساسيان ، يتجلى على الفور أنهما يتطابقان برحابة صدر مع المذهبين اللذين يكونان « تجريبية » چيمس ، واللذين سبق أن كوناها من بدء نضجه الفلسفى ، ألا وهما اعتماده على الخبرة وعلى التجريب .

وفى باكورة السبعينيات كان چيمس فعلا قد جنح الى الاعتراف بأنه اذا لم يستطع المفهوم أن يترجم الى خبرة أو ممارسة عمليه ، فهو عديم المعنى ، وسرعان ما تلا ذلك انشغال باله بالتجريبيين البريطانيين. وفى اعلانه على الملأ للمذهب البراجماتى فى سنة ١٨٩٨ فى خطابه عن « المفاهيم الفلسفية والنتائج العملية » ، طابق بين ذلك المذهب وبين « الطريقة الانجليزية العظيمة لتمحيص مفهوم ما » ، وضرب مثلا بلوك وبركلى وهيوم وأتباعهم ممن كانوا أقل منهم شأنا .

وعلى الرغم من أن ذلك الخطاب كان يتسم بطابع البلاغ أو النطق بالحكم ، الا أن چيمس نفسه لم يكن واعيا بأنه قد بلغ مرحلة جديدة فى تطوره الفلسفى . لقد كان الموضوع الذى اختاره ، نتيجة لرغبته فى انتقاء شىء ، « محببا لدى الجمهور وعمليا بدرجة كافية » من بين

« ترسانة » أفكاره الموجودة(٦) . ولقد نفع هذا الاختيار كاستعراض لبداياته الفلسفية ، وكاعتراف بالدين والفضل لتشارلز بيرس الذى كان فى « باكورة العشار السابع » قد اعرب صراحة عن الطريقة التى تبعها التجريبيون الانجليز « غريزيا »(٧) اما لدى چيمس نفســـه فسرعان ما توقفت الطريقة عن أن تكون مجرد « غريزية » .

فبمجرد أول قراءة مستأنية لكتاب لوك « المقالة » — ولعل ذلك كان فى وقت مبكر يعود الى سنة ١٨٧٦ — كتب چيمس لفظ « العملية » على الهامش المقابل للفقرة التى يحاج فيها المؤلف بأنه ليس من المهم مم تتألف مادة الذات بشرط أن تظل وظائفها هى نفسها — لفظ « العملية » التى استخدمها فيما بعد مرادفا « للبراجماتية » ·

وفى معرض الرد فى سنة ١٨٧٨ على دعوى الوضعيين بأن مسألة المادية لا حل لها أو عديمة المعنى ، قال :

« كل مسألة لها معنى وتفرض نفسها لامراء ، عندما تتيح بديلا عمليا واضحا على منوال معين ، بحيث انه وفقا للطريقة التى يجيب بها المرء عن السؤال بطريقة أو اخرى ، فانه مضطر لاتخاذ واحد أو آخر من سبيلين من السلوك » (٨)

ومن ثم فان البراجماتية فى المعنى الأولى أو المنهجى ، كقاعدة للمعنى، ترجع الى مستهل الوقت الذى بدأ عنده چيمس يكون له عقل فلسفى خاص به · ثم ظلت تعاود الظهور بصراحة ووضوح فى كل كتاباته بعد ذلك ·

على أن المبدأ الثانى او التجريبى لم يكن أقل وغولا فى ماضى چيمس الفلسفى · فبمجرد أن أصبح له أى مذهب من لدنه بالقياس الى العقل البشرى ، فانه أصر على نشاطه ، ومبادرته ، وتحيزه لوليده . فالانسان يفكر لأن هناك اهتمامات وميولا وأغراضا تحكمه ، وهى التى تحفزه الى التفكير . وهنا أيضا وجد چيمس الطريق ممهدا بوساطة التجريبيين الكبار · فلما قرأ مقالة لوك ، هلل لوجهة نظره الخاصة « بالجوهريات الاسمية » كأدوات « غائية » . وفطن سريعا الى اعتراف لوك بالحوافز

(٦) W.J. to G.H. Howison, July 24, 1898; L.W.J., II, 79.

(٧) C.E.R., 410, 434.

(٨) C.E.R., 76, translated by the author.

العملية فى المعرفة ، واختار الفقرة التالية « كشعار مناسب للمذهب العملى » :

« ان الذى لن يأكل حتى يتضح له ان الاكل سيغذيه ، والذى لن يتحـــرك حتى يتحقق ــ على سبيل الجزم من أن العمل الذى سيؤديه لابد ان ينجح ، لن يفعل شيئا آخر سوى ان يجلس كالصنم ويركد ويموت »(٩) ·

وفى نفس الوقت تقريبا (بعد سنة ١٨٧٥ مباشرة) عرض چيمس المذكرة التالية مبينا نزعته لاعتبار الحقيقة كمنظور مقبل لا كرجعى يسرى على الماضى :

«ان حقيقة الشىء او الفكرة فى معناه ، أو فى مصيره ، فى ذلك الذى ينمـــو منها وتفضى اليه . وهذا سيكون مذهبا يقلب عكسا راى التجريبيين بأن معنى الفكرة هو ذلك الذى نمت منه .. وما لم نجد طريقة للتوفيق بين فكرتى الحقيقة والتغير ، فيجب علينا ان نقر أنه لا توجد حقيقة فى أى مكان . ولكن هذا التوفيق لابد ان يحدث بالضرورة على كل من يقرأ التاريخ ويسلم بأن مجموعة (سابقة) من الأفكار كانت فى سبيل التطور من أفكار ــ فى ضوئها نتبـــد (ها) الآن .. وطالما انها ادت الى تسبيب تلك ، فقد كانت صحيحة ، تماما ، كما أن هذه ستسبب غيرها ثم توضع هى نفسها على الرف . فحقيقتها تكمن فى وظيفتها فى استمرار التفكير فى اتجاه معين . ولو أنها انحرفت عن هذا الاتجاه ، لكانت باطلة » .

فاذا أخذت الحقيقة **كمنظور مقبل** ، فيتعين تفسيرها بالقيـــاس الى الأغراض أو الغايات التى تتحكم فى التفكير ·

كان هذا هو موضوع أول عمل منظم اختط چيمس مشروع كتابته ، والذى كان أهم جزء منه هو « عاطفة القوة العاقلة » الذى نشر أول مرة فى سنة ١٨٧٩ ·

أما مدى شرعية وجوب تحكم تلك الغايات فى قبول فكرة عندما تكون الغايات عملية وانفعالية لا نظرية ، فهذا هو السؤال الرئيسى فى مقال « ارادة الاعتقاد » . وفى غضون ذلك فان چيمس فى كتابه « علم النفس » لم يطور ويتقن وجهة نظره العامة الغائية للعقل ، وانما أيضا ــ فى الفصل الأخير عن « الحقائق الضرورية وآثار الخبرة » توسع وأسهب فى وجهة نظره بأن العقل تحكمه ميول ونزعات فطرية ، وهى ، مثـــل التنوعات الداروينية ، تدين ببقائها الى وظيفتها التلاؤمية ·

(٩) Locke's Essay, 1853, 499, and inside front cover of W.J.'s copy.

على أن من بين بياناته المبكرة عن النظرية البراجماتية للحقيقة ، نجد أن چيمس أولى اهتماما لا نظير له للمقال الموسوم « عن وظيفة الادراك » الذى نشر فى سنة ١٨٨٥ . « انه قاع ولباب وأصل كل براجماتيتى » ذلك ما كتبه عنه فى سنة ١٩٠٧ ثم انه أعطاه مركز الصدارة فى مجلده عن « معنى الحقيقة » ، وذكر تشارلز بيرس كمبين لنفس المذهب(١٠) .

وترجع الأهمية التاريخية لهذا المقال الى حقائق عديدة . فهو يشير الى التطابق الحاسم والنهائى « للحق » بنجاح الأفكار . وهو يطبق هذه الفكرة ليس على الموقف العملى المفرط فى الفظاظة ، ولكن على ما يسمى بالموقف النظرى ، مبينا أن الموقف النظرى ، فى معنى أكثر دقة وحذقا ، هو أيضا عملى . وهو يبين كيف أن الفكرة فى مثل هذا الموقف ، تشير الى نهاية مطاف مناسبة أو خاتمة عملية ، وكيف أنها تفضى الى موضوعاتها عن طريق وسطاء ، تقع كلها فى نطاق نفس مجال الخبرة ، وكيف أن نجاحها يفسر بالقياس الى بلوغها الآمن الى محطة وصولها .

وموجز القول ان هذا المقال فاق كل أقواله السابقة عن الموضوع بالدرجة التى عمم بها وأطلق السبل النظرية والعملية تحت صـــيغة مشتركة عامة ، وبالفعالية التى طبقت فيها الصيغة على التفاصـــيل المحسوسة الملموسة للادراك .

وظهر كتاب « البراجماتية » فى مايو سنة ١٩٠٧ . والادلة زاخرة بكل جلاء على أن چيمس كان يستقى من ماضيه معطيا اسما ، وتوكيدا وصيغة جديدة لمذاهب ومبادىء تمسك بها لمدة تزيد على ثلاثين عاما . ولا يترتب على ذلك أنه لم يمارس أى احساس بالتجديد أو القيـــادة والارتياد . بل العكس تماما هو الصحيح . كان يشعر بأن فى وسعه الآن أن يجعل هذه الأفكار نافذة وفعالة ، بأسلوبه فى عرضها وبربطهـا باتجاه العصر .

وثمة نغمة من الابتهاج والفرح تتجلى فى تعليقـــاته وتنبؤاته التى كتبها فى ٢ يناير سنة ١٩٠٧ فى رسالة بعث بها الى تيودور فلورنوى :

« أريد أن أحولكم جميعا الى متحمسين لديدن « البراجماتية » .. التى ألقيت عنها ثمانى محاضرات (لوويل) امام جمهور لطيف فى بوسطون هذا الشتاء . لم أكن

---

(١٠) W.J., to C.A. Strong, September 17, 1907; M.T., I, 136; Mind, X (1885), 43, note.

ادرى ــ حتى بدات فى اعدادها ــ مدى قوة فكرة البراجماتية فى « تأسيس مدرسة فكرية » وفى كونها تصبح « قضية » وماثلة . ولكننى الآن أتأجج حماسة لها باعتبارها قد زحزحت كل النظم العقلية ــ كلها بلا استثناء ، فى الواقع من الامر ، النظم التى فيها عناصر ذات فلسفة عقلية ، وفى نيتى أن أحول المحاضرات الى كتاب أنيق صغير آمل ان ارسل اليك نسخة منه فى اكتوبر المقبل ، وانا واثق انه سيظهر لك ــ انت ايضا ــ الطريقة البراجماتية ، على انها فلسفة المستقبل . ان كل اتجاه صحى وسوى فى الحياة يمكن أن يندرج تحتها ويدخل صميمها » .

ولقد عزا چيمس نجاح « البرجماتية » الى موافقتها التاريخية للعصر . لقد كانت « على غرار أحد تلك التغيرات الدنيوية الجيلية التى تدهم الرأى العام بين عشية وضحاها محمولة على أمواج من المد « أعمق من أن يبلغها الصوت أو الزبد »(١١) . ولكنه فى نفس الوقت كان يشعر بأن أسلوبه الخاص كفيل بأن يضمن اثارة انتباه الجمهور . ومن ثم كتب لأخيه فى هذا الصدد مايلى :

« لقد فرغت لتوى من كتابة مسودات كتاب صغير يسمى « البراجماتية » وهو كتاب حتى أنت قد تتمتع بقراءته . انه بيان « مخلص » جدا ، ومن وجهه نظر الآداب العامة لأستاذية الفلسفة ، يعتبر قولا مجافيا جدا للعرف الدارج ، وليس معنى ذلك أنه بدعة ــ بنوع خاص فى اى نقطة من نقاطه ، ولكنه فى زحمة المادة المكتوبة عن طريقة التفسير التى يمثلها الكتاب ، وبذلك القدر فحسب من الزعيق أو الصرصرة التى تمكن كتابا واحدا من أن يبلغ بكل ذلك الاثر الناطق ما لم تستطعه الكتب الأخرى ، ومن ان يبطل ويلغى كل انداده ، ومن أن يعامل فيما بعد « كممثل » ينوب عن الجميع ، يعتبر فتحة جديدا . ولن أندهش اذا عد هذا الكتاب ــ بعد عشر سنوات من الآن ــ كتابا صاحب دور تاريخى طبع العصر بطابعه . ذلك أننى موقن يقينا لا يتطرق اليه أى شك بالنصر الحاسم النهائى لتلك الطريقة العامة من التفكير ، وأعتقد أنها شىء نظير « تماما للاصلاح البروتستانتى »(١٢) .

على أن البينة على نجاح « البراجماتية » لا تلتمس فقط فى عدد أتباعها وحجم وضخامة تهليلهم لها اظهارا للاستحسان ، وانما تلتمس أيضا فى المعارضة العنيفة التى أثارها الكتاب . فكمقالة انتقادية وبحث تحليلى لبعض الاتجاهات التقليدية فى الفلسفة والأحكام الجازمة ، فليس ثمة ريب فى أنها بلغت مأربها . ولقد اشتكى بعض من قرأوا الكتاب دون

(١١) M.T., 54.

(١٢) May 4, 1907; L.W.J., II, 279.

غل أو حنق ، من غموضه والتباسه . ومن ثم دعى چيمس وحلفاؤه لكى يدافعوا عن مذهبهم ويعيدوا بيانه على السواء .

ومن بين البراجماتيين الكثيرين ، قديمهم وحديثهم ، الذين انحازوا الى جانب چيمس ، برز اسم صديقه القديم وندل هولمز . بيد أن هولمز كان واثقا مما كان نسبيا ومشكوكا فيه فى وجهة نظر چيمس ، ولكنه كان مرتابا فى نفس الوقت فى ثقة چيمس الميتافيزيقية والدينية . وفى كلا الربيع والخريف أطلق هولمز قذيفة أو قذيفتين من الراى على صديقه « العزيز بيل » .

« لقد كان من هجيراى أن أقول ان كل ما أعنى بالحق هو ما بيدى حيلة فى التفكير فيه .. ولكننى تعلمت الحدس بأن « ما بيدى حيلة » التى عندى ليست بالضرورة « ما باليد حيلة » كونيا ــ وأن الكون قد لا يخضع لما فى من حدود وقيود ، وأن الفلسفة ــ بصفة عامة تبدو لى أنها تائم بسبب العجرفة والعجب . انها تشبه الفرسان الجوالين القدامى الذين كانوا يطلبون ضربك على راسك اذا لم تقر بأن فتاتهم ليست فقط فتاة جميلة ، ولكن أجمل وأحسن من كل غادة ممكنة .. ان أعظم صنيع من الايمان هو عندما يقرر امرؤ انه ليس الله أحكم الحاكمين . ولكنى عندما أقرر أنك لست حلمى فاننى أبدو لنفسى وكأنى أقررت بأن الكون والشىء فى حد ذاته ــ لا يمكن التنبؤ بهمـا وانما يمكن تخمينهما فقط ، وكأنى آت منها بدلا من أنها تأتى منى . ولكن اذا كنت فعلا قد أتيت منها أو بالأحرى اذا كنت فيها ، فلست أرى غرابة فى أنى لا أستطيع ابتلاعها . اذا كانت تحدد لى تخومى وهى تمنحنى قواى ، فليس عندى شىء أقوله بشأن ممكناتها وخصائصها سوى أنها شىء يبتلعنى فى جوفه ومن ثم فهى أكبر منى . ويبدو لى أن المنشط المأمول الوحيد هو أن أجعل عالمى متماسكا وملتئما ويستحق العيش بدلا من أن أهذى وأثرثر عن الكون. وانه لسخف وحمق منى ان أسدد طعنات بديهياتى القديمة الدارجة نحوك تماما مثلما يكون من السخف والحمق لدخيل يعلمنى نظرية المسئولية القانونية ، ولكن معـذرة يا شيخى العجوز ، وعلى الرغم من أن سنين طويلة قد انقضت منذ أن تحدثنا معا حديثا طليا شهيا ، الا أننى ما زلت متشبثا بعواطفنا القديمة ، وما زلت أجد متعة فى أن أناوشك قليلا . اننى أوافق من صميم فؤادى على الكثير ولكنى أكثر ارتيابا منك . وسوف تقول اننى صعب المراس جدا أو متجمد العقل ــ واعتقد انه لا يوجد اى فيلسوف لديه القدر الكافى من التواضع وخفض الجناح » (١٣) .

ومن بين تلاميذ چيمس المباشرين ، كان أقربهم اليه واكثرهم تحمسا ف.ت.س. شيلر من كلية كوربس كرستى بأكسفورد . ولقد وصف چيمس كتاب شيلر « الغاز أبو الهول » الذى نشر فى سنة ١٨٩١ « ككتاب

(١٣) March 24, 1907 and (lats two sentences) October 13, 1907.

تعددى يعتقد بوجود الله ، ذى همة عظيمة وابتكار بناء ... لشاب صغير خام وغفل بلا نسق ولا تناسب ، ولكنه ملهم للغاية ، وعلى نفس المنوال الذى أميل الى ان انسج عليه »(١٤) .

وفى سنة ١٨٩٧ كتب شيلر تقريظا مجد به كتاب « ارادة الاعتقاد » وهنأ مؤلفه « على القائه قنابله على الفوحة الخانقة التى تحيط بعدد كبير من التعصبات الأشيبية للعالم الفلسفى » (١٥) . وشجع هذا التقريظ چيمس على الاعتقاد بأن له فعلا فلسفة من لدنه ، وأنه (بمؤازرة الآخرين من امثال شيلر) فى وسعه أن يؤسس مدرسة .

والرسالة المتبادلة الآتية تلقى ضوءا على منشأ اسم « الانسية » الذى اقترحه شيلر والذى اقره چيمس على الرغم من أنه رفض قبوله باعتباره كأحسن اسم للحركة ككل . ولقد أقر شيلر بالبراجماتية كفصيلة من الانسانية ، فى حين أن چيمس أقر بالانسية كفصيلة من البراجماتية .

اكسفورد ٢٤ أبريل سنة ١٩٠٢

« عزيزى جيمس ،

« لقد هبط على الوحى هذا الصباح — دون مناسبة — بالاسم المناسب للفلسفة الصحيحة الوحيدة . وانك لتعلم بأننى لم أحفل أبدا « بالبراجماتية » .. كاسم لها .. لانها غامضة جدا واصطلاحية جدا ، وليست شيئا يستطيع المرء أن يشرك الجنس البشرى فيه أبدا .. هذا بالاضافة الى ان للكلمة ارتباطات مضللة ، ونحن نريد شيئا أكبر واكثر سعة (شمولا) . انها لا تعبر عن المعنى الذى نقوله برمته ، وأنا أحس اننى امط اللفظ باستمرار . ولم لا نسميها الانسية ؟ « الانسية » باعتبارها مضادة للاهوتية ، و « خيرة » باعتبارها مضادة للبربرية (فى الأسلوب والمزاج) ، انسانية ، حية وملموسة باعتبارها مضادة لغليظة القلب ، وحفرية ، ومجردة .. وصفوة القول ليست «كهنوتية» (كلمة فظيعة) ولكن « أنسية » . انظر مثلا كم تكون ملاحظتك عن اعادة انسنة الكون — احلى وقعا على السمع(١٦) . ومن ثم فاننى أعرض أن أسمى نفسى من الآن فصاعدا «نسيا» ، وأن أسمى مجلد مقالاتى «الانسية» : «مقالات فلسفية بقلم ف.ك.س.ش.» . أو شيئا من هذا القبيل وسوف اخصص المقدمة لتفسير وشرح ما أقصد . ولا يقتضى ذلك اطراح البراجماتية بسبب ذلك — كاصطلاح فنى فى فلسفة المعرفة والمنطق ، وانما فقط ستكون البراجماتية فصيلة من جنس أعظم — وانسية فى نظرية المعرفة ...

لك اخلاصى وحبى دائما ،

كانج شيلر »

---

(١٤) W.J. to S.M. Ilsley, September 23, 1897.

(١٥) Mind, N.S., VI (1897), 554.

(١٦) James had spoken of "a - re - anthropomorphized Universe," as the outcome of personal idealism. (C.E.R., 443)

اكسفورد ٩ يونيه سنة ١٩٠٣

« عزيزى جيمس ،

لقد عشت على أمل أن أتسلم منك جوابا عما يعتبر الآن أهم قضية فى عالم الفلسفة طرا .. اعنى .. هل انت انسى ؟ اما انا فانسى اكثر من اى وقت مضى — بعد ان شغلت نفسى فى غضون ذلك ببحث وتفصيل مضامين الاصطلاح فى مقدمة كتابى « الانسية » . انها مضامين بديعة ، وبودى ، اذا لم يزعجك ذلك كثيرا ، ان ارسل لك المقدمة المذكورة فى مخطوطها الأصلى . واسمح لى مؤقتا ان اضيف « قائمة فيثاغورسية جديدة بالأضداد » تحت عنوان :

١ — **الخير والنهـــائى**	ضد	**الشر واللانهائى**
٢ — الانسـية		اللاهوتيـــة
٣ — البراجماتيـة		الحرفيـــة
٤ — المثالية الشخصية		المذهب الطبيعى
٥ — التعـــددية		الاطلاقيـــة
٦ — التجريبية الراديكالية		التسليمية
٧ — الطوعيـــة		المذهب الذهنى
٨ — الحوليـــة		اللامبلرية (غير مقرر او محدود الشكل)
٩ — المذهب البريطانى		المذهب الالمانى
١٠— الفكاهيـــة		البربرية

هذه قائمة شاملة وجامعة بما فيه الكفاية — افلا ترى ذلك ؟ يبدو لى .. أن قلب المعركة (بمجرد أن نخوض فى معسكر العدو) سيكون حول حيرة وعدم تقرير الحق والواقع قبل التجربة . والمعسكر المضاد كله يتمسك بنظام صارم موجود من قبل — سابق على التجريب — لا يصطنع وانما يوجد فقط ويحاول أن يوثقنا برباط عقيدة فى عدم تحقيق مهوش . وردى عليهم هو أن عالما مجبولا لدنا لا يمكن أن يكون لا هذا ولا ذاك ، ثم أبين لهم كيف أنطبيعة السؤال تقرر الجواب ، وكيف أن سلوكنا ، من ثم ، يساعد على تشكيل الواقع ...

المخلص دائما

كانيج شيلر »

وأجاب چيمس فى ٥ يولية بالرد التالى :

« أنا مدين لك بثـــلاث رسائل ، ولكن من شخصية مثلى مصابة بعقدة الخوف من الكتابة ، فلتكفك هذه البطاقة . وأرجو ألا يحملك ذلك على النكوص ، بل استمر فى مراسلاتك ... ان « الانسـية » لا تلتحم كهربيا بطبيعتى ، ولكن فى التسميات فان الفرد يقترح والقطيع يختار ويستصوب أو يطرح ويستهجن . اننى فى غاية السعادة لما أحرزته من تقدم فى كتابك ، ويطربنى أنك ستسميه « الانسية » ، وسوف ترى مصير هـــذه التسمية وحظها من الاستقرار والالتصاق . كل الأسماء **الأخرى** رديئة — بكل تأكيد — وخصوصا « براجماتية » .

على أن خلاف چيمس مع شيلر تحول الى معارضته للتوكيد الذاتى والطوعى النسبى عند شيلر باعتباره مضادا لواقعية چيمس . فطبقا لرأى شيلر ، كل المعرفة براجماتية ووقتية شرطية بما فى ذلك معرفة ما يسمى بالحقائق أو الواقع . فالمفعول دائما هو ما يكونه بالنسبة لفاعل ، وعلى أساس الارضاء والاشباع (طبق المرام) الذى يهيئه ادراكه على هذا النحو . اما چيمس فيؤكد الناحية الأصلية والتى لا يمكن استئصالها من المعطى الموضوعى ، والتى بدونها لن يكون ثمة مجال لتطبيق العملية البراجماتية أو لن يكون لها معنى ، والتى تعرف ذاتها مستقلة عن العملية ، فى الخبرة المباشرة . وتحدث چيمس عن « بيان شيلر الناتىء الناطح » عن موقف الانسى ، وقال عن شيلر « انه يبدأ من القطب الذاتى للسلسلة ، حيث يكون الفرد بمعتقداته باعتبارهما الظاهرتين الملموستين والمعطيين مباشرة ، فى حين أنه هو ، چيمس ، يبدأ بشيئين : « الحقائق الموضوعية والمطالب »(١٧) . ثم حث چيمس شيلر ايضا على « ان يخفف قليلا من فورة ذكائه الجدلى وحدة نكتته » (١٨) . وبصفة خاصة شعر چيمس بأن تحرش شيلر المستمر بالأستاذ ف.هـ. برادلى سياسة يجافيها التوفيق . وفى هذا الصدد كتب چيمس الى شيلر فى ١٨ مايو سنة ١٩٠٧ ما يلى :

« لقد كان من الميسور جدا أن تترك برادلى وشأنه بتقريباته وتذمراته . فلن يجد الا عددا قليلا جدا من الناس فى كلامه ما يغريهم على استيعابها فى تفكيرهم الخاص . ولكنك لمجرد اللذة البحت من العملية ، تطارده علوا وسفلا فى متعرجاته ، وتجلده بسياطك ، وتتعقبه فى كل مأمن يلوذ به ، وتقطع عليه السبيل ، وتحرجه بالأسئلة ، وتطالبه بالمراجع والاثبات ، ثم تقذف فى وجهه بمضاداتك ، كما لو كنت مطالبا بأن تفعل ذلك بموجب وظيفتك الرسمية .. اتركه فى كآبته القاتمة ، فهو لا ريب يجدف فى الاتجاه الصحيح ، وعندما تضيف اليه قدرا معينا من البناء الايجابى من جانبنا فسوف يقول ان ذلك هو ما عناه طوال الوقت ، ولا شك ان العالم سيكون أسعد حالا لاحتوائه على مقدار اقل من تلك الكتابات الجدلية العسيرة ، ولن يخسر النـاس شيئا مذكورا اذا فاتتهم قراءتها » .

ولعل أشهر ناقد للبراجماتية كان ف.هـ. برادلى الانجليزى الذى ظفر كتابه « المنطق » باعجاب چيمس العظيم قبل عشرين عاما من ذلك

---

(١٧) Pragm., 243; M.T., xix, 169, 242.

(١٧) C.E.R., 443.

الوقت · تشهد الرسائل المتبادلة بين البطلين لمدرستين متعارضـــتين بشهامتهما وكرم أخلاقهما . كان برادلى مجادلا قوى العارضة ، أشوس كثير التشامخ ، منطقيا حادا لاذع الحجة ، وكان معتل الصحة معرضـــا بعض الشيء عن المخالطة الاجتماعية · وكان فلسفيا ، واحدا من فرسان حلبة الاطلاقية ممن كانوا يرحبون بكل فكرة فلسفية جـــديدة بدعوى أنها لا تخرج عن فلسفة هيجل ، ولقد أدى رفضه لفئات الخبرة والفهم والادراك الى مناوشة شيلر له بأسلوب الجد فى قالب الهزل باعتبـــاره مؤلف « اختفاء الواقع »(١٩) .

وعلى الرغم من أن هذه الصفات ما كان من الممكن أن تجعله موضع حمد أو استصواب ؛ الا أن قوة احترام چيمس له ومودته لا تشوبهما شائبة · بل فى الواقع من الأمر ــ كانت الصلة بينهما أكثر من ذلك ــ فقد كان بينهما نوع من التعاطف الشخصى والمشاركة الوجدانية ، الأمر الذى دفع چيمس الى القول عن برادلى (بطريقة تنضح بالرفق والود أكثر مما تنضح بالسخرية) :

« أعتقد أنه حقا رجل متواضع العقل على نحو مفرط ، ولكنه أكثر تواضعا عقليا بالقياس الى قارئه ــ عما هو بالقياس الى نفسه ، الأمر الذى يحلع عليه ذلك القناع الزائف من الفطرسة والعجرفة » (٢٠) .

أما برادلى فقد شهد من ناحيته فى سنة ١٨٩٥ بأن چيمس « يحتل مكانا عليا مبجلا بين أولئك الذين تعلم منهم ويأمل أن يتعلم منهم » ·

ولقـــد كتب چيمس عن مؤلف برادلى العظيم magnum opus فى سنة ١٨٩٤ مايلى :

« لقد أتممت الآن فقط قراءة كتاب بعنوان : « ظهور الحقيقة » .. الذى نشر منذ عام مضى ، وهو كتاب من المأمول أن يرفع كل النقاش الفلسفى الى صعيد أعلى من الجدل ، يرتقى به الى منسوب لم يعرفه من قبل وأنا أرتاب فيه ــ مقدمات ونتائج على السواء ، ولكنى اشهد بأنه واحد من تلك الأعمال القوية الابتداعية التى يتعين استيعابها بتأن · وليس ثمة ريب فى أنه سيكون عملا خالدا من أبرز مميزات عصرنا »(٢١) ·

---

(١٩) Mind! a parody of Mind, published in 1901, 51.

(٢٠) W.J., to Schiller, April 13, 1901; L.W.J., II, 142.

(٢١) Bradley to W.J., August 23, 1905; W.J. to Th. Flournoy, August 1894.

ولقد تبادل چيمس وبرادلى كثيرا من الرسائل عن قضية البراجماتية. وكان من الممكن أن يوافق برادلى ، مثل رويس ، على أن يسمى براجماتيا، اذا سمح له بأن يصفها بصفة « مطلق » . وكان ذلك يعنى بالنسبة لچيمس أمرين لم يكن لديه مانع من قبول كليهما : أولا الاصرار على المطالب الخاصة بالاجراء النظرى باعتباره مختلفا عن العمل بصفة عامة ، والاعتراف بحقيقة مثالية تكون الحقيقة الانسانية - فى أسمى مراتبها - بالنسبة لها تقريبية فقط .

بيد أن هذه التعديلات ـ بالنسبة لچيمس ـ لم تكن نقطة خلاف جدى . فلقد كتب لبرادلى ـ دفاعا عن شيلر وعن نفسه قائلا « ليس ثمة ما يحول دون اعتقادك بانسيتنا ـ بقضها وقضيضها ـ كل ما يلزمك فقط هو أن تلقى « بمطلقك » حولها » (٢٢) .

ولكن فى حين استمر چيمس فى محاولاته لأن يهدى برادلى ويحوله الى ديدن البراجماتية ، وفى حين استمر برادلى ينصت اليه باحترام ويتقبل كلامه بقبول حسن ، الا أنه لم يكن بين مذهب برادلى الذهنى العنيد وبين تجريبية چيمس العنيدة اى سبيل للصلح النهائى أو التوفيق .

---

(٢٢) June 16, 1904; a fragment of this letter is all that remains of Jame's long and numerous letters to Bradley.

٣٣

چيمس وديوى

كانت قيادة الحركة البراجماتية سبيلا اشترك فيه چيمس مع زميله الأصغر ، والذى حمل لواءها من بعده ، جون ديوى ٠

ولقد رفض چيمس أن يقر بأن الخلافات بينهما كانت اكثر من خلافات فى مراكز الثقل والاتجاه ٠ أما بالنسبة لديوى نفسه فقد كانت الخلافات اكثر اساسية وأكثر صراحة وبتا (١) .

كان چيمس يعتبر البراجماتية طريقة تستخدم بحرية وسهولة ، وطبقها على المذاهب القياسية للميتافيزيقيا كما لو كان أى منها يمكن اعتباره متاحا ٠ صحيح أن الميتافيزيقيا التى اتخذها ـ ميتافيزيقيا التعبير والحرية والتعددية ـ تعكس فعلا الى حد ما لزوميات نظرية براجماتية للمعرفة ـ ولكن البراجماتية أقل لزومية بكثير عند چيمس مما هى عند ديوى . فتفكير چيمس الفلسفى ـ فى اخلاقياته وميتافيزيقياته على السواء ـ يزخر بالمثل العليا التى لا تتعلق ببراجماتيته ، ان لم تكن غريبة عنها ٠ كان يخامره الشك وتخالبه الهواجس فى هذا المضمار ، وكان يجنح الى اعتبار ديوى أكثر راديكالية وأكثر ثباتا وعدم تناقض مع نفسه ٠

ولاريب أن هذه الاختلافات كانت مرتبطة بالمزاج الفلسفى العام للرجلين ، كما كانت ذات صلة بالتأثيرات المبكرة فى حياتهما . كان چيمس أكثر سلمية حيال الأفكار ، وأكثر توفيقا بينها واكراما لوفادتها ٠ فى

---

(١) James's fullest statements of his philosophical relations to Dewey and Schiller are found in M.T., xvi-xix, 42, 56, 169. For Dewey's views of the matter, cf. the articles by him in Jour. of Philos. II (1905) and V (1908); cf. also "The Development of American Pragmatism," Columbia Studies in the History of Ideas, II (1925).

حين أن ديوى كان أكثر نظامية وترتيبا . وكان اهتمام چيمس ينصب بقوة على الميتافيزيقيا والدين ، بينما كان اهتمام ديوى اهتماما اجتماعيا ومنطقيا .

وكانت الرؤية النهائية عند چيمس وحدانية لقانية ، فى حين أنها كانت عند ديوى متنقلة وطوافة . أو بعبارة اخرى ، كان چيمس شاعرا مدركا ، فنيا ، ودينيا ، فى حين أن ديوى يقوم بتصفية وتنقية الأفكار عن الشعور والادراك والفن والدين . وكان جوهر الحياة والخبرة عند چيمس لا يمكن فهمه والنفاذ الى لبه الا فى العيش وفى الخبرة . وهـذا الاعتقاد انبثق من وفرة وحيوية الحياة والخبرة الشخصية ، فى حين أن جوهر الأمور عند ديوى لا ينبثق الا عند التأمل ، وهذا الاعتقاد انبثق من خصيصة التأمل المستديم والروية التى تميز ديوى بنوع خاص .

ولقد امتدت المراسلات بين چيمس وديوى زهاء ثمانية عشر عاما . واستهلت فى سنة ١٨٨٦ بتبادل التعليقات والآراء الودية عن علم نفس وأخلاقيات كل منهما .

والجماعة التى تحلقت حول ديوى فى جامعة متشيجان وفيما بعد فى جامعة شيكاغو ، والتى كونت نواة ما سمى « بمدرسة شيكاغو » ونواة الحركة العامة المعروفة « بالوسيلة » ، ... هذه الجماعه بدأت تسترعى انتباه چيمس وتثير تحمسه فى مطلع هذا القرن .

وتفصح المراسلات التالية عن مدى شغف چيمس ، واهتمامه وعطفه حيال هذه الجماعة .

وفى ١١ مارس سنة ١٩٠٣ كتب چيمس لديوى : « لقد أتممت ـ بلذة تكاد تكون حمقاء ـ قراءة كتاب لمؤلف باسم أ.و. مور بعنوان « الوجود والمعنى والحقيقة » . وانى لأرى فيه « مدرسة فكرية جديدة » تماما فى طور التكوين ، وأعتقد أنها على الصراط المستقيم . من هو مور وما شأنه وكم عمره ؟ »

وأجاب ديوى بالآتى :

(شيكاغو مارس سنة ١٩٠٣)

« عزيزى چيمس ،

(لقد مشيت) على الهواء لمدة طويلة بعد أن جاءتنى مثل تلك الرسالة منك .. لقد اشتغل مور بالتعليم هنا منذ سنة ٩٥ .. فأما مرونة وتحرر أعماله العقلية فلا حاجة

ى للتحدث عنها ــ فمقالاته كفيلة بذلك فهى التى تتولى عنه الحديث . لقد شـــغل لويد وميد (٢) نفسيهما بالموضوع فى آن آربور منذ عشر سنوات . هل قرأت كتاب ميد : « المثالية الديناميكية » ؟ أنا لا أرى اختلافا كثيرا بين واحديته وتعدديتك ، اذا غامرت باحتجاز قليل من مبالغة التعدد ، تحت الحساب . ويمتـــاز ميد بعسر فى التوضيح والتفصيل فى الحديث المكتوب ، كما تعلم ، ولكنى أحسب أنه أكثر فعالية من أى رجل ى القسم عندنا ، فى تزويد طلاب الدراسات العليا الأكفاء بمنهاج مستقل ، وهو يفسر نفســه و (منهاجه) تفســـيرا بيولوجيا . « فسبيل الحياة » هو اصطلاحه فيما يتعلق بالحقيقة المتطورة . ولقد تخرج من عندنا بعض الدكاترة الذين بدأوا فى الدفع بهذا المنهاج المستقل قدما .. كلهم شباب ، وكلهم مشغولون بالتعليم . وأعتقـــد ــ على الاجمال ــ أنهم أحسنوا لأنفسهم (ولوجهة نظرهم) بأنهم كانوا محافظين فى النشر .. أما أنا ، فلست أدرى اذا كنت قد قرأت مقالاتى النفسية .. ولكنى بسطتها جميعا من نفس وجهة النظر . ومرفق لك طى هذه الرسالة بعض تجارب الطبع فى مجلد ستخرج أعداده تباعا كل عشر سنوات باسم « دراسات فى النظرية المنطقية » .. وقد لا يكون لديك الوقت أو الميل لقراءته ، ولـكن نودى لو استطعت أن تلقى نظرة على الصـفحات تكفى لأن تحكم اذا ما كنت تتحمل اهداءها لك . ومن سوء الحظ أن هذه التجارب الأولى هى الجزء الوحيد الذى تحت الطبع حتى الآن . (تغاض عن الاشارة الشائنة لتعدديتك التى ذيلت بها احدى الصفحات) ــ فليس فى وسعى الا أن أشعر بأن تعدديتك بوضعها الراهن الآن ــ جمالية بديعية لا منطقية . ولكن من وجهة نظرى فان كتابك « علم النفس » هو الحد الاعلى الروحى للحرفة برمتها . وفى حين أننا لن نحاول أن نلصق بأبوتك كل الولدان الضعاف العجاف التى ستخرج صارخة من رحم المجلد ، فانه سيكون من دواعى اغتباطنا ورضانا جميعا (وخصوصا أنا بالذات ــ اذا لم يكن فى ذلك تعريض بسرور الآخرين) اذا سمحت لنا بأن نهدى المجلد لك ..

المخلص

جون ديوى »

كامبردج ٢٢ مارس سنة ١٩٠٣

« عزيزى ديوى ،

أشكرك لرسالتك السارة البارة الكريمة الى درجـــة مذهلة .. ان ما كتبته عن « المدرسة الجديدة للحقيقة » ، يطربنى وفى نفس الوقت يجعلنى أشعر بالتصـــاغر والاتضاع . فانه لما يحفزنى أن أضطر الى الانتظار حتى أقرأ مقالة مور قبل أن أتبين مقدار نصيب منهاجى من متابعتك . وطبعا لقد رحبت بك كواحـــد يقترب منى أكثر وأكثر ، ولكنى أخطأت المرمى الأساسى للموضوع كله ، وسأعيد الآن قراءتك كرة أخرى.. وسأحاول مرة ثانية حرث ميد ولويد اللذين تبينت فيهما دائما الابتكار ، ولكنى وجدتهما على درجة من الغموض تحول دون استيعابهما . وأحسب أن الأمر يتوقف كثيرا على النقطة التى يبدأ المرء منها . فكلكم تأتون من هيجـــل ومصطلحاتكم من لدنه ، وأنا آتى من

---

(٢) A.H. Lloyd and G.H. Mead.

التجريبية ، وعلى الرغم من أننا نبلغ نفس الهدف تقريبا الا أنه يبدو مختلفا ظاهريا من الجانبين المقابلين ».

المخلص

و م ٠ چيمس »

شيكاغو ٢٧ مارس سنة ١٩٠٣

« عزيزى چيمس ،

أشعر بشيء من الخجل لكونى ألقيت فى روعك أننى أكتب عن مدرسة فكرية جديدة . وأعتقد أنك لن تجد ما يستحق اعادة قراءة المقالات التى ذكرتها ، أو اذا وجدت فيها ما يستحق فانك لن تجد شيئا فيها دالا على تطورات جديدة بأية حال من الأحوال . وحقيقة ما فيها بالاختصار ، من الناحية السيكولوجية ، انها كلها مقالات ترجع الى بعض الأفكار عن نشاط الحياة ، والنمو والملاءمة التى تتضمن مفاهيم غائية وديناميكية بدلا من المفاهيم القديمة الاستاتيكية أو الخاصة بعلم الكائنات وحقيقتها . ولقد تناولت مع فصولى الجانب الميتافيزيقى — أو المنطقى — كما أفضل أن أسميه — لعدة سنوات ولكننى لم أشعر — حتى هذا العام — بأن لدى شيئا يصلح للنشر . وقد يكون المفعول المستمر من الميكروب الهيجلى الموفق بين المتناقضات — والذى لا يزال باقى الأثر فى — هو الذى يجعلنى أشعر كما لو كان تصور سبيل يهيىء أساسا وقاعدة لتوحيد حقيقتى التعددية والواحدية ، وكذلك حقيقتى الضرورية والتلقائية ... لا حيلة لى فى الشعور بأن تحليلا كافيا للنشـــاط كفيل بأن يظهر عالم الواقع وعالم الأفكار كتعبيرين متناظرين موضوعيين لسبيل النشاط ذاته — متناظرين لأن لكل منهما عملا يؤديه ، وفى أدائه يتطلب معونة الآخر . أما سبيل النشاط ذاته فيتخطى أى تعبير موضوعى ممكن (سواء بالقياس الى الواقع أو الأفكار) لسبب بسيط ، هو أن هذه العبارات الموضوعية هى فى نهاية الأمر بالنسبة لمساره الموصول — فهى من أجله . وهذا التخطى أو التحـاوز الخاص بأى شكل مجسم ، سواء أكان محسوسا أم متصورا ، هو الذى فيما يبدو لى — يعطى مفتاح الحرية والتلقائية ... الخ ... ويهدى اليهما ... ، وهو الذى يجعل من غير الضرورى اللجوء الى كل هذا « الاحتقان الدموى فى جوهر الصدفة » الذى ينغمس فيه بيرس فيما يبدو لى . اننى أشعر دائما كما لو كان غارقا فى نفس التركيب التصورى بالذات الذى يحتج ضده . على أننى يجب أن أقول ، مع ذلك ، اننى أستطيع أن أتبين الى أى مدى مضيت قدما عندما اتبين مبلغ ما استقيته منه هذا العام ، والى أى حد بلغت سهولة فهمى له ، فى حين أنه منذ سنوات قليلة كان بالنسبة لى كتابا مغلقا لا سبيل الى فضه ، باستثناء الهاماته من حين لآخر .

المخلص : جون ديوى »

وشهد ربيع سنة ١٩٠٣ ظهور كتاب « دراسات فى النظرية المنطقية » تأليف جون ديوى « بمعونة أعضاء وزملاء قسم الفلسفة » بجامعة شيكاغو . واحتوت مقدمة الكتاب ، الكلمات التالية : « لقاء الالهام واختراع العدد

انتى عمل المؤلفون فى ظلها وبها ، فكلنا مدينون بشكل فائق لوليام چيمس الاستاذ بجامعة هارفارد ، الذى فى مرجونا أن يتقبل هـــذا الاعتراف بالفضل وهذا الكتاب كتذكارين ودليلين ــ غير لائقين بالمكانة والاعجاب المتساويين ــ اللذين تكنهما له » .

كامبردج ١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣

« عزيزى ديوى ،

لقد كنت على وشك الكتابة لك على أية حال هذا المساء ، عندما جاءتنى رسالتك فوق الودية . فعنـــد عودتى من الريف بالأمس ، كان أول ما اكتحلت عينى بتحيتهما هو كتابه « الدراسات المنطقية » والكلمات ــ التى أدهشتنى التى جاءت فى خاتمـــة مقدمة الكتاب . ما الذى فعلته لكى أستحق مثل هذه التقدمة ؟ ان الله العليم بكل شىء ــ يعرف بلا شك عن هذا أيضا ، ولكنى أتقبلها (بلا تبصر) وبأعظم الرضـــا والسرور ، على اعتبار أنها احدى طيبات الحياة التى تنثرها أحيانا فى طريق المرء . اننى أشعر بمدى عدم اكتمال كل ما نشر لى لدرجة أننى استغرب سماع ما يؤكد ــ على سبيل الجزم ــ أن أى شىء ينتج منها . وهذا يفرض على الآن أن أتحسن حيث اننى أصبحت « ينظر الى هذه النظرة العالية » على هذا النحو . أشكرك من صميم صميمى ...

لقد سعدت جدا لأن مدرستك (أقصد مدرستك الفلسفية) فى جامعة شـــيكاغو ، بعد هذا الحمل والمخاض الطويلين قد أنجبت ثمارها بطريقة ستبرهن على وحدتهـــا العظيمة وحيويتها وستكون كشفا للكثير من الناس ينطق باللوذعية والمعرفة الأمريكية . وبودى الآن أن تجمع مقالاتك المتناثرة بين دفتى كتاب ... فالكتب وحدها هى التى تبنى ... اذ يبدو أنها لها قوة نافذة ــ تفتقر اليها المقالات المتناثرة افتقارا كاملا وان كان المحتوى واحدا . ولكن للمقالات فائدة لا تنكر وهى أنها تعد المشترين للكتب . أما كتابى الجديد ، الذى اشتدت النقنقة عنه بكل حماقة ــ قبل أن يفقس ، فما زال فى ضمير الغيب ، لم أكد أبدا فيه بعد ، ومع معدل سرعتى البطيئة فى العمل فان الوقت سيطول قبل أن أتمه ...

لك خالص ودى ومحبتى واعترافى بالجميل

و م . چيمس »

وفى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٠٣ كتب چيمس الى شيلر :

« لقد هطلت على صنوف شتى من « الأمور الخارجية » منذ عودتى الى كامبردج من شهر مضى ... وأحسنها جميعا كان قراءة نتاج « مدرسة شيكاغو الفكرية » ... انها مادة رائعـــة ، وديوى بطل من الأبطال . مدرسة حقيقية وتفكير حقيقى بالمعنى الكامل ... لدينا فى هارفارد كثير من الافكار ولكن ليست لدينا مدرسة . أما فى ييل وكورنيل فالأمر بالعكس » .

وظهر تقريظ چيمس الحماسى لكتاب « الدراسات المنطقيـة » فى باكورة سنة ١٩٠٤ تحت عنوان « مدرسة شيكاغو » – وكان حماسيا وحارا فيما عدا ملاحظة أن الكتاب لا يحتوى أى « قوانين عامة لنظـام الكون » أو أى تفسير « للعالم المشترك » ٠

وأسرع ديوى بالرد عليه ليشكره فكتب مايلى :

« لا حاجة بى الى أن أردد ما قلته من قبل ، وهو أن شعورك بالاستحسان والمصادقة على الكتاب يعنى بالنسبة لنا أكثر مما يعنيه قول أى انسان آخر . وبالنسبة لى فاننى لم أفعل شيئا أكثر من أننى ترجمت فى مفردات لغوية منطقية – ما كان من قبل فعلا كلامك أنت »(٣) ٠

وفى سنة ١٩٠٦ ، عندما التفت چيمس الى تأليف المحاضرات والمجلد عن « البراجماتية » كان على وعى حاد وحماسة بالتأييد والعون والمؤازرة التى كان يتلقاها من جهات مختلفة . وكان متحمسا لتوحيد الحركة ، ان لم يكن بالاتفاق ، فعلى الأقل بالاعتراف الصريح بالاختلافات ٠ ولقد أسهم ديوى فى هذا الايضاح وفى هذا التفاهم المتبادل ٠

نيويورك ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٠٧

« عزيزى چيمس :

لقد أتممت الآن فقط ... كتابة بيان عن الحركة البراجماتية على أساس كتابك (٤) ... بيد أننى لم أحاول استعراض الكتاب ، وانما انصب جهدى على الحركة البراجماتية مع الاشارة الى ما يومىء اليه الخلاف الراهن – فيما يبدو لى – من نقاط تتطلب مزيدا من الايضاح والافصاح والتطوير . والى جانب أشياء أخرى فقد أصبحت على وعى ببعض النقاط مثار الخلاف بين شيلر وبينك وبينى ، اذا أخذت نقطتين من الاول للآخر ، وأنا على يقين من أن بعض ما عند النقاد من سوء فهم ، من الممكن ازالته اذا طرحنا على بساط البحث ما بيننا من نقاط اتفاق واختلاف كلا على حدة . فمثلا ، سوابق الانسية عن طريق المثالية الشخصية كانت ميتافيزيقيات مثالية بلا مراء . ووجهات نظرى الخاصة أكثر جنوحا للمذهب الطبيعى ، وهى رد فعل ضد – ليس مثالية المذهب الذهنى والمثالية الواحدية فحسب ، وانما ضد كل المذاهب المثالية ، فيما عدا طبعا فى معنى المثل العليا الأخلاقية . وليس ثمة ريب فى أننى الآن أبدو لنفسى أكثر اقترابا منك ، عما أنا بالنسبة لشيلر فى هذه النقطة بالذات ، ومع ذلك فلست على يقين من ذلك .

---

(٣) Psychol. Bulletin, I (1904), cf. C.E.R., 445-7; Dewey to W.J., January. 20, 1904.

(٤) "What Does Pragmatism Mean by Practical ?" Jour. of Philos. V (1908)

ومن جهة أخرى فان شيلر فى كتاباته الاخيرة يبدو أنه يؤكد أن النتيجة الطيبة التى هى محك الفكرة ـ طيبة . ليست فى طبيعتها ذاتها بقدر ما هى طيبة فى ملاقاة مطالب الفكرة أيا ما كانت الفكرة . وهنا يبدو أننى أقرب اليه منى اليك . ومع ذلك فلست على يقين من ذلك مرة أخرى . فاذا كانت هناك ثمة اختلافات حقيقية ، ونقادنا يميلون الى مزج مذاهبنا ـ كل وما يخصه ـ معا بحيث لا يمكن لأحد منا وحده أن يمثلها مجتمعة فان ذلك يفسر بعض سوء الفهم المزعج فى حالة الخلاف الراهنة .

المخلص

جون ديوى »

وجدير بالذكر ان چيمس كان فى سنة ١٩٠٧ قد القى محاضراته عن البراجماتية فى جامعة كولومبيا . وفى سنة ١٩٠٨ قدم اليه مجلد بعنوان « مقالات فلسفية وسيكولوجية » كتبت اكراما له بقلم « زملائه فى جامعة كولومبيا » وقصد بها « التنويه الى حد ما بشعور مؤلفيها بخـــدمات البروفسور چيمس المشهودة فى الفلسفة وعلم النفس . والحيوية التى أضافها الى تلك الدراسات ، والتشجيع الذى تدفق منه الى زملائه الذين لا يحصيهم عد » .

وأسهم ديوى فى هذا المجلد بمقالة بعنوان « هل للحقيقة صـــفة عملية ؟ » ؛ وكانت هذه المقالة بالذات فى نظر چيمس أكثر مقالات المجلد « وزنا » (٥) . ولقد تولت هذه المقالة ، بالاضافة الى المقالة التى سبقتها بعنوان « ماذا تعنى البراجماتية بعملى ؟ » ، مهمة شرح تفســير المؤلف لچيمس وللمذهب الذى آمن به كلاهما .

وفى سنة ١٩٠٨ و سنة ١٩٠٩ كان چيمس مشغولا بالمهمة المزدوجة فى دحض وتفنيد حجج نقاده ، وصقل وتمهيد الطريق للاتفاق . ففى سنة ١٩٠٨ نشر مقالة بعنوان « الحقيقة ضد قول الحق » وقصـــد فى ختامها أن يهدىء ويخمد نقاده بتسليم كلمة « الحقيقة » لأولئك الذين يرغبون فى توكيد « الظروف الأولية والموضوعية للعلاقة الادراكية » فى حين يحتفظ بكلمة « صـــدوق » لتلك القيمة الوظيفية للأفكار التى تؤكدها البراجماتية . وأنكر عليه ديوى هذا الاقتراح ، مما اضطر چيمس الى سحبه عندما أعاد طبع المقالة فيما بعد (٦) . ومعرفة الماضى تنهض دليلا فى

(٥) Title-Page and Prefatory note; W.J. to Dewey, August 4, 1908; L.W.J., II,310.

(٦) Jour. of Philos., V (1908), 181; M.T., 225.

هذا الصدد ، فديوى يصر على أن لفظ « الحقيقة » لا يطبق تطبيقا سديدا على الحادث الماضى ذاته ، ولكنه يطبق فقط على التوكيدات اللاحقة التى تنصب على الحادث . ومن ثم كتب الى چيمس فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٩ بالآتى :

« هل صحيح أن نابليون احتل بروفنس فى آخر يوم مارس سنة ١٨١٤ ؟ » اذا كان هذا يعنى أى شىء فانه يعنى : اما (أ) هـل عبارة أو فكرة أو اعتقاد أن نابليون احتل .. الخ .. صحيحة ؟ أو (ب) هل احتلال نابليون حق (الحقيقة الوجودية المجردة) ؟ ان صاحب المذهب العقلى القاطع يتمسك ـ كما أفهمه ـ بأن الحقيقة الوجودية المجردة ـ من حيث هى حقيقة وجودية مجردة ، هى فى حد ذاتها من طبيعة الحق .. يبدو لى اننا نحتاج فقط الى أن نرفع النقاد الى مستوى التمييز بين الوجود البهيمى أو الأحداث (والتى من المؤكد أنها ليست « حقائق ») وبين البيانات الفكرية عن تلك المواجيد (التى تنسحب عليها فقط صفة الصواب / والخطأ) ، وذلك لكى نجعل النقاد يرون أن الخلط قائم فيهم أنفسهم ، وأن الحق ـ قد يكون علاقة بين آثار ونتائج الوجود موضوع المسألة ، وقد يكون نتائج وآثار الموقف الفكرى أو التوكيدى موضوع المسألة . ويبدو أن قضية حقيقيـة عبـارة تاريخية ، قضية تقوى مركزك بصفة خاصة . واذن « فوجود قيصر » ليس بأى معنى « حقيقة عمرها ألفا عام » . فالقضية هى عما اذا كان الاعتقاد أو القول بأن قيصر قد فعل أشياء معينة منذ ألفى عام ، اعتقاد صحيح أو قول صحيح » .

وفى مقدمة كتاب « معنى الحقيقة » ، وهو مجموعة لأقواله وردوده واجاباته على معارضيه ، أخذ چيمس على عاتقه عرض وجهات نظر ديوى وشيلر ونفسه كآراء يكمل بعضها بعضا ، ولا مناقضة بينها . فعـالم شيلر « عالم نفسى » ، وعالمى هو « عالم يختص بفلسفة المعرفة » ـ أما عالم ديوى ـ فكان « أرحب العوالم الثلاثة » ولكنه « أمسك عن اعطاء تفسيره الخاص لتعقيده » . وكان چيمس فى مبدأ الأمر قد وصف ديوى فى هذا التصنيف بكلمة « عالم الكائنات وحقيقتها » لكى يكمل الثالوث (باعتبارهم كشىء واحد) ، ولكنه بعد أنّ عرض الفقرة على ديوى « أمسك عنها » بناء على الالتماس الجدى من ديوى .

وفى هذا الصدد كتب ديوى : « حتى أكثر الكتاب تواضعا وأشدهم غموضـا ، ربما تجد عنده نفورا طبيعيا ، ما دام قادرا على الكلام ، من أن يتولى غيره تفسيره تفسيرا جازما ، حتى اذا كان يدرك تمام الادراك أنه عرضة للانتقاد ويقبل النقد » . وأثار التماس چيمس لمزيد من التفسير ـ القول التالى :

« طبعـا ، ما كان فى نيتى أن أحـكم على اشارتك لشيلر . كلا ، لا أظن أن عبارتك عـى حاطئه ولكن ـ من الوجهه البراجماتية فان الخطأ وعدم الكفاية يؤولان الى بعضهما البعض الآخر . والتصنيف الخاص « بعالم الـكائنات وحقيقتهـا » اسناد مضاد ، اذا اعتبرت الاقترانات التاريخية والتقليدية لذلك الاسناد . على أن أشد ما عندى من اعتراض جدى هو أننى لا أحسب أن مثل تلك التحليلات الموجزة للمسائل المعقدة ـ كفيلة حقا بتوضيح الموضوع ، لأن هذه التحليلات الموجزة تخلق عددا كبيرا من الأسـئلة الجديدة بقدر ما تحسم وتقرر ، وكثيرا ما تنتج محصولا جديدا من سوء الفهم وسوء التأويل »(٧) .

وفى نفس مقدمة كتاب « معنى الحقيقة » ، أخبر چيمس أنه وشيلر وديوى متفقون اتفاقا مطلقا « فى الاقرار بتخطى واستعلاء الوطر (بشرط أن يكون موضوعا قابلا للخبرة) على المسند اليه فى علاقة الحقيقة » . وكان اهتمام چيمس منصبا على الدفاع عن ديوى وعن شيلر وعن نفسه أيضا ضد تهمة الباطنية المشتركة . وكان ديوى يشعر بأنه ليس بحاجة الى أى دفاع ، حيث لم يفترض فقط أن التفكير يعمل فى بيئة خارجية من الخبرة مطالب ومسئول بالرد عليها ، وانما أيضا اعتبر الخبرة نفسـها غير باطنية . وفى هذا طالب بتأييد ومساندة چيمس ليكون له ظهيرا :

« أنا طبعا لا أحاول أن أمدك باللغة ، ولكنى لم أستطع أبدا أن أتبين السبب فى كون ناقد .. ـ اذا كان حقا يعتقد (فيما عدا لأغراض خلافية) اننى لا أعتقد فى أى شيء يتجاوز الحالات العقليـة ، لا يلزم نفسه بأن يوضح التناقض الذاتى الذى يورطنى ذلك فيه . وطبعا لعد كررت ـ الى درجة تعافها النفس ـ أن هناك مواجيـد سابقة على الحالات والأغراض الادراكية ولاحقة لها ، وأن المعنى الكلى للأخيرة كامن فى الطريقة التى تتدخل بها فى ضبط واعادة تقويم المواجيد المستقلة .. بل فى الحقيقة أجد (فى المحادثة) أن كثيرا من الناقدين يعتبرون مذهبك أكثر باطنية من مذهبى ، لأننى ، اتباعا لسنة كتابك « علم النفس » أؤكد (أكثر مما تفعل كتاباتك الأخيرة) الأصل البيولوجى للأفكار والعمليات الفكرية . وموجز القول أنك واجد (ما لم أكن مخطئا خطأ فاحشا) أن النقاد الذين يوجهون هذه التهمة .. دائما ينقلون الاساس من تحليل الصدق العقلى الى معنى الخبرة ، وحيث انهم أنفسهم لديهم فكرة باطنية تماما عن الخبرة (ومن ثم ثنائية) فانهم يسقطونها علينا »(٨) .

ومن الجلى أن هذه المناقشات لم تفض الى أى انشـقاق بين چيمس وديوى ، بل على العكس أدت الى توكيد اتفاقهما . واستمر چيمس فى

(٧) Dewey to W.J., March 15, 19, 1909.

(٨) Dewey to W.J., March 21, 1909.

متابعته لتطور تفكير ديوى بشغف واهتمام واعجاب . لقـــد كان مزاج تراسلهما يليق بدعوتهما المشتركة . لقد كانا مختلفين اختلافا كاملا فى عبقرية عقليهما . واذا كان صحيحا أن الأسلوب يفصح عن الرجل ، فبالتأكد كانا رجلين مختلفين . كان چيمس يجد صعوبة كبيرة فى فهم افكار ديوى « بعدم انتظامها ــ بلا قيود ــ فى التعبير » (٩) . ولابد أن ديوى وجد چيمس عجولا ومندفعا ومفرط الغزارة والفورة ، ولكن تلك الأمور كانت فى نظر الاثنين ــ اعتبارات تافهة ، ولقد سعى كلّ منهما ــ بالتعاطف والفهم والود ــ الى توكيد ما بينهما من وفاق مشترك ، بدلا من التنازع والشقاق لتعميق ما بينهما من خلاف .

---

(٩) W.J. to Th. Flournoy, February 9, 1906; L.W.J., II, 244.

٣٤

البراجماتية فى إيطاليا وألمانيا

فى ربيع سنة ١٩٠٥ ، سجل چيمس ابان وجوده فى روما بمناسبة حضور المؤتمر الدولى الخامس لعلم النفس ما يلى :

« نعمت عصر اليوم بحـــديث طلى شهى وودى مع عصـــبة من « البراجماتيين » ، جابينى ، كالديرونى ، آمندولا ، فايلاتى ... الخ .. ، وكلهم يقطنون فلورنسا ، ويحررون مجلة الشهرية « ليوناردو » وينشرونها على حسابهم الخاص ، ويسوسون حركه فلسفية فى غاية الخطورة والأهمية ، مستلهمين ـ فيما يظهر ـ شيلر وشخصى (لم أكن لأصدق ذلك أبدا من قبل على الرغم من أن قرارى أكد لى ذلك) وهم يبدون حماسا وغيرة ، ولهم نشاط أدبى مطلق العنان لا نظير له فى بلادنا .. لقد أعطتنى هذه العصبة فكرة جديدة معينة عن الطريقة التى ينبغى على الحق أن يجد طريقه بها الى العالم .. لقد كان أهم جزء فى رحلتى وألذها ، وفى الواقع من الأمر اكثر تثقيفا بحق ـ هو لقاء هذه الحلقة الصغيرة ، الذين حملوا كتاباتى ـ وغيرها ـ على محمل الجد وأولوها أكبر قسط من الاعتبار »(١) .

كان هؤلاء الرجال ـ مع برزوليتى وآخرين ، يؤلفون جماعة تلتقى بشكل غير رسمى للنقاش الفلسفى ، وكان يشار اليها أحيانا « بالنادى البراجماتى » . وهكذا عثر چيمس ، على غرة وبلا قصد ، على عصبة من الحواريين الذين وجدهم قد كرسوا أنفسهم فعلا لممارسة ونشر الانجيل الجديد . وجدير بالذكر أن فترة تحمسهم الجمعى تتفق مع حياة مجلة ليوناردو التى استمرت من ١٩٠٣ الى ١٩٠٧ . فعلى صفحاتها نشروا عديدا من المقالات عن البراجماتية ـ وتاريخها وقادتها ـ وقرظوا مؤلفات چيمس فور ظهورها ، وهللوا لبيع ألفى نسخة من ترجمة كتابه « علم النفس » .

ومات جيوفانى فايـــلاتى فى سنة ١٩٠٩ وماريو كالـــديرونى فى سنة ١٩١٤ . ونشرت مقالاتهما ، التى كانت تمثل ترجمة للبراجماتيـــة،

---

(١) W.J. to A.H.J., April 30, to Santayana, May 2, L.W.J., II, 227, 228,

رزينة ومعتدلة نسبيا . وبعد موتهما بمقدمة بقلم بابينى (٢) . ومن بقية العصبة ، جيوفانى أمندولا أصبح من رجال الحكم الأحرار الذين قاوموا الفاشية ومات فى سنة ١٩٢٦ ميتة مريبة من آثار « الدروس » التى قيل أن نفرا من شيعة الحكومة غير الرسميين لقنوه اياها . أما جيوسبى بريزولينى فقد انحرف بعيدا عن البراجماتية فى اتجاه مثالية كروتش . أما جيوفانى بابينى نفسه فقد مر بمراحل متعاقبة من التفكير انتهت بالتقوى المسيحية . ولقد خطط كتابه "Sul Pragmatismo" « المذهب الذى أخذ من بيرس اسمه ومن چيمس شهرته » (٣) ، على أساس أن يظهر فى سنة ١٩٠٦ وفى نفس الوقت بالايطالية والفرنسية والانجليزية — ودار حوله حديث عن مقدمة بقلم چيمس للطبعة الانجليزية، ولكنه لم يقدر له أن يرى النور حتى سنة ١٩١٣ وكان عندئذ سجلا للماضى لا اعلانا لعقيدة .

وطوال الوقت الذى عاشت فيه الحركة كانت فى غاية الحيوية وكانت هذه الحيوية ، وخصوصا كما تجسدت فى بابينى هى التى دفعت چيمس الى احدى فورات تحمسه المعهودة فيه . لقد هوى فؤاده الى روح الجماعة والى « مجونها » ، بل الى « قنزحتها الأدبية والى قلة حيائها العامدة » . وأحب « نغمة شعورهم الملائمة جدا لم شعث المتحمسين والأنصار ، ولجعل البراجماتية ضربا جديدا من الجهاد الدينى الفلسفى أو شبه الدينى للفلسفة »(٤) . واستطاب أسلوبهم ، وعلى الأخص أسلوب بابينى : « ياله من كاتب . ويالها من خصوبة . ويالها من شجاعة ... ويا لها من روح دعابة ، ويا له من صدق ! » .

ويظهر أن هذا الشعور كان متبادلا . فبابينى يتحدث عن «بساطة» چيمس و « سحره » و « عمقه » . لقد كان هو الذى « غزا » مؤتمر علم النفس لسنة ١٩٠٥ ، وكان بحثه الذى ألقاه « فكرة الضمير » هو « نور

(٢) Lanciano, 1920. Largely reprinted from Leonardo and Rivista di psicologia.

(٣) "Quella dottrina ch'ebbe dal Pierce il nome et dal James la fama" (Sul Pragmatismo, 1913, viii).

(٤) "G. Papini and the Pragmatist Movement in Italy," originally published by James in 1906, C.E.R., 460, 465. The writings of Papini which chiefly interested James were Il Crepuscolo dei filosofi (1906), and the Leonardo articles afterwards republished in Sul Pragmatismo.

المؤتمر الساطع » (٥) . والتبادل التالى للرسائل يفصح عن روح هـــذه العلاقة ، والتى هى من احدى خصائص چيمس المميزة عندما يندفع فى تحمسه لا يبالى ولا يقيم وزنا لفارق السن :

ديل مونتى ٢٧ أبريل سنة ١٩٠٦

« صديقى العزيز وأستاذى بابينى :

« لقـــد قرأت ســـــفرك الجلـــــل Crepuscolo dei filosofi وكذلك عـــدد فبراير من مجلة ليوناردو ، وما أعظم القوة التى عززت روحى من قراءاتهما . ما أروع العبقرية . وأنت عبقرى حق . ها هنـــا أحاول جاهدا وبكل عسر بتهيبى الفكرى وصحو ضميرى ويقظة وجدانى أن أمهد بضع خطوات من الطريق المفضى الى Weltanschauung الجديدة المنظمة ، فاذا بك فى خطوتين جريئتين تقفز قفزة واحدة فى لحظة واحدة تتجاوز الطريق كله الى رحاب النظام كله ــ الى الريف المطلق والخلاء المكشوف .. انه مزاجك الذى لا يبالى الى جانب سيفك الفذة ــ سواء بسواء ــ هى التى كان لها ذلك التأثير التحررى العظيم على ذكائى .. وسوف تتهم بالاسراف ــ وهى تهمة فى محلها ... وسوف يطلق عليك سبرانودى بيرجراك البراجماتية .. الخ .. ولكن البرنامج لابد أن يرسم باسراف .. ان « الدقة » هى أحـــد معايير الطريقة القديمة للتفلسف التى تبحث فى الحقيقة المعينة عن شبح « مبدأ ما » يسوغ شرعية وجودها وتخرج الخلق من الحقيقة . فاذا كان الخلق يحدث فى مفردات . « كما بدا لى دائما أن هناك أسبابا للاعتقاد بذلك »، ولكنى الآن « اعتقد » أن « الدقة » ليست فئة للحكم على أى شىء بأنه حقيقى ، فساكتب حالا مذكرة عن ال crepuscolo ، ال Leonardo لصـــــحيفة وودبردج وأطلق عليك أستاذ الحركة الآن . يا لك من كاتب ألمعى لوذعى فكه فطن ذكى . انه لرائع حقا أن ترى ايطاليا القديمة تجددنا جميعا بهذه الطريقة . ولقد كتبت الى جون ديوى الأستاذ بجامعة كولومبيا بنيويورك ألفت نظره الى كتاباتك . يجب أن تقرأ فورا مقالته « العقائد والحقائق » فى عدد مارس من Philosophical Review ، انهـــا غامضـــة بعض الشىء فى الأســـلوب ولكنها قوية جدا ، وتعتبر أخطر بيان براجماتى نشر فى أمريكا حتى الآن . استمر فى التفكير والكتابة .

المخلص

و م . چيمس »

فلورنسا ٢ مايو سنة ١٩٠٦ (٦)

« أستاذى العزيز ،

تسلمت رسالتك التى بعثت بها من ديل مونتى ، وأؤكد لك أنها غمرتنى وكادت تعرقنى . أن سماعى للأستاذ الذى درسته وأعجب به يقول لى أشياء تبدو فى غاية

(٥) W.J. to F.C.S. Schiller, April 7, 1906; L.W.J., II, 246; "Gli Psicologi a Roma," Leonardo, III (1905), 123-4.

(٦) This letter was written in French and is translated by the author. Papini's "little book" was II tragico quotidiano.

الاطراء والمدح جدا حتى بالنسبة لغرورى ، والذى لا جناح على من القول بأن نصيبى منه ليس بالهين) كان بالنسبة لى من أعظم مسع حياتى العقلية التى قدر لى أن أنعم بها فى حياتى كلها . وانى لأعلم جيدا أن عطفك على ما أحاول أن أؤديه يجنح بك الى الحماسة ، ولكنى عاجز تماما عن ان أرد لأستاذى الأعز ، جريئا ـ مهما كان ستعرا ـ من الانعاس الذى أنعم به على . انني ما زلت فى ميعة الصبا ـ يا أستاذى العزيز ـ فسنى خمسة وعشرون عاما فقط ، وانى لتواق الى أن أواصل عملى فى طريقك وفى مرجوى أن تواصل عونى ومؤازرتى ـ فان ثقتك بى ستكون لى ظهيرا أشد به أزرى .

منذ أيام قلقلة فقط نشرت كتيبا من القصص الخرافية الفلسفية ، وهو الآن فى طريقه اليك . وأنا الآن أعمل فى الطبعة الايطالية الجديدة من كتابك « علم النفس » . وسأنتهى من هذا العمل فى شهر يونية . وفى نفس الوقت فانني مشغول أيضا فى كتابى عن البراجماتية ، وسأرسل لك تجارب الطبع لتلقى عليها نظرة . اكتب لى ثانية . هل سيظهر كتابك عن « الميتافيزيقيا » عما قريب ؟

لك خالص ودى القلبى ج . بابينى »

وعندما تسلم بابينى وقرأ مقـــال چيمس الموعود فى « صحيفة وودبردج » ، كتب اليه فى ٣ يولية سنة ١٩٠٦ يقول :

« تستطيع أن تتصور تماما الانفعال الذى اعتمل فى نفسى وأنا أقرأه ، ليس فقط بسبب ما تقول عن أفكارى وانما فوق (كل شىء) بسبب العطف القلبى الصميمى الذى يشيع فى كلماتك . قد تموت النظريات وأنت وأنا من المحتمل جدا فى مدى يومين اثنين أو عامين ، وقد نختلف فى الراى اختلافا بينا ، ولكن الميل الذى تبديه نحو طريقة تفكيرى وكتابتى يمنحنى سعادة ولذة وعزة من نوع خاص أحسب أن أصحاب المعرفة المجردة لا يشعرون به أبدا » .

وفى فصل من فصول كتابه L'altra metà يقول بابينى ان البراجماتية بتوكيدها عنصر المنفعة فى المعرفة قد تفهم على وجهين متناقضين تمـــام التناقض ، وفقا لاستمساك المرء أو عدم استمساكه بالمذهب النفعى . فعند صاحب المذهب النفعى ، فان فائدة المعرفة تحمدها وتؤيد سلطتها ، أما عند غير النفعى ، فان نفعية المعرفة تحط من قدرها وتجلب الخلاص من عبوديتها . وبابينى مقتنع بهذا الشق الأخير . وفى هذا الصدد يقول « ان عظمة الانسان الحقيقية تكمن فى أدائه للعمل العديم المنفعة ، تماما لأنه عديم المنفعة بالذات » (٧) . وبنسبة ما يكون العلم نافعا يصـــبح من الواجب المحتم احتقاره ، وتوجيه نشاط المرء الى مسالك أكثر تنزها عن

---

(٧) "La vera grandezza dell-uomo deve consistere nel fare l'inutile, appunto perchè inutile, " L'altra meta, 1922, 203. The first edition appeared in 1910.

الغرض . ثمة فرق مماثل بين البراجماتية « الحنبلية » والبراجماتية « الموفقة » ، حيث تتجلى الأولى فى كبح التفكير والاقتصاد فيه ، ومن ثم تواصل تقليد الفلسفة الوضعية ، وأما الثانية فهى براجماتية تأملية الى حد الافراط ، نتيجة لكونها اكتشفت حدود العلم وخلصت منها . وهناك تفرقة أخرى من تفرقات بابينى ، وهى التفرقة بين « البراجماتيين الاجتماعيين »: "Pragmatisti sociali"و « البراجماتيين الروحانيين » Pragmatisti Magica فالفئة الأولى هم رجال ذوو رزانة ووقار ويجدون البراجماتية أداة للتنظيم والسياسة والتدبير ، فى حين أن الفئة الثانية ثملون بالروح الابتداعية (٨) .

وكان بابينى نفسه ـ يمثل فى كل تلك النقائض ـ البديل الأكثر تحررا وجراة . فأما اعجاب چيمس به فكان مرده الى امرين : ادراكه للأبواب الكثيرة التى تفتح من الممر البراجماتى (٩) ، واختياره لنفسه باب المجازفة البطولية ، والتأمل الحر والايمان الجهادى . كان « الأنشودة » التى توقظ فى الناس « وظائفهم الابداعية القدسية »(١٠) . كان . . . « بابينى الفتى المتوج الهامة باكليل الفخار . . . الذى وضع نفسه فى مركز التوازن الذى تبدأ منه كل الاتجاهات الحركية »(١١) . تلك كانت البراجماتية التى اتخذت « العمل » محكا للحكم على كلّ الأدوات الانسانية ، ومن بينها الحق (١٢) والحقيقة ، وأما چيمس الذى راقته تلك البشارة فقد كان چيمس الذى يجد « الحياة تستحق العيش » بسبب لحظاتها البطولية .

على أن التفرقات المميزة لبابينى تومىء الى ارتباطين للبراجماتية بالتطورات الاجتماعية والسياسية الحديثة . فالشيوعية ، ما دامت

---

(٨) Leonardo, IV (Feb. 1906), 58-61.

(٩) C.E.R., 462.

(١٠) Pragm., 257.

(١١) W.J. to Th. Flournoy March 26, 1907., L.W.J., II, 267.

(١٢) "Energies of Men," Philos. Rev., XVI (1907)., published in Leonardo, V (Feb. 1907). Here Pragmatism offers no Weltanschauung of its own, but permits man to choose any that suits his moral and aesthetic demands, and arouses an "eccitamento mentale" by making man conscious of his creative power and superiority to science. (Op. cit., 34).

حوافزها تكنولوجية ، تتقبل بسرعة فلسفية تقاس فيها كل المعرفة على محك تطبيقاتها العملية ، وتفسر فيها هذه التطبيقات على أساس تحكم فى البيئة ، وتصبح فيها كلا المعرفة وتطبيقاتها على الشيوع . هذا مطلب واحد من شد البراجماتية ، ولو أنه أكثر تمثيلا لبيرس وديوى بنوع خاص مما هو لچيمس . ولكن الحافز الأشد قوة الذى نقلته البراجماتية الى التفكير الاجتماعى والسياسى ينبثق من مصدر آخر ... من تمجيدها للعمل المباشر ، ومن ثم لكلا الثورة والدكتاتورية . فبينما لا تنطوى مشاعر البراجماتى البابينى الا على الازدراء لدولة اقتصادية بحت ، الا أنه كان يجد نفسه شديد العطف والتجاوب مع عبادة العنف والخطر .

فى ابريل سنة ١٩٢٦ عقد موسولينى مؤتمرا صحفيا ذكر فيه چيمس مع نيتشه وسوريل من بين أساتذته الفلسفيين . فلما سئل أيهم أعظم تأثيرا أجاب :

« تأثير سوريل . لقد فتننى نيتشه عندما كنت فى العشرين من عمرى وعزز العناصر المضادة للديموقراطية فى طبيعتى . وكانت براجماتية جيمس ذات نفع كبير لى فى حياتى السياسية . فلقد علمنى جيمس أن العمل ينبغى أن يحكم عليه بنتائجه لا بأساسه العقلى . لقد تعلمت من چيمس ذلك الايمان بالعمل ، تلك الارادة المتوقدة للحياة والجهاد ، اللذين يعزى اليهما قسط كبير من نجاح الفاشيه .. فالأمر الجوهرى بالنسبة لى .. كان هو الجسم . ولكنى اكرر أننى مدين بأعظم الفضل لجورج سوريل .. لقد كان ذلك الأستاذ الفذ للمذهب النقابى .. هو الذى أسهم بنظرياته الوعرة العنيفة عن التكتيك الثورى .. بشكل حاسم بات فى تشكيل نظام وطاقة وقوة الكتائب الفاشية » (١٣) .

وليس من الحكمة أخذ هذه العبارة حرفيا . فقائمة أساتذة موسولينى الذين اعترف بفضلهم — قائمة طويلة وآخذة فى الازدياد (١٤) . وما وجده فى چيمس ، كان فى وسعه أن يجده بكل سهولة فى غيره حيث ان ما عنده كان واسع الانتشار وله كثير من النظائر والأشباه . ثم ان چيمس كان نبيا على الجانب الآخر ايضا . ولقد سبقت الاشارة من قبل الى مصير امندولا . ففى قصته عن الحياة فى السجون السياسية على جزيرة ليبارى يصف اميليولوسو الوقت الذى أنفق فى مناقشة أفكار چيمس ، والشكوك والريب التى ساورت حارس السجن الذى « تدخل

---

(١٣) Sunday Times, London, April 11, 1926. The intreview was obtained by the Spanish journalist, Dr. André Révesz.

(١٤) Machiavelli, Schopenhauer, Strindberg, etc., Cf. H.W. Schneider, Making the Fascist State, 1928,230-1.

فى الحديث ذات يوم سأل : باسم القانون من عساه يكون السنيور چيمس هذا » (١٥) . ولكن ليس ثمة سبب وجيه للتشكك فى أن موسولنى الشاب عرف شـــــدرات من المذهب الچيمسى ووجدها على هواه . ويتذكر موسولينى ايضا انه قد تعرف الى چيمس شخصيا .

بيد أن الوقت الذى اتصل فيه موسولينى بالبراجماتيه والوسائل التى تم بها هذا الاتصال – غامضة ملغزة . ثمة قصة جارية تقول بأن قبيل نهاية العشار الأولى من القرن الحالى (١٩٠٨ أو ١٩٠٩) قضى موسولينى ستة أشهر فى باريس ، وأنه كآن كثير التردد على مقهى بيجاى القائم بشارع السوربون لكى يستمع الى سوريل وهو يفسر برجسون . وطبقا للقصة فان لينين كان يلتقى بسوريل فى نفس الوقت بحيث أن هذين الثوريين الجبارين كانا يتشربان نفس المذهب المضاد للعقلية من نفس المصدر(١٦) . وكان لينين يقرأ الفلسفة ويكتبها بغزارة ، وراقه المذهب النقابى لسوريل آلذى دافع فيه عن حرب الطبقات كأسطورة بطولية – una interpretazione will-to-believ-istica للمــاركســــــية كمـــــا عبر عنها بابينى (١٧) . ولكن أية اشارة لثبوت نسب لينين بالبراجماتية لابد أن تقيد حقيقة انه باسم المذهب المادى جحد صراحة ودحض بكل تفنيد « التجريبية – التمحيصية » لارنست ماش التى تبناها منافســـه أ.أ. بوجدانوف . لقد كان مرتابا فى هذه الفلسفة لأنها – فى نظره – كانت تفتح طريقا « عقائديا » « لصانعى الاله » ، وبسبب روحها العامة ذات الطابع « التوفيقى الدجال » . لقد كان أتباع ماش « طائفة عجينية تعسة حقيرة من الوسطيين » الذين هم لا آلى هؤلآء ولا الى هؤلاء ، والذين يخفون الفتق الذى لا سبيل الى رتقه بين آلمثالية والواقعية . وكان لينين، غريزيا وربما ستراتيجيا ، معارضا للتفسيرات الحديثة لماركس ، مؤثرا

---

(١٥) The agent referred the matter to his superiors, who apparently thought James to be, if not a teacher of the true gospel, at any rate innocuous. "The Flight from Lipari," Atlantic, CXLVI (1930), 31.

(١٦) "I owe this story to Professor M. Mauss of the Collège de France, who does not vouch for its accuracy. I have been unable to verify it.

(١٧) Leonardo, IV (1906), 60.

الفرض المنطقى للحتمية المادية على المذاهب الفلسفية الأخرى الأكثر مرونة ، والتى لا تنطوى على أية مضامين اقتصادية وسياسية ثانية (١٨) .

وسواء أكان موسولينى ، قد التقى بسوريل فى سنة ١٩٠٨ أم لم يلتق به ، فقد كان على أية حال ملما بكتاباته ، وعن طريقها سمع عن برجسون بلاشك . أما انه لابد أن يكون قد سمع عن چيمس من نفس المصدر فأمر بعيد الاحتمال كلية .

وأكثر مؤلفات سوريل شهرة المعروف باسم « تأملات فى العنف » يحتوى اشارات كثيرة لبرجسون ، ولكنه خال تماما من أية اشارة لچيمس على الرغم من التشابه المستوقف للنظر بين مذهب الأسطورة المعضدة للروح وبين مذهب چيمس فى كتابه « ارادة الاعتقاد » . وفى الطبعة الثانية من كتابه « أوهام التقدم » أضاف سوريل ملحقا عن « جلال الانحلال » استقى فيه من كتاب چيمس « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » ؛ ولكن ذلك لم يحدث حتى سنة ١٩١١ . ويبدو انه لم يلتفت الى « براجماتية » چيمس الا بعد ان ظهرت الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب — وهذا أيضا لم يحدث الا فى سنة ١٩١١ . وبعد ذلك فى سنة ١٩٢١ وبعد أن قرأ الترجمة الفرنسية لكتاب « معنى الحق » وكتاب « الكون التعددى » نشر سوريل كتابا بعنوان « نفع البراجماتية » . ولقد كتبت مقدمة هذا الكتاب فى سنة ١٩١٧ معلنة عن قبول المؤلف للمذهب مع تحفظات . فالمؤلف يرى أن چيمس قد أسىء اليه على يد حوارييه من أمثال بابينى ، أولئك « المشعوذين الذين لا عمل لهم سوى اقامة بيت من الدخان من أية بدعة جديدة غير مألوفة » والذين يجدون مأواهم المناسب فى المستقبلية . ويعتقد المؤلف أيضا أن براجماتية چيمس اقليمية ضيقة الأفق مشبعة بجو بيئة أمريكية بروتستانتية واكاديمية ، وأنها لا تحتاج الى اعادة تفكير بوساطة عقل اوروبى . أما وقد تم ذلك (على يد سوريل) فهو ينتهى الى ان البراجماتية جديرة بأن تحتل مكانها بين الفلسفات الكلاسيكية وتقدم خدمة هامة للتفكير الحديث(١٩) .

وكل الدلالات تومىء الى سنة ١٩٠٨ — على أنها سنة مفازلة

---

(١٨) Nikolai Lenin, Materialism and Empirio-Criticism (Vol. XIII of Collected works), 1927, 294 and passim.

(١٩) Sorel, De L'Utilité du pragmatisme, 1921, III, 21-2.

موسولينى للفلسفة . فتلك هى السنة التى نشر فيها فى -Il Pensiero romagnolo مقالا عن نيتشه بعنوان : "La Filosofia della forza" وكتب "a "Storia della filosofia التى لم تنشر أبدا . وتلك هى سنة زيارته المشكوك فى أمرها لباريس ، والسنة التى نشر فيها — قطعا — كتاب سوريل « تأملات فى العنف » (الذى ترجم بعد سنة الى الايطالية) . وتلك هى السنة التى اتصل فيها موسولينى بجماعة الليوناردو بفلورنسا، الذين لابد أن يكون قد سمعوا باسم وليام چيمس ان لم يكن بمذاهبه . اما صحيفة ليوناردو نفسها فقد توقفت عن الصدور فى سنة ١٩٠٧ ولكن خلفتها فى السنة التالية صحيفة La Voce وعلى الرغم من انها كانت بصفة اولية مجلة سياسية وادبية لا فلسفية فى مجال اهتمامها ، الا أنها ازهرت من نفس الجذع والنسب . وكان برزولينى رئيس تحريرها ، وكان بابينى يسهم فيها كثيرا ، أما موسولينى فقد كان يسهم فيها من حين لآخر . وهنا يبدو أن الفاشية ارتبطت — لحين — بالبراجماتية تحت نوع مريب من رعاية ال Vocismo وال Futurismo .

وايا ما كانت « قنـوات الارسال » التى تأثر بوساطتها القـادة الشخصيون ، فليس ثمة ريب فى الحقيقة العريضة بأن البراجماتيـة والفاشية (وكذلك البلشفية) تحتوى بعض العناصر المشـتركة وأن موسولينى كان له حق فى الاستشهاد بچيمس ، حتى لو كان ذلك رأيا دبريا . فالثورة السياسية المعاصرة ، اذا فسرت بتوسع ورحابة صدر ، كانت نبذا للتحررية . لقد كان انجيل القوة والعنف فى تضاد عامـد ضد انجيل الخير والاحسان والانسانية والديموقراطية السـياسية . كانت ثورة تنكر صراحة المبدأ المسلم به يقينا لدى الناس كافة من أن الأفراد العديدين الذين يتألف منهم المجتمع . وحيث ان مصالحهم انفسهم هى التى تحت الخطر ، وهم وحدهم أصحاب الكلمة العليا والحـكم النهائى بالنسـبة لما هو خير وصالح ، وكذلك أيضا بالنسبة للوسائل التى تتخذ لتحقيقه . ووليام چيمس كان تحرريا فى هذا المعنى على وجه التحديد بالذات . واحتمال أنه كان من الممكن أن يعطف أقل عطف على البلشفية أو الفاشية ، أمر مستحيل لا يخطر بالبال . واذن فعلينا أن نقنع ، ليس بفلسفة ثورية مطابقة كان چيمس لها بشيرا ونذيرا ، ولكن بمجموعة من الأفكار والعواطف ، فى حالة تنقل وتبدل ، وكثيرا ما كانت

لا علاقة بينها ولا رباط ، يتداخل بعضها في بعض هنا وهناك بحيث تلتحم في أفكار وعواطف البراجماتية ٠

لقد انبثقت الفاشية من حالة طارئة ، وعبرت عن الحاجة الى العمل الفورى والحاسم ، مع الحط من قدر الأيديولوجيات لأنها تثير المناقشة ، وتشجع على التراخى وعدم الحسم والبت فى الأمور ، وعلى هذا فأهلا بالبراجماتية من حليف من هذه الزاوية ؛ لأنها قد تحدث بجراة مكانة وسلطان الفعل والنهى ٠ فالفاشية كانت حركة انتهازية نجمت كاجراء من اجراءات الأمن ، واستمرت مشغولة بالمسائل الملحة الطارئة وفقا للمقتضيات الحزبية ٠ وكانت البراجماتية قد علمت أن الأفكار التى ليس لها تطبيق على الموقف العملى الذى تنشأ منه ، أفكار عديمة المعنى وعديمة الجدوى ..

واستخدمت الفاشية العنف ، ضد قوة المعارضة والحقوق الدستورية جميعا ، وكانت قاسية لا ترحم ، ولا ترعى قانونا ولاذمة ، وكانت تهيج الحماسة العسكرية بين أعضائها وتهدد جيرانها : وكانت البراجماتيه قد علمت أن الأفكار والسياسات يمكن أن تتبنى - عدلا وصوابا - من أجل أثرها المقوى على الارادة ، وأن تسويغ العمل قد يكمن ، ليس فى نتائجه السارة البارة ، وانما فى حميا وتمجيد العمل ذاته . فلكل هذه الأفكار التى تدعم بها الفلسفة البراجماتية مقتضيات الفاشية ولزومياتها، كان من الممكن والميسور الاستشهاد بنصوص لا حصر لها من جيمس لتكون للفاشية ظهيرا . ثم تبقى الفكرة الرئيسية للفاشية ، الا وهى اخضاع الفرد وتبعيته للتماسك العضوى للدولة . وكانت هذه الفكرة هى اللعنة المحرمة عند جيمس ، وتنتمى للمعسكر المضاد والتقليد المناقض الموجود عند فيشته وهيجل . وكان أولى بالفاشية أن تبحث لها عن وثنى من طراز ج. جنتيل بدلا من جيمس لاحكام الصنعة الفلسفية لتلك الفكرة ، والذى حدث فعلا أن تلك الفكرة بعد أن أخذت أهميتها فى الازدياد وشاعت وذاعت وملأت الأسماع ، استند تسويغ الفاشية وتحول اكثر فأكثر الى اسس فيشتية أو هيجيلية(٢٠) . وثمة داع يدعو حركة سياسية وجدت البراجماتية مناسبة وموافقة ومجانسة فى مراحلها الثورية المبكرة، الى أن تحيل عينها الى مثالية بعدما كانت ابان مرحلة البلوغ .

---

(٢٠) G. Gentile, "The Philosophic Basis of Fascism," Foreign Affairs, VI =

على أن البراجماتية التى من النوع الذى يمثله بابينى الفتى تشجع الفرد أو الجماعة العرضية على أن يصبحوا أبطالا وشهداء فى سبيل أى قضية . فاتجاهها مفكك وفوضوى . ولكن عندما تمسك حركة ثورية بزمام الدولة وتضع يدها على سلطاتها فانها تصبح — أوتوماتيكيا — بطل الدولة . ويصبح من الضرورى عندئذ احلال المبدأ الموضوعى للعمل الجماعى المشترك محل المبدأ الذاتى للحرية . وفى محل تعدد ولاءات جهادية تسمو بالحياة سموا متباين الأنواع ، يصبح من الضرورى الالتزام بولاء واحد ، ويصبح من المحتم أن يقتصر حق السمو والشرف على هذا الولاء الواحد . وعندما يصبح الثوار حكاما فانهم لا يستطيعون الاستمرار فى الزهو بقوتهم الخاصة — لأن ذلك يؤدى الى زهو مماثل فى المنشقين عليهم — ولكنهم لابد وأن يدعوا أن قوتهم مؤيدة ومعتمدة بقداسة خاصة باعتبارها نابعة من شىء أعظم من أنفسهم . ومن ثم فان ارادتهم لا يمكن أن تعبر عن مجرد ارادتهم ، وانما لابد أن تكون مشيئة لارادة أعلى . ان دم جهاز أعلى لابد أن يصب فى عروقهم ، وهم لا ينطقون عن الهوى ، وانما صوت أعظم وأقدر وأرفع هو الذى يتحدث من خلال أفواههم . لقد كانت الفاشية حزبا من الأحزاب يشد بعضه بعضا بالنظام والتحمس الطائفى ؛ وعندما أصبح الحزب دولة ، فان هذه الصفات العقلية ، التى تم نموها وتطويرها من قبل ، انتقلت الى الدولة بكل خصائصها .

وكثورة — خلقت الفاشية انفصاما مع الماضى ، اذ أعاد مذهب عبادة الدولة واشبع عاطفة الشخصية الذاتية التاريخية . وليس هذا من البراجماتية فى شىء — بل على النقيض — لأنه يشتق اعتماده الفلسفى من أعز أعداء البراجماتية — وانما هو الوجه التعسفى الاستبدادى من انجيل

=(1928), 290. This nation-worship, submission of the individual to the state, idealization of patriotism, etc., was, of course, a vigorous cult in France with Charles Maurras and L'Action française. But although this influence was considerable, it was not philosophical. For Maurras's nationalistic creed, cf. his Au Signe de flore, 1931, 256-7, 291-3. Maurras goes back to Renan for his creed of nationality.

العمل ، الذى بوساطته يمكن الاحتفاظ بفتوحات العنف وأنفالهـــا ، وتجميدها وتأويلها تأويلا اخلاقيا (٢١) .

على الرغم من أن ارنســـت ماتش كان من الســـابقين المبشرين بالبراجماتية ، وبينا نجد أن جورج سيميل وولهلم اوستوالد لقيـا من چيمس كل ترحاب وتحية كحليفين ، الا أن البراجماتية لم تستطع أن توطد قدمها الا بدرجة طفيفة في ألمانيا ، وكان ذلك بصفة رئيسية في النمسا · وحتي هؤلاء الفلاسفة الثلاثة السابق ذكرهم تقبلوها كتفسير لطريقة فى العلوم الطبيعية والاجتماعية لا كفلسفة ·

صحيح ان ماتش قدس حديثا ، وجعل أبا لمدرسة فلسفية جديدة فى فيينا · ولكن هذا الماتش الذى بعث من جديد هو ماتش الفيلســـوف الوضعى لا ماتش البراجماتى · ثم ان احلال علم اطعام وايواء الجنود فى الميدان محل الأخلاق والميتافيزيقيا ، كما يقترح أحدث حواريى ماتش ، أمر غريب جدا يجافى الى أبعد حد مزاج چيمس وكذلك مذهبه .

وفى سنة ١٩٠٨ ظهرت ترجمة ألمانية لكتاب « البراجماتية » بوساطة ولهلم جيروسالم (٢٢) الذى كان دافعه على ذلك أن يحيط بها علمـا جمهور فلسفى ــ غير مرتاب حتى ذلك الوقت . وكان المترجم قد سبق أن انتهى الى وجهة نظر مشابهة بلا ارتباط أو قيد ، وكان قد واصل التراســـل الودى مع چيمس منذ سنة ١٩٠٠ . وفى المقدمة التى صدر بها المترجم للكتاب أعلن تشبثه بالمدرسة البراجماتية ، فى حين عبر عن ايثاره لمزيد من الثقل والتوكيد على الظروف الاجتماعية للمعرفة .

---

(٢١) I may add that, so far as I can see, these pragmatistic and idealistic ideas have nothing to do with the cult of Mazzini, who believed that action should follow swiftly upon thought, because it is of the very nature of thought that it should illuminate action and of action that it should realize thought. This is in no sense opposed to the liberal tradition. It finds the justifiction of action in the ends which thought forecasts, and not in the action itself or in its subjective authority.

(٢٢) W.Jerusalem (1854-1923) was at this time teaching philosophy at the University of Vienna, where he was later made full professor.

اما البروفسور جوليوس جولدشتين (٢٢) ، الذى نشر فيما بعد مقالات يفسر بها البراجماتية ويدافع عنها ، فقـــد كتب الى چيمس رسائل حماسية عديدة أجاب عليها چيمس بالرد التالى :

« لقد كتب لى عنك شيلر من قبل يقول لى انك البراجماتى الوحيد الذى على قيد الحياة الآن فى ألمانيا . وآمل ألا تستمر هذه الحقيقة طويلا ، وانما تنجح فى تلقيح قومك بذوق لفلسفة أكثر تجريبية بحيث يسيغونها ، أو بالأحرى بتفور واستقباح لعناصر الاطلاقية التى ما زال كثير من الالمان يتركونها تزدهر وتروج فى وسط طريقة ــ لولا تلك العناصر ــ لكانت طريقة تفكير تجريبية جدا .

لقد وصلتنى اعترافات عديدة بتسلم كتابى الجديد ، ولكن واحدا منها فقط هو الذى يناظر رســالتك فى التحمس والعطف . ومن الجلى أن عقلك وعقلى قــدا من نفس النمط .. ان الالمان ــ كما تقول ، مسلمون بالواحدية ــ الواحدية فى أعماقهم مهما بدوا تجريبيين فى الظاهر . وتجريبيتى وتعـــددیتى فى الاعماق أيضا (٢٤) . وأى موجز للأثر والتطور الحديث للبراجماتية ينبغى أن يدخل فى حسابه ليس فقط الأشياء العديدة التى قد تعنيها البراجماتية ذاتها ، ولكن أيضا نهايات المطاف الفلسفية العديدة التى تفضى اليها بطريقة غير مباشرة » .

بيد أن الأهمية الفريدة لچيمس ، تكمن ، ليس فقط فى الحـــافز الابتدائى الذى دفع به الحركة ومضى بها الى غايتها ، ولكن أيضا فى حقيقة أنه تنبأ بكثير من الاتجاهات التى قد تمضى فيها الحركة وشد أزر العديد منها .

وفى اضيق وأدق معنى ، فقد كانت براجماتية چيمس وصفا للمعرفة غير المطردة المتنقلة بما فى ذلك دور الأفكار وكيفية اشارتها لموضوعاتهـــا وما يجعلها صحيحة . وكل هذه الأسئلة الثلاثة يجاب عنها اجابة عملية : فالفكرة وسيلة اداة تشير الى موضوعها بافتتاح سياق موصول من المناشط يفضى منها أو اليها ، والفكرة صحيحة بقدر وطالما تمكن العارف من بلوغ موضوعها بنجاح .

فاذا سلمنا بصحة مثل ذلك الوصف للمعرفة المتنقلة ، فما هى العاقبة الميتافيزيقية ؟

قد ينظر المرء الى الصفة العملية للمعرفة المتنقلة على انها مساوية للحط من قدرها . فاذا كانت المعرفة المتنقلة عملية فحسب ، فأولى

(٢٢) Professor of Philosophy at the University of Darmstadt.

(٢٤) W.J. to J. Goldstein, October 11, 1906 and August 6, 1907.

بالميتافيزيقى أن يبحث عن بصيرة نظرية أعمق أو انقى فى مكان آخر . هذا هو سبيل اللقانة الوحدانية والصوفية ، المتمثلتين فى برجسون . أو بعد أن يكتشف المرء أن المعرفة المتنقلة عملية ، فانه ينفذ الى الارادة أو الرغبة المنطوية عليها ، ويؤكد الأسبقية العامة للعمل على النظرية . وهذا هو سبيل مذهب الفاعلية ، المتمثل فى بابينى وشيلر وسوريل والمذهب التحديدى الكاثوليكى . أو ، بعد تقبل تفسير عملى للسبيل المتنقل ، فى وسع المرء أن يتخذ هذا السبيل نفسه كنموذج اصلى لكل النشاط ، ليس العلمى فقط ولكن أيضا الخلقى والجمالى . وهذه هى الوسيلة الوضعية لمدرسة ديوى .

على أن هذه القائمة من الابدال ليست كاملة ، وليست حائلة ولا مانعة لبعضها دون بعضها الآخر . ففى چيمس نفسه نجد الابدال الثلاثة موجودة ، بل فى الواقع من الأمر لقد كانت الخصوبة غير المحدودة لممكنات وامكانات البراجماتية هى التى حمدت البراجماتية لديه . ومع ذلك ، ففى حين أنه وضع يده فى يد بابينى وديوى ورحب بهما كحليفين فى سبيل نفس القضية ، الا أنه من الواضح جدا أنه كان يشعر بولاء أعمق لكتيبة الصوفيين واللقانيين . بيد أنها كانت ميتافيزيقية تأثر نظرى وبصيرة ، بدلا من اما فاعلية أو وضعية انبثقت من الجذور القديمة لتفكيره .

٣٥

التقاعد من مهنة التعليم

نشر كتاب البراجماتية فى سنة ١٩٠٧ . وكانت هذه السنة أيضا هي التى اعتزل فيها چيمس التعليم . ومنذ سنة ١٩٠٠ كان يبدو عليه « انه على وشك الانسحاب من المهنة » (١) . ولما ادرك چيمس انه لن يكون قادرا على استئناف وتجديد تعليمه فى الخريف التالى ، كتب الى مدير الجامعة اليوت بخصوص منحه اجازة دراسية يعتزل بعدها الخدمة . وهناك بدات سبع سنوات من المراسلات ، كان چيمس فى أثنائها يسعى الى الانسحاب على الدوام ، فى حين أن اليوت ، بأقصى اعتبـــار عاطفى لصحته ، وبأقصى اعتبار غيور لشهرة الجامعة ، كان يسعى الى ابقائه فى منصبه .

ولقد كان هذا المشروع المقترح للاستقالة وفكرة أن علاقاتهما القديمة على وشك الانفصام ، مناسبة اقتضت تبادل الرسائل التالية بين چيمس وزميله جورج هربرت بالمر :

بوكسفورد يوم عيد الميلاد (١٩٠٠)

« عزيزى چيمس ،

أفكارى تعود الى الوراء .. الى ذكرى السنوات الطويلة لعلاقتنا .. زهاء خمسة وعشرين عاما . أعتقد أنها لا تقل عن ربع قرن ــ وانى لاذكر أول مرة قدر لى أن أراك فيها وأنت تدخل عربة القطار قرب بلدة بيفرلى تصطحب كلبا أو كلبين . ولم أكن عندئذ أعرف اسمك ، ولكنى قدمت لك بعدها بوقت قليل . وبعـــد ذلك حدثت معركتى مع باون (٢) بشأن اقتراحك اعطاء مقرر عن سبنسر . وسرعان ما تم زواجك ، وانى لاذكر أن أول مرة اكتحلت عينى فيهـــا برؤية المسز چيمس الحبيبة ، يوم أن أقبلت للتهنئة بزفافكما ، وكانت جالســة على كرسى صغير واطىء أمام نافذة غرفكم بشارع هارفارد .

---

(١) W.J. to the author, January 2, 1900.

(٢) Francis Bowen, teacher of philosophy at Harvard from 1835-39 and from 1853-89.

تلك كانت الأيام التى اعتدت فيها أن تحضر محاضراتى عن لوك ، الأيام التى شجعتنى فيها على قراءة هومر ، الساعات الطويلة من الرفقة والزمالة واختلاف الرأى فى اجتماعات القسم ، المسافات التى كنا نمشيها دون سابق موعد أو تدبير ، والزيارات التى كنا نتبادلها فى بيوتنا . لقد بدأنا على طرفى نقيض .. بدأت أنت بالتشريح وبدأت انا باللاهوت . ولعل كلا منهما فى ذلك الوقت المبكر كان ضيق المجال والأفق . وانى لاعرف أننى لم اكن اثق بك ، وظننت إنك ينبغى أن تكرهنى . ولكن ما أروع ما نمت ثقتنا ومحبتنا واستمرت بلا توقف . لم يمنحنى أحد قط ، فى هارفارد ــ كل ذلك الكثير الذى منحتنى اياه ..

انه لحلم شائع وغراد أن نتاج الرجل المهنى ليس سوى التعبير المكتمل لحياته الخاصة .. طبعا هذا وهم غير معقول . فالمهنية لها تحتيماتها الخاصة بها التى كثيرا ما تمضى خارج نطاق العنصر الشخصى تماما . ولكن ، كما هو فى حالتك ، حيث يتحد الاثنان برحابة ووفرة ، وحيث يتبسط الرجل الكبير بلا عوج ولا أمت ــ الى الرجل المهنى الراسخ الوطيد ، فهنا ينبع السحر والفتنة والجلال ورجحان التأثير التى لا تتسنى أبدا للهاوى او الخبير الفنى فحسب . ان ما أسديته لحياتنا فى هارفارد عظيم جليل ، انه اسهام بأوفى نصيب من الأريحية ، التى سمت بها وعظمت شأنها وباركت حولها وأشاعت فيها الذكاء والحكمة فى تلك المرحلة من الانتقال ، التى لولا تأثير أمثالك لكان من الميسور أن تنزلق الى مغبة الفوضى . لقد خلعت عليها الجدية دون ادعاء أو دجل ، وأعطيتها العقل والبيان دون حذلقة ، ووهبتها شجاعة يومية دون فظاظة أو عنف . وبفضل رجال من أمثالك تحتل هارفارد اليوم مكانا رئيسيا فى تشكيل وصياغة المثل العليا لهذه الأمة . ان انسحابك من التعليم سيكون له وقع الأسى والحزن عند القوم الذين هم خارج الكلية ــ مثلنا سواء بسواء ــ نحن زملاءك الذين عملوا معك بداخلها .

ومع ذلك فلست أستطيع أن ألومك . فلا ريب عندى أنك فى الكتابة أقدر على ملاءمة عملك لقواك ، وانك بقدر معين من انفاق الطاقة ربما تستطيع أن تكون أكثر نفوذا وتأثيرا وفعالية مما تفعل عندما ترهق نفسك (من أمرها عسرا) فى قاعة الدرس . ولمدة عام وأنا لا أفكر فى عودتك ثانية الى العمل الكامل ، ولكنى كنت دائما أؤمل ألا تحرم الكلية من اعطاء مقرر دراسى واحد أو على الأقل حلقة دراسية ؛ وبذلك تظل عضوا رسميا فى هيئة التدريس عندنا ــ التى بوجودك فيها ــ تعد يقينا أعظم هيئة قدر لأية جامعة ناطقة بالانجليزية ــ أن تظفر بها فى الفلسفة . ولكن ، بلا شك ، ربما تقوم بعض الصعوبات فى تنفيذ تلك الخطة .. كلا أنا آسف اذ حسبت أنك ربما تكون على حق فى تقديم استقالتك .. ان سنوات الكتابة التى ستصبح الآن فى مقدورك ، ستضيف الى أعناقنا ديونا جديدة أخرى ندين بها لك ، وما أسعدنا بأن نظل مدينين لك على الدوام .. ولكن على الرغم من علمى بكل ما فى ذلك من خير ، فلا يسعنى الا أن أحزن أسفا على الأيام الخوالى السعيدة ، ونظام عملنا الذى كنت فيه واسطة العقد .. اننا لا نسمح لك بأن تخلى سبيلك من التعليم الا على شرط أن تضاعف عدد السنين التى تمنحها لصداقة كمبردج .

لك أعمق حبى ،

ج . هـ . بالمر »

روما أول فبراير سنة ١٩٠١

« عزيزى بالمر ،

ان رسالتك التى حررتها من بوكسفورد يوم عيد الميلاد كانت أسعد واشهى شىء تسلمته فى حياتى ، لأنها آتية من عين لم تعتد التدفق (على الأقل فى مسيلها الخارجى للدموع) . ومن لسان — مخلص — كلسانك لا ينطق الا بالصدق والحق ، وتتحدث عن الماضى بطريقة حعلته صورة محفوفة باطار مذهب ، وترصع شخصيى وتزينهـــا بشعارات الشرف ، كما لو كانت صورة على رسم تاريخى تحيطه بهالة الزمن ، وتنظر الى قلة تدريبى لمهنتى ، كما لو كان ذلك عملا من أعمال العبقرية فى خبطة من خبطاتها المختارة . ولكن رسالتكـيا عزيزى بالمر — فوق كل شىء نفحة من نفحات أريحيتك بكلماتها الصريحة الصادقة التى تنضح بالتقدير لشخصى كزميل يعتز به ، وتزخر بالود والحب والاعزاز الصادرة من صميم فؤادك . ومن رجل صاحب عقل مسنون كعقلك ، ولا يراعى فى الحق لومة لائم — مهما كان قول الحق مرا ، ومن انسان عرف بالصراحة المطلقة ، فان مثل هذهالعبارات ذات مغزى ودلالة واهمية بالغة بالنسبة لى أكثر مما تتصور أنت نفسك ، ورسالتك يقينا ستحتل أعـــز مكان يشكل أنضر وأزهى ملامح « المحفوظات » التى سأسلمها كتراث قيم لأولادى . ولكنى « لم أمت بعد » ، بل انى لأبعد ما أكون عن الموت، وما زال عندى أمل فى أن أكتب نعيك بيدى ، وثق أننى بعد رسالتك هذه سأجعلك « أجمل وآنق » نعى على الاطلاق . أعتقد أن اسر وابر شىء فينا جميعا معشر قسم الفلسفة ، اننـــا على الرغم من أن كلا منا له مزاجه الخاص الواضح الأكيد ، ولكل منا « أفكاره » الراسخة ، عمليا ونظريا ، والتى هى ثمرة جبلته وطبعه وخلقته التى ما لها من دافع ، نكن لبعضنا أعمق التقدير ، واننا نتميز بظاهرة التعاون المنسق فى غرس الحقيقة الموضوعية فى عقول طلابنا . وانها — على أية حال — لتحررية صادقة أصيلة ، وليست وثوقية ولا تعسفية مجمدة ذات مفاصل أكثر وأكثر لكى تعلق عليها حشود الآراء ووجهات النظر برمتها — معا وعلى الملا تزداد مرونتها تباعا كل عام — وأنا — كواحد منها — أكره أن أخلع من مثل هذا الجهاز الفلسفى الخصيب ما دام النهى ما زال يحتفظ بمقعد فى محف رأسى . ولذلك ، كمن يتشبث بفرصة يائسة ، كتبت بالأمس الى مونستربرج بالموافقة على اقتراحه بأن أدرس مقرر الفلسفة ٦ (٣) ، ولكنى فى نفس الوقت مدرك احتمال اعتلال صحتى وعدم تمكنى من الوفاء بالتزامى ، واثقا بأن اللجنة ستكتم الأمر اذا كانت مسألة البديل العرضى أعوص من أن يدبر لها حل . والحقيقة هى أننى الآن غارق الى أذنى فى مجرد اعداد مادة هذا المقرر ، ومع ذلك فهذا ايسر ما ينتظرنى من عمل . واذا كان هناك من يستحق عاما اجازة فهو (رويس) ، وان كانت فترة نصف عام ربما تكون من الأوفق . وما أخشاه هو أنه سيفسد جوهر نفسه — باتلاف حاسته المتحررة البسيطة مع العلاقات فى أعمق آمادها — فى هذا التعامل المستمر المطبق الذى لا يهدأ ولا يفتر مع التفاصيل الضرورية اللازمة للنشر العـــاجل . فهو

(٣) Hugo Münsterberg was at this time Chairman of the Department. Philosophy 6 was a course in "The Psychological Elements of the Religious Life."

لا يستطيع أن يبتعد عنها البعد الذاتي الذي يمكنه من أن يرى علاقاته نفسه مع الموضوع ، وسيفقد عقله مرونته . وانه لصاحب جهاز عقلي مدهش بشكله الحالي . وكذلك عقل مونستربرج أيضـــا : Il sue le talent ، ولكنى أعتقد أن بناءه كله فى كتابه العظيم هذا ، بناء صناعى مطلقا . ولعله لهذا السبب بالذات سيؤسس مدرسة مثل كانت . وعـــندئذ ســأصبح أنا خالدا مثل زيدليتز (٤) . وطبعـــا — على أنا — وأن يكن رديئا بما فيه الكفاية فى أحسن حالاته — الا أنه ما زال جيدا مثلما كان دائما بالقياس الى الرديء . انه الكم . الذى يفتقر الى الكثير ويترك الكثير بلا تحقيق . ولكنى سودت كمية كافية من الصفحات بمادة تملأ أكثر من عشر ساعات فى القراءة ، ولهذا فأنا مطمئن وآمن بخصوص أدنبره فى شهر مايو ، وان كنت فيما يتعلق بالكتاب ينبغى على أن اكتب ما لا يقل عن مائتين وخمسين صفحة أخرى من المخطوط . اننى بطيء بشكل فظيع . عندما أفعل أى شيء ، سواء أكنت أكتب أم أمشى ، فان مزاجى ينحرف وأصبح موعوكا وكالا . فاذا ما أخلدت الى الراحة والسكون ، اعتدل مزاجى وانتعشت . ولكنى على الاجمال متماسك ومحافظ على مركزى وأكثر ، وقلبى — سليم الآن — والفضل لهذه الحقن التى داومت على أخذها ، وهو فيما يبدو فى حالة طبيعية تماما . ولعل الباقى هو مسألة وقت ومزيد من الحقن .. وداعا يا عزيزى سالر العتيد . انك لا تدرى الى أى حد أثرت رسالتك فى نفسى .. انها لا تقدر بثمن ..

« و . چيمس »

وعلى الرغم من ذلك وعلى الرغم من استقالات أخرى لاحقة ، فعلية او من قبيل التهديد ، فان چيمس استأنف تعليمه فى ١٩٠١ — ١٩٠٢ ، واستمر فى الخدمة وان كان بجدول مخفف — زهاء ست سنوات . وفى أثناء النصف الأول من العام الدراسى ١٩٠٥ — ١٩٠٦ ساوره الشـــك بالنسبة لاستئناف تعليمه فى خريف ســـنة ١٩٠٦ . وتسجل مفكرته اليومية — لمدة ستة أسابيع التقلبات النهارية لعقله على النحو التالى :

٢٦ أكتوبر — « أستقيل » .
٢٨ أكتوبر — « أستقيل .... »
٤ نوفمبر — « هل أستقيل ؟ »
٧ نوفمبر — « أستقيل » .
٨ نوفمبر — « لا تستقل »
٩ نوفمبر — « استقيل » .

(٤) Münsterberg's "great book" was the Grundzüge der Psychologie, dedicated to James; Kant's Kritik der reinen Vernunft (1781) was dedicated to "Freiherrn von Zedlits, Sr. Excellenz, dem Königl. Staatsminister".

١٦ نوفمبر – « لا تستقل » ٠
٢٣ نوفمبر – « أستقيل »
٧ ديسمبر – « لا تستقل »
٩ ديسمبر – « أستمر فى التعليم هنا العام القادم »

وأخيرا وفى ربيع سنة ١٩٠٧ ، أرسل استقالته ثانية ، وفى هذه المرة قبلت الاستقالة نهائيا ولكن على مضض ٠

وعندما فرغ من أمر اعتزاله الخدمة وحسمه بشكل بات ، أحس چيمس احساسا عميقا بأن عبئا أزيح عن كاهله وشعر بالفرج بعد ضيق ؛ كان فرحا بانهاء خدمته مثلما كان فرحا باستهلالها ٠ وفى رسالة بعث بها الى صديقه البروفسور ثيودور فلورنوى كتب فى شهر مارس ما يلى:

« اشترك لتهانيك بمناسبة اعتزالى الخدمة . انها مصدر سعادة كبيرة لى . للأستاذ وظيفتان :

١ – أن يكون متفغها فى العلم ويوزع المعلومات والمعارف .

٢ – أن ينقل الحقيقة .

والوظيفة الأولى هى الوظيفة الضرورية ؛ من الوجهة الرسمية . وأما الثانية فهى الوظيفه الوحيدة التى تهمنى . والى الآن – كنت أشعر دائما بأننى مثل الدجال كأستاذ؛ لأننى ضعيف فى المطلب الأول . أما الآن فأستطيع أن أعيش للوظيفة الثانية بضمير حر مستريح » (٥) .

وفى ١٨ مايو كتب الى شيلر يقول :

« لمدة خمسة وثلاثين عاما عانيت من آلام مقتضيات كونى (أستاذا) .. من زعم وواجب .. ملاقاة الحاجات العقلية والصعوبات للأشخاص الآخرين – حاجات ما كان فى وسعى أن أتصورها ، وصعوبات ما كان فى وسعى أن أفهمها .. والآن وقد أزحت عن كاهلى اللولب الأستاذى ، فان الاحساس بالحرية الذى يغمرنى – احساس مفاجىء ومدهش بقدر ما هو رائع ونفيس .. كل صباح أستيقظ وينغبنى هذا الاحساس فأقول لنفسى : صحيح .. هل أنا متحرر من قيود ملاءمة نفسى لذلك الحشد الغريب من الانسانية المعارضه المقاومة . ومن التفكير تحت ضغط المقاومة ، ومن تعديل خطوى ووقعى ونغمى لتلائم الآخرين فى كل خطوة .. ؟ مرحى .. مرحى . يا للنصر المؤزر . لا اكاد أصدق . أنا وحدى مع الحقيقة ومع الله . يا له من مستقبل . ويا له من يسر » .

ثمة شىء فى أعماق وليام چيمس كان يناوىء الحياة الدراسية برمتها سواء أكانت تعليما أم بحثا أم تأليف كتب ٠ وهذا الشىء كان ينبع من

---

(٥) March 26, 1907; L.W.J., II, 268.

تأكيده وتطنيبه لنواحى الحياة غير القابلة للبلاغ أو على الأقل غير القابلة للحد أو التعريف أو الوصف · ومن ثم كان يعطف على تحامل الفنان ضد أولئك الذين يتحدثون أو يكتبون عن الفن · « ولكنك لا تستطيع أن تبعد العلم عن أى شىء فى هذه الأزمنة القبيحة » ، هذا ما كتبه من فلورنسا فى سنة ١٨٩٢ :

« لقد مات الحب ، أو على أية حال يبدو ضعيفا وضحلا حيثما يضرب العلم حدوده. انى سعيد لأننى لكونى عاجزا عن بلوغ مرتبة اللوذعية العلمية فى أى فرع ، ما زلت أستطيع أن أجد بعض اللذة فى هذه الصور على سبيل الحب .. ما أفظع صناعة الأستاذ، يزجر .. ليتكلم ويتكلم ويتكلم . لقد رأيت فنانين تمتقع وجوههم ويصابون بالغثيان بينما كنت أتحدث اليهم دون أن أكون قادرا على التوقف عن الكلام ... ما أفظع الكون اذا كان من الممكن نقل كل شىء الى كلمات ، كلمات ، كلمات » ! (٦) .

على أن فن چيمس الخاص للتعليم نشأ ؛ ليس فقط من صفات مزاجه وعبقريته ، ولكن أيضا من هدف رصين مقصود — كان واعيا به منذ وقت يرجع الى سنة ١٨٧٦ عندما قال « ان الدراسة الفلسفية تعنى عادة رؤية البديل دائما ، وعدم التسليم جدلا بالعادى المألوف ، وجعل التقليدى والدارج والاصطلاحى — مرنا وسيالا ثانية ، وتخيل حالات غريبة من العقل » ، ثم أضاف الى ذلك قوله « أيما مذاهب يتلقـــاها الطلاب من معلميهم ، لا جدوى منها ولا أثر ما لم يغنموا منهم الاتجاه العقلى الفلسفى الحى ، والنظرة الشخصية المستقلة الى وقائع ومعلومات وتجارب الحياة، والشغف بتنسيقها وتوفيقها »(٧) .

كان ذلك — بكل وضوح — ديدن چيمس الشخصى كمعلم ، ولقــد تبعه وسوغه عمليا — على السواء · كما أنه أيضا أبدى عيوبه المكملة : « دعونى أنصحكم فى تعليمكم بأن تكونوا منهجيين ما استطعتم الى ذلك سبيلا » ، ذلك ما كتبه فى سنة ١٩٠٠ لأحد طلابه السابقين : « دعهم يروا مشروع الغابة وكذلك الشجرة المفردة · لقد اتضح لى أن خروجيتى على الطريقة — التى لا برء منها — وقفت دائما فى طريقى حجر عثرة ··· فى غاية التشتت والاختلال والتحريم »(٨) .

(٦) To Grace Norton, December 28, 1892; L.W.J., I, 337-8.

(٧) "The Teaching of Philosophy in Our Colleges," Nation; XXIII (1876,) 178.

(٨) To the author, January 5, 1910.

وما كان چيمس بمنهجى ، وفى نصحه للاخرين بأن يكونوا منهجيين ، فقد كان فى الواقع ينصحهم بألا يكونوا چيمس ــ وهى نصيحة تقبلوها ــ كرها . بيد أن التلقائية تأتى فى ومضات كالبرق ، وبين الومضات من المرجع أن تكون هناك فترات من الظلمه والعمه . ولقد كانت هناك لحظات عقيمة ، بل ساعات عقيمة ، فى فصول چيمس . لقد كانت هناك أوقات يطوف فيها على غير هدى ــ ما فى ذلك ريب . ولكن طلابه كانوا يتذكرون ومضاته ، فى الوقت الذى كانت تجليات معلميهم الآخرين ــ الأكثر ثباتا واستمرارا وتراضيا قد انمحت وزالت من عقولهم ــ منذ وقت طويل .

كان چيمس على وعى بالصورة الكاذبه للمحاضر . ولقد كتب الى البروفسور الكساندر فوربز ــ الذى اقترح احلال « نظام دراسة الحالات » محل المحاضرات فى مدرسة الطب ــ يقول :

« أعتقد انك على صواب تماما ، ولكن استاذك الجهيد لابد أن يثور على ذلك . فهو يؤثر جدا ان يجلس ويستمع الى صوته الجميل ، على أن يوجه ويرشد عقول طلابه المتعثرة . ولقد خبرت ذلك بنفسى . فاذا كنت تعرف شيئا ولديك قليل من التدريب ، فليس ثمة ما هو أهون من أن تسمع نفسك تتحدث ، فى حين أن توجيه العقول المتعثرة للطلاب سرعان ما يصبح أمرا لا يطاق » (٩) .

ولكن ، اذا كان التعليم الذى هو مشبع ذاتيا للمعلم نفسه ، من الممكن ان يكون عديم الجدوى ، فالعكس ايضا صحيح . وفى حالة چيمس فان التعليم الذى كان يشعر أنه غير فعال ، كان غالبا فعالا فى الواقع من الأمر ، بسبب الصراحة والصفاء والنقاء والحيوية الشخصية التى كان يضفيها على محنه ومعضلاته ، بل على ضجره وملله .

وحيث أنه لم تكن هناك طريقة تقف بين چيمس وطلابه ، فان تعليمه كان بالضرورة علاقة شخصية متشربة بالصفات الشخصية . لقد جعلته روح دعابته ، ومبالغاته العابثة ، وصراحته ، وفوق كل شىء سماحته ومروءته وتآخيه ، محبوبا من طلابه مثلما كان محبوبا من أصدقائه .

كتب هنرى چيمس مرة عن أخيه وليام قائلا « ان تنوعات تطبيقه لم تذهب سدى بالنسبة له تماما مثلما كانت تنوعات غموضى وابهامى بالنسبة لى ــ سواء بسواء » (١٠) .

---

(٩) Professor Alexander Forbes, "Talk with Professor James", April 1, 1909.

(١٠) N.S.B., 444.

وكان هنرى چيمس يقصد بهذا الاشارة لفترة شباب واعداد حياة وليام چيمس ، ولكن هذا القول من الممكن أن ينسحب بنفس الصحة على الفترات اللاحقة من حياة چيمس ، عندما خلفت المهنة التربيـــة ، او بالأخرى عندما اتخذت التربية شكل مهنة .

ومن السهل التنويه بحقيقة أن چيمس كان مرهقا بواجباته الأستاذية، ولكن من الخطر أن يوحى ذلك بأنه كان من الممكن أن يكون أقل ارهاقا بدونها . فالرجل الشديد القابلية للتعب ، يتعب من أى شىء يفعله ، وكذلك من اى شىء لا يفعله . كان التعليم يتعب چيمس ، ولـــكن الـــكتابة أيضـــا كانت تتعبه ، وكـــذلك القراءة ، والســـفر ، والمخالطة الاجتماعيـــة ، بل حتى الترفيـــه والترويح ، لقـــد كان — بغريزته — مبذرا لطاقته بحيث ان اثر المذخور المتراكم منها ، كان لابد أن يدفعه دفعا الى مزيد من التهور فى الانفاق . ثم أنه أيضا كان يعانى على فترات متقطعة من تلك الأسقام المبهمة التى ندرجها — جهلا منا — معا فى قائمة واحدة كأمراض عصبية وعقلية . فليس ثمة أقل سبب — بقدر ما فى وسعى أن أرى — يحملنا على الاعتقاد بأن حياته الأستاذية كانت فى هذا المجال غير مواتية او باعثة على الاكتئاب . صحيح انها انهكته وأرهقته من أمره عسرا ، وطبعا ملأته غما وهما ، كما فعل كل شىء آخر بدوره وفى حينه . ولكنها فى نفس الوقت هيأت له أنواعا مختلفة من المناشط ، وأتاحت له فرصة دائمة لتغيير مسرح حياته ، فى حين أنها نضمنت واجبات ثابتة استمد منها احساسا بالاستقرار وشعورا بقيمته وجدواه .

لقد جلبت له مهنته علاقات انسانية متنوعة سارة دارة ، وتيـــارا موصولا من المستمعين الذين يكنون له كل اجلال وتقدير . وفوق كل شىء، فقد ضمنت نموه المستمر فى الكفاءة والشهرة . وبسبب نجاحه المطرد ككاتب ومعلم ، فقد نجا من براثن الاحساس بالتفاهة والعقم ، وتمتع بالاحساس بالايمان بعبقريته ورسالته فى الحياة .

ومن نافلة القول ، أن تقاعد چيمس من مهنة التعليم بهارڤارد لم يصاحبه اى توقف من جانبه عن المحاضرات والكتابة . فلقد ألقى محاضرات هيبرت — التى نشرت تحت عنوان « كون تعددى » — فى كلية مانشستر بأكســـفورد فى شهر مايو (٢ — ٢٦) سنة ١٩٠٨ . « وكان جمهور المستمعين كبيرا بدرجة مدهشة ... مئات عديدة » « وفى غاية الانتباه والاصغاء » . وكان قد تلقى الدعوة لالقاء تلك المحـــاضرات فى خريف

العام السابق وقبل الدعوة بعد كثير من التردد والاحجام . وبدأت كتابة المحاضرات فى اليوم السابع من ديسمبر ، ولم تكن قد تمت بعد ، عندما ابحر چيمس الى أوروبا فى اليوم الحادى والعشرين من ابريل . على ان احجامه كان راجعا — الى حد كبير — الى حالته الصحية غير المطمئنة ، وبعد أن ارتبط بالالتزام كان يخشى ألا يستطيع القيام بها والوفاء بعهده . ثم انه كان أيضا نفورا « من الانتكاس الى الأسلوب الشـــائع الجماهيرى » « فى اللحظة التى ظن أنه ودعه الى غير رجعة » . وتبدو قوة ذلك النفور فى رسالة بعث بها الى شيلر ، حررها فى شهر يناير (١١) :

« لقد قبلت الدعوة لأنى خجلت من رفض مناواة استاذية بهذه الأهمية ، ولكنى كنت اوثر الا تأتينى هذه الدعوة أصلا . اننى فى الواقع من الأمر أكره أن أحاضر ، وهــذه المهنة تحكم على بأن انشر كتابا آخر يتعين على أن أكتبه بأسلوب مزخرف ومحبب لدى الجمهور ، فى الوقت الذى استقر فيه أمرى على كتابة شىء بأسلوب اكثر علمية بحتا ، أى مختصر جامع جاف وغــير شخصى . لقد جلب على أسلوبى المتحرر السهل الأنيس المنقاد فى كتاب « البراجماتية » عددا كبيرا جدا من الاعــداء فى الدوائر الأكاديمية والمتعالة ، بحيث اننى أكره المضى فى زيادة عددهم ، واريد أن أصبح أعسر لا أيسر ، واكثر احكاما لا ارخاء . ذلك أن المحاضرات لابد أن تعد للجماهير ، فاذا ما تم اعدادها ، فليست عندى لا القوة لاعادة كتابتها من جديد ، ولا جحود الذات لنسخها وابطالها » .

وكان عنوان « الوضع الراهن فى الفلسفة » الذى استعمل كعنوان ثانوى للكتاب ، هو العنوان الأصلى للمحاضرات . وكان غرضــه الرئيسى هو عرض بديل عن المثالية الواحدية ، ومن ثم يجمد المعارضة . ووجد لذة فى فعل ذلك فى أكسفورد — قلب معقل المثالية الواحدية . ولكن على الرغم من أن چيمس « هدد يافوخ المطلق » وفاه بالوعيد القامع والويل والثبور ضد ذلك الكيان الماجد « من حماة الاكليروس » (١٢) ، الا أن مناجزته كانت حربا تلعابية — كبرا — تنطق بفيض قوة العارضة والزكن والخيال ، لا بنية سفك الدماء .

وكان أئمة المثالية الواحدية — الذين شرفهم كخصومه الأساسيين — جميعا أصدقاء قدامى سبق أن نازلهم وناجزهم فى حلبة الصراع والجدل من قبل ، وتعلم الكثير منهم : كان فيهم رويس ، وبرادلى ، وهرمان لوتزى

---

(١١) January 4, 1908. The phrases quoted in the first paragraph are also from letters to Schiller - of May 15 and 24, 1908.

(١٢) W.J. to H.J.[2] April 29, 1908; L.W.J., II, 303.

الذى اعتبره چيمس فى العشار الثامن « اعمق فيلسوف » (١٣) فى زمانه . ولقد اتهمهم جميعا بنفس التهمة العامة ـ ألا وهى أنهم يتقدمون للفلسفة بمعضلة زائفة ـ تحيرها بين الوحدة المطلقة وبين الانبتات المطلق ·

وعلى الرغم من أن چيمس كان معارضا للواحدية المتطرفة بشـــكل لا بلين ، وخصوصا للبراهين والحجج المقدمة لتأييدها ، الا أنه لم يكن أقل معارضة لمذهب من التعددية والانبتاتية المجردتين · كان يؤمن بأن العالم زاخر بالتآلف والعلاقات الوثيقة ـ حقا ، وأن أكثر مجلى يميز الخبرة هو تفسير شىء بشىء آخر · وهذا يوضح ألحانه الودية حيـــال هيجل ـ غير المنبع الاصلى للمذهب الذى نبذه وجحده فى كل من رويس وبرادلى ولوتزى · كان يكن دائما لهيجل نوعا من الغرام الخفى ، ولكنه كان يصر دائما على الاجتراء والتجاسر عليه · كان يحبه وهو مجرد من كل زى ـ عاريا من شعاراته المنطقية . كان يعتقد ان هناك بصـيرة هيجلية أنيسة : حقيقة أن الأشياء يشوب بعضها بعضا ، ومن ثم تصبح شيئا آخر غير نفسها ·

على أن المطلق الهيجلى كان فيه ميزة أخرى يحمد عليها ـ آلا وهى .. الشعور الذى يمنحه لمعتنقيه بأن « كل شىء فى القرار ـ حسن وخير مع الكون » والاحساس الذى يتيح لهم التمتع « باجازات خلقية » · بيد أن هذه الميزة ـ فى نظر چيمس ، يقابلها فى الكفة الأخرى فى الميزان ثقل يفوقها فى الوزن وهو مشكلة الشر ـ التى جابهت الهيجلية بشكل ضاعف من جرمها بشدة (١٤) .

ثمة ارتباطان بين ميتافيزيقية « كون تعددية » ، و « البراجماتية » التى سبقته : أولا . الأولى تطبيق للثانية ، فالطريقة البراجماتية والمعيار البراجماتى للحقيقة يطبقان مرارا وتكرارا على البرهنة على التعددية وعلى دحض الواحدية · وثانيا ، الثانية تطبيق للأولى بمعنى أن التفســـير البراجماتى للمعرفة يهيىء حالة خاصة للميتافيزيقيا التعددية ·

ولقد كتبت مقدمة « معنى الحقيقة » فى أغسطس سنة ١٩٠٩ بعد ما يزيد على عام بعد القاء محـاضرات هيبرت . وفى هـذه المقدمة سوغ

---

(١٣) Student's notes in Philos. 5, 1884-5, by R.W. Black.

(١٤) P.U., 114, 116. Cf. the Preface to M.T. viii-x, where James withdraws this last concession to monism.

چيمس تجميع مقالاته الجدلية عن البراجماتية بقوله انه يعتبر قبول التفسير البراجماتى للحقيقة بمثابة ازالة العائقين من وجه تلك « التجريبية الراديكالية » التى كان مهتما بها بصفة أولية . فالبراجماتية لا تهيىء فحسب مجرد طريقة يمكن استخدامها فى الميتافيزيقيا ـ وانما تمد بميتافيزيقية للحق تتناغم مع تلك الميتافيزيقيا العامة التى يدافع عنها چيمس ، عن طريق احضار سبيل المعرفة برمته فى نطاق مجال الخبرة .

وجدير بالذكر انه فى سنة ١٩٠٤ ، عندما كان چيمس يحمل ويلخص ميتافيزيقيته ، تحدث عنها على اعتبار أنها تتكون من أربعة مذاهب : التعددية ، التجريبية الراديكالية ، الصدفية ، مبحث الألوهية . فكونه التعددى A Pluralistic Universe ينصب اهتمامه بصفة أولية على الأول والثانى من هذه المذاهب ، وان كان الرابع قد أعيد توكيده ثانية . وأما الثالث فيشكل أبرز ملامح المؤلف الأخير باسم « بعض مشكلات الفلسفة » الذى انهمك فيه چيمس قبيل موته .

والتعددية ، كما نعرف ، تكاد تكون معاصرة لنضج چيمس الفلسفى . وتكمن جذورها الشخصية فى حبه للتنوع والتعدد والتغير ، وجذورها الأخلاقية فى ابائه وبغضه للتصالح بين الخير والشر ، أو للحط من شأن الفردى الذاتى ضد الكونى والعالمى ، وأما جذورها الفلسفية فتكمن فى تجريبيته الأصيلة . ولقد أدت حوافز النوع الأول الى تمثيله الباهر الرائع لعالم بلا قيود ولا سدود ولا حواجز ، عالم غير مدمث ، بلا أناقة ولا يمكن التنبؤ به ـ عالم ينسل من خلال كل وعاء مثالى ويقاوم بصمة كل قالب منطقى . وأفضت حواجز النوع الثانى الى اتجاه تعددية أخلاقية أو ذرية ـ « جمهورية من الوعييات شبه مفصولة » ، باله متناه ، تحله حدوده ، وتبرئه علاقاته الخارجية من مسئولية الشر .

أما الحافز الثالث ، فقد كان الحافز الذى ساد « الكون التعددى » . ففى العالم ، كما هو معطى فى الخبرة ، فان الارتباطات بين الأشياء ـ ارتباطات فى الواقع ـ فعلا بدلا من أن تكون ضرورية أو بنيية . فثمة انطلاق و « لعب حر » لأجزاء العالم مع بعضها ، فهى « تتكىء » بعضها على بعض ، وتوجد مع بعضها ، ولكن دون فقدان لشخصيتها الذاتية . فالأشياء حقيقة ، **عديديا** ، فى « شكلها الكل واحدى » أكثر مما اذا أخذت معا فى « شكلها الكل جمعى » . وكل شىء فى العالم له بيئه حقيقية ، أى

علاقة بشيء يختلف ـ حقيقيا ـ عن الشيء نفسه ، يضطر الى ملاقاته وعمل حسابه دون أى نوع من الاشتراك السابق (فى الجريمة) (١٥) .

وعلى هذا فان التعددية فى هذا المعنى لا يمكن تمييزها عن « التجريبية الراديكالية » التى تشكل ، من ثم ، الموضوع الرئيسى للكتاب . والتجريبية الراديكالية تتألف بالضرورة من تحويل ـ الى حاجات وعائدات الميتافيزيقيا ـ ذلك « التيار من الوعى » الذى دبر فى الأصل لعلم النفس . وكان من الضرورى اجراء بعض التعديلات ، وكان من المشكوك فيه لمدة طويلة امكان اجراء تلك التعديلات . واذا بكتاب « الكون التعددى » يعلن أن الشك قد تبدد . والنتيجة هى اسكات تلك النوبات الحادة من تأنيب وتبكيت ضميره الفكرى ، التى ـ حتى ذلك الوقت ـ حالت دون اتخاذ خطوة دفعته اليها دفعا حميته التأملية ـ ألا وهى اتخاذ السلم التصاعدى الفشنرى للأرواح (١٦) .

وكان هناك بالنسبة لچيمس ـ مثلما كان فى الحقيقة ـ فشنران . فعندما كان چيمس يؤلف كتابه علم النفس ، كان كتاب فشنر (علم النفس الجسمى) Psychophysik مرجعا معترفا به من قبل يحتل مكانة كلاسيكية فى علم النفس التجريبى الحديث . ولقد استقى منه چيمس كثيرا من الايعازات والالماعات المتعلقة بالخيال والتصور والرنو والانتباه والتمييز والادراك الحسى . ولكن فيما يتعلق بالمذهب الأساسى للكتاب فقد كان چيمس على خلاف عميق معه . لقد كان فشنر « رجلا عظيم المعرفة والحذق العقلى » ولكن بالنسبة للقانون « النفس جسمى » العظيم الذى بنيت عليه شهرته كعالم نفسى بصفة رئيسية ، فقد كان « نزوة مرضية » من قبل « الرجل العجوز العزيز » أوحت بمؤلف مفزع جداً لدرجة أن چيمس رفض .. حتى أن يدخله فى حاشية أو تعليقة يذيل بها صفحة من صفحاته (١٧) .

أما فشنر الثانى فقد كان فشنر الميتافيزيقى الذى تصور الكون كسلسلة من الأرواح المتراكبة المتداخلة بعضها فى بعض ـ على معراج ـ

---

(١٥) P.U., 34, 321-3, 358-9.

(١٦) G.T. Fechner, Cf. above, 181.

(١٧) Psychology, I, 534-49.

من الله خلال الملأ الأسفل الى الانسان ، ومن الانسان الى الحالات النفسانية التى تقع أسفل مدخل أو عتبة الشعور . وأوهج هذا التأمل الجرىء خيال چيمس وأثاره ، وفى نفس الوقت أرضى حافزين فى تفكيره: فقد كان دائما واقعا تحت اغراء وجهة النظر النفسانية الشاملة للطبيعة المادية ، ثم ان تفكيره الدينى مضى برسوخ وثبات فى اتجاه الفرض القائل بوعى قدسى (فوق الانسان) .

ولقد كتب الى أصدقائه فى سنة ١٩٠٧ ممتدحا كتاب فشنر Zend-Avesta فقال « كتاب مدهش بقلم عبقرية مدهشة » (١٨) ، ثم كرس فصلا كاملا من كتاب « كون تعددى » لعرض تعاطفى ودى لمذهبه .

ولكن الصعوبة القديمة التى افضت بچيمس الى نبذ الترابطية طبقت هنا أيضا : فمجال الوعى ليس مجرد حشد — على الجملة من أجزاء تنفصل وتمرع ، ولكنه تيار مستمر دافق ، وكل لحظة من الوعى هى كل فريد فذ . هذا ، فى حين أن ميتافيزيقية فشنر كانت ترتكز من الألف الى الياء على تنظيم هرمى للوعى ، سلسلة من المستويات تتألف فيها وحدة الأعلى من تعددية الأسفل .

فى كتاب « كون تعددى » يصف چيمس رفضه السابق «لمزج الوعى»، والتغير التدريجى الذى طرأ على عقله . وفى مذهبه الخاص « بالخبرة الصرف » فان چيمس كان على سبيل الجزم — ملتزما بوجهة النظر القائلة بأن الواقع ومجال الوعى شىء واحد . وهذا يتضمن أن أفساحا من المجال من الممكن أن تكون مشتركة بين عقلين أو أكثر . بمعنى أنها بعبارة أخرى من الممكن أن تكون أجزاء متشابهه من كليات واعية مختلفة . وكان من الواضح أن شيئا لابد أن تخف حدته ، اما الميتافيزيقيا الجديدة للخبرة أو الوساوس السيكولوجية القديمة . وكانت هذه هى الأزمة التى أدت الى بزوغ الوثيقة الهائلة الآخاذة التى سبقت الاشارة اليها ، والتى تمتد فى شكل مذكرات يومية متغيرة — من ١٩٠٥ الى ١٩٠٨ — من لحظة تبنيه الحاسم لموقف التجريبية الراديكالية الى وقت كتابته لمحاضرات هيبرت. وهذه هى الصعوبة ، ويظهر أنها هذه الوثيقة ، التى يشير اليها چيمس فى كتابه « كون تعددى » عندما يقول « لقد صارعت هذه المشكلة لسنوات،

---

(١٨) To Th. Flournoy, January 2, 1908; L.W.J., II, 300.

سودت فيها مئات من الصفحات ، مع تفاسير وشروح ومذكرات ومناقشات مع نفسي حول المشكلة »(١٩) .

بيد أنه وجد حله ، على طريقته المعهودة فيه الخاصة به ، في فحص واستقصاء أوثق للخبرة ، وفي نفس البصيرة التي قدم عنها تقريرا في سنة ١٨٨٤ في مقاله الشهير بعنوان : « عن بعض محذوفات علم النفس الاستبطاني » . فالوحدات العديدة للخبرة لها كلا اختلافها وتشابهها ، ويمكن ادراكها وتصورها تحت أي من الوجهين . فهي مختلفة ، اذا أخذت ككليات ، ولكنها تتداخل وتتراكب وتتغلغل بعضها في بعض . « ثمة انتضاح للأجزاء المتاخمة الملاصقة للخبرة الحية » (٢٠) . والعالم مسرح لتطور موصول وانتقال دائم ، وأجزاؤه ـ بدلا من مجرد تتابعها وراء بعضها ، ترث بعضها البعض الآخر وتدخل وتقدم بعضها البعض الآخر . ولا ينقضي حادث ويلفظ أنفاسه حتى يكون غيره قد بدأ فعلا بحيث انه يوجد دائما منطقة تمرج بين الفجر والسحر يفضي خلالها الواحد الى الآخر . ولكن في حين أن كل موضوع يلتحم من ثم في نسيج الواقع ، الا أن خيوطة لا تمتد لا الى مسافة محدودة ، بحيث أنها لا ترتبط الا بطريقة غير مباشرة بالمناطق الأبعد .

وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب « كون تعددي » الا أنه قصد به توكيد كلا التعدد والوحدة . فاذا كان چيمس قد رغب في تحاشي الصعوبات النظرية للواحدية ، فانه لم يكن أقل رغبة في تحاشي الصعوبات النظرية للذرية ، والثنائية أو أية وجهة نظر أخرى تستبعد فيها الوحدة مقدما . كان يبحث عن وجهة نظر تجيز الوحدة ـ بقدر ما تتطلب المقتضيات النظرية ، أو بقدر ما يمكن للوقائع أن تسفر عنه ، أو بقدر ما يشتهي الشعور الديني . ومن ثم ، فبينا لا يوجد « تضمين مشترك عام أو تكامل لكل الأشياء المتداخلة » توجد وحدة من نوع « التسلسل الاحداثي ، من الاستمرار ، من التتاخم أو التحلق » (٢١) . فالكون ليس كتلة أو كائنا حيا ، ولكنه بحر صالح للملاحة في كل أبعاده وأعماقه ـ جيرة كبيرة تحتضن جيرات أقل ، ولوجه عام وشامل والتآلف الوثيق فيه يكون بنسبة القرابة والتقارب .

(١٩) P.U., 207-8. See above, 279.

(٢٠) Mind, IX (1884).

(٢١) P.U., 325.

هذه هى صورة الوجود المحسوس . بيد ان هناك صورة اخرى عرف چيمس جيدا كيف يرسمها ، الا وهى صورة ـ عالم مختـــار « خارج من اعماق مجرى الزمان » (٢٢) . وهذا الحافز للاختيار هو احد الحوافز الارومية فى تفكير چيمس . فلقد ساد مفهومه للعقل وتفسيره للمفاهيم ونظريته البراجماتية للمعرفة الاستطرادية . وكون هذا الحافز كان ينبغى جعله تبيعا فى هذا العمل الأخير من مؤلفات چيمس ، يزودنا ببينة قاطعة على ان الميتافيزيقيا كانت مركز اهتمامه الفلسفى الرئيسى ، وأن التجريبية كانت عقيدته الفلسفية الرئيسية ـ تجريبية جديدة ـ نرسم فيها الفلسفة الواقع او توحى به ـ بالقياس الى أقرب ما يمكن من السريان المرهف الحس للخبرة التى لا يعاد بناؤها .

وثمة عنصر آخر من فلسفة چيمس اغفل الى حد كبير فى هذا المؤلف، وهو واقعيته . فليس ثمة سبب لافتراض أنه هجر عقيدة أكدها مرارا وتكرارا ودافع عنها دفاعا قويا ضد ناقدى البراجماتية فى نفس الوقت بالذات الذى كان يكتب فيه كتابه « كون تعددى » .

ولكن فى غياب اية اعادة فحص للمسألة ، فان موقف چيمس ظل غير مؤكد ومترددا بالنسبة لنقطة ميتافيزيقية فى الدرجـــة الأولى من الاهمية . هل لابد للواقع من أن يدرك ويحس او يستشعر لكى يكون ؟

ولما كان چيمس يرفض التحديد العقائدى للوجود القائم على الاعتقاد بأن الشخص المؤمن بهذا الاعتقاد هو وجوه الموجود ، وأن الناس الآخرين لا يوجدون الا كأفكار فقط فى عقله ، ولما كان چيمس يرفض هذا التحديد للوجود أو حتى التحديد الانسى للوجود ، فانه مثله كما لو كان ممتدا وراء أفق الوعى الانسانى ـ ممكن الولوج ، ولكنه خارج المجال أو المدى أو المرمى . مم اذن يتألف هذا الوجود المستقبلى من حيث البعد ؟

وفى نبذه للمطلق ، حذف چيمس بديلا واحدا ـ الا وهو البديل القائل بأن كل الوجود يسكن فى داخل خبرة عقل كونى شامل أعد خاصة لهذا الغرض ، ولكن يبقى هنالك ثلاثة أبدال . فالوجود الركازى (المتخلف) قد يحتوى **امكان** الخبرة ، وهى وجهة نظر من الصعب التوفيق بينها وبين اقرار چيمس المتكرر بأن أى امكان لابد دائما أن يؤول بالقياس الى الفعلية (التى هى فى مقابل الامكان) . أو قد يتألف الوجود الركازى من خبرة

(٢٢) Ibid., 235.

عقول دون / بشرية ، من كل شيء ليس للانسان أو ملأ أعلى يتصور على أنه « لذاته » . وهذا هو المذهب الكل نفساني ، الذى كان چيمس على وشك قبوله مرارا وتكرارا ، والذى امتدحه باستمرار ، ولكنه لم يسلم به أبدا صراحة دون تحفظ .

ثم يبقى بعد ذلك بديل واحد أخير فقط ، هو الذى يميز الخبرة مما يختبر أو يمارس . وفى هذه الحالة فان الوجود اذن يتطابق مع محتوى الخبرة أى يصاحبها (فى الوجود) ولكنه يكون مستقلا عن أى فعل للممارسة من جانب العقل . وهذا البديل هو أكثرها تناغما مع نظرية چيمس بأن العقل نمط خاص غريب من العلاقة بين الحدود التى هى فى ذاتها لا هى مادية ولا هى عقلية (٢٣) . و « كون تعددى » لا يؤكد بوضوح هذا البديل ، بل هو يعرضه للهوان ويحط من شأنه عن طريق مطابقة الوصل الوعيى للخبرة بالوعى ـ كبيرا وصغيرا .

ولقد كان فى هذا الكتاب بالذات « كون تعددى » ، حيث تحدث چيمس بكل صراحة ووضوح عن الاتحاد بين التجريبية والدين ، على اعتبار ان ذلك يفتح عهدا جديدا لكلا الدين والفلسفة على السواء . والميزة التى يحققها هذا الاتحاد للدين تكمن فى تهيئته لصلة وثيقة بين الانسان والله لا تتحامل لا على حرية الانسان ولا على سماحة الله . ويمكن وصفها بأنها أحدية تعددية ، تعددية لأن ... كما سبق أن عبر چيمس من قبل فى مؤلف سابق « الله ... ليس ممارسا كليا محيطا مطلقا ، وانما هو فقط الممارس لأوسع وأعم وأشمل فترة وعيية واقعية » اذ انه مثل الكائنات المتناهية الأخرى بيئة خارجية ليس مسئولا عنها (٢٤) ، وأحدية لأن الله ، بقدر ما تمتد حدوده « هو الروح الوثيقة والعقل للكون » الذى يشاركه الانسان فى حياته بطريقة مباشرة بوساطة الحالة الصوفية . وعندما تحدث تلك الحالة تختفى صفة معينة من العزل كانت قبلا تميز وعى الانسان ، تاركة ذلك الوعى المشترك ، الذى كان من قبل مقصورا على الله فقط ، ولكنه أصبح الآن للانسان منه نصيب (٢٥) .

---

(٢٣) This is the view, sometimes referred to as "neutralism", which has been explicitly developed by those later realists who have taken James' "Does Consciousness Exist?" as their point of departure.

(٢٤) M.T., 125; P.U., 310-11.

(٢٥) Cf. P.U., 28-31, 299-309, etc.; V.R.E., 388, and Mind, Vll (1882), 206; M.S., 201-6; C.E.R., 489-90.

وفى الصفحات الختامية لكتاب « كون تعددى » ربط چيمس بين ميتافيزيقيته الأخيرة وبين الصيغ المبكرة لفلسفته • ونظرية الكتاب هى فرض « التجريبية الراديكالية » مدافعا عنة ضد اعتراضات « المذهب العقلى » ، والذى أثبتت الخبرة صحته • ولكن اثباته ليس قطعيا بتيسـ بما فيه الكفاية لكى يستبعد فرض الواحدية المنافس وهو عند چيمس « أكثر الفروض احتمـــالا » ولكنه لا يتوقع أن خصـــومه ومعارضيه سيعترفون بهذا الاحتمال على اعتبار أنه ملزم . والذى يأمل چيمس حقا فى بلوغه ، وخصوصا من جانب المفكرين الشباب ، هو نوع من التقبلية التلقائية للبديل التعددى ، وضرب من الانتباه البراجماتى — بالممارسة التى لا مناص منها « لارادة الاعتقـــاد » لديهم — للخبرات المحسوسة الملموسة و « لمفردات الحياة » .

وكان چيمس يشعر بالثقة فى نجاح آخر كتبه ، ولقد تحققت توقعاته على الفور ، وبعد ظهوره حالا كتب الى فلورنوى قائلا :

« من الجلى فعلا — من الرسالات التى تهطل على عن كتاب « الكون التعددى » أن الكتاب **أولا** : سيقرأ . **وثانيا** : سينبذ نبذ النواة بالاجماع تقريبا فى أول الأمر ولاسباب مختلفة جـدا ، ولكنه **ثالثا** ، سيظل يباع ويشار اليه — وسينتهى بأن يؤثر تأثيرا قويا فى الفلسفة الانجليزية » (٢٦)

ومن أول الذين هللوا وصفقوا لهذا المؤلف الأخير كان آخوه هنرى — الذى ظل دائما على اخلاصه وحفظه للعهد • ذلك أن العطف والحب اللذين يربطان وليام وهنرى منذ الصبا استمرا طوال حياتهما على الرغم من شواغلهما وأعبائهما المتزايدة ، وعلى الرغم من بعد الشقة بينهما وطول الفراق الجسمانى • بيد أن تعليقات وليام على كتابات هنرى — انتهت آخر الأمر — الى خلاف فى الرأى لا سبيل الى اخفائه أو ستره . والمعروف أن هنرى لم ينحرف قط بشكل جدى — عن مساره أو مجراه نتيجـــة لنقود وليام ، وانما مضى الى غايته يشق طريقه بهدوء وتواضـــع ولكن برسوخ وثبات وحزم • وأخيرا جهر بالقول — فى رفض — لم يكن أقل حزما ولا عزما — لكونه ملونا بضيغة من عادة الخضوع — التى صاحبته طوال حياته والتى لا سبيل الى استئصالها •

كتب اليه وليام فى اليوم الثانى والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٠٥ :

(٢٦) June 18, 1909; L.W.J., II, 324.

« قرأت كتابك « الكأس الذهبية » منذ شهر مضى أو أكثر ، ولقد وضعنى ، مثلما وضعتنى معظم قصصك الطويلة الحديثة ، فى حالة عقلية محيرة ومربكة وملغزة جدا .. ان طريقة القص بحسن الافراغ المزخرف المطول للاشارة الايحائية .. ضد مشرب كل نوازعى فى الكتابة ، ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل ذلك ، فثمة تألق ووضوح فى التأثير ، وفى هذا الكتاب بصفة خاصة يوجد جو اجتماعى عالى النعم بحيث انها جميعا تجعله فذا وفائقا . ان طرائقك وأفكارى تبدوان على طرفى نقيض — ومع ذلك فلزام على أن أقر بنجاحك الفائق فى هذا الكتاب . ولكن — لماذا لا تجلس — ولو من أجل ان تسر أخاك فحسب — وتكتب كتابا جديدا دون سحر أو غبشة الليل أو عفن فى أحبولة القصة ، وبنوع من الحيوية والقوة والعنفوان الشديد ، والحسم فى الاداء ، والحركة فى سياق الأحداث ، ودون حواجز فى الحوار ، ودون تأويل وتفسير وشروح وتعليقات سيكولوجية، مع استقامة مطلقة فى الأسلوب ؟ أنشره باسمى وسأعترف به وسأعطيك نصف الحصيلة.. حقا وجديا كم أتوق الى أن تفعل ذلك — لأنك تستطيع ذلك ، وأعتقد أن ذلك سيغريك بأن تباشر « حالة رابعة » .

ورد عليه هنرى بالجواب التالى (٢٧) :

فى نيتى (استجابة لما كتبت لى عن قراءتك لقصة الكأس الذهبية) أن أحاول — مجازفا — انتاج شىء غريب — فى القصة الخيالية — يرضيك كأخ — ولكن اسمح لى أن أقول لك يا عزيزى وليام — اننى سأشعر بالمهانة الكبرى اذا أحببته **بالفعل** ، ومن ثم ، تكومه فى غمرة استلطافك ، مع بقية ركام العصر الدارجة ، والتى سمعتك تعبر عن اعجابك بهـا — والتى خير لى أن أغيب فى ظلمات قبر شائن من أن أسمح لقلمى بأن يخطها . ومع ذلك فسأكتب لك كتابك الذى تريد على نظام ٢+٢=٤ الذى يتم بمقتضاه انتاج كل ذلك الغث الرث من بضاعة الشحن التى تحيط بنا ، **وبعد ذلك** أهبط الى غيابة جب قبرى الشائن — رافعا لواء فن القلم الاردواز بدلا من فن الفرشاة — الأطول ..

... ولكن ، على سبيل الجد ، فالوقت الآن متأخر جدا بعد منتصف الليل ، وأنا فى غاية التعب والاجهاد ، بحيث لا يمكننى أن أعبر عن نفسى بشأن هذه المسألة — أكثر من القول بأننى أشعر بالأسف دائما عندما أسمع عن قراءتك لأحد مؤلفاتى — واننى أتمنى دائما ألا تقرأه — يبـدو لى أنك بسليقتك عاجز عن التمتع بما أكتبـه — ومن ثم فأنت محكوم عليك بأن تنظر اليه من وجهة نظر غريبة جدا وبعيدة جدا — عن وجهة نظرى فى كتابته ، والى الظـروف التى انبثق منها ما أكتب حتما — بحيث ان النوايا والمقاصد التى كانت الداعى الرئيسى لما أكتب (لكونها فى أنا) يبدو أنها لم تبلغك مطلقا — بل انك لتبدو كمن يفترض أن الحياة والعناصر التى تؤلف مادة كتابتى تحيد عن الموافقة وتنحرف عن الحظ فى كونها تفتقر الى استحالة القياس بحياة كامبردج . اننى لا أرى من حولى فى أى مكان — يؤدى أو يحلم به — الأشياء التى هى وحدها عندى تشكل الاهتمام الخاص بعمل القصة — ومع ذلك فانه فى التضحية بها — على نفس أساسها ذاته — يتألف الشىء الذى تقترحه على — لا مراء . وان ذلك ليشهد بمدى ما بيننا من بعد ، ومدى

---

(٢٧) November 23, 1905; L.H.J. 2, II, 43-4.

ما بيننا من اختلاف فى الاهداف والمآرب فى حياتنا الفكرية (امر طبيعى جدا وفى غاية السداد) . وعلى الرغم من ذلك ففى وسعى ان اقرأك بنشوة واسترواح واستغراق — فلقد قضيت منذ ثلاثة اسابيع ؛ ثلاثة ايام او اربعة مع مانتون ماربل (٢٨) ، فى برايتون ووجدت لديه عددا كبيرا جدا من مقالاتك واحاديثك الغريبة العهد ، ولقد اتاحت لى فترات الصباح فى غرفتى وقت الفطور والغداء هنا (وفقا للعادة المتبعة فى البيت) ان اجد وقتا لقراءة العديد منها ، والنتيجة اننى اتوسل اليك بكل حرارة وحماسة أن ترسل بعض تلك المقالات والأحاديث — التى كثيرا ما رايتها بين يدى البعض هنا فى ارفنج ستريت وممن هم ليسوا أخاك . ولم يتسن لى أن أقرأها هناك . وموجز القول اننى — فلسفيا — معك واؤيدك تأييدا يكاد يكون كاملا » .

وليس ثمة بينة على أن هنرى چيمس كان لديه المزاج أو الفراغ ليتشرب أو يستفيد من كتاب أخيه «علم النفس» أو أنه اهتم بصفة خاصة بكتاب « ارادة الاعتقاد » عندما ظهر ذلك المجلد فى سنة ١٨٩٧ . وفى يولية سنة ١٩٠٢ قرأ هنرى چيمس كتاب « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » بتأمل استرواحى وأناة صبورية(٢٩) ؛ ولكنه لم يعلق على الكتاب . ولم يهتم اهتماما كافيا بمحتوى تفكير أخيه لدرجة تحمله على التعبير عن تفكيره نفسه وتفسيره حتى نشر كتاب البراجماتية فى سنة ١٩٠٧ . وعندئذ فقط وفى السابع عشر من أكتوبر أعلن مشايعته على النحو التالى:

« لماذا لم أكتب لك بعد قراءة كتابك « البراجماتية » — لماذا امتنعت عن ذلك ؟ ذلك ما لا أستطيع تفسيره الآن الا بنفس حقيقة سحر الكتاب ذاته وما أثاره فى نفسى من شغف وفتنة . كل ما أستطيع أن أقوله اننى غرقت تحته الى أعماق بعيدة الغور من الامتثال والتمثيل والتمثل ، لدرجة أن أى رد فعل من قبلى ، ولو بتسلم الكتاب ربما كان — تقريبا جدا — ينضح بشائبة الخلف أو الهروب . ثم بعد ذلك ضعت فى العجب والدهشة من معرفتى لمدى ما « تبرجمت » طوال حياتى تماما مثلما اكتشف (المسيو جوردان فى مسرحية موليير من أنه ظل أربعين عاما يتكلم النثر دون أن يدرى) . انك على صواب — بكل اتساع وضخامة وانفساح وشمول واحاطة . أنت على حق . اننى أشعر ان قراءة هذا الكتاب — على أية حال ومهما كان — الحادث الفريد الفذ لصيفى هذا » (٣٠) .

وأثارت كتابات چيمس التى ألفها بعد ذلك — عبارات أخرى شبيهة تنطق بحوارية هنرى لأخيه . فعندما تسلم هنرى نسخة من كتاب «كون تعددى » كتب اليه فى الثامن عشر من يولية سنة ١٩٠٩ ما يلى :

---

(٢٨) Manton Marble of Brighton, England, writer on politics and history.

(٢٩) H.J.[2], to W.J., July 4, 1902.

(٣٠) L.H.J.[2], II, 83.

« قراءته ابان وجودى بالمدينة ، بشغف ونشوة لا سبيل الى وصفهما — بسحر وافتتان يخلبان اللب ، باحساس بالزهو ، وأكاد أقول بفهم . ولعل مما يشد أزرك ويلهمك ولو قليلا أن تعلم أننى معك على طول الخط — ولا أستطيع أن أتصور أى معنى فى اية فلسفة ليست لك . وكفنان و « خالق » فان فى وسعى أن أغنم البراجماتيسة وأمسك بها وان أعمل فى ضوئها وأطبقها ، واجدا كل شيء آخر ، بالقياس اليها (بقدر ما أعرف نفس الشيء) منبتا وعديم الجدوى على الاطلاق — متوازى باطل وبارد » .

بيد أن الاستجابة النهائية أثيرت عند نشر كتاب « معنى الحقيقة » فى خريف سنة ١٩٠٩ :

« لقد سجلت ما يعتمل بنفسى ثم كففت عنه فى الليلة الماضية وأويت الى فراشى — والآن يطيب لى أن أضيف بضع ملاحظات بعد يوم هادىء عديم المطر وعديم العواصف — بشكل يكاد يكون معجزة .. وكاد اليوم كله يمضى على ما أشتهى ، لولا أن حدث فيه ثقب محزن من جراء زيارة من شاب من نيويورك (سرق) منى الساعة أو الساعتين اللتين خصصتهما قبل موعد وجبة المساء على أمل الانتهاء من قراءة « معنى الحقيقة » . ولكننى قطعت شوطا بعيدا منذ انتهيت من تلك الوجبة ، وقد تجددت حماستى بعد أن شبعت وارتويت . انك يقينا تجعل الفلسفة شهية وطلية وحية ، أكثر من أى انسان جعلها كذلك من قبل ، وانك لتفعل ذلك بطريقة مبدعة خلاقة حقا لا سبيل الى محوها من الذهن ، بحيث ان كل ماتكتب يحرك وعيى « الخلاق » ويتغلغل فى ثناياه ، ويلهم بصيرتى الفنية بأنفس منابع الالهام وأقوى سبل التطبيق . شكرا للقوى — أى شكرا لقواك — من أجل فلسفة صحيحة ثابتة ميسورة الهضم يمكن الرجوع اليها والاستقاء منها — فلسفة مرتبطة ببقية حياة المرء العقلية والتى تختلف عن غيرها من الفلسفات التى لا ترتبط بحياة المرء الفكرية الا كما يرتبط الطائر بالسمكة .

وموجز القول ، يا وليام الأعز ، أن أثر هذه الصفحات المجمعة بين دفتى هذا المجلد — والتى سبق ان قراتها كلها ، متفرقة — عمل عظيم فائق يستحق الاعجاب والتقدير الى أقصى حد — الى حد التقديس ، بحيث اننى من جانبى براجماتى البيئة والتركيب بشكل منيع حصين — لا يقبل الاقالة » (٣١) .

ويتضح من هذه الرسائل أن هنرى سمح لوليام بأن يقوم له بعملية التفلسف . وليس فى وسعى الا آن أقرر — على سبيل الجزم — كما يتوقع القارىء — أن عقله كان فى غاية السذاجة — بل كان غفلاً فى هذه الناحية، وان اقراره بالموافقة كان امتدادا لذلك الزهو المعجب الذى رنا به منذ نعومة أظفاره — الى كل منجزات وليام الأرفع والأسمى والأجل .

---

(٣١) H.J.², to W.J., November 1, 1909; L.H.J.², II, 141.

بيد أن العلاقة لم تكن تناسبه . فبالنسبة لعمل هنرى ، أباح وليام لنفسه ـ بغير تقيد ـ أن يعطيه النصيحة وأن يرشقه بسهام النقد ـ على السواء ، فى حين أن هنرى بالنسبة لعمل وليام ما كان فى وسعه الا المديح والاطراء ـ بلا تمييز .

لم يعطهما العلم أرضا مشتركة ، ولقد استطاعا أن يلتقيا على هذه الأرض المشتركة فى الأدب وفى آلفن ، وفى خبرتهما فى الحياة ، وفى العالم من حولهما ، وفوق كل شىء فى حبهما العائلى العميق الجذور الذى قوى ونما بمضى السنين .

٣٦

چيمس وبرجسون

ليس ثمة أدنى ريب فى أن أهم تعلق فلسفى وشخصى لسنوات چيمس الأخيرة ـ كان ذلك التعلق الذى توثقت عراه مع هنرى برجسون ٠

ثمة تقرير فرنسى للمؤتمر الدولى الخامس لعلم النفس ـ الذى عقد فى روما سنة ١٩٠٥ ـ والذى ألقى فيه چيمس بحثه عن « فكرة الضمير La Notion de Conscience » ، يحتوى العبارة التالية :

« لا أحد يجهل ـ وهو نفسه قد جاهر بهذه الحقيقـــة باستمرار ـ ما يدين به فيلسوفنا الماجد ـ جهبذ التحليل ـ م ٠ برجسون فى مطلع حياته الفلسفية ـ لمؤلفات الأمريكيين ٠٠ اذا كنا قد اقترضنا علم نفس من امريكا ، فقد أعطيناهم فى مقابل ذلك فلسفة ـ فقـــد كان من المستحيل أن نجد فى بحث وليام چيمس شيئا آخر غير المذهب البرجسونى الخاص بأولية الفعل » (١) ٠

واستدعت هذه العبارة من برجسون الرد الفورى الحاسم التالى :

فيما يختص بالاشـــارة الى وليـــام چيمس : انه فيلسوف لا استطيع أبدا أن اعبر تعبيرا كافيا وافيا عن حبى له واعجابى به ٠ لقد ظهر كتابه « مبادىء علم النفس » فى سنة ١٨٩١ ٠ وأما مقالتى (٢) ٠٠ فقد أختيرت وكتبت بين ١٨٨٣ و ١٨٨٧ ونشرت فى سنة ١٨٨٩ ٠ وفى ذلك الوقت لم أكن أعرف شيئا عن چيمس سوى دراساته الطبية عن الجهد والانفعال ٠ (ولم أكن على علم بالمقـــال الذى ظهر فى مجلة « العقل » فى يناير سنة ١٨٨٤ الذى احتوى فعلا جزءا من الفصل الخاص « بتيار التفكير ») (٣) ٠ وبعبارة

---

(١) Translated from Revue philos., LX (1905), 84; Bergson's reply is from op. cit., 229-30.

(٢) Essai sur les données immédiates de la conscience, Bergson's first important work.

(٣) "Some Omissions of Introspective Psychology", Mind, IX (1884). The "studies of effort and emotion" were "The Feeling of Effort", 1880, and "What Is an Emotion?" 1884. The former had appeared also in French in the Critique philos.

أخرى فى نظريات « المقالة » ما كان من الممكن أن تستقى من علم نفس چيمس . وأسارع الى ان اضيف الى ذلك ان مفهوم « فترة المكث الحقيقيـــة » الذى أبرزته فى مقالتى يتطـابق فى نقاط كثيرة مع وصف چيمس « لتيـار التفكير » .. ولكن اذا شاء أمرؤ أن يفحص النصوص فسوف يجـد بسهولة أن « وصف تيار التفكير » ونظرية « فترة المكث الحقيقية » ليس لهما مغزى واحد ، ولا يمكن أن ينبثقا من نفس المصدر . فمن الجلى أن الأولى سيكولوجية فى المصدر والدلالة والفحوى ، فى حين أن الثانية تتألف جوهريا من تقدير انتقادى لفكرة الزمن المتجانس كما يجدها المرء عند الفلاسفة والرياضيين . ومن ثم ، وعلى الرغم من اننى لست ذا أهليـــة للتحدث نيابة عن وليام چيمس ، فانى أعتقد أن فى وسعى أن أقول ان التأثير « البرجسونى » لا يعزى اليه اى شىء ، ولا يحسب له أى وزن مطلقا فى تطور فلسفته .. وأعتقد أنه ينبغى على أن أصر على هاتين النقطتين لأن المقال .. يعرض كحقيقة عفوية ومحلية .. حركة أفكار ظهرت فى الأفق سنين عددا فى كل مكان ، وهى تنجم من أسباب عامة وعميقة . ففى كل بلد وعند كثير من المفكرين ، شعر الناس بالحاجة الى فلسفة تجريبيـة ــ أصيلة ــ أوثق صلة بالمعطيات المباشرة ، من الفلسفة التقليدية التى اصطنعها مفكرون هم أولا وقبل كل شىء رياضيون » .

وينبغى قبول هذا البيان على أنه تسوية نهائية لمسألة الأسبقية . فلم يدع أحد من الفيلسوفين أبدا حق الأسبقية . بل لقد طرب كل منهما فى أن يجد الحقيقة لدى الآخر ، وكان كل منهما فى غاية التقـــدير والاعجاب ــ بدرجة تكاد تتجاوز الحد ــ لميزة وفضل الآخر .

بيد أن التشابه بين مذهب الاثنين ليس كاملا ولا شاذا ــ ثم ان هذا التشابه بحد ذاته لا يشين ابتكاره ولا أصالة أى من الفيلسوفين .

وكل الأسباب والدواعى تومىء الى السر فى كون چيمس وبرجسون انجذبا أحدهما حيال الآخر . فكلاهما رجـلان عميقـــا الانسانية . وكلاهما صاحبا درجة معينة من الاحســـاس الفنى ــ غير المألوف لدى الفلاسفة ، وكلاهما أستاذان بارعان رائعـان من أساتذة الأســلوب النثرى .

صحيح أن أسلوبيهما مختلفان اختلافا بينا . فچيمس يستعمل لسانا أوسع وأفسح ، وأسلوبه أكثر دارجية وتداولية ، وأزخر بالدعابة والتوكيد والاطناب ، فى حين أن أسلوب برجسون أسلوب عف محصن ، غير شخصى ، يتميز بالكبح والتقييد . كان فى چيمس شخص من سجية كاتب العجالة أو النبذة . فبعد كتابه « علم النفس » كانت كل مؤلفاته وأعماله اما محاضرات أو مقالات خاصة ، كتبت وقد وضع نصب عينيه تأثيرها المباشر على جمهور من المستمعين أو القراء ، أو على خصم فلسفى يبتغى افحامه .

كان تواقا الى أن يفهم مباشرة ، وكان دائما ميـــالا بدافع المروءة والشهامة الى أن يتحدث بلغة مستمعه لكى يفقه قوله وينال انصـــاتا واصغاء ٠

فى حين أن برجسون كان يكتب مؤلفات نظامية مرتبة ترتيبا منسقا حسب القواعد ، وينقحها ويجودها وفقا لمطالبها ومقتضياتها الداخلية ، ويتوقع آثارا خالدة شبيهة تعالج وتدرس من حيث هى آثار خالدة بحـــد ذاتها ووفقا لشروطها ٠

وحتى مع ذلك ، فكلا الكاتبين ثريان فى الاستعارات والبديع وصور الخيال ، وفى قوة عارضتهما وايحائهمـــا البديهى ٠ ووفقا لعقيدتهما المشتركة ، فان الواقع لا يمكن تحليله أو وصفه ، وانما يمكن **نقله** فقط، وكلاهما كانت لديه مقدرة غير عادية على نقله ٠

وثمة اختلافات كثيرة أيضا فى مذاهبهما الفلسفية ٠ ونظرا لأن نظام كل منهما ــ نشأ وتطور فى استقلال تام ــ فقد كان النظامان يتقابلان ويتبادلان التحية والهدايا ، ثم يمضى كل منهما فى طريقه .. الى غايته . فالنظامان لم يتطابقا فى أى معنى من المعانى ، سواء كنظامين أم كنظريات معينـــة قائمة بذاتها من لدن كل منهما ٠

صحيح أن چيمس صرح بتحوله الى البرجسونية ، ولكن تلك كانت طريقة چيمس فى التعبير عن حالاته المزاجية فى الاكتشاف أو الاتفـاق الشخصى . فلقد تحول ــ فى نفس المعنى ــ على يد رينوفيير وهودجسون وفشنر ، وكان يتحول على يد نصف « دستة » آخرين غيرهم ، ولكن من الواضح أن لفظ الحوارية أو التلمذة لا ينطبق البتة على أى من هـــذه العلاقات . لقد أفضحت سجية المؤانسة والألفة والعشرة العميقة لديه الى البحث عن تجسيم شخصى لأفكاره يستطيع أن يحبه ويعجب به ، وكان ولوعا بتفسير أفكاره وتوضيحها بالاستشهاد بأقوال الآخرين بنوع من الاستصواب الحماسى ٠

وعلاوة على ذلك ، فان برجسونية چيمس كانت روحية لا حرفية بحيث ان تعداد اختلافاتهما فى التفاصيل يؤدى الى اختراق وقطع فلسفتيهما برمتهما ٠ لذلك حسبنا ذكر موضوعات رئيسية معينة ٠ فنقطة الانطلاق عند برجسون هى طريقة التفكير المنطقى ــ الرياضى ، التى اعتقد أنهـــا باغفالها للزمن الواقعى ، فقدت جوهر الأشياء . فى حين أن چيمس بدأ بالتجريبية البريطانية ، التى باغفالها للعلاقات التى يشعر بها ــ فقدت

أيضا جوهر الأشياء · وبعبارة أخرى ، فى حين أن الحقيقة البالغة منتهى الدقة ـ الحرجة ـ عند برجسون كانت مرورا مؤقتا ، فانها عند چيمس كانت فقط واحدة من عدة حالات من ذلك التعدى أو الاستمرار الذى كان حقيقته الحرجة أو البالغة منتهى الدقة ·

وكلا المفكرين وجدا مفتاح الميتافيزيقيا فى ناحية معينة من الخبرة الواعية ، الا وهى استمرارها . ووجد چيمس فى هذه الديمومة طريقة لمقاومة الصعوبات الوراثية للتجريبية ـ مثل الثنائية ـ ومشكلة الواحد والكثير · فى حين أن برجسون ، من جهة أخرى ، استعملها كوسيلة لتصحيح الأزلية المجردة لوجهة نظر المذهب العقلى ، سواء فى الطبيعة أم فيما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) ·

وكلا الفيلسوفين أوليا اهتماما للتطور البيولوجى ، ولكن بفرق واختلاف . كان برجسون اكثر بيولوجية من چيمس ولا يخلو من وجاهة القول بأن چيمس أنشأ علم نفس بيولوجيا ، فى حين أن برجسون أنشأ بيولوجية سيكولوجية ، وبالاضافة الى ذلك فان بيولوجية چيمس كانت داروينية الى أبعد الآماد ـ تؤكد الأصول العرضية ، والتحولات ، والتكيف والتهايؤ والبقاء ، فى حين أن بيولوجية برجسون كانت أكثر قربى من لامارك ، وأكدت الصفة الديناميكية الخلاقة للباعث الحيوى ·

وأخيرا فان النمط العام لسبيل التطور يجنح الى أن يكون تباعديا ومنفردا ومباينا عند برجسون ، آيلا وتجمعيا وتقاربيا عند چيمس . فوحدة چيمس فى طور التكوين ... الى الأمام كهدف يرام بلوغه ، فى حين أنه عند برجسون يوجد دائما احساس بالوحدة الأرومية ، وكذلك بالتشابه الكيفى لتيار الحياة الموصول ·

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الواقع بالنسبة للفيلسوفين يعطى مباشرة فى الخبرة ـ بل هو الخبرة عندما يؤول اللفظ تأويلا مناسبا . وكلاهما يجد أن التفكير ـ حيث انه يميز ، ويخصص ويعين ويضبط ويمسك ـ غريب عن خصيصة الوجود التى هى تغلغلية وتحللية وانسيابية · وكلا الرجلين كان عندهما نفس الاحساس بفيض الواقع وبالهيف الاسوى للمفاهيم التى يحاول بها العقل البشرى تمثيلها · فهما يقيسان عدم كفاية التفكير بمعيار اللقانة أو البديهة · فالواقع الذى يستشعر أو يحدس هو وصل وعيى مؤقت متغير يختار منه العقل ـ الذى هو محكوم بمصالحه العملية ـ ما هو متعلق وصحيح وثابت · وبنوع

من تغير الموقف من التفكير الى الشعور ، ومن العمل الى البصيرة ، ومن المحيط الى المركز – يصبح المرء واعيا بالامتلاء الهيولى الذى ينغمس فيه الجزء ٠

وكلما تبنى چيمس أو برجسون هذه الطريقة من التفلسف ، أصبح الواحد منهما المفسر المبين للآخر ٠ لقد وجد برجسون نفسه فى « كون چيمس التعددى » ، ولو قدر لچيمس أن يعيش ليقرأها لطرب أشد الطرب للوضوح والفهم والجلاء التى رسمت بها صورته فى مقـــدمات برجسون للترجمات الفرنسية لكتاب « البراجماتية » و « الرسائل » ٠

ثمة اشارة فى كتاب علم النفس تومىء الى أن چيمس قرأ كتـــاب برجسون Données immédiates de la Conscience بعد نشره مباشرة فى سنة ١٨٨٩ . ويبدو أن الكتاب لم يترك فيه الا أقل انطباع أو ربما لم يترك فيه أى انطباع على الاطلاق ٠ وعندما أصدر برجسون كتـــابه Matèire et Mémoire فى ســـنة ١٨٩٦ . أرسل الى چيمس نســـخة موقعا عليها باسمه ، وعلى الرغم من أنها قرئت على الفور الا أنها لم تقدح أية شرارة . وبعد ذلك فى سنة ١٩٠٢ أعاد چيمس قراءة الكتابين مرة ثانية باعجاب متوقد . وفى هذا الصدد كتب الى فلورنوى فى ٢٧ يناير سنة ١٩٠٣ يقول :

« منذ سنين طويلة لم أقرأ شيئا أثار تفكيرى وآزره الى هذه الدرجة . منذ أربع سنوات لم أستطع أن أفهمه مطلقا ، وان كنت احسست بقوته . وأنا على يقين من أن هذه الفلسفة لها مستقبل عظيم . انها تخرق « الكادرات » القديمة وتفك عقدة الأمور بحل يمكن الحصول منه على بلورات جديدة » .

وفى ربيع ســـنة ١٩٠٧ تسلم چيمس وقرأ كتاب برجســـون L'Evolution Créatrice وعلى الفور عرفت النتيجـــة بين أصـــدقائه . ومن ثم نجده يكتب الى سترونج فى الثالث عشر من يونية : « هل قرأت كتاب برجسون L'Evolution Créetrice ؟ أنه يبدو فى نظرى أقدس كتاب على الاطلاق كتب فى الفلسفة حتى هذا التاريخ . وليس فى وسعى أن أستوعب الا جزئيا ، ولكنه قتل مذهب العقلية فخر صريعا » ٠

والتقى الرجلان لأول مرة فى سنة ١٩٠٥ عندما كان چيمس فى الثالثة والستين من عمره ، وبرجسون فى السادسة والأربعين ٠ ويبدو أن هذا الفرق فى السن لم يكن له شأن يذكر سواء فى تمتعهما بالمصاحبة أو فى المزيج من المحبة والاحترام الذى شعر به كل منهما حيال الآخر ٠ وتاريخ

هذا اللقاء سبق موت چيمس بخمس سنوات فقط . وفى أثناء زيارات چيمس اللاحقة لأوروبا كان دائما مقيدا ومعوقا من جراء صحته الآخذة فى التدهور . ولولا ذلك فكل الدواعى ترجح آلاعتقاد بأن صلات الود الوثيقة ــ الشخصية والفلسفية على السواء ــ كان لابد لها أن تزداد عمقا وقربا .

وتستهل المراسلات بين الرجلين برسالة من چيمس يبدو أن الحافز اليها كان اعادة قراءته لكتابى برجسون الأولين :

كامبردج ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٢ (٤)

« سيدى العزيز ،

قرأت نسخة كتابك Matière et Mémoire التى تفضلت بارسالها الى ــ مباشرة فور تسلمها منذ نحو أربع سنوات أو أكثر . ولقد رأيت ما فيها من ابتكارية عظيمة ، ولكنى وجدت أفكارك بلغت حدا من الجدة والرحابة والضخامة بحيث ما كان فى وسعى أن أكون على يقين من أننى فهمتها فهمــا كاملا ، على الرغم من أن الأســلوب ، علم الله ، كان جليا صافيا متألقا بما فيه الكفاية . لذلك نحيت الكتاب جانبا ، لكى أقرأه مرة ثانية ، وهو ما أتممته فعلا الآن ..

انه عمل عبقرية فائقة شائقة . انه يحدث نوعا من الثورة الكوبرنيكية تماما مثلما فعلت « مبادىء » بركلى أو « نقد » كانت ، ومن المرجح أنه سيفتح عهدا جديدا فى المحاجة الفلسفية ، كلما شاع وذاع وملأ الأسماع . انه يملأ عقلى بكل ضروب الأسئلة والفروض الجديدة ، ويذيب القديم فيجعله فى حالة سهولة مستساغة . أشكرك من صميم فؤادى . اما النقطة الرئيسية التى كسبتها فهى محقك الحاسم لثنائية الموضوع والذات فى الادراك الحسى . واعتقد أن « استشراف » الموضوع لن يشفى من معالجتك ، وحيث اننى بحثت نفس الموضوع على نفس الاتجاه لسنوات عديدة ، مع اختلاف عنك فقط فى المفــاهيم العامة ، لذلك اجــد نفسى مؤيدا ومعززا بك على نحو سار لطيف جدا . صحتى ضعيفة جدا الآن لدرجة أن العمل يمضى ببطء جدا ، ولكن ، اذا قدر لى أن اعيش ، فسوف أكتب نظاما عاما من الميتافيزيقيا يتفق اتفاقا وثيقــا فى كثير من أفكاره الأساسية مع ما بسطته فى كتابك ، وهذا الاتفاق يلهمنى ويشجعنى أكثر مما فى وسعك أن تتصور .. ما أطيب الانفلات أحيانا ــ ولو لمجرد الانفلات من كل الفئات القديمة ، وجحد المعتقدات البالية ، واعادة صياغة الأشياء من الأول ، بحيث تجعل خط التقسيم يقع فى أماكن جديدة تماما .

مرفق طيه محاضرة شعبية بسيطة ألفتها عن الخلود ــ انها ليست نظرية مؤكدة ــ ولكنها مجرد مجادلة موجهة ضد خصم ــ للاعتراض المخى العادى ــ قد يسرك أن ترى فيها قاعدة تشبه قاعدتك الخاصة بأن المخ عضو يعمل بمثابة مصفاة للحياة الروحية .

---

(٤) Reprinted from L.W.J., II, 178-80.

وقد أرسلت اليك ايضـا كتابى الأخير « الانواع المتعددة للخبرة الدينية » الذى أحيانا يغرى ساعة أو بعض ساعة . دعنى يا عزيزي البروفسور برجسون أؤكد لك اعجابى السامى واعتبارى وتقديرى مقرونة باخلاصى الدائم .

و م . چيمس »

باريس ٦ يناير سنة ١٩٠٣ (٥)

« لقد أتممت حالا قراءة الكتاب الذى تفضلت مشكورا بارساله الى ــ « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » ، وابادر على الفور لأخبرك بأن قراءة الكتاب تركت فى نفسى انطباعا عميقا بعيد الغور .. لقد بدأت قراءته منذ اثنى عشر يوما على الأقل ، ومنذ اللحظة التى بدأت فيها قراءته وأنا عاجز عن التفكير فى أى شىء آخر سواه ــ لقد أسرنى وفتننى ــ واذا سمحت لى بالقول ــ فانه كتاب مثير محرك مهيج من أوله الى آخره . لقد نجحت ــ فيما يبدو لى ــ فى استخلاص زبدة وصفوة الانفعال الدينى . ولا شك أننا شعرنا من قبل بأن هذا الانفعال ــ هو فى نفس الوقت متعة على المثال الكامل الفذ ، ووعى بالاتحاد مع قوة أسمى ، ولكن طبيعة تلك المتعة وذلك الاتحاد استعصت على التحليل والتعبير ، ومع ذلك فلقد وفقت انت فى قدرتك على تحليلها والتعبير عنها ..

اذا كنت فى أثناء السنوات العشر أو الاثنتى عشرة الماضية قد قدر لك أن تتحدث مع بعض الطلاب الفرنسيين الذين يزورون كامبردج ، فلابد أنهم أخبروك انى كنت أحـد المعجبين بك منذ البداية ، وأننى لم اترك فرصة تمر دون أن أعبر لمستمعى عن تحاسى العظيم مع أفكارك وتآلفى معهـا . وعندما كتبت مقالتى عن Les Donneés de la conscience لقـد قادنى تحليـل فكرة الزمن والتأمل فى دور تلك الفكرة فى الميكانيكا ، قادنى ذلك الى مفهوم معين للحيـاة السيكولوجية يتسق تماما مع مفهومك فى كتاب « علم النفس » . ومن لم تستطيع أن تفهم أننى لم اعتز بتأييد وموافقة قدر اعتزازى وسعادتى بتأييدك وموافقتك للنتائج التى وصلت اليها فى كتابىMatière et Mèmoire- والتى جاد على بها كرمك ولطفك . لقد سعيت ــ دون التضحية بنتائج الفسيولوجية المخية ــ الى أن أبين أن العـلاقة بين الوعى وبين النشـاط المخى مختلفة تماما عما يفترض الفسيولوجيون والفلاسفة ــ وانى لأرىبالنسبة لهذه النقطةأيضا أننا نتبعطريقين متقاربين جدا وربما آيلين وتجمعيين . هذا ، على الاقل ، هو الانطباع الذى تركته فى نفسى قراءة تلك المحاضرة الممتعة جدا عن « الخلود الانسـانى » التى تفضلت بارسالها الى . وكلما فكرت فى الموضوع ، اقتنعت بأن الحياة من أولها الى آخرها ــ من أحد طرفيها الى الطرف الآخر ــ ظاهرة انتباه ورنو . والمخ هو ذلك الذى يوجه هذا الانتباه ، فهو الذى يعين ويحدد ويتخم ويقيس الانقباض السيكولوجى الذى هو لازم للأداء والعمل والتصرف . وبالاختصار فانه ، لا هو صورة طبق الأصل من الحياة الواعية ولا هو أداة لها ، ولكنه نقطتها الأكثر تقدما ، الجزء الذى يدخل نفسه فى الأحداث ــ شىء شبيه بمقدم السفينة الذى يضيق فيه حيز السفينة لكى تشق المحيط وتشدخه .. لشد ما أتوق لفرصة موائية اناقش فيها معك كل هذه القضايا . هل تسمح لى بأن ألتمس منك ــ اذا ما جئت الى

(٥) The letters from Bergson have beentranslated by the author.

فرنسا ــ ان تتفضل ــ كرما منــك وشــهامة ــ بأن تنبئنى مقدما بموعد حضورك حتى يتسنى لنا تدبير لقاء ؟ أرجوك يا زميلى ورفيقى العزيز الخ .. ،

هـ . برجسون »

والتبادل التالى للرسائل يومىء الى الاخصاب التهجينى لفلسفتين تشتركان فى نفس الميل الأساسى :

كامبردج ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٣ (٦) .

« عزيزى البروفسور برجسون ،

اننى أوقن بأن فلسفة من الخبرة الصرف ــ كما أتصور أن فلسفتك كذلك ــ يمكن أن تؤتى أكلها ، وأنها كفيلة بأن توفق بين كثير من الخلافات القديمة المتأصلة للمدارس الفلسفية . واعتقـــد ان انكارك المتطرف ... لفكرة ان المخ يمكن ان يكون على اى نحو (صانع) الوعى أدخلت وضوحا فجائيا جدا ، وأزالت جزءا من النقيض المثالى . ولكن قولك بالديمومة اللاوعييـــة أو الدووعية (دون الوعى) للذكريات ، هى بدورها فكرة تهيىء صعوبات ومشكلات ، بحيث تبدو فى الواقع من الأمر المعادل « للروح » فى شكل آخر ثم ان الطريقة التى « تقحم » بها هـــذه الذكريات نفسها فى أداء المخ ، وفى الواقع كل المفهوم الخاص بالفرق بين العالمين الداخلى والخارجى فى فلسفتك ، هذه كلها ما زالت تحتاج ــ بالنسبة لى ــ الى قدر كبير من الايضاح والتفصيل . ولكن .. ترى أى وقع يكون اذا ما تحديتك بأن تعطينى الجواب كتابة . ما أروع وأبرع كتابتك .

اقبل منى أعمق اخلاصى ،

و م . جيمس »

باريس ٢٥ مارس سنة ١٩٠٣

« ان الصعوبات التى توجه نظرى اليها فى بعض أجزاء معينة من كتاب **Matière et Mémoire** صــعوبات حقيقيــة لا سبيل الى اغفالها ، وأنا أبعد من ان اكون قد نجحت فى تذليلها . ومع ذلك فأنا أعتقـــد بأن بعض هذه الصعوبات هو نتيجة لعادات عقولنا المتأصلة .. خذ ، على سبيل المثال صعوبة الاقرار بالذكريات اللاوعيية الراهنة . فاذا اختزلنا الذكريات الى فئة الأشياء ، فمن الجلى أنه لا يوجد متوسط لها بين الحضور والغياب ، فاما أنها حاضرة فى أذهاننا ــ بغير مؤهلات ، وهى فى هذا المعنى واعية ، أو اذا كانت لا وعيية ، فهى غائبة من عقولنا وينبغى ألا تعتبر ، حينئذ كوقائع سيكولوجية حاضرة . ولكن فى عالم الوقائع السيكولوجية ، لا أعتقد أنه هناك مناسبة لطرح البديل « تكون أو لا تكون » ــ منعا وتفردا بهذا الشكل . وكلما حاولت ان أدرك نفسى بالوعى ، ميزت نفسى وفقهتها بالذهن كجمع وحشد .. لماضى ذاتى ، بحيث أن هذا الماضى يختصر ويتقلص بقصد العمل والأداء . « ان وحدة الذات » التى يتحدث عنها الفلاسفة تبدو لى كأنها وحدة ذروة قمة احصر نفسى فيها بمجهود من الانتباه ــ مجهود يمتد ويطول ــ فى أثناء الحياة كلها ، وهو ، كما يبدو لى ، جوهر الحياة ذاتها . ولكن بالانتقال من ذروة

---

(٦) L.W.J., II, 183-5.

الوعى هذه أو من هذه القنة ، الى القاعدة ، اى بمعنى الانتقال الى حالة تكون فيها ذكريات كل لحظات الماضى مبعثرة وواضحة ، فاننى ادرك ان ذلك يقتضى من المرء الانتقال من حالة التركيز الطبيعية الى حالة التشتت كما هى الحالة فى بعض الأحلام ، وعندئذ فلن يكون هناك شىء ايجابى مؤكد يعقل أو يتمم ، ولكن مجرد شىء ينسخ ويفك فحسب — لا شىء يربح ولا شىء يضاف وانما شىء يفقد : انه فى هذا المعنى بالذات أن كل ذكرياتى قائمة هناك عندما لا أدركها ، وانه لا شىء جديد ينتج فى الواقع من الامر عندما يظهر ثانية فى الوعى . ان الملخص (٧) الذى تكرمت بارساله الى عن المقرر الدراسى الذى تعطيه الآن اثار اهتمامى جدا . انه يحتوى عددا كبيرا من الآراء الجديدة والمبتكرة ، بحيث اننى لم يتسن لى بعد ، أن ألم بها فى مجموعها ، ولكن فكرة غالبة تبرز أمامى حتى الآن ، ألا وهى ضرورة المفاهيم الاستشرافية ، أو المنطق المجرد ، أو بالاختصار سبيل تلك الفلسفة الفوق نظامية التى تسلم جدلا بوحدة كل شىء . ان الطريق الذى أتبعه شبيه بهذا ، وأنا موقن تماما بأنه اذا كانت ثمة فلسفة ايجابية حقا ممكنة ، فلا يمكن لمسها الا هناك ..

لشد ما يحزننى أننى لا أستطيع أن انعم بالحديث معك — الذى طالما تمنيته واشتهيته . ولكنك حتما ستأتى الى فرنسا أو انجلترا يوما من الأيام ، وفى هذه الحالة يكون فى وسعى دائما أن أدبر لقاء معك فى أى وقت أو مكان ، اذا ما تكرمت بانبائى بموعد قدومك مقدما ولو بزمن قصير . أرجوك .. الخ ..

ه . برجسون »

وفى أبريل سنة ١٩٠٥ — كما تعرف ، أبحر چيمس لقضاء « أجازة » فى أوروبا . وبعد زيارة أثينا وحضور مؤتمر علم النفس فى روما ، يمم شمالا شطر سويسرا ثم فرنسا ، وأبحر عائدا الى أمريكا فى يونيه :

كان ١٣ مايو سنة ١٩٠٥

« عزيزى البروفسور برجسون :

« اننى مقيم هنا فى فندق دى بارك .. وفى عزمى ومرجوى قضاء أسبوع فى باريس.. على الارجح فى المدة من ٢٥ مايو الى اول يونيه . ولا جناح على من ان أعترف ، بأننى على الرغم من أننى — مخيار فى حالة لا أصلح فيها لشىء ، الا ان من أهم الأسباب التى حدت بى الى اختيار طريق عودتى الى الوطن عن طريق باريس بدلا من الابحار مباشرة من البحر المتوسط ، هو احتمال أننى ، اذا ما حللت فى باريس ، فقد ألقاك وجها لوجه ، ولعلنى أستطيع أن أزداد فهما لبعض النقاط فى فلسفتك التى ما زالت غامضة على . هذا اعلان ذو رنين قهار نوعا ما ، حيث انك رجل متواضع حيى — ولكن لا تجزع — فنواياى فى غاية البراءة ثم ان سؤلى قد يبدو لك فى غاية السطحية والضحالة . ان بيت القصيد ، هو ان أعتقد أنه لابد دائما وأن يكون من مصلحة فيلسوفين قريبين لبعضهما أن يتصلا اتصالا شخصيا مباشرا . فذلك قمين بأن يتفاهما على نحو أفضل

---

(٧) The "Syllabus in Philosophy 3"; cf. above, 275 ff.

وأحسن ، حتى اذا قضيا ساعة اللقاء فى الثرثرة فقط . لذلك آمل أن تكون مقيما فى باريس وقت وجودى فيها ، وأن يكون لديك الوقت والمزاج لتمنحنى ساعة أو ساعتين من وقتك . وسأقيم فى فندق دى سانت بيير الكائن فى الشارع الذى يحمل نفس الاسم . ولدى بعض أعمال مختلفة يتعين على قضاؤها فى باريس ، فاذا ما تحدد تاريخ لقائى معك اولا ، فمن الميسور تدبير كل أمورى الأخرى تبعا لذلك . آمل أن تجدك رسالتى هذه فى البيت ، وأن تكون فى طيب صحة ، والا تكون منطويا على نفسك . لك أسمى احترامى وتبجيلى واخلاصى ،

و م . چيمس »

وتم أول لقاء بين هذين الكوكبين فى الثـامن والعشرين من مايو سنة ١٩٠٥ . وليس بين أيدينا سجل معاصر لهذا اللقاء سوى ما قيده چيمس فى مذكراته اليومية عن هـذا التاريخ « زيارة من برجسون الجميل » .

وبعد عشرين سنة من هذا التاريخ ذكر برجسون نفسه هـذه المناسبة فى معرض الحديث عن اهتمام چيمس الفائق وشغله الشاغل بأمور الروح فقال :

« أعتقد أننا حقا قلنا « أهلا وسهلا » ولكن هذا كان كل ما فى الأمر ـ ثم أعقب ذلك لحظات عديدة من الصمت ، سألنى بعدها مباشرة ودون مقدمات عن تصورى لمشكلة الدين » (٨) .

وشهد ربيع سنة ١٩٠٧ نشر كتاب برجسون L'Evolution Creatrice وجاءت بطاقة چيمس على طريقته المعهودة ـ تعلن تسلم الكتـاب على النحو التالى :

كامبردج ١٩مايو سنة ١٩٠٧

« وصل كتابك الجديد .. حالا .. مرحى . مرحى . مرحى . وشكرا . سيصلك كتيبى عن البراجماتية فى ظرف أسبوعين .

و م . چيمس »

وبعد أن قرأ چيمس الكتاب ، ارسل الى برجسون الرسالة المطولة التالية :

شوكوروا ١٣ يونية سنة ١٩٠٧ (٩) .

« أى برجسـونى ـ انك لساحر ، وكتابك معجزة ، عجيبة حقيقيـة فى تاريخ الفلسفة ـ يستهل ، اذا لم يجانبنى الصواب ، عهدا جـديدا على الاطلاق بالنسبة

(٨) Translated from Bersson's Preface to the French translation of Jame's Letters, by F. Delattre and M. Le Breton, 1924. 9.

(٩) Reprinted from L.W.J., II, 290-4.

للموضوع ، ولـكنه على خلاف مؤلفات عباقرة الحركة « الاستشرافية » (التى يكتنف كتابتها الغموض والمقت والصد) ، فكتابك كلاسيكى صرف ـ بالنسبة للشكل . وقد تطرب للمقارنة ، ولـكنى بعـد ان انتهيت من قراءته وجدت له نفس النكهة التى يبقى طعمها فى المذاق ـ تماما مثل الطعم الذى يبقى بعد قراءة كتاب مدام بوفارى .. نكهة ذات رخامة دائمة ـ حسنة الجرس .. شبيهة بنهر غزير فياض لم يزد قط أو تقل مياهه او يخف تياره ، وانما يمضى قدما راسخا ثابتا وقد امتلأ شطئاه الى حافتيهما . ثم نزعتك فى ضرب الأمثلة ـ التى لا تخـدش ولا تخمش أبدا ولا تبرز فى زوايا قائمـة ، وانما بلا تبـدل ولا عوج ولا أمت ، تبسط الفكرة تبسيطا وتساعدها على التدفق فى يسر وسلاسة وتناغم . حقا انك لساحر . واذا كان كتابك التـالى سيثبت أنك متقدم خطوة عن هذا الكتاب ـ مثلما يقوم كتابك هذا عن سابقيه ، فمن المؤكد أن اسمك سيخلد فى التاريخ كواحد من عظماء الجهابذة الخلاقين فى الفلسفة .

مهلا . لقد مدحتك بما فيه الكفاية . ان أكثر ما يشتهيه كل فيلسوف أصيل (وفى الحقيقة كل رجل أصيل حقيقى) هو المديح والاطراء ـ وان كان الفلاسفة عادة ما يسمون ذلك « التقدير » . فاذا كنت لاتزال بحاجة الى مزيد من المديح والاطراء فما عليك الا أن تقول لى ، فأمطرك من فورى ، لأننى كنت طلق المحيا ـ تطفح ملامحى بالبشر والابتسام ـ منذ أول صفحة فى الكتاب الى آخر صفحة ـ من جراء سلسلة النعم والغبطة التى لم تنقطع أبدا . أشعر بأننى استعدت شبابى من جديد .

اما فيما يختص بمحتواه ، فلست الآن فى حال تسمح لى برد فعـل حاسم . فالكتاب زاخر بأمور جديدة على الاطلاق ، بحيث أن معاصريك يتطلبون وقتا طويلا لاستيعابها ، وأحسب أن قدرا كبيرا من تنميـة التفاصيل وتطويرها سـيكون من نصيب الجيل الصاعد الذين ستنبههم أفكارك وتفضى الى التألق والتلألؤ فى سبل لا تخطر لك على بال . وعندى أن الانجاز الحيوى للكتاب فى الوقت الحاضر هـو أنه يسدد طعنة مميتة للمذهب العقلى ـ لن يقوم له بعدها قائمة أبدا . ولكنه سيموت ميتة مشاكسـة قبل أن يلفظ انفاسه الأخيرة ، لأن القصور الذاتى للماضى موجود فيه ثم ان روح الاختصاصية والاحترافية والحذلقـة العلمية ، وكذلك اللذة الجمالية الفكرية لمعالجة فئات منفصلة منطقيا ومع ذلك مرتبطة ارتباطا منطقيا ، ... كل ذلك سوف ينظم صفوفه للدفاع المستميت . ان الابتداع الحيـوى élan vital الخـاوى الوفاض ـ الغامض المبهم ، كما طاب لك أن تتركه حيث هو ، سيكون بديلا سهلا للسخرية . ولكن الوحش يعانى الآن سكرات الموت ... والطريقة التى سددت بها الطعنة اليه ... ضربة معلم فى الدرجة القصوى ... سيعلك كتابى « البرجماتيـة » فى نفس الوقت مع هذه الرسالة . ما أشد هزاله ونحافته بالقياس الى نظامك الفخم الضـخم . ولكنه مجانس جدا لأجزاء من نظامك ومطابق لفرجاته ، بحيث انك لن يعسر عليك فهم السر فى حماستى . اننى أشعر أننا أساسا وفى القرار نخوض نفس المعركة ، انت فى مركز القيادة وأنا جندى فى الصفوف ...

... وعلى الجملة فان حقيقتك تندس فى خلفية هذا الكتاب لدرجة أننى أتساءل : اما كان فى وسعك أن تبرزها على نحو أكثر اكتمالا وبطريقة ملموسة هنا ؟ أم لعلك تحتفظ بكشوف فى حوزتك فعـلا ، لمجـلد لا حق آخر فى المستقبل . وسواء أكانت فى

حوزتك الآن أم لا ، فانها ستأتيك يقينا فيما بعد على اية حال وستؤلف مجلدا جديدا . وليس ثمة ريب فى أن تصادم أفكارك هذه مع الأفكار التقليدية سيولد احتكاكا يتطاير منه الشرر الذى سيضيء عديدا من الأماكن المظلمة ، ويضع فى مجال الرؤية ما لا حصر له من الاعتبارات الجديدة . بيد أن السبيل قد يكون بطيئا ، لأن الأفكار فى الدرجة القصوى من الثورية . واستطيع أن اتنبأ بأنه عندما يتحول المد فى صالحك ويحالفك التوفيق ، فان كثيرا من الاتجاهات الفلسفية السابقة سوف تبدأ الصراخ قائلة « لا جديد فى هذا وليس فيه شيء سوى ما جادلنا فيه طويلا وتنازعنا فى أمره » . وسيدعى كل من هؤلاء الأسبقية ارادة شوبنهاور العمياء ، ولاوعى هارتمان ، وحرية فيشته الاروميه ... ولكن لا بأس ... فليدع من يشاء ما يشاء ... بل ان ذلك من الخير لك اذا كان جديدك يلتحم فى بعض مقومات خطوط الاتجاهات القديمة . ولا بد أن الصوفية سترفع الدعوى وتطالب بحق الأسبقية — ومما لا شك أنها دعوى عادلة . وسأكتفى بهذا القدر الآن اذ لا مزيد عندى من القول ، فهذا مجرد رد فعلى الأولى ، ولكننى فى غاية الحماسة لدرجة أننى قلت من يومين فقط « حمدا لله أننى عشت الى هذا اليوم — وأننى شاهدت الحرب اليابانية — الروسية — وشاهدت ظهور كتاب برجسون الجديد — فهما أعظم نقطتى تحول حديثتين فى التاريخ وفى الفكر الانسانى . « لك أحر تهنئتى وأخلص احترامى وودى ،

و م . چيمس »

باريس ٢٧ يونيه سنة ١٩٠٧

« عزيزى البروفسور چيمس ،

« لقد أنعمت على رسالتك بسعادة عظيمة ، ويجب على أن أبعث اليك بالشكر والثناء فورا . أنت على صواب فى قولك ان الفيلسوف يحب المديح والاطراء ، وانه فى هذا يشبه بقية بنى جنسه من البشر الفانين . ولكن اسمح أن أقول لك ان الأزر الذى كنت أبتغيه بصفة خاصة ، هو أزر المفكر الذى أسهم بكل هذه القوة والعمق فى اعادة تشكيل روح الأجيال الجديدة ، والذى أثار عمله فى نفسى دائما أعمق الاعجاب فى أسمى مراتبه . ثم ان الرسالة التى تعلن فيها استعدادك لتبنى الأفكار الجوهرية لكتابى ، والتى دافعت عنها مقدما ضد الهجمات التى من المؤكد أنها ستستفزها — تمس صميم فؤادى فوق كل شيء . اننى أحتفظ برسالتك الى جانبى وأرنو اليها كتعويض كاف لقاء جهد السنوات العشر الذى كلفنيها هذا الكتاب ... بدأت قراءة كتابك البراجماتية فى نفس اللحظة التى وضع البريد الكتاب فى يدى ، ولم أستطع ان أتركه من يدى حتى أتممت قراءته . انه برنامج فلسفة المستقبل ، يترسم ويتتبع اقتفاء على نحو بديع رائع يستحق الاعجاب . وبخطوط متعددة مختلفة من الاعتبار ، استطعت دائما أن تجعلها تتلاقى عند نفس النقطة البؤرية ، وبايحاءات ملهمة وكذلك بأسباب وحجج بينة ، استطعت أن تنقل الفكرة ، وفوق كل شيء الاحساس بتلك الفلسفة اللدنة المرنة المطاوعة السهلة الانقياد التى مصيرها أن تحل محل المذهب العقلى ...

وعندما تقول ان الحقيقة بالنسبة للمذهب العقلى حقيقة جاهزة وكاملة منذ

الأزل ، فى حين أنها بالنسبة للبراجماتيــة ما زالت فى سبيل التكوين » (١٠) فانك بهــذا تعطى نفس الصــيغة بالذات للميتافيزيقيا التى انا على يقين بانهــا آتية لا ريب فيهــا ، والتى كان ينبغى علينـــا أن نبلغها منذ زمان طويل لولا اننا ظللنا أسرى تعويذة المثالية الافلاطونية . لك منى ... الخ ...

هـ · برجسون »

وعندما وصل چيمس الى اكسفورد فى سنة ١٩٠٨ لالقاء محاضرات هيبرت كان أول شيء فعله هو الكتابة الى برجسون · كان من ضـــمن برنامج محاضراته «حديث عن «برجسون» . ونقده للمذهب العقلى» وكتب الى برجسون يطلب منه تزويده بتاريخ حياته بما فى ذلك « أية مغامرات اشتركت فيها تستحق الذكر ، ســـواء أكانت غرامية أم بطولية أم فلسفية (!) ··· الخ ··· الخ ··· تفاصيل تثير الاهتمام » .

ورد برجسون فى اليوم التالى :

باريس ٩ مايو سنة ١٩٠٨

« عزيزى البروفسور چيمس ،

لا يمكننى ان اصف لك مبلغ شـــعورى بالسرور ، مساء الأمس عندما تعرفت على خط يدك على غلاف رســالة تحمل طابع بريد انجليزى . ها هى ، أخـــيرا ، فيما آمل ، فرصة مواتية للحديث معك ... وانك لتمنحنى شرفا عظيما اذ تخصص احدى محاضراتك فى أكسفورد لى ... كم كان يسعدنى لو تسنى لى أن أستمع اليك ، فى هذه المحاضرة وفى المحاضرات الاخرى أيضا ... وعلى أية حال ففى مرجوى الا تتوانى فى ضمها جميعا فى مجلد واحد .

والآن بخصوص الأحداث أو المغامرات التى تستحق التنويه ، أقول ان مجـــرى حيـــاتى خال منها تماما — على الاقل لا يوجـــد فيها احداث مشهودة — من الوجهـة الموضوعية . اما من الناحيـــة الذاتية فليس فى وسعى الا أن أعزو أهمية كبرى للتغيير الذى حـــدث فى طريقة تفـكيرى فى أثنـاء السنتين اللتين أعقبتا تركى لمدرسة النورمان منذ سنة ١٨٨١ الى ســنة ١٨٨٣ . لقد ظللت حتى ذلك الوقت مشربا تماما بالنظريات الميكانيكية للكون التى استقرت فى ذهنى فى باكورة حياتى من جراء قراءة هربرت سبنسر ، وهو فيلسوف شايعته وناصرته وأسلمت زمامى له دون أى تحفظ — تقريبا . وكان فى نيتى أن أكرس نفسى لما كان يسمى فى ذلك الوقت فلسفة العلوم ، وابتغـــاء ذلك المأرب أخذت على عاتقى ، بعد تركى مدرسة النورمان فحص بعض الأفكار العلمية الأساسية . ولقد كان تحليل فكرة الزمن ، كما يدخل تلك الفكرة فى الميكانيكا والطبيعة ، هو الذى قلب أفكارى رأسا على عقب . لقد تبينت ببالغ الدهشة والاستغراب ، أن

---

(١٠) Pragm., 257.

الزمن العلمى لا يثبت ولا يدوم ، وأنه لن يتضمن أى تغيير فى معرفتنا العلمية اذا فتحت طيات الحقيقة من حيث الكل او المجموع مرة واحدة حالا ومباشرة ، وأن العلم اليقينى يتألف بالضرورة والحتم من حذف الديمومة . وكانت هذه نقطة الانطلاق لسلسلة من التأملات أفضت بى بخطوات تدريجية الى أن أنبذ ـ تقريبا ـ كل ما سبق أن سلمت به حتى قبلئذ ، وأن أغير وجهة نظرى تغييرا كاملا ... فى كل ذلك ، وفى أكثر من ذلك بالاضافة الى مؤلفك الاخير عن البراجماتية ، آمل أن يتسنى لى عاجلا الحديث معك .

وفى غضون ذلك ،ياعزيزى البروفسور چيمس ابعث اليك باحتراماتى الحبيبة المخلصة ،

ه . برجسون »

وفى يولية أرسل چيمس الى برجسون تجربة الطبع الخاصة بالمحاضرة التى ألقاها عن فلسفة برجسون . ورد عليه برجسون شاكرا تسلمها بالجواب التالى :

شومونت ـ سيرنيوشاتل ٢٢ يوليه سنة ١٩٠٨

عزيزى البروفسور چيمس

يجب على أن أخبرك على الفور بالمتعة العظيمة التى نعمت بها من قراءتك . لم يسبق أبدا أن سبرغورى او فهمت أو استوعبت .. بكل هذا النفاذ والاحاطة . لم يسبق لى أبدا أن أدركت ووعيت كل ذلك التعاطف والانجذاب بينى وبينك « والتناغم الراسخ أصلا » الذى يؤلف بين فكرتى وفكرتك . واسمح لى ان أضيف أنك لم تقتصر على تحليل أفكارى فحسب ، ولكنك أضفيت عليها التجلى والتألق وشكلتها دون أن تصيبها بأقل تشويه بحال من الأحوال . وطوال قراءتى لعرضك لأفكارى ، وأنا أفكر فى تلك الاستيلادات النفيسة التى يشتقها أساتذة النحت من صور أصلية ـ ينقلونها ثانية فتصبح قطعا فنية بارعة رائعة ، فى حين أنها فى حد ذاتها ـ وقبل اعادة نقلها ـ تكون صورا عادية ..

أعتقد اننى أدرك الفكرة الجوهرية لكتابك ـ وهى فكرة هامة تعلو على بقية الأفكار الأخرى وتفوقها ، وهى سوف تبدد المشكلات والصعوبات التى تراكمت على يد الفلاسفة حول مسأله الملاقة بين أجزاء الخبرة للخبرة ككل . وفى مرجوى أن يتسنى لى حالا قراءة كل هذا الكتاب الذى سيؤلف حلقة الاتصال بين « مبادىء علم النفس » و « الانواع المختلفة للخبرة الدينية » وفى نفس الوقت يعطى شكلا حاسما نهائيا للفلسفة التى يبدو أن البرجماتية تومىء اليها ـ وهى فلسفة مصيرها ـ بلا أدنى ريب ـ أن تنسخ وتبطل وتحل محل اليقينية التعسفية الميتافيزيقية القديمة .. لك منى يا عزيزى البروفسور چيمس .. الخ .. الخ ..

ه . برجسون »

وفى غضون ذلك كان چيمس وبرجسون يحاولان أن يلتقيا ويرى كل منهما الآخر ، ولكن بسبب مصادفات المرض والسفر ، لم تتم المقابلة حتى اليوم الرابع من أكتوبر فى لندن ــ وقبل ابحار چيمس عائدا الى الوطن بيومين اثنين . وتسجيل هذه المقابلة مدون فى رسالة بعث بهـا چيمس الى فلورنوى فى نفس التاريخ . وفى معرض الحديث عن الفلاسفة المتعددين الذين قابلهم فى اكسفورد ولندن قال چيمس :

« أحسن تلك المقابلات ، هو لقاء استمر ثلاث ساعات سويا هذا الصباح بالذات مع برجسون ، الذى قدم الى هنا لزيارة أقاربه . رجل فى غاية التواضع والرقة وعدم الادعاء ، ولكنه من الناحية الفكرية ــ عبقرى فذ . ولقد جرى الحديث بيننا بكل يسر ، أو بالأحرى تحدث هو بكل يسر لأنه تحدث أكثر بكثير مما تحدثت أنا ، وعلى الرغم من أننى لا استطيع الزعم بأننى تغلغلت فى طوايا نظامه على نحو أوضح مما كنت عليه من قبل ، الا أن الأمر الذى لاشك فيه أنه جعل لى بعض النقاط أكثر وضوحا وجلاء . وأكبر الظن ــ فى رأيى ــ أن الاتجاه الذى أفلح برجسون فى تركيز الانتباه عليه وبلورته ، سينتهى بأن يسود . وأقوى اليقين أن العصر الحالى سيكون بمثابة نقطة تحول فى تاريخ الفلســـفة . ثمة أمور كثيرة تتقــارب وتتجمع لتشكل بلورة مضادة للمذهب العقلى Qui vivre verra (١١) (من يعش سوف يرى) .

وفى ربيع سنة ١٩٠٩ تسلم برجسون نسخة من كتـــاب « كون تعددى » وقرأها بحماسه المعهود فيه وباحساسه المميز من الموافقة :

باريس ٣٠ ابريل سنة ١٩٠٩

« عزيزى وليام چيمس ،

انتظرت كتابك الجديد نافد الصبر ، واشكرك لارساله الى . انه كتاب رائع مدهش جدير بالاعجاب ولا لوم لى عليه ولا تثريب سوى تجاوزه الحد فى التواضع وتقديم أسماء فشنر وبرجسون ، فى الوقت الذى ينبغى أن ينصب فيه اهتمامنا ورنونا على وليام چيمس ــ على كلمته وفكرته وروحه ذاتها . ان الكتاب يقول أشياء كبيرة ، ولكنه يوحى بأكثر مما يقول . انه يفسر ويحدد ويسوغ التعددية ، ويمكننا من أن نضع أصبعنا على العلاقة المحسوسة للكائنات ــ بعضها ببعضها الآخر ، وهو قطعا يضع أسس « التجريبية الراديكالية » ، هــذا هو ما يقوله . ولــكنه يوحى شيئا وراء ذلك ــ انفعالا سلوانيا معينا يستل من صميم الواقع ذاته . انك تتحدث فى خاتمة الكتاب عن تلك « الخبرات الخلاصية ، التى اختصت بعض الأرواح بميزة التمتع بها . وما لم أخادع نفسى ، فان كتابك اذا أضيف الى « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » سيعمم خبرات من هذا النوع

(١١) L.W.J., II, 314-5.

ويدخلها فى نفوس اولئك الذين ليست لديهم اى فكرة عنها ، أو ينشئها وينميها حيث لا توجـد الا فى حالة غريزة بدائيـة . هنالك يلتمس دين الفـد ، وفلسفة الغد سواء بسواء ..

هـ . برجسون »

وسرعان ما تلا كتاب « معنى الحقيقة » سلفه « كون تعددى » ، وتسلمه برجسون فكتب ما يلى :

باريس ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٩

« عزيزى چيمس ،

ان ما يبدو لى انه يبرز فى هذا الكتاب ـ اجمالا ـ هو بصفة رئيسية التمييز الواضح بين الواقع والحقيقة ـ وبناء على ذلك ـ امكان بل اكاد أقول ضرورة أن البراجماتى ينبغى أن يكون فى نفس الوقت واقعيا . وليس مما يدعو للدهشة ، أن الناس يجدون صعوبة كبيرة ومشقة بالغة فى فهم هذا . فلا شك أن كل عادات عقلنا ، عادات كلامنا أيضا ، تعمل فى الاتجاه المضاد ، لأن كليهما يتشكلان فى القالب الأفلاطونى . فاذا ما تمثلنا لأنفسنا عالما من الأشياء ، فليس ثمة مفر من ان نعتبر الحقيقة على انهـا تتألف من مجموعة زيجات الحب التى تؤدى الى اقتران تلك الاشياء (أو تلك الأفكار) الى الأبد ـ بحيث تجعل الواقع والحقيقة لفظين من رتبة واحدة . وسيقتضى الأمر وقتا طويلا لتبديد هذا السراب تبديدا كاملا ..

مرة اخرى ـ على عجل ـ لك كل تحياتى وتقبل منى .. الخ ..

هـ . برجسون »

وفى باكورة سنة ١٩١٠ نشر چيمس خطابه المشهور عن « المعادل الأخلاقى للحرب » ، وكذلك مقالة (١٢) أخرى وصف فيها أربع خبرات شخصية غريبة نوعا ما « فى أثناء الخمس السنوات الماضية » ، ارتأى أنها قد تلقى الضوء على الصوفية .

وفى كل تلك الخبرات الأربع ، التى برزت ثلاث منها من استجماع الذكرى ، والرابعة من الأحلام ، يبدو أنه كان هنالك نوع من « الكشف » الفجائى لمجالات خفية من الواقع ، متصلة بالعالم الطبيعى للشخص ، ولكنها تقع فيما وراءه .

باريس ٣١ مارس سنة ١٩١٠

« عزيزى چيمس ،

لم أخبرك ، بعد ، الى أى حد تمتعت بقراءة مقالتيك : « المعادل الأخلاقى الحرب » و « اقتراح بشأن الصوفية » . لقد نعمت بقراءتهما الى أقصى درجة . والأولى بكل

(١٢) "A Suggestion about Mysticism," Jour. of Philos., VII (1910).

تأكيد هى أجمل وأنق وأقنع ما قيل بشأن عدم ضرورة الحرب ، وبشأن الظروف التى يمكن فى ظلها الغاؤها الغاء دون تقليل الطاقة الانسانية ، أما بخصوص مقالتك عن الصوفية ، فأنا متأكد انهـــا ستكون نقطة انطلاق لمزيد من التعليق الطازج والملاحظة الغضة والبحث الجـــديد . ولست واثقـا من أننى قد مارست ابدا ذلك الضرب من « الكشف » ولكن لعل الظاهرة التالية ـ التى ساقصها عليك ـ لا تخلو من شىء من هذا الكشف ـ وهى ظاهرة مارستها أحيانا (ولكن نادرا) فى الأحلام : اعتقدت أننى كنت حاضرا أمام مشهد فاخر نفيس ـ منظر طبيعى رائع الحسن زاهى الالوان ـ كنت أسافر خلاله بسرعة كبيرة ، بحيث ترك فى نفسى انطباعا عميقا جدا من الواقع لدرجة اننى لم أصدق ، فى اللحظات القليلة الأولى بعد اليقظة ، انه كان مجرد حلم . وحقا ، فى أثناء اللحظة القصيرة جدا التى استمر فيها الحلم (والتى لا تزيد على ثانيتين أو ثلاث على أقصى تقدير) كنت فى كل مرة ينتابنى احساس واضح بأننى مقبل على خبرة خطيرة ، وان الامر متوقف على تطويلها ومعرفة النتيجة اللاحقة المترتبة عليها ، ولكن ذلك الشىء كان يمتد ويتورم فى داخلى أكثر فأكثر ، وأنه لابد أن ينفجر اذا لم أنقذ الموقف بالاستيقاظ من النوم . وبمجرد الاستيقاظ كان ينتابنى فى نفس الوقت احساس بالنـــدم لأن ذلك الحلم قد انقطع ، واحساس واضح تماما بأننى ـ أنا الذى شئت قطعه . وانى أضرب لك المثل بهذه الخبرة على علاتها . ولعلها لا تخلو من بعض الارتباط بخبراتك بمقدار ما توحى بفكرة امتـــداد مؤقت لمجال الوعى ـ وأن كان راجعـا الى مجهود عنيف . لشد ما أرغب فى أن تتابع هذا البحث الخاص « بالقيمة المعرفية الصرف للحالات الشاذة » . أن مقالتك ـ اذا ضمت الى ما قلت فى « الانواع المختلفة للخبرة الدينية » تفتح ابعادا عظيمة منظورة فى ذلك الاتجاه . عما قريب فيما آمل ...

لك حبى وولائى ،

هـ . برجسون »

وفى ربيع سنة ١٩١٠ عاد چيمس مرة أخرى الى أوروبا . ووصل الى باريس فى يوم ٥ مايو وتناول الغداء مع برجسون مرتين . وكان ذلك آخر لقاء بين الرجلين .

وفى يونية سنة ١٩١١ ـ بعد موت چيمس بعشرة أشهر ، كتب برجسون الى زوجة چيمس أنه أعاد قراءة كل مؤلفات زوجهـــا الأخيرة تمهيدا لاعداد نفسه لكتابه مقدمه للترجمة الفرنسية لكتاب البراجماتية . واضاف الى ذلك قوله أنه فى حين كان يحاول أن يكتب عن چيمس بطريقة لا شخصية مجردة تماما عن كل هـــوى وتحيز ، الا أنه لم يستطع أن يتجنب ما ينم عن الافصاح عن شىء من احساسه الخاص نحو ذكراه . ولقد أعطى برجسون هذه المقدمة عنوان « الحقيقة والواقع » ، وكما يومىء العنوان ، فان برجسون كان مهتما قبل كل شىء بالتدليل على أن البراجماتية ـ فى مضامينها ـ ان لم تكن فى توكيداتها الظاهرة ـ كانت

ميتافيزيقية ؛ ذلك أنها تتضمن أن الواقع « متعال عما هو مألوف وزائد وفائض » . وأنه يختلف عن النظم المبسطة للفلسفة والبداهة كما تختلف الحياة فى كل ابتداعها وابتكارها وتخصبها وانباتها عن التمثيلات المختارة والموحدة التى تمثلها على المسرح . فمصدر والهام البراجماتية ــ كما يقول برجسون ــ يلتمس فى هذه الفكرة عن الواقع ــ الذى يشترك فيه الانسان ــ واقع لا تتكشف طبيعته له الا عندما يشعر به متـــدفقا فى عروقة ، أو يستشف تياراته العميقة فى غمرات الخبرة الصوفيـــة . والبراجماتية هى نظرية الحقيقة المناسبة لمثل تلك الميتافيزيقيا . والحقيقة ظهير للعمل والأداء ــ سلك الارشاد ــ يهتدى الانسان بوساطته ليعرف طريقة ويثبت قدمه فلا يضل ، فى وسط الجدة الادراكية الحسية .

ومع هذا المذهب للحقيقة ، وكذلك مع ميتافيزيقياته المكملة ــ كان برجسون نفسه متفقا ــ اجمالا ــ ولقد شهد بعمقه واصالته وابتكاريته وسموه الخلقى .

أما الاستخفاف الخسيس أو الطعن المبتذل الموجه ضد البراجماتية، على اعتبار أنها مذهب الحادى أو نفعى ، فقد قال برجسون أن ذلك لايذهل ولا يحير الا أولئك الذين عرفوا چيمس نفسه ، اذ لا يوجد امرؤ أحب الحقيقة بكل غيرة وحماسة وقوة ، وسعى اليها سعيها وهو مؤمن فى مثابرة وانكار للذات ، أكثر من چيمس (١٣) .

على أن الحب والاحترام اللذين ربطا بين چيمس وبرجسون يزودانا بمثال عظيم أخاذ لنـوع من الصـــداقة الوثيقة دون غمـر للفروق الفردية . فكل منهما بايع الآخر ودان له بالولاء والاخلاص ، ولكن دون فقدان للاستقلال الذاتى أو لشهرة كل منهما على حدة . ولقد اكتشف كل منهما اتفاقهما المذهبى وتجاذبهما الشخصى العميق دون أى شبهة من منافس ، وانما باحساس شكور سار بار بالتأييد والتوفيق ، وبالأمل المعزز بأن الحق غالب وسوف تكون له الكلمة العليا .

---

(١٣) W. James, Le Pragmatisme, trans. by E. le Brun, 1911, 1-16.

٣٧

العمل الذى لم يتم

فى المقدمة التى كتبها برجسون سنة ١٩٢٤ للترجمة الفرنسية لرسائل چيمس ، قال برجسون عن چيمس :

« كان مصطلى متأججا ـ يشع بالحرارة والضوء » (١) .

ولقد ظلت روح چيمس تتوهج وتتألق ـ حتى فى السنة الختامية من حياته على الرغم من تدهور صـحته السريع ـ وظلت تشع بالحرارة والضوء على السواء . وانبعث فيه اهتمام جديد أحيا شـغفه بالخبرة الصوفية . وظهر بحث «اقتراح بشأن الصوفية» فى فبراير سنة ١٩١٠ .

أما آخر كتاباته التى نشرت فى حياته فقد كان المقال الموسـوم بـ « صوفى تعددى » الذى كرسه لعرض فلسفة وعبقرية صديقه القديم بنجامين بول بلود .

أما حقيقة كون اهتمامه بالمشكلات الجارية ظل نابضا وفوارا مثلمـا كان دائما ، فتشهد بها كتابته ونشره لمقال « المعادل الأخلاقى للحرب » فى شهر فبراير من نفس السنة .

على أن المشروع الفلسفى الهام الذى شـغل بال چيمس فى أواخر أيامه ، كان تأليف أعظم كتبه من الوجهـة الفنيـة التطبيقية وأكثرها استدلالا وأدقها محاجة . ولقد انبثق هذا الكتاب ونما من مقررات دراسية تمهيدية ألقاها فى هارفارد وستانفورد تحت عنوان « بعض مشـكلات الفلسفة » ، والتى قصد بها أن تكون كتابا دراسيا يستخدم على مستوى الكليات ، وأن يكون واسع الانتشار والتداول ، ولكن هذا الكتاب كتب للقراء ولم يكتب لجمهور من المستمعين ، ومن ثم كان يختلف من هـذه

---

(١) Delattre et Le Breton, William James: extraits de Correspondence, 1924, 7.

الوجهة عن كل مؤلفاته الفلسفية فيما عدا « مقـــالات فى التجريبية الراديكالية » و « معنى الحق » ، وان كان يختلف أيضا عن هذين فى كونه ألف كأطروحة موحدة كاملة ، لا كمجلد يضم بين دفتيه مقـــالات مستقلة . وهذا الكتاب أو بالأحرى هذه « المقدمة » كما اسماها چيمس اولا ، بدئت فى ٢٨ مارس سنة ١٩٠٩ واستمرت بلا انقطاع • ولقـــد قرئت أجزاء من المخطوط ونقدت بوساطة أصدقائه فى أوروبا فى أثنـــاء صيف سنة ١٩١٠ . ولم يقدر لهذا المخطوط أن يتم أبدا ، ولكن چيمس ترك تعليمات مكتوبة لنشره جاء فيها : « قولوا انه شظوى مؤلف من كسر أو نتف ، وأنه لم يراجع أو ينقح . . قولوا اننى كنت أؤمـــل بكتابته أن أكمل نظامى ، الذى يشبه الآن الى حد كبير ــ قوسا أو قنطرة ــ بنيت من جانب واحد فقط » (٢) .

ولقد أهدى هذا الكتاب « الى ذكرى رينوفيير العظيم » . وهكذا نجد أن چيمس فى نهاية المطاف كان مخلصا وبارا ووفيا لبداياته .

وليس ثمة ريب فى أن هذا الكتاب يمثل اعراضا مؤكدا عن الجدليات وعن العياذ الأدبى والرواجية التقريبية من ميل الجماهير أو فهمها ، وعن الصوفية وعن خطرات التأمل الخيالى .

وفى معرض الكتابة لصديق له فى ألمانيا ــ بعد ظهور مقاله عن بلود ــ أشار اليه بقــوله « بيان مدهش زاخر بالقوه ــ دفاعا عن التعددية » ، ولكنه أضاف « وسيكون هذا آخر عهدى بمرحلة المباهاة والفخـــار بالقوة » (٣) .

والآن ، وهو فى ختام حيـــاته كان يكتب بمزاج كله رزانة ووقار واعتدال . ونازل المنطق فى معقله ، وذهب بعيدا الى حد التبرؤ من تلك « الضد ــ منطقية » التى على الرغم من أنه سبق أن ادعى أول الأمر أنها ميزة له ، الا أنه لم يجد غضاضة عندما كان الآخرون يطبقونها تطبيقـــا شائنا زاخرا بالغمز واللمز .

وبعبارة أخرى ، فان هـــذا العمل كان يمثل محاولة « لتـــوقع ذلك الوضوح والجلاء الأعظم » الذى كان چيمس يؤمن بأنه سيتبع الطور الرومانتيكى للفلسفة الجديدة ، فى حين أنه فى نفس الوقت عالج بعض

(٢) S.P.P., vii, viii.

(٣) To. J. Goldstein, June 29, 1910.

الموضوعات المعينة التقليدية من الميتافيزيقيا التى كان المؤلف قد اغفلها حتى ذلك الوقت ابتغاء نشر واذاعة وجهة نظره العامة .

وعالجت الفصول الثمانية الأولى من الكتاب مسائل سبق لچيمس أن تناولها تناولا كاملا فى مواضع أخرى مثل التفـرقة بين « المدركات والمفاهيم » . اذ لابد أن يوجد دائما ــ كما قال ــ تباين بين المفـــاهيم والواقع ، لأن الأولى ساكنة ومتقطعـــة فى حين أن الواقع ديناميكى ومتدفق . وفشل التصور يصححه الادراك . والمفاهيم « حقيقية » فى « سبيلها الخالد » وهى تدخل فى اتحاد وثيق مع الادراك وتلعب دورا هاما فى الخبرة ولكنها « ثانوية . . وناقصة ووسلية » . وهذا التوكيد بأفضلية وأسبقية الادراك على التصور أصليا ومعرفيا على السواء « هو الاتجاه المعروف بالفلسفة التجريبية » ــ الذى سيتشبث به المؤلف فى بقية الكتاب ويعض عليه بالنواجذ » (٤) .

فالتجريبية تتضمن التخصيص والتعددية والجدة ــ وفى هذه النقطة بالذات طرأت اضافات هامة على تفكير المؤلف وضعها فى كتابه .

وكانت الحرية دائما احدى العقائد الأساسية لفلسفة چيمس . ولقد لاءم دائما بين ميتافيزيقيته وبين أخلاقياته فى هذا الصدد .

بيد أن چيمس انتهى الى النظر الى « صدفيته » الأولى بتوكيدها على مجرد المصادفة والحظ ، كشكل سلبى فقط من أشكال المذهب العقلى. فطبقا لهذا المذهب فان الوحدات التى يتألف منها الواقع اما أن تكون متشابهة أو لا تكون متشابهة : والجبرية تقول انها متشابهة ، والصدفية تقول انها ليست متشابهة . ومن ثم فان التناقض الظاهرى للصدفية ــ وشناعته بالنسبة للعقل الفلسفى ــ يكون فى تركها للمواجيد المختلفة فى حالة عدم ارتباط أو تعلق كلى بينها . على أنه من الجائز ، مع ذلك أن يقال ان حدثين متتاليين متشابهان وغير متشابهين فى آن : فالأول يفضى الى الثانى والثانى ينبثق من الأول . فهنا جدة ، ولكنها جدة ، عندما تحدث ، تبدو طبيعية ومعقولة مثل اتمام اتجاه أو بلوغ وطر . وهذه الفكرة الخاصة « بعالم فى حالة نمو حقا » هى الموضوع العام والمبحث الرئيسى

---

(٤) S.P.P., 93 ff. 98-101, 106-7. 218. James reiterates his tejection of nominalism and harks back to the view which he had announced as early as 1879; cf. C.E.R., 109-15.

للجزء الأخير من كتاب « مشكلات الفلسفة » ، وهو المبحث الذى ربط بينه وبين برجسون برباط وثيق ، وهو المبحث الذى شغل باله ــ بشكل متزايد فى أثناء السنوات والأشهر الأخيرة من حياته .

بيد أن مشكلة السببية ظلت بلا حل ــ فى رأى چيمس . لأن الفلاسفة تأرجحوا بين وجهتى نظر مستحيلتين ، هما أن السبب والنتيجة متطابقان، وانهما خارجيان ووجود أحدهما حاجب للآخر . وهذا هو المذهب العقلى مرة أخرى بأبداله الحادة وتناقضاته المنطقية .

فى حين أننا اذا اتجهنا الى « خبرة النشاط » وجدنا فاعلية «متعدية» لا توجد بين السبب والنتيجة ولا تقسمهما ــ وانما تحمل الواحد الى الآخر وتفضى بهذا الى ذاك . فاذا ما تساءلنا عما اذا كانت كل الأسباب من هذا النوع التجريبى الاختبــــارى ، فلابد أن يتوقف الجواب على كيفية تصورنا لعلاقة العقل والجسم ، وعلى ما اذا كنا نقبل أو نرفض وجهة النظر الروحية المجسمة للعالم المادى .

وهنا توقف چيمس . لقد وعد بمناقشة المثالية والنفسجسمية وبرجسون فى الفصول التالية . ولكن هذه الوعود ــ لسوء الحظ ــ لم يقدر لها أن تتحقق أبدا . ولو قدر له أن يفى بها ــ لكان من المرجح قد بدد كثيرا من الصعوبات الجدية والشكوك التى أثارتهــا فلسفته . وفى أثناء الفترة التى تدهورت فيها قوته الجسمية ، ظلت قدرة چيمس على الود والألفة نابضة لم يعتورها أدنى فتور .

وكان اميل بوترو مدير مؤسسة تير فى باريس قــد نشر فى سنة ١٨٧٤ كتابا عن « اتفاق قوانين الطبيعة » وجلب له هذا المؤلف اعترافا وتقديرا على الفور ، وكان ناضجا فى السن والشهرة عندما بدأت صلته الوثيقة بچيمس . اذ على الرغم من أنهما كانا قد تبادلا من قبل رسالة أو رسالتين ، الا أن چيمس لم « يتعرف به » حتى خريف سنة ١٩٠٨ ووجده ــ على الفور ــ ودودا لطيف المعشر simpatico . (٥)

وكان بوترو ــ مثل چيمس من أبطال الحرية ضد مزاعم العلم ــ ومثل چيمس كان يؤمن بأن الحق يعبر عن الجزء الأخلاقى والجمــــالى فى الانسان مثلما يعبر عن الجزء الفكرى الأكثر ضيقا وحصرا . وبهذه الصفات والسجايا ولتمسكه بهذه المبادىء المجانسة الموافقة ، ولكونه

(٥) W.J. to Th. Flournoy, October 4, 1908, L.W.J., II, 314.

رجلا بسيطا مستقيما لا عــوج فيه ولا أمت ، انجذب اليـه چيمس انجذابا قويا . وكانا كأنهما يعوضان الفرصة الضـــائعة فى السنين الماضية ، فان صداقتهما نضجت بسرعة وأثمرت حبا ، وشكلت احدى الأحداث الهامة البالغة الدلالة للعاملين الأخيرين من حياة چيمس .

وفى يناير سنة ١٩١٠ ، وبصفته مديرا للأكاديمية الفرنسية للعلوم الأخلاقية والسياسية ، أعلن بوترو ببالغ السرور انتخاب چيمس زميلا أجنبيا ممثلا لأمريكا ، وفى مارس ألقى فى هارفارد سلسلة من المحاضرات هلل لها چيمس وصفق من صميم فؤاده .

وفى ٢٣ أبريل سنة ١٩١٠ ، ألقى بوترو بعــد عودته الى باريس خطابا أمام أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية ، وجعل موضــوعه الرئيسى « ملاحظات عن رحلته الى أمريكا » وألقى خطابه فى حضــور الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية ثيودور روزفلت ، وأمــام جم غفير من مشاهير رجال العصر الآخرين .

وأشار فى خطابه الى أنه لاحظ عن كثب عالم الجامعـــة فى أمريكا فقــال :

« واختص عالم الجامعه بالقسط الأوفر من صلاتى وملاحظاتى ، اذ كان لى الحظ أن أقيم مع البروفسور وليام چيمس الذى انتخبناه حديثا عضوا زميلا ضمن هذه الجماعة . ما أشد سحر وفتنة بيت الفيلسوف الشهير . بيت يقف منفردا وسط المروج والأشجار ، مبنى من الخشب على طراز المهاجرين الأوائل ، مثل معظم بيوت الحى الجـامعى فى كامبردج ، فسيح الأرجاء ، زاخر بالأسفار والكتب من قاعه الى قمته ، .. مسكن هادىء يليق بشكل مدهش بديع لأصحاب الدراسة والتأمل . وعلاوة على ذلك فان المتأمل فى مثل ذلك المنزل لا يتهدده خطر التدهور الى الأنانية والتمركز حول الذات . اذ هناك تسود عشرة وألفة وحياة اجتماعية تبلغ ذروة الظرف واللطف والأنس . و « المكتبة » التى يستخدمها البروفسور چيمس كمكان للعمل ، تحتوى ليس مكتبا ومناضد وكتبا فقط ، وانما أرائك ومقاعد وطنافس مبثوثة ترحب بالزائرين فى كل ســاعات اليوم ، بحيث ان الفيلسوف العميق يتأمل ويكتب وسط المحادثات البهيجة التى تدور بين السيدات وهن يتناولن الشاى » .

وعلى الرغم من أن صحة چيمس كانت تنذر فعلا بالخطــر ، الا أن آخر رحلاته الى أوروبا فى مايو سنة ١٩١٠ ، كانت بسبب اهتمـــامه بأخيه المحبوب وصديق عمره ــ هنرى . بيد أنه عندما وصل الى أوروبا تدهورت صحته سراعا وشعر عندئذ بأن النهاية قريبة . ومن لنــدن كتب الى بوترو فى السادس عشر من يولية يقول :

« منذ غادرت ناوهايم وصحتى تسير من سيىء الى أسوأ .. نوبات تشنجية فى ساعات الصباح المبكر .. تهد كيانى وتطرحنى مريضا طوال اليوم . ولست أقول ذلك على سبيل الشكوى ، ولكن على سبيل الاعتذار . لا تبدد عطفك على ، ولا تسرف فى المؤاساة ، لأننى استحق ــ على الاجمال ــ بؤسا وتعاسة أكثر مما ألقى . ان معرفتى بك واحدة من أكثر احداث حياتى سعادة وبرا ، وستظل ذكراها دائما مصدر مرضاة وحظوه » .

وقدم الى أمريكا مساء ٨ أغسطس سنة ١٩١٠ قبيل موته بأقل من ثلاثة أسابيع ، كتب چيمس رسالة أخيرة الى شيلر قال فيها :

« أترك « القضية » أمانة فى عنقك .. وداعا وليباركك الله . ستصلك أنباء وصولنا سالمين . حافظ على صحتك ، صحتك النفيسة . انها أحسن وأعز من كل « الحقائق » تحت القبة الزرقاء » .

وآخر رسالة حررها ــ كانت الى چيمس وارد ــ وكتبها فى لندن فى يوم ١١ أغسطس .

« لقد قضينا فى انجلترا زهاء شهرين هذا الصيف ، وكانت طبيعة الأشياء تفرض على ان التمس وأبحث عنك ، ولكنى وقعت فريسة لأزمة قلبية حادة ، بحيث أصبح اتصالى بالناس مستحيلا . اننا نزمع الابحار غدا الى الوطن .. وانى لأبعث اليك بكل هذه التحيات المقرونة بطلب المعذرة والمغفرة » .

أما رد وارد على هذه الرسالة فمؤرخ بتاريخ ١٦ أغسطس :

« لا بأس .. فدواعى الأمل والرجاء أوفر من دواعى اليأس .. ولنأمل فى الخير ــ فان لم يتحقق ــ فليكن ما يكون ــ ولا بأس أيضا .. لقد كانت حياتك يا صاحبى العزيز حياة ناجحة موفقة ــ ويقينا كانت حياة سعيدة . فأنا لا أعرف أحدا ظفر بحب الناس جميعا على أوسع نطاق مثلما ظفرت . وأنا ــ على الأقل ــ لم أسمع كلمة سوء تشينك من أى انسان .. وانى لأرى بكل وضوح وجلاء ــ أن التأمل فى زماننا قد افتتح صفحة جديدة حيثما تركت أثرا وأينما حللت » .

ووصلت رسالة وارد الى نهاية مطافها ... ولكن لم يقدر لصاحبها أن يقرأها أبدا ... فبعد أن حط چيمس رحاله فى كويبك حمل مباشرة الى نزله المحبب فى شوكوروا حيث انطفأ سراج حياته بسرعة ، ومات فى اليوم السادس والعشرين من أغسطس سنة ١٩١٠ .

بيد أن « ملك الموت » فى الواقع صرع چيمس قبل أن يقول كل ما كان عليه أن يقوله . فليس فقط بقى الكثير بلا قول ، وانما كانت هناك مشكلات كثيرة لم يفكر فيها ولم يعالجها . وعندما صرعه الموت ،

كان عجولا . بيد ان طبيعة آخر ما شغل بال چيمس واتجــاه آخر محاولاته وجهوده تدعم وتساند تصريحه الذى أعلنه قائلا :

« أعتقد أن لب كل مذهبى ، منذ قرأت رينوفيير من عدة سنوات مضت ، كان الايمان بأن قدرا يجرى فى الكون وبأن الجــدة حقيقــة واقعــة »(٦) .

أما وقد فسر فلسفته وأولها على هذا النحو ، فثمة بعض السداد فى حقيقة القول بأن عمل چيمس لم يتم . لقــد كتب فى سنة ١٩٠٨ يقول « لقد شاخ عمــرى ـــ بشكل مخيف ـــ فى عامى الأخيــر ـــ الا « فلسفيا » ـــ حيث مازلت أحتفظ بشبابى » . (٧)

بيد أنه « فلسفيا » لم يحتفظ بشبابه فحسب ـــ وانما يبــدو انه يزيد شبابا وفتوة . وليس ثمــة ريب فى انه لم يكن فى اية فترة من فترات حياته ، شديد النهم للاستطلاع ، وشــديد القــابلية للتلقى والحفظ ، وشديد الغيرة والحماسة فى تأمله وتفكيره ، مثلما كان فى سنوات حياته الأخيرة . وبينا نمت قواه الفلسفية وربت خصــوبته وثقته بنفسه ـــ فكذلك ايضا زاد عالمه تعقيدا وتشــويقا . ومن ثم ، فلا مناص ، من أن آخر نظرة ألقاها على العالم كانت لابد أن تكون نظرة فيما وراء الأفق ، وأن آخر عمل أنجزه كان لابد أن يكون سؤالا لا جوابا .

وعلى الاجمال يمكن ايجاز فلســفة چيمس برمتها تحت مفهوم التجريبية . ولكنى أعتبر نفسى أخفقت وفشلت اذا لم أكن قد خلفت فى القارىء انطباعا معينا يصون ذمتى وذمة چيمس ، الا وهو أن هناك ضربا من عدم التناسب فى لصق اى علامة على چيمس . ذلك أن اختزال فلسفة چيمس فى كلمة مبسطة أو عنوان موجز أو عــلامة على غــرار العلامات المميزة للبطاقات ـــ أمر يعتبر اساءة بالغة ضد روح فيلسوف لم يعترض أبدا على أية خبرة بدعوى أنها باهظة جدا ، ولا على أية جنة عامة بزعم أنها مزدحمة جدا ، ولا على أى عقل متسامح بحجة أنه عابث أو مهوش جدا . كان دائما يشعر بأنه سجين الحدود المذهبية ، حتى عندما كان يطبقها على نفسه . لقد أخذ على عاتقه عالما نفسيا علميــا

(٦) To James Ward, June 27, 1909.

(٧) To Pauline Goldmark, May 31, 1908.

شديد التدفيق والصرامة ، ولكنه مع ذلك فاق كل علماء النفس المحدثين فى تعدد وتكرار خيانته لعهوده الميتافيزيقية . فاذا كانت الطريدة التى سعى الى صيدها قد هربت وأفلتت من الحدود العلمية ، فانه قد تابعها وطاردها غير شاعر على الاطلاق بأنه كان يتخطى تلك الحدود أو يتجاوزها . وفى الحقيقة لقد عبر الخط الفاصل بين علم النفس والفلسفة مرات كثيرة جدا ـ ذهابا وايابا لدرجة أنه محاه محوا كاملا .

ولقد سمى نفسه تجريبيا وتعدديا وبراجماتيا ، وفرديا ، ولكنه كلما فعل ذلك ، كان يبدأ على الفور يصبو الى نكهة قدور الأسلوب العقلى ، والواحدية ، والمذهب العقلى والاشتراكية . كان يحب وجود بدن فى تفلسفه وكان يكره أن يترك اى شىء له نكهة أو قيمة غذائية ، وكان أكثر خوفا من الضحالة والنحافة مما هو من التناقض أو عدم الثبات .

وعلى هذا فان قياس مثل هذا الفيلسوف بالمعايير النظامية المنسقة معناه حذف جزء جوهرى من كيانه وقوامه .

كان يرفع كل شىء يمسه .

ويخصب كل فكرة تجول بخاطره .

ويحمل مشعلا وهاجا فى كل تمعجاته وتعرجاته ودوائره .

ولقد شعر بذلك ـ أيضا ـ أصدقاؤه من غير أصحاب الفلسفة مثل البرت فين ديسى الذى قال :

« وهكذا ذهب جيمس وولى من هذه الدنيا .. ومعنى ذلك أن رجلا طيبا صالحا قادرا قد نقص من الأحياء الطيبين القادرين على عوننا ومساعدتنا . أما مزية نظرياته أو صدقها ـ فهذا أمر ليس فى وسعى أن أتصدى للحكم عليه . وأحسب أنه أصاب بعض النقاط الضعيفة فى النظم الأخلاقية والفلسفية السائدة ، ولكنه لم يقم مكانها أية نظرية متماسكة . ولكنه ، كان يملك ، يقينا ، صفة يتحلى بها كل عظماء المفكرين فى نظرى ، فى أية ناحية من نواحى التخصص ، وأيا كانت المدرسة التى ينتمون اليها . كان ينطق بملاحظات عفوية ذات جدارة عظيمة وميزة كبرى ، أيا ما كانت القيمة النهائية لنظامه العام » (٨) .

---

(٨) To Mrs. Dicey, August 30, 1910, reprinted from Memorials of Albert Venn Dicey, ed. by Robert S. Rait, Macmillan and Company, London, 1925, 209-10.

وهذه «الملاحظات العفوية» ذات «الجدارة العظمى والميزة الكبرى»، التى لم يبالغ ديسى يقينا فى شأنها . تفسر لنا الحيوية العجيبة لتأثير چيمس فى النفوس . لقد انتشرت كفروع شجرة التين الهندى واستقرت جذورها فى أماكن متعددة . كان عقله وافر الثمر وآتى أكله ثمرا جنيا ، وانتشرت ثماره على أوسع نطاق وابعد مدى . ولم يدخر أى وسع أو يضيع أى فرصة فى الجوب والتنقيب والكشف ، غير مبال ولا هياب من أن يتيه بعيدا عن الطريق الممهد . والنتيجة أنه بينا نجد عددا قليلا من الچيمسيين الخلص ، بمعنى النسب المباشر ، الا أننا نجد العالم زاخرا بالچيمسيين المزوجين ـ المشوبين بالچيمسية الذين يقرون بالنسب المشترك له دون الشعور بأى رباط أو قرابة أو نسب فيما بينهم .

ولقد ظلت أفكار چيمس يانعة مورقة مثمرة ، فى حين أن أفكار كثيرين من معاصريه ذبلت وذوت ونضب معينها .

وليس مرد ذلك الى مجرد ما اتسمت به مؤلفاته من خصائص فحسب ، وانما الى روحها الارتيادية وبصيرتها التنبؤية ونهجها الارتقائى .

وليس من شك فى أن ثمة عناصر من تفكير چيمس تعتبر اليوم فى حالة خسوف ـ كالأبحاث الروحانية مثلا والتحررية الفردية ـ الخيرية . ولكننا اذا قارنا عام ١٩٤٧ بعام ١٨٨٥ وهو العام الذى يمكن أن يقال أن چيمس بلغ فيه نضجه ورشده ، وخططنا حركة العقل الانسانى والروح الانسانى فى أثناء فترة الستين عاما هذه ، وجدنا أنه مما هو جدير بالاعتبار حقا أن كثيرا من أفكار چيمس تواكب الأفكار التقدمية حتى يومنا هذا . فاهتمامه الذى أولاه للخبرة ، والتداخل المباح بين علم النفس والفلسفة فى دراسة الادراك والتفكير وغيرهما من أشكال المعرفة ، والثورة ضد ثنائية الموضوع والذات والجسم والعقل، وضربه عرض الحائط بالعقائد « العلمية » التعسفية فى أشكالها الميكانيكية والتطورية على السواء ، ودراسته التجريبية للدين ، واتجاهه لأن يعزو قيمة ذهنية الى الوعى الصوفى ، وانبثاق نظرية القيمة ، والاعتراف بالمصاحبات الانفعالية ، والاقترانات الشخصية الأخرى للتفكير ، وعلاقتها الوثيقة بالسلوك والعمل ، وانزاله للمطلق من فوق عرشه الذى تربع عليه ، وسقوط كل أشكال الواحدية المتطرفة

واللاحتمية ، وتوضيحه لتيار الوعى الدافق ، والاتجـاه الاكلينيكى فى علم النفس بتوكيده على الشخصية واللاوعى ، ونبذه للترابطيـة مع التوكيد على الاستجابة الحركية التكاملية والوحدة العضوية لمجـال الوعى ، ونمو علم النفس التطبيقى والاجتماعى ، والنسبية فى معانيها الكثيرة الواسعة المدى ـ هذه كلها بعض الأفكار المألوفة الشـائعة فى زماننا المعـاصر التى من الممكن أن تتيح لچيمس ـ لو كان حيـا الى اليوم ـ أن يتنفس فى جوها بكل يسر ـ والتى يجد أنصارها من الطبيعى أن يستشهدوا فى تعزيزها بأقوال چيمس .

٣٨

خـــلال وبيلة

أن خلق چيمس ، مثل تفكيره ، يفلت من الوصف القاعدى . « يا له من شخص حقيقى » . هذا ما قاله مينى تيمبل (١) .

لقد كان لديه ــ فى الحقيقة ، حقيقة عالمه التعددى الخـــاص ــ فياضا وزاخرا وبلا حدود ولا سدود ولا تخوم .

ولن أحاول هنا أى تشخيص اكلينيكى ، وانما سألاحظه بعين رجل ليس من أرباب التحليل النفسى ودون فرض مجموعة من الفئات المعينة من قبل كقضاء سابق .

وانه لمن الطبيعى أن نطبق فئاته نفسها وأن نتساءل عمـا اذا كان متقبلا صعب المراس للحقائق (من بنى جبال روكى) أو رجـــلا لين العريكة يقف من المبادىء موقف الاحترام والتبجيل (من بنى بوسطون الهينين الليثين(٢)) .

وفى الواقع من الأمر ، كان چيمس كلا الرجلين ، أو لعلنا نكون أكثر دقة اذا قلنا انه كان صاحب عقـــل صعب المراس مع كثير من الرقة والليونة فى القبول والاذعان العقلى ــ تماما مثلما يمكن القول بأنه كان تعدديا مع تنازلات مذعنة للواحدية . وما كان چيمس ليوجد هـــذا التمييز والفرق لو أن خبرته لم تحتضن كلا النوعين من العقلية ــ ولو لم تكن عنده كلا الحالات المزاجية من صعوبة المراس ولين العريكة على السواء ــ ومن ثم فان فلسفته كطريقة تمثل خلقـــه أصـــدق تمثيل وتصون ذمته حيال نفسه ــ كانت تحت ارغام باطنى لارضـــاء العقليتين والمزاجين والاتجاهين جميعا .

وثمة تفرقة أخرى من تفرقاته الشهيرة ــ وهى التفـــرقة التى

(١) N.S.B., 511. Cf. above, 267-8.

(٢) Pragm., 12-3.

اصطنعها فى كتاب « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » بين « العقــل الصحى » و « الروح المريضة » .. فالعقل الصحى يتمتع باحســاس بالانتصار الميسور أو المؤكد على الشر ، ويملى شروطه عليه ، ويعتبره عنصرا غريبا يمكن التغلب عليه أو قهره . فهو يتمتع ــ على حد تعبير چيمس ــ « بمزاج يميل ميزانه ــ عضويا ــ الى جانب المرح والبسط والطرب ، ومحظور عليه ــ كما لو كان قدرا مقدورا ــ أن يستطيــل كما يستطيل أصحاب المزاج المضاد ــ فى النواحى الكئيبة المظلمــة من الكون »(٣) .

أما الروح المريضــــة ، فتتقبل الشر ــ لا على أنه غير قابل للبرء فقط ، وانما أيضا على أنه ضرورى ، وهى تقيم سلامها مع العـــالم بالشروط التى يمليها الشر ، والعذاب هو نفسه جزء من المعنى العميق للحياة يتسامى الى نوع من التسليم والتوبة والتطــهر عن طريق الألم او السمو بالتضحية بالذات . ولا مراء فى أن چيمس كانت له أوقات صحته العقلية وأوقات روحه المريضة ، وكان عالما بكليهما . بيــد أنه كان يتمتع بصحة عقلية عندما كان يتمتع بصحة جسمية ، ولكنــه كان يمر بمرحلة من سقم الروح عندما كان يعانى من المرض .

وبعبارة آخرى فان معياره ، وخلاصه ، كانا يكمنــان فى استرداد العقلية الصحية .

أما دواؤه المقوى المفضل ــ وهو التعرض فى الهواء الطلق لمغــامرة منازلة الشر المحفوفة بالمخاطر ــ فهو دواء لا يصلح للأرواح المريضة .

على أنه كان لديه ضرب من اهتمام الطبيب بالأرواح المريضـــة للآخرين ، وحيث ان روحه كانت أحيانا تتطلب العلاج الذى وصفه ، فقد كان عالما بجدواه وعارفا بفضله .

وفيما يتعلق بالتفرقة بين من يولد « مرة » ومن « يولد مرتين » فان حيـــاة چيمس كانت تتميز بعلاقات الأزمات الفجائية ، وكان برؤه واسترداده للعافية وخروجه من الأزمات ــ هذه كلها تميل الى اتخاذ شكل التجدد أو الولادة من جديد .

ولعل أخصها بالذكر هى « أزمة » ٢٩ أبريل سنة ١٨٧٠ ــ عندما وجد ، وهو شاب لم يتجاوز الثامنة والعشرين من العمر ــ ليس فقط

(٣) V.R.E., 83.

بصيرة فلسفية فى قراءة « المقال » الثانى(٤) لرينوفيير وانما ايضا وجد طريقة حياة .

ومن المؤكد ، أن هناك بعض السبب ، فى أن نتذكر ذلك الشاب الأكبر سنا الذى كان عمره ٣٢ عاما ، القديس أوغسطين ، الذى ما ان سمع كلمات "tolle lege" فى حديقته فى ميلان ، حتى وجد طريقا للخلاص ـ فلسفيا وشخصيا فى آن ـ فى قراءة رسائل القديس بولص .

بيد انه لم يكن فى چيمس مثل ذلك الانفصام الحاد بين الأطوار التجددية والأطوار اللاتجددية ، الذى يميز النمط المولود ثانية فى حالاته الحقيقية . ولو كان فيه مثل هذا الانفصام ، لما تسنى له أن يكون ذلك الملاحظ المحايد النزيه لخبرته ذاتها أو يكون عالما نفسيا للدين .

وصفوة القول فان چيمس تخطى وعلا فوق تصنيفاته ذاتها فى عملية خلقها . فتصنيفاته لا يمكن استعمالها لتحديد تخومه ، ولكنها تصلح فقط للدلالة على تعدد جوانبه . واعترافه بها وادراكه لها وفهمه لها وفقهه لمضامينها بالقياس الى خبرته الذاتية ، جنحت به أيضا الى الاقرار بتعددية وقتية شرطية للحقائق . وكون أى امرىء ينبغى أن يلتمس علاجا ناجعا ، سواء أكان دواء للجسم أم دواء للروح ، خلق قرينة حال تؤيدها وترجحها .

ثم أن چيمس لم يجز فقط تعدد الحقائق واختلافها فى الحساب الختامى ، وانما احتفظ لنفسه بحرية تذوقها كلها . ولعلنا نذكر ، انه عندما أصيب توماس دافيدسون ـ مثله ـ بمرض عضال لا برء منه ـ فان چيمس كتب له يقول : « فى وسع المرء أن يلقى المرض المميت (أو الذى سيفضى الى الموت حتما) اما بنوع من الاستخفاف النبيل ، أو الترفع العقلى الذى هو من شيمة الرواقيين الذين لا يبالون باللذة أو الألم ، أو بالتحمس الدينى . وانى أشير عليك يا صاحبى القديم بأن تنسج على منوالى وتحاول أن تلهو بالثلاثة معا ، آخذا كل واحد منها بدوره 'pro re nata' »(٥) .

فلنسقط من حسابنا كل ما كان بقصده چيمس من رفع روح

(٤) Cf. above, 135.

(٥) Above, 169.

صديقه المعنوية والتخفيف عنه وادخال المرح الى نفسه ، ومع ذلك فهذه العبارة تحتوى اعتقادا فلسفيا متبقيا بأن الحقيقة كلها ــ على نحو ما ــ تتضمن كل الأناجيل التى تتجلى قيمتها العلاجية فى اللحظات العميقة للخبرة الانسانية .

وما كان چيمس عفيا قويا ابدا ، ولقـــد ابتلى فى أوقات كثيرة ــ قصرت أو طالت ، ارهقه المرض من امره عسرا وأعجزه واستبد به . وفى اثناء الحرب الأهلية ، عندما كان شابا فتيا فى المرحلة من ١٩ الى ٢٣ من عمره ، كان عاجزا بكل وضوح عن أداء الخدمة العسكرية ، وكانت هناك فترتان طويلتان فى حياته ، احداهما فى شبابه والأخرى قبيل ختام حياته ، كان فيهما عاجزا عن استعمال عينيه .

ومن سنة ١٨٦٧ الى سنة ١٨٧٣ (أى فى الفترة من سن الخامسة والعشرين الى الواحدة والثلاثين من عمره) كان يعانى من الأرق ، ومن آلام الظهر وضعفه ، ومن اضـــطرابات سوء الهضـــم ، وقضى الخمس السنوات التالية لهذه المرحلة فى فترة نقاهة .

ولقد أجهد قلبه فى ســـنة ١٨٩٨ ، قبل موته باثنى عشر عاما ، ولم يقدر له ابدا أن يشفى من هذه الآفة . فبالنسبة للصحة الجسمية فان أحسن سنى حياته هى العشرون عاما من زواجه سنة ١٨٧٨ الى أن أصيب بالعلة فى قلبه سنة ١٨٩٨ ، ولكن حتى فى أثناء تلك السنوات فانه كان يعانى غالبا من الاجهاد العصبى ومن نوبات متكررة من الزكام والنزلات الشعبية والأرق وتعب البصر واجهاده .

لقد كان هناك دائما شبح العجز أو التنبيه السابق دائما يلوح أمامه .

كتب مرة الى هوويسون يقول له : « كلنا لا بأس علينا ، وأنا أعانى كثيرا من الاحساس بالعجز ، الفكرى والجســـدى على السواء بالنسبة للأعمال والمجهودات التى يتعين على الوفاء بالتزاماتها ، ولكن السنين تمضى ــ على الرغم من ذلك ــ فى ستر ودون فضح علنى » .

وكتب على نفس الوتيرة الى دافيدسون يقول : « لا يوجـــد شىء مثل المرض بانتظام أو الصحة بانتظام ، أما حالة التذبذب فهى أشدها سخفا وأكثرها عدم اطاقة »(٦) .

---

(٦) To Howison, March 3, 1894; to Davidson, October 3, 1896.
To H.J., March 17 and July 6, 1874.

وعلى الرغم من هذه الحقائق فان السقم هو آخر كلمة يوصف بها وليام چيمس . كان دائما يصرف طاقته ، الجسمية والعقلية على السواء ، وكان فرها خفيف الحركة نشيطا سريعا ومرنا فى كل رجوعه وردود أفعاله . كان ذلك الرجل الذى يرقى السلم جريا ـ كل درجتين فى قفزة واحدة . وغالبا ما كانت فترات مرضه نتيجة للافراط فى العمل الذى كانت طبيعته تغريه به دائما . وعلاوة على ذلك فقد كان هناك تباين يستحق الذكر بين العجز الذى كان يشكو منه وبين سجل منجزاته .

وبكيفية ما ـ فان قوائم طويلة لكتب طويلة ـ أتم قراءتها عندما كان عاجزا عن استعمال عينيه ، وتدفق منه مقدار كبير من الأفكار عندما كان عاجزا عن استعمال عقله .

والحقيقة أن يوم عمل من أربع وعشرين ساعة ، ما كان أبدا طويلا بالنسبة له ، ومهما كان نطاق العمل كبير الحيز فان چيمس كان لابد أن يتبرم بكل حد وحاجز وتخم .

ولقد تآمرت وسوسته وضعف أعصابه مع قلة صبره وجزعه على المبالغة فى مرضه ـ ليس فقط المرض ذاته ولكن شعوره به وتعبيره عن هذا الشعور للآخرين . كان ذا طاقة عالية جدا ، وكان جسمه ـ الى درجة عجيبة ـ أداة لارادته . فلا عجب اذن أنه كان عاجزا عن قبول فرض التلقائية الآلية .

ولقد أخفق وصف سبنسر للحياة على أنها «ملاءمة العلاقات الباطنية والخارجية » ـ اخفق على الاطلاق فى الانطباق على حالة چيمس الخاصة .

لقد كان ، ولابد أنه كان يعرف ، شخصا بعيد الانحراف عن المركز ، شخصا تتلون حياته الخارجية بلون مصدرها الباطنى . ومعنى ذلك أنه كان صنيعة حالاته المزاجية ذاتها ، وفى حين أن هذه كانت عادة سارة مفرحة ، الا أنها تخضع لتبدلات وتقلبات مرارا وتكرارا .

ولقد كتبت أمه سنة ١٨٧٤ فى معرض الحديث عن ميله الى الوسواس والوهم بالمرض (فى أثناء الفترة التى بلغت فيها ازمة اكتئابه أشدها) ـ كتبت أمه تقول :

« ان بلواه أنه لابد ان يعبر عن كل تقلب ينتابه من الشعور ؛ وخصوصا كل عرض من الاعراض غير الموافقـة ، دون اشارة لتأثير ذلك فى من حوله ... وكلما تحدث عن نفسه فانه يقول انه لم يطرأ عليه أى تحسين . وهذا ما لا استطيع أن أعتقد انه يمثل حقيقة حالته بصدق ، ولكن مزاجه مزاج كئيب الى درجة ميئوس منها ، ثم أنه عليه أن يناضل ضد ذلك طوال الوقت الى جانب نضاله ضد عجزه الجسمانى كذلك » (٧) .

لذلك سأبدأ بما يمكن اعتباره أكثر خلال چيمس كآبة ، وان كنت احتفظ بشكوكى فيما اذا لم تكن ــ بوساطة كيمياء العبقرية ، فى الواقع من الأمر ــ خلالا حميدة .

يقول چيمس « فى ... لحظـــات العيش الناشط ، نشعر كما لو كان هناك شيء معتل وحقير ، بل سافل فى التبش النظرى والتأمل. ففى نظر الاحساس الصحى فان الفيلسوف ــ على أحسن الفروض ــ معتوه لوذعى متضلع فى العلم »(٨) .

ثمة عنصر جوهرى فى فلسفة چيمس العملية ، وهو هذا التقريظ للعمل والخبرة الخارجية . كتب مرة الى أخيه روبرتسون فى جد عابث « ان كلماتى الأخيرة التى أودع بها الدنيا هى « الأعمـــال الخارجيـــة لا المشاعر » (٩) .

ولقد أرتضى انتجيل كارليل العمل فى اجابتة على السـؤال الهـــام « ما الذى يجعل الحياة تستحق العيش ؟ » .

وأيد كارليل فى تمجيده العمل البطولى وشعر بأن الحيـــاة ــ فى غيابه ــ تافهة عديمة الجدوى .

وكان ادراكه وتصوره للأخلاق والدين منوطين بالمغامرة والكفـــاح وبالقياس الى ما فيهما من خطر ونزال .

واستخرج من مبدأ « الفعل المنعكس » ، أن أية عملية تامة للعقل تنتهى باستجابة ظاهرة جهرية . وكان فى نظريته الخاصة بالحقيقـة ، براجماتيا فى الصميم .

على أن المرء عندما ينظر تحت السطح ويميط اللثـام ــ وهـــذا لا يتطلب أى سبر عميق من التحليل النفسى ــ فانه يجد أن حض ــ حث چيمس على العمل كان موجها ــ بصفة أولية ــ لنفسه . لقد اقتحم

(٧) To H.J. [2], March 17 and July 6, 1874.

(٨) W.B., 74.

(٩) September 15, 1877.

حياة فلسفية تخامره هواجس عميقة وتساوره الريب ، لأنه كان يخشى ان ذلك سيفضى به الى نزعة من التمركز المرضى حـول الذات ، والى ضرب من اشتغال البال المسوُود بالنفس ــ ووجد التعليم «عطية من الله» غير منتظرة لأنه حوله عن « تلك الدراسات الاستبطانية التى ربت فيه نوعا من الوسواس الفلسفى الخناس » ، ولم تكن لديه القوة الكافية . . « لكى يختار النصيب الآخر من الحياة الأكثر نبلا » (١٠) .

وبعبارة اخرى فقد كان به جنوح مؤكد ــ الى الاكتئاب التأملى . × × وكان يعرف ذلك الداء فى نفسه ، وقاومه وانتصر عليه ، ولكنه لم يقتلعه من طبيعته أبدا . لقد كان مظهـرا مقيما ، وان كان متقطعا وثانويا ــ من خبرته وشخصيته .

أما انجيله الخاص بالبطولية فقد كان مغزى أخلاقيا اشتقه لنفسه من خبرته الذاتية . ومن ثم فان تمجيـده للعمـل وازدراءه لذلك الصندوق المغلق الفاسـد الهواء من التفكير الباطنى والشعور ، كان دعوة الى حمل السـلاح ، أو صيحة انتصار ، منبعثة من مجتلد جهاده الأخلاقى ذاته ، حيث كانت قوته مشتبكة فى قتال مع ضعفه .

والأمر الثانى أن چيمس كان مشغوفا طوال حيـاته بما أسـماه « الحالات العقلية الشاذة » . فترويحه ومتابعته للأبحاث الروحانية / النفسانية ولعلم نفس الشواذ عموما ، ودراساته « للطاقات الخفية » للناس التى تتكشف فجأة فى أوقات العسرة والتوتر ، وجمعه ووصفه للخبرات الدينية فى كل أنواعها المختلفة المتعـددة ــ ولكن مع الاهتمام أو التوكيد الخاص بغرابة أطوارها ــ ونزعتـه الى اعتماد الصـوفية كمصدر للمعرفة ــ هذه كلها تشهد بهذه المشغولية .

الى أى حد مارس چيمس نفسه « حالات عقلية شاذة ؟ «

لعلنا نذكر أنه فى فترة ما من الثمانينيات الأولى اندفع تحت تأثير كتابة صديقه بلود الى اجراء تجربة على نفسه باستنشاق غاز أوكسيد النتروس (المعروف بالغاز الضحاك وهو مغيب أو مخدر خفيف) وأنه احدث فضيحة بين أصدقائه الفلسفيين بتشبيه الأثر الحادث ببصيرة هيجيل . ولقد سجل العبارة التالية على اعتبار أنها أبين الحقـائق وأشدها تماسكا ــ التى تكشفت له فى هذه الحالة :

---

(١٠) Cf. above, 125, 136, W.J. to H.J. [2], May 11, 1873 (L.W.J., I, 171).

× × يطلق علماء النفس المحدثون على هذه الظاهرة اسم الماليخوليا **melancholy** او داء السوداء . المترجم

« لا توجد اختلافات سوى اختلافات فى الدرجة بين درجات مختلفة من الاختلاف وعدم الاختلاف » .

وقال ان هذا « له الرنين الهيجيلى الصحيح » . ثم وصف نشوات « الانفعال الادراكى » التى غمرتها واحمتها (١١) .

ورب قائل يقول ان هذا الحادث يوحى بمثل الطفـــل الذى يلعب باعواد الثقاب ، أو الذى يسخر هازئا من المتخشع القانت . ولقد كان ــ فى الواقع من الأمر ــ كلا الاثنين على السواء .

فلقد كان چيمس طلعة ــ محبا للاستطلاع ــ بشكل لا سبيل الى تقويمه بل بشىء من التهور والطيش . وكان ينال متعــة من فش ورم تو فر العلماء والفلاسفة .

وليس ثمة شك فى أن هذه التجربة واتجاهــه حيــال علم النفس المرضى ــ بصفة عامة ــ جعلتــــه مرتابا فى فحوى أو مضمون الخبرة الصوفية للآخرين ، ومتوانيا فى اعتماد خبرته الذاتية فى هذا المضمار .

ومع ذلك ، فان حقيقـــة كونه استعمل خبرته ــ تحت مخدر ــ كدليل لتفسير هيجيل ــ هذه الحقيقة بحد ذاتها ــ تومىء الى اعترافه واقراره بدعاواها الذهنية .

وفيما بعد ــ فى كتابه « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية »(١٢) بذل چيمس قصارى جهده لتوضيح أن أسباب خبرة ما « لا شأن لها ألبتة بصحتها أو قيمتها ، اللتين تتقرران بثمراتهما » .

وفى رأيى ، أنه لا يمكن وجود أى شك فى أن الخبرات الأخرى التى لم تكن مدفوعة ببواعث صناعية ، تركت فى عقـــله راسبا متزايدا من الاعتقاد . ذلك أنه انهمك فى مغامرات متطرفة من هـــذا الطـراز ــ مغامرات لها تلك السمة التى يصفها غير المؤمن بأنها هذيان ، ويصفها المؤمن بأنها لقانية بديهية .

ومن المرجح أنه فى سنة ١٨٧٠ ، قبيل تحوله الى مذهب رينوفيير ، عانى من ذلك الهذيان المشهور الزاخر بالخوف ، والذى وصـــفه بكل وضوح وجلاء فى « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » حيث قال :

« ذهبت ذات مساء الى غرفة اللبس فى نور الغسق لاحضر شيئا من الخوان ، عندما باغتنى فجأة ــ دون ســـابق انذار ــ كما لو كان قد خرج من جوف الظـلام ــ احساس

---

(١١) W.B., 297.

(١٢) 15 ff.

مريع بالخوف من وجودى ـ وقع على وقع الصاعقة . وفى نفس الوقت انبثقت فى عقلى صورة مريض مصاب بالصرع كنت قد سبق لى أن شاهدته فى المارستان ، وكان شابا أسود الشعر يميل جلده الى الاخضرار ، وكان مصابا بالجنون المطبق ، وكان من عادته ان يجلس طوال اليوم على احدى الأرائك ، أو بالاحرى الرفوف المثبتة فى الحائط ، وقد ثنى ركبتيه ووضع ذقنه فوقهما بحيث احتوشتا كل وجهه ... هذه الصورة مضافا اليها ما داهمنى عنـــدئذ من خوف مباغت ، اندمجتا معا والفتا مركبا من جنس واحد . وشعرت بانني هذا المركب ـ بهذه الهيئة ـ امكانا واحتمالا ، وان لا شىء فى وسعى ولا فى حوزتى يمكنه أن يحمينى من هذا المصير ، اذا حم القضاء ودنت ساعتى ووقعت الواقعة ونزلت القارعة كما نزلت عليه .. بلا كاشفة .. وبعد هذا تبدل الكون فى نظرى تماما . كنت أستيقظ كل صباح ـ يوما بعد يوم ـ وقد انتابنى شعور مريع بالخوف يكاد يقتلعنى اقتلاعا ، وكأنه صـــادر من صميم أحشائى يصاحبه بالهلع وبعدم أمان الحياة ـ لم يسبق لى من قبل أن أحسست به أبدا على هذا النحو ، ولم أشعر به أبدا منذ ذلك الوقت . لقد كان شعورا شبيها بالرؤيا ـ بمثابة كشف أو الهام ، وعلى الرغم من ان المشاعر المباشرة زالت واختفت ، الا أن الخبرة جعلتنى منذ ذلك الوقت شديد العطف والفهم والحنو على المشاعر المسؤودة للآخرين » (١٣) .

وثمة خبرة أخرى ـ أقل وبالة وان لم تكن أقل حيوية ـ هى تلك الخبرة التى حلت به فى جبال الاديرونداك فى سنة ١٨٩٨ . لقد كان لديه فى كل الأوقات احساس بالصحبة الوثيقة مع الطبيعة وخصـــوصا مع الطبيعة فى حالاتها الطبيعيـــة . وفى هذه المناسبة بالذات ، قضى ليلة مؤرقة لم يغمض له فيها جفن على سفوح جبل مارسى فى حالة وصفها « بحالة تنبه روحى فى ذروة الحيوية » . ولقد كتب الى زوجته يصف تلك الليلة فقال :

« قضيت شطرا كبيرا منها فى الغابة حيث كانت أشعة ضوء القمر تتدفق وتسكب على الأشياء نورا فى تشكيل سحرى شبيه بلعبة الداما . وقد بدا لى الأمر كما لو كانت آلهـة كل أساطير الطبيعة قد عقدت اجتماعا ـ لا سبيل الى وصفه ـ داخل فؤادى مع الآلهة الأخلاقيين للحياة الباطنية .. ان المغزى القوى الحاد ـ من نوع ما ـ للمشهد برمته ، لو كان المرء فى وسعه فقط أن يروى هذا المغزى ـ والبعد اللاانسانى الشاسع لدخيلة حياته الباطنية ، ومع ذلك جاذبيته الحادة ، ونضارته الخالدة وجدته السرمدية ، وقدم عهـده المغرق فى القـدم وما فيه من بلى منذ القدم ، ثم أمريكيته المطلقة ، وكل ما توحى به من حب للوطن ، وأنت وعلاقتى بك ـ جزء لا يتجزأ منـــه جميعا ـ وعروة لا انفصام لها ، ومخفوق به بحيث ان الذكر والاحساس اندمجا فى دوامة لا سبيل الى شرحها .. لقد كانت ليلة من أسعد ليالى الخلوة فى وجودى ، وانى لأفهم الآن ما هو

---

(١٣) V.R.E., 160-1.

الشاعر . أنه الشخص الذى يستطيع ان يشعر بالاشتباك الحــاد أو المركب القـــوى للتأثيرات التى شعرت بها ، ويفسح لنفسه طريقا جزئيا يجوس منه خلالها ليعبر عنها بالكلام . وفى الواقع من الامر فلست قادرا على أن أجد كلمة واحدة توجز كل ذلك المغزى ، ولست أدرى أى مغزى كانت تشير اليــه ، وعلى هذا فلتبق حيث هى قائمة ، مجرد تلعة أو صفات من الانطباع » (١٤) .

وفى آخر سنة من حياته ، كما سبق أن رأينا ، وصف چيمس أربع خبرات ذاتية « شاذة » مارسها ، حلت به جميعا بعد سنة ١٩٠٥ ، وكان فى مرجوه أن تلقى ضوءا على موضوع الصوفية . كان يعتقد بأن « هناك متوالية من الوعى الكونى لا يقيم ذاتيتنا فى مواجهتها ســـوى حواجز عرضية طارئة وفيهــــا تغوص كل عقولنا العــديدة كما تغرق الجداول فى العيلم الزاخر أو المحيط الجبار أو المستودع الأكبر »(١٥) .

ولقد بنى هذا الاعتقاد ــ الى حد ما ــ على ملاحظات عادية ، وعلى روايات وبيانات وتقارير الآخرين ، وعلى نظرية ما وراء الوعى المتسامى التى اتخذها من مايرز . بيد أنه لا سبيل الى مقاومة الفكرة بأن خبراته الذاتية نفسها ــ غير العادية ــ هى التى أيدت الايمان بما كان من الممكن ان يكون فرضا مغريا ولكن مفتوحا .

صحيح أنه رفض أن ينسب الى نفسه فضــل الخبرة الصوفية ، او أنه على أقصى تقدير أقر بأن فيه « الجرثومة الصوفية » .

ولكن ، نظرا الى كل البينات المتوافرة لدينا ، فانه يبـــدو أكثر صوابا أن نقول انه فى الواقع من الأمر مارس خبرات من النـــوع الذى يسمى صوفيا ، وأن يضـــاف الى ذلك أن تلك الخبرات كانت نادرة ، وأنها كانت تفتقر الى خصيصة الحجة الدامغة التى عادة ما تخلع عليها، وأنها لم تلعب سوى دور ثانوى فى فلسفته على الاجمال .

أما الخلة الثالثة من خلال چيمس الوبيلة ــ فهى قابليته المتطــرفة للتغير والتقلب ــ كثرة التغيرات البارومترية والترمومترية فى جــوه المزاجى .

ان البيان المنشور الوحيد الذى أصدره عن المصادر الشخصيــة لفلسفته يحتوى العبارة التالية (التى كتبها فى سنة ١٩٠٩ الى ا . تاوتش الذى أخذ على عاتقه الكشف عن هذا الأمر) :

(١٤) Cf. above, 255.

(١٥) Cf. above, 350; M.S., 204.

« أعتقد أنك تبالغ فى تقدير صوفيتى الشخصية . لقد بدا لى المسألة دائما بمثابة ضرب من العدل والانصاف بين الأنواع المتعددة للخبرة أن يسمح للنشوة الصوفية أن يحسب صوتها فى عداد الباقين . وفيما يتعلق بى شخصيا ، فان احساس الحياة العادى الذى تجلبه كل لحظة ، هو الذى يجعلنى مزدريا للمحاولات العقلية لاحلال صيغ منطقية نحيفة محلهـــا . على أن فلسفتى الذرية قد تكون مرتبطـة على نحو ما بمزاجى الهلوع الجزوع جدا . فأنا قوة محركة ، أتطلب التغيير وينتابنى الملل سريعا » (١٦) .

على أن عالم چيمس لم يكن ملكا كبيرا ، أو نصبا هندسيا ذا ضخامة كونية وتعقيد لا نهاية له ــ وانما كان تيارا دافقا ــ ممرا مفضـــــيا ــ صيرورة وتاريخا فى طور التكوين .

وليس ثمة ريب فى انه سواء أكان الكون حقا أم ليس كذلك ، فمن المحتم أنه بدا كذلك لچيمس لأنه كان هو نفسه دائما فى حالة تحرك . فلقد كان هنالك انعكاس خارجى لقلق باطنى وحنين جيــاش . وكان ــ على نحو عجيب ــ عرضة لسراب المتع البعيدة والغائبة .

وكان ينتابه التعب والسأم من اى شىء يفعله قبل أن يفرغ منـــه بمدة طويلة ، وكان يشعر بنفور قوى حياله بعد الانتهاء منه . وثمــة عرض ثانوى من أعراض هذه الظاهرة ــ وأن لم يكن قليل الدلالة والأهمية ــ هو مقته لقراءة تجارب الطبع ــ كما تجلى ذلك فى الانفجار التالى الذى لم يستطيع كظمــه فى وجــه محرر مجــلة The Psychological Review

« لا ترسل الى أى تجارب . والا فسأعيدها لك دون أن أفتحها ولا أكلمك بعد ذلك أبدا . فكما تقول المسز ر . « أزل الأدمة من ظربانك » أو استعن بضحاياك الذين وقعوا فى الفخ . أنا من فصيلة النسر ــ وحر طليق » (١٧) .

وبعد طبع كتاب « مبادىء علم النفس » أعد بالمر المسكين عــــدة صفحات لتصويب الأغلاط ؛ ولكنه عجز عن اقناع چيمس بالقاء نظرة عليها .

أما أخته آليس التى كانت من أشد الناس اغراقا فى التشخيص ، وحدة فى الوصف ، فقد وجدت چيمس « تماما مثل نقطة من الزئبق » ــ ليست لديه القوة أو الميل للمواظبة على شىء والالتصاق به من أجـــل المواظبة عليه والالتصاق به فحسب »(١٨) .

(١٦) Letter to E. Tausch, Monist; XIX (1909), 156.

(١٧) To J.M. Baldwin, January 10, 1898.

(١٨) L.W.J., I, 289-90.

وفى معرض الوصف لخبراته مع طبيبـــة من المشتغلات بالشفاء العقلى ، كتب چيمس فى سنة ١٨٨٧ ، لنفس هذه الأخت قائلا :

« انى أجلس الى جوارها وسرعان ما يغلبنى النوم وأستغرق فى سبات عميق ، فى حين أنها تفك العقد التى تخل عقلى . وهى تقول أنها لم تصادف فى حياتها عقلا زاخرا بكل هذه العقد وبكل هذا الاضطراب والقلق الخ .. وقالت أيضـــا — أن عينى — من الوجهة العقلية — تظلان دائرتين كالعجلات أمام بعضهما وأمام وجهى ، ولقد تطلب الأمر أربع أو خمس جلسات قبل أن تستطيع أن تثبتهما ... وأحسب أنه يطربك أن تسمعى رأيا فى عقلى شبيها برأيك فيه » (١٩) .

وكون مزاج چيمس الزئبقى جعله أحيانا صعب المراس يرهق من يعاشره عسرا ، فما كان ذلك بسر خفى ، على أية حال فى نطاق الأسرة.

وثمة اشارة معكوسة الى ذلك فى الفقرة التالية المقتبسة من رسالة كتبها وليـــام فى أول يونية سنة ١٨٩١ فى شوكوروا الى هنرى وآليس فى لنـــدن :

« لقد أصبحت أبويا بطريكيا أكثر من أى وقت مضى .. فى الأسبوع الماضى استقدمنا ثلاث مربيات للأطفال دفعة واحدة — فأصبح عدد النساء فى البيت تسعا فى مجموعهن .. وأعتقد أنه حتى (الأخت) آليس لابد أن تشعر بوخز الضمير — اذا قدر لها أن ترانى على هذه الحال — معبود هذه القبيلة من الأقارب والأتباع ، مكرما ومبجلا ووقورا ، رابط الجأش دائما ، لا أثير أى قلق أبدا ، ولا ألح بأى « رغبات » ، لا أغض أبدا من شأن ما فى يدى . ولا أحتج أبدا على ظلم آراء الآخرين وبخسهم ، أو أعارضهم أو أفحمهم أو أضيق عليهم الخناق ، ولا أناقش أبدا النوادر الشخصية من وجهة نظر المنطق المجرد او الحق المطلق . ولا أبتغى أبدا مثلا ثانيا أو ثالثا اذا كان فى المثل الأول أو الثانى ما يفى بالغرض . وصفوة القول اننى أتنفس جدا من السلام والسكينة حيثما حللت شخصية نبيلة وقوية حقا .. ولكن دعينا من ذلك ففى هذا القدر ما يكفى : وحيث انك ليس فى وسعك أن تشاهدى هذه الحال ، فمن الخير أن تسمعى عنها على الاقل . وانى لأخشى أن أبرتى آليس فى غاية الخجل بحيث تتحرج من أن تكتب مثل هذه الأشياء » .

على أن چيمس كان دائم الشكوى من حشد من المشتتات . لقـــد كتب يقول : « أن المرض المزاجى الذى أعانى منه هو ما يسميه الألمان حالة التمزق شذر مذر "Zer-rissenheit" » فالأيام مكسورة فى تعوج ومقاطعة .. لشد ما أتوق الى اثنتى عشرة ساعة من العمل فى شـــغل واحد فأكون أسعد الناس » (٢٠) .

---

(١٩) L.W.J., 261.

(٢٠) To Mrs. Glendower Evans, Atlantic, CXLIV (1929), 380.

وعلى الرغم من أنه عزا هذه الحالة الى بيئته ، وسعى الى الهروب منها فى مكـان ما ، الا أنه كان عارفا فى صـميمه ، أن طبيعتـه ذاتهـا ، وليست الظروف الخارجية ، هى التى تعذبه وترهقه من أمره عسرا .
وعلاوة على هذه الأعراض من الغرارية والتقلب ، والقلق والجزع وتشتت الانتباه والريعان والعناد والشكاسة ، كانت هنـاك تبدلات أعمق فى المزاج . ومن ثم ، فى يونية سنة ١٨٦٥ كان متأكدا من ان رحلته الى البرازيل كانت « غلطة » بينا نجده فى أكتوبر فى روح معنوية عالية حامدا شاكرا للأقدار أن عاد منها سالما غانما (٢١) .

وفى خريف سنة ١٨٨٧ ، وعلى الرغم من أن فصوله كانت كبـيرة العدد وناجحة ، وكان منهمكا فى كتابة « مبادىء علم النفس » « وقـد استرد قوة ابصـاره ، وبرىء من الأرق ، واستعاد قدرته على المشى وعلى العمل » ، الا أن شغفه بالحياة وحماسته لها واقبـاله عليهـا أصابها الفتور والكلال على نحو غريب (٢٢) .

لذلك نجده يكتب فى السادس عشر من أكتوبر الى أخته قائلا :

« لقد عاد آل اليوت لتوهم بعد عام من الغياب فى الخارج . ولم أشاهدهم بعد . وسواء أكان منظره الجامد البارد فى مركز الادارة ، أم شىء خلاف ذلك ، وسواء أكان الأمر ربما يرجع الى حقيقة أننى لم أتخرج فى هذا المعهد فلست أدرى .. ولكن شيئا واحدا أنا على يقين من أمره وهو أننى على الرغم من أننى أخدم كلية هارفارد ما وسعنى الى ذلك السبيل ، الا أننى لا أشعر حيالها بأى محبة مطلقا ، وانى لأرحب بهجرها اذا ما واتتنى أية فرصة للعمل بأى معهد آخر يعرض على أجرا أحسن » .

والرسالة التالية التى كتبها لأخيه هنرى فى ٢٤ نوفمبر تفصح عن ثبات واستمرار هذه النزعة :

« يسعدنى أنك تكتب عن عملك بكل هذه الحماسة والثقة . ذلك هو السبيل السوى للشعور بشرط أن يتسنى للمرء أن يشعر كذلك ، ولكن كيف السبيل الى ذلك وقد غمرنى برود عجيب بالنسبة لكل أعمالى وانتاجى فى خلال الأشهر الستة الماضية ، ولست أدرى اذا كان مرد ذلك الى أننى أجتاز ذروة سن الخامسة والأربعين ، أم أن ذلك راجع الى سبب ممكن اصلاحه ،ولكن كل شىء فعلته أو سوف أفعله يبدو صغيرا جدا ــ ضئيلا جـدا تافها جدا » .

وبحلول خريف سنة ١٨٨٨ يبدو أن هذه الحالة قد زالتوتلاشت:

---

(٢١) Cf. above, 75, 76.

(٢٢) W.J., to H.J.², November 24, 1887.

« ان العام الدراسى فى كامبردج يبدأ بحميا وسورة — فلدى فصل كبير من الدارسين فى مقرر الأخلاق . ولدى سبعة من طلاب الدراسات العليا من خريجى الجامعات الأخرى فى فصل الدراسات العليا فى علم النفس ، مما يجعل عبء العمل على كبيرا ، ولكنى مع ذلك أشعر باقبال على العمل وبارتفاع فى روحى المعنوية على نحو لم أعهده من قبل ، وأشعر أننى سأخرج من ذلك كله سليما معافى مشرقا . وفى نيتى أن أقرأ كثيرا هذا العام ، وليس فى عزمى أن أكتب ، وانى لأتوقع أن أتمتع بعامى هذا تمتعا كبيرا » (٢٣) .

واذن ، فالتذبذب من النوع السريع والمندفع ، أو الايقـاع الطويل من النشوة والانقباض ، يعتبر من الخصائص المميزة العميقة لطبيعـة چيمس . وهى خصيصة تنعكس فى عالمه ، الذى هو مسرح لتغير فجائى وموصول على السواء ، وتنعكس فى عقله المتغير المتحول الدوار الطواف الذى لا يفتأ ينتقل من خط الى آخر ويجوب الآفاق والأركان أو يشرع فى أسفار جديدة .

وأخيرا فقـــد كان لدى چيمس نفور مزاجى من كل سبل التفكير المحدد المضبوط ، وسواء أكان من الممكن اعتبار العجز النسبى فى المنطق والرياضيات عرضا من أعراض السقم الروحى ، فهذا ما لا أزعم قوله. ثم هناك شك أيضا فيما اذا كان چيمس عاجزا الى هذا الحد فى هـذا الاتجاه على النحو الذى شعر به فى هذا الصدد .

وعلى أية حال فقد كان يشعر فعلا بأنه عاجز فى هـــذا السبيل وصرح بذلك مجاهرة .

ولقد بذل محاولات متأخرة للنهوض بمستوى تعليمـه الرياضى . وفى هذا الصدد كتب فى سنة ١٨٩٣ الى فلورنوى ما يلى :

« هل تستطيع أن تذكر لى أى كتاب مبسط من حساب التفاضل والتكامل يعطى بصيرة فى فلسفة الموضوع ؟ لقد فرغت لتوى من قراءة رسالة قصيرة كتبها أحد زملائى ، ولـكنها دغل زاخر بالمعادلات والاحصاءات وخالية من اية فكرة عامة واحدة ، وانا أريد أفكارا لا معادلات رياضية » (٢٤) .

ولكن چيمس ، على الاجمال ، كان من السهل مؤاساته . ولقـد سر سرورا بالغا عندما وصف أحد طلابه مادة الجبر « بأنهـا شكل من المكر السيىء »(٢٥) .

---

(٢٣) To H.J. 2, October 14, 1888; L.W.J., I, 283.

(٢٤) May 5 and May 12, 1893.

(٢٥) L.W.J.. II, 237.

وفى هذا الصدد كتب الى بيرس :

« أنا لا ــ منطقى ، ان لم أكن غير منطقى ، وأنا سعيد بأن أكون كذلك عندما أجد برتى راسل يحاول أن يتمعن فيما تعنيه المعرفة الحقة ، فى غياب أى عالم محسوس ملموس يحيط بالعارف والمعروف . تبا له من حمار » (٢٦) .

ومن ثم فان الافتقار الى الرياضيات والمنطق لم يحرم چيمس من العلاقات الوثيقة بالكون ــ على اية حال بالكون الچيمسى . بل على النقيض .

بيد أن هذه الذريعة التى تذرع بها چيمس لعجزه ــ لم تكن عند تشارلز بيرس مسألة هذر لا تحمل على محمل الجد . لقد كان شعوره حيال چيمس مشوبا بشىء شبيه باحساس أصدقاء المستر سكيمبول عندما اشار الأخير بكل رقة الى انه « طفل » « ولا يفهم المال » . فبيرس لم يكن فقط ينتمى الى قبيلة الرياضيين والمناطقة ، ويمارس هذين الموضوعين بمهارة بارزة ، وانما كان يعتقد أن الرياضة والمنطق تمثلان كمال الوضوح ، ومن ثم الذروة السامية للجلاء والبيان .

وعلى هذا الأساس استند فى شكواه « بأن الشخص عندما يلقى سلاحه » كما يفعل چيمس « بأنه لا يستطيع ان يفهم الرياضيات ، فمعنى ذلك أنه لا يستطيع أن يفهم الواضح ، فذلك يسد الطريق أمام المزيد من التفاسير » (٢٧) .

وفى محاضرات هيبرت لسنة ١٩٠٨ نبذ چيمس المنطق ــ على الملأ وبكل جد ووقار . صحيح أن الأمر لا يخلو من بعض التساؤل بالنسبة للمدى المحدد المضبوط لهذا النبذ ، حيث انه أشار مرارا وتكرارا الى المنطق الذى نبذه بعبارة « المنطق العقلى » أو « منطق التطابق » على اعتبار أن من المرجح أن هناك ضربا من المنطق ظل مخلصا له وحفيا به(٢٨) .

وصحيح أيضا أنه فى نفس اللحظات التى كان يزمع فيها نبذ المنطق، كان منهمكا فى عمليات عقلية فى غاية التدقيق تحمل شبها عجيبا لما يسميه الناس الآخرون بالمنطق .

---

(٢٦) December 24, 1909.

(٢٧) Cf. above, 292.

(٢٨) P.U., 208, 212.

بيد أن حقيقة دحضه « للمنطق العقلى » فى حد ذاتها ، سواء أكانت صوابا أم خطأ ، لم تكن على سبيل الجزم ، لا تعسفية ولا انطباعية ولا تجريبية ولكنها كانت دلالة بينة ـ بوجه خاص ـ على التحليل الكدود المدقق .

ثم هناك اعتبار آخر ، فعلى الرغم من ترديد عجزه فى الرياضيات ، الا أنه تمعن فى النظرية الرياضية للانهائى بعناية فائقة ، ولم يكن سبب نبذه لها أنه عافها وكرهها وانما لأنها بدت له باطلة .

ولكن فى حين كان جيمس منساقا على هذا النحو ، وبصفة دائمة الى سبل التفكير المضبوط ، بسبب رغبته فى الوضوح والابانة والاقناع القاطع ، الا أنه كان فى نفس الوقت يعانى صدا ونفورا فى هذا السبيل من جراء اشمئزاز مزاجى وريبة فى هذا المنهاج . وهذه المشاعر مضافة اليها نزعة طبيعية لتلمس تسويغ ميتافيزيقى لهـــا ، تضافرت جميعا لتدفعه الى توكيدات كاسحة مبالغ فيها عن لا عقلية الوجود .

وعلى هذا فان أى جرد لخلال جيمس الوبيلة ، لابد أن يضم نزعاته الوسواسية ، وخبرته فى التهيؤات العصبية (الهلج) ، وتذبذب حالته المزاجية من النقيض الى النقيض على نحو شاذ ، واشمئزازه ـ الذى يكاد يبلغ حـــد المرض ـ من طريقة التفكير التى تستخدم التعريفات المحددة والرموز وسلاسل الاستخراجات .

وفى تسميتى لهذه الخلال « بالوبيلة » أو « المرضيـــة » لست أعنى سوى أنها اذا أخذت فى حد ذاتها ، ومن حيث هى خلال ، فانها عادة تعتبر عيوبا ومثالب . ولكنها بالقيـــاس الى شخصية چيمس وتفكيره وفى ارتباطها بهما ، فانها تعتبر عناصر ومركبات ضرورية لمادة المزيج ، مثلما هى ضرورية لنكهته سواء بسواء .

٣٩
خـــلال حميدة

عندما تطرح خلال چيمس الحميدة على بساط البحث ، فانى اجد أربع خلال شاملة تكتنفه بشكل عجيب : الفطنة ، وخفـــة الروح ، والانسانية ، ولطف العشرة .

وعندما أقول انها خلال حميدة فلست أعنى فقط أنها فى حد ذاتها تعتبر عادة كمزايا لا عيوب ، وانما أعنى أيضا أنهـا كانت تسيطر على چيمس عندما كان يتمتع بالاحساس بالرفاهة ، أو عنـدما كان يشعر بنفسه فى ذروة ذاتيتها . واكتمال تمثيلها لدخيلته .

وعندما أتناول أولا ، فطنة چيمس ، فلست أقصد قابليتـه للتأثر بالشعور أو الانفعال ، وانما أعنى مضاء حواسه وضخامة ودسامة وثراء الخبرة التى يتلقاها عن طريق حواســـه ، ونتوء وبروز تلك الخبرة وما تنطوى عليه من محفز فى حياته ككل . فچيمس يخبرنا بأنه لم يكن من أصحاب التصور أو التخيل فيما يتعلق بذاكرته أو خياله .

ومن جهة أخرى ، فان شهادة كل من عرفوه تجمع بلا استثناء على أنه كان كثير التعويل فى حيـاته على العينين . كان تواقا الى ان يرى الناس الذين يعرفهم ، وكان يتبادل الصور مع أصـــدقائه ، ثم انه صنف « مجموعة انثروپولوجية » كبيرة لكى يدرس السيماء البشرية(١) . وكان لا يفتأ يلاحظ وينقب بكل شغف واهتمام فى كل ما حوله — فى الطبيعة والفن والحياة . ولأنه كان رســـاما ، فان البصر كان بلا شك حاسته الرئيسية . وعلى حد تعبيره ، كان « يستوعب الأشياء بوساطة عينيه » .

ولكن على الرغم من أنه وصف نفسه « بالهمجى الموســيقى » (٢)

(١) L.W.J., I, 51,

(٢) W.J. to G.H. Hawison. March 3, 1894; to T. Davidson, October 3, 1896.

الا انه كان صاحب أذن لاقطة حاسة ، سريعة التمييز لطبقات الصوت ونغماته وخصوصا فى خصائص الصوت الانسانى .

وكتاباته النفسية تشهد بقدرته الفائقـــة على تمييز الأحاسيس العضوية .

وحيث انه كان يملك موهبة حسية فائقة ، ولكونه كان شرها لممارسة الخبرة الحسية المباشرة ، فلا عجب أنه كان يشعر بأن مثل تلك الخبرة قادرة على نقل الافشاء الصحيح الأصلى للواقع . فالغرض الأســاسى الذى يقوم عليه كل ميتافيزيقيته ــ وان كان لم يبح به ــ هو أن الشخص الذى يملك أشد حساسية لضبط كل مافى الكون من أنغام وتوفيقهـا ، هو فقط الذى يستطيع أن يتحدث عنه حديث خبير عليم يعول عليه .

وعنده ، أن الميتافيزيقيا هى ادراك وفهم للواقع فى أكثر نواحيـه مباشرة وحيوية ، أو انصات « لسماع نبض الخالق وهو يخفق » .

وعندما قال انه لم يجد « أى بينـة مقبولة ترخص له ، ولو حتى مجرد الاثبات فى وجود اى واقع أو حقيقـة ذات تسمية أعلى من تلك الموزعة والمنسوجة والمتدفقة فى تيار الواقع الذى نعوم فيه نحن البشر الفانين »(٣) فانه كان يضع تعويله النهائى على الجهاز الانسانى المختص بالاحساس أو ناقله . ونفس الحافز يظهر فى كل ضروب كراهات چيمس الفلسفية المألوفة . كان دائمـا يهاجم الشقشقة الكلامية والحرفية . وقال فى هذا الصدد : كم هو أجدى وانفع ــ قائمة طعام « وعليها بيضة حقيقية بدلا من كلمة (بيضة) . »

كان يكره التجريدات ، ويؤثر أن يكون مثل آجاسيز احد « الذين يعيشون فى ضوء الامتلاء والكمال والتمام المحسوس للعالم »(٤) .

وكان يبدو دائما كمن جرف الحقيقة بمغرفة كبيرة ورفعها بيده على امل أن يمسك بها حية .

وحيث ان اهتمامه كان منصبا على الواقع الماثل أكثر مما هو على الأسلاف والماضى ، لذلك كان قليل الاحتفال نسبيا بالأصول والتواريخ .

كان يرى أن سؤال « لماذا ؟ » ــ كان ان عاجلا أو آجلا سؤالا عقيما

(٣) W.B., 141; P.U., 213.

(٤) V.R.E., 500; M.S., 14.

لا جدوى منه ، وأن الجواب الأخير فى نهاية المطاف لابد أن يكون «ماذا» أو « كى » بدون « لماذا » .

وعنده أن العالم له سيماء نهائية ، ونغم ووقع ، ونكهة أو كيف ، وأن هذه السيماء بمجرد أن يفطن اليها وتفقه يجب أن تقبل كما هى . وكانت ميتافيزيقيته محاولة موصولة دائمة لفقه هذا الكيف النهائى .

ومن ثم فان ميتافيزيقيـــة چيمس تعكس الخصيصة الحســية التصويرية لعقله .

ولكن هذا التفسير ينبغى الا يؤخذ ببســـاطة مفرطة . فاللقــانة أو بصيرة النفس ، طبقا لبرجسون ، مباشرة ، ولكنهـــا لهذا السبب بالذات ، ليست سهلة المنال . وهـــكذا ، فى حالة چيمس فان خبرة چيمس الحقيقية بالواقع كانت عسيرة وغير عادية .

ان الرسام يخبرنا انه يرسم المنظر كما يراه ، وهذا يبدو لنا أمرا فى غاية البساطة ، حتى نكتشف أن عين الرسام وحـــدها هى التى تستطيع أن ترى حقا . شىء شبيه بذلك هو ما يحــدث فى حالة رؤيا چيمس الميتافيزيقية ، فثمة لحظات من حين لآخر ، عنــدما تستوعب الخبرة ويتم تذوقها بالتمام والكمال ، — فى نشوة صـــباح ندى يانع غض ، فى لحظات الألم والمعاناة ، فى أوقات لذة الانتصـــار بعد كفـــاح وجهاد عندما تكون النكهة نفاذة ، والرنين عاليا ، عندما تكون كل نغمة ونبرة وصدى وعزف حاضرة ماثلة . هذه هى اللحظات التى يمســك بها چيمس ويعض عليها بالنواجذ ويقف عندها ويقول : « هى . . . ذاك . الواقع شبيه بذاك » . ولكن عقولنا الدنيوية زاخـــرة بأفكار جاهـــزه موجودة من قبل ، وعندما نمارس الواقع فانه يكون عادة عليـــه خاتم هـــذه الأفكار القبليـــة . فعقولنا متعودة مختلف الطـــرق المختصرة « والتخريمات » العديدة ، وضروب الحذف ، وصنوف الاختصارات، وألوان الاختزالات التى تمليها الدواعى العملية للراحة ، وما يحذفه كل أولئك ويفوت عليهـــا ، فاننـــا عادة لا ندركه . ومن ثم فان الرؤيا الميتافيزيقية ، مثل رؤية الرسام ، تتضمن استعادة للبراءة والسذاجة وسلامة النية ، وامساكا بالزواغ والفرار ، ومدخلا لسرعة التـــأثر غير طبيعى .

والكيف الذى ينكشف لچيمس عندما يبلغ رؤياه الميتافيزيقية هو التعدى والاجتياز . فمن الخصائص المميزة للعقل فى عملياته الرتيبـــة

المطردة النسق أن يتمسك بنهايات المطاف ، بالأهداف الأخيرة ، ببلوغ المآرب ، بالخواتيم ، والفلسفة عادة تعكس هذه الخصيصة بأن تعالج الواقع على أنه ناتج تم انجازه ، وحصيلة أكملت . أو ، اذا ما ثارت على مثل تلك الكمالية ، فانها قد تقفـز من النقيض الى النقيض وتعلن أن الواقع ليس سوى مجرد سلب ونقيض للتمام . وكلا هذين الرأيين — في نظر چيمس ، مجردان وجدليان .

ولكن من الناحية الملموسة المحسوسة المقررة — عندما تنفـذ الى لبابه وتستشعره في صميمك وتفقهه وتغوص فيه — فان الواقع حركة من نهاية مطاف الى نهـــاية مطـــاف ، سعى في طلب مآرب وغايات وأهداف — ووصول الى نتائج وخواتيم . فالواقع في طريقه الى شيء . والواقع ليس هو محطة الوصول ولا نهاية المطاف ، ولا هـــو مجـرد الحركة ، وانما هو تلك الصفة المقررة المحسوسة ، والتي من المرجح أن تفوت على العقل التحليلي ، ألا وهي التغير الصوبي أو الفحوى . وهو لا هو شكل ولا مادة ، ولا هو مزيج من الاثنين ، وانمـــا هو طواعيـة وسلاسة حيث تكون المادة في عملية اتخاذ هيئة أو شكل أو صيغة .

بيد أن چيمس لم يخترع هذا الرأى لكى يلائم لزومياته النظرية — وانما كان ما فطن اليه وأدركه عنـدما خبر الخبرة ومارسها . ومن ثم نجد چيمس ، كلما قامت القريحة بعمل تمييزات وفروق ، يحاول أن يستعيد المحسوسية الفطرية ، ليس برص الفــروق والمميزات مـع بعضها بعضا ، ولكن باستعادة الأصل كما كان قبل أن تختار هذه الفروق وتفصل هذه المميزات وتعزل عن بعضها وترص الى جوار بعضها .

ولعل الفقـــرة التالية توضح لنا طريقة چيمس التصـــويرية في التفلسف ، ومحاولته لأن ينقل بكل اخلاص وأمانة ما وسعه الى ذلك السبيل ، الوجه المعروض مباشرة من موقف ما أو وضع ما ، وكذلك تلك الخصيصة العجيبة النادرة المثال من أسلوبه من التركيب والتلئيم التي تميز طريقته الفذة في رؤية الأشياء . ولقد وردت هذه الفقرة في معرض محاجته بأن الواقع ليس واحدا على الاطلاق ولا متعـددا على الاطلاق ، ولكنـــه تيـــار دافق تمتزج أجزاؤه وتتحد حيث تتماس وتتلامس ، ويحجب بعضها بعضا ، وتبعد بعضها بعضا ، حيث تزداد الأبعاد والمسافات والفواصل فيما بينها . وفي نفس الوقت نجده يحاول وصف علاقات الخبرات الخاصـــة للأفراد بالعـــالم المشترك الذي يعيشون فيه :

« لاول وهلة – اذا أردت أن تشبه عالم المثالية المطلقة بمعرض للأحياء المائية ، بكرة أرضية بلورية تسبح فيها الأسماك ، فيتعين عليك أن تناظر العالم التجريبى بشىء أشبه ما يكون باحدى تلك الجماجم التى يزين بها قبائل الدياك فى بورنيو مساكنهم . فالجمجمة تشكل نواة مركزية مجسمة صلدة ، ولكن الريش وأوراق الشجر والخيوط والخرزات والزوائد السائبة من كل صنف ووصف ، والتى لا حصر لها ولا عد ، تتدلى منها وتسبح من حولها – وفيما عدا أنها تنتهى فيها وتتحدد فى اطارها ، فانها تبدو أن لا شأن لبعضها ببعضها الآخر . وكذلك ، صحيح أن خبراتى وخبراتك تسبح وتتدلى منتهية ومتحددة فى اطار نواة مركزية من الادراك المشترك ، ولكنها فى معظمها خفية ولا علاقة لبعضها بالبعض الآخر ، ولا يمكن تصورها بالنسبة لبعضها البعض الآخر .. فالأجزاء البعيدة من العالم المادى هى فى كل الاوقات غائبة عنا ، ولا تشكل سوى مجرد موضوعات تصورية تدخل حياتنا نفسها فى واقعها الادراكى عند نقاط منفصلة قائمة بذاتها ونادرة نسبيا . وحول النويات المركزية الموضوعية للعالم المادى الواقعى ، المشترك جزئيا والمنفصل جزئيا ، فثمة عدد لا حصر له من المفكرين ، فى سعيهم فى دروبهم العديدة من التمعن الطبيعى الصحيح ، يترسمون طرقا ومسالك تتقاطع مع بعضها فقط ، عند نقاط ادراكية منفصلة غير مستمرة ، ولكنها فى بقية الوقت مخالفة ومغايرة تماما ، وحول كل النويات المركزية « للواقع » أو « الحقيقة » المشتركة ، مثلما هو الحال حول جمجمة الدياك التى استعرت تشبيهها آنفا ، تسبح السحابة الضخمة العظيمة من خبرات ذاتية شخصية بالكلية ، خبرات غير قابلة للاستعاضة أو الابدال ، خبرات لا تجد حتى عاقبة منتظرة لنفسها فى العالم الادراكى – وانما هى مجرد أحلام الأمانى واليقظة والمتع والآلام والآمال والرغبات الخاصة بالعقول الفردية . وهذه توجد – حقا – مع بعضـــها ومع النويات المركزية الموضوعية ، ولكن خارجها جميعا ، فمن المحتمل – أبد الآبدين – ألا يصطنع أى نظام تداخلى ترابطى من أى نوع » (٥) .

وبفضل فطنته كان چيمس ذا قابليـــة فائقـــة لتلقى الانطباعات . ولكنه كان يقابل انطباعات عند أبعد من منتصف الطـريق – ويتصرف بمقتضاها ويسعى اليها سعيا . وكان طبيعيا خفيف الروح حيـويا . وقال عن نفسـه « أنا قوة محركة وغير مهيأ أخلاقيا للعبة الصبر »(٦) .

وكان يقصد بذلك أولا أنه كان أحـد أولئك الذين « فى الذاكرة ، والتفكر وكل عملياتهما الفكرية » يفيدون من « الصور والأخيلة المشتقة من الحركات » بدلا من البصر والسمع واللمس .

ولكنه كان يقصد أيضا أن ذلك النمط الحركى من التخييل والتصور كان مرتبطا بالسرعة النسبية لرد الفعل .

---

(٥) E.R.E., 46-7, 65-6.

(٦) W.J. to Pauline Goldmark, September 14, 1901; L.W.J., II, 163.

ومن المستحيل قراءة وصف چيمس « للارادة المتفجرة » كمـــا يمثلها الرجل الذى « يتربع على عرش صحبه ، ويغنى كل الأغنيات ، ويلقى كل خطاب ، ويمسك بزمام الحفلات ، وينفذ الدعابات والفكاهات العملية ، ويقبل كل الفتيات ، ويعارك كل الرجال . واذا اقتضى الأمر ، يتصور كل مجازفة ويخاطر مستقتلا فى كل مشروع » ... دون حدوث نغمة تعاطف وجدانى وفهم من جانب الكاتب نفسه (٧) .

هذه الحيوية وخفة الروح ، وهذا التلذذ والطرب ، وهذه الشهية المنفتحة ، وهذا الاشتياق والحماسة ، ميزت چيمس من باكورة عمره ـ « كابن وكأخ » . لقد قالت أخته آليس ذات مرة أنه يبدو « أنه يولد من جديد كل صباح »(٨) . « لقد هبط من غرفة نومه راقصا ليرحب بى » ـ ذلك ما قاله أبوه يوم أن ذهب ذات يوم الى كامبردج فى سنة ١٨٨٢ لزيارته (٩) . وليكن معلوما أنه كان نبعا فياضا ومعينا لا ينضب،ولم يكن تيارا ذا أخاديد . ذلك أن النبع متقلب الأطوار فى فيضـــه ، يبعثر نفسه بنزق وطيش . والأمر الأخاذ المميز لچيمس لم يكن مقدرته على العمل ، وان كانت تلك المقدرة فائقة تدعو للاعجاب ، ولكن مقدرته على اللعب . فأيما شىء فعله ، كان يفعله بمقدار ومعيار ولكن دون حساب دقيق نيق لنفعه .

وكانت هذه الخلة ، أكثر من أى خلة أخرى ، هى التى أوحت الى الناس بعبقريته .

لقد كان فيه اثمار وخصب وسخـــاء واسراف وتدفق الى أعلى من أعماق خفيه تومىء الى منبع أصيل لا مجرد حيلة أو صنعة أو أداة .
بيد أنه كانت هناك أشكال خفيفة وطفيفة من حيـــوية چيمس ، وأشكال جدية وخطيرة الشأن منها .

كان يلبس أربطة عنق زاهية . وكان عنـــده روح دعابة وفكاهة فى أسمى مراتبها ، وكان عادة هو نفسه محركها الرئيسى . وكان له أيامه من الشعور « بالمرح والتلهى بصفة خاصة » ، ولكن قدرا معينا من المرح كان يتوقع منه فى أى وقت .

---

(٧) psycholoy, II, 61-5, 538.

(٨) A.J. to H.J. 2, June 3, 1888.

(٩) Cf. above, 25.

وعلى هذا نجده يكتب الى فلورنوى فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠١ ابان اكماله لمقرره الثانى من محاضرات جيفورد : « ان روح الأذى القـديم يستفيق فى صدرى ، وبدأت أحس قليلا كما اعتدت فى الماضى » .

وفى دوائر الأسرة التى انتمى اليها چيمس كان الضـحك من أبرز مظاهر نشاطها الرئيسية . ولم تكن موجات هذا الضحك وانفجاراته تبدد ابخرة الوسوسة وضعف الأعصاب فحسب ، وانما كانت ساحقة ماحقة لأى استكبار أو ادعاء كاذب أو تصنع أو تزمت أو عوج أو أمت . لقد كانت هناك النكتة والملحة ولكن النتاج المحلى لأهل البيت كان يتميز بالمرح والمجون واللغو المتقن الصنعة .

وفى أيام صبا چيمس ، عندما كانت تمثيليات الأحـــداث فى أوج ازدهارها ، كان چيمس نفسه ، طبقا لشهادة أخيه ، هو الذى يمدها « بالطاقة المحركة » ، ويهيىء الروايات الهزلية الجامعـة ويقوم بدور « النجم الكوميدى فى كل مسرحية »(١٠) .

وتتجلى طريقته فى السخرية من الناس ، بما فى ذلك نفسه ، وعبثه السار البار ، وفنه العجيب فى حب الكاريكاتير ، فى احدى رســـالاته لأسرته التى كتبها وهو فى سن التاسعة عشرة . وفيها يصف « مشهد أهل بيته كما يتصورهم وهم على وشك تناول العشاء » :

« أمى المسنة وقد جلل الشيب هامتها الفضية مستندة الى ذراع عزيزها هارى العفى المتين (ولكن المرن) وهو يملأ الجو ثرثرة ومرحا الى عنان السماء . ثم عمتى الخجول وقد استبد بها الحياء ، بجمالها الفطرى الأبد الذى لا تزال تكسوها مسحة منه ، ثم والدى المحتشم بجدائل شعره الأسود المتموج ، ثم روبرت اللطيف الأنيس الرفيع القدر، وآليس الغامضة المبهمة ، كلهم ينبثقون أمام ناظرى ، حشدا رائعا يحف به الجلال » .

ومن حسن الحظ ، أن بين أيدينا تقريظا له وزنه من أخيه هنرى ــ عن هذهالفقرة ــ عن « ملاحـة ما فيهـــا من تناقض غير مألوف » واستحضار كل صورة مألوفة باستدعاء عكسها الزاهى الساطع :

« فأمنا مثلا ــ لم تكن فى ذلك الوقت ، ولا بعد ذلك الوقت بأمد طويل قد جلل الشيب هامتها الفضية وكساها كل ذلك الوقار ، وكان والدنا الأنيق الرأس قد فقـد تداله ــ منذ زمان طويل ــ ففقد كل زهو خاص بجدائل الشعر الأسود فضلا عن تمويجها ، أما جمال عمتى المدهشة فكان لا يمت بسبب الى الفطرية ولا يحف بها كما ينبغى أن

---

(١٠) L.W.J., I, 305; S.B.O., 253.

يكون ، أما غموض وابهام ولغز شقيقتنا الصغرى فكان أبعد ما يكون عن الغموض والابهام واللغز ، وانما كان يتـآلف كله ــ وبشكل فاضح ــ من صراحة وافتضاح تفتحها الطبيعى وازدهار محياها ــ حتى مع ذكائها الوقاد فى نفس الوقت ، أما مرح هارى وصــخبه وثرثرته فيبدو أنها كانت تمثل عند الكاتب أشد ألوان الترجمة الساخرة لشىء ما فى ذلك الفتى يكاد يكون مناقضا لهذا الوصف ــ ان لم يكن مناقضا تماما . شــيئا نكدا ابكم ينطوى على المشاكسة والقلق » (١١) .

ان رسائل چيمس تزخر بالبينات الدالة على خفة روحه ومرحه والتنوع الخصب لنغمها وكيفها ووقعها ، ومن أكثرها دلالة فى هــذا السياق ــ بنوع خاص ــ السخرية اللذيذة التى تفيض بها رســائله المبكرة لأخته آليس ، وأخصها بالذكر تلك الرسائل التى كتبها فى الفترة الواقعة بين استشفائه فى تيبلتز ودراساته فى هيدلبرج عندما كان عمره ستة وعشرين عاما وكانت هى فى العشرين (١٢) ، أو الرسالة التاليــة التى كتبها بعد خمس سنوات من هذه الفترة وهو فى فلورنسا على أثر تلقيه لنبأ ولادة أول طفل لأخيه روبرتسون :

« تسلمنا ... من الوالد ... رسالة ... تعلن لنا أننا انجبنا ابن أخ . وعلى هذا فان الجيل الثالث من اسرة چيمس فى معمعان الحركة . نحن أعمام واخوال وعمات وخالات وجدات ... الخ ... وكلنا نستمد كياننا ومعاشنا من ذلك الســنخ الواحــد الشبيه بالدودة فى ويسكونسن . ويبدو لى أن الهرم يمضى فى الجهة الخاطئــــة ، اذ ينبغى ان يشير سهم الانتشار والتكاثر الى الأصغر بدلا من ان يكون الجذع أو الارومة التى تتفرع منها العروق أكثر عددا من الغصون » (١٣) .

وثمة ظاهرة أخرى من مظاهر خفة روحه ــ فى شكلها الأكثر جدية ــ هى حب الاستطلاع . كان چيمس طلعة . وكان عقله يثب ويندفع ويندلع كالطير الفريد . ومنذ صباه « عكف على اجراء التجارب الى درجـــة الادمان » حيث لم تكن هناك ، على حد تعبير أخيه هنرى « أية نتيجة لتجاربه مهما كانت لا يجد فيها لذة وطربا ــ على نحو ما » (١٤) .

---

(١١) N.S.B., 132-5.

(١٢) Cf. above, 86, 108; for other letters of the same period and in the same vein, cf. L.W.J., I,

(١٣) To A.J., December 11, 1873.

(١٤) N.S.B., 123.

ولقد كانت نفس هذه الحيوية الفكرية بالذات هى التى مكنتــه من التمتع بالجدة فى كل الوانها وصنوفها .

ومن الجلى أنه كان هو نفسه رجلا يثير الاهتمام والشغف ، ولكن الأهم من ذلك أنه كان يجد غيره ـ من الأشياء والأحياء ـ مثيرا للاهتمام والشغف وموجبا للمتعة .

وفى ذلك اليوم النحس من سنة ١٨٩٨ ، عندما أجهد نفسه فوق طاقته ، وأرهق صحته من أمرها عسرا فى جبال الاديروندداك ، صادف جماعة من الشباب تضم نفرا عديدا من بنات "Bryn Mawr" «يرتدين» كما وصفهن « سراويل الأولاد ، وقد نضحت جلودهن بالدنس الى أقصى درجة » .

ولكنه عاد فيما بعد واعتذر عن « الوقاحة » التى علق بهـــا على ملابسهن . ولقد كتبت احدى الفتيات اللاتى كن من ضمن تلك الجماعة فى تلك المناسبة فقالت :

« أذكر بكل وضوح وجلاء تلك المناسبة التى يشير اليها ، وما بدا عليه من ســحر وقوة وهو مائل أمامنا كالطود الشامخ ـ وضحكته المجلجـــلة يرن صداها فى مغـــرب (وليل) ذلك اليوم الطويل المدهش على سفح الجبل المكسو بالغابات ، وقد طفح بشرا ومرحا وتلقائية على السجية ، لدرجة أننى أتذكر ذلك الآن وبى غصة مردها الى أننى ما كنت أتصور أو يدور بخلدى عندئذ أنه كان يبهظ قوته ويرهق صحته من أمرها عسرا . أما « الوقاحة » التى يشير اليهـــا ـ فقد كانت فى نظره مدحا لا قدحا ... فى تلك الحقبة الفكتورية ـ أو الادواردية ـ من جراء لبسنا السراويل القصيرة . وانى لأذكر بصفه خاصة أنه جعلنا نشعر جميعا بأننا نمتطى صهوة التقدم ـ بقوله بشأن ملاءمة ملابسنا لتسلق الجبال : « أنا سعيد بأن حل ميقات هذا التطور وقدر له أن يحدث . أنا سعيد أننى عشت لأراه راى العين » (١٥) .

بيد أن التجديدات تتطلب تعديلات ، وهذا أمر يلقى نفورا واحجاما من العقول البليدة ، القاعدة الهمة ، المقيدة فى أصفاد العـــادة والنمط الرتيب ـ بسبب الجهد الذى تقتضيه . ولم يكن ذلك شأن چيمس ، بل على النقيض ، كان يتمتع بمثل هذا الانفاق الموصول للطاقة والجهد . واذا لم يأت التعبير ، كان يسعى فى طلبه ويخرج للبحث عنه والتماسه. وكان دائما فى حالة شروع فى جوب وكشف . كان دائما يباشر رحلات

---

(١٥) To A.H.J., July 9, 1898, L.W.J., II, 76; Edith Franklin Wyatt to W.J.'s son, Henry James.

كشفية . واسفاره ـ التى استهلت فى طفولته واصبحت جزءا جوهريا من حياته ـ كانت دائما رحلات للكشف ـ فى عالم جديد من الناس ، والأفكار والفن أو « الحياة » .

وعندما كان جسمه يظل فى مكان واحد ، كان عقـــله يسبح ويقوم بالرحلات والأسفار . كان « يجرب » الأشياء ـ غاز النتروس (المشبع بملح البارود) ـ mescal ، اليوجا ، راس السهام (Fletcherism) ، والعلاجات العقلية . كان يتخيل ويتأمل . وكان يكرم وفادة الفروض وينادمها ، ويداعب الأفكار ويوحيها . كان عقـله من فصيلة الحيوان الجواب الطواف لا النبات المغروس الضارب فى باطن الأرض بجذوره ، وكان يتطلب عنصرا يستطيع فيه مثل ذلك العقل الطليق أن يطير ويسبح ويتنفس ويجد غذاءه وقوته . فليس ثمة عجب أن نهـــاية مطـــاف فلسفته ، والطور الذى بلغ عنده أوج العلى ، الذى شغل نفسه به عندما دهمه الموت وغلبه على امره ، كان رؤيا « عالم آخذ فى النمو والازدياد حقا » ، عالم واسطة عقده الجدة المستمرة .

على أن مرح چيمس وخفة روحه وحيويته الفياضة كانت تجففها وتلطفها سجية أخرى تقابلها فيه وتناظرها ، الا وهى انسانيته الأساسية أو رقة قلبه وحنوه . كان يعجب بصفات روح المغامرة والعراك الجسور والكفاح الجرىء ، ولكن بشرط واحد فقط ، وهو الا يصاب من جرائها انسان واحد بأذى .

فأما القسوة التى يقال انها شرط للسمو فوق مصـــاف البشر ـ فكانت صفة يفتقر اليها على الاطلاق . كانت الانسانية صاحبة الكلمـــة العليا لديه فوق البطولة ، وهى صاحبة القول الفصل وحق الفيتو . أو بمعنى آخر ، كان النوع الوحيد من البطولة الذى يطيقه ـ فى نهاية الأمر ـ هو معركة بطولية ضد الوحشية وقساوة القلب وعدم الانسانية ، وبالمثل ، فان تلك الحيوية المزاجية التى كانت تفضى به أحيانا الى اتخاذ نغمة من السخرية والتهكم ، كانت دائما ، ومن المؤكد ، أن يعقبها ، ان لم يشبها شىء من تأنيب الضمير ينتهى بحـــالة من التلطيف والتليين يسيل فيها قلبه رقة وعذوبة .

ولقد كانت أخته ، ثانية ، هى أقدر الناس على اثارة هـــذا المزيج المألوف من المزاح والحنو ـ المتبل ـ فى هذه الحالة ـ بتلك اللمســـة المميزة من الحنين الى الوطن :

روما ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧٣

« جميلتى العذبة :

لا أستطيع أن أقاوم ، على الرغم من الاعتراضات القوية ضد افسادك وتدليلك بكثرة الرسائل ، التقاط قلمى ، فى هــذه الليلة المتلالئة عشية عيد الكريسماس ، وأسطر لك بسنه على قلبك الرقيق المحب بعض كلمات تنضح بالاعزاز والعاطفة واللطف . انك تبدين لى من هنا — فى غاية الجمال والذكاء والمعزة ، فى غاية كل شىء من كل شىء ، من كل ناحية ذروة ما يتطلع اليه أخ فى أخته واقصى مايتمناه لدرجة اننى لا أتصور اننى عندما أعود الى الوطن سأستطيع ان افعل أى شىء آخر سوى أن اطوقك وأقعد معك وذراعى حول خصرك ، أتوسل اليك أن توافقى على كل كلمة أقولها ، وأن تستحسنى كل عمل أعمله ، وتعجبى بكل شىء فى — كما أنا — والا تسخطى ابدا أبدا ولو لحظة واحدة . أما ما سأفعله من أجلك لقاء هذا الفضل ، فأنت لا أنا التى تقررين ذلك ، ولكنى آمل ان أكون عند حسن ظنك والا أحيد عن فروضك قيد أنملة . استطيع أن أتخيل الضوء الخافت فى المكتبة فى هذه الساعة ، وثلاثتكم وحيدون جالسون هنالك ترقبون الالعاب النارية ، وتتمنون بيتا أرحب وأوسع لتقضوا فيه تلك الليلة التى يدعونها بليلة عيد الكريسماس السعيدة البهيجة ...

استودع الله والدى العزيز وامى العزيزة ، والاولاد والعمة كيت — واعتقدى — وفقا لاصول الغرور — فى الحب الصادق لأخيك .

وليام »

ونفس هذه النغمة من الهيام العابث تبدو فى رسالة حررها چيمس بعد ذلك بخمسة وثلاثين عاما لبنت أخت زوجته روزاموند جريجور التى كانت عندئذ فى الثامنة من عمرها .

كانت المسز چيمس فى زيارة أختها فى مونتريال .

كامبردج ١٤ يناير سنة ١٩٠٨

« محبوبتى العزيزة روزى ماوث (ذات الشفتين الورديتين) (اذ كما تعرفين أن كلمة موند بالألمانية معناها فم بالانجليزية) .

ايتها العزيزة الفائقة :

فى النفاسة ،

والادهاش ،

والجمال ،

والعقل ،

والملائكية ،

والعمــل ،

والاعزاز ،

والطاعة ،
والجـــــد ،
والمثابرة ،
واللطف ،
والظرف ،
والموهبة ،
والفطنه ،
والخفر والحياء العذرى ،
يا لك من فاتنة ساحرة !!

كم كان جميلا منك أن تكتبى مثل تلك الرســـالة لعمك العجوز البالغ من العمـــر ٦٦ عاما ، وتجعليه يشعر كأنه عاد ثانية الى سن السادسة . اوافقك على قولك بأن اجامنون كان احمق ولكنى آسف لحبك لاخيل ، لانه لا يزيد على كلب صيد عادى ، ولا شىء فيه سوى العجرفة والتجهم والعبوس والحزن . لو استطعت أن أصـــفعه لاوسعته ضربا ولطما . آمل ألا تكثرى من قراءة هذه المعارك المطولة المملة السخيفة . وخير لك أن تكتفى بقراءة موجز لها . آمل أن تكونى متمتعة بصحبة عمتك آليس ، فتحت قسوتها الظاهرة نقطة لينة من الرقة الحقيقية تستطيعين أن تستكنى اليها . يؤسفنى أن الجو عندكم بارد جدا ولم يتعاون معكم فى الترحيب الحار بها . ولكن جو الربيع العزيز ــ عما قريب ــ سيأتى بطيوره وبراعمه وعشبه الأخضر وشمسه الســـاطعة . أنا سعيد ان أسمع من زوجتى أنك رائعة بارعة . حاولى أن تسعدى كل من حولك . قبلى والدتك العزيزة الآمنة نيابة عن عمك الشكس كالدبور . انها ذات روح عاليــة ونفس كبيرة تحب معالى الأمور وتكره سفسافها . وهذا أحسن ما يمكن أن يوصـــف به أى انسان ــ فيما عدا كل الأشياء التى قلتها عنك فى صدر هذا الجواب .

والآن ــ وداعا يا محبوبتى العزيزة روزى ماوث مع أرق التحيات لوالدك ولنفسك ،

و م . چيمس »

كانت هناك نكهة من الأنسانية المفرحة التى تثلج الصـــــدر فى كل كتابات چيمس ــ التى بالاضافة الى استقامة أسلوبه ــ أضفت على تأثيره فى القارىء لونا شخصيا بطريقة خاصة .

ومن ثم نجد قارئة بعيدة ــ لا تمت اليه بصلة ــ تقرأ مصادفة كتاب علم النفس ــ فيعتمل فى نفســـــها احســـــاس بالتحول شبيه بذلك الاحساس الذى اعتمل فى صـــدر هنرى چيمس الأكبر على أثر قراءته سويدنبرج . فلما تغلغل اعتقادها وايمانها فى أغوار نفسها ، أفضت به الى صديق لها لكى تشركه فى أمرها وتشد به أزرها :

« لقد قدر لى أخـيرا أن اتعرف الى عقل آخر كان مثل عقلى ــ مصابا بداء الشك والوسواس ، أذهلته الانكارات والسلبيات ، سغب من الفلسفات العقيمة البائرة .

بل مثلى ايضا ، تغذى هذا العقل الجائع بنهم على الحقائق المقوية ، وخرج منها بشجاعة جديدة وأمل جديد . ومن ثم فان روحين تواجهان الشروق معا وتعيشان مع البراجماتية ، ووليام جيمس من أجل كلمة السر ، وحيث كانت هناك أبعد أغوار الظلام ، يشرق ضوء النهار فى أوج اكتماله » (١٦) .

كانت حياة چيمس تمتاز بصداقاتها مثلما تمتاز بقوة روابطهـــا الأسرية . لقد كتب چيمس الى هويلز قبل موته بأسبوعين يقول له :

« ان ود المرء القديم وصداقاته الأولى ـ هى الجزء الخالد الباقى الحقيقى ـ من كل هذه الرحلة الطويلة « .

وكتب الى مراسل آخر : « حيثما كنت فأصـــدقاؤك هم الذين يصنعون عالمك »(١٧) .

وهذا هو الاحساس الذى يعزى اليه حجم مراسلاته .

بيد انه عندما كان معزولا ـ جسمانيا ـ من أصدقائه ، كان لابد أن يعيش فى صحبتهم على الرغم من ذلك .

لقد كانت صداقاته مع توم وارد ، ووندل هولمز فى السنوات الأولى، ثم بعد ذلك مع رينوفيير ، وهودجسون ، وهوويسون ، ودافيدسون ، وجورنى ، وروبرتســـون ، ومايرز ، وستامب ، ورويس ، ووارد ، وفلورنوى ، وبوترو ، وبرجســـون ، وغيرهم وغيرهم ، تتميز بالكيف والكم على السواء . لقد تقاسموا كلا الحب والاعجاب .

لقد كان هناك جماع فكرى ورفقة أخلاقية بالاضافة الى صلة ودية قلبية حارة وثيقة بين انسان وانسان .

وكانت علاقات چيمس الرسمية أو المهنية ـ مع الزملاء والأعـوان والطلاب والمعلمين والرؤساء الاداريين والمحررين والناشرين ـ سرعان ما تتحول مباشرة الى صداقات ، حيث يكون الرجل الانســان فى كل تلك العلاقات ـ عند چيمس ـ أكثر أهمية وحيوية من الدور المعين الذى يتصادف أن يجلب تلك العلاقة .

كان يأخذ بزمام المبادرة فى عقـــد أواصر الصـــداقات . كان

(١٦) M.T.M. (Mrs. Wade MacMillan), "The Pragmatic Test", Harper's Weekly, April 18, 1914.

(١٧) To W.D. Howells, August 10, 1910; to Pauline Goldmark. May 25, 1899.

صاحب قلب حار ، وما كانت به أى مادة عازلة . كانت عيناه تشعان بنظرة تنضح بالود والمحبة ، وما كان هناك من هو أعرف منـــه وأقدر على خطب ود الآخرين بترجمة حبه ووده الى كلمات شفوية أو مكتوبة .

ولم يكن يعترف بأى حاجز من حواجز العقيدة أو الجنس أو اللون أو السلالة ، حيث أن أشد ما فيه من تعصب كان تعصبه ضد التعصب ذاته .

كان يجد كل انسان تقريبا ــ موجبا للاهتمــام ومستحقا للعطف والود اذا ما أتيح له النفاذ الى دخائل نفوسهم . فأما حبه للناس فكان حبا مشوبا بالرحمة ومكيفا بآلامه وعـــذابه ، وقائما على المشـــاركة الوجدانية والاحساس بالزمالة ، ولكنه مقرون ببصيرة فطنـــة للنكهـــة الفذة الفريدة لكل شخص على حدة كفاية فى ذاته ، وباحترام للباطنية الذاتية المتبقية والتى يجب أن تتجاوز حتى أشد أنواع الفهم الوثيق نفاذا وقوة .

لقد كان حبا سخيا أهلا لكل ثقة وتعويل ــ حبا كثيرا ما كان يجد فى الطرف الآخر ما لم يجده الطرف الآخر فى نفسه حتى تلك اللحظـــة التى يمسه فيها چيمس بعصاه السحرية .

بيد أن چيمس كان يحب التنوع فى موضوعات حبه ووده ، وكان يحب كل موضوع على حدة ، بنوع مستقل من الشغف .

ومن ثم كان يحب زملاءه الأصغر لما يبشرون به من أمل ومستقبل . وفى هذا الصدد كتب الى جوليوس جولدشتاين ، طالب العلم الألمـــانى الشاب المغمور ، الذى تحدث معه فى أثناء مرضه الأخير فى ناوهايم ، قائلا :

« لقد كان من دواعى سرورى العظيم أن أقابل « عبقرية ناشئة » مثلك ، تمتحن جناحيها مثل « نسر يداعب الريح » (١٨) .

وكان يهش ويبش لأولئك الذين يسميهم النـــــاس « غير مأمونى العاقبة » ، أما لأنه كان يطيب له مذاق مزاجهم وجبلتهم ، وأما لمجرد الشفقة أو الرحمة التى كانت عند چيمس لا يغلبها غالب .

وكان من أشد الناس حبا للحيوان . وتاريخ الكلاب التى توالت

(١٨) June 22, 1910.

واحدا وراء الآخر كأعضاء من اهل بيت چيمس يمكن أن يؤلف فصـــلا قائما بذاته .

وفى سنة ١٨٩٧ اشترى جروا من فصيلة سانت برنارد كتب عنه فى ٢٦ ديسـمبر للآنسة بولين جولدمارك ما يلى :

« انه زهرة بنفسج ، قديس . لقد حملته معى الى هنا من بعيد بين ذراعى ، واشعر كأم حاضنة حياله . وسأصحبه معى الى كامبردج غدا فى عربة الأمتعة . فاذا شاءت ارادة الاقدار التى لا مرد لها الا تقوم علاقة ودية كاملة بينه وبين زوجتى واطفالى ، أو اذا قامت ترتب عليها تطور وجعى يؤدى الى مسخهم كلابا ، فهو لك فى يونيه القـــادم . انه كبير ، ذكى ، ذو فطنة اجتماعية ، ولكنه لا يزال (انا متأكد) القديس الذى هو الآن . وهو غير قابل للافساد أو التبذل — على الاطلاق . ولكن اذا تطور حب أطفالى له لدرجة أن افتقاده يكون شبيها بافتقاد امهم أو افتقادى ، فلا يغيبن عن فطنتك انه لابد ان يبقى معنا — وا أسفاه . واكبر الظن بل أقوى اليقين ان الاحتمال الأخير هو الأرجح » .

على أن عطف چيمس على الحيوانات يكاد يكون رد فعل بدنى .

لقد كانت متعته من اجتياز الجبال فى العربات التى تجرها الجياد تتلاشى الى حد كبير من جراء احساسه بالعطف نحو الجياد وهى تصعد المنحدرات الطويلة ، الأمر الذى كان يدفعه باســتمرار الى تخفيف حمولة العربة ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وعلى الرغم من أنه كان يعتقد أن الكلب فى المختبر الفسيولوجى — لا يتوانى عن « الاذعان الـدينى » ، اذا تســنى له أن يدرك جــدوى التجارب ، الا أنه كانت تنتابه فكرة أن هذا المعنى الخاص باسداء الخير فى المستقبل للآخرين — هو بالتحديد ما يجب أن يظل عــلى الاطلاق — فوق المعرفة التضحيية للضحية (١٩) .

كان چيمس يشعر بعطف حيال الكلاب وكان شـــديد التأمل فى حياتهم الباطنية ودخيلة نفوسهم . وكذلك كان يشعر بعطف حيال المعذبين فى الأرض ، والمغلوبين على أمرهم ، والمستضعفين ، وكان دائما فى صفهم أيا كانوا وأنى كانوا .

ومن الواضح أن المرء يستحيل عليه ان يكون مشايعا للمستضعفين دون أن يشارك المستضعفين فيما ينفرون منه ويكرهونه ويثقل على

(١٩) W.B., 58.

نفوسهم . وهذا هو المصدر الرئيسى لحزازات چيمس وما كان يعتمل فى نفسه من بغض أو كره أو نفور . كان چيمس يكره القســاوة وغلاظة القلب والفظاظة ، والانبســـاط الراكد ، والنفخة الكاذبة ومظــاهر الاستعلاء وضروب الاستكبار ، ولكنه كان يمقت القســوة أكثر من اى شيء آخر .

وعندما عرض « لمعضلة الجبرية » وكان يفتش فى ذهنه عن مثــال للشر الموغل الذى لا سبيل الى تخفيفه ، اختار احدى الجرائم التى ارتكبت وقتئذ حيث قتل رجل زوجته الوفية المحبوبة . فوحشية الجريمة ذاتها ، وعدم اكترات المجرم ورضاه عن نفسه ، والحكم المخفف الذى صدر ضده والذى لا يتناسب مع فظاعة الجرم الذى ارتكبه ، هذه كلها لم تثر اشمئزاز چيمس ونفوره وغله فحسب ، وانما لطخت عالمه بوصمة عار لا سبيل الى محوها .

انه لم يستطع أبدا أن يوطن نفسه على عبادة هذا الكون برمته . « ثمة شيء خاطيء فى العالم »(٢٠) وفى البرهنة على امكان تحول أو ابدال أو رد هذه التهمة ... كان عذاب البشرية مع القسوة أو الهلاك أو القدرية التى ابتليت بها .

« لا يوجد عزاء **كامل** . فالشر شر والالم الم ، وفى تحملنا للشر والالم صابرين فى البأساء والضراء وحين البأس بشجاعة .. فالشيء الوحيد الذى نستطيع ان نفعله هو الايمان بأن قوة الخير فى العالم لا تجريها من تلقاء نفسها بارادتها الحرة ، وانما تعمل فى ظل حدود وقيود مظلمة عويصة فهمها محال ، وأن فى وسعنا بصبرنا وحسن نيتنا أن نشد أزر هذه القوة — على نحو ما ونقوى يديها » (٢١) .

ومن ثم فان الطبقة السطحية الفلسفية لرقة قلب چيمس تظهر فى مذهبه التعددى — فى اعترافه بالمغزى الباطنى لحياة الناس كأفراد — فى كل ضروب اختلافها وتعددها غير المفهومة أو غير المعقــولة ، فى عثوره على بريق من النفاسة فى داخل كل خارج ممقوت أو كريه ، وفى ادانته — التى لا تلين ولاترحم على الاطلاق — لعدم الانسانية .

ولقد تحالف حياء چيمس وعفته وتواضعه مع رقته وحنانه ولين عريكته .

---

(٢٠) Author's notes in Philos. 3, December 12, 1896.

(٢١) To Mrs. Glendower Evens, May 24, 1886. Atlantic, CXLIV (1929) 375.

على أنه لم يخف سعادته وتمتعه بضروب التكريم والوان التشريف وصنوف التبجيل التى هطلت عليه بعد ذيوع صيته ، ولكنها لم تجعله مغرورا أو جبارا أو يداخله من جرائها احساس بالأهمية الذاتية .

وكان مغرما بالاستشهاد بقول جون لافارج بأن الشـــهرة تأتى لأولئك الذين ينتظرون صابرين ، وتزداد بنسبة نمو بلاهتهم المطرد .

بيد أنه لم يكن متواضعا بقدر ما كان ناسيا لنفسه ، ومرد ذلك الى انه كان دائم الاشتغال بغيره من الناس . ذلك — على الأقل — كاناتجاهه العقلى الصحى .

ولا مراء ، فى أن الشخص الشديد الاهتمام بما يرى وبمن يقـــابل ويلقى من الناس ، صاحب العقل الباسط — الذى يخرج — مثل هـــذا الشخص خليق بأن يكون تجريبيا فى فلسفته . فهو لا يعتبر نفسه ولا أيا من قواه العقلية كمصدر للحقيقة ، وهـــو ليس على يقين ابدا من نفسه بدرجة تبيح له أن يدعى نهائية النتائج التى يصل اليها ، وهـــو ينصت باحترام الى أحكام الغير ، وهو لا يفقد أبدا احساسه بأن ثمـــة مزيدا فى الطريق — من حكمة بنى جنسه ومن الكون المكتظ ســـــواء بسواء .

وليس من شك فى أن لطف معاشرة چيمس الذى بلغ حد الاعجـــاز كان مرتبطا بخفة روحه ورقته ، ولكن مما يجافى الصـــواب اذا عالجنا هذه الخصيصة كما لو كانت خلةثانوية .

ومما هو خليق به — طبقا لسجاياه وخلاله المعهودة فيه — أن يشير فى مقبل أيامه الى السنوات الثلاث التى قضاها كطبيب مقيم بالمستشفى فى سنة ١٨٦٦ على أنها فترة قيمة ، ليس بسبب ما تعلمه فى أثنائها عن علم الأمراض وطبائعها ، ولكن لأن « العلاقة الانسانية الدراميـــة » مع بعض الناس ساعدته فى سبيل فهم الطبيعة البشرية(٢٢) .

لقد كان شديد المقت للعلاقات الاجتماعية الجـــامدة ، المتزمتة ، المصطنعة أو الصخابة ، وكان يسعى الى تحاشيها ما استطاع الى ذلك سبيلا . ولكنه كان فى هذا التحاشى — كما لو كان شخصا ذا حساسية موسيقية لا يطيق اللحن النشاز فيتحاشى الموسيقى الرديئة .

أما العلاقات الاجتماعية التلقائية المخلصة الحارة فقد كان شديد

(٢٢) Talk with Professor Alexander Forbes, April 1, 1909.

الحب لها وموفور المقدرة على ممارستها عنـــدما تمضى على السجية بلا عوج ولا تصنع ولا أمت .

وعندما كان الجو الاجتماعى يطيب ويصفو ويصبح مواتيا ــ وكان چيمس عادة قادرا على أن يجعله كذلك ــ كان ينطلق فى الحديث شهيا طليا دافقا ، ومفعما بالدعابة والذكاء والحكمة ، وموجها اياه ــ بصفة شخصية جدا ، وبحسن نية جدا ، وبكل سلامة طوية ــ لأولئك الذين من حوله .

كان يعتبر المحـــادثة ضربا من الترويح الممتع قمينـــة بالتثقيف والتهذيب وخليقة بالحذق والمهارة كأى فن ــ ولكنهـا تتطلب الصراحة والصدق ، وصفاء النية وسلامة الطوية ، والاحساس الأخوى والمشاركة الوجدانية كأول شرط من شروطها .

والرسالة التالية ــ كتبت الى هاولز فى ١٩ مارس سـنة ١٨٩٤ بمناسبة كتاب تسلمه هاولز من معجب حمس بچيمس الأكبر (الوالد) :

« أنا مغتبط جـــدا اذ يصلنى نبأ قارىء آخر للمسكين العتيد هـ . ج . الذى قل قارئوه فى هذه الأيام الأخيرة الى درجة كبيرة ... وفقط بالنسبة « لأمريكى حقيقى واحد لا يخشى أى أمريكى حقيقى آخر » أخشى أن الوالد كان لابد أن يشخر وينخر على فقدان الحقيقة فى الفتوى . اذا كان هناك شىء أخشاه حقا فهو الأمريكى الجامد القلب الغليظ الحس الذى تلقاه فى الأسفار ، والذى لا يحفل بذلك الضرب من المحادثة الهينة اللينة التى تنغمس فيها مع كل انسان تلقاه فى أوروبا ، أما هنا فهى عنـد الأمريكى لا تنال الا الازدراء والازورار . بالأمس تناولت عشائى فى نيوبدفورد ، حيث هرعت الى هناك ابتغاء الراحة ، على مائدة يشاركنى فيها أربعة آخرون . ولقد جرع كل منا طعامه فى صمت ، وكان كل واحد يوجس فى نفسه خيفة ، خشية أن ينطق بملاحظة فجائية فيتلقاها الآخرون باحتقار ، أو تقع من نفسهم موقع الألم . ولقـــد عجبت أشد العجب فى الجنوب منذ عامين من جراء الحرج الذى سببته لكل انسان تحدثت معه على المائدة . كانوا يحولون وجوههم عنى ، ويشعرون بالحرج وعدم الارتياح ويعجلون بترك المائدة والرحيل . ان الحديث ينبغى أن يكون له موضـــوع « خطير » لكى يتحمله الأمريكى « الصميم » » .

ونفس الشكوى ظهرت فى رسالة الى فرانسيس بوت حررها له فى سنة ١٩٠٠ :

« اعترف بأن احد الاشياء فى الوطن ــ التى تجذبنى اليه أكثر من أى شىء آخر ــ هو تذكر ضحكتك ولطف عشيرتك الخالدة وروح دعابتك . فالحديث ــ بالنسبة لك ــ

متعة أساسية من مقومات حياتك . اما بالنسبة لبقية زملائى واترابى ورفاق اللعب ، باستثناء المسز هويتمان ، (٢٣) فالحديث ليس سوى وسيلة نفعية فقط ، وكثيرا ما تكون مملة ومتعبة وشاقة ، لغاية وراء مجرد الحديث .

والفقرة التالية المقتبسة من ذكريات أحد طلابه السابقين ، تومىء الى رغبة چيمس فى اقرار علاقة انسانية بدلا من علاقة رسمية :

« لقد وجـــدنا انه ما لم تتحـد مواقفه وتناهضها فان محاضراته ربما تجنح الى أن تصبح مملة ، فى حين أن التحدى والمناهضة والدعوة للنزال كانت كفيلة بأن تشحذ الومضات البراقة لذكائه ، مما يضفى على المحاضرة رونقا وبهاء ، ويجعلها مثيرة للاهتمام والشغف الى اقصى حد . وانى لأذكر جيدا كيف دبرت أنا وطالب آخـر مؤامرة ودية بحيث يقوم كل منا بالتناوب بالدور الخطير فى استثارة « الومضـــات البراقة » ، بأن نحاول التحرش به . وكانت لديه عادة غريبة فى ذلك الوقت ، وهى المرور على طلابه فى قاعات الدرس ، بدعوى أنه مجهد العينين ، ثم يسألهم أن يقرأوا عليه أوراق اجابات الامتحان ، وكان هدفه من وراء ذلك هو أنه فى حالة غموض اجابة ما أو افتقارها الى الوضوح والابانة ، فان ذلك يتيح فرصة جديدة لتفسيرها على الفور ، وكفى الله المؤمنين شر الامتحان . وأعتقد ، مع ذلك ، أن غرضه الحقيقى هو الاتصال الودى الوثيق ــ عن كثب ــ بالرجال » (٢٤) .

يتضح من هذا الوصف أن چيمس كان يفضل الحديث مع النـــاس ذوى الرأى المستقل ، والذين فى وسعهم أن يعطوا ويأخذوا فى آن .

ومن شوتوكوا فى سنة ١٨٩٦ كتب چيمس الى زوجتـــــه الانطباع التالى ، .. هذا الحكم الغفور السموح المعهود فى سجاياه ، على بعض الناس الوقورين الجـــادين الوديعين اللينى العريكة الذين احترمهم ، ولكنه لم يتمتع بصحبتهم أو يجد فيهم ما يروقه :

« لقد أدخلت كارها فى مجال غرور وخيلاء الجامعيين . فالدراسة الجـــامعية يقينا تزود المرء بالذلاقة وطلاقة اللسان والمرونة ، ان لم تزوده بالغيرة والعمق . لقد قابلت فى المدة الأخيرة عقولا فى غاية الغيرة والحماسة ، ولكنها فى غاية العجز ، بحيث ان الانتقال من فكرة الى الفكرة الأخرى المجاورة لها مباشرة يتطلب نصف ساعة ، وكل ذلك فى انين وتأوه وصريف لا نهاية لها . وعندما يبلغون الفكرة التالية فانهم ينيخون عليها بكلكلهم ، ويرقدون عليها بكل ثقلهم ، ولا يتزحزحون عنها قيد أنملة ، مثل البقرة عندما

(٢٣) August 9, 1900; Mrs. Henry Whitman of Boston and Beverly.

(٢٤) A.C. Lane, "The Trilemma of Determinism", Western Journal of Education, IV (1911), 161-8.

ترقد على وطـــاء الباب بحيث لا تستطيع الدخـول أو الخروج ، فيسدون الباب في وجهـــك . ومع ذلك فذلاقتهم ليست كل شيء . ان الثقـل شيء ... حتى لثقل البقر » (٢٥) .

هذه كلها ــ خلال چيمس الطبيعية الحميدة ــ فطنته ، وخفـــة روحه ، وانسانيته ، ولطف عشرته ــ اتحدت لتؤلف جاذبيتهالشخصية وسحره الفتان .

ولقد كانت هذه الخلال محفورة على وجهه ومجسمة في مظهـــره ومخبره وهيئته ــ في قامته المنتصبة الراسخة الرصينة ، في « عينيه الزرقاوين النزقتين » ، في صوته العذب الهمام الزاخر بالنخوة »(٢٦) . وفوق كل شيء في الثقة والود الصادق والمشاركة الوجدانية التي يوحي بها تعبيره .

كتب أحد طلابه يقول :

« ما زلت أتذكر بكل وضوح ... كيف اعتاد چيمس أن يصل الى الفصل وعلى راسه قبعته وفي يديه القفاز ولكن دون معطف في ايام شديدة البرودة ، وكيف كان يبدو انيقا وهو واقف كالطود الشامخ على حافة المنصة ، قائلا في نغمة عرضية وكأنه يتحدث حديثا وديا : « لا يوجد نشاط غائي اولي في البروتوبلازم » (٢٧) .

ان شخصية چيمس المشعة لم تبعث من حولها الحرارة والضـــوء فحسب ، وانما كانت تشعل النار أيضا ، بحيث جلبت له صـــداقات دائمة خالدة ، ودائرة واسعة من المعارف والقراء الذين كان اعجابهم ينضح بالحب والاعزاز . ولقد وصلت صفاته الشخصية الى قرائه كما بلغت ســـــامعيه ، ليس فقط بسبب أن كتـــاباته كانت مشبعة بتلك الصفات ، ولكن بسبب أن كتابته كانت موجهة الى قرائه كما لو كانوا اصدقاء أو معارف أو سامعين .

ومن ثم ، فان نفس الصفات التي تمدنا بمفتاح شخصية چيمس ومغناطيسيته الشخصية تفسر لنا أيضا أسلوبه . كان شديد العنـــاية والاهتمام بالصيغة الأدبية ــ في غيره وفي نفسه على السواء .

ففي سنة ١٨٩٤ في معرض الكتابة عن كتاب ستيفنسون « الحاطم Wrecker » قال چيمس :

---

(٢٥) July 24, 1896; L.W.J., II, 41.

(٢٦) L.W.J., I, 25; Letters of C.E. Norton, 1913, I, 264.

(٢٧) Daniel G. Mason to the author, November 21, 1929.

« يبدو لى أن المادة طغت عامدة على الصيغة وطفحت حولها . ثمة افراط فى الارتيادية ، تبدأ ثم لا تكمل ، فى الأحــــداث والشخصيات واللغة . يتعين على الأدب أن يخض مادته على مهل لكى يجعلها لدنة »(٢٨) .

على ان أكثر أنواع الكتابة تمييزا لچيمس وتمثيلا لخصـــائصه ، كانت المحاضرة أو الخطاب العام . فرجل بكل هـــذه الحســـاسية الاجتماعية مثله ، ما كان فى وسعه أن ينبس بمناجيات فردية فى حضور بنى جنسه ــ كان لابد أن يبلغهم ويلمسهم وينفـذ الى لبابهم ويحس باستجابتهم . ومن ثم فان كل ما كتبه بدأ كحديث . وكانت رســائله أكثر مهارة فى الصيغة والفن من حديثــــه (٢٩) . أما فيما يتعلق بكتاباته المنشورة فقد التزم فيها باشباع هذا الاقتضاء الاجتماعى ، وفى نفس الوقت تفسير مادتها بنسق رتيب مكتمل النظام .

ولقد اقتضى الوفاء بهذين المطلبين معا وانجاز هاتين النتيجتين فى نفس الوقت ، جهدا كبيرا من چيمس أرهقه من أمره عسرا .

كان يكتب ، ثم يصحح ، ثم يعيد الكتابة من جديد . « اننى أتعثر فى كل شىء أول الأمر ، ولكن بمجرد أن يتجسم الموضوع فى شكل غفل ، ففى وسعى ان أخز وأكز وأزغد وانطح وأحك وأسجل وأكشط وأربت عليه الى أن يصبح على الطبطاب »(٣٠) .

فاذا رضى چيمس عما كتب وراق فى نظـــره وأصبح أخيرا مقبولا لديه ، تناول مادته بالتوضيح وفى نفس الوقت أنسها وقربها الى قلوب الناس وأذهانهم الى أقصى درجة ، بحيث يستشعر فى قرارة نفســـه احساسا بالفهم المشترك وبالحديث الودى مع جمهور قرائه أو مستمعيه ويجد فى ذلك لذة لا تعدلها لذة .

وطبعا ، كانت تنتابه أوقات يسخط فيها على هذا الأسلوب . ففى سنة ١٩٠٨ ، عندما كان الأوان قــد فات لتغيير عاداته ، حتى لو كان ذلك ممكنا من الناحية المزاجية ، كتب ما يلى :

---

(٢٨) To Francis Boott, September 5, 1895.

(٢٩) "My letters, I find, tend to escape into humorisms, abstractions and flights of fancy". (L.W.J., II, III.

(٣٠) To Mrs. Henry Whitman, July 4, 1890; L.W.J., I, 297.

لقــــد تبين لى أن طريقتى الشـــخصية والخاليـــة من التكلف وخصوصا فى كتاب البراجماتية ، جعلتنى هدفا لمقت وغل عدد لا يستهان به من العقول الاكاديمية المحترمة ، ولقد برمت نفسى وتعبت من اثارة هذا الشعور ، الذى لا شك أن المزيد من المحاضرات العامة السائغة للجمهور ، ستزيد من حدته لا مناص » .

ولكن أسلوبه ، كقاعدة ، كان يمثل رأيه الشخصى ذاته فيما يجب أن يكون عليه الأسلوب الفلسفى . كتب مرة يقول : « انا لا احفـــل بأخطاء اللغة ولا أقيم لها وزنا ... بشرط واحد فقط ، وهو أن تكون اللغة ملائمة وسديدة فى نعتها ورشاقتها ونشاطها ووضوحها » .

ولقد حيا بابينى ورحب به بسرور بالغ ، ككاتب وجد فيه « بدلا من الثقل والتطويل والغموض ، الخفة والايجاز والوضوح ، مع عـــدم الافتقار الى عمق المعرفة » .

وبعبارة اخرى فان شرعة چيمس فى الأسلوب كان يمليها الاعتبار التام لقارئه والرغبة فى بلوغه والوصول اليه .

كان الملل والسأم وفقدان الشغف من ابغض الأمور الى نفسه وكان أخشى ما يخشاه أن يقترف هذا الاثم فى حق غيره . كتب مرة الى أخيه هنرى فى معـــــرض التعليق على كتاب برايس « الكومنولث الأمريكى The American Commonwealth » يقول :

« كتاب مشرب كالاسفنجة بالتعقل التام . ان المرء ليتوق الى صرخة ــ على أى نحو ــ توقظه من سباته » (٣١) .

على أن أسلوب چيمس ــ تقرر ايضا بحقيقة انه كتب كلا الفلسفة وعلم النفس بأسلوب انجليزى ادبى أو باللغة الدارجة المحكية . وفى هذا الصدد قال « ان الاصطلاحية الفنية ــ فيما يبدو لى ــ تنطق «بالفشل» فى الفلسفة » .

ولقد عرض على سانتايانا أن يوحدا جهودهما للقيام بحملة هجوم على « السبل التيبسية والخلقية المصاحبة للدكتوراه الأمريكيـــة فى الفلسفة P.H.D. » (٣٢) وليس من شك فى أن هذا الحكم بالادانة على

(٣١) To Th. Flournoy, January 2, 1908, L.W.J., II, 300-1; to Francis Boott, January 30, 1893, L.W.J., I, 341; C.E.R., 460-1; to H.J. 2, February 1, 1889.

(٣٢) To G.H. Howison, July 24, 1898, L.W.J., II, 79; to Santayana, May 2, 1905, L.W.J., II, 229.

الاصطلاحية الفنية كان يعكس نفور چيمس وعــــدم اساغته للمنطــق والرياضيات ، ولكنه كان يعكس أيضا اعتقاده بأن كل البحوث موجهة الى نفس الغاية ومتجهة الى نفس العالم ... المفتوح السهل المنال أمام الجميع ، وبأن هناك طريقا واحدا للمعرفة ، الا وهــــو سبيل الفرض والتحقق من صحته . فهناك « انسان يفكر فحسب ، سواء أكان بائع خضراوات أم عالما ميتافيزيقيا » . وليس ثمــة نوع غامض من الكينونة أو الحق وراء العــــالم المعروف . وانما هنالك فقط ذلك الشيء الذى نألفه والذى نغفله ونهمله أو نحتقره لأنه مألوف وشائع ويوجد المزيد من نفس الشيء (٣٣) .

ولكون الواقع يتميز بهــذه الخصيصة الوثيقــــة المألوفة ، ولكونه يكشف عن دخيلته وصميمه فى الخبرة الانســـــانية المألوفة اليومية ، فالأسلوب الملائم للعــــرض الفلسفى هو ذلك الأســلوب الذى يحيى المألوف ، ويوسع أفقه دون تغيير صفته الجوهرية .

وكان چيمس يشعر بكراهة عجيبة حيال ترجمات كتاباته . كتب الى فلورنوى فى سنة ١٩٠٠ يقول فى هذا الصدد :

« انه بلا شك ضرب من الوسواس والحساسية المارقة .. ولكنى أعترف أن ترجمات كتاباتى تبعث فى نفسى نوعا من الفزع ، وخير ما افعله هو ألا أتعاون على أى نحو . لم أقرأ صفحة واحدة فى الترجمة الألمانية لكتابى « المقالات » ، ولا فى الترجمة الايطالية لكتابى علم النفس » .

ولعل هذا الشعور كان راجعا جزئيا الى رغبته المعهودة فيــــه ، فى نشدانه الهرب الى شيء جديد يغاير ما شغل ذهنه مــدة طويلة وران عليه ، والى احساسه بالتواضع وخفض الجنــــاح بحيث لا يطيق أن يكلف انسان نفسه شططا بسببه .

بيد أن چيمس عندما كان يقدم المشورة فعلا لمترجميه ـ فانما كان يقدمها ليستحثهم على اخضاع دقة الأسلوب الأدبى للمعنى . فالمعنى أولا والأسلوب ثانيا . كان يريد أن تكون الترجمــــة الفرنسية لكتابه « الموجز فى علم النفس » ، مكتوبة بأسلوب بحيث يقرأ كما لو كان مؤلفا فى الأصل باللغة الفرنسية .

(٣٣) Student's notes in Philos. 3, 1896-7.

وعندما اعتزم فلورنوى ترجمة كتاب « الأنواع المختلفة للخبرة الدينية » كتب اليه قائلا :

« لك مطلق الحرية فى أن توجز ، وتخترع ، وتطنب وتفسر وتؤول بأية طريقة ، وعلى أى نحو يطيب لك ، ولكن بشرط أن تجعل القارىء الفرنسى راضيا قانعا » (٣٤) .

وهنا تلمس أيضا الحافز الاجتماعى الذى يرجحه على كل اعتبار آخر من اعتبارات الدقة اللفظية .

ولعل من أكثر كتابات چيمس دقة فنية فى الاصطلاحات تلك المقالات التى جمعت تحت عنوان « مقالات فى التجريبية الراديكالية » . وكان قد كتبها بغرض نشرها فى احدى المجلات الفلسفية لكى يقرأها زملاؤه من أهل المهنة . ولكنه قبل أن ينشرها اهتبل فرصة عرضها فى محاضراته الخمس ، أمام مدرسة دافيدسون الصيفية فى جلينمور فى سنة ١٩٠٤ : « لا لشىء الا لأعرف وقع هذه المادة عندما تعرض على الأسماع برمتها بهذا الحجم . ولقد وقعت على الأسماع موقعا غريبا . ولزام على أن أجعل وقعها أقل غرابة على العقل العادى » (٣٥) .

وصفوة القول أن چيمس لم يكن يكتب للأعقاب والخلف ، فضلا عن الخلود ، وانما كان يتحدث بصوت مسموع لأولئك الماثلين أمامه الذين كان يراهم رأى العين .

(٣٤) July 6, 1900; June 9, 1902.

(٣٥) To F.C.S. Schiller, September 4, 1904.

خاتمـــــة

لقد التقينا برجلين فى شخصية وليام چيمس : چيمس «النورستينى» الموسوس ، بتوازنه العصبى المقلقل الذى لا يستقر على حال ؛ وبخياله الجامح الذى لا ضابط له ولا رابط ، والذى يبلغ أحيـــانا حـدا من الاكتئاب النورانى الســــاطع ، بحيث يستنفد كل عجب ؛ وتتذبذب حالاته ومزاجه ، وبنفوره من الاجراءات العقلية المعقــدة . ثم چيمس الشاع المتألق البراق المرح الودود ، الموطأ الأكناف الذى يألف ويؤلف ؛ المؤنس فى عشرته وصحبته ، والزاخر بالحساسية الاجتماعية واعتبـــار الغير. والواقع أننا التقينا بچيمس ثالث ـ تأكدت فيه سجايا الشخصية الثانية وعمقت وأثرت وآتت أكلها أضعافا مضاعفة ، باتحادها وامتزاجها بسجايا الشخصية الأولى .

وتلقاء هذا الچيمس الثالث ينبغى أن نذكر مقالين جديرين بالذكر فى الكشف عن السريرة الذاتية ، أولهما كتب حوالى سنة ١٨٧٨ عندما كان چيمس فى السادسة والثلاثين من عمره :

« كثيرا ما عن لى أن خير طريقة لتفسير سلوك شخص ما هو البحث عن الاتجاه العقلى أو الاخلاقى المعين ، الذى عندما يحل به ، فانه يستشعر فى نفسه أقصى وأعمق حالات النشاط والحيوية . ففى مثل تلك الحالات يكون فى داخله صوت باطنى ينطق هاتفا « هذا هو أنا الحقيقى » ...

وبقدر ما يتسنى لى وصفه ، فان هذا الاتجاه المميز فى يتضمن دائما عنصرا من التوتر الناشط ، من الثبات والمحافظة على المركز ، يتوقع من الأشياء الخارجية ويستأمها على أن تؤدى دورها بحيث يكون فى حالة تناغم تام ، ولكن دون أى ضمان يؤكد أنها ستفعل ذلك . أوجد هذا الضمان ـ وستجد أن الاتجاه يصبح بالنسبة لوعيى راكدا وعديم الوخز. اسحب الضمان ـ وأنا أشعر (بشرط أن أكون فى حالة من العافية والقوة) بنوع من الغبطة العميقة الجياشة ، بمنتهى السعادة والنعيم ، برغبة عتيدة فى أداء عمل وتحمل أى ألم ، بحيث تترجم نفسها ماديا وجسمانيا على شكل وخز مؤلم داخل ضلوعى (لا تبتسم ساخرا من هذا الكلام ـ فهو عندى عنصر جوهرى فى الأمر برمته .) ، وهذا الوخز على الرغم من كونه مجرد حالة مزاجيـة أو انفعال ليس فى وسعى أن أحدد له شكلا أو هيئة فى كلمات

محددة ، يتأكد ثبوته لدى ، ويعتمد على أنه أعمق جوهر فى كل تصميم ايجابى ونظرى يعتمل فى نفسى على الاطلاق » (١) .

ولقد كتبت الفقرات التالية فى احدى مذكراته بعـد ذلك بخمسـة وعشرين عاما :

« كيف السبيل الى تسويغ التناقض القوى الذى أشعر به دائما .. الا وهو أن بعض التركيبات الفلسفية المعينة .. نزوات شخصية تنم عن الهوى ، عبقة بالذوق الفردى ، فى حين أن بعض التركيبات الاخرى ، تلك التى تعمل بالعناصر المحسوسة ، وبالتغير ، وباللاحتمية ، هى أكثر موضوعية وأكثر تشبثا بجبلة الطبيعة نفسها .. ماذا تعنى ، براجماتيا عبارة « الطبيعة نفسها » ؟ فى رأيى أنها تعنى غير المصنوع ـ غير المجلوب ـ حيث ان المصنوع أو المجلوب له خصائص جمالية محددة معينة اعافها ، ولا تترابط كمدركات حسية فى الغير الا على اعتبار أنها مسألة ذوق شخصى ـ وهى عندى ذوق فاسد .

ان كل الانشقاقات المتقنة المرتبة بتفرقاتها الدائمة والمطلقة ، والتصنيفات ذات الدعاوى العريضة ، والنظم المبرجة كأبراج الحمام .. الخ .. الخ .. تتميز بهذه الصفة .. ان كل « الكلاسيكى » الصافى الصرف والمجفف ، وكل « النبيل » ، الثابت ، « الخالد » .. فى نظرى ـ تخرق خصيصة الحياة والتعبير الذى تتمخض عنه ، أو على الأقل تتضمنه على اعتبار أنها كفاح موصول يتحدى كل المعادلات والصيغ الثابتة حيث ان الجدة والامكان .. تتسرب دائما من بين فروجها ..

ومن ثم فان برنامج مؤتمر مونستربرج (٢) ـ فى نظرى مثلا ـ يبدو مجرد دجل وادعاء فى معنى الخبل والافتتان بمعبود الكهف ، ضرب من العبادة الدينية أو الصلاة التى تقام تمجيدا لورشة الفلسفة المحترفة ، بهيئة أساتذتها وكلياتها وأقسامها وفروعها وآدابها الرسمية المتبادلة ، ومخصصاتها وأثاثها ورياشها ، وجهازها الضخم الجبـــار بمعصرة سلطاته ومحرماته وأوثانه والغاءاته ، وصنوف كبته وقمعه التى ينتظر من أفواه الحق الجبارة أن تغذى بها المجد الطبقى المؤثل لكل من يشتغلون بها ويعنيهم أمرها . وعندى أن « الحق » ، اذا كان هنـــاك أى حق ـ يبدو أنه يوجـد من أجل التخليط والتهويش والخلط قصدا وعلانية فى كل هذا الضرب من الامور ، وأنه يكشف نفسه فى همس موشوش « لمحبى الخير الوديعين » فى خلوتهم وعزلتهم ـ للداروينيين واللوكيين الخ .. الخ .. ولكى يكون مخالفا ـ مجاهرة وقصدا للأصول المتبعة وسميا . ان « الرسميين » نتاج لخبرات سطحية لا تتعمق الى أى طبقة عميقة منها ، ويبدو أن مؤتمر مونستربرج هو التعبير الكامل الذى لا مناص منه عن الملامح الرئيسية لمذهبه ، الذى هو بناء مصطنع

---

(١) To A.J.H., L.W.J., I, 199-200.

(٢) Written in 1903. "Munsterberg's Congress" was the "Congress of Arts and Sciences" held at the St. Louis Exposition in the summer of 1904. His Grundzüge der Psychologie, dedicated to W.J., appeared in 1900.

زائف من أجل جعله سلطة الأســاتذة موقوفة عليهم ، أيا ما كانت الغباوات والحماقات التى يفوهون بهــا : كما لو كان العقل البيروقراطى هو النكهة الكاملة لكشف الطبيعة عن ذاتهـــا .

ومن الجلى ، أن وجود فرق مثل هذا بينى وبين مونستربرج ، تعبير باهر للبراجماتية . فأنا أبتغى عالما من اللاحكومية ، فى حين أن مونستربرج يريد عالما من البيروقراطية ، وكل منا يلجأ الى « الطبيعة » لكى تؤيده وتكون له ظهيرا . والطبيعة تساعد كلا منا — جزئيا — وتقاوم كلا منا جزئيا » .

« فالتوتر الايجابى الناشط » ، والحيرة وعدم التثبت ، وانعـدام التكهنية ، والتكيف المرتجل على البديهة ، والمغامرة واقتحام المخاطر ، والتغير ، واللاحكومية ، وعدم الادعاء والتظـاهر ، وترك النفس على السجية الطبيعية — هذه هى صفات الحياة التى يجدها جيمس سائغة الى أقصى حد ، والتى تعطيه أعمق شعور بالرفاهة والغبطة . وهـذه هى فى نفس الوقت الصفات التى يعتبرها أكثر الصفات صحة وصدقا وثبوتا واعتمادا ، النبرات التى يتحدث بها اليه العــالم الموجود بأكثر الطرق مباشرة .

ويبدو جليا أن هذه البصيرة الميتافيزيقية ، بكل ما فيها من عمق مزاجى ، لا يمكن أن تعزى الى أى عنصر مفرد فى طبيعة جيمس ، سواء أكان كئيبا أم حميدا . فثمة مقدار من تبرمه وتململه فيها ، ومقـدار من تفضيله لغير العادى وغير المألوف وايثارها على الدارج والرتيب ، وهى الى حد ما طريقته فى الهرب من الجنوح الى الاستغراق الوبيل فى الذات ، حتى لا تصبح شغله الشاغل .

ومن جهة أخرى فهى تعبير مباشر عن خيــاله الابداعى السخى ، وانعكاس لخفة روحه ، والوجدانية الكونية الشاملة التى كانت تغمره بالطرب والسرور فى « الآخرية » المتنوعة والغريبة .

على أنه ما زال هناك جيمس رابع ، جيمس الخبرة والنظــام — تحويل للصفات الفطرية الى ميول ونزعات وعادات . ولعل المرء يعجب اذ يكتشف أن رجلا مثل جيمس صاحب الاهتمامات التأمليــة ، كان أيضا رجل دنيا يأخذ منها بأوفى نصيب .

فما كان جيمس مثل طاليس — المستعمل كمثـل — يستغرق فى غيبوبة وهو يتطلع الى النجوم ، وما كان واحــدا من أولئك الأغرار السذج المعروفين جيدا فى العالم الأكاديمى الأوروبى الذين يحتاجون الى وصى يدير شئونهم .

كان واعيا رشيدا يعرف أين يضع قدمه ، مالكا لزمام نفسه ، يقدر لرجله قبل الخطو موضعها . وكما قيل مرة عن أبيه : كان يعرف كيف يقترب من حافة عدم اللياقة دون أن ينزلق أو يهوى (٣) .

وعلى الرغم من نزقه وطيشه الى حد الجرأة والجســارة ، وعلى الرغم من ترخصه فى مسلكه فى القول والعمل ، وعلى الرغم من انه كان يجد لذة لا تخلو من شقاوة ومكر فى انزال قوارعه على المتحذلقين ومدعى العلم ، ومباغتتهم بالصدمات ، الا أنه لم يتخط أبدا حـــدود الذوق السليم ، أو اذا تخطاه ، فقد كان يعلم أنه يتخطاه . لقد أعطته تربيته وتنشئته ذلك الشعور بالطمأنينة الذى يسمح لصـــاحبه بالجـــرأة والجسارة من حين لآخر . ولقد أباح لنفسه هذا الأسلوب من الجرأة والجسارة والترخص مع اللغة الانجليزية ، ولكنهـــا كانت بلا ريب ، اجتراءات هو صاحب حقها الخاص ، تستمد سلطة معينة من حقيقــة انه أخذها أخذ عزيز مقتدر .

وكان چيمس يخالط الشخصيات الغريبة الشاذة ، ويلم بالعالم الفكرى السفلى من حين لآخر ، ولكنه لم يضيعاعتباره ، او يفقد مقامه، أو يحط من شرفه أو هيبته ، أو يعرض كرامته للهوان .

وصفوة القول ، فأمامنا رجل ، كان يبدو انه ينساق وراء نزواته ويرخى لنفسه العنان ، أو كان يبدو انه راغب فى أن يهزأ بنفسه ، ولكنه بسبب كابح باطنى لا وعيى لم يفعل ذلك أبدا فعلا . كان مبتكرا ، ومبدعا وتلقائيا ، ولكنه لم يكن شاذا أو « مريبا » أبدا .

ونحن ننظر الى چيمس كانسان يعتبر الأرض كلها وطنا له ، وقد كان كذلك ، بلا ريب ، فلقد بدأ أسفاره التى لم تتوقف تقريبا وهو فى سن الثانية ، وتعلم الاحساس بالألفة وكأنه بين أهله وعشيرته ، فى كل اقطار أوروبا الغربية . ولكنه فى نفس الوقت كان متعصبا لوطنه وقوميته بشكل خام جعل أصدقاءه الأكثر تحررا يشعرون باحساس من العزل المتعالى . لذلك كان من الخصائص المميزة لچيمس فى هذا الصدد ــ ان يكتب لنورتون عن انجلترا قائلا : « بلاد تتمتع بحالة من الحضـــارة فى غاية النفاسة والعظمة » ثم يضيف الى ذلك قوله « كل شىء هنا يبدو ضعف ما نقابله عندنا فى الحسن والجمال » ثم يشفع ذلك بعبارة «ولكنى

(٣) MS. report of G.H. Howison's "St. Louis Reminiscences", January 6, 1916, University of California Library.

اتوقع أننا بمرور الوقت سنكون أصحاب المستقبل الأكبر رغم ذلك كله».
ومن ثم فقد كشف بهذا القول كما قال نورتون عن دخيلة « أمريكيتـه المنيعة الحريزة » (٤) .

وموجز القول فعلى الرغم من أن چيمس طاف بالأقطار بكثرة ووفرة وسهولة ، وامتدت سياحاته وأسفاره بعيدا عن وطنه ، الا أنه لم يقتلع من جذوره أبدا . لقد ظل « قلبه » فى وطنه .

فالفطنة الاجتماعية ، والذوق ، والتربية الراقيـــة ، والاهتمام بالأمور المنزلية ، والوطنية ـ هذه كلها كانت بعض القوى الضـــابطة لديه ، التى دخلت فيما يمكن أن نسميه بضمير چيمس ، على سبيـــل التمييز بينها وبين الخلال الفطرية .

ويبقى بعـــد ذلك المكونان الرئيسيان لذلك الضمير : الأخـــلاق والفكـــر .

كان چيمس أخلاقيا فى المعنى القديم الخير للفظ ، كرجل يؤمن بأن الصواب صواب والخطأ خطأ ، وان الحلال حلال والحرام حرام. ولقد ألحق نفسه بالطائفة الأولى ـ طائفة الصواب والحـلال لكى يكافح الثانية ـ الخطأ والحرام .

« علموه أن ينتهج فى حيـــاته سبيل نعم ولا ـ نعم لكل شىء خير وطيب ، ولا لكل شىء شر وخبيث » . تلك كانت الرسالة التى بعث بها مرة الى أصغر أبنائه (٥) .

على أننى لن أقتفى أثر هذه الأخلاقية الى مصدرها . ومن الطبيعى أن تعزى الى أصول أجداده الكالفينية ، وان كان مثل ذلك التفســير يفقد كثيرا من قوته اذا علمنا ان أباه ـ المجسم المباشر لذلك السلف ـ كان فى ثورة مضادة لكل قوانين وشرائع الكالفينية .

ولعـــل ما هو أهم من مســـألة العقيدة حقيقـة أن أباه كان من الصالحين ، كان رجل تقوى وخير ، وكان مواليا للأخـلاق ، ثم كانت هناك صورة ماثلة أمامه من القداسة المتعلقة بالأم ، بحيث انه اذا أمكن القاء ضوء أكثر وضوحا ، لفسرت الكثير من أخلاقيته بلا شك .

---

(٤) Letters of C.E. Norton, 1913, II, 412.

(٥) To his mother-in-Law, Mrs. Eliza P. Gibbens, August 2, 1899.

ومن الجلى أيضا ، أن ثمة احســـاسا بالســـيرة ، مرتبطا بتلك الضوابط الكابحة من الذوق والتربية التى سبق التنويه بها ، جعلتـه ينزع الى تقبل المعايير الأخلاقية التقليدية .

ولقد عززت عواطفه الانسانية حدة احساسه الأخلاقى وشدت من ازره — حيث ان الأخلاق عند چيمس كانت تترجم الى انســـانية فى نهاية الأمر .

على أن قوة أخلاقية چيمس يقوم الدليل عليها بحقيقة أنها رجحت على اعتبارات الصلة الوثيقة الحارة للصداقات القديمة ، وأنها حالت بينه وبين أن يصبح أبدا مجرد عالم نفس أخلاقى ، كما كان من المتوقع أن يكونه من جراء اهتمامه وشغفه بتاريخ العقل وعلله . ووضعت حدودا لشغفه بالحياة ، بل أحيانا لتسامحه ، وانتصرت قطعا على حساسيته الجمالية ونزعته الفنية . وكانت لها الكلمة العليا أخيرا .

بيد أن الأخلاقية ليست سوى اسم واحد لجدية چيمس الأساسية . فبكل ما فيه من مرح وطرب ومزاج ومداعبة ، فاق معظم معاصريه فى احساسه بالمسئولية والتبعة . ولقد رفض أن يلجأ الى أية وسيلة ، من الوسائل المعروفة جيدا بين الفلاسفة ، التى يسوغ بها المرء تركه للحلبة واتخاذه مقعدا بين المشاهدين :

« ليس فى وسعى أن أروض نفسى ، كما يتسنى للكثيرين من الناس أن يفعلوا ، على أن أحجب الشر عن نظرى وامر عليه مر الكرام . فالشر حقيقى وواقع كالخير سواء بسواء ، واذا انكر الشر ، فيجب انكار الخير أيضا . لذلك يجب الاعتراف به وقبوله ومقته ومقاومته ما دامت بين جوانحنا أنفاس تتردد » (٦) .

وصفوة القول ، وعلى خلاف جيل لاحق ومضطرب ومتلعثم ، جمع چيمس بين التحررية والتسامح والانسانية ، مع عزم بأن هذه المبادىء ينبغى أن تسود ، ورزقه وعونه على الله .

وكان لچيمس ضمير فكرى مثلما كان له ضمير أخلاقى . وكان عنده اعتبار ، يكاد يبلغ التبجيل للحقائق .

وفى باكورة أيامه كطالب علم فى هارفارد ، كان جيفريز وايمـان بتشبثه المدقق المتواضع المقسط لنتائج الملاحظة ، لا لويس أجاسـير بعقله التعسفى الجرىء ، هو نموذج الكمال العلمى عنده .

---

(٦) To H.J.2, May 7, 1870; L.W.J., I, 158.

وكان أبطاله من الفلاسفة دائما رجالا من طراز رينوفيير أو ميل الذين كان يعتقد فى شرفهم ونزاهتهم وخلوهم من الغرض ، بمعنى أنهم يقررون باخلاص ما يجدونه وينتهى بحثهم اليه .

ولم يكن يعترض على الاختراع أو التفكير الراغب المتمنى ، ولكنه كان يعترض فعلا على ادعاء أنها شىء خلاف ذلك . وكان تجريبيا لأنه آمن بأن التجريبية هى الفلسفة الوحيدة الأفق والمفتوحة ! وهى الفلسفة الوحيدة الصريحة الصادقة .

اما ضميره الفكرى فيتجلى فى سعة اطلاعه ولوذعيته الفسيحة ، وفى مثابرته واجتهاده وكده التى لا تكل ولا تمل ، وفى الصبر الذى كان يكظم به قلة صبره وجزعه ، وفى السنوات العديدة التى كان يكرسها لفك عقدة فلسفية . ولقد اقتضى الأمر منه زهاء عشر سنوات لكى يجيب عن حجة رويس الخاصة بالمطلق ، وزهاء عشر سنوات أخرى لحل مشكل مركب الوعى .

وقبيل وفاته ، كان قد حنث بقابلياته المزهوة بالقوة الى الأبد لكى يرضى الشكوك الفكرية التى ساورته « والعقول الأكاديميـــة المحترمة » لزملائه (٧) .

وحمل چيمس الفلسفة ، كما حمل الحياة — على محمل الجد . وشعر بأنها مثل شعر المأساة ، كانت تتميز بنبل موضوعها .

فالفلسفة عنده لم تكن ضربا من اللهو أو العبث أو اللغو أو الصناعة الماهرة ، وان كان فى وسعها أن تضيف هذه القيم الى ما فى حوزتها .

كانت الفلسفة عنده سعيا فى طلب الحق . والحق لا يستحق أن يسعى فى طلبه ما لم تؤمن أيضا بما تفهم وتدرك . فبالايمان والعقيدة يملك الانسان الحق ويحوزه ، ويمتص ما فيه من عناصر غذائية . ومن ثم ، نجد أن چيمس كان فى فلسفته من المعتقدين المؤمنين ، وكان يجيش بحماسة المبشر المؤمن ويصدر فى كل ما يقول ويفعل عن هذا الحافز .

وعلى هذا ، كتب مرة الى زميل له من التعدديين يقول : « يجب علينا جميعا أن ننهض للعمل لمقاومة وصد الواحد المطلق ، الذى يمضى مطلق السراح فى الميتافيزيقيا بكل حرية وسهولة ، وفى مرجوى أن تؤدى دورك بهمة ونشاط » (٨) .

---

(٧) Above, 353, 382.

(٨) To James Ward, May 13, 1897.

ثمة غيرة ساذجة بسيطة فى هذه الذريعة التى هى جوهر چيمس . فقوته فى الفلسفة ، وعلى الفلاسفة ، كان مرجعها ، الى درجة ليست بالهينة ، الى تعاليمه بأن المرء يجب أن يسهم نظريا ، وكذلك عمليا ، وأن يؤدى دوره ويوفى بقسطه ، مؤمنا بشىء ، ومجاهدا من أجل ما يؤمن به ، متجشما خطر أن يكون مخطئا .

وبكل هذه الحماسة والغيرة والوعى والسعى وقوة الاعتقاد ، لم تكن تشوبه شائبة من الرضا والقناعة بما هو كائن . كان دائما يترك فى الناس فكرة أن هناك مزيدا ، وأنه يعرف أن هناك مزيدا ، وأن هذا المزيد الآتى — اذا أقبل ، على الرغم من كل ما نعرف وما ندرى ، قد يلقى ضوءا مختلفا جدا على المسائل المطروحة على بساط البحث .



هذا الكتاب

هذا الكتاب معروف لكل مشتغل بفلسفة وليام چيمس ، فمؤلفه من الأئمة بين أساتذة الفلسفة فى الولايات المتحدة الأمريكية ومن أقرب المقربين الى وليام چيمس ، فقد تتلمذ على يديه وأحبه وتعمق فلسفته .

والكتاب يتناول حياة وليام چيمس وشخصيته . ويعتبر فى حد ذاته مرجعا هاما فى هذا الموضوع ، فلقد عولج معالجة فيها اصالة ، لأنها استندت الى رسائل وليام چيمس ، ونشر فى ثنايا الكتاب كثير من هذه الرسائل ، مما جعل الصورة فى النهاية تجىء بالغة الدقة ونابضة بالحياة .

ولا شك فى أن القراء سوف يرحبون بهذا الكتاب لا لأنه يعطيهم صورة حية لشخصية وليام چيمس فحسب ، ولكن لأنه يعطيهم أيضا صورة رائعة لحقبة عظيمة مليئة بالفكر الخصب والرسائل الأدبية فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وهو بهذه المثابة يعتبر اضافة قيمة للمكتبة العربية .





الثمن ٨٥ قرشا

الدار القومية (مصر
سنة ١٩٦٥